مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامِسُ والخَمسُون

سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الخَامِسُ والخَمسُون

سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَع القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 1-89-659-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 1-89-659-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

طريقة الكافرين واحدة في كثرة ظهور البيّنات عندهم وكثرة اختلافِهم فيما بينهم بغيًا وحسدًا

لمّا عُلِمَ بهذه الحِكَمِ ما افتتحت به السّورة من أنَّ منزِّلَ هذا الكتاب عزيز حكيم، فكان التَّقدير فذلكة لذلك: لقد آتيناك الكتاب والحكم والنُّبوَّة، وفضَّلناك وأمَّتك على العالمين، وأرسلناك؛ لتنبِّه النّاس على ما أمامهم، وكان قومه بعد ائتلافهم على الضَّلال قد اختلفوا بهذا الكتاب الَّذي كان ينبغي لهم أن يشتدَّ إجماعهم به واستنصارهم من أجله؛ عطف عليه قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآيةَ؛ ليكون تسليةً لرسولِه ﷺ[1].

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى عن الكافرين استكبارَهم واستهزاءَهم بآياته مع إحسانِه تعالى إليهم وتوالي نعمِه عليهم؛ أخبر أنَّه تعالى أنعم بنِعَم كثيرة على بني إسرائيل، وأنَّهم قد آتاهم الكتاب والحكمَ والنُّبوَّة مع أنَّه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآيةَ، والمقصود أن يبيِّن أنَّ طريقة قومِه كطريقة من تقدَّم، فلا يأسى على القوم الكافرين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾: أصلُ (حكم) يدلُّ على المَنْعِ، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ من الظُّلم، وكلُّ شيءٍ منعتَه من الفسادِ؛ فقد حكمتَه، وأحكمتَه[3]، وهو أيضًا: القضاءُ والفَصْلُ، تقولُ: حكمتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 83.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

بينهُما؛ إذا قضيتُ، ويأتي بمعنى الشَّيء الحسَن المُتقَن، والجمع أحكامٌ، والحِكمةُ: مَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، ويقال: أحكَمَتْه التَّجارِبُ؛ إذا كانَ حكيمًا[1]، والحَكِيمُ: المُتقِنُ للأُمور[2]، والمراد بالحُكم في الآية: الحِكمةُ، أي: الفهْمُ في الدِّين وعِلْم محاسِن الأخلاقِ، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم: 12]، ويَصِحُّ أن يكون بمعنى السِّيادة[3].

2) ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾: أصلُ (فضل) يدُلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، مِن ذلِكَ الفضلُ: الزِّيادَةُ في الشَّيءِ[4]، سواء كان محمودًا أو مذمومًا، واستعمالُه في المحمودِ أكثر، يُقالُ: فَضَلَ الشَّيءُ فضلًا، أي: زاد، وضِدُّه: النَّقْصُ[5]، والفضلُ: الشَّرفُ والخيرُ والرِّزْقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شرَفٍ وخيرٍ، والإفضالُ: الإحسانُ، والفضائلُ: خصالُ الخَيْرِ، ويأتي الفضلُ بمعنى بقيَّةِ الشَّيءِ، والجمعُ: أفضالٌ[6]، والمُرادُ بالتَّفضيل في الآية: إعطاءُ الفضل، أي: إنَّ اللّه تعالى جمع لبني إسرائيل بين استِقامة الدِّينِ والخُلُقِ، وبين حُكْمِ أنفسهم بأنفسهم، وبَثِّ أصول العَدْل فيهم، وبين حُسْنِ العيش والأمن والرَّخاء[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تنوُّع النِّعم على بني إسرائيل حتَّى فضَّلهم الله تعالى على عالَمي زمانِهم

يُخبِرُ اللّهُ تعالى أنَّه قد آتى بني إسرائيل ما لم يؤته أحدٌ من الأمم، فيقول سبحانه: ونقسم لقد أعطينا بني إسرائيل التَّوراة والزَّبور والإنجيل والقضاءَ بين النّاس والحكم بما في هذه الكتب، والنُّبوة المُعْطاةَ من عند اللّه؛ إذ أرسل فيهم كثيرًا من الأنبياء عليهم السلام؛

(1) الخليل، العين: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(3) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 149، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

لكثرة أمراضِهم الخلقيَّة وشدَّة مُخالفتهم، ورَزَقهم مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وفضَّلهم على عالَمِي زمانِهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

كــل الـكـتـب السماوية؛ آمن بها قـوم، وكفر بها آخرون

جاءت جملة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على طريق الوصل بالواو؛ لتكون معطوفةً على ما قبلها من عطف الموضوع على الموضوع والقصَّة على القصَّة، فإنَّه تعالى لمّا أخبر عن مكذِّبي أهل مكَّة ما فعلوه حينما نزل فيهم القرآن من الكفر والاستكبار والاستهزاء بآيات اللّه، وكان هذا ممّا يُحزنُ رسول اللّه ﷺ عطف عليه ما وقع لبني إسرائيل حين آتاهم الكتاب والحكم والنُّبوَّة؛ ليكون العطف من قبيل التَّمثيل لأمرِه ﷺ، أي: كما آمن بكتابك قومٌ، وكذَّب به قومٌ، فكذلك كتاب موسى آمن به قوم، وكذَّب به الكثيرون مع ظهور البيان وكثرة الأنبياء فيهم، فاشترك المعطوف والمعطوف عليه في الجهة الجامعة، والمقصود تسلية رسول اللّه ﷺ؛ لكيلا يأسى على كفر الكافرين وإنكارِهم.

دلالةُ تتابع التَّأكيدات:

تـأكـيـدُ تـنـوُّع الـنِّـعَـمِ على بـنـي إسـرائـيـلَ مـع فخامتِها واختلافهم

تتابعَ التَّأكيد في الآية؛ فأكَّد الخبر بلام القسم و(قَد) في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لتقرير أنَّ اللّه تعالى قد آتاهم المذكور وتأكيده، وسبب هذا التَّأكيد تنوُّع هذه النِّعم مع جلالتها و عظمتِها وفخامتِها بما لا يقبل الشَّكَّ ولا الإنكار، ولَمّا كان الكلام القصد منه تسلية رسول اللّه ﷺ والمؤمنين والاعتبار بأحوال الأمم الماضية القريبة منهم؛ حسُنَ تأكيد الخبر، فمصبُّ هذا التَّأكيد والتَّحقيق هو التَّفريع في قولِه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: 93]؛ تأكيدًا للمؤمنين

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 84، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 776، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 282.

بأنَّ اللّه تعالى يقضي بينهم وبين المشركين كشأنِه فيما حدث بين بني إسرائيل وأنبيائِهم[1].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ءَاتَيْنَا﴾:

تتنوَّعُ المقاصد والمعاني في التَّعبير بلفظ الإيتاء دون الإنزال

عبَّر بلفظ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ دون الإنزال، أي: دون أن يقال: (ولقد أنزلنا)؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ أنَّ النِّعم الَّتي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل وصلتهم، ثمَّ بيان أنَّهم لم يشكروا جميعهم هذه النِّعم حقَّ الشُّكر، فكان التَّعبير بلفظ الإيتاء أقضى للمقصود، كما أنَّ الإنزال فيه تشريف لهم، والمقام مقام توبيخ وتعجيب من حالِهم، كما أنَّه لم يقل: (ولقد أعطينا)؛ لأنَّ الإيتاء فيه دلالة على سهولة الحصول، بمعنى: أنَّهم لم يتكلَّفوا في الحصول على النِّعم التي آتاهم اللّه إيّاها، وفي التَّعبير بلفظ الإيتاء إشعار بالقوَّة في إثبات الكتاب و الحكم والنُّبوَّة لبني إسرائيل؛ لأنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات المفعول الثاني للمفعول الأوَّل الذي هو الآخذ في المعنى، وأيضًا في التَّعبير بالإيتاء دلالةٌ على عظم النِّعم وجلالتِها، فأكثر استعمال الإيتاء في جلائل النِّعم، كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: 269]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، فكان الأقضى لحقِّ البلاغة استعمال ﴿ءَاتَيْنَا﴾ دون (أنزلنا).

بلاغةُ الالتفات في الضَّمائر:

تذكيرٌ بنِعَم بني إسرائيلَ الَّتي فضَّلهم الله تعالى بها على العالمين

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ التفاتٌ في الضَّمائر مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم، فقد سبقها قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، والعلَّة في ذلك هي التَّسجيل عليهم بإيتاء اللّه لهم هذه النِّعم وتولّيها بنفسه، ولكنَّهم ما رعوها حقَّ رعايتها، وفي هذا مزيدٌ من النَّعي عليهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 344.

نكتةُ التَّعبير بالماضي ﴿ءَاتَيۡنَا﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ للإيذان بتحقُّق إتيان هذه النِّعم العظيمة لبني إسرائيلَ وحصولِها عندهم.

بلاغةُ إسنادِ الأفعال إلى ضمير العظمة:

التَّعبير بضمير العظمة في سياق ذكر النِّعَمِ يومئ إلى وجوب المبادرة إلى القيام بحقِّ شكرِها وتعظيم منعمِها

أُسنِدت الأفعالُ إلى ضمير العظمة في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ و﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾ و﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعار بعظم هذه النِّعم، وأنَّه تعالى قد آتاهم هذه النِّعم، ورَزَقَهم إيّاها، وفضَّلهم على العالمين بما له من العظمة والقدرة الباهرة، فلا يقدر على فعلِها إلّا الملك الواحد الأحد، ففيه من عظيم الامتنان ما فيه، كما أنَّ التَّعبير بضمير العظمةِ في سياق ذِكر النِّعم يومئ إلى وجوب المبادرة إلى القيام بحقِّ شكرِها وتعظيم منعمِها.

نكتةُ التَّعبير بالعنوانِ النَّسبيِّ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

بنو إسرائيل خالفوا نبيَّهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينتسبون إليه

في الإضافة إلى إسرائيلَ في قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تذكيرٌ لليهود بذِكر نسبتِهم لهذا الأصل الطَّيّب، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرَّحمن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ للإشعار بأنَّهم لم يقوموا بحقِّ الشُّكر على هذه النِّعم، كما قام بها نبيُّهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّهم قد خالفوا نبيَّهم الذي ينتسبون إليه، لاختلافِهم بغيًا بينهم بعد إيتائهم البيِّنات الواضحات، ففيه تقريرٌ لتسلية رسول اللّٰه محمَّدٍ ﷺ لمخالفة المشركين من قومِه له، فإنَّه مع نسبتِهم إلى إسرائيل (يعقوب) عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي له منزلةٌ عظيمة عند ربِّه، فإنَّهم نقضوا العهد، واختلفوا، وكذَّبوا، والمراد من ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اليهودُ؛ لأنَّهم الموجودون حولَ المدينة في عهد نزول القرآن، والمقصود: التَّمثيل بما جرى لبني إسرائيل من النِّعَم العظيمة المتوالية وما جرى منهم من المخالفات في عهد موسى رسول اللّٰه عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعده.

الغرضُ من تقديم ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

قُدِّم المفعول الأوَّل ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على المفعول الثّاني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فجاء ترتيب الكلام على مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المفعول الأوَّل، أي: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو الآخذ، فهو الفاعل في المعنى، والمفعول الثّاني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وما عُطفَ عليه هو المأخوذ، فهو المفعول في المعنى، وجعل إتيان الكتاب إليهم مع أنَّه في الأصل لنبيِّهم موسى عليه السلام بالإنزال إليه ولكونِه مأمورًا بالتَّبليغ والعمل بما فيه، لكنَّهم لمّا كانوا مأمورين بالتَّعبُّد به، وكان الإتيان بالكتاب نعمةً عظيمةً عليهم، والمقام مقام بيان عموم الفضائل، والنِّعم الَّتي أنعمها اللّه تعالى على بني إسرائيل جعل إيتاء الكتاب إليهم؛ لبيان أنَّهم لم يشكروا بمجموعِهم هذه النِّعم، ولم يؤدّوا حقَّها[1]، كما أنَّ في إسناد الإتيان إلى بني إسرائيل إشعارًا بإيجاد هذه الأمور الثَّلاثة في الأمَّة وإيجاد القائمين عليها؛ لأنَّ نفعَ ذلك عائدٌ إلى الأمَّة جمعاء، فَكانَ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ الأُمَّةِ كَمَن أوتيَ تِلكَ الأُمورَ[2].

في إسناد إتيان الكتاب إلى بني إسرائيل إشعارٌ بأنَّ النَّفع عائد إلى أمَّتهم جميعًا

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

(الـ) في قولِه: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد، بقرينة ذِكر بني إسرائيل، والمراد التَّوراة[3]، وأجاز بعض المفسِّرين أن تكون (الـ) للجنس، فيكون المرادُ الكُتُبَ المنزَّلة عليهم، أي: التَّوراة والزَّبور والإنجيل؛ لأنَّ موسى وداوود وعيسى عليهم السلام كانوا في بني إسرائيل[4]، والمقام مقام امتنانٍ وتكثير للنِّعم، فناسب الامتنان بكثرة الكُتُبِ الَّتي نزلت فيهم، وفيه تعجيبٌ كذلك من حالِهم؛ إذ لم ينتفعوا بكثرة الكُتُبِ الَّتي أتتهم.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 424 - 425.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 141، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 424.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 69، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 222، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 354، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 443.

نكتةُ ذِكر الكتاب دون التَّوراة:

في ذِكـر الكتاب إشــــارةٌ إلى الأحكام المضمَّنة فيه

ذُكر الكتاب دون التَّوراة، مع أنَّها - أي: التَّوراة - اسم علم على الكتاب الَّذي أنزل على موسى عليه السلام؛ لأنَّ المقام مقام ذكر النِّعم وجلالتِها على بني إسرائيل، وليس خصوص ما أنزل على موسى عليه السلام، فكان ذِكرُ الكتاب أنفعَ وأكثر فائدة؛ لِما يفيده لفظ الكتاب من جمعه للحكمة والأحكام، وللإشارة إلى الكتاب الذي بين يديهم مع توالي الأنبياء وكثرتِهم عليهم.

فائدة (ال) في ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾:

الـتَّـعـريـف لـلاسـتـغـراق لجميع الحكم

(الـ) في ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ للجنس، فيتناول الحكمةَ النَّظرية، وهي المعارف المتعلِّقة بالمعتقدات، والحكمةَ العمليَّة، وهي التَّعبُّد بالأعمال الشَّرعيَّة، كما يتناول اللَّفظ فقهَ الأحكام الَّتي في الكتاب وفصلَ الخصومات بين النّاس؛ إذ كان الملك فيهم(1).

فائدة (ال) في ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

(الـ) في ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ للجنس الاستغراقيِّ، فالمرادُ جنس النُّبوَّة، فيدخل جميع الأنبياء الذين بُعثوا إلى بني إسرائيل.

نكتةُ تخصيص النُّبوَّة بالذِّكر:

إنَّما كثر في بني إسرائيل الأنبياءُ لحاجتِهم إلى البيان والتَّذكير

خصَّ النُّبوَّة بالذِّكر؛ لأنَّها من النِّعم الجليلة التي تدرك بها الأخبار العظيمة الَّتي لا يمكن اطِّلاع الخلق عليها بنوع اكتساب منهم(2)، ولأنَّ النُّبوَّة كانت ظاهرة في بني إسرائيل؛ إذ كثُرَ فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم، فأكثرُ الأنبياء والرُّسل من بني إسرائيل(3)، وإنَّما كثر فيهم الأنبياء لحاجتِهم إلى البيان والتَّذكير، ففي اللَّفظ إشعارٌ بكثرة النِّعم عليهم مع وفور البيان

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 425، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 84.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

وتبيين الأحكام، فإنَّ إتيان الكتاب والحكم من غير بيان لا تتمُّ به النِّعم، ولا تكمل.

دلالةُ التَّرتيب بين المعطوفات:

ترتيب المعطوفات لمعانٍ ومقاصدَ لطيفة

جاءت المعطوفات في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ مرتَّبةً بتقديم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ما بعدها، والسَّبب هو أنَّه لمّا كان الكلام في بيان عموم النِّعم على بني إسرائيل؛ قدَّم ذِكر الكتاب، وهو التَّوراة لعموم نفعِه في وقتِ النُّزول وبعده، ولمّا كان فهْمُ الكتاب يحتاج إلى فهم وحكمةٍ؛ أتبعه بقولِه: ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾، ولمّا كانت النُّبوَّة سابقةً للكتاب؛ كان مقتضى الظّاهر أن تُقدَّم النُّبوَّة على الكتاب، لكنَّه أخَّر ذِكر النُّبوَّة؛ لأنَّ المراد من (النُّبوَّة) جنس النُّبوَّة - كما تقدَّم - فلمّا أُريد مجموع أنبياء بني إسرائيل؛ اقتضى تقديم الكتاب، وهو التَّوراة على النُّبوَّة؛ لأنَّ إنزال الكتاب كان قبل الإيحاء لجملة الأنبياء، ويمكن أن يكون التَّقديم بينها من حيثُ ما هم به أعنى، وهو لهم أهمُّ، فقدَّم الكتاب؛ لأنَّهم كانوا يُفاخرون بأنَّهم أولياء اللّه وأحبّاؤه، وبأنَّهم أهل كتاب، ثمَّ ثنّى بالحكم؛ لأنَّهم أهل المادّيّات وأسباب القوَّة، ثمَّ ثلَّث بالنُّبوَّة؛ لأنَّهم لا يعبَؤون بها كثيرًا؛ لِما عُلِمَ مِن تكذيبِهم بهم وقتْلِهم لهم.

فائدةُ العطف في ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

اجتمع لبني إسرائيلَ أصول النِّعم المادّيَّة والمعنويَّة

جاءت جملة: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بطريق الوصل معطوفةً على: ﴿ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بالواو لاشتراكِ الجملتَين في كونِهما فعليَّتين وخبريَّتين وفي الجهة الجامعة، وبيانها أنَّ الجملتين في بيان النِّعم الجليلة الَّتي أنعمها اللّه تعالى عليهم، ولمّا جاءت جملة: (رَزَقناهُم) معطوفةً على ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ دلَّ على أنَّها في حيِّز التَّأكيد بـ(لَقَد)، والتَّقدير: ولقد رزقناهم؛ ليفيد تقرير نعمة رِزْقِهم من الطَّيِّبات وتأكيدها بما لا يقبل الشَّكَّ ولا الإنكار.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الرِّزق:

المرادُ من الرِّزق كلُّ ما يحطيه اللهُ العبدَ من مال وخير يَطْعَم منه ويَنْتَفِع به

عبَّر بلفظ ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾؛ للإشعار بأنَّ ما وصلهم من الطَّيِّبات كان عطاءً جاريًا عليهم، وأنَّه كان يصل إلى جوفِهم يتغذَّون به باسترسال، ففيه تمام النِّعمة، ويفيد لفظ الرِّزق أنَّه تعالى كان يفيض الطَّيِّبات عليهم بما يعطيه منًّا وفضلًا كالمنِّ والسَّلوى، وبما يسبِّبه لهم كسائر الطَّيِّبات، فيدخل في الرِّزق كلُّ ما يعطيه اللّهُ العبدَ من مالٍ وخيرٍ يَطۡعَم منه، ويَنْتَفِع به[1].

فائدة ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيض، بمعنى: أنَّه تعالى رزقَهم من بعض الطَّيِّبات، وليس كلَّها، ففيه تعظيم لملك اللّه تعالى مع ما أسبغ عليهم من نعمِه الكثيرة الجليلة، مع أنَّها من بعض الطَّيِّبات، وليس كلَّها.

فائدة (ال) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للاستغراق، بمعنى: أنَّه تعالى عنده كلُّ أنواع الطَّيِّبات الَّتي ينتفع منها العباد، وقد تفضَّل على بني إسرائيل ببعضِها مع كثرتِها وتنوُّعها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ دون لفظ الخيرات:

لفظ (الطَّيِّباتِ) أحقُّ من غيرِه هنا لمناسبته لمقام الامتنان

عبَّر بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ دون أن يقال: ورزقناهم مِنَ الخيرات؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أحقُّ من غيرِه هنا لمناسبته لمقام الامتنان، فالطَّيِّب هو ما تستلذُّه الحواسُّ، وتستلذُّه النَّفس، ويكون سائغًا في الحلقِ، و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أفضل الطَّعام وأحسنُه[2]، فهي الَّتي تطيب عند النّاس، وتحسن طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينةً[3]، ولا يدلُّ لفظ

---

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رزق).

(2) الراغب، المفردات: (طيب).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

الخيرات أو غيره على خصوص هذا المعنى، وممّا يدلُّ على أنَّ لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يُستعمل في بيان عظيم النِّعم وكثرة الامتنان أنَّه تعالى أمرَ رسله بالأكل منها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51]، ففي اللَّفظ تمكينٌ لأثر النِّعم على بني إسرائيلَ وشعورِهم بها، فيكون الانتفاع منها أدعى إلى القيام بشكرِها وأظهر.

دلالة جمع ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

الطَّيِّبات شملت النِّعم المحسوسة والمعنويَّة

جاء لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بصيغة الجمع مع أنَّ (الـ) فيه للجنس، لِما يفيده الجمع من تنوُّع أفراد الطَّيِّبات؛ لأنَّ الجمع لا يكون إلّا فيما يختلف في الأوصاف والأنواع، فأفاد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أنَّها كثيرة متنوِّعة، ففي اللَّفظ مبالغة في الامتنان.

فائدةُ العطف في ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

شأنُ المشركين مع رسولِ الله ﷺ كشأنِ بني إسرائيل مع أنبيائِهم

لمّا عطف ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ على ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ أفاد أنَّ الجملة في حيِّز التَّأكيد بـ(لَقَد)؛ ليفيدَ تقرير تفضيل اللّٰه لبني إسرائيلَ على العالمين، ويستتبعه تقريرُ أنَّ شأنَ المشركين من أهلِ مكَّة مع رسولِ اللّٰه ﷺ والمؤمنين من التَّكذيب والاستهزاء كشأنِ بني إسرائيل مع أنبيائِهم مع وفور البيان وكثرتِه عند بني إسرائيل.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

الفضلُ هو عطيَّة لا تلزم المعطي

لمّا كان الفضل بمعنى الزّيادة عن الاقتصاد في الأمر المحمود[1]؛ كان التَّعبير بقولِه: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى قد خصَّهم بزيادة في ما هو محمود مرغوب أكثر من غيرِهم، ففيه تقرير للمبالغة في الامتنان، ولمّا تعدّى الفعل ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾؛ أفادَ علوَّهم على غيرِهم فيما فضَّلهم اللّٰه به، ولمّا

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل).

كان الفضل هو عطيَّة لا تلزم المعطي[1]؛ دلَّ على أنَّ تفضيلَهم نعمةٌ ومنَّةٌ منه تعالى عليهم، وليس باستحقاقِهم؛ ليفيد أنَّ الفضلَ ينزعُ بمجرَّد زوال النِّعمة عنهم.

في زيادة المبنى تغييرٌ للمعنى

نكتةُ التَّعبير بصيغة فعَّل:

عبَّر بصيغة فعَّل في قولِه: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾؛ للإشعار بكثرة فضلِه تعالى عليهم، كما أنَّ الصّيغة تشعر بالمزيَّة، فإنَّه يقال: التَّفاضُل: التَّمازِي في الفَضْل، وفضَّله: مَزَّاه، أي: صار له مزية[2]؛ ليفيدَ التَّعبير بصيغة ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ أنَّه تعالى ميَّزهم بهذا الفضل، فكانت لهم مزيَّةٌ حتَّى ظهروا، وعلَوا على النّاس في زمانِهم.

في تفضيل بني إسرائيل على العالمين ابتلاءٌ لهم

دلالة قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

قد يقال في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بتفضيل بني إسرائيلَ على عالمي زمانِهم ووقتهم، فبماذا فضَّلهم الله؟ والجواب: هو أنَّه تعالى جمع لهم في ذلك الوقت بين استقامة الدّين والخُلُق، وبين حكم أنفسِهم بأنفسِهم وبثِّ أصول العدل فيهم وبين حسنِ العيشِ والأمن والرَّخاء، فَإنَّ أُمَمًا أخرى كانوا في بُحبوحَةٍ مِنَ العَيشِ ولَكِن يَنقُصُ بَعضَها استِقامَةُ الدِّين والخُلُق، وبَعضَها عِزَّةُ حُكْم النَّفسِ وبَعضَها الأمنُ بِسَبَبِ كَثرَةِ الفِتَنِ، فبهذه الوجوه فضَّلوا على غيرِهم في زمانِهم[3].

مرتبةُ أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ أعلى وثوابُهم أعظم، وهم خير أمَّة

تفضيل بني إسرائيل على العالمين لا ينقص من فضل الأمَّة المحمَّديَّة:

لمّا كان الكلام على بني إسرائيلَ في وقت نزول الكتاب وبعْثِ الأنبياء إليهم وقوَّة ملكِهم وظهورِهم في الأرض؛ دلَّ على أنَّ المراد بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفضيلُهم على عالمي زمانِهم في

---

(1) الراغب، المفردات: (فضل).

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 8/ 206، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

أيّام فرعون وعهده وما كان قريبًا منه، وليس تفضيلهم مطلقًا[1]، كما في قوله تعالى حكايةً عن قوم لوطٍ: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ [الحجر: 70]، ويدلُّ عليه تفضيل أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ مطلقًا في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فقوله: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو إخبار عمّا مضى مِن شأنِ بني إسرائيل في عنفوانِ أمرِهم، لا عمّا آل إليه أمرُهم بعد أن اختلفوا بغيًا بينهم، واضمحلَّ أمرهم، ونُسِخت شريعتُهم[2]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المراد تفضيلهم على العالمين مطلقًا من بعض الوجوه لا من كلِّها ولا من جهة المرتبة والثَّواب، أي: من حيث آتاهم اللّه تعالى ما لم يُؤتِ غيرهم من فلقِ البحر وإضلال الغَمام ونظائرها، فلا ينافي ذلك تفضيل أمَّة محمَّد ﷺ عليهم من وجه آخر أعظم وأشمل، وهي إرسال سيِّد السّادات محمَّد ﷺ إليهم ونزول القرآن فيهم، وغير ذلك من وجوه التَّفضيل الأخرى الكثيرة، فمرتبة أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ أعلى وثوابُهم أعظم، وهم خير أمَّة[3]، فعلى الوجهين لا يكون التَّفضيل من جميع الوجوه، ولا يعمُّ جميع الأزمنة؛ لأنَّ لفظ (فَضَّلنَٰهُم) مطلقٌ، فيكفي في صِدقِهِ صورة واحدة أو بعض صور التَّفضيل[4].

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الظّاهر أنَّ (الـ) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للعهد، ويكون المراد عالمي زمانِهم - كما تقدَّم - ويُحتمل أن تكون (الـ) للاستغراق، ويُقصد بالعالمين جميعُ بني آدم، ويكون المرادُ تفضيلَهم من بعض الوجوه، كما تقدَّم أيضًا.

سرُّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون (النّاس):

عبَّر بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون النّاس؛ لِما يشعر به لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من تفضيلِهم على أولي العقول؛ لأنَّ اللَّفظ يغلب على العقلاء، بمعنى أنَّ لفظ: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُطلق على

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 69، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 99، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 301.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

(3) الزمخشري، الكشاف، البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

(4) الكفوي، الكلّيات، تح: درويش، ص: 849.

المبالغة في الامتنان عليهم

مجموع النّاس هنا مع تغليب العقلاء على غيرِهم، ففيه مبالغة في الامتنان كذلك، كما أنَّ لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مشعرٌ بالعموم المناسب لعظيم الامتنان.

دلالة التَّرتيب في ذِكر النِّعم على بني إسرائيلَ:

نِعَمُ الدّين أهمُّ من نِعَمِ الدُّنيا

قُدِّمَ قوله: ﴿ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ على ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، كما قُدِّمَ الرِّزق على التَّفضيل على العالمين؛ لأنَّ المقصود هو الامتنان، فقُدِّم الأهمُّ على المهمِّ؛ لأنَّ النِّعَمَ على قسمين: نِعَم الدّين ونِعَم الدُّنيا[1]، فلمّا بدأ بِذكر نِعَم الدّين في قولِه: ﴿ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أعقبها بنِعَم الدُّنيا التي تكون في الطَّيّبات ثمَّ أعقبها بذِكر نعمة التَّفضيل الَّتي تكون للذَّوات.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّكريم والتَّفضيل:

التَّكريم لجميع بني آدم، ولا تختصُّ به طائفة دون أخرى

التَّكريمُ مَزِيَّةٌ خَصَّ بها اللّه بَني آدَمَ مِن بَينِ سائِرِ المَخلوقاتِ الأرضيَّةِ، وكلُّ شيءٍ شَرُفَ في بابه؛ فإنَّه يوصَفُ بالكرم، والتَّكريم رفْعٌ لمقام المكرَّم، ولا يكون التَّكريم إلّا فيما عظم من الأمور، وأمّا التَّفضيل؛ فيكون في الأجناس كتفضيل جنس الحيوان على جنس الجماد، وفي الأنواع كتفضيل نوع الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وفي الذَّوات كتفضيل فردٍ على فردٍ أو طائفة على أخرى، والفَرْقُ بَيْنَ التَّفضيلِ والتَّكريمِ بِالعُمومِ والخُصوصِ، فالتَّكريمُ مَنظورٌ فيهِ إلى تَكريمِ الإنسانِ في ذاتِهِ ورفعِهِ في مقامِه، والتَّفضيلُ مَنظورٌ فيهِ إلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

تَشريفِهِ فَوقَ غَيرِهِ بزيادة فيما فضَّل به عليه[1]، ففي التَّفضيل معنى التَّمايز والمفاضلة[2]، ولهذا عبَّر بقوله: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ دون أن يقالَ: (وكرَّمناهم)؛ لأنَّ التَّكريم لجميع بني آدم، ولا يختصُّ به بنو إسرائيل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 166.

(2) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل، كرم).

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ [الجاثية: 17]

مع ظهور البيّنات والدّلائل لا يقع الاختلاف المذموم إلّا بسبب البغي

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآية السّابقة، وهي مِن ذِكر إتمام النِّعم على بني إسرائيل، فذَكَر ههنا نعمةً عظيمةً أخرى بإعطائِهم دلائل ظاهرةً في أمر دينهم بحيثُ لا يكون معها الاختلاف إلّا بسبب البغي بينهم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾: أصلُ (أمر) يدلُّ على الأمر مِن الأُمورِ[1]، يُقالُ: أمرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُه مستقيمةٌ، والأمْرُ: الحادِثةُ، والجمعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غير ذلك[2]، والمراد بالأمْرِ في الآية: الشَّأنُ والحالُ، أي: آتاهم الله دلائل واضحات في أمر الدِّين، ويندرج فيها معجزات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

2) ﴿بَغۡيَۢا﴾: أصلُ (بغي) يدلُّ على جِنْسٍ من الفسادِ، ومنه قولُهم: بَغى الجُرْحُ؛ إذا ترامى إلى فساد، ثمَّ يُشتَقُّ من هذا ما بعده، وقيل: البَغْيُ أصله الحَسَدُ، ثمَّ سُمِّيَ الظُّلْمُ بغيًا؛ لأنَّ الحاسِدَ يَظْلِمُ المحسودَ جُهْدَه إراغةَ زوالِ نِعمةِ الله عليه عنه[4]، والبَغْيُ: التَّعَدِّي، وبَغى الرَّجلُ عَلَينا بَغيًا: عَدَلَ عَنِ الحَقِّ، واستَطالَ[5]، والباغي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أمر).
(3) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 149، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بغي).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).

الظّالم[1]، والبغي في الآية معناه الظُّلمُ، وهو ظُلمُ الحَسَدِ، فإنَّ الحَسَدَ من أعظم الظُّلم[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

لا يَنبغي أن يَغتَرَّ المُبطِلُ بنِعَمِ الدُّنيا، فإنَّه سيَرى في الآخِرة ما يَسوؤُه

يخبر اللّه تعالى عن ما تفضَّل به على بني إسرائيل، فقد آتاهم ما لم يُؤتِ غيرَهم، وآتاهم آياتٍ واضِحاتٍ، فما تفرَّقَ بنو إسرائيلَ، واختَلَفوا فيما بينَهم إلّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ الَّذي يُبَيِّنُ لهم ما يَتَّقونَ، ويوجبُ عدَمَ الاختِلافِ، وإنَّما حمَلهم على ذلك الظُّلْمُ واعتداءُ بعضِهم على بعضٍ، والحسدُ وطلبُ الرِّياسة، ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه ﷺ قائِلًا له: إنَّ رَبَّك - أيُّها الرَّسول - سيفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كانوا فيه يتنازعون، ويتفرَّقون من أمر الدِّين، وسينال كلٌّ ما يستحقُّه من الجزاء، وفي هذا تحذير لأُمَّة محمَّد ﷺ أن تسلك مَسْلكهم، وتنهج منهجهم لئلّا يصيبها ما أصابهم، وما سيُصيبهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

جاءت جملة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ معطوفةً بالواو على ﴿ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لاشتراكِهما في كونِهما جملتين فعليَّتين خبريَّتين وفي الجهة الجامعة، أي: في الامتنان على بني إسرائيل بعظيم النِّعم بأن آتاهم اللّه بيِّناتٍ من الأمر بحيث لا ينبغي أن يختلفوا بعدها.

عودُ الضَّمير في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾:

يعود الضَّمير في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ على ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما اتَّصفوا به،

(1) الخليل، العين: (بغي).
(2) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 149، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 84، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 776، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 282.

أي: وآتينا بني إسرائيل الموصوفين بإيتائِهم الكتاب والحكم والنُّبوَّة بيِّناتٍ من الأمر، فأفاد عود الضَّمير اجتماع المنن العظيمة بحيثُ يكمِّل بعضُها بعضًا، فكأنَّه قيل: وآتيناهم مع ذلك بيِّناتٍ من الأمر.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

إتيانُ الكتاب والحكم والنُّبوَّة إنَّما يكمل بمعرفة الحجج الواضحة

عبَّر بلفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للإشعار بكمال النِّعم، فإنَّ إتيان الكتاب والحُكم والنُّبوَّة إنَّما يكمل بإعطائِهم البيِّنات؛ لأنَّ البيِّنات هي الأدلَّة الظّاهرة والحجج الواضحة، والمراد بإتيانِهم البيِّنات إتيانهم الحجج وطريقة إقامتِها والاحتجاج بها، فإنَّ إقامة البيِّنات على ما في الكتاب والحكم من شأنِها أن تقوِّي الحقَّ، وتجعل الآخرين يذعنون إلى ما عندهم من الحقِّ والهدى، فضلًا عن أنَّها لا تترك للشَّكِّ والخطأِ إلى نفوسِهم سُبُلًا إلّا سدَّتها.

دلالةُ تنكير ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

لفظُ البيِّنات يشمل الحججَ الظّاهرة والأحكام والمعجزات وصفات الأنبياء الآتين بعدهم

جاء لفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نكرةً؛ لبيان فخامة البيِّنات وتعظيمِها وتكثيرِها، ولمّا جاء لفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ في سياق الامتنان؛ أفاد عموم البيِّنات الَّتي يحتاجونها في فهْمِ الكتاب وإفهامِه وفي إقامة الحكم وغيرِها، فيدخل في البيِّناتِ الأدلَّةُ القطعيَّة والحجج الظّاهرة والبراهين القاطعة والأحكام، ويندرج فيها المعجزات وصفات الأنبياء الآتين بعدهم وغير ذلك ممّا هو في غاية الوضوح.

دلالة جمع ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

جاء لفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ بصيغة الجمع؛ لبيان تنوُّعها وكثرتِها في أفرادِها، فهي بيِّنات كثيرة في أفرادها متنوِّعة في أصنافِها.

فائدة ﴿مِّنَ﴾:

يمكن أن تكون ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ ابتدائيَّة، وهو الأصل في معناها، ويمكن أن تكون بمعنى: في، والتَّقدير: بيِّنات في

الأمر[1]، أي: دلائل ظاهرة في أمرِ الدّين متغلغلة فيه، بمعنى: لا يوجد شيءٌ من أمرِ دينهم إلّا وفيه بيِّنة واضحة، ونكتة العدول عن (في) إلى ﴿مِّنَ﴾ الإشعار بأنَّ ما أوتوه من الكتاب والحكمة والنُّبوَّة مشتمل على بيّنات واضحة، فآتاهم البيِّنات مع اشتمال ما تقدَّم عليها، كما أنَّ هذه البيِّنات هي أدلَّة في الأمرِ، وتحتمل أن تكون ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّة؛ لتفيد بيانَ المقصود بالبيِّنات، أي: بيِّنات هي من أمر دينهم الموحى به إلى أنبيائِهم.

في العدول عن (في) إلى (مِن) تكثير في المعنى وتنبيه إلى تغلغل البيّنات في جميع أمور الدِّين

فائدة (ال) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

تحتمل (الـ) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ أن تكون للعهد، أي: الأمر الَّذي هو دينهم، كما تحتمل أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: بيِّنات من أمر اللّه، فيشمل أمر الدِّين وأمر الدُّنيا ممّا يحتاجونه في الحكم وأمور الحياة، فـ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ هنا من الأمور بمعنى الشَّأن العظيم.

(الأمرِ) هنا من الأمور بمعنى الشَّأن العظيم

فائدة الفاء في ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ للتَّفريع والتَّرتيب[2]، ويمكن أن تكون فصيحة، والتَّقدير: فاختلفوا، وما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءَهم العلمُ بغيًا بينهم، فحذف المفرَّع؛ لِدَلالَةِ ما بَعدَهُ عليهِ عَلى طَريقَةِ الإيجازِ، وذكر ما يدعو إلى العجب من أمرِهم؛ إذِ المَقصودُ هو التَّعجيبُ مِن حالِهِم كَيفَ ترتَّب اختلافُهم على تمكُّنهم في العلم وتوالي النِّعم المذكورة؟ فاختلفوا حينَ لا مظنَّةَ للاختِلافِ[3]، فكان الظّاهر أنَّهم لمّا آتاهم اللّه البيِّنات أن يتَّفقوا، ولا يختلفوا، فبدلًا من أن يكونَ حالُهم بأن يقال عنهم: وآتيناهم بيِّنات من الأمر، فاتَّفقوا من بعدِ ما جاءهم العلم - لأنَّ البيِّنات تزيح كلَّ خلافٍ - كان حالُهم هو أن ترتَّب على إتيانهم

التَّعجيب من حالِ بني إسرائيل إذ اختَلفوا حينَ لا مظنَّةَ للاختِلافِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 425، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.

البيِّنات وحصول العلم عندهم اختلافُهم بغيًا بينهم؛ لتفيد الفاء مع التَّفريعِ التَّرتيب الدّاعي للتَّعجيبِ من حالِهم بأن كانَ مآلُ أمرِهم بعد حصولِ العلم وقوع الاختلاف بينهم، كما أنَّه لمّا كانت الفاء للتَّعقيب؛ أفادت أنَّه لم يكن بين إتيانهم البيِّنات واختلافِهم مهلة، بل سارعوا إلى الاختلاف، وتعقيب كلِّ شيءٍ بما يليق به؛ ليفيد التَّعقيبُ زيادةً في التَّعجيب من اختلافِهم مع ظهور البيِّنات وتوبيخهم على مبادرتِهم إلى الاختلاف بينهم.

دلالةُ الاستثناء المفرَّغ:

لمّا كان الظّاهر أن يكون الكلام: فما اختلفوا في الأمر إلّا من بعد ما جاءَهم العلم؛ كان حذف متعلِّق الفعل ﴿ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ مؤذنًا بالعموم، ولهذا جاء الاستثناء مفرَّغًا في قوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ ليفيد الكلامُ الاستثناءَ من أعمِّ العام ومن جميع الأوقات، أي: فما اختلفوا في وقت من الأوقات إلّا من بعد ما جاءَهم العلم بغيًا بينهم، وليدلَّ حذف متعلِّق الفعل على أنَّهم اختلفوا في كلِّ شيءٍ، أي: لم يختلفوا في الأمر الذي أوتوا البيِّنات منه فقط، أو يقال: إنَّهم لمّا اختلفوا في أمر الدّين؛ كان كأنَّهم اختلفوا في كلِّ شيءٍ.

لـمّا اختـلـف بنو إسرائيل في أمر الدّين بغيًا كان كأنَّهم اختلفوا في كلِّ شيءٍ

بلاغةُ القصر:

أفادَ القصر بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ في قولِه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قصر اختلافِهم على وقتٍ معيَّن هو من بعد مجيء العلم إليهم، وهو من قبيل قصر الصِّفة على الموصوف؛ ليفيد أنَّ ذمَّهم على هذا الاختلاف هو كونه مقصورًا على هذا الوقت دون غيرِه، بمعنى: أنَّهم لو اختلفوا قبلَ مجيء العلم إليهم؛ لكانَ لهم عذرٌ في الاختلاف[1]، والغرض منه ذمُّهم على اختلافِهم في ذلك الوقت، والتَّعجيبُ من هذه الحالةِ؛ لأنَّ حصولَ العلم يوجب ارتفاع الخلاف

حـصـول العلم يـوجـب ارتـفـاع الخلاف والاتِّفاق على المعلوم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.

والاتِّفاق على المعلوم، وههُنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف، فكان ما هو سبب الاتِّفاق سببًا لهم في الاختلاف، فجعلوا ما يوجبُ زوالَ الخلافِ، وهو مجيء العلم موجبًا لرسوخهِ[1]، بمعنى: أنَّ العلم لم ينفعهم، وذلك لأنَّهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنَّما مقصودهم طلب الرِّياسَةِ والتَّقَدُّم[2].

فائدة ﴿مِنۢ﴾:

لَمّا كان حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ يدلُّ على الابتداء؛ أفاد التَّعبير بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنَّ اختلافَهم لم يكن مستغرقًا لجميع الزَّمن الذي بعد الإيتاء، بل كان مبتدئًا في وقت مجيء العلم[3]، وهذا ممّا يزيد من التَّعجيب من أمرِهم.

دلالة استعمال الظرف ﴿بَعۡدِ﴾:

أفاد مجيء ظرف الزَّمان ﴿بَعۡدِ﴾ تقييد اختلافِهم بكونِه بدأ بعدَ ما جاءَهم العلم، وأفادت إضافة ظرف الزَّمان إلى المصدر المؤوَّل: ﴿مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنَّ زمن اختلافِهم المذموم مقيَّدٌ بوقتٍ معيَّن معروف هو بعد مجيء العلم إليهم.

دلالة ﴿مَا﴾:

التَّعجيب من أن يكون مجرَّد حصولِ العلم سببًا في الاختلاف المذموم

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ مصدريَّة، ونكتة إضافة ﴿بَعۡدِ﴾ إلى المصدر المؤوَّل دون الصَّريح - أي: لم يقل من بعد مجيء العلم إليهم - الإشعار بوقوع الفعل وتحقُّق مجيء العلم إليهم بدلالة الفعل الماضي (جاءَ)، ووفيه دلالةٌ على مجرَّد وقوع الحدث، بمعنى: أنَّه حدث الاختلاف بينهم بمجرَّد مجيء العلم إليهم من غير احتمال معنى زائد على مجيء العلمِ ومن غير قيدٍ ولا وصفٍ له

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 357، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 85.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 85.

آخر، ففي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل تحصين من الإشكال وتخليص له من شوائب الإجمال[1].

بلاغة اختيار مفردة المجيء دون الإتيان:

براعةُ التَّعبير القرآنيِّ، ففي سياق الامتنان عبَّر بالإتيان وفي سياق عدم الانتفاع بالنِّعم عبَّر بالمجيء

عبَّر في موضع الامتنان بلفظ الإتيان في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾؛ لِما فيه من عظمةٍ وفخامةٍ وسهولةٍ في الحصول على هذه النِّعَم، ولمّا أراد أن يبيِّن أنَّ هذه النِّعم الجليلة لم تفدهم، بل كانت سببًا لاختلافِهم؛ عدل عن التَّعبير بلفظ الإتيان إلى لفظ المجيء، فقال: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ لأنَّ لفظَ المجيء يتوارد استعمالُهُ فيما كان فيه مشقَّة وصعوبة، ولو قيل: فما اختلفوا إلّا من بعد ما أتاهم العلم بغيًا بينهم؛ لأفاد أنَّه في سياق الامتنان كذلك، والحال أنَّه في معرض الذَّمِّ والتَّوبيخ والتَّعجيبِ من حالِهم.

بلاغة المجاز في إسناد العلم إلى المجيء دون الإتيان:

من لم ينتفع بعلمِه كان كمن لاعلمَ له

أسند العلمَ إلى المجيء في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ على طريق المجاز العقلي، وإنَّما كان مجازًا؛ لأنَّ العلم لايوصَف بالمجيء، فالمجيء من أوصاف من له الحياة، كالآدمي، ونكتة مجيء الكلام على طريق المجاز بإسناد العلم إلى المجيء، أي: أن يكون العلم هو فاعل المجيء دون أن يقال: (من بعد ما جئناهم بالعلم) هي الإشعار بتحقُّق مجيء العلم إليهم وتمكُّنهم منه، كما أنَّه لم يقل: (من بعد ما آتيناهم العلمَ) بإسناد العلم إلى الإتيان؛ لأنَّ التَّعبير بالإتيان كان في مقام الامتنان، ولمّا كان العلم الذي حصلوا عليه كلا علمٍ لعدم انتفاعِهم منه؛ أسند الفعل إلى المجيء.

نكتةُ تعدية فعل المجيء بنفسه:

عُدّي الفعلُ (جاء) إلى المفعول به بنفسِه، فقال تعالى: ﴿جَآءَهُمُ

(1) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/ 92.

﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾، ولم يقل: من بعد ما جاء إليهم العلم؛ للإشعار بأنَّ العلم وصلهم من غير كلفةٍ منهم، وأنَّه لم يتأخَّر عنهم، وأنَّهم حصلوا عليه، وتمكَّنوا منه، ففيه تقريرٌ لأنواع المنن الَّتي آتاها اللّه بني إسرائيلَ، وتنبيه إلى عدم انتفاعِهم من العلم.

رغم مجيء العلم إليهم، فلم ينتفعوا به

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ للعهد، بمعنى: العلم الذي حصل لهم من إتيان الكتاب والحكم والنُّبوَّة وإتيانِ الحجج الواضحات الَّتي تجعل صاحبَها على علم تامٍّ، ولمّا كانت (الـ) للعهد؛ فقد ذهب بعض المفسِّرين إلى تخصيص العلم بقراءة التَّوراةِ، وهو يجري على القول الظّاهر في أنَّ المراد بالمختلفين القوم الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، والمعنى: فما اختلفوا إلّا من بعدِ قراءة التَّوراة والعلم بأحكامِها، وذهب آخرون إلى أنَّ تخصيصَهُ بعهد آخر هو علمُهم بسيِّدنا محمَّد ﷺ وبنعوتِه وبتظاهر معجزاتِه، أي: إلّا من بعد ما جاءَهم العلم بصدقِ نبوَّته ﷺ، فالمرادُ بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا في عصر النَّبيِّ ﷺ[1].

العلمُ بكتاب الله لا يستدعي الفضل إلّا إن كان معه العمل

دلالة تعلُّق ﴿بَغۡيَۢا﴾ بوقوع الاختلاف:

الظّاهر أنَّ ﴿بَغۡيَۢا﴾ مفعولٌ لأجلِه، ولمّا كان المفعول لأجلِه قيدًا للفعل ﴿ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾؛ أفادَ أنَّ اختلافَهم لم يكن عن شكٍّ، وليس عن غفلةٍ أو تأويل أو اجتهاد في طلب صوابٍ[2]؛ لأنَّه تعالى آتاهم البيِّنات الَّتي لا يقع الشَّكُّ معها، بل كان اختلافهم بسبب الظُّلم والعداوة الحسد[3]، كما أفاد التَّعبير بلفظ البغي أنَّ هذه العداوةَ كانت تعدّيًا منهم[4]، وليست عن حقٍّ، والتَّقدير: اختلفوا لأجل البغي، ويحتمل أن

العدوان والحسد والظُّلم سبب الاختلاف المذموم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.
(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 84، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 346.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 776.

يكونَ ﴿بَغۡيَۢا﴾ حالًا من فاعل ﴿ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾، بمعنى: أنَّهم اختلفوا في حالِ كونِ البغي بينهم؛ ليفيد أنَّ البغي كان مقترنًا باختلافِهم، أي: في وقت اختلافِهم، وعلى كلا الوجهين فإنَّ تقييد الفعل ﴿ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ بقولِه: ﴿بَغۡيَۢا﴾ يفيد أنَّ الاختلاف المذموم هو الَّذي يكون بسبب العدوان والحسد والظُّلم، أو الَّذي يكون اختلاف النّاس فيه مقترنًا بالبغي، فإن كان الاختلاف لأجل الاجتهاد في طلب الصّواب؛ فلا ذمَّ فيه.

دلالةُ استعمال الظرف ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

إن كـان البغي عـلى البـعـيد مذمومًا فهو بين القومِ أشدُّ ذمًّا وقبحًا

لمّا جاء الظَّرف بينهم صفةً لـ﴿بَغۡيَۢا﴾؛ أفاد تقييد البغي بكونِه موصوفًا في مكان هو بينهم، وليس في مكان آخر، فالبغي الموصوف بأنَّه بينهم هو سبب اختلافِهم، ولمّا كان البغي على البعيد مذمومًا؛ زاده عجبًا بتقييده بالوصف بأنَّه ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾[1]، ففي التَّعبير بالظَّرف تقريرٌ للتَّعجيب من حالِهم بقيد الوصف مع وفور البيِّنات وظهورِها.

بلاغةُ الفصل في جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

الاخـتـلافُ في الآراء يقتضي مُحِقًّا ومبطِلًا

جاءت جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ توالي النِّعم الجليلة عليهم وتمكُّنهم في العلم يوجب كلُّ هذا ألّا يختلفوا بغيًا بينهم، فكان اختلافُهم بغيًا بينهم يثير سؤالًا في نفسِ سامعِه، تقديره: فما جزاؤهم عند ربِّهم يوم القيامة؛ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهذا الجواب فيه إجمالٌ لتهويل ما سيقضى به بينهم في الخير والشَّرِّ؛ لأنَّ الخلاف يقتضي محقًّا ومبطلًا[2]، وهذه الجملة تذييل لما تقدَّم، فتتضمَّن تأكيدًا لاختلافِهم المذموم، الَّذي يقتضي الفصل بينهم، وفيها توعُّدٌ لِمن يكون مثلَ حالِهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 85.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 25/ 347.

فائدة تتابع المؤكِّدات:

تقريرُ الحكم في سياق خطاب الرَّسول المقرَّب ﷺ أقوى وأثبت

أفاد تأكيدُ مضمون الجملة بـ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة، وتكرار ذكر المسند إليه، مرَّة على أنَّه اسم إنَّ، ومرَّة على أنّه فاعل ﴿يَقْضِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ هو تقرير الحكم، ولمّا كان المخاطَب هو سيِّدنا رسول اللّه ﷺ؛ كان المراد تقريرَ الحكم عند المخاطَبين؛ لأنَّه ﷺ لا يشكُّ في الأمر، وإنَّما عبَّر بضمير الخطاب العائد إلى رسول اللّه ﷺ؛ لأنَّه أوثق في تقرير المعنى عند المخاطَبين، فإنَّ تقريرَ الحكم في سياق خطاب الرَّسول المقرَّب ﷺ أقوى وأثبت، بمعنى: أنَّ القضاء بينهم يوم القيامة لا يقبل الشَّكَّ أبدًا.

نكتةُ اختيارِ عنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

تنبيهُ المؤمنين إلى أنَّ عليهم أن ينتبهوا إلى ما حصلَ عند الأوَّلين من الضَّلال

في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختير عنوان الرُّبوبيَّة المضاف إلى ضمير الخطاب المقصود منه سيِّدنا محمَّد ﷺ؛ للإشعار بأنَّه تعالى لإحسانِه برسول اللّه ﷺ ومحبَّته له يقصُّ على النّاس أخبار الأوَّلين؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ عليهم اليوم أن ينتبهوا إلى ما حصلَ عند الأوَّلين من الضَّلال وما سيؤاخذون به يوم القيامة، وألّا يكونوا مثلَهم، كما أنَّ في اختيار عنوان الرُّبوبيَّة إشعارًا بأنَّهم استحقّوا هذا القضاء؛ لأنَّهم لم يشكروا هذه النِّعَم.

غرضُ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب:

وجوبُ تجنُّب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داعٍ في فهْمِ الدّين ومصلحة الأمَّة

في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب المقصود منه سيِّدنا محمَّد ﷺ؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ العلم الذي جاءهم من بعثة النَّبيِّ ﷺ ينبغي ألّا يكون باعثًا على الاختلاف بينهم بسبب البغي، وفي الإضافة إلى ضمير الخطابِ إيماءٌ بالوعيد لمن لم يؤمن برسولِ اللّه ﷺ وإلى أنَّ سببَ اختلافِهم في رسول اللّه ﷺ هو البغيُ والحسد بينهم، كما أنَّ في إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب فيه إيماء إلى أنَّه تعالى سيقضي بينهم يوم

القيامةِ؛ حبًّا وكرامةً لرسول الله ﷺ، وفيه تحذيرٌ لأمَّتِه ﷺ من أن يكون اختلافُهم بعد نزول القرآن بسبب البغي، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى وجوب تجنُّب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داعٍ في فهْمِ الدّين ومصلحة الأمَّة.

بلاغةُ استعمال مفردة القضاء لا الحكم:

في القضاء بيانُ المحقِّ من المبطل في الاختلاف

القضاءُ هو الفصلُ المحكم بين الحقِّ والباطل على سبيل القطع[1]، ولمّا كان الاختلاف من أجلِ البغي والظُّلم يقتضي اختلاط الأمر بين المختلفين وتشابك الأمور بينهما بحيث لا يُعرف المحقُّ من المبطِل؛ عبَّر بلفظ القضاء الَّذي يفيد الفصل المبين المحكم بينهم على سبيل القطع بحيث لا يعقبه مراجعة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾؛ ليكون المعنى: إنَّ ربَّك يفصل بينهم بسبب اختلافِهم بسبب البغي، فيَميزُ المحقَّ من المُبْطِلِ، ويبيِّنه لهم، ويجزي كلًّا منهم على استحقاقِه، فأفاد التَّعبير بلفظ القضاء بيان المحقِّ من المبطل والجزاء على الاختلاف بسبب البغي[2].

دلالةُ استعمال الظَّرف المضاف إلى الضَّمير:

تمام الفصل بين المختلفين يوم القيامة بتبيين المحقِّ من المبطِل

لمّا كان الضَّمير في ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يعود إلى الضَّمير في ﴿ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ بما اتَّصف به من كونِهم اختلفوا لأجل البغي؛ دلَّ على تضمُّن اختلافهم الحقَّ والباطل، ولمّا تعلَّق فعل القضاء بالظَّرف ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أفاد أنَّ فعلَ القضاء كأنَّه متخلِّل بينهم؛ لأنَّه متعلِّق بتبيين المُحِقِّ والمُبطِلِ[3]، أي: فمنهم المحقُّ، ومنهم المبطل، كما أنَّ التَّعبير بتركيب ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ يفيد إتمامَ الفصل بينهم يوم القيامة وإتمامه[4].

---

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قضى).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/ 83، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 8/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 11/ 283.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قضى).

سرُّ تكرار (بَيْنَهُم):

إقامةُ الجملة مقام جملة التَّذييل؛ لتفيد عموم الحكم بالقضاء بين المختلفين يوم القيامة

كُرِّرت كلمة (بَيْنَهُم) في قولِه: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لبيان أنَّ الذين وقع الاختلاف بغيًا بينهم هم أنفسهم يقضي اللّه بينهم يوم القيامة، والمعنى: إنَّ ربَّك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بغيًا بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه في الدُّنيا يختلفون بعد العلم[1]، وفي تكرير الكلمة سرٌّ بلاغيٌّ لطيف، فبالتَّكرير قامت جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مقام جملة التَّذييل لاستقلالِها بنفسِها؛ لإثبات حكم عامٍّ كلّيٍّ، وهو أنَّه تعالى يقضي بين المختلفين يوم القيامة من غير تعيينٍ لقوم دون آخرين؛ فتفيد الجملةُ معنى العموم والكلّيَّة، مع التَّمثيل للمخاطَبين لنوعٍ من أنواعِ القضاء يوم القيامة، وهو ما وقع من الاختلافِ بين بني إسرائيل، فيدخل اختلافُ بني إسرائيل؛ بسبب البغي بينهم في حكمِ جملة التَّذييلِ، فتكون جملة التَّذييل كالمثل في جريانِها في الكلام وفي التَّمثُّل بها.

دلالةُ تقييد قضاء الله بوقوعِه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

أشعر تقييدُ قضاء اللّه بينهم بكونِه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أنَّ هذا النَّوع من الاختلاف لا حيلةَ في إزالتِه في الدُّنيا.

نكتة تقديم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تقديمُ ما هو الأولى بالاعتبار من عادات القرآن في أسلوبِه

قُدِّمَ ظرفُ المكان ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على ظرف الزَّمان ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ للإيماء إلى سرعة القضاء بينهم يوم القيامة، كما أنَّه لمّا كان المقصود الأوَّل من إقامة القضاء هو أن يكون بين المختلفين، قُدِّمَ ما هو الأولى بالاعتبار؛ للإيماء إلى شدَّة العناية بالقضاء بينهم.

سببُ إيثار التَّعبير بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

لمّا كان يوم القيامة سُمّي بهذا الاسم لقيام النّاس جميعًا فيه لربِّ

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 69.

يظهر العدلُ، ويُقامُ على رؤوس الأشهاد بقضاء الله بين خلقِه

العالمين، ولأنَّه يوم يُقام العدل فيه، ولقيام الأشهاد فيه كذلك[1]؛ عبَّر بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في قولِه: ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون أن يقال: يقضي بينهم يوم الحساب أو يقضي بينهم يوم الجزاء؛ للإشعار بأنَّ قضاءه تعالى يظهر أمام الخلائق كلِّها، وأنَّ العدلَ يقامُ بقضائِه تعالى فيما كانوا فيه يختلفون.

فائدة (فِي):

أفاد حرفُ الجرِّ (في) في قولِه: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾ أنَّ الذي كانوا فيه يختلفون صار كالظَّرف لقضاء اللّه تعالى، بمعنى: استقصاء قضائِه تعالى لكلِّ أمرٍ اختلفوا فيه.

دلالة (ما):

(ما) في قوله: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾ اسم موصول بمعنى الَّذي، وأفاد التَّعبير بـ(ما) العموم؛ ليفيدَ استغراق قضاء اللّه تعالى لكلِّ الذي كانوا فيه يختلفون.

الغرض مِن ذِكر الفعل ﴿كَانُواْ﴾:

اختلافُ بني إسرائيل بسبب البغي بينهم ثابتٌ راسخٌ فيهم

كان بالإمكان أن يوجز في اللَّفظ، فيُقال: إنَّ ربَّك يقضي بينهم فيما فيه يختلفون، والمعنى العام واضحٌ بقرينة السِّياق، لكنَّه عدل إلى ذِكر الفعل ﴿كَانُواْ﴾، والسَّبب في ذِكره أمران: **أحدهما**: تقرير اختلافِ أسلافِ بني إسرائيل بسبب البغي والحسد، بمعنى: أنَّ أولئك قومٌ مضوا بما عملوا، وأنَّ أمرَهم إلى ربِّهم يوم القيامة، وفيه تنبيهٌ للأخلاف إلى ألّا يكونوا مثلَ أسلافِهم، **والثاني**: الإشعار باعتيادِهم هذا الاختلاف حتَّى صار كالجبلَّة لهم[2]، فالاختلاف المذكور ثابتٌ بينهم راسخٌ فيهم متكرِّر منهم.

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الأنعام، ص: 65.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 85، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 597.

فائدة التَّعبير بـ(فِي):

عبَّر بحرف الجرِّ (فِي) الدالِّ على الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيهِ﴾؛ للإشعارِ بشدَّة انغماسهم في الاختلاف المذموم حتَّى صار ظرفًا لهم يحويهم؛ ليومِئَ التَّعبير بـ(فِي) إلى شدَّة الوعيد في قضاء اللّٰه بينهم يوم القيامة.

غرض تقديم ﴿فِيهِ﴾ على فعل ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

يتعلَّق بالتَّقديم والتَّأخير أغراض متنوِّعة

قدَّم الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للاهتمام والعناية بعاقبة المختلَف فيه، وللتَّخصيص بمعنى: أنَّ القضاء الذي هو على سبيل الفصل بينهم إنَّما يكون فيما اختلفوا فيه؛ بسبب البغي بعد العلم، وهذا لا يمنع من أن يقضي بينهم في مسائل أخرى، كما أنَّ في تقديم الجار والمجرور رعايةً للفاصلة ورؤوس الآي في كلمة: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾.

بلاغةُ استعمال مفردة الاختلاف في قوله: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

بنو إسرائيل يحرصون على الاختلاف المذموم ويجهدون فيه

عبَّر بقوله: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم اختلفوا فيما ينبغي أن يكونوا على رأيٍ واحدٍ؛ بسبب حصولِهم على العلم، فالاختلاف تقابُلٌ بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه(1)، ولكنَّهم اختلفوا بسبب البغي بينهم، كما أنَّه لمّا كان قوله: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ بصيغة (يفتعلون)؛ أفاد أنَّهم كانوا يجهدون في هذا الاختلاف المذموم، ويتكلَّفونه، ويحرصون عليه؛ ليفيد شدَّة تخالفِهم بسبب الحسدِ والعدوان والظُّلم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ، وللدَّلالة على الاستمرار، ففيه توبيخٌ لاختلافِهم المذموم وإشعارٌ باستمرارِهم عليه، فهُم يختلفون بسبب البغي بينهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 118.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا طريق سوى طريق الشَّريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ

لمّا كان معنى الآيات السّابقة أنَّه ﷻ جعل بني إسرائيل على شريعة، وهدَّدهم على الخلاف فيها، فكان تهديدهم تهديدًا لأمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ؛ قال مصرِّحًا بما اقتضاه سوق الكلام وغيره من تهديدنا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[1].

وأيضًا لَمّا بَيَّنَ تَعالى أنَّهُم أعرَضوا عَنِ الحَقِّ لِأجلِ البَغيِ والحَسَدِ؛ أمَرَ رَسولَهُ ﷺ بأن يَعدِلَ عَن تلكَ الطَّرِيقَة، وأن يَتَمَسَّكَ بالحَقِّ، وألّا يَكونَ لَهُ غَرَضٌ سِوى إظهارِ الحَقِّ وتَقريرِ الصِّدقِ، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[2].

وأيضًا لَمّا ذَكَرَ تَعالى إنعامَهُ عَلى بَني إسرائيلَ واختِلافَهُم بَعدَ ذلِكَ؛ ذَكَرَ حالَ نبيِّه ﷺ وما مَنَّ بِهِ عَلَيهِ مِن اصطِفائِه، فَقالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[3].

وأيضًا لمّا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآيةَ، وأتبعها قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ كانت هاتان الآيتان تمهيدًا لِما بعدَها، فإنَّه لمّا أخبر عن اختلافِ بني إسرائيل بغيًا بينهم، ممّا تسبَّب في وعيدِهم بأن يقضي ربُّك بينهم يوم القيامة؛ ناسبَ أن يعقب تلك الآيتين قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 86.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾: أصلُ (جعل) كلمات غير مُنقاسة، لا يُشبه بَعضها بعضًا، فالجَعْلُ: النَّخل يفوتُ اليَدَ، والواحدةُ جَعْلَةٌ[1]، والجُعْلُ والجَعالَةُ والجَعيلَةُ: ما يُجعل للإنسان على الأمر يفعله، وجَعلتُ الشَّيء: صنعتُه[2]، ولفظ (جَعَلَ) عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ من: فَعَلَ، وصَنَعَ، وسائر أخواتها، ويأتي لمعانٍ منها: جَعَلَ الشَّيء جَعلًا: وضَعَهُ، وقدَّره، وجَعَلَ بَعْضَه فوقَ بعضٍ: ألْقاهُ، وجَعَلَ القَبيحَ حَسَنًا: صَيَّرَهُ، وجَعَلَ له كذا على كذا: شارطه به عليه[3]، والمقصود بالجعل في الآية: التَّهيئةُ والتَّمكينُ والوضعُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَمّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ الكافرين أعرضوا عن الحقِّ بغيًا وحسدًا؛ أمر رسوله ﷺ أن يعدل عن هذه الطَّريقة، وأن يستمسكَ بالحقِّ، فقال: ثمَّ جعلناك - يا محمَّد ﷺ - بعد بني إسرائيل الَّذين وصفت لك صفتهم على نهج خاصٍّ من أمر الدِّين، فاتَّبع ما أوحي إليك، ولا تتَّبع ما دعاك إليه الجاهلون الَّذين لا يعلمون توحيد اللّه ولا شرائعه لعباده، وهم كفّار قريش ومن وافقهم؛ فتهلك[4].

المُتعبِّدُ للهِ إنْ لم يكُن مُتابِعًا للرَّسولِ فإنَّه لا تُقبَلُ عبادتُه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العدول عن مقتضى الظّاهر في ذِكر الآيات:

كان مُقتَضى ظاهِرِ النَّظم أن يَقَعَ قَولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآيتَينِ بَعدَ قَولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾، فيَكونَ دَليلًا وحُجَّةً لَهُ، فأخرَجَ النَّظمَ عَلى خِلافِ مُقتَضى

المقصد الأسنى والأهمُّ من جميع الشَّرائع هو شريعة رسول الله ﷺ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 385.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 86، والسمعاني، تفسير القرآن: 5/ 139، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 164، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 201.

الظّاهِرِ، فَجُعِلَتِ الحُجَّةُ تَمهيدًا قَصدًا للتَّشويقِ لِما بَعدَهُ، وليَقَعَ ما بَعدَهُ مَعطوفًا بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالَّة عَلى أهَمِّيَّةِ ما بَعدَها[1].

بلاغة التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

عبَّر بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ لتكون أداة الرَّبط بين هذه الآية والتي قبلها، وتفيد ﴿ثُمَّ﴾ تراخي الزَّمن بين اختلاف بني إسرائيل؛ بغيًا بينهم بعد ما جاءَهم من العلم، وبين جعْلِه تعالى رسولَه ﷺ على شريعةٍ من الأمر، كما أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على التَّراخي الرُّتبي كما هو شأنُها في عطف الجمل، ولولا إرادة التَّراخي الرُّتبي؛ لكانت هذه الجملة معطوفةً بالواو على ما قبلها، فأفادَ هذا التَّراخي أنَّ مضمون الجملة المعطوفة بـ﴿ثُمَّ﴾ أهمُّ من مضمون الجملة المعطوفة عليها، مثل أهمّيَّة الغرض على المقدِّمة والنَّتيجة على الدَّليل والحجَّة، وفي التَّراخي تنويهٌ بهذا الجعلِ، وإيماء إلى علوِّ شريعة رسول اللَّه ﷺ ورفعتِها، وإلى أنَّها أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنُّبوَّة والبيِّنات، فنبوَّة سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ وكِتابُهُ وحُكمُهُ وبَيِّناتُه أفضَلُ وأهدَى مِمّا أوتِيهِ بنو إسرائيلَ مِن مِثْلِ ذَلكَ[2].

نبوَّة سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ وشريعتُه أفضَلُ وأهدَى مِمّا أوتيه بَنو إسرائيلَ مِن مثلِ ذَلِكَ

سرُّ التَّعبير بالجعل في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾:

عبَّرَ بقولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾ دون أن يعبِّر بالإيتاءِ، فيقال: (وآتيناكَ شريعةً من الأمرِ)، كما عبَّر مع بني إسرائيل؛ لِما يفيده لفظ الجعل من أنَّه أمرٌ لا مثيل له بحيث يفيد العجب لعظمتِه وتسويتِه، كما يفيدُ لفظ الجعلِ معنى التَّحويل إلى هيئة جديدة عجيبةٍ لم تكن من قبل، فجعلُه ﷺ على شريعةٍ من الأمر يخالف الطَّريقة الَّتي كان عليها بنو إسرائيل ومن كان قبلَهم؛ لرُقيِّ شريعته وكمالِها.

جعلُه ﷺ على شريعة من الأمر يخالف الطَّريقة التي كان عليها بنو إسرائيل ومن كان قبلَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 25/ 346.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 347.

توجيه استعمال فعل ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾:

ثباتُ الشَّريعة وعدم اختلافِها يسهِّل اتِّباعَها في جميع الأزمان ويستدعي عدم اختلاف متَّبعيها

لَمّا كان الجعل على معنى الثَّبات؛ لأنَّ جعل الشَّيء على شيءٍ يفيد ثباتَه ومثله ممّا يدلُّ على أنَّ الفعل يدلّ على الثَّبات قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: 31]، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: 32]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ دلَّ على أنَّ قولَه: ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾ تضمَّن معنى ثبَّتناك على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبعها، ولهذا لم يقل: أمرناك باتِّباع الشَّريعة؛ ليفيد بطريق اللُّزوم ثبات الشَّريعة وعدم اختلافِها، فإنَّ الثَّبات على شيءٍ يفيد ثبات ذلك الشَّيء.

نكتةُ الإسناد إلى ضمير العظمة:

جعل الله تعالى رسوله ﷺ على الشَّريعة مدحٌ له وتفخيم لأمرِه وشأنِه

أسند الفعل (جعل) إلى ضميرِ العظمة في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾؛ للإيذان بأنَّ هذا الجعلَ من مظهر عظمة اللّه تعالى، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد الأحد، ففيه تعظيم لرسول اللّه ﷺ وتعظيم لشريعتِه الشَّريفة، وفيه مدح للرَّسول ﷺ بأنَّ هذا الجعل هو من جعْلِ اللّه تعالى وتوفيقِه، فلا يقدر أحدٌ على تغييره وتبديلِه.

دلالةُ الخطاب في ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾:

لولا رسول الله ﷺ؛ لَما كانت أمَّته على هذه الشَّريعة

أفاد الخطابُ الموجَّه إلى رسول اللّه ﷺ في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾ خَصوصيَّتَه على سائر الأنبياء والرُّسل، ففيه تنويهٌ برسول اللّه ﷺ، وأنَّه لولاه؛ لَما كانت أمَّته على هذه الشَّريعة.

نكتة استعمال حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

من يرِدْ شريعة رسول الله ﷺ يجد الرِّيَّ فيها

لَمّا كان حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ يدلُّ على التَّمكُّن والاستيعاب وقوَّة اللزوم؛ أفاد أنَّ التَّعبير بقوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ﴾ على طريق الاستعارة التَّبعيَّة[1]، بمعنى: جعلناك متمكِّنًا من الشَّريعة

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 426.

بقوَّة، مستوعبًا لها، كما أنَّه لمّا كان قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على معنى: جعلناك قائمًا عليها؛ أفادَ أنَّه تعالى جعل رسول اللّه ﷺ قائمًا على شريعة هذا الدّين؛ إذ يرد الواردون إليه، فيجدون الرَّيَّ من هذا المورد، ويحمل كلُّ واردٍ ما استطاع حمله منه[1].

بلاغة الاستعارة:

شريعة الإسلام سبيلٌ موصلٌ إلى ما هو سببٌ للحياة الأبديَّة

عبَّر بلفظ الشَّريعة في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ على طريق الاستعارة؛ لأنَّه إمّا أن يكون من الشَّرع، وهو سلوك الطَّريق الواضح[2]، فيكون قد شبَّه السَّير على شريعة الإسلام بسلوك الطَّريق الواضح[3] بجامع الوضوح والسَّير على المحجَّة والوصول إلى المقصود، وإمّا أن تكون الاستعارة من الشَّرع الذي هو مورد الشّاربة الماء[4]، فيكون قد شبَّه الشَّريعة بالمورد الَّذي يرد فيه النّاس الشّاربة الماء في الأنهار والعيون، أي: في المواضع التي لا انقطاع للماء فيها، فاستُعير لفظُ الشَّريعة لارتياد النّاس أمرَ الدّين، والجامع بينهما: هو ارتياد النّاس الموضع الَّذي تكون به حياتُهم وارتواؤهم وتطهُّرهم وما لا غنى لهم عنه مع ديمومتِه وسهولتِه، فكما أنَّ الشَّريعة سببٌ لحياة النّاس لارتيادِهم مشرب الماء الذي هو سبب حياتِهم[5]، فكذلك شريعة الإسلام سبيلٌ موصلٌ إلى ما هو سببٌ للحياة الأبديَّة، ففي التَّعبير بطريق الاستعارة إيماءٌ إلى أنَّ شريعة الإسلامِ طريقة واسعة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة إلى المقصود هي جديرة بأن يشرع النّاس فيها، ويسيروا عليها[6].

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 239.
(2) الراغب، المفردات: (شرع).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 2/ 262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شرع).
(5) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 358.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 87.

غرض تنكير ﴿شَرِيعَةٍ﴾:

رسول الله ﷺ أوتي الدّينَ كلَّه في هذه الشَّريعة

أفاد تنكير لفظ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ التَّعظيم والتَّفخيم، بمعنى: أنَّها شريعة عظيمة ليست مثل سائر الشَّرائع، ولمّا كان بنو إسرائيل قد أوتوا الكتاب والحكمَ والنُّبوَّة، وأوتوا البيِّنات؛ أفادَ قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أنَّ سيِّدنا محمَّدًا ﷺ لم يؤتَ كتابًا مثل سائر الكتب المتقدِّمة، ولم يؤتَ مجرَّد آياتٍ وبيِّناتٍ من الدّين، وإنَّما أوتي الدّين كلَّه في هذه الشَّريعة.

فائدة ﴿مِّنَ﴾:

تتنوَّع معاني (من) بحسب المعاني المحمولة عليها

تحتمل ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أن تكون للتَّبعيض بمعنى: أنَّ الشَّريعة من بعض الأمر الَّذي هو مختصٌّ باللّه تعالى، كما تحتمل أن تكون بيانيَّة؛ لتفيد بيان الشَّريعة، أي: شريعة هي من الأمر العظيم الَّذي هو عند اللّه تعالى، فالأمر جنس للشَّريعة، كما تحتمل أن تكون للابتداء، بمعنى موردِ الشَّريعة، ومبدؤه هو من الأمر العظيم.

فائدة (ال) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

الشَّريعة شأنٌ عظيم من أمرِ الله تعالى

(الـ) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ للعهد بمعنى الأمر الذي هو شَأنُ الدِّينِ، وهوَ شَأن من شؤون اللّه تَعالى، ويحتمل أن تكون عوضًا من المضاف إليه، بمعنى: من أمر اللّه، والأمر هنا مشتقٌّ من الأمور بمعنى الشَّأن العظيم[1]، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ من الأمر بمعنى الأوامر، أي: على شريعة من الأوامر والنَّواهي، فسمّى جميع ذلك أمرًا على سبيل التَّغليب[2]، والظّاهر هو الأوَّل؛ لأنَّ الكلام على الشَّريعة كلِّها، وليس على خصوص الأوامر فيها، ولا داعيَ لارتكاب المجاز بالتَّغليب.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 84، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 164.

شريعةُ الإسلام أفضل من جميع الشَّرائع السّابقة وأفضل من شريعة موسى عليه السلام

بلاغةُ الإيجاز في المعاني:

بلغت الجملة الخبريَّة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ من الإيجاز مبلغًا عظيمًا، بما دلَّ عليه حرف التَّراخي ولفظ الجعل بصيغة الماضي وتوجيه الخطاب إلى رسول اللّه ﷺ؛ إذ أفادت أنَّ شريعة الإسلام أفضل من جميع الشَّرائع السابقة وأفضل من شريعة موسى عليه السلام، وأنَّها شريعة عظيمة، وأنَّ الرَّسولَ ﷺ مُتَمَكِّنٌ منها ثابتٌ عليها لا يُزَعزِعُهُ شَيءٌ عَنِ الدَّأبِ في بَيانِها والدَّعوَةِ إلَيها، ولِذَلِكَ فَرَّعَ عَليها أمرَهُ بِاتِّباعِها بِقَولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾[1].

اتِّباعُ الشَّريعة بعد العلمِ بها

نكتة التَّعبير بالفاء ودلالتُها:

لمّا كانت الفاء تفيد التَّعقيب والتَّفريع والتَّرتيب؛ أفاد قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أنَّ أمرَه ﷺ باتِّباع الشَّريعة مرتَّبٌ على جعلِه متمكِّنًا منها قائمًا عليها مستوعبًا لها، وأنَّ جعلَه كان سببًا في الأمر باتِّباعِها مع الأمر بالمبادرة إلى اتِّباعِها.

وجوب اتِّباع الشَّريعة كلِّها دون الأخذ ببعضِها وترك بعضِها الآخر

غرض الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾:

جاء الأمر للنَّبيِّ ﷺ بلفظ الاتِّباع في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ للدَّلالة على الثَّبات، على معنى أدِم على اتِّباعِها والثَّباتِ عليها؛ لأنَّ رسول اللّه صلَّى اللّه عليه سلَّم متَّبعٌ للشَّريعة، فالأمرُ لطلبِ الدَّوام، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النِّساء: 136][2]، وإنَّما قال: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، ولم يقل: فأدم على اتِّباعِها؛ لثلاث فوائدَ: **الأولى**: الإشعار بلزوم اتِّباعِها كلِّها، دون تركِ بعضِها، **والثّانية**: الإيماء إلى إجراءِ أحكامِها في نفسِك وفي غيرِك من غيرِ إخلالٍ بشيءٍ مِنها[3]، **والثّالثة**: ليكون الأمر باتِّباعِها؛ تمهيدًا للنَّهي عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 348.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 308، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 348.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.

اتِّباعِ غيرِها في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والجمعُ بين الأمر والنَّهي يقتضي حصْرَ المطلوب ووضوحَه.

سرُّ التَّعبير بلفظ الاتِّباع:

الشَّريعة هي المتقدِّمة، والمتَّبِعُ يتأسّى بها، ويقتفي أثرها، ويسير على خطاها

لَمّا كان الاتِّباع بمعنى لحوق أثرٍ والارتسام بأمرِه، أو هو لحوق الشَّيء بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ مع رقَّةٍ ولينٍ في الاتِّباعِ[1]؛ أفاد التَّعبير بلفظ ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ لحوق المتَّبِع للشَّريعة بأن تكون هي المتقدِّمة عليه ناظرًا إليها لا يحجبه عنها حاجبٌ ولا فاصلٌ متأسّيًا بها متطلِّبًا لأحكامِها وأوامرِها ونواهيها، متهيِّئًا لِما ترسمه ليقتفيها، ويسير على خطاها، بحيث تكون هي السّابقة، والمتَّبع لاحقٌ بها، وهي الأصل والمصدر، وليس من لفظٍ يتضمَّن هذه المعاني مثل لفظ ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ في هذا السّياق.

دلالةُ المبالغة في التَّعبير بصيغة (اتَّبِع):

لَمّا كان لفظ (اتَّبِع) على صيغة (افتَعِل)؛ أفادَ أنَّ الأمرَ على معنى بذل غاية الجهدِ في اتِّباع الشَّريعة[2].

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾:

الشَّريعة واضحةٌ بيِّنة لا يزيغ عنها إلّا الأعمى

لَمّا كان الأصلُ في المتبوع أن يكون شيئًا مشخَّصًا؛ لأنَّ الاتّباع يكون باقتفاء الأثر بحيث يكون المتبوعُ سابقًا والتّابع لاحِقًا[3]؛ كان الأمر باتِّباع الشَّريعة في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة، وذلك بتشبيه الشَّريعة بالإنسان الذي يُرتسَم أثرُه بجامع الوضوح في الاتِّباع والاقتفاء، ثمَّ حذف المشبَّه به، ورمز له بشيء من لوازمِه وهو الاتِّباع، ويحتمل أن يكون الإسناد على طريق المجاز بالحذف، أي: بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وتقدير

(1) الراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تبع).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 87.

(3) الراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (تبع).

الكلام: فاتَّبع أوامرَها، أي: انقاد إليها، وامتثل لها، فيكون الاتِّباع بمعنى الانقياد والامتثال لأوامرِها، ويمكن أن تُجرى الاستعارة على طريقة التَّصريحيَّة بأن شبَّه العمل بالشَّريعة بالمتَّبع لخطاها، بجامع الالتزام وعدم المفارقة.

نكتةُ عطف النَّهي على الأمر:

الإغضاء عن أذى المشركين، وما يسمعونه في القرآن من الصَّفح عنهم لا يقصد به مداهنتهم ولا متابعتهم

جاء النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معطوفًا على الأمر ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، ونكتة العطف بالواو هو الإيذان باشتراك المعطوف والمعطوف عليه في التَّرتُّب على قوله: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: كأنَّه قال: فاتَّبعها، ولا تتَّبِع أهواء الَّذين لا يعلمون، كما أفاد العطف وجوبَ الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه؛ ليفيد أنَّ الأمر لا يكون باتِّباع الشَّريعة فقط، بل لابدَّ من ترك اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، ففيه إيماء إلى سعي أهل الأهواء إلى أن يتَّبعَ النّاس أهواءَهم وتزيينها لهم، وفيه كذلك إيذانٌ بأنَّ الإغضاء عن هفواتِ المشركين وأذاهم وما يسمعونه في القرآن من الصَّفح عنهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، لا يُقصَد به مداهنتهم ومتابعتُهم، فلا يطمع أحدهم بمصانعة الرَّسول ﷺ والمؤمنين إيّاهُم حِين يَرَونَ مِنهُم العفو عن أذاهم(1).

فنُّ الطِّباق بين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ و﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾:

النَّجاةُ لا تكون إلا باتِّباع الشَّريعة، وترك اتِّباعِ الأهواء

بين قوله تعالى: (اتَّبِعها)، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ محسِّنُ المطابقة بين الأمر بالاتِّباع والنَّهي عن اتِّباع الأهواء، وفائدة الطِّباق: الإشعارُ بأنَّ الأمرَ لا يكون إلّا باتِّباع الشَّريعة وترك اتِّباع غيرِها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 348.

بلاغة التَّعريض:

في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعريضٌ بالمؤمنين في ألّا يتَّبعوا أهواء الذين لا يعلمون(1)، وإنَّما جاء خطابُ النَّهي موجَّهًا إلى رسول الله ﷺ تعظيمًا لخطر متابعتِهم واقتفاء أثرِهم.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿أَهۡوَآءَ﴾:

الهوى قد يكون سببًا في الهلاك

عبَّر عن اتِّباع غير الشَّريعة بالأهواء؛ ليكون الكلام على طريق المجاز بتشبيه أيِّ أمرٍ سوى الشَّريعة بالأهواء، ثمَّ حذف المشبَّه، وصرَّح بالمشبَّه به ﴿أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ﴾ على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، فلم يقل: ولا تتَّبِع غيرَها، وعدل إلى الاستعارة التَّصريحيَّة؛ للإيذان بأنَّ كلَّ ما سوى الشَّريعة؛ فهو أهواء الذين لا يعلمون.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أَهۡوَآءَ﴾:

اتِّباع الشَّريعة لمقتضى الدَّليل واتِّباع الأهواء لمقتضى الشَّهوة

عبَّر بلفظ ﴿أَهۡوَآءَ﴾ دون لفظ شهوات؛ لنكتٍ لطيفة ومعانٍ دقيقة، ففي اللَّفظ إشعار بأنَّ من يتَّبع الهوى يسقط في الهاوية؛ لأنَّ الهوِيَّ سقوط من علوٍّ إلى سفلٍ في انحدار(2)، كما يفيد التَّعبير أنَّ الأهواء ليس لها دليل عن نظرٍ وعلم؛ لأنَّ الأهواء هي الآراء التّابعة للشَّهوات؛ ليفيد بلازمِه أنَّ الشَّريعة قائمة على الدَّليل والبرهان، فاتِّباعها إنَّما هو اتِّباع لمقتضى البرهان الذي تشتمل عليه، كما أفاد التَّعبير بالأهواء أنَّ المشركين وأهل الكتاب يزيِّنون آراءَهم حتَّى يميل النّاس إليها، وقد جاء في الرِّواية أنَّ المشركين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: (ارجِعْ إلى دينِ آبائِك)(3)؛ تشويقًا إلى الرُّجوع عن الحقِّ وتزيينًا له، ومن أسرارِ التَّعبير بالأهواء أنَّ في اللفظِ إيماءً إلى أنَّ الذين يتَّبعون غير الشَّريعة إنَّما يتَّبعون ما تميل إليه أنفسُهم وشهواتُهم ممّا لا يقتضيه البرهان ولا الدَّليل، ومن لطائف التَّعبير بالأهواء دون الشَّهوات أنَّ الخطاب

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 348.

(2) الراغب، المفردات: (هوى).

(3) البغوي، معالم التّنزيل: 4/ 186، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

موجَّه إلى رسول اللّه ﷺ، فلا يليق نهيه عن اتِّباع الشَّهوات؛ لِما يشعر به الكلام من منقصةٍ للمخاطَب.

بلاغةُ التَّعريض في النَّهي عن اتِّباع أهوائِهم:

من زهد في عقله، وصحب هواه، فلن يتعرَّف إلى هذه الشَّريعة، ولن يردَّ مواردها

في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعريضٌ بمَن لا يتَّبعون الشَّريعة بأنَّهم إنَّما اتَّبعوا الأهواء، وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الشَّريعة، لا يتَّبعها إلّا مَن كان صاحبَ عقلٍ سليم ينظر به إلى هذه الشَّريعة، ثمَّ يؤدّيه النَّظر الصَّحيح إلى العلم لا إلى الأهواء، فلا يرد موارد الشَّريعة، ولا يتَّجه إليها إلّا من كان ذا عقلٍ لم يختلط بالأهواء، ومن زهد في عقله، وصحب هواه، فلن يتعرَّف إلى هذه الشَّريعة، ولن يرد مواردها.

فائدة إضافة الأهواء إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

الإضافة في قولِه: ﴿أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، وهي إضافة مشعرة بأنَّ الأهواء إنَّما هي من صنع الَّذين لا يعلمون، وتعطي معنى الاختصاص، بمعنى هي أهواء مختصَّةٌ بهم، منسوبةٌ إليهم.

مناسبة التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلتِه:

الأهواء صادرة عن الجهلِ بالله والجهل بضررِها

لمّا كانت صلة الموصول معلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه عند المخاطَبين؛ أفاد قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الإشعار بأنَّ أهواء الذين لا يعلمون معلومةٌ واضحةٌ، كما أنَّ الشَّريعة هي أيضًا واضحة ظاهرةٌ، كما أشعر التَّعبير بصلة الموصول بيان سبب الحكم وعلَّته، بمعنى: أنَّه إنَّما نهى عن اتِّباع الأهواء؛ لأنَّها صادرةٌ من الذين لا يعلمون، وهي مختصَّة بهم، ويتفرَّع على هذا الوجه ذمُّهم وإهانتُهم بنسبتِهم إلى عدم العلم.

براعةُ استعمال نفي العلم دون إثبات الجهل:

نفى عنهم العلم في قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم لمّا لم

ينتفعوا بما علموا؛ نفى عنهم العلم[1]، فمَن لم ينتفع بالعلم؛ كان كَمن لا علمَ له، ولو قيل: (ولا تتَّبع أهواء الجاهلين)؛ لأفادَ أنَّ العلم لم يصلهم، والحالُ أنَّه قد جاءهم العلم بالكتاب، وتمكَّنوا منه، كما أنَّه لمّا نفى العلم عنهم؛ أنزلهم منزلة لازم عدم العلم، وهو الجهل.

مَن لم ينتفع بالعلم كان كمن لا علمَ له

نكتة التَّعبير بصيغة الجمع:

إنَّما قال: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بصيغة الجمعِ؛ للمبالغة في جهلِهم، كأنَّهم ليسوا من ذوي العلوم والعقول، ولا ينتسبون لهم، وهو أشدُّ ذمًّا من نفي العلم عن المفرد.

علَّة اختيار العلم دون الإيمان:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفى عنهم العلم، ولم يقل: ولا تتَّبع أهواء الذين لايؤمنون؛ للإشعار بأنَّ اتِّباع الشَّريعة قائمٌ على اتِّباعِ العلم والنَّظر العقليِّ الصَّحيح: وأنَّ اتِّباع الأهواء قائمٌ على اتِّباع الجهّال، وفيه إيماءٌ كذلك إلى أنَّ كلَّ ماخالفَ الشَّريعة لا علمَ فيه.

اتِّباع الشَّريعة قائمٌ على اتِّباعِ العلمِ والنَّظر العقليِّ الصحيح

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد عدم العلم واستمرارِه عند أهل الأهواء.

الغرضُ من حذف المفعول:

حذف المفعول به للفعل المتعدّي ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وليس له مفعول لا لفظًا ولا تقديرًا؛ لأنَّ المرادَ إثبات معنى الفعل المنفي للفاعل، ففيه إيذانٌ بأنَّه لا يكون منهم العلمُ، فالمقصود إثبات نفي العلم عنهم، ومن لا يكون منه العلم لايأتي منه إلّا الأهواء الباطلة، فلا يُتَّبَعُ، فكان حذف المفعول بمنزلة بيان سبب النَّهي عن اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون.

من لا يكون منه العلمُ لايأتي منه إلّا الأهواء الباطلة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 9/ 224.

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ [الجاثية: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من خالف أمرَ الله لأجلِ أحدٍ كان كمن يُظنُّ أنَّه يحميه

لمّا نهى اللّه تعالى رسولَه الكريم ﷺ عن اتِّباع أهواء الَّذين لايعلمون؛ علَّل هذا النَّهي مهدِّدًا موعدًا بقولِه، مؤكِّدًا له؛ تنبيهًا على أنَّ من خالف أمرَ اللّه لأجلِ أحدٍ كان كمن يُظنُّ أنَّه يحميه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُغۡنُواْ﴾: أصلُ (غني) يدلُّ على الكِفايةِ، الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنِيَ يَغنَى غِنًى، والغَناءُ بِفَتحِ الغَينِ مَعَ المَدِّ: الاستِغناءُ والكِفايةُ، يُقالُ: لا يُغنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكفِي كِفايَتَه[1]، وغَنِيَ القَومُ في دارِهِم: أقاموا، كَأَنَّهُم استَغنوا بها[2]، والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاستِغناء عَن الشَّيء[3]، والغانِيَةُ: المُستَغنِيَةُ بزوجها عن الزِّينة، وقيل: المُستَغنِيَةُ بحسنها عن التَّزيُّن[4]، والإغناء في الآيةِ مُرادٌ به: جَعْلُ الآخر غنيًّا، أي: غير مُحتاجٍ[5].

المَعنى الإجماليُّ:

الظّالمون يتولّى بعضُهم بعضًا والله ناصرُ المؤمنين

يخبر اللّه تعالى عن أنَّ الجاهِلينَ الَّذين يَدعونَك - يا محمَّدُ ﷺ - لاتِّباعِ أهوائِهم: لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، ولن يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبعْتَ أهواءَهم، وخالَفْتَ ما شرَعَ اللّهُ لك،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غني).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غني).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 25/ 349.

وإنَّ الظّالِمينَ يَتولَّى بَعضُهم بعضًا؛ فهُم أنصارٌ وأحبابٌ فيما بينَهم، وأعوانٌ على المؤمِنينَ، واللّهُ ناصِرٌ ومُعِينٌ لِلمُتَّقينَ الَّذين يَتَّقون سَخَطَ اللّهِ وعَذابَهُ، بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة جملة التَّعليل: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟﴾:

في مخالفةِ ما أمـرَ اللـه من اتِّباعِ شريعتِه ما يـوقعُ في غضب الله وعقابِه

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ على طريق الفصل مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان علَّة النَّهي[2]، ففيها إيماءٌ إلى بيان علَّة الأمر باتِّباع الشَّريعة، وبيانُه أنَّه لمّا نهى عن اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فكأنَّ سائلًا سألَ عن سبب النَّهي، فعلَّله بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾، أي: لأنَّهم لن يغنوا عنك، والتَّعليل يشير في المعنى إلى جملة شرطيَّة، أي: إن اتَّبعت أهواءَهم؛ فإنَّهم لن يغنوا عنك من اللّه شيئًا، كما يتضمَّن الاستئنافُ تعليلَ الأمر باتِّباع شريعة اللّه، فإنَّ كونَهم لا يُغنون عنه من اللّه شيئًا يستلزمُ أنَّ في مخالفةِ ما أمرَ اللّه من اتِّباعِ شريعتِه ما يوقعُ في غضب اللّه وعقابِه، فلا يغني عنه اتِّباعُ أهوائِهم من عقابِه[3]، وفي هذا التَّعليل تهديدٌ ووعيد لِمَن يتَّبع أهواء الكافرين.

فائدة التَّأكيد في ﴿إِنَّهُمْ﴾:

أفادت (إنَّ) والجملة الاسميَّة بعدها، وتكرار ذكر المسند إليه، تأكيدَ مضمون الجملة وتقريرها؛ للإشعار بأهمّيَّة المعنى بحيث يكون مقرَّرًا، فلا يغفلُ عنه.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 86، والسمعاني، تفسير القرآن: 5/ 139، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 164، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 201.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 147.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 347.

دلالة عود الضَّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ إلى الاسم الموصول مع صلتِه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: إنَّ الذين لا يعلمون المتَّصفين بالأهواء لن يغنوا عنك من اللّه شيئًا، ففي عود الضَّمير إلى الاسم الموصول وصلتِه إيماءٌ إلى سبب عدم الغنى بهم يوم القيامة.

نكتةُ استعمال أداة النَّفي ﴿لَن﴾ دون (لا):

أهل الأهواء لانفعَ منهم لمتَّبعيهم ولن يغنوهم من الله شيئًا

عبَّر بأداة النَّفي ﴿لَن﴾ دون (لا) في قوله: ﴿لَن يُغْنُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿لَن﴾ نقيض سوف، وتفيد النَّفي المؤكَّد، فكأنَّ من يتَّبع أهواء الذين لا يعلمون يظنّون أنَّ أهل الأهواء سوف يغنون عنهم من اللّه يوم القيامة، وأنَّهم سوف ينتفعون منهم في المستقبل البعيد، فعُبِّرَ بأداة النَّفي ﴿لَن﴾؛ للإيذان بالرَّدِّ عليهم مع نفي الانتفاع منهم نفيًا مؤكَّدًا.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿يُغْنُواْ﴾ دون (ينفعوك) أو (سوف يضرّونك):

من يتَّبع أهواء الذين لا يعلمون إنَّما يتَّبعهم بسبب قصد غناه بهم والاستفادة منهم

لمّا كان الغِنى يكون بالمال أو بالقوَّة أو بالمعونة، ويدلُّ على كفاية المستغني[1]؛ عبَّر بقوله: ﴿لَن يُغْنُواْ﴾ دون أن يقال: إنَّهم لن ينفعوك؛ لأنَّ من يتَّبع أهواء الذين لايعلمون إنَّما يتَّبعهم لقصد غناه بمالِهم أو بقوَّتِهم أو بأيٍّ معونةٍ منهم بحيث يكتفي بهم يوم القيامة، ففي التَّعبير بنفي الغنى إشارةٌ إلى أنَّه لا يتَّبعهم من أجلِ أهوائِهم؛ لأنَّه يعلمُ أنَّها باطلةٌ ليست قائمةً على دليل، ولهذا لم يقل: إنَّها لن تغني عنك من اللّه شيئًا، فلمّا كان المراد أنَّ من يتَّبع أهواء الَّذين لا يعلمون إنَّما يتَّبعهم؛ بسبب قصد غناه بهم، وليس من أجل صحَّة أهوائهم نفي غناه بهم، وهذا هو السَّبب أيضًا في التَّعبير بنفي الغِنى دون إثبات الضُّرِّ، أي: ولهذا لم يقل: إنَّهم سوف يضرّونك، كما أنَّ نفي الغنى يفيد معنى الضُّرِّ، فإنَّه لَمّا كان الغِنى بمعنى الكفاية والإجزاء؛

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غنى).

أفادَ بلازمِه معنى لُطفِ الرّاحة من العَناء والشَّقاء[1]، فلمّا نفى الغِنى؛ أفادَ أنَّهم سيكونون في عناءٍ وشقاءٍ يوم القيامة، فلن يدفعوا عذاب الله عنهم، فأفاد نفيُ الغنى نفيَ الانتفاع، ونفي دفع العذاب[2] دفعةً واحدةً، فلا يكون لك منهم خيرٌ، ولا يدفعون عنك شرًّا؛ إنِ اتَّبعت أهواءَهم.

بلاغةُ التَّضمين في استعمال حرف (عَنْ):

تكثير المعنى بتضمين الحرف معنى حرفٍ آخر

تعدَّى الفعل ﴿يُغۡنُواْ﴾ بحرف الجرِّ (عَنْ) في قوله: ﴿لَن يُغۡنُواْ عَنكَ﴾؛ لتضمين الفعل معنى الدَّفع، والتَّقدير: لن يدفعوا عنك، فأفادت التَّعدية بـ(عَنْ) تقريرَ ما تقدَّم من نفي دفع العذاب عنه يوم القيامة، وهذه المبالغة في نفي النَّفع ونفي دفع العذاب عنه؛ للإقناط الكلّي للكفّار من اتِّباعِه ﷺ لهم[3]، وفي التَّضمين تجتمع قوَّة الفعلَيْن على تقدير: إنَّهم لن يدفعوا عنك دفعًا يغنيهم عنك.

فائدة ﴿مِنَ﴾:

الغنى لا يكون إلّا من الله تعالى، ولن يغني أحدٌ أحدًا شيئًا بدلًا منه سبحانه

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى البدل[4]، أي: لن يغنوا عنك بالنَّفع، أو بدفع ما ينزل بك بدلًا مِنَ الله شَيئًا؛ إنِ اتَّبعت أهواءهم، فلن يغنوا بدلًا من رحمة الله تعالى شيئًا، ففيه إشارة إلى أنَّ الغنى لا يكون إلّا من الله تعالى، ولن يغني أحدٌ أحدًا شيئًا بدلًا منه سبحانه، وتحتمل أن تكون لابتداء الغاية[5]، والمعنى: إنَّهم لن يغنوا عنك شيئًا عند ابتداء العذاب من الله تعالى.

سبب إيثار اسم الجلالة دون عنوان الرُّبوبيَّة:

لمّا جاء التَّعليل في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ على

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غنى).
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 97، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 356.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 308.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 450.

معنى التَّهديد والوعيد لمن يتَّبع أهواء الذين لا يعلمون؛ ناسب ذِكر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ الدالِّ على الألوهيَّة.

نكتة تقديم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

تقرير معنى أنَّ الغنى لا يكون إلّا من الله تعالى

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفة للفظ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في الأصل، فلمّا تقدَّمت الصِّفة على الموصوف؛ صارت حالًا مقيَّدة للإسناد، فيكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ حالًا، وعامله ﴿يُغۡنُواْ﴾، وهي حالٌ مقترنة، وتقدير الكلام يختلف باختلاف توجيه معنى ﴿مِنَ﴾، فإمّا أن يكون المعنى: لن يغنوا عنك شيئًا حالَ كونِ إغنائِهم بدلًا من اللّه، أو المعنى: لن يغنوا عنك شيئًا في حالِ ابتداء وقوع العذاب، فيكون المقصود من الحالِ على الوجهين: أنَّ الغنى لا يكون إلّا من الله تعالى.

نكتة تنكير ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

التّـنـكـير أفـادَ العموم

لمّا جاء لفظ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ نكرةً في سياق النَّفي؛ أفاد العموم، بمعنى: لن يغنوا عنك من اللّه شيئًا، والمقصود بالأولويَّة وبالذّات من التّنكير التَّحقير والتَّقليل، بدلالة السّياق، والمعنى: لن يغنوا عنك من اللّه شيئًا، ولو كان الإغناء قليلًا حقيرًا.

الموقع النَّحوي لـ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

تأكيد نفي أيِّ نوعٍ من الإغناء

الظّاهر أنَّ لفظ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ نائب عن المفعول المطلق، وهو بمنزلة المفعول المطلق في الدَّلالة، وتقدير الكلام: لن يغنوا عنك من اللّه شيئًا من الإغناء، وفائدة مجيء المفعول المطلق تأكيد نفي أيِّ إغناءِ للَّذين لايعلمون وتقريره، مع بيان نفي نوع الإغناء ليشمل قليلَه وعظيمَه، وأجاز بعض النُّحّاة أن يكون ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ مفعولًا به للفعل ﴿يُغۡنُواْ﴾ على اعتبار تضمين الفعل معنى يدفع، أي: لن يدفعوا عنك من اللّه شيئًا.

فائدة الواو في ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عاطفة للجملة التي بعدها على

ما قبلها، فتكون جملة: (إنَّ الظّالِمِينَ بَعضُهُم أولِياءُ بَعض) استئنافًا بيانيًّا كذلك؛ لتكون الجملة جواب سؤال تقديره: فما حال من يتَّبع أهواء الَّذين لا يعلمون؟ فقيل: (إنَّ الظّالِمِينَ بَعضُهُم أولِياءُ بَعض)؛ ليفيد الحكم على أهل الأهواء من الذين لا يعلمون، ومن يتَّبعونهم بكونِهم ظالمين بعدَ أن حكم عليهم بعدم الإغناء.

أهـل الأهـواء ومن يتَّبعونهم ظـالمـون ولـن يـغـنوا مـن الله شيئًا

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات:

جاءت جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، وبمجيء الجملة اسميَّةً، وفائدة تتابع التَّأكيد تقرير أهمّيَّة مضمون الجملة وتقريرها عند المخاطَبين؛ لكي لايغفلوا عن هذا الأمر المهمِّ الذي ينبغي ألّا يُنسى.

بلاغة الإظهار في مقام الإضمار:

لَمّا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ كان الظّاهر أن يقال عطفًا عليه: وإنَّهم بعضهم أولياء بعض؛ لكنَّه عدل إلى الإظهار في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ للإعلام بوصفِهم[1]، وليكون الحكم عليهم بولاية بعضِهم لبعضٍ متعلِّقًا بوصف الظُّلم واجتماعِهم عليه.

الـظُّـلـم مـنـاطُ ولايــة الـظّـالمين بعضهم لبعضٍ

سبب إيثار التَّعبير بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون الكافرين:

لَمّا كان الظُّلم هو وضع الشَّيء في غير موضعِه المختصِّ به[2]؛ أفاد التَّعبير بوصف الظّالمين أنَّ من لم يتَّبع الشَّريعة ظالم؛ إذ كان كمن وضع نفسَه في غير موضعِها المختصِّ بها، وهو اتِّباع الشَّريعة، كما أفادَ أنَّ أصحاب الأهواء ظلموا من اتَّبعَهم بتزيين أهوائِهم لهم، ومن اتَّبعهم ظلموا أنفسَهم باتِّباعهم أهواء الَّذين لايعلمون، فالتّابع والمتبوع ظالمان لتركِهما اتِّباع الشَّريعة، فلمّا

مـن لـم يتَّبع الشَّريعة ظالم لنفسِه ولغيره

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 88.

(2) الراغب، المفردات: (ظلم).

كان المرادُ النَّعي عليهم في وضعِهم الشَّيء في غير موضعِه؛ عبَّر بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] دون الكافرين.

فائدة(ال) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للاستغراق فتفيد الشُّمول، والمعنى: كلُّ الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ.

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل:

أفادَ التَّعبيرُ بالوصف المشتقِّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عراقةَ أصحاب الأهواء وأتباعِهم في الظُّلم وانغماسَهم فيه؛ لأنَّ اسم الفاعل يدلُّ على تمكُّن الفعل من صاحبه.

دلالةُ تعليق الخبر على الاسم المشتقِّ:

إنَّما يوالي الظَّالمين من هو ظالمٌ مثلُهم

لمّا كان تعليق الحكم بالمشتقِّ يدلُّ على عِلِّيَّة الاشتقاق؛ أفاد تعليق الخبر ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ على المشتقِّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ سبب ولاية بعض الظّالمين لبعض وانضمامهم وتعاونهم هو كونهم موصوفين بالظُّلم، فالوصف في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علَّةٌ للانضمام وولاية بعضِهم لبعضٍ[2]، وإنَّما يوالي الظالمين من هو ظالمٌ مثلُهم.

بلاغة الإخبار عن المسند إليه بالجملة الاسميَّة:

ولاية بعض الظّالمين لبعضِهم أمرٌ ثابت دائم لا يتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان

جاءت الجملة الاسميَّة ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ خبرًا لقولِه: (إنَّ الظّالِمينَ)؛ للإشعار بأنَّ ولاية بعض الظّالمين لبعضِهم مفهومٌ ثابتٌ دائمٌ لا يتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان، ففي كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان هذا حالُ الظّالمين بعضهم مع بعضٍ، ولو جيء بالجملة الفعليَّة، كأن يقال: وإنَّ الظّالمين يوالي بعضُهم بعضًا؛ لأفاد الفعلُ التَّجدُّد بسبب دلالتِه على الزَّمن؛ لأنَّ دخول الزَّمان الَّذي من شأنِه التَّغيُّر في مفهومِه مؤذنٌ بذلك.

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 444.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427.

براعة التَّعبير بالبعضيَّة:

لمّا كان البعض هو جزءًا من كلٍّ أو فريق من جماعة[1]؛ عبَّر بالبعضيَّة في قولِه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾؛ للإشارة إلى عدم الاختلاف في ولاية بعض الظّالمين لبعضٍ بين أن يكون البعض واحدًا أو فريقًا، كما أشعر لفظ (بَعض) المفيد معنى الإبهام والشُّيوع في الذّات أنَّ الولاية بينهم بعلّيَّة كونِهم ظالمين، وليس باعتبار أيِّ شيءٍ آخر، فقد يختلفون في النَّوع وفي الشَّكل وفي النَّسب، ولكنَّهم يوالي بعضهم بعضًا لاشتراكِهم في الوصف بالظُّلم.

الـظّـالمـون لا يـواليـهـم، ولا يتَّبع أهـواءهـم إلّا من كان ظالماً مثلهم

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ دون (أنصار):

عبَّر بلفظ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ دون أن يقال: (وإنَّ الظالمين بعضهم أنصار بعضٍ)؛ لما يفيده لفظ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ من أنَّهم أصدقاءُ وأنصارٌ وأحبابٌ، فيوالي بعضهم بعضًا في الدين والإعانة والنُّصرة ويتحابّون فيما بينهم ويتعاونون على الباطل ومعاداة المؤمنين، فالعلاقة التي بينهم ليست قائمة على النُّصرة فقط، فكان التَّعبير بلفظ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ هو الأنسب للمقام، ولو قيل: إنَّ الظالمين بعضُهم أنصار بعض؛ لاختصَّ الكلام بالنُّصرة، مع أنَّ المقام في بيان انضمام بعضِهم لبعضٍ على سبيل الولاية.

الظّالمون أصدقاءُ وأنصارٌ وأحبابٌ فيما بينهم

فائدة العطف بالواو:

جاءت جملة: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾؛ ليكون الكلام من قبيل العطف على الضِّدِّ؛ ليفيدَ العطف وضوح المباينة بين ولاية الظّالمين بعضهم لبعض وولاية اللّه للمتَّقين، وما أبين الفصل بين الولايتين! كما أفاد العطفُ تحقيرَ الظّالمين وتشريف المؤمنين وتكريمهم، ووجه التَّحقير أنَّه لمّا أخبر أنَّ الظّالمين يتولّى بعضهم بعضًا، والمتَّقين

وضـوح المباينة بـين ولايـة الظّالمين بعضهم لبعض وولايـة الله للمتَّقين

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ظلم).

يتولّاهم اللّه؛ أخرج الظّالمين من ولايتِه سبحانه، وتبرَّأ منهم، ووكَلَ بعضَهم إلى بعض[1]، ويمكن أن تكونَ الواو للحال على معنى: والحال أنَّ اللّه وليُّ المتَّقين.

فائدةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

الــوليُّ لا يـترك وليَّه ولا يضيِّعه

أفاد التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ثبوت مضمون الجملة، بمعنى: ثبوت معنى: أنَّه تعالى وليُّ المتَّقين وعدم تغيُّره بتغيُّر الزَّمان والمكان، فهو تعالى ناصر المتَّقين ومحبُّهم ومعينهم، والوليُّ لا يترك وليَّه، ولا يضيِّعه.

بلاغةُ التَّعريض باستعمال مفردة ﴿وَلِيُّ﴾ بعد ﴿أَوْلِيَآءُ﴾:

تعدُّدُ ولاية الظّالمين وتشتُّتهم وانفرادُ ولاية الله للمؤمنين واجتماعُهم

في التَّعبير عن ولاية الظّالمين بصيغة الجمع ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، وعن ولاية اللّه للمتَّقين بصيغة المفرد في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعريضٌ بذمِّ الشِّرك وتعدُّد أولياء الظّالمين ومدح التَّوحيد، وفيه تعريضٌ آخر بتعدُّد ولاية الظّالمين وتشتُّتهم وانفراد ولاية اللّه للمؤمنين واجتماعِهم.

توجيهُ تخصيص المتَّقين بالذِّكر:

من يتَّبع الشَّريعة؛ فهو من المتَّقين، ومن يتَّبع غيرها؛ فهو من الظّالمين

سمّى المؤمنين بوصف المتَّقين في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لاتِّقائِهم اتِّباع غير الشَّريعة واتِّقائِهم الظُّلم، ففيه تنبيهٌ إلى مَن يتَّبع الشَّريعة يوصف بأنَّه من المتَّقين، ومن يتَّبع غيرها يوصَف بكونِه من الظّالمين، وأذن التَّعبير بلفظ المتَّقين أنَّ اللّه تعالى هو وليُّ رسول اللّه ﷺ، فهو ﷺ أوَّل المتَّقين، وهو قدوتهم[2].

بلاغة التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

أفادت جملة التَّذييل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الحصرَ بما يدلُّ

(1) ابن عطيَّة، التحرير والتنوير: 5/ 84، والثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 207.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 349.

الظّالمونَ لا وليّ لهم في الآخرة ينفعهم في إيصال الثّواب وإزالة العقاب

عليه تقديم الاسم الجليل على الخبر المشتقّ[1]؛ ليدلَّ الحصرُ على تخصيص ولاية الله بالمتَّقين، وليفيد التَّخصيصُ براءَتَه تعالى من ولاية الظّالمين، ولمّا جاءت الجملة اسميَّةً، وجاء المضاف إلى خبر المبتدأ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لفظًا عامًّا؛ دلَّ على عموم ولاية الله تعالى للمتَّقين، أي: في الدُّنيا والآخرة، وعلى أنَّ الظّالمين يتولّى بعضهم بعضًا في الدُّنيا، وأمّا في الآخرة؛ فلا وليَّ لهم ينفعهم في إيصال الثَّواب وإزالة العقاب[2].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 597.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرآن عنوان الشَّريعةِ

لمّا بيَّن اللّه تعالى هذه البيِّنات الباقية النّافعة، وذكر من الآيات ما فيه هدًى؛ قال تعالى مترجِمًا عنه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا أمر اللّه نبيَّه ﷺ باتِّباع الشَّريعة؛ بيَّن أوصاف القرآن المتضمِّن هذه الشَّريعة، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾: أصلُ (بصر) يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ، أي: استبانَ، ووَضُحَ[2]، ويأتي البَصَرُ بمعنى: العلمِ والإدراكِ، وهي الرُّؤيةُ بالقَلبِ، كقولكَ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا علمتَه، وأدركتَه، والإبصارُ: الرُّؤيةُ والنَّظَرُ بالعَينِ[3]، والبصيرُ والمُبصِرُ: النّاظرُ لغيره، وضِدُّه الأعمى، والبصيرةُ: قوَّة الإدراكِ والفِطْنةُ والعِلْمُ[4]، والمراد بالبصائرِ في الآية: جمعُ بصيرةٍ، وهي إدراكُ العَقْلِ الأُمورَ على حقائقها، وهي هنا بمعنى: البيِّنات والواضحات[5].

المَعنى الإجماليُّ:

القرآنُ دلائلُ واضِحةٌ للنّاس يُبَصِّرُهم الحَقَّ مِن الباطِلِ

يُثني الحقُّ سبحانه على القرآنِ المجيد، فيقولُ: هذا القرآن الَّذي أُنزل عليك يا محمَّد ﷺ معالم للنّاس ودلائل تبصِّرهم بالدِّين الحقِّ، ويَعرِفونَ بها الصَّوابَ في جميعِ أُمورِهم، وهو يَهدي إلى الحَقِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 247.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/ 59.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 350.

في الدُّنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخِرةِ، وهو رَحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للموقِنينَ، فإذا عرفوا دليل الحقِّ؛ آمنوا به، ولم يجادلوا فيه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تنوُّع توجيه الفصل في الآية إثراء للمعنى وتكثير في المقاصد المحمودة

جاءت جملة: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ مؤكِّدةً ما تضمَّنته الآيات السّابقة من كون القرآن هدًى، ومن الأمر باتِّباع الشَّريعة والنَّهي عن اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، فيكون الفصل لكمال الاتِّصال، وتكون الجملة تذييليَّة؛ لتأكيد ملازمة الاتِّباع والنَّهي عن اتِّباع غيرِها.

ويحتمل أن تكون الجملة استئنافيَّة؛ لتفيد الاستئناف البيانيَّ، فإنَّه لّما أمر باتِّباع الشَّريعة، ونهى عن اتِّباع غيرِها؛ لأنَّ غيرَها إنَّما هي أهواء الَّذين لايعلمون فكأنَّ سائلًا سأل بعدها: لِماذا الأمرُ باتِّباعِ الشَّريعة وحدها؟ فأجيب عن بيان السَّبب بأنَّ القرآن الَّذي هو الشَّريعة اشتمل على بصائرَ لجميع النّاس، وفيه هدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وتحتمل الجملة كذلك أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا أعيد بها التَّنويهُ بشأنِ القرآن ومتَّبعيه، وأُعيد بها كذلك التَّعريض بالذين أعرضوا عنه، وتكون مؤكِّدةً قوله تعالى آنفًا: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ [الجاثية: 11] الذي فيه التَّصريح بوعيد الذين كفروا بآيات ربِّهم، وتكون جملة: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ الآيةَ تعريضًا بأنَّهم لم يحظَوا بهذه البصائر، ولم ينتفعوا منها، وأنَّ المنتفعين منها هم الموقنون[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 165، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 777، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 884.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 350.

فائدة التَّعبير باسم الإشارة القريب:

إذا كان ما يُبصَر قريبًا؛ سَهُلَ الانتفاعُ به

عبَّر بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم الحاضر في الأذهان؛ لتمييزه أكملَ تمييزٍ عند المخاطَبين، وجيء باسم الإشارة للقريب دون البعيد؛ للتَّنبيه إلى أنَّ هذا القرآن الذي هو بصائر قريب من جميع النّاس، وإذا كان ما يُبصَر به قريبًا؛ سَهُلَ الانتفاعُ به، وفي مجيء اسم الإشارة للقريب تنبيهٌ إلى قرب هذه البصائر من النّاس، وأنَّها بينَ أيديهم، وفيه توبيخ لمن لم ينتفع بهذه البصائر مع قربِها منه.

نكتة التَّغاير في التَّذكير والتَّأنيث بين المبتدأ والخبر:

المقصود من (هَذا القرآنُ جملةً، والمقصود من (بَصائِرُ) آياتُ القرآن

لمّا كان الأصل تحقُّق المطابقة بين المبتدأ والخبر في التَّذكير والتَّأنيث؛ كان في مجيء المبتدأ مذكَّرًا، و الخبر على صيغة المؤنَّث، إشعارٌ بأنَّ المراد آيات القرآن، فيكون المقصود من ﴿هَٰذَا﴾ القرآن جملةً، والمقصود من ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ آيات القرآن، ففيه براعة في التَّعبير بوصف القرآن بكونِه بصائر على الإجمال وعلى التَّفصيل؛ ليدلَّ على المبالغة في المعنى، وفيه كذلك مدح للقرآن كلِّه ولكلِّ آيةٍ من آياتِه، ولا يتمُّ هذا المعنى إلّا بمجيء التَّعبير بهذا الأسلوب.

سبب التَّعبير بالجمع عن المفرد:

الحثُّ على ترك التَّقليد في الإيمان والنَّظر في أدلَّة القرآن الكثيرة المتنوِّعة

لمّا كان خبر المبتدأ على معنى اشتمال المبتدأ على كلِّ أوصاف الخبر؛ أفاد الإخبار عن المفرد ﴿هَٰذَا﴾ بالجمع ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ أنَّ جميع سور القرآن وآياتِه بصائر[1]، والمعنى: هذا القرآن بما اشتمل عليه من السّور والآيات بصائر، وفي الإخبار عن المفرد بالجمع تعظيم لشأنِ القرآن وتفخيم له.

بلاغة المجاز في التَّعبير بلفظ ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾:

لمّا كان اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ عائدًا إلى القرآن؛ كان الإخبار عن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/ 261.

القرآن بأنَّه ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ على طريق المجاز، فقد شبَّه ما في القرآن من الآيات والبيِّنات ومعالم الدين والشَّرائع بالبصيرة الَّتي يُستبصَرُ بها من العمى القلبيِّ، وتُظهر الشَّيء بعدَ خفائِه، فيرى طريق الحقِّ والخلاصِ، فجعل القرآن بمنزلة البصائر في القلوب[1]؛ ليكون التَّعبير بالبصائر على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فاستُعير لفظ البصائر لإرشاد القرآن الخلقَ إلى درك الحقائق، ويحتمل أن يقال: إنَّه لمّا كان القرآن سببًا لبصائر العقول في دلائل التَّوحيد والنُّبوَّة والمعاد؛ أطلق عليه لفظ البصيرة؛ تَسْمِيَةً لِلسَّبَبِ بِاسمِ المُسَبِّبِ، فيكون مجازًا مرسلًا[2]، ونكتة التَّعبير بالمجاز المرسل التَّنبيه إلى كون القرآن بصائر للعقول والقلوب، فكلَّما ذُكر القرآن؛ تنبَّه القلب إلى كونِه بصائر يُستبصَرُ بها، لملازمة المسبَّب للسَّبب، وذهب ابن عاشور رحمه اللّه إلى أنَّ الإسناد في قولِه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾ مجاز عقليٌّ بعلاقة السَّببيَّة، أي: لأنَّ القرآنَ سببٌ للبصائر[3]، وهذا التَّوجيه قريب من توجيه المجاز المرسل الذي وجَّه به الإسناد كثير من المفسِّرين.

القرآنُ بصائر يُستبصَرُ بها من العمى القلبيِّ

براعةُ اختيار مفردة ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾:

﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ جمع بصيرة، ولمّا كانت البصيرةُ هي الَّتي يُستبصَرُ بها؛ أفاد الإخبار عن القرآن بأنَّه بصائر في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أنَّ هذه البصائر مطلوبة يحتاجها كلُّ مستبصِر للطَّريق، وأفادَ الكلامُ بلازمِه أنَّ من لم ينتفع بها فهو في عمى، وإنَّما اختير في الإخبار عن القرآن لفظ ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾؛ لأنَّه يبيِّن للنّاس الخير والشَّرَّ، ويحرِّضهم على الخير، ويحذِّرهم

القرآنُ يحرِّضهم على الخير، ويحذِّرهم من الشَّرِّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 439، والطيبي، حاشية على الكشاف: 6/ 727، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/ 438.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 350.

من الشَّرِّ، ويعدُهم على فعلِ الخير ويوعدهم على فعل الشُّرور، فعمله عمل البصيرة[1].

دلالة الجملة الاسميَّة:

التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة يفيد الثُّبوت

أفاد التَّعبيرُ بصيغة الجملة الاسميَّة: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ثبوت مضمون الجملة ودوامها، بمعنى: ثبوت كون القرآن بصائر وكونِه هدى ورحمة لقوم يوقنون، فهذه الأخبار عن القرآن لا تتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان والأحوال.

معنى(الـ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

القرآن بصائر لجميع النّاس، فمن لم ينتفع به؛ فلاختلال مزاجِه ولعمى قلبه

(الـ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للاستغراق، بمعنى: أنَّ القرآن بصائر لجميع النّاس، فمَن لم ينتفع به؛ فلاختلال مزاجِه ولعمى قلبه، أي: منهم من يستبصِر بها، ومنهم من لا يستبصر بها، وتحتمل (الـ) أن تكون للجنس دون استغراقهم جميعًا، بمعنى: أنَّ البصائرَ للنّاس الكاملين في الإنسانيَّة[2]، فيكون المراد من البصائر من ينتفع من الاستبصار بها.

سبب إيثار لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دون للعالمين:

لا يضلُّ المستبصر بالقرآن ولا يستغرب في طريقِه

عبَّر بلفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دون أن يقال: (هذا بصائر للعالمين)؛ لمناسبة مقام ذكر البصائر، فإنَّه لمّا قال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾، وكانت البصيرة يُستبصَر بها من العمى والضياع؛ ناسب أن تكون هذه البصائر ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ للإشعار بأنَّ هذه البصائر أُنسٌ لمن يستنير بها، ويتَّبعها، وفيها ألفة وطمأنينة، فلا يضلُّ المستبصر بالقرآن، ولا يستغرب في طريقِه؛ لِما في لفظ النّاس من معنى الأنس والألفة[3]، وفي تخصيص البصائر بكونها ﴿لِلنَّاسِ﴾ إشعارٌ آخر بأنَّ هذه البصائر هي لمن يكون له معنى الإنسانيَّة، وهو وجود العقل والفهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 350.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أنس).

وسائر الأخلاق الحميدة، والمعاني المختصَّة به، فمن لم يتَّخذ آيات القرآن بصائر؛ فهو كمن عُدِمَ الإنسانيَّة، فإنَّ كلَّ شيء عدم فعله المختصَّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه كاليد، فإنَّها إذا عدمت فعلها الخاصَّ بها؛ فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السَّرير ورجله[1].

فائدة العطف في قوله: ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ﴾:

التَّعجيب ممَّن لا يستبصر بآيات القرآن ولا يهتدي بها

في قوله تعالى: ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ﴾ عطف الهدى والرَّحمة على ﴿بَصَآئِرُ﴾؛ ليفيدَ الإخبار عن القرآن بثلاثة أخبارٍ، مع تقييد الخبر الأوَّل بكونِه ﴿لِلنَّاسِ﴾، وتقييد الخبرين الآخرين بكونِهما ﴿لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾، ففيه تعظيمٌ للقرآن بكثرة أوصافِه وتنوُّعها، والمراد من الهدى في الآية الوصول إلى المقصود، وليس بيان الطَّريق، فإنَّ بيان الطَّريق قد حصل بلفظ ﴿بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾، وعطف (رَحمَة) على (هُدى)؛ للإشعار بأنَّ في اتِّباع هديه نعمةً عظيمة للنّاس أفرادًا وجماعات في الدُّنيا بصلاح نظامِهم ومناط النِّعمة لحياتِهم وفي الآخرة؛ لأنَّه سبب نوالِهم درجات النَّعيم الأبديِّ، كما أفاد الجمع بين الهدى والرَّحمة أنَّ هذه البصائر توصل إلى أعلى مراتب الهداية وأعلى مراتب الرَّحمة، وأنَّ هداية القرآن هي هداية رحمة وإكرام، وليس هداية شدَّة أذى وضرٍّ، وأفاد الإخبار عن القرآن بأنَّه (رَحمَة) بيان كونه نعمة للنّاس جميعًا.

فائدة الإخبار بصيغة المصدر في قوله: ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ﴾:

القرآنُ منبع الهداية ومنبع الرَّحمة

لمّا أخبر عن القرآن بالمصدر في قوله: ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ﴾؛ أفاد المبالغة في وصف القرآن بكونِهِ هدًى ورحمةً؛ إذ جعل القرآن عينَ الهدى وعين الرَّحمة، فمَن أراد منبع الهداية ومنبع الرَّحمة؛ فليس له سوى القرآن، ومن لم يفعل؛ فقد عمي عن الطَّريق مع ظهور البيِّنات والبصائر.

(1) الراغب، المفردات: (نوس).

سرُّ جمع بصائر وإفراد لفظي هدًى ورحمة:

أيُّ طريق غير طريق القرآن عذاب ونقمة

جمع لفظ ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾؛ للإيذان بأنَّ القرآنَ مشتمل على أنواعٍ من البصائر، فهي تناسب جميع النّاس، المتعلّم والجاهل والمتخصِّص وغير المتخصِّص، فالبصائر الَّتي فيه يستبصر بها جميع النّاس بكافَّة اتِّجاهاتِهم وميولهم وتنوُّع ثقافاتِهم، وأفرد لفظ (هُدى)؛ لأنَّ الهداية تكون بعد الاستبصار وتبيين طريق الحقِّ، فهي بمعنى الدَّليل الموصل إلى الحقِّ بلطفٍ مع السَّير عليه، ففيه إشعارٌ بأنَّ طريق الحقِّ واحدٌ والأدلَّة التي يُستبصَر بها عليه كثيرة متنوِّعة، كما أفرد لفظ (رَحْمَةً)؛ للإشعار بأنَّه به تكون الرَّحمة، وأنَّه عين الرَّحمة ومنبعها، فأيُّ طريق غير طريق القرآن عذاب ونقمة، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ سبب جمع البصائر هو باعتبار المتبصِّرين به، كما اقتضاه قَولُهُ: ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ بصيرته الخاصَّة به، فالبصيرة أمرٌ جزئيٌّ وصاحب البصيرة جزئيٌّ مشخَّص، فلمّا تنوَّعت البصائر؛ تنوَّع الأشخاص المتبصِّرون بها، فناسبَ أن تورد جمعًا، وهذا بخلافِ إفراد هدًى ورحمة؛ لأنَّ الهدى والرَّحمة معنيان كلّيان يصلحان للعدد الكثير، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 4]، وقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][1].

نكتةُ تنكير ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾:

تتعدَّد أغراض التَّنكير بحسب تنوُّع المعاني

أفاد تنكير لفظَي ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ التَّعظيم والتَّفخيم للوصفين الجميلين، فلم يقل فيه: هدًى بل أخبر عنه بأنَّه هدًى، وأنَّه رحمة؛ للمبالغة في الوصف، بمعنى: أنَّه هدًى عظيمٌ ليس كعظمة سائر الكتب المنزَّلة، وأنَّه رحمة عظيمة ليس كرحمة سائر الكتب المنزَّلة.

توجيهُ تخصيص البصائر بالنّاس والهدى والرَّحمة بقومٍ يوقنون:

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 350.

﴿يُوقِنُونَ﴾ جعل البصائر لجميع النّاس والهدى والرَّحمة لقوم يوقنون، وسبب هذا التَّخصيص هو الإيذان بأنَّ هذه البصائر هي لجميع النّاس، بمعنى: أنَّ أيَّ فردٍ من النّاس يستطيع أن يستبصر بها، وينتفعَ منها في إنارة الطَّريق ومعرفة الحقِّ، فالاستبصار بالقرآن ليس مختصًّا بالمؤمنين، ولهذا جاء في آية أخرى ما يُشعرُ بهذا المعنى في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]، فقال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 203]، والخطاب يشمل جميع المخاطَبين، وأمّا كونُه هدًى ورحمةً؛ فمختصٌّ بالمؤمنين به الَّذين يوقنون بالقرآن؛ إذ هم المقتسمون من أنواره والمغتنِمون بآثاره؛ لأنَّه لا يهتدي ببيانِه إلّا الموقن بحقيقتِه، ولا يُرحَمُ به إلّا من اتَّبعه المؤمن بحقّيَّتِه.

القـــــرآنُ لجميع النّاسِ والاستبصار به ليس مختصًّا بالمؤمنين

دلالة اللام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ للاختصاص، بمعنى: أنَّ كونَ القرآن هدى ورحمة مختصٌّ بقوم يوقنون، أي: إنَّما ينتفع منه المذكورون، ففي التَّعبير بلام الاختصاص مدح للموقنين.

سبب إيثار التَّعبير بقوله: (قَوم):

عبَّر بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، للإيماء إلى أنَّ القرآنَ إنَّما يكون هدًى ورحمة لمجموعةٍ من النّاس، فيهم أهليَّة للقيام بشأنِ القرآن وآياتِه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ قوَّة القوم وصلابتِهم في أن يهتدوا بالقرآن وأن يكون رحمةً لهم، كما يشير التَّعبير بالقوم إلى أنَّ اليقين "متمكّن من نفوسِهم، كأنَّه من مقوِّمات قوميَّتهم التي تميِّزهم عن أقوامٍ آخرين"[1].

قـــوَّةُ القـوم وصلابـتِـهـم وصلابتُهم في أن يهتدوا بالقرآن، وأن يكون رحمةً لهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 352.

يتعلَّق بالتَّنكير أغراض متنوِّعة بحسب المعاني المحتملة

نكتة تنكير (قَوم):

جاء لفظ (قَوم) نكرةً؛ للإشعار بأنَّه ليس مخصوصًا بقوم معيَّنين، فالقرآن هدًى ورحمة لأيِّ قوم يكون من وصفِهم الإيقان به وبالله تعالى وبرسولِه ﷺ، والتَّعبير بلفظ النَّكرة المرادُ به الشُّيوع وعدم التَّعيين مناسبٌ؛ لكون القرآن بصائر لجميع النّاس، وليس لقوم معيَّنين، كما أنَّه لو جاء لفظ القوم معرفةً؛ لاقتضى العدول في النَّعت بالجملة في قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ إلى أن يكون النَّعت مفردًا، وليس جملةً بأن يقال: للقوم الموقنين، وحينئذٍ سيفوت الوجه البلاغيُّ في مجيء النَّعت جملة فعليَّة، ويمكن أن يكون تنكيره هنا لتعظيم القوم وتفخيم شأنهم.

إنَّما يكون القرآن هدًى ورحمة لمن يوقنُ بالله وبرسولِه

دلالة مجيء الجملة الفعليَّة نعتًا للقوم:

لّما جاءت الجملة: ﴿يُوقِنُونَ﴾ نعتًا لـ(قَوم) أفادَت أنَّ كون القرآن هدًى ورحمة مختصٌّ بقوم من شأنِهم الإيقان بأنَّه من عند الله تعالى، وبأنَّه نزل على رسولِه محمَّد ﷺ، وليس المراد أنَّهم متَّصفون باليقين؛ لأنَّ الموصوف باليقين لا يحتاج إلى ما يبصِرُ به بخلاف الطّالب لليقين[1]، كما أفاد مجيء الجملة الفعليَّة ﴿يُوقِنُونَ﴾ نعتًا للقوم الحثَّ على أن يكون الإيقان وصفًا لازمًا لمن يكون القرآن هدًى ورحمةً له.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يُوقِنُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ يقينهم وتجدُّده حالًا فحالًا مادام هذا القرآن هدًى ورحمة لهم.

غرض حذف متعلِّق فعل ﴿يُوقِنُونَ﴾:

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ ليفيد عموم التَّعلُّق، فهُم يوقنون

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والشهاب الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 18، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 427.

بالقرآن بكونِه من عند اللّٰه تعالى، ويوقنون باللّٰه تعالى، ويوقنون برسولِه ﷺ الَّذي أنزل عليه القرآن، أو يقال: حُذِفَ متعلِّق الفعل للإشعار بأنَّ اليقين صار وصفًا لازمًا لهم، أي: لا يأتي منهم إلّا اليقين المعلوم الَّذي جاءت به آيات اللّٰه، وهو وصفٌ يفيد المدح والثَّناء بدلالة السّياق.

حُـذِفَ متعلِّق الفعل للتَّعميم وللإشعار بأنَّ اليقين صار وصفًا لازمًا لهم

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

[الجاثية: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تبايُنُ حالِ المسيئين والمحسنين في المحيا والممات

لمّا كان التَّقدير بعد هذا البيان الذي لم يدع لبسًا في أمر الحساب أن يحاسب الملك عبيده لثواب المحسن وعقاب المسيء؛ أُعلِم هؤلاءِ المخاطَبون بأنّا نفرِّقُ بين المسيئين الذين بعضهم أولياء بعض وبين المحسنين الذين نحن أولياؤهم، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

وأيضًا لمّا بيَّن الفرق بين الظّالمين والمتَّقين؛ بيَّن الفرق بين تباين حاليهما في الحياة وفي الممات، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا لمّا ذكر أنَّ هذا القرآن بصائر، وأنَّه هدًى ورحمة لقوم يوقنون؛ ناسب أن يبيِّن الفرق بين الفريق الذي ينتفع بالبصائر، ويكون القرآن له هدًى ورحمة، والَّذين يكون اللّٰه وليَّهم، وبين الفريق الذي لا ينتفع بها، والذين بعضهم أولياء بعضٍ، فبيَّن أنَّ الفريقين لا يستويان في محياهم ومماتهم في الثَّواب والعقاب، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبَ﴾: أصلُ (حسب) يدلُّ على العَدِّ، تَقولُ: حَسَبْتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 89 - 90.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 72.

الشَّيءَ أحسُبُهُ حَسبًا وحُسْبانًا، ومن قياس الباب الحِسْبانُ الظَّنُّ، حَسِبَ يَحسِبُ ويَحسَبُ حِسْبانًا[1]، وذلك أنَّه فرَّق بيْنَه وبين العَدِّ بتغيير الحركة والتَّصريف، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُهُ كذا؛ فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه من الأمور الكائنةِ[2]، وحقيقة الحِسبان: أن يحكم لأحد النَّقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه، ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعَرَضٍ أن يعتريه فيه شكٌّ، ويقارب ذلك الظَّنَّ، لكن الظَّنَّ أن يخطر النَّقيضين بباله، فيغلِّب أحدهما على الآخر[3]، وعليه فالمراد بالحِسبان في الآية: الظَّنُّ، أي: ترجيح أحد النَّقيضين على الآخر.

2) ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾: أصلُ (جرح) يدلُّ على الكَسْبِ، ومنه قولُهم: اجترَحَ؛ إذا عمِل، وكسب، وإنَّما سُمِّيَ ذلك اجتراحًا؛ لأنَّه عَمَلٌ بالجوارح[4]، وجوارِحُ الإنسان: أعضاؤه الَّتي يَكتَسِبُ بها[5]، وفلان جارِحُ أهلِه وجارِحَتُهم، أي: كاسِبُهم، والجَوارِحُ مِنَ الطَّيرِ والسِّباعِ والكِلابِ: ذواتُ الصَّيْدِ؛ لأنَّها تَجْرَحُ لأهلها، أي: تَكْسِبُ لَهُمُ، الواحدةُ جارحةٌ، قال الأزهريُّ: سمِّيت بذلك؛ لأنَّها كواسِبُ أنفسها من قولك: جرَح، واجترَح[6]، والاجتراح: اكتساب الإثم[7]، والمقصود بالاجتراحِ في الآية: الاكتسابُ، وصيغة الافتعال فيه للمُبالغةِ، ومعناه: اكتسبوا الكفر والمعاصي.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تَـبـايُـنُ حـالِ المؤمِنِ العاصي مِن حالِ الطّائِعِ

يقولُ الحقُّ تبارك تعالى مفرِّقًا بينَ حالِ الَّذين يَكتَسِبونَ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرح).
(5) الجوهري، الصحاح: (جرح).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جرح).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جرح).

السَّيِّئاتِ، وحالِ المؤمنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصّالحاتِ: أم ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا، واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ؟ كلّا، فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفّارِ، لا في المحيا ولا في المماتِ، بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللّهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم[1].

قال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيتَ شِعري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟)، وكانت هذه الآيةُ تُسمَّى مَبكاةَ العابِدينَ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

إيهام الكافرين متَّبعيهم أنَّ عظيمهم في الدُّنيا عظيمهم في الآخرة وضعيفهم في الدُّنيا ضعيفهم في الآخرة

جاءت جملة: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئنافيَّة؛ لقصد الانتقال مِن وصْفِ تكذيب الكافرين بالآيات والاستهزاء بها، ثمَّ من أمر المؤمنين بالصَّفحِ عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى اللّه تعالى، ثمَّ من الأمر بملازمةِ الشَّريعة إلى وصف صنف آخر من ضلالِهم واستهزائهم بالبعث والحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال، وإيهامهم النّاس أنَّهم يصيرون في الآخرة على الحالِ التي يكونون عليها في الدُّنيا، عظيمهم في الدُّنيا عظيمهم في الآخِرَةِ، وضَعيفُهُم في الدُّنيا ضعيفُهم في الآخِرَةِ، فكَأنَّه يقول: من أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها[3].

نوعُ ﴿أَمۡ﴾ وبلاغة استعمالها:

﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ منقطعة،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 777.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 166.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 351.

التَّـنـبـيـه إلى خطأِ من يظنُّ تساوي المسيئين والمـحـسـنـين في حـيـاتِـهـم ومماتِهم

وليست متَّصلة(1)، فهي بمعنى (بل)؛ لتفيد الإضراب الانتقالي من البيان الأوَّل إلى البيان الثّاني المفيد عدم تساوي حال الكافر العاصي مع حال المؤمن الطائع، فالمقصود من التَّعبير بـ﴿أَمْ﴾ بيان التَّغاير بين المحسنين والمسيئين وعدم تساوي حاليهما؛ لتفيد الأداةُ التَّنبيه إلى خطأِ من يظنُّ تساوي الفريقين، وتماثل حاليهما، وإلى أنَّ الصَّحيح هو تغاير الفريقين في محياهم ومماتهم، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿أَمْ﴾ للعطف على همزة الاستفهام المقدَّرة، وتقديرُه هاهنا: والله وليُّ المتَّقين، أعلِمَ المشركون هذا، أم حسبوا أنّا نتولّاهم، كما نتولَّى المتقين، فنُسَوِّي بين الفريقين في المَحيا والممات، ونُؤتي المُسيءَ في الآخرة مِن نعيمها، كما نُؤتيه في الدُّنيا مِن نعيمها؟(2).

تقدير الاستفهام بعد ﴿أَمْ﴾ وفائدته:

إنكار أن يستوي الكافر العاصي مـع المـؤمـن الطّائع

﴿أَمْ﴾ المنقطعة فيها معنى الاستفهام، وتقدير الكلام: بل أحسب الذين اجترحوا السَّيِّئات(3)، وقد أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد من الاستفهام هو الإنكار(4)، بمعنى إنكار حسبانِهم الذي هو في قلوبهم وعقولِهم المفيد إنكار المحسوب، أي: إنكار الواقع ونفيه، أي: إنكار أن يستوي الكافر العاصي مع المؤمن الطّائع، والمعنى: لا ينبغي هذا الحسبان لوجود ما ينافيه ولظهور عدم التَّساوي لكلِّ أحدٍ، ويتولَّد من هذا الإنكار استقباح حسبانِهم وتقبيحه(5).

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 676، وابن عادل، اللباب: 17/ 361.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 85، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والبيضاوي: 5/ 107، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 72، والشهاب الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 18، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 428.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿حَسِبَ﴾:

التَّعبير بلفظ الظَّنِّ يدلُّ على ضعفِ علم العالم والتَّعبير بلفظ الحُسبان يدلُّ على ضعف عقل العاقل

عبَّر بلفظ ﴿حَسِبَ﴾ دون أن يقال: أم ظنَّ الذين اجترحوا، ونحوه من الألفاظ المتواردة على هذا المعنى؛ لأنَّ ﴿حَسِبَ﴾ مأخوذ من الحساب، فكأنَّ الذي يحسب قد أجرى عمليَّة الحساب عنده بعد مراقبة الحالِ في ما اعتاده، فأدّاه حسابه إلى ذلك الشَّيء، فالحساب هو ممّا تقع غلبته في العقل ممّا يكون في العادة، فيدلُّ اللَّفظ على ضعف العقل في تقدير ما جرت به العادة؛ ليدلَّ التَّعبير بلفظ ﴿حَسِبَ﴾ على ضعف عقولِهم، وأنَّ حسبانهم بُني على غير حكمةٍ في تقديرِهم، ولا يدلُّ لفظ الظَّنِّ سوى على عدم اليقين في المعلوم؛ بسبب عدم القطع في الدَّليل، فالتَّعبير بلفظ الظَّنِّ يدلُّ على ضعفِ علم العالم، والتَّعبير بلفظ الحُسبان يدلُّ على ضعف عقل العاقل[1].

غرضُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿حَسِبَ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿حَسِبَ﴾؛ للإيذان بأنَّ حسبانَهم قد وقع، وحصلَ؛ ليفيد الكلامُ أنَّ الإنكار على الواقع، وليس على الوقوع.

بلاغةُ الإيماء في الآية:

إنكار الحُسبان يفيد بدلالة الإيماء إنكار الاعتقاد

لمّا كان قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مفيدًا أنَّ الإنكارَ واردٌ على حسبان الذين اجترحوا السَّيِّئات في تسوية حالِهم حياةً ومماتًا بحال المؤمنين الصّالحين؛ أفادَ أنَّ الإنكار يكون أشدَّ إن اعتقدوا هذا الاعتقاد الباطل المنكر، فيكون الإنكار على الاعتقاد من باب الأولى، وتقبيحه أشدُّ، وذمُّه أبلغ.

مناسبة التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

عبَّر بالاسم الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإيماء إلى علَّة إنكار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 205.

المشابهة والمساواة، أي: لأنَّ هؤلاء اجترحوا السَّيِّئات، وهؤلاء آمنوا، وعملوا الصّالحات، كما يفيد التَّعبير بالموصول وصلته في الموضعين التَّسجيل على كلِّ فريق بما يقدِّمه، وفيه كذلك ذمُّ المجترحين وإهانتهم ومدح المؤمنين الطّائعين وتعظيم إيمانِهم وعملِهم.

المجترح للسَّيِّئات مذموم والذي يعمل الصّالحات ممدوح

بلاغة الاستعارة في الفعل: ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾:

جاء الفعل ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فشُبِّه عملُهم السَّيّئات واكتسابُهم لها باكتساب الطّائر الجارح لطريدتِه، ولِذَلِكَ سُمِّيَتْ كِلابُ الصَّيْدِ جَوارِحَ، وسُمِّي بِهِ اكتِسابُ النّاسِ؛ لأنَّ غالِبَ كَسبِهِم في الجاهِلِيَّةِ كانَ مِنَ الإغارَةِ عَلى إبِلِ القَومِ، وهِيَ بِالرِّماحِ؛ إذ استُعير الاجتراح مع ما يوحي به من العدوان والأذى والضُّرِّ لاكتساب الإثم والخبيث، وفي هذه الاستعارة إشارةٌ إلى أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات لا يكون إلّا بجرح فضيلة من الفضائل، وبعدوان على حقٍّ من الحقوق[1]، كما أفاد اللَّفظ أنَّ من يجترح السَّيِّئات يُقتصُّ منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: 45].

اجتراحُ السَّيِّئات لا يكون إلّا بجرح فضيلة من الفضائل، وبعدوان على حقٍّ من الحقوق

نكتةُ التَّعبير بالماضي ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في الفعل ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾؛ للإشعار بتقبيح اجتراحِهم الَّذي وقع، ولتقرير أنَّ الإنكار على الواقع الحاصل.

بلاغةُ الكناية في لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كناية عن كفرهم؛ لأنَّ اجتراحَ السَّيِّئاتِ مِن شعارِ أهلِ الشِّركِ؛ إذ لَيسَ لَهم دينٌ وازِعٌ يَزَعُهُم عَنِ السَّيِّئاتِ، ولا هُم مُؤمِنونَ بِالبَعثِ والجَزاءِ، فَيكونُ إيمانُهُم بِهِ مُرَغِّبًا في الجَزاءِ، ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرآنِ الكِنايةُ عَنِ المُشركينَ بِالتَّلَبُّسِ بِالسَّيِّئاتِ كَقَولِهِ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: 1]، إلى قَولِه: ﴿أَلَا

اجتراحُ السَّيِّئاتِ مِن شعارِ أهلِ الشِّركِ؛ إذ لَيسَ لَهُم دينٌ وازِعٌ يَزَعُهُم عَنِ السَّيِّئاتِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 242.

﴿يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾ [المطففين: 4-5]، ونظيرُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 4]، فَإِنَّ ذَلِكَ حالُ الكُفّارِ، وأمّا المُؤمِنُ العاصي؛ فَلا تَبلُغُ بِهِ حالُهُ أن يَحسَبَ أنَّهُ مُفلِتٌ مِن قُدرَةِ اللّه[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الأفعالُ القبيحة تسوء صاحبها وتسوء من تنزل به

عبَّر بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإشعار بأنَّ الأفعالَ القبيحة تسوء صاحبها، وتسوء من تنزل به، وأكَّد هذا المعنى بتعلُّق الكلمة بلفظ ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾.

فائدةُ سدِّ المصدر المؤوَّل مسدَّ مفعولي ﴿حَسِبَ﴾:

جاء مفعولا الفعل ﴿حَسِبَ﴾ بصيغة المصدر المؤوَّل الَّذي يسدُّ مسدَّ المفعولين، في قوله: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، وفائدته: بيان أنَّ مصبَّ الإنكار عليهم في أن يكونوا كذلك في الآخرة؛ بسببِ دلالة ﴿أَن﴾ المصدريَّة على الزَّمن المستقبل، كما يدلُّ تعلُّق الفعل بالمصدر المؤوَّل على أنَّ هذا الجعل هو في إمكان اللّه تعالى، ولكنَّه لن يجعلهم كالذين آمنوا بسبب اجتراحِهم السَّيِّئات، كما أنَّ في مجيء المصدر المؤوَّل إشارةً إلى أنَّ الفعل متعلِّق بمجرَّد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه، ففي المصدر المؤوَّل تحصين للمعنى من الإشكال وتخليص له من شوائب الإجمال.

براعةُ المدح في استعمال مفردة الجعل في قوله: ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾:

اللّه تعالى هو الذي وفَّق المؤمنين للإيمان والعمل الصّالح، وهم صاروا كذلك بجعلِه وتوفيقِه

في قوله تعالى: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعريضٌ بلفظ ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾ إلى أنَّه تعالى هو الذي وفَّق المؤمنين للإيمان والعمل الصّالح، وأنَّهم صاروا كذلك بجعلِه وتوفيقِه، وأنَّ هذا الجعل ثابتٌ لا يتغيَّر، ولمّا جاء الفعل مسندًا إلى نون العظمة؛ أفادَ أنَّه جعْلٌ عظيم لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد الأحد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 352.

ما ذكره الله تعالى ممّا يكونُ عليه المؤمنون عند الله يوم القيامة صار مضربَ مثلٍ لحسن الحالِ

دلالة الكاف وأثرها التّشبيهي:

لمّا كان قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفيدًا أنَّ الإنكارَ المسلَّط على حُسبان الكفّار دالٌّ على أنَّهم حسبوا أنَّهم يكونون بعد الممات أفضل حالًا من المؤمنين، لا أن يَكونوا مِثْلَ المُؤمنينَ؛ لأَنَّهُم قالوا ذَلِكَ في مَقامِ التَّطاوُلِ عَلى المُؤمِنِينَ، وإرادَةِ إفحامِهِم بِسَفسَطَتِهِم، وهذا الأمر يقتضي أنَّهم مؤمنون بالبعثِ، والواقع يخالفه، فلمّا كان الأمرُ كذلك؛ دلَّ على أنَّ التَّشبيه بالكاف في الآية يقصد به أن يكون مضربَ المثل، وليس الإنكار على حسبانِهم أن يكونوا مثل المؤمنين في الجنَّة، فالمرادُ من التَّشبيه الإيماءُ إلى أنَّ اللّه تعالى قدَّر حسنَ الحالِ للمؤمنين يوم القيامةِ، وتوارد هذا في كتبه حتَّى صارَ ذلك المقدَّر مضربَ مثلٍ ومناط تشبيهٍ لحسنِ الحالِ، وإلى أنَّ حُسبان المشركين أنفسَهم في الآخرة على حالٍ حسنةٍ باطلٌ، فَعبَّر عَن حُسْبانِهِمُ الباطِلِ بِأنَّهُم أثبَتوا لأنفُسِهِم في الآخِرَةِ الحالَ الَّتي هِيَ حالُ المُؤمِنِينَ، أي: حسبَ المشركون بزعمِهم أن يكونوا بعدَ الموت في حالٍ إذا أراد واصفٌ أن يصفَها يقول: هي تشبهُ حالَ المؤمنين عند اللّه، فليس المرادُ أنَّ المشركين مثَّلوا حالَهم بحال المؤمنين، فَيُؤَوَّلُ قَوْلُهُ: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى حِكايَةِ الكَلامِ المَحكِيِّ بِعِبارَةٍ تُساويهِ لا بِعِبارَةِ قائلِه، فيكون ذِكر ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان مقصد التَّشبيه ومآله، فَكَأنَّهُ قِيلَ: أَحَسِبوا أن نَجعَلَهُم في حالَةٍ حَسَنَةٍ، ولكِنَّ هَذا المَأمولَ في حُسبانِهِم هوَ في نَفسِ الأمرِ حالُ المُؤمِنينَ لا حالُهُم، فيكون حسبانُهم منكرًا عليهم، وهو باطلٌ[1].

بديع التَّقابل:

جاءت المقابلة بين الفريقين في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 354.

شدّة قبح الاجتراح بحيث قابله بالإيمان والعمل الصّالح مجتمعين

وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولم تأتِ المقابلة على ما هو مقتضى الظّاهر بأن يقابل الإيمان بالكفر، كما قابل العمل الصّالح باجتراح السَّيِّئات، والنُّكتة فيه أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات مختصٌّ بالكفّار، كما تقدَّم في بلاغة الكناية، فكأنَّه قيل: أم حسبَ الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة قبح الاجتراح، وأنَّه يكفي في مقابلته بالإيمان والعمل الصّالح، أو يقال: حُذف من الأوّل بما ذكره في الثّاني، ودلَّ عليه، وكأنَّ تقدير الكلام الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات، ونكتة الحذف الإشعار بأنَّ اجتراح السَّيِّئات لا يكون إلّا من الكفّار، وهذه الآية وإن كانَ مَورِدُها في تَخالُفِ حالَيِ المُشركينَ والمُؤمنينَ؛ فَإنَّ نَوطَ الحُكم فِيها بِصِلَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ودون أن يقال: (الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات)، يومئُ إلى تَفاوُتِ حالَيِ المُسيئِينَ والمُحسِنينَ مِن أهلِ الإيمانِ وتباين حالِ المؤمن العاصي من الطّائع[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

تنوُّع القراءات إثراءٌ للمعنى وتوسيع له

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف وحفص ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصب، وقرأ الباقون ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرَّفع، وتوجيه القراءتين هو أنَّه على قراءة النَّصب يكون ﴿سَوَآءً﴾ بدلًا من المفعول الثاني في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ﴾، أي: يكون اللَّفظ بدلًا من كاف التَّشبيه الَّتي بمعنى مثل[3]، وهو بدل مفردٍ من مفردٍ، وهو من قبيل بدلِ الكلِّ من الكلِّ، والمعنى: إنكار أن نجعلهم مماثلين للَّذين آمنوا حالَ كونِ حياتِهم ومماتِهم سيَّينِ في البهجة والكرامة، وذكر المعربون أوجهًا أخرى في توجيه نصبِ ﴿سَوَآءً﴾، وما ذكرناه أولى، وهو أظهر الأوجه[4] وعلى قراءة الرَّفع

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 428.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 421، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 354.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 148.

يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ خبرًا والمبتدأ ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، وتكون الجملة بدلَ الكلِّ من المفعول الثّاني لـ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، وهو الكاف الَّتي بمعنى مثل، وعلى هذا الوجه تكون قراءة الرَّفع موافقةً لقراءة النَّصب في المعنى، وغاية الأمر أنَّ قراءة النَّصب تكون بدلَ مفردٍ من مفرد، وقراءة الرَّفع تكون بدلَ جملةٍ من مفرد، وهو بمنزلة عطف البيان؛ لزيادةِ إيضاح المعنى وبيانِه، والمعنى على وجهي البدل هو إنكار أن يستويَ المجترحون محياهم ومماتهم مع الصّالحين محياهم ومماتهم؛ لافتراق أحوالِهم أحياء؛ إذ عاش الصالحون على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات ومماتًا؛ إذ مات هؤلاء على البشرى بالرَّحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرَّحمة والنَّدامة، ويحتمل أن يكونَ المعنى إنكارَ الاستواء في الممات، كما استووا في حياتِهم ظاهرًا في الحياة، أي: إنكار أن يستووا في الممات بالجزاء، كما استووا في الحياة في الرِّزق والصِّحَّة[1]، ويحتمل على قراءة رفع ﴿سَوَآءٌ﴾ أن تكون الجملة الاسميَّة حالًا، والتَّقدير: أم حَسِبَ الكُفّارُ أن نُصَيِّرَهُم مثلَ المُؤمِنينَ في حالِ استِواءِ مَحياهُم ومَماتُهُم، أي: والحال أنَّهم لَيسوا كَذلِكَ، بَل هُم مُفتَرِقونَ، أي: افتِراقٌ في الحالتَين، وتَكونُ هَذِهِ الحالُ مُبَيِّنَةً ما انبَهَمَ في المِثليَّةِ الدّالِّ عَليها الكافُ، الَّتي هيَ في مَوضِعِ المَفعولِ الثّاني[2].

بديع الطِّباق:

المماثلة بين المحيا والممات

جاء الطِّباق في قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، وهو من طباق الإيجاب، وفائدته: هو أنَّ المماثلة الواقعة في حيِّز الإنكار إنَّما هي في مضمون: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، أي: في إنكار تسوية

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 302، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 429.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 420.

حالِهم حياةً ومماتًا كحالِ المؤمنين، فلا يتمُّ المعنى المقصود من دون لفظي الطِّباق.

دلالةُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾:

إنكار استواء المجترحين والصّالحين في المحيا والممات

احتَمَلَ الضَّميرُ في مَحياهُم ومَماتُهُم أن يَعودَ عَلى كلٍّ من المُجتَرِحِينَ والصّالِحِينَ على التَّوزيع في المعنى، وذِهْنُ السّامِعِ يُفَرِّقُهُ على الفريقين؛ ليكون المعنى إنكار استواء المجترحين والصّالحين في المحيا والممات[1]، وهذا هو الظّاهر، وأجاز بعض المفسِّرين أن يعود الضَّمير في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ عَلى الَّذِينَ اجتَرَحوا، فيكون قد أخبر عن أنَّ حالَهم في وقت حياتهم وفي وقت مماتِهم سواء، أي: في عدم الهداية في الدُّنيا والإهانة والعقاب في الآخرة[2].

بديع الجناس بين ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و﴿سَآءَ﴾:

اجتراحُ السَّيِّئات سببٌ في سوء الحكمِ

ورد الجناس الاشتقاقيُّ في لفظَي ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و﴿سَآءَ﴾، وهو من الجناس النّاقص، وفائدته بيانُ توافق ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي هي متعلِّقة بالأعمال، ولفظ ﴿سَآءَ﴾ المتعلِّق بحكمِهم القلبي في الذَّمِّ والتَّوبيخ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات سببٌ في سوء حكمِهم وتقبيحه.

دلالة تركيب ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾:

حسبان المجترحين السَّيِّئات مذموم قبيحٌ وبلغ أقصى نهايات السّوء

إمّا أن يكون الفعل ﴿سَآءَ﴾ فعلًا تامًّا بمعنى قبح، وتكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، والمخصوص بالذَّمِّ محذوف تقديره (هذا)، أي: ساء حكمُهم هذا، بمعنى: ساء الحكم حكمهم، ويحتمل أن يكون الفعل ﴿سَآءَ﴾ من أفعال الذَّمِّ بمعنى: (بئسَ)، وتكون ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفة بمعنى (شيئًا)، والجملة الفعليَّة ﴿يَحۡكُمُونَ﴾ صفة، والعائد إلى الموصوف محذوف، تقديره ما يحكمون به، وتقدير الكلام: بئسَ شيئًا حكموا به ذلك، والمراد على هذا الوجه إنشاء ذمِّهم، وسبب

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 355.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

حذف العائد تعميمُ ذمِّ كلِّ شيءٍ يحكمون به، وعلى الوجهين المذكورين ففائدة مجيء هذا التَّركيب الدالِّ على الذَّمِّ أنَّه إذا أريد ذمُّ حكم؛ فإنَّ حكمَهم هو الأولى بالذَّمِّ والتَّقبيح، وأنَّه بلغَ أقصى نهايات السّوء، فهو ممّا يتعجَّبُ منه[1].

براعة العدول عن مفردة (يحسبون) إلى ﴿يَحْكُمُونَ﴾:

عدل عن أن يقال: (ساء ما يحسبون) مع أنَّ الإنكار على حسبانِهم إلى قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ حسبانَهم صار حكمًا متوغِّلًا في أنفسِهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

عُبِّرَ بصيغة المضارع في قولِه: ﴿يَحْكُمُونَ﴾؛ للإشعار بإصرارِهم على تجديد حكمهم القبيح هذا في كلِّ وقتٍ، وأنَّ هذا الحكمَ السَّيّئَ القبيح يتجدَّد بتجدُّد موجبِه، ولا يختصُّ به زمانٌ دون زمان.

بلاغةُ جملة التَّذييل: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾:

جاءت جملة: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ تذييلًا لِما قبلَها من إنكار حسبانِهم، وما اتَّصل بذلك الإنكار من المعاني[2]، ولتفيد جملة التَّذييل بما تضمَّنته من معنى العموم تقبيحَ كلِّ حكمٍ يحكمونه مترتِّبًا على حسبانِهم المذموم، وأنَّ هذا الحكم ممّا لا يرضاه أحدٌ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 91.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 355.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

خلقُ الله السّماواتِ والأرضَ بالعدلِ يستدعي التّفاوت في العاقبة بين المسيء والمحسنِ

لمّا أنكر حُسبان الكافرين على التّسوية بين الّذين اجترحوا السَّيِّئات والمؤمنين، وذمَّهم على الحكم بها أقصى غاية الذَّمِّ؛ أتبع ذلك الدَّليل القطعي على أنَّ الفريقين لا يستويان، وأنَّ خلْقَ السَّماوات والأرضَ بالعدلِ يستدعي التَّفاوت بين العاقبة بين المسيء والمحسنِ وإلّا لمّا كان الخالق لهذا الوجود عزيزًا ولا حكيمًا، فقال دالًّا على إنكار التَّسوية وسوء حكمهم بها، عاطفًا على ما تقديره: فقد خلق اللّه النّاسَ كلَّهم بالحقِّ، وهو الأمر الثّابت الَّذي يطابقه الواقع، وهو ثبات أعمال المحسنين وبطلان أفعال المسيئين، عطف عليه قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[1].

وأيضًا لمّا حكم اللّه تعالى بأنَّ الكافرَ لا يساوي المؤمن في درجات السَّعادات؛ أتبعه بالدَّلالة الظّاهرة على صحَّة هذا الحكم، فقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾[2].

وأيضًا لمّا تقرَّر الحكم بالإنكار على من يحسب أنَّ المسيء مثل المحسن في حياتِه ومماتِه، واقتضى هذا الحكم تفضيل المحسن؛ قرَّر اللّه تعالى هذا الحكم بإقامة الدَّليل، فإنَّ خلقَ اللّه تعالى للسَّماوات وللأرض ولِما فيهما بالحقِّ المقتضي للعدل يستدعي - لا محالةَ - تفضيلَ المحسن على المسيء في المحيا والممات

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 91.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 677.

وانتصار المظلوم من الظّالم، وإذا لم يطَّرد ذلك في المحيا؛ فهو بعد الممات حتمًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَبَتْ﴾: أصلُ (كسب) يدُلُّ على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، يُقالُ: كَسَبْتُ الشَّيْءَ، أي: طلَبْتُه[2]، ومنه الكَسْبُ: هو الفعل الَّذي يعود على فاعله بنفعٍ أو خيرٍ، وقد يُستعمل فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلبُ مَنفعةً، ثمَّ استجلَبَ به مَضرَّةً[3]، والمراد بالكَسْبِ في الآية: ما يحصله المَرءُ بِعلْمه لإرادةِ نَفْعِ نَفْسِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ عاملٍ يُجزى بما كسبت يداه من خيرٍ أو شرٍّ

أقام الحقُّ ﷻ الدَّليل على عدم التَّساوي أعمال العباد، وأبان حكمة ذلك، فقال: لم يخلق اللّه السَّماوات والأرض للجور والظُّلم، بل خلقهما للحقِّ والعَدل، ومن العدل أن يخالف بين المحسن والمسيء في العاجل والآجل، ولِيُثيبَ اللّهُ كُلَّ عاملٍ بما عَمِلَهُ من خَيرٍ أو شَرٍّ، وبما يَستَحِقُّه من ثوابٍ أو عِقابٍ، ولا يَظلِمُ اللّهُ النّاسَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم بنَقصِ ثَوابِهم، أو زيادةِ عِقابِهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

من العدل والحقِّ ألّا يتساوى المسيء والمحسنُ في الجزاء يوم القيامة

مناسبة الوصل في قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

جاءت جملة: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بطريق الوصل بالواو عطفًا على جملة: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لاشتراك الجملتين في كونِهما خبريَّتين وفي الجهة الجامعة، وبيانها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كسب).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 91، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 108، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 10.

أنَّه لمّا حكم بانتفاء أن يكون الَّذين اجترحوا السَّيِّئات الذين هم في بحبوحة عيش مدَّة حياتِهم أن يكونوا في نعيم بعدَ مماتِهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات مدَّة حياتِهم أقامَ الدَّليل عليه، ووجه الاستدلال أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ تبيَّنَ كونُه في تمام الإتقان والنِّظام بحيث إنَّ دلائل إرادة العدل في تصاريفِها قائمة ظاهرةٌ، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النِّظام الذي فيه صلاحُهم، فإذا استعملها قوم في الإفساد وآخرون في الإحسان كان من إتمام إقامة النِّظام ومن العدل والحقِّ ألّا يتساوى الفريقان في الجزاء يوم القيامة، فيعاقب المسيء على إساءَتِه والمحسن على إحسانه، والمُشاهَدُ أنَّ المُسيءَ كَثيرٌ ما عَكَفَ عَلى إساءَتِهِ حَتَّى المَماتِ، فَلَو لَم يَكُنِ الجَزاءُ بَعدَ المَوتِ؛ لحَصَلَ اختِلالٌ في نِظام خَلْقِ المَخلوقاتِ وخَلْقِ القوى الصّادِرِ عَنها الإحسانُ والإساءَةُ[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿وَخَلَقَ﴾:

العـــدلُ مقترن بنظام السَّماوات والأرضِ ملابسٌ له لا ينفكُّ عنه

عبَّر بلفظ ﴿وَخَلَقَ﴾ دون أن يقال مثلًا: (وجعل)؛ لِما في لفظ ﴿وَخَلَقَ﴾ من الدَّلالة على وصفه تعالى بالخالق وقدرتِه على الخلق، المؤذن باتِّصافِه بصفة العدلِ وإقامته في نظام الخلقِ، كما أنَّ التَّعبير بلفظ الخلق مشعرٌ بأنَّ الحَقّيَّة مقترنة بالسَّماوات والأرض، ملابسةٌ لهما منذ بدء الخلق وظهوره.

توجيهُ التَّعبير باسم الجلالة دون اسم الرُّبوبيَّة:

التَّعبير باسم الجلالة لمناسبة المقامِ بأنَّ الخلق قائم على الحكمة والحقِّ والعدلِ

لمّا كان المقام مقام بيان أنَّ خلْقَ السَّماوات والأرض قائمٌ بالحقِّ والعدل، وأنَّ الجزاء يكون على وفق إساءة المسيء وإحسان المحسن؛ ناسب التَّعبير باسم جلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ دون أن يقال: (وخلق ربُّكم)، فليس المقام مقام إنعام وتربية للخلقِ، بل هو مقامُ بيانٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 356.

للحكمة والحقِّ والعدل، فعبَّر باسم الجلالة الجامع لصفاتِ الكمالِ وتصرُّفات الحكمة[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

لا عبثَ في خلقِ السَّماوات والأرض وخلق نظامِهما

تحتمل الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أن تكون للسَّببيَّة الغائيَّة، وأن تكون للملابسة[2]، فعلى القول بأنَّها للسَّببيَّة، فالمعنى: خلق اللّه السَّماوات والأرضَ لأجل الحقِّ، وعلى القول بأنَّها للملابسة، فالمعنى: خلقهما ملتبِسَيْن بالحقِّ والصَّوابِ دون العبث والباطل، والملابسة تفيد التَّعليل كذلك؛ لأنَّ المقصودَ خلقُهُما لأجل الحقِّ، كما أنَّ خلْقَهما ملتبس بالحقِّ، فلا عبثَ في خلقِهما وخلق نظامِهما.

دلالة واو العطف:

مِن الحقِّ أن تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت يوم القيامة

أفادت الواو في قولِه: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ عطْفَ ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ على ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، ويكون من عطف التَّعليل على التَّعليل؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه معنى التَّعليل، سواء أكانت الباء للسببيَّة أم للملابسة - كما تقدَّم - فيكون المعنى: خلق اللّه السَّماوات والأرض لأجل إقامة الحقِّ والعدل، ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت يوم القيامة، أو يكون العطف على معلَّلٍ محذوف معلوم من السّياق، والتَّقدير: خلق اللّه السَّماوات والأرض؛ ليدلَّ به على قدرته، وليعدلَ، ولتُجزى كلُّ نفسٍ[3]، فإنَّ تقييد الخلقِ بقولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يفيد الدَّلالة على قدرتِه الباهرة والعدل والحكمة في خلقهما، والمعنى: أنَّ المقصودَ مِن خلقِ العالَم إظهار العدل والرَّحمة، وذلك لايتمُّ إلّا في يوم القيامة ليحصل التَّفاوت بين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 356.

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 592.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 677، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 108.

المحسنين والمسيئين في الدَّرجات والدَّركات[1]، كما أنَّ في العطف إيماءً إلى أنَّه كما أنَّ خلقَ العالمِ بالحقِّ والعدل، هو ظاهر في هذه الدُّنيا، فإنَّ الحقَّ والعدلَ سيكون يوم القيامة، فمن الحقِّ أن تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت، فيفترق المحسنون عن المسيئين في الجزاء، فيكون في العطفِ معنى التَّفصيل بعدَ الإجمالِ، فإنَّ الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحقِّ، وهو من آثار كونِ الحقِّ سببًا لخلقِ السَّماوات والأرض، أو ملابسًا لأحوال خلقِهما[2].

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام قد تكون للتَّعليل أو للصَّيرورة

الظّاهر أنَّ اللام في قوله: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ تفيد التَّعليل، فكأنَّ خلْقَ السَّماوات والأرض كان سببًا للجزاء يوم القيامة، ويحتمل أن تكون لام الصَّيرورة، بمعنى: صار الأمر فيها من حيث اهتدى قومٌ بعد خلق السَّماوات والأرض، وضلَّ آخرون لأن يجازى كلُّ أحدٍ بعملِه وبما اكتسب من خيرٍ أو شرٍّ.

نكتةُ استعمال فعل الجزاء:

الجزاءُ يكون بقضاء حقِّ المُجزَى وتمامِه

عبَّرَ النَّظم بلفظ الجزاء في قولِه: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾؛ ليدلَّ على الكفاية في مقابلة كلِّ عملٍ، فيشمل لفظُ الجزاء كلَّ عملٍ من خيرٍ أو شرٍّ، ويومئ اللَّفظ إلى أنَّ الجزاء يكون بقضاء حقِّ المُجزى وتمامِه، فتقرَّرت المناسبة في عطف الجزاء على الحقِّ.

نكتةُ بناء فعل ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ للمفعول:

عبَّر بصيغة الفعل المبني للمفعول في قوله: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾؛ للإشعار بهول الموقفِ، بمعنى: أنَّ الموقفَ وإن كان مهولًا عظيمًا؛ فإنَّه يكون مع العدل وانتفاء الظُّلم، فالبناء للمفعول إنَّما هو من باب الإيجاز للعلم بالفاعل، أو لدعوتهم للانشغال بفعل الجزاء نفسه دون النَّظر إلى فاعله.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 177.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 356.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾؛ لتصوير حالة الجزاء القائم على العدل.

دلالة لفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

عبَّر بأداة العموم ﴿كُلُّ﴾ المضافة إلى ﴿نَفۡسِۭ﴾ في قوله: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الجزاء يكون على الجميع شاملًا كلَّ نفسٍ، وهو المناسب لمعنى الحقِّ والعدل الَّذي يدلُّ عليه السّياق، ففيه إشعار بأنَّ قيمة العدل ستكون ظاهرةً بيِّنةً لجميع الخلقِ يوم القيامة.

قيمة العدل ستكون ظاهرةً بيِّنةً لجميع الخلقِ يوم القيامة

نكتة استعمال مفردة ﴿نَفۡسِۭ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿نَفۡسِۭ﴾ في التَّعبير عن الجزاء في قولِه: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾، ولم يقل: (وليجزى كلُّ أحدٍ)، أو ما يقاربه في المعنى؛ لما يفيده لفظ ﴿نَفۡسِۭ﴾ - الدالُّ على الفرد من النّاس مع لمح الحقيقة والباطن[1] - من أنَّ الجزاء يكون على ما أضمره الإنسان في باطنِه، وما نواه في سريرتِه، ففيه إشعارٌ بأنَّ مناط التَّعامل مع الله ﷻ والجزاء على الأعمال هو ما يكون في النَّفس وما يعتقده الباطن، وإنَّما البدنُ تابعٌ.

الجزاء على الأعمال هو ما يكون في النَّفس وما يعتقده الباطن، وإنَّما البدنُ تابعٌ

فائدة الباء في ﴿بِمَا﴾:

لّما كان حرف الجرِّ الباء في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ متعلِّقًا بالفعل (لِتُجزَى)؛ أفاد أنَّ الحرفَ بمعنى المقابلة والمعاوضة، والتَّقدير: لتُجزى كلُّ نفسٍ بعوضِ ما كسبت، بمعنى: أنَّ الجزاء يكون عوضًا عمّا كسبته النَّفس في الدُّنيا، ويحتمل أن يفيد حرف الباء السَّببيَّة[2]، بمعنى: لتُجزى كلُّ نفسٍ بسبب ما كسبت، أي: جزاءً مناسبًا لما كسبت، فالكسبُ في الدُّنيا سبب للجزاءِ عليه يوم القيامة.

الجزاء يوم القيامة بمنزلة العوض عمّا كسبته النَّفس في الدُّنيا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفس).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 92، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 598.

دلالة (ما):

يمكن أن يُحمل معنى (ما) على الموصوليَّة أو المصدريَّة

تحتمل (ما) في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أن تكون موصولةً، والتَّقدير: ولتُجزى كلُّ نفسٍ بالذي كسبت، أي: كسبته، ويكون الضَّمير العائد محذوفًا؛ لإفادة عموم الكسب، كما تحتمل أن تكون مصدريَّة، والتَّقدير: ولتُجزى كلُّ نفسٍ بكسبِها.

نكتةُ التَّعبير بمفردة الكسب دون العمل:

في كلِّ لفظة معانٍ تنفرد بها عن غيرها من المقاربات لها

عبَّر بالكسب دون العمل في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ لأنَّه لمّا كان الكسب يقال لِما سعى الإنسان في تحصيلِه وجمعه شيئًا فشيئًا، وكان متعارفًا في الادِّخار؛ أشعرَ بأنَّ كلَّ ما عمله الإنسان، وحصَّله في الدُّنيا هو مدَّخرٌ، ويُجازى عليه، فيشمل الكسبُ هنا عمل الخير وعمل الشَّرِّ، كما أنَّ التَّعبير بالكسب مناسب؛ لِما ورد في الآية السّابقة من ذِكر الكسب في قولِه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾؛ للإيذان بأنَّ الجزاء يكون عمّا هو متحقّق الوقوع، وقد كسبته النَّفس وحصَّلته.

دلالة واو الحال:

الجزاءُ الذي يُجزى به النّاسُ يوم القيامةِ، لا يدخل عليه جورٌ، ولا يتلبَّس به ظلمٌ

الواو في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ حاليَّة، وصاحب الحال ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ﴾، أي: والحالُ أنَّهم لا يُظلمون في الجزاء، أي: فالجزاء الذي يُجزى به النّاس، لا يدخل عليه جور، ولا يتلبَّس به ظلم، فالمحسن ينال جزاء إحسانه، والمسيء سينال جزاء إساءته، وما كسبت يداه، دون أن يُؤخَذَ بجريرة أحد، فالمجازى غير مظلوم.

دلالةُ الضمير (هُم):

يعود الضَّمير (هُم) إلى النُّفوس المدلول عليها بقوله: ﴿كُلُّ

﴿نَفۡسٖ﴾[1] بما اتَّصف به لفظ ﴿كُلُّ﴾، والمعنى: وهؤلاء الذين يُجزون بما كسبوا لا يُظلمون.

سبب إيثار التَّعبير بـ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

لاظلـمَ على النّـاس يوم القيامة، وإنَّما الظُّلم بين النّاس في هذه الدُّنيا

عبَّر بـ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ دون أن يقال: (ولا يُظلمون)؛ ليعود الضَّمير على ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ بما اتَّصف به اللَّفظ - كما تقدَّم - ولِما تفيده الجملة الاسميَّة: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ من معنى ثبوت عدم الظُّلم ودوامِه، كما أنَّه لمّا جاء المسند ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ جملة فعليَّة؛ أفاد تقوية الحكم وتحقيقه، بمعنى: نفي أيِّ ظلم يقع على النّاس في ذلك اليوم، وفيه إشارة إلى أنَّ الدُّنيا محلُّ ظلمٍ بين النّاس، فجملة: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أقوى دلالة، وأثبت معنًى في نفي الظُّلم عن النّاس من أن يقال: ولا يُظلمون.

دلالة نفي الظُّلم دون إثبات العدل:

تنزيهُ الله تعالى عن زيادةِ العقاب أو نقصان الثَّواب في الجزاء

لمّا كان قوله تعالى: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ مفيدًا بمفهومه أنَّ الجزاء يكون بالعدل؛ قرَّر هذا العدل بنفي الظُّلم في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، فيكون قد ذكر المعنى بطريق الإثبات والنَّفي تأكيدًا للعدل في الجزاء وتقريرًا له، فبيَّن أنَّ جزاءَهم العادل يوم القيامة مقترنٌ بنفي الظُّلم عنهم، وإنَّما نفى الظُّلم لبيانِ غايةِ تنزُّهِ ساحةِ لُطفهِ تعالى عن زيادةِ العقاب أو نقصان الثَّواب في الجزاء.

بلاغةُ الاستعارة التَّشبيهيَّة:

تسمية ما خالف ما جرت به عوائد العباد في العدل والفضل باسم الظُّلم

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ استعارة تشبيهيَّة بتسمية زيادة العقاب، أو نقصان الثَّواب ظلمًا، وتسمية ذلك ظلمًا؛ لأنَّه لو فعلَه غيرُه؛ كان ظلمًا، ولو فعلَه اللّٰه؛ لم يكن ظلمًا؛ لأنَّه تصرُّفٌ في ملكِه، فهو المالك المطلقُ والملك الأعظم، فلو عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 73.

كلَّهم؛ لكان غير ظالم في نفس الأمر، فيكون قد سمَّى ما خالف ما جرت به عوائد العباد في العدل والفضل باسم الظُّلم على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة[1]، وبيانها أنَّه شبَّه الهيئة المأخوذة من فعلِ الله تعالى لعبدِه بدون استحقاق لو كان؛ بالهيئة المنتزعة من الإنسان وفعل غيرِه بغير حقٍّ، فاستعمل اللَّفظ الموضوع للمشبَّه به في المشبَّه، فهذا الخطاب إنَّما هو على ما يتعارفونه من إقامة الحجَّة بمخالفة الأمر[2].

نكتة بناء فعل ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ للمفعول:

عبَّر بصيغة المبني للمفعول في الفعل: ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ للإشعار بنفي الظُّلم عنهم مطلقًا؛ لأنَّ المقصود نفي الظُّلم عنهم يوم الجزاء، وليس المراد بيان من الذي لا يظلمهم، ويكون الكلامُ بمعنى قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: 17].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُظۡلَمُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد نفي الظُّلم عنهم واستمرارِه في جميع أزمان يوم القيامة، أي: فالكافر لا يُظلَمُ عند الجزاء وعند العقاب، والمؤمن لا يُظلَم عند الجزاء وعند الثَّواب.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 434.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 598، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 73.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

قد يصبحُ الهوى إلـهًا يُعبد من دون الله

لمّا بيَّنَ سبحانه غايةَ البيانِ أنَّه الإلهُ وحدَهُ بما له من الإحاطةِ بجميعِ صفاتِ الكمالِ، وأنَّهُ لا بدَّ من جمعِهِ الخلائقَ ليوم الفصلِ للحكمِ بينهم بِما له من الحكمةِ والقدرةِ، وحقَّرَ الهوى، ونهى عن اتِّباعِه، وكانوا هم قد عظَّموه بحيث جعلوه معبودًا، فلزمَ من ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يرجعوا عن ضلالِهم؛ تسبَّبَ عن ذلك التَّعجيبِ ممَّن يظنُّ أنَّه يقدرُ على ردِّ أحدٍ منهم عن غيّه بشيءٍ من الأشياء، فقال اللّه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية(1).

وأيضًا لمّا كان الَّذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمةٍ وعزَّةٍ، كما كانوا في الدُّنيا؛ قالوا عن غير دليل ولا نظرٍ، ولكن عن اتِّباع ما يشتهونَ لأنفسِهم من دوام الحالِ الحسنِ؛ تفرَّع عن حسبانهم التَّعجُّب من حالهم، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآيةَ(2).

وأيضًا لمّا ذكر من أحوالِ الكافرين حسبانَهم الباطلَ، وأنكرَه عليه، وكان يتضمَّن الإخبار عن اجتراحِهم السَّيّئات وفعلِهم المنكرات؛ بيَّن عقائدهم الباطلة المسبِّبة لاجتراح السّيّئات؛ إذ اتَّخذوا الهوى معبودَهم، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

وأيضًا لمّا أنكر على الكافرين حسبانَهم العجيب في أن يكون حالُهم حسنًا في الآخرة؛ أعقبَه إنكارٌ آخر أعظم منه، وهو

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 93 - 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 357.

الإنكار على من يتَّخذ إلهه هواه، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَخَتَمَ﴾: أصلُ (ختم) يدلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيء، يُقالُ: ختمتُ العَمَلَ، وختم القارئُ السّورةَ، والخَتْمُ: الطَّبْعُ على الشَّيءِ، فهو من هذا الباب؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيءِ لا يكونُ إلّا بعد بُلوغِ آخره في الأحرازِ، والخاتَمُ مُشتقٌّ منه؛ لأنَّ به يُختمُ[1]، والختم على الشَّيء وضع خاتم عليه، أشبه بالقفل المُحكم، بحيث لا ينفذ إليه شيء[2]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾، أي: فجعله لا يسمع سماع تدبُّر وانتفاع، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده[3].

2) ﴿غِشَٰوَةً﴾: أصلُ (غشى) يدُلُّ على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ[4]، ومنه الغِشاءُ: الغِطاءُ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ تَغْشِيةً؛ إذا غطَّيته[5]، ومنه قيل: غاشية السَّرْج؛ لأنَّها غِطاء له، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلبَ من رَيْنِ الطَّبْعِ[6]، وهي على زنة فِعالَة من غَشاهُ، وتغشّاهُ؛ إذا حَجَبَهُ، وممّا يُصاغُ له وزْنُ فِعالَةٍ معنى الاشتِمالِ على شَيءٍ مثلَ العِمامة والعِلاوة واللِّفافة[7]، والمراد بالغشاوة في الآية: الغطاء والسّاتر.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

أصلُ الشَّرِّ والضَّلالِ في مُتابَعةِ الهَوى

يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه ﷺ: أفرأيتَ يا محمَّدُ ﷺ حال من اتَّخَذَ إلهه هواه، فهو مطواع لهوى النَّفس، يتبع ما تدعوه إليه، فكأنَّه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم).
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 1/ 29.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 161.
(4) ابن فارس: مقاييس اللغة: (غشى).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو - غشا).
(6) الخليل، العين: (غشو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (غشا).

يعبده، كما يعبد الرَّجل إلهه؛ لأنَّه كان يستحسن الحجر، فيعبده، فإذا وجد ما هو أحسن منه، رفضه إليه، أو أبقى عليه، فكأنَّه اتَّخذ هواه إلهًا أو آلهةً شَتَّى يعبد كلَّ وقت واحدًا منها، فأضلَّه اللّهُ عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلْم مِنه سبَق أنَّه يَضِلُّ، ولا يَهتَدي، وطَبَع سبحانه على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه، فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه، وجَعَل تعالى على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه، فلا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللّهُ، أفلا تَتذَكَّرونَ - أيُّها النّاسُ - فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حاله؛ فلَنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايته(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

التَّعجيبُ من حالِ من يتَّخذ إلهه هواه يسيِّره حيث شاءَ

جاءت جملة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ منفصلة عن الآية السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: 22]، وذلك لاختلافهما من حيث الخبر والإنشاء، فترك العطف لكمال الانقطاع؛ لكون هذه الآية قد استهلَّت بالاستفهام التَّعجيبيِّ التَّوبيخيِّ.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

كفرُ الأهواء ظاهرٌ في الأفعال والأحوال

الاستفهام في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تقريريٌّ، أي: تقرير رؤية من هذا حالُه؛ لأنَّ الأمر حاضر ظاهرٌ، ويتولَّد من التَّقرير معنى التَّعجيب والتَّوبيخ ممَّن اتَّخذ إلهه هواه وأضلَّه اللّه على علمٍ، وفيه تسلية لرسولِ اللّه ﷺ عن المعرضين عن الإيمان،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 94، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 169، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 268، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 887.

أي: لا تعجل بهم، ولا تهتمَّ بأمرهم، فليس فيهم حيلةٌ لبشر[1]، والغرض من الاستفهام التَّعجُّبيِّ استحضار صورة المستفهَم عنه، وهو هنا الَّذي يتَّخذ إلهه هواه؛ ليُحكَمَ عليها بالتَّعجيب، وهي ماثلة في الذِّهن، كأنَّها محسوسة بالنَّظر؛ ليكون إيقاع المعنى أبلغ في نفوس المتلقّين، كما أنَّ في هذا الاستفهام إثارةً وتشويقًا لمعرفة حالِ المستفهَم عنه، وما هو الحكم فيه.

فائدة الفاء:

تفيد الفاء في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ التَّعقيب والتَّرتيب على استفهام محذوفٍ مقدَّرٍ، أي: أنظرتَ مَن هذه حاله، فرأيته، فإنَّ ذلك ممّا يُقضَى منه العجب[2].

سرُّ استعمالِ الرُّؤية دون العلم ونحوه:

التَّعجيبُ من ترك عبادة الله الواحد الأحد ولزوم عبادة الهوى

عبَّر بالرُّؤية في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ ذلك من الغرابةِ بحيث إنَّه يجبُ أن يرى، ويتعجَّبَ منه، وأشدُّ ما يكون التَّعجيب الرؤية البصريَّة؛ لأنَّها محسوسة واضحةٌ بيِّنة[3]، فالاستفهام التَّعجُّبي على معنى: انظُر إليه، وتعجَّب منه لتركِه عبادة الإله الواحدِ الَّذي قامت الحجج والآيات والبيِّنات بألوهيَّته وربوبيَّته، ولزومه عبادة هواه الَّذي ليس له حججٌ أو بيِّنات، والَّذي لم يؤمَر بعبادته، وعبَّر بالرُّؤيةِ دون العلم، ولم يقل: (أفعلمتَ من اتَّخذ إلهه هواه)؛ لأنَّ الرُّؤيا هي أقوى وسيلة للعلم، فليس من سمع كمن رأى، فالتَّعبير بالرُّؤيا عن العلم من المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة، والإنكار على ما هو مشاهدٌ، والتَّعجيب منه أظهر من إنكار المعلوم في الذِّهن، كما أنَّ في استعمال الرُّؤية إشارةً إلى ظهور هذا الاتِّخاذ القبيح في أفعالِه وأحوالِه.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 86.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 221.

دلالةُ الفعـل ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ علـى الرؤيـة البصريّة أوالقلبيّة تعدية لمفعول أو مفعولين:

لا يمكن لأحـدٍ غير الله هداية مـن اتَّـخـذ إلـهه هواه

على القول بأنَّ المراد من الفعل ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ الرؤية البصريَّة، فالفعل يأخذ مفعولًا واحدًا، وهو الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وهذا هو الظّاهر[1]؛ لما دلَّ عليه الفعل من التَّعجيب بمعنى: أنَّ الأمرَ ظاهر لكلِّ راءٍ ببصره، وعلى القول بأنَّ المرادَ من الرُّؤية القلبيَّةُ، أو أن يكون ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ بمعنى: فأخبرني؛ فإنَّ المفعول الثّاني محذوف، ونكتة حذفِ المفعول الثّاني للفعل ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾: هي الإشعار بهولِ أمرِه، وأنَّه يكفي العلم بالمفعول الأوَّل - أي: العلم بالموصول وصلتِه - للحكم عليه بأنَّه لا يمكن لأحدٍ غير اللّٰه هدايته مادام هواه موجودًا، ويكون قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ آخر الآية دالًّا عليه، وتقدير الكلام: أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه، أيهتدي؟[2] ويفيد بلازمِه هلاكَه؛ إن لم يهدِه اللّٰه.

بلاغةُ مجيءِ الخطاب على خلافِ مقتضى الظّاهر:

كـلُّ مـن تـتـأتّى منه رؤية حالِ مـن اتَّـخـذ إلـهه هواه ينكر عليه، ويـتـعـجَّـب من حالِه

الأصلُ في التَّعبير بضمير الخطاب أن يكون الخطابُ مع مخاطَبٍ معيَّن، لكنَّه في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ لا يُقصَدُ به مخاطَبٌ معيَّن، فجرى الكلامُ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المقصود هو أنَّ حالتَه قد بلغت من الظُّهور إلى حيث يمتنع خفاؤُها ألبتَّةَ على كلِّ أحدٍ، وأنَّها وصلت إلى حدٍّ أن تكون مرئيَّة لكلِّ راءٍ، فلا تختصُّ رؤية راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من تتأتّى منه الرُّؤية يُنكر عليه، ويُتعجَّب من حالِه، فلا يختصُّ بالرُّؤية مخاطَبٌ معيَّن[3]، ويحتمل أن يكون الخطاب للرَّسول ﷺ، ومعه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 24.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 422، والخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 599، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.

(3) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

عموم المسلمين[1]، ونكتة توجيه الخطاب إلى الرَّسول ﷺ هو أنَّه المقصود الأوَّل بالخطاب؛ لأنَّه تسلية له؛ لكي لا يحزن؛ بسبب عنادِ الكافرين واستهزائِهم، ويدخل في التَّسلية عموم المسلمين تبعًا.

دلالة الموصول:

توبيخُ من يتَّخذ إلهه هواه سواء أكان فردًا أو جماعةً

يدلُّ الاسم الموصول في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ على العموم؛ للإشارة إلى أنَّ الإنكار والتَّعجيب يكونُ لكلٍّ من يتَّخذ إلهه هواه، وهو المناسب للمقام؛ ليكون التَّوبيخ أشدَّ، والاسم الموصول وإن كان للعموم على سبيل البدل من المفرد، بمعنى كلِّ واحدٍ واحدٍ؛ بسبب إفرادِ الضَّمير العائد في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وما بعده، لكنَّه يصدق على فريق المستهزئين الذين حسبوا أن يكون محياهم ومماتهم سواء بقرينة ضمير الجمع، في الجملة المعطوفة بقولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾.

سرُّ إفراد الضَّمير دون جمعهِ في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾:

تتنوَّع الأهواء بتنوُّع الأفراد، وتتنوَّع الآلهة، وتتعدَّد بتنوُّع الأهواء وتعدُّدها

سرُّ إفراد الضَّمير في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ دون أن يقال: (أفرأيت من اتَّخذوا إلههم هواهم)؛ ليكون الضَّمير عائدًا إلى فريق المستهزئين من بداية الكلام هو بيان أنَّ لكلٍّ هواهُ المختصَّ به، بمعنى: أنَّ كلَّ فردٍ يتَّخذ إلهه هواه، فتتنوَّع الأهواء بتنوُّع الأفراد، وتتنوَّع الآلهة، وتتعدَّد بتنوُّع الأهواء وتعدُّدها، فتحسب الكافرين جميعًا، وأهواؤهم شتّى.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾:

التَّعريضُ بقبْحِ حالِ من اتَّخذ إلهه هواه، وذلَّتِه في الدُّنيا ونهاية جهله

عبَّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الصِّلة وما عطف عليها هي الَّتي بنيَ عليها وجه الإنكار والتَّعجيب، بمعنى أنَّ سبب التَّعجيب من حالِه هو أنَّه اتَّخذ إلهه هواه، كما أنَّ في ذكر الصِّلة تعريضًا بقُبْحِ حالِه وذلَّتِه ونهاية جهله.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 357.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

من يتَّخذ إلهه هواه إنَّما يتَّخذه راغبًا فيه متخيِّرًا له؛ إشباعًا لرغبتِه وشهوتِه

عبَّر بلفظ الاتِّخاذ بدلًا من الجَعْل أو الطّاعة والاتِّباع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ للإشعار بقوَّة تمسُّكه بهواه وحرصِه عليه واتِّباعِه له، فكأنَّه قد حازَه، وحصَّله، وقبض عليه بقوَّة على سبيل تناوله له باليد، فجعلَه إلهًا يطيعه، ويتَّبعه، ولمّا أسند الفعل إلى الضَّمير (هو)؛ أفادَ أنَّه اتَّخذ إلهه هواه لنفسِه، وأنَّه تخيَّره راغبًا فيه، وفي صيغة (افتعل) إشعارٌ بأنَّه بذل الجهد، وتكلَّفَ في اتِّخاذه إلهه هواه، كما أفادَ التَّعبير بالاتِّخاذ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أنَّه اتَّخذ إلهه هواه لنفسِه.

براعةُ التَّصوير بين الاستعارة التَّمثيليَّة والتَّشبيه:

متابعةُ الهوى كلُّها مذمومة، فإنَّ ما يدعو إليه الهوى باطلٌ

الظّاهر أنَّ تركيب: ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هو على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة[1]؛ لبيانِ حالةِ الكافر بأنَّه ما هوى شيئًا إلّا ركبه، وأنَّه كلَّما اشتهى شيئًا لم يمتنع منه؛ فهو مطواع لهوى النَّفس، يتبع ما يدعوه إليه حيث كان[2]، ويميل معه حيث مالَ، فكأنَّه يعبده، كما يعبد الرَّجل إلهه، فلا عقلَ يتَّبعه، ولا نظرَ يوجِّهه؛ لغلبة هواه عليه؛ لتفيد الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ تعدُّدَ آلهته؛ لأنَّه كلَّما هوت نفسه شيئًا؛ عبده، ويحتمل أن يكون تركيب ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ على التَّشبيه البليغ[3]، بحذف أداة التَّشبيه لتوكيد الصِّلة بين المشبَّه: وهو الإله، والمشبَّه به: وهو الهوى، وفي حذف المشبَّه إشعارٌ بعموم الاشتراكِ وقوَّته بين الهوى المتَّخذ إلهًا وبين الإله، فكأنَّ كلَّ ما ثبت للإله الحقِّ من كمال الطّاعة ولزوم الانقياد والإجلال والتَّعظيم؛ ثبت لهواه الَّذي اتَّخذه إلهًا، وهذا من التَّشبيه المقلوب، على ما ذهب إليه السَّكاكي وغيرُه[4]،

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 448، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 149.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 149، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.
(4) السّكاكي، مفتاح العلوم ص: 344.

بجعل المشبَّه - وهو الهوى - هو المشبَّه به، والمشبَّه به - وهو الإله - هو المشبَّه؛ للمبالغة في تصوير الضَّلالِ حتَّى صار المشبَّه - الهوى - هو الأصل، والمشبَّه به - الإله - هو الفرع لمزيد التَّوبيخ والتَّقريع على من يكون هذا حالُه[1].

ويحتمل أن يكون التَّركيب على الحقيقة بأن يكون هَواهُ بمعنى مَهويِّه، أي: عبدَ إلهًا مهويَّه؛ لأنَّه أحبَّه، واستحسنه يَعني الَّذِينَ اتَّخَذوا الأصنامَ آلِهَةً لا يقلعون عَن عبادتها؛ لأنَّهم أحبّوها، أي: ألِفوها، وتَعَلَّقَت قُلوبُهم بِعبادَتِها، أو لأنَّهم استحسنوها بهواهم، وإذا استحسن أحدهم شيئًا آخر أحسن منه؛ ترك عبادة الأوَّل، وعبد الثّاني، فيعبد كلَّ وقت واحدًا منها، فتلك كانت عادتهم، وذلك اتِّخاذ الآلهة بهواهم؛ إذ الإله هو المعبود عندهم[2].

والقول بالاستعارة التَّمثيليَّة أجمع للمعنى، وأجمل في تصوير الحالةِ، وعلى الأوجه الثَّلاثة فإنَّ التَّركيبَ يفيدُ قلَّة عقلِهم وضعفِ نظرِهم بحيث يكونون موضع استهزاءٍ وسخرية، فإنَّ نهاية الجهل أن يتَّخذ إلهه هواه؛ لأنَّ ما يدعوا إليه الهوى باطل، ولابدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ هذه الآية، وإن كانت نزلت في هوى الكفر، فهي متناولة لكلِّ من اتَّبعَ هوى النَّفس الأمّارة، ويدخل فيه الكافر فيما ذكر دخولًا أوَّليًّا، ولا يكاد يسلم على هذا من عموم الآية إلّا من اتَّبع الشَّريعة في كلِّ ما يأتي، ويذر[3].

سببُ تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾:

قد يقال: لِمَ قدَّم المفعول الثاني، وأخَّر المفعول الأوَّل في قولِه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فإنَّ الأصل أن يكون التَّرتيب: اتَّخذ هواه إلهًا؟ أي: صيَّر هواه إلهًا، والجواب: هو أنَّه، ولكنَّه لمّا كان الأصلُ في مفعولي الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أنَّهما مبتدأ وخبر؛ كان أصل الكلام اتَّخذ هواه إلهه، فيكون تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾ من باب تقديم الخبر على المبتدأ، وهو الَّذي عبَّر عنه هنا بتقديم المفعول الثّاني الَّذي هو الخبر في الأصل على الأوَّل الَّذي هو المبتدأ، وسبب التَّقديم إظهار العناية بالمفعول الثّاني؛ لأنَّه موضع التَّعجيب والإنكار على

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 78.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 227، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 158.

(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 86، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.

الاتِّخاذ[1]، كما يقال: اتَّخذت سندًا أخي لفضل العناية بالسَّندِ، وفي التَّقديم إشعارٌ بتوبيخِهم وقبح فعلِهم؛ لأنَّهم حقَّروا الإله بتنزيلِه إلى منزلة الهوى والشَّهوة، وفيه كذلك نكتة لطيفة، وهي إفادة الحصر، فإنَّ تقديم الخبرِ على المبتدأ يفيد الحصر[2]، فكأنَّه قال: أرأيت من لم يتَّخذ هواه إلّا معبودًا له، فهو أبلغُ في ذمِّه وتوبيخِه؛ لأنَّه قصر هواه على أن يكون إلهًا معبودًا له، فما دامَ الهوى موجودًا لا ينفكّون عن عبادتِه، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الكلام على الأصل ولا تقديم في الآية، بمعنى أنَّه اتَّخذ إلهه ما يهواه، والجملة حينئذٍ تفيد الحصر، كذلك لمجيء المبتدأ والخبر - أي: باعتبار أصلهما - معرفتين، أي: لم يتَّخذ لنفسِه إلهًا إلّا هواه[3].

من أقبح أنواع الكفرِ وأشدِّه ذمًّا اتِّخاذ الهوى إلهًا

براعةُ تركيب: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾:

من براعة نظم القرآن تقديمُ الإله على الهوى

جاء التَّركيب بتقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾، ولو عكس الكلام، فقدَّم الهوى على الإله؛ لتغيَّر المعنى، وجاء على عكس المقصود، فإنَّه لمّا قال: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أفادَ أنَّ هذا المذموم قصر نفسه على أن يكون الهوى معبودَه، فلا يعبدُ سوى هواه، وقد يتألَّه الهوى غيره، فالكلام على الذَّمِّ وتقبيح الفعل، بمعنى أنَّه محا وصف الإله، ولم يبقَ إلّا الهوى، ولو عكس الكلام، وقيل: أفرأيت من اتَّخذ هواه إلهه؛ لكان المعنى أنَّه قصر هواه على الإله، فلا غيَّ له؛ لأنَّ هواه تابع لأمر الإله، وقد يشاركه في تألُّه الإله غيره؛ بمعنى أنَّه سلب نفسَه الهوى، فلم يعمل به إلّا فيما وافق أمر إلهه، أي: إنَّه محا الهوى، ولم يبقَ إلّا الإله، ويكون الكلام على المدح، وممّا يوضِّح انعكاس المعنى بالتَّقديم والتَّأخير أنَّك لو قلت: فلان اتَّخذ عبده أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبد، ولو قيل: إنَّه اتَّخذ أباه عبده؛ لكان معناه أنَّه

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 125.
(2) ابن المنير، الانتصاف حاشية على الكشّاف: 3/ 282.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.

أهان الأب، ففي مثل هذا التَّركيب، وهذا الأسلوب إذا قدَّمَ المعنى الحقير؛ شرَّفه، وإذا قدَّم المعنى الشريف؛ حقَّره، ومثله لو قلت: اتَّخذ إصطبله مسجدًا، فهو على المدح؛ لأنَّه شرَّف الإصطبل بتصييره مسجدًا، بمعنى أنَّه محا الإصطبل، ولم يبق إلّا المسجد، ولو عكست، وقلت: اتَّخذ مسجده إصطبلًا؛ كان على الذَّمِّ؛ لأنَّه محا المسجد، ولم يبقَ إلّا الإصطبل[1]، فترى أنَّ تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ و﴿هَوَىٰهُ﴾ قد أصاب شاكلة الرَّمي.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿هَوَىٰهُ﴾:

عبادةُ الهوى توجب الهوان والذِّلَّة

عبَّر في قولِه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بلفظ الهوى؛ للإيذانِ بأنَّه باتِّباعِه الهوى وعبادتِه له، فإنَّه يهوي في الهواءِ الممدود، وهو الفضاء، أي: ينزل به عن درجة عليا إلى ما دونها، فهو في سُفول ما دام تابعًا لهواه؛ لأنَّه بحيث لا قرارَ له، ولا تمكُّنَ، فلذلك كان اتِّخاذ إلهه هواه يوجب الهوان، ولو عكس، وجعل هواه إلهه؛ لارتفع في علِّيين.

نوعُ الواو ودلالتها:

التَّدرُّج والزِّيادة في إضلالِ من يتَّخذ إلهه هواه إلى منتهى اليأس

الواو المتكرِّرة في قولِه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾، هي للعطف المقتضي التَّشريك في حكم التَّعجيب من حالِه، فالتَّعجيب من مجموع المعطوف والمعطوف عليه؛ لأنَّ المعطوفات المذكورة في حيِّز صلة الموصول، فالمعطوفات متمِّمة لصورة التَّعجيب ممَّن هذا حالُه؛ لأنَّ التَّعجيب لا يكون لمن يتَّخذ إلهه هواه من دون ذكر: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ وما بعدَه؛ لأنَّه قد يتَّخذ إلهه هواه، ثمَّ يهديه اللّه، فلمّا ذكر المعطوفات؛ فرَّع عليه قولَه: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: لا أحد يهديه بعد اللّه، فصورة التَّعجيب غريبة لشناعتها وقبحِها، فالإله المعبود عنده هو الهوى والشَّهوات الخسيسة، والضَّلال طريقه، والسَّمع والقلب مختوم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 394 - 18/ 95.

عليهما مطموسان، والبصر عليه غشاءٌ سميك محكم الإحاطة، فكيف يكون من حالُه هذه؟ ومن يستطيع أن يردَّ عليه ما سلبه اللّه تعالى؟ لا أحدَ يستطيع، ولا أحدَ يهديه[1]، ويُلمَح في واو العطف معنى التَّدرُّج والزّيادة في الإضلالِ، حتّى الوصول إلى اليأس من اهتدائِه بجعل الغشاوة على بصرِه.

دلالةُ استعمال مفردة (أضَلَّهُ):

أفاد التَّعبيرُ بلفظ (أضَلَّهُ) أنَّه قد ضلَّ بعد أن جاءَه الهدى الَّذي أخبر عنه قوله سبحانه تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، ولمّا كان الضَّلال هو العدول عن الطَّريق المستقيم والانحراف عنه؛ أفادَ أنَّ الطَّريق المستقيم في الهداية بالقرآن واتِّباعِه، والمعنى: أضلَّه عن القرآن والشَّريعة؛ بسبب اتِّباعِه الهوى، وجعله معبودَه يميل معه حيث مالَ.

الضَّلال عن القرآن والشَّريعة إنَّما هو بسبب اتِّباعِ الهوى وجعله معبودًا

دلالةُ الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾ على الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ بما اتَّصف به من صلة الموصول، والمعنى أضلَّ اللّه من اتَّخذ إلهه هواه، فيكون في عود الضَّمير إيماءٌ إلى سبب إضلالِه.

دلالةُ إسنادِ فعل الإضلال لاسم الجلالة:

أُسند الإضلالُ إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ على طريق المجاز العقلي، بعلاقة السَّببيَّة، والمراد حرمانه من اللُّطف وصرفه عنه عقابًا له على اتِّخاذِه إلهه هواه[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى هو الَّذي يهدي، وهو الَّذي يضلُّ، ونكتة التَّعبير بالمجاز الإيذان بتمكُّن الضَّلال منه وثباتِه فيه حتَّى صار كالشَّيء الخِلقي غير العرضيِّ، بمعنى: أنَّ الضَّلالَ صار ثابتًا فيه متمكِّنًا منه.

جعل اللّه تعالى للهداية أسبابها، وللضَّلال أسبابه كذلك

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 76.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

من أشدِّ صور الضَّلال كونه بعد تمكُّن صاحبه من العلم

عبَّر بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾؛ للإشعار بتمكُّن العلم منه وإحاطتِه به، ويحتمل أن يكون ﴿عَلَىٰ﴾ معناه المصاحبة، بمعنى (مع)[1] على سبيل استعارة الحرف لمعنى حرفٍ آخر بقرينة السّياق؛ ليفيد معنى التَّمكُّن والمصاحبة، أي: أضلَّه اللّه مع علمِه، وتمكُّن هذا العلم منه.

نكتةُ التَّقييد بالحال:

أقبح أنواع الضَّلال أن يضلَّ الإنسان، وهو يعلم الحقَّ من الباطلِ

يحتمل أن يكون الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ حالًا من المفعول به، وهو الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾، والتَّقدير: أضلَّه اللّه عالمًا بالهدى، فيكون ضلالُه متعمَّدًا، فهو يعلم الحقَّ من الباطلِ، وهذا أقبح أنواع الضَّلال؛ لدلالتِه على أنَّ ضلالَه لعنادِه[2]، والمعنى: أضلَّه اللّه في حالِ كونِه على علم منه، بأنَّه لا يصحُّ أن يكون هواه إلهه، وفي حالِ كونِه على علم بأنَّ الإله المستحقَّ للعبادة هو اللّه تعالى، وفي هذا التَّوجيه تعجيبٌ من حالِه مع علمِه ببطلان ما يفعلُه، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّه ضلَّ لعنادِه، فأضلَّه اللّه، وفيه إيماءٌ كذلك إلى غلبةِ هواه له، وإلى أنَّه إنَّما يتَّخذ إلهه هواه شهوةً منه، ولو ترك اتِّباعَ الهوى؛ لعرف الحقَّ، واتَّبَعه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المعصية مع العلم أفحشُ منها مع الجهلِ، ويحتمل أن يكون صاحب الحال هو الفاعل، أي: الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: أضلَّه اللّه؛ لعلم تعالى به وإحاطتِه بعاقبتِه بأنَّه يختار الضَّلالةَ، ولا يهتدي، ولو جاءته كلُّ آية[3]، ويؤيِّد هذا التَّوجيه مجيء الكلامِ بعدَ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 9/ 227، والكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2816، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 365، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 187، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 13/ 359.

﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، والمعنى: أضلَّه اللّه تعالى، عالمًا سبحانه بأنَّه أهل لذلك؛ لفساد جوهر روحه[1]، وفي هذا التَّوجيه مبالغة في ذمِّ المتَّخذ إلهه هواه، وقطع الرَّجاء من إيمانه، بمعنى: أنَّه تعالى آيَسَ رسولَه ﷺ عن إيمانِ مَن عَلِمَ منهم أنَّهم لا يؤمنون[2]؛ تسليةً له عن المعرضين عن الإيمان؛ لكي لا يحزن لعنادِهم واستهزائِهم.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ الختم بين الاستعارة والمجاز المرسل:

تصويرُ حالةِ عدم الانتفاع من الآيات بالختم على السَّمع والقلب

في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ تعبير مجازيٌّ باستعمال لفظ (خَتَمَ)، وهو إمّا أن يكون استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه المنع - من إدراك القول في السَّمع، ومن نفوذ الحقِّ والهدى إلى القلب - بالمانع الحسّيِّ، الَّذي يوضع على الشَّيء، فيختمه، ويحكم إغلاقه، أو يقال في وجه الاستعارة: إنَّه يشبِّه تحقُّق نبوٍّ سمعِه عن قبول الحقِّ، وعدم نفاذ الحقِّ في قلبِه، بكونِهما مختومًا عليهما على سبيل الاستغلاق المانع من القبول، ويحتمل أن تكون استعارة تمثيليَّة بأن شُبِّهت الهيئة الحاصلة من تصميمه على الكفرِ بعدم الانتفاع من سماع الحقِّ وعدم التَّأمُّل في الآيات والحجج الظّاهرة البيّنة بهيئة الاستغلاق والمنع المعبَّر عنها بالختم، أو يقال في وجه التَّمثيل: هو أن يشبَّه حال سمعِه وقلبِه في أنَّهما خُلقا؛ للانتفاع بهما، ثمَّ إنَّهما لم ينتفَع منها بحالِ أشياء مخلوقةٍ؛ للانتفاعِ بها مع المنع من ذلك بطريق الختم، وإمّا أن يكون الكلامُ على طريق المجاز المرسل، بأن عبَّر عن عدم نفوذ الحقِّ إلى سمعِه وقلبِه بالختم، فذكر الملزوم، وهو الختم، وأراد لازمَه، وهو امتناع النُّفوذ، بعلاقة اللُّزوميَّة[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 150.

(2) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 358.

(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 254.

براعةُ استعمال مفردة (خَتَمَ) دون (طَبَعَ):

الطَّبعُ يثبت في المطبوع، فلا يتخلَّف بخلاف الختم

لمّا كان الكلام مع الكفّار، وكان حالُهم أقلَّ ضلالًا من حالِ المنافقين؛ عبَّر مع الكفّار بالختم، فقال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 6 - 7]؛ لأنَّ الختم قد يُفتَح، فالكافر قد يؤمن، وأمّا الطَّبع؛ فقد استُعمل مع المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة: 87]، ومع الكفّار حين يكون الأمر منتهيًا، ولا ينفع معهم أيُّ عظةٍ أو تذكير، بأن شرحوا للكفر صدرًا، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ [النّحل: 108]؛ لأنَّ الطَّبع أثرٌ يثبت في المطبوع، ويلزمه، ولا يفارقه، فهو يفيد معنى الثَّبات واللُّزوم ما لايفيده الختم.

دلالةُ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

عبَّر بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ للإشعار بتمكُّن الختم من سمعِه وقلبِه؛ لأنَّ حرف الاستعلاء فيه معاني العلوِّ والقهر والتَّسلُّط.

نكتةُ ذكر ﴿سَمۡعِهِۦ﴾ لا (أذنه):

السَّمع الحاسَّة والأذن آلة السَّمع

عبَّر بلفظ السَّمع في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ دون أن يذكر آلة السَّمع، وهي الأذن، أي: لم يقل: وختم على أذنِه؛ لأنَّ المرادَ ختم على حاسَّة السَّمع، الَّتي هي محلُّ الإدراك والانتفاع بالمسموع، وأمّا الأذن؛ فهي آلة، وقد تُدرَك المسموعاتُ بغير أذنٍ.

دلالةُ إضافةِ السَّمع للضَّمير:

في قوله: ﴿سَمۡعِهِۦ﴾ أُضيف السَّمع إلى الضَّمير العائد إلى الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ بما اتَّصف به مع صلتِه، أي: وختم على سمع من

عـبـادةُ الـهـوى واتِّـبـاعـه سبب لختمِ الله تعالى عـلـى الـسَّـمـعِ والقلبِ

اتَّخذ إلهه هواه، ومثله (قَلبِه)، ففيه إيماءٌ كذلك إلى أنَّ سبب ختمِه تعالى على سمعِه وقلبِه هو أنَّه اتَّخذ إلهه هواه.

نكتةُ تقديم السَّمع على القلب:

من خُـتِـمَ على سمعِه؛ خُتِمَ على قلبِه

قُدِّمَ السَّمع على القلب في قولِه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ لأنَّ السَّمع من روافد القلب، فالسَّمع أداة موصلة لمجمع الإدراك، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ القرآن يطرق الأسماعَ، فيدخل إلى القلوبِ، فمَن خُتِمَ على سمعِه؛ خُتِمَ على قلبِه، فخَتْمُ السَّمعِ سببٌ لخَتْمِ القلب.

نكتةُ استعمالِ مفردة (جَعَلَ):

آفةُ الانتفاعِ من البـصـر بوضع الغشاوة أسوة بآفة الختم على القلب

في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ عبَّر بلفظ (جَعَلَ)؛ للإشعار بأنَّه صيَّره على حالةٍ دون أخرى، وحكمَ عليه بذلك، بمعنى أنَّه كان بالإمكان ألّا يجعله كذلك، ولهذا لم يعبِّر بلفظ الخلق؛ لأنَّ لفظ الخلق يفيد أنَّه خلقه على هذه الصِّفة، والأمر ليس كذلك، كما أنَّه عبَّر بالجعل دون الختم، أي: لم يقل: وختم على بصرِه؛ لأنَّ صيرورة البصر فيه آفة تمنع من الإبصار والاستبصار، ليس مثل صيرورة السَّمع والقلب آفتين؛ إذ الأعمى لا يُحرمُ بالكليَّة عن كسب الكمالِ، وكذا الأعمى مجازًا، ولهذا أخَّر ذكر الغشاوة عن الختم[1]، كما أنَّ المنع من الانتفاع بالبصر يكون بوضع الغشاوة عليه، فالآفة المناسبة لحجب البصر من الرؤية الكاشفة هي الغشاوة، وأمّا الآفة المناسبة لمنع الانتفاع بالسَّمع والقلب؛ فهي الختم عليهما، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها في القرآن مقامٌ.

بلاغةُ التَّعدية بحرف الاستعلاء:

الـهـوى حاجب للأبصار

عُدّي الفعل (جَعَلَ) بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾؛ للإشعار بأنَّه تعالى جعل الغشاوة متمكِّنةً من بصرِه ثابتةً، فلا يقدر على النَّظر

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435.

في الآيات المنصوبة، وجعْلُ الغشاوةِ على البصر أبلغُ في المنع من الإبصار من أن يقال: وغُشِيَ بصره، أو وجعل بصره مغشيًّا؛ لأنَّه لو قيل: (وجعل بصره مغشيًّا)؛ دلَّ على تغيير حالِ بصرِه وتحوُّله من حالةٍ إلى أخرى، وأمّا إن كان مبصرًا، ويوجد مانع من الإبصار بفعل فاعلٍ، فهو أشدُّ عليه، كما أنَّ التَّعبير بحرف الاستعلاء أوفق بالمقام؛ لأنَّ المراد أنَّه يبصر، ولكن جعل على بصره غشاوة؛ بسبب اتِّخاذه إلهه هواه.

نكتةُ إيثار البصر على العين:

قد يبصر أعمى العين ببصيرته ما لا يبصره غيره بعينِه

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ عبَّر بالبصر دون العين؛ لأنَّ المراد حاسَّة البصر، وليس الآلة الَّتي يُبصَر بها، فكم من أعمى العين يبصر ببصيرتِه ما لايبصره غيره بعينِه.

غرضُ تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿غِشَٰوَةً﴾؛ للاهتمام بموضع الجعل، وللإشارة إلى اختصاص الغشاوة بالبصر دون غيره.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿غِشَٰوَةً﴾:

الغِشاوةُ ما يغشى العين من ظلمةٍ، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤيةً كاشفةً

لّما كان لفظ ﴿غِشَٰوَةً﴾ على وزن (فِعالة)؛ فهو من أسماء الصِّناعة مثل عِمامة وعِصابة، أفاد أنَّ اللَّفظ على معنى اشتمالِه على شيءٍ وإحاطتِه به كاشتمال العمامة على ما تحيط به[1]، فأشعرَ لفظُ ﴿غِشَٰوَةً﴾ بتغطية الغشاوة للبصر على جهة اشتمالِها عليه وتمكُّنها منه، والغِشاوة ما يغشى العين من ظلمةٍ، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤيةً كاشفةً.

بلاغةُ الاستعارة:

في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مجاز بالاستعارة؛ إذ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غشي).

لا تغشية في الحقيقة، فإمّا أن تكون استعارة تصريحيَّة أصليَّة في لفظ ﴿غِشَٰوَةٗ﴾، وذلك بتشبيه عدم انتفاعهم من إبصارِهم؛ للآياتِ والأدلَّة والبيِّنات الظّاهرة بالبصر المغطّى عليه بغشاوةٍ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لكمال الإيضاح والبيان لمن هذا حالُه[1]، وإمّا أن تكون استعارة تمثيليَّة بأن يشبِّه حالُ أبصارِهم في أنَّها خلقت للانتفاع بها، ثمَّ لم ينتفَع بها بحالِ أشياء مخلوقة؛ للانتفاع بها مع المنع من ذلك بطريق التَّغطية، أو يقال: شُبِّهت هيئة متخيَّلة في أبصارِهم من عدم التَّأمُّل في وحدانيَّة اللّٰه، وصِدق كتابه ورسولِه، بهيئة الغشاوة على البصر المانع من الانتفاع بما هُيِّئَ له، وما هو مرجوٌّ منه[2].

خلْقُ الله تعالى الحواسَّ؛ لينتفع منها أصحابُها في معرفة الله وتوحيده واتِّباع شريعتِه

توجيهُ القراءتين في لفظ ﴿غِشَٰوَةٗ﴾:

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿غَشۡوَةٗ﴾ بغير ألف مع فتح الغين على وزن (فَعْلَة)، وقرأ الباقون: ﴿غِشَٰوَةٗ﴾ بكسر الغين وإثبات الألف فيها[3]، على أنَّها اسم بوزن (فِعالة)، وتوجيه القراءتين: أنَّه على قراءة ﴿غَشۡوَةٗ﴾ يكون المعنى أنَّه جعلَ على بصرِه غَشْوَةً في دفعة واحدة، ومرَّة واحدة[4]، وعلى قراءة ﴿غِشَٰوَةٗ﴾ تكون الكلمة من أسماء الآلة، أي: بتشبيه الغِشاوة بأسماء الآلة كالعِمامة الَّتي تلتفُّ، والمعنى تلتفُّ الغِشاوة بالعين محيطةً بها، فتظلم، فلا ترى شيئًا.

تنوُّع المعنى وتوسُّعه لتنوُّع القراءة

براعةُ التَّرتيبِ بين المعطوفات:

في قوله ﷻ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ بدأ بذكر الإضلال على علمٍ، فالختم على السَّمع

من يتَّخذْ إلهه هواه تُقفَل عليه جميع أبواب الاهتداء

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 54.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 52.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 132، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 372.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 77.

والقلب، والجعل على البصر غشاوةً، والتَّرتيب بين المعطوفات على سبيل التَّرقّي في امتناع الانتفاع، وسدٍّ جميع أبواب الاهتداء، فإنَّه لمّا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ كان كأنَّ قائلًا يقول: لعلَّه يهتدي ما دام على علمٍ، فزادَ في بيان امتناع اهتدائِه، فذكر الختم على السَّمع والقلب؛ للإيذان بامتناع وصول الحقِّ إلى سمعِه وقلبِه والانتفاع به، ثمَّ زادَ عليه، فذكر أنَّه على بصره غشاوة، فأُغلقت المنافذ المعتادة كلُّها، فلا سبيل له إلى الاهتداء من دون هداية اللّٰه تعالى له، فكانت النَّتيجة قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ مع آية البقرة:

عند ذكرِ المواعظ يُقدَّم السَّمع على القلب، وعند ذكرِ الإيمان والكفر يُقدَّم القلب على السَّمع

في آية الجاثية قال اللّٰه تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾، فقَدَّمَ ذِكرَ السَّمعِ عَلى القَلبِ، وفي سورةِ البقرةِ أخبر اللّٰه تعالى عن الكافرين بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]، فقَدَّمَ القَلبَ عَلى السَّمعِ.

وتوجيه تقديم السَّمع على القلب في آية الجاثية؛ لأنَّه لمّا أخبر عن القرآن بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، وحثَّهم على الاتِّعاظ به والاهتداء بهديه؛ قصد من تقديم السَّمع بيان عدم قبولهم النُّصح وعدم المبالاة بالمواعظ الواصلة إليهم حينًا بعد حين، فناسب تقديم السَّمع على القلب، وأمّا في سورة البقرة؛ فكان الكلام في سياق ذكر الإيمان والكفر، وموضعُهما هو القلبُ، فذكر ختم القلب قبل السَّمع، فناسب كلُّ لفظٍ موضعَه في التَّقديم والتَّأخير.

كما أنَّه لمّا ذكر في سورة الجاثية أهل الكتاب في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]، وكان القوم قد سمعوا عنهم وعن أخبارِهم؛ ناسب تقديم السَّمع على القلب.

من يُبغض النبي ﷺ حسدًا ليس كمن يبغضه لما يسمعه من الحاسد

أو يقال: الفرق بينهما هو أنَّ المراد إرشاد العباد إلى أنَّ الرَّشاد أو الضَّلال إمّا أن يكون في القلب أوَّلًا، ثمَّ يفيض على السَّمع، وإمّا أن يكون السَّمع هو الَّذي يرفد القلب، وبيانه أنَّ الإنسانَ قد يَسمَعُ كَلامًا، فيقَعُ في قَلبِه مِنهُ أثَرٌ، مِثل أنَّ جَماعَةً مِنَ الكُفّارِ كانوا يُبَغِّضون النبيّ ﷺ عند الناس ويُلقونَ إليهم كذبهم عليه؛ فالسّامِعونَ إذا سَمِعوا ذَلِكَ أبْغَضوهُ، ونَفَرَتْ قُلوبُهم عَنهُ، وأمّا كُفّارُ مَكَّةَ؛ فَهُم كانوا يُبغِضونَهُ بِقُلوبِهِم؛ بِسَبَبِ الحَسَدِ الشَّديدِ، فَكانوا يَستَمِعونَ إليه، ولَو سَمِعوا كَلامَهُ؛ ما فَهِموا مِنهُ شَيئًا نافِعًا، فَفي الصّورَةِ الأولَى كانَ الأثَرُ يَصعَدُ مِنَ البَدَنِ إلى جَوهَرِ النَّفسِ، وفي الصّورةِ الثّانِيةِ كانَ الأثَرُ يَنزِلُ مِن جَوهَرِ النَّفسِ إلى قَرارِ البَدَنِ[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾؛ للتَّفريع على المتعجَّب منه، أي: على الموصول وصلته، وللتَّرتيب عليه، فما بعد الفاء بمنزلة النَّتيجة لِما قبلها ومرتَّب عليه، أي: من كان هذا حالُه؛ فمن يهديه من بعد اللّه؟

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعه وغرضه:

أسلوبُ الإنكار يُستعمل للحثِّ على النَّدم على ما فات والارتداع في المستقبل

الاستفهام في قولِه: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾؛ للإنكار المتولِّد منه معنى النَّفي، بمعنى إنكار أن يهديه أحدٌ سوى اللّه تعالى، ويتولَّد منه نفي أن يهديه أحدٌ سوى اللّه تعالى، وإنَّما عبَّر بصيغة الاستفهام المجازي المفيد معنى الإنكار دون أن يقال بصيغة النَّفي: فلن يهديه أحد بعد اللّه، أو فلا أحدَ يهديه بعد اللّه؛ لأنَّ الإنكار أوثق في نفي الهداية، وفي تكذيب من يدَّعي أن يهديه أحد بعد اللّه، ويتولَّد من الإنكار توبيخ من اتَّخذ إلهه هواه وتقريعه؛ لأنَّه أوصلَه إلى نهاية الضَّلال الَّذي لا أحد يقدر على انتشاله من الضَّلال وهدايته سوى اللّه الإله الواحد الأحد، والغرض منه النَّدم على ما فات والارتداع

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 678.

في المستقبل، ولو جاء الكلام بغير صيغة الاستفهام الإنكاري؛ لَما أفاد هذه المعاني، ومثل هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الروم: 29].

نكتةُ مجيءِ المسند جملة فعليَّة:

الالتجاءُ إلى الله تعالى هو السَّبيل الوحيد للهداية

في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾ جاء المسند ﴿يَهۡدِيهِ﴾ جملة فعليَّة؛ لتقوية حكم الإنكار، وجاء الفعل بصيغة المضارع؛ لإفادة تجدُّد إنكار أن يهديه أحد بعد الله واستمرارِه حالًا فحالًا، بمعنى قطع سبيل الهداية عنه إلّا إذا هداه الله تعالى.

بديعُ المقابلة في الآية:

المرادُ من الهداية توفيق الله تعالى بالسَّير على الطَّريق المستقيم واتِّباعِ الشَّريعة

لمّا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾؛ أفاد أنَّ المراد من الضَّلال العدول عن الطَّريق المستقيم وعن الشَّريعة، ولمّا قابل الإضلال بالهداية في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أفاد أنَّ المرادَ من الهداية توفيق الله تعالى بالسَّير على الطَّريق المستقيم واتِّباع الشَّريعة، والمعنى: فمَن يوفِّقه للسَّير على الحقِّ وإصابتِه واتِّباع الشَّريعة بعد أن أضلَّه الله بسبب اختياره الضَّلال.

فائدة ﴿مِنۢ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ للابتداء، بمعنى إنكار أن تبتدئ هدايته بعد الله، وذكر حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾، ولم يقل: فمن يهديه بعد الله؛ للإشعار بالنَّصِّ على الإنكار مبتدئًا بعد الله مع استغراقِ جميع الأزمان.

بلاغةُ استعمال الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

أهلُ الهداية هم مع الله تعالى وأهل الضَّلال متأخِّرون بعيدون عنه سبحانه

في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ عبَّر بظرف الزَّمان ﴿بَعۡدِ﴾، ولم يقل: فمن يهديه سوى الله، أو غير الله؛ لأنَّه لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾؛ أفاد التَّعبير بالظَّرف إثبات أنَّ الهداية لا تكون لسوى الله تعالى، كما أفاد أنَّ الله تعالى تركَه، وأنَّه صار في وضع المتأخِّر الضّالِّ، ومن

هذا حاله؛ فلا أحد يهديه، كما أفاد بلازمِه أنَّ مَن يهديه اللّه تعالى؛ فهو معه، والمعنى فمن يهديه من بعد إضلال اللّه له، ومن يهديه سوى اللّه سبحانه[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل:

إيثارُ اختيارِ الاسم الجليل (الله) في سياق الهداية والضَّلال

عبَّر بالاسم الجليل (اللّه)؛ لأنَّ الكلام في سياق ذكر الهداية والضَّلال، وهما من شأنِ الألوهيَّة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: وأضلَّه ربُّه، كما أنَّه قال: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يقل: من بعد ربِّه.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

التَّذكُّر سبب للاهتداء

الاستفهام في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإنكار لانتفاء تذكُّر الكافرين واستمرارِهم في ضلالِهم، بمعنى إنكار عدم تذكُّرهم ممّا يظهر من حالِ من اتَّخذ إلهه هواه، ومن أضلَّه اللّه، وختم على سمعِه وقلبه، وجعل على بصرِه غشاوة، وإنكار أن يهديه أحدٌ من بعدِ اللّه تعالى، فمثل هذه الحال لا يمكن عدم التَّنبُّه لها وعدم تذكُّرها والاتِّعاظ بها؛ لأنَّها حقيقة ثابتةٌ لا يمكن إنكارُها، ويتولَّد من الإنكار تنبيه المخاطَبين إلى التَّذكُّر؛ لتدارك أمرِهم وتوبيخ من لا يتذكَّر، كما يفيد الاستفهام الإنكاريُّ الأمرَ بالتَّذكُّر والحثَّ عليه، أي: تذكَّروا، فإنَّ التَّذكُّر سبب للاهتداء.

نوعُ الفاء وتعيين المعطوف عليه بها:

دلَّت الفاء على جملة محذوفة قبلها

الفاء في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفيد العطف والتَّعقيب والتَّرتيب المضمِّن معنى التَّفريع، ويدلُّ السّياق على المفرَّع عليه والمعطوف عليه، والتَّقدير: ألا تلاحظونَ، فلا تذكَّرون، أو ألا تتفكَّرون، فلا تذكَّرون[2]، فإنَّه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى أدنى تذكُّر.

(1) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 359، و13/ 150.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 73، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435، والآلوسي، روح المعانيّ: 13/ 150.

بلاغة الالتفات:

لمّا كان الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإنكار على الكافرين الَّذين لا يتذكَّرون، ولا يتَّعظون؛ كان الانتقال من الغيبة في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على طريق الالتفات؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أهمّيَّة التَّذكُّر، والالتفات إلى الخطاب في مقام التَّذكير يبعث على شدَّة الإقبال، كما أنَّ في الالتفات استدرارًا لأسماع المخاطَبين وتطرية لقلوب السّامعين.

الالتفات إلى الخطاب في مقام التَّذكير يبعث على شدَّة الإقبال

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

التَّذَكُّرُ هو التَّأمُّلُ، ولفظ (ذكر)؛ إذا جاء بصيغة التَّفعُّل، فيقصد به ذكر العقل لمعقولاته، أي: حركة العقل في معلوماته المخزونة فيه، فالتَّذكُّر قريب من التَّفكُّر؛ لأنَّ موضعهما العقل إلّا أنَّ التَّذكُّر لمّا كان مشتقًّا من مادَّة الذِّكر الَّتي هي في الأصل من جريان اللَّفظ على اللِّسان بمعنى إدامة الحفظ، وكان بمعنى خطور المعلوم في الذِّهن بعد السَّهو عنه وغيبته؛ أشعر أنَّه حركة الذِّهن في معلومات متقرِّرة ثابتة فيه من قبل[1]، وأنَّه لا يحتاج إلّا إلى تنبيه بسيط للرُّجوع إلى ما ثبت عنده في عقله، ولهذا أوثر التَّعبير بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دون أن يقال: (ألا تتفكَّرون)؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الحقائق من الظُّهور والوضوح بحيث يكفي في تحصيلها مجرَّد استحضارها في الذِّهن، أي: لا يمكن لأيِّ عاقلٍ يستحضر الحقائق، ويتذكَّرها أن يتَّخذ إلهه هواه.

لا يمكن لأيِّ عاقلٍ يستحضر الحقائق، ويتذكَّرها أن يتَّخذ إلهه هواه

دلالةُ التَّعبير بصيغة تفعُّل:

عبَّر في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بصيغة تفعَّل، أي: بإدغام إحدى التّاءين في الذّال؛ وذلك للإشارةِ إلى عدم الاحتياج إلى كثير تذكُّر؛ لأنَّ طريق الهداية واضحٌ بيِّن.

قليلُ التَّذكُّر يكفي للاهتداء، فإنَّ طريق الهداية واضحٌ بيِّن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ المطلوب تجديد التَّذكُّر الَّذي هو سبب للاهتداء واستمراره وقتًا فوقتًا، فالتَّعبير بالفعل المضارع يدلُّ في أصل استعماله على التَّجدُّد الاستمراريِّ.

فائدةُ حذف مفعول ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

الحثُّ على أن يكون التَّذكُّر وصفًا لازمًا للإنسان لديمومة الهداية واستمرارِها

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ أدنى تفكُّر ونظر ينبِّهكم على الخطأ في اتِّباع الهوى وترك الاهتداء، فإنَّه لجلائه ووضوحِه، كالحاصل للعقل الَّذي يحضر عنده بأدنى تذكُّر والتفات، كما أنَّ في حذف المفعول إشارةً إلى تنزيل الفعل منزلة اللّازم بمعنى أن يكون التَّذكُّر وصفًا لازمًا لكم لا ينفكُّ عنكم.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الختم والطبع:

الطَّبع ختم يصير سجيَّة وطبيعة، والختم قفل غير محكم، فقد يزول

الفرق بينهما هو أنَّ الختم هو المنع من تسرُّب شيءٍ إلى داخلِ شيءٍ آخر؛ لأنَّ الختم في الأصلِ بمعنى التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه، وأمّا الطَّبع؛ فهو أثر يثبت في المطبوع، ويلزمهُ، فهو يُفيد من معنى الثَّبات واللُّزوم ما لا يفيدهُ الخَتم، ولِهَذا قيل: طُبِعَ الدِّرْهَمُ طبعًا، وهوَ الأثر الَّذي يؤثر فيه، ولا يَزول عَنهُ، ومنه سُمّي طبع الإنسان طبعًا؛ لأنَّهُ ثابت غير زائل، ومنه قولهم: طُبِعَ فلانٌ على هَذا الخلق؛ إذا كانَ لا يَزول عَنهُ[1]، وقال ابن عاشور رحمه اللّه: "إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سدِّ المغلوق، بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلّا بعد إزالة ذلك الشَّيء المطبوع به"[2]، فيشترك الختم والطَّبع في كونِهما بمعنى التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه، فلا يدخله

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 17.

شيء، ويفترقان في أنَّ الطَّبع ختم يصير سجيَّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[1]، فالتَّعبير بالختم يفيد أنَّ المنع من الانتفاع ليس محكمًا مثل إحكام الطَّبع، ولهذا جاء - بعد ذكر الختم على السَّمع والقلب - التَّنبيه إلى أنَّ التَّذكُّر سبب للهداية، فقال تعالى في تذييل الآية: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

الغشاء والغطاء:

الغشاءُ هو الَّذي يغطِّي كلَّ الجوانب تمام التَّغطية والغطاء يَقتضي ستر ما تَحته، ويكون كثيفًا

الفرقُ بينهما هو أنَّ الغطاء بمعنى ما يغطّي من فوق الشَّيء، وكُلُّ شيءٍ ارتفع، وطال عَلى شيءٍ؛ فقد غطّى عَليه، وأمّا الغشاء؛ فهو الَّذي يغطّي كلَّ الجوانب تمام التَّغطية، ولهذا يُسمّى ما أُلبِسَ جفنُ السَّيف مِنَ الجُلودِ مِن أسفل شارب السَّيف إلى أن يبلُغَ نَعلَ السَّيف بالغشاء، ومنه تسميةُ القيامة بالغاشية؛ لأنَّها تعمُّ جميع المخلوقات، وتغشاهم من جميع الجهات[2]، كما أنَّ الغشاء قد يكون رقيقًا يبين ما تَحتَهُ، ويتوهَّم الرّائي أنَّه لا شَيء عَليهِ لرقَّته، ومِن ثَمَّ سُمّيت أغشية البدن، وهِي أعصاب رقيقَة قد غشي بها كثير من أعضاء البدن مثل الكبد والطِّحال، فالغطاء يَقتضي ستر ما تَحتهُ، ويكون كثيفًا، والغشاء لا يكون كذلك، وقيل: الغشاء يكون من جنس الشَّيء والغطاء ما يَقتضيه، سواء أكان من جنسه أم من غير جنسه، ولذلك تقول: تغطَّيت بالثّياب، ولا تقول: تغشَّيت بها؛ لأنَّ الثّياب ليست من جنس جسم الإنسان، فإن استُعمل الغشاء مَوضِع الغطاء؛ فعلى التَّوسُّع[3]، وعبَّر في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بالغِشاوة دون الغطاء؛ للإشارة إلى أنَّ الغِشاوة قد عَمَّت أبصارَهم، وإلى أنَّهم غافلون عن الغِشاوة الَّتي على أبصارِهم، فلا يشعرون بها، كما أنَّ الغِشاوة من أسماء الصِّناعات التي تفيد اشتمالها على البصر وتغطيته.

(1) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 115.
(2) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشي، غطو).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 288.

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من لوازم الختم على السَّمع والقلب الضَّلال في الأقوال والاعتقاد

لمّا كان التَّقدير للدَّلالة على الختم على مشاعرهم؛ فقد قالوا مع اعترافهم بتفرُّده تعالى بخلقهم ورزقهم وخلق جميع الموجدات في إنكار الوحدانية: إنَّ له شركاءَ، عطف عليه إنكارَهم البعث، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[1].

وأيضًا لمّا أخبر الله عن ضلالِ الَّذين اتَّخذوا إلههم هواهم، والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل الغشاوة على قلوبهم؛ بيَّن ضلالَهم في قولِهم واعتقادِهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُهْلِكُنَآ﴾: أصلُ (هلك) يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيءُ، هلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا؛ إذا ماتَ، فهو هالِكٌ[3]، والإهلاكُ: إعدامُ ذاتِ الموجود وإماتةُ الحيِّ[4]، والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقبتُه إلى الهلاكِ[5]، والمقصود بالهلاك في الآية: الزَّوالُ والانعدامُ.

2) ﴿ٱلدَّهْرُۚ﴾: أصلُ (دهر) يدلُّ على الغَلَبةِ والقَهْرِ، وسُمِّيَ الدَّهرُ دهرًا؛ لأنَّه يأتي على كلِّ شيءٍ، ويغلِبُه[6]، قيل: الدَّهر هو الزَّمانُ قلَّ أو كَثُر، وقيل: الزَّمانُ الطَّويلُ، وقيلَ: الأبدُ الممدودُ، لا ينقطِعُ[7]، وقيل:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 6/ 1935.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 82.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (هلك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 327.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (دهر).

يَقَعُ عِندَ العَرَبِ عَلى بَعضِ الدَّهرِ الأطولِ، وقيلَ: الدَّهرُ مُدَّةُ بَقاءِ الدُّنيا كُلِّها مِن ابتدائها إلى انقضائها، وقالَ آخرونَ: بل دَهرُ كُلِّ قوم زمانُهم، والدَّهرُ أيضًا: النّازِلَةُ، والهِمَّةُ، والغايةُ، والعادةُ، والغَلَبةُ، وجمعُ الدَّهرِ: أدهُرٌ ودُهورٌ[1]، وأمّا قَوْلُه ﷺ: «لا تسبّوا الدَّهر، فإنَّ اللّه هو الدَّهر»[2]؛ فَمَعناه أنَّ ما أصابَك من الدَّهر، فاللّه فاعله، لَيس الدَّهر، فَإذا شتمت الدَّهر؛ فكأنَّك أَرَدْت بِهِ اللّه[3]، والمراد بالدَّهرِ في الآية: الزَّمانُ المُستمرُّ المُتعاقِبُ ليلُهُ ونهارُه[4].

المَعنى الإجماليُّ:

الـدَّهـرُ ليس عِنـدَه مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فـإنَّـه مُدَبَّرٌ مُصَرَّفٌ من العزيزِ الحَكيمِ

يخبر اللّه ﷻ عن جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ الباطِلةِ، فيقولُ: وقال الكُفّارُ تكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما ثَمَّ حياةٌ غَيرُ حياتِنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ، يموتُ أناسٌ، ويَحيا آخَرونَ فيها، وليس ثَمَّةَ حياةٌ أُخرَى، وما يُفنِينا إلّا الزَّمانُ، فنَبلُغُ فيه بمُرورِ أيّامِه ولياليه سِنَّ الهَرَمِ والشَّيخوخةِ، فنَموتُ، أو تُصيبُنا فيه أسبابٌ تُفضي بنا إلى الهَلاكِ والموتِ، وما للمُشرِكينَ أيُّ قَدْرٍ مِنَ العِلمِ بصِحَّةِ ما يقولونَ مِن إنكارِ البَعثِ، ولا بُرهانَ لديهم يُثبِتُ أنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُهلِكُهم، كما يَزعُمونَ، وما يَقولونَ ذلك إلّا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وليسوا على يَقينٍ مِمّا يَدَّعونَ[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

مـن أشـدِّ أنـواع الـضَّلال اجـتـماع ضلال الـقـول والفعل والاعتقاد

جاءت جملة: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ بطريق الوصل

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دهر).
(2) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وأحمد في المسند 5/ 399، والبخاري، فتح الباري 8/ 574.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية، والزّبيدي، تاج العروس: (دهر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 362.
(5) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 87، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 268، و269، والبقاعي، نظم الدّرر: 18/ 99.

بالواو؛ لتكون معطوفةً على محذوف مقدَّر من قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، أي: فلم يتذكَّروا، وضلَّوا: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، فجاء الوصل بالواو؛ لاشتراك الجملتين في كونِهما خبريَّتين وفي الجهة الجامعة، بمعنى اشتراك الجملتين في الإخبار عن ضلالِهم، فالجملة المعطوف عليها تتضمَّن إخبارًا عن ضلال أفعالِهم، والجملة المعطوفة تتضمَّن إخبارًا عن ضلال أقوالِهم وعقيدتِهم، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على جملةِ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21]، أي: بعد أن جادلوا المسلمين بأنَّه إن كان هناك بعثٌ وحساب، فستكون عُقباهم خيرًا من عقبى المسلمين، وهم إنَّما يقولون ذلك لقصدِ التَّورُّك وإلّا فإنَّهم لا يؤمنون بالبعثِ أصلًا، وإنَّما ضربوه جدلًا، فجاءت جملة: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ معطوفةً؛ لبيان أنَّ قولهم الَّذي يعتقدون فيه هو أن ليس هناك إلّا هذه الحياة الدُّنيا[2].

غرضُ ذكرِ الجملة الخبريَّة:

التَّعجيبُ ممَّن ينكر البعث والحساب يوم القيامة

لمّا كان المراد من قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآيةَ التَّعجيب من فعلِ الكافرين وتوبيخَهم على هذا الاتِّخاذ؛ جاءت الجملة الخبريَّة: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لغرض التَّعجيب من قولِهم وتسجيلِه عليهم، وليس من أجل ذكر مضمون الجملة الخبريَّة إلى مَن هو خالي الذِّهنِ عمّا يُلقى إليه.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَقَالُواْ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ للإخبار عن أنَّ قولَهم هذا قد نشأ من غاية غيِّهم وضلالِهم، وبما ختم على سمعِهم وقلوبِهم، وأنَّ هذا القول ينسب إليهم على جهة وقوعِه منهم.

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 248.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 361.

تعيينُ مرجع الضَّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ باعتبار أنَّ معناه معنى الجمع، ويحتمل أن يعود إلى غير مذكور، ويكون المراد به الكافرين بقرينة السّياق[1].

نكتةُ استعمالِ الضَّمير: ﴿هِيَ﴾:

الـكـافـرون يقصدون إنهاء الـجـدال مع المؤمنين فرارًا من الإيمان

يحتمل أن يكون الضَّمير ﴿هِيَ﴾ بمعنى الحياة، أي: ما الحياة إلّا حَياتُنا الدُّنْيا، ثمَّ وضع ﴿هِيَ﴾ موضع الحياة؛ لأنَّ الخبر يدلُّ عليها، ويبيِّنُها[2]، كما يحتمل أن يكون ﴿هِيَ﴾ ضمير القصَّة والشَّأنِ[3]، أي: قصَّةُ الخوض في البعثِ تنحصر في أنَّه لا حياةَ إلّا حياتنا الدُّنيا، ولا حياةَ بعد الممات، وعبَّر بضمير القصَّة؛ لأنَّهم قصدوا إنهاء الجدال مع المسلمين وتقرير عقيدتِهم، بمعنى: أنَّ هذا الَّذي نعتقده، ولا نؤمن بغيرِه، فلا تطيلوا الجدال معنا في إثبات البعثِ، ولا تذكروا لنا الدَّلائل عليه[4].

نوعُ الاستثناء ودلالته:

أفاد الاستثناءُ المفرَّغ في قولِه: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ الاستثناء من أعمِّ الأحوال والأوقات، بمعنى: ما القصَّة أو ما الحياة في حالٍ من الأحوالِ ولا وقتٍ من الأوقات إلّا حال الحياة الدُّنيا ووقتها.

بلاغةُ أسلوب القصر:

توهُّم الكافرين في أنَّـه لا حياةَ ســوى هــذه الحياة الدُّنيا

عبَّر بأسلوب القصر في بيان قول الكافرين: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لأنَّهم قصدوا حصر جنس الحياة في الحياة الدُّنيا، والمعنى: لا حياةَ إلّا هذه الحياة، فيكون قصرًا إضافيًّا، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة؛ إذ المعنى جنسُ الحياةِ مقصور على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 149.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 149، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 187.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/ 489.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 361.

كونِها في هذه الحياة الدُّنيا، ومرادهم بهذا القصر إنكار البعثِ والمعاد الجسماني، ويتبعه إنكار الجزاء، وأفادَ القصرُ نفيَ جنس الحياة، أي: نفي أيِّ حياة سوى الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ النّافية دخلت على الضَّمير ﴿هِيَ﴾ الَّذي هو في معنى جنس الحياة، فنفتها، فشابهت بذلك عمل (لا) الَّتي نفت ما بعدها نفي الجنس[1].

نكتةُ القصر بأسلوب النَّفي والاستثناء:

في قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ جاء القصرُ بطريق النَّفي والاستثناء دون غيرِه من أساليب القصر؛ لأنَّ الكافرين المنكرين للبعثِ قصدوا أن يقولوا للمؤمنين: إنَّكم مخطِئون في اعتقادكم بوجود البعثِ، وإنَّكم مصرّون على خطئكم بأنَّ هناك حياةً بعد الموت يوم القيامة، فإنَّ موضع القصر بالنَّفي والاستثناء، لا يُستعمل إلّا والمخاطَبُ في اعتقادِ المتكلِّم مرتكبٌ للخطأ مع إصرارٍ منه على خطئِه[2]، ففي العدول إلى هذا الأسلوب محاولة من الكافرين لزعزعة المؤمنين عن اعتقادِهم وإدخال الشَّكِّ إلى قلوبِهم، وبيان أنَّهم موقنون من أنَّه لا حياةَ إلّا الحياة الدُّنيا، بما لامجالَ للشَّكِّ فيه ولا لإقناعِهم بغيرِه.

محـاولـةُ الـكـافـرين لزعزعة المؤمنين عن اعتقادِهم وإدخال الشَّكِّ إلى قلوبِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

أفاد مجيء قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ بصيغة الجملة الاسميَّة أنَّ الكافرين قصدوا تقوية مدلول الخبر وتحقيقِه، بمعنى: أنَّ الأمر ثابت عندهم، فلا تؤثِّر فيهم الآيات ولا الدَّلائل الواضحة.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿حَيَاتُنَا﴾:

لمّا كان مقصد الكافرين نفيَ البعثِ وإنكار الحياة الأخرى يوم القيامة؛ عبَّروا بلفظ الحياة في قولِه: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، بمعنى: أنَّهم

الكافرون فرحون بالحياة الدُّنيا متلذِّذون فيها لاعتقادِهم أن ليس من حياة سواها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 187.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294 - 295.

معتقدون بهذه الحياة، الَّتي يَنمَون فيها، ويحسّون بها، وهم فرحون بهذه الحياة متلذِّذون فيها مسرورون بها.

فائدةُ الإضافة في ﴿حَيَاتُنَا﴾:

مــن شــدَّة تعلُّقهم بالحياة الدُّنيا أضافوها إليهم

أُضيف لفظ الحياة إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿حَيَاتُنَا﴾؛ لتكون الإضافة على معنى الاختصاص؛ للإشعار بأنَّهم لا يعتقدون بوجود حياة سوى هذه الحياة الَّتي يعيشون فيها، ويشاهدونها، ويتقلَّبون فيها؛ إيماءً إلى إنكارِهم ما هو بالغيب، والمعنى: ما هي إلّا الحياة الَّتي نحن فيها، والحياة التي يدَّعيها المؤمنون بعد الموت باطلة.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

(الـ) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ للعهد، بمعنى الدُّنيا المعهودة الَّتي نحن فيها.

دلالةُ الوصف في قولِه: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

الكافرون مطبوعون على الإقرار بما هو مشاهدٌ محسوس عندهم فقط، وينكرون ما يكون في الغيب

الدُّنيا في قوله: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ وصف بمعنى القُربى، والمعنى: الحياة الَّتي نحن فيها، وهي قريبة منّا، أي: الحاليَّة؛ إيذانًا منهم بأنَّهم إنَّما يقرّون بما هو مشاهدٌ عندهم، وأنَّهم منكرون لما يكون في الغيب، كأنَّهم قالوا: ما الحياة إلّا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة الَّتي يَعِدُ بها بعد البعث[1]، ويحتمل أنَّهم ذكروا لفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ على سبيل التَّورُّك تخطئةً للمؤمنين وتهكُّمًا بهم، فيكون ذكر الكافرين للَّفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ ليس بتسليم للحياة الأخرى، وإنَّما هو على زعم المؤمنين أنَّ هذه الحياة هي الحياة الدُّنيا، فيكون مثل ذكر لفظ الرَّسول في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، و(الـ) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ للعهد، بمعنى الدُّنيا المعهودة الَّتي نحن فيها.

نكتةُ انتقاء مفردة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دون الأولى:

عبَّر بلفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ على معنى الحياة الحاضرة القريبة منّا الَّتي

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 583.

الدَّهريّون لا يؤمنون إلّا بالحياة المشاهدة والمحسوسة لديهم

نشاهدها، ونعيش فيها، ويومئ اللَّفظ إلى تلذُّذهم بها وتمسُّكهم بها، وعدلوا عن أن يقولوا: (الحياة الأولى)؛ لأنَّه لو قيل كذلك؛ لأفاد اعترافَهم بالآخرة؛ لأنَّ ذكر الأولى يستلزم أن تكون هناك حياة ثانية.

مناسبةُ الفصل في جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

ذمُّ الكافرين لاعتقادِهم أنَّهم يدورون في مداري الموت والحياة حيث يموت ناس، ويولد آخرون

جاءت جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ بطريق الفصل؛ لأنَّها بيانٌ وتفسير لجملة: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾[1]، والمعنى: نموت ونحيا - أي: نولَدُ - في هذه الدُّنيا، وأفادت جملة التَّفسير والبيان بيان شبهة الكافرين في أمرين: **أحدهما**: تقرير الجملة الأولى، أي: تقرير أن لا حياة سوى الحياة الدُّنيا، فإنَّ الاقتصار على الأمرين - ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ - مفيدٌ أنَّهم قصدوا الانحصار بقرينة أنَّ القولَ في المقام الخطابي مع قرينة أنَّ الجملة مفسِّرة لقولِه: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، **والثاني**: نفي أن تكون هناك حياة أخرى، أي: ليس بعدَ هذا العالمِ عالمٌ آخرُ، فالحياة هي حياة هذا العالم لا غيرَ، فإذا مات من كانَ حيًّا خلفَه من يوجدُ بعده، بمعنى: أنَّهم يدورون في هذين المدارين؛ إذ يموت ناس، ويولد ناس، وهكذا دواليك، ثمَّ إن كانت جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ محكيَّةً بلفظ كلامِهم، فيحتمل أن تكون ممّا جرى مجرى المثل بينهم، وإن كانت حكايةً لمعنى كلامِهم؛ فهي من إيجاز القرآن، وهم إنَّما قالوا: يموت بعضنا، ويحيا بعضنا، ثمَّ يموت، فنقله القرآن موجزًا، فصار كالمثل[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

استدلال الكافرين بالمشاهدة والتَّكرار على انتفاء البعثِ وإنكارِه

أفادَ التَّعبير بصيغة المضارع أنَّ المراد تكرُّر حالة موت بعض النّاس وولادة آخرين، أي: تتجدَّد فينا الحياة والموتُ، كما دلَّ التَّعبير بصيغة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 361.

المضارع تصوير حالة الموت والحياة بصورة الأمر المكرَّر في الحياة الدُّنيا، وقصدهم بهذا هو الاستدلال بالمشاهدة، والتَّكرار على انتفاء البعثِ وإنكارِه، وغفلوا عن الدَّلائل على البعثِ، وعاندوها.

توجيهُ تقديم ﴿نَمُوتُ﴾، وسبب مجيئه على خلاف مقتضى الظّاهر:

المـــوتُ فـنـاء والـحـيـاة بقاء بنظرهم

لمّا كانت جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مفسِّرة لِما قبلها ومبيِّنة لها؛ كان الظّاهر في البيان أن يُبَدَأ بذكر اللَّفظ المبيِّن، فيقال: نحيا، ونموت، فكان تقديم ﴿نَمُوتُ﴾ على (نَحيا) على خلاف مقتضى الظّاهر، والسَّبب هو بيان أنَّ المقصود الحكمُ على النَّوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير، أي: يموت بعضنا، ويحيا بعضٌ إلى أمدٍ معيَّن، ولا حشر أصلًا[1]، أو المعنى نموت نحن، وتحيا أبناؤنا من بعدنا، فليس المقصود الحكم على أنفسِهم بالموت ثمَّ الحياة، أي: إنَّهم قصدوا إرادة أن نحيا بعد أن نموت، فيكون اعترافًا منهم بالبعثِ؛ لأنَّ جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ بيانٌ وتفسير لقوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، والبيان لا يخالف مبيِّنه، بل القصد أنَّ الحياةَ في الدُّنيا ليست سوى أن نموت، ويحيا قوم بعدنا من نَسْلنا، ويموتَ أولئك، ويجيءَ بعدَهُم آخرون، وأنَّ أهلَ الدُّنيا لا يَنْفكّون من موتٍ وحياةٍ، فنحن كذلك أبدًا، ولا حياةَ ولا موتَ في دارِ غيرها[2]، فمعنى تكرار الحالة واستمرارها لا يحصل إلّا بتقديم ﴿نَمُوتُ﴾ على (نَحيا)؛ لأنَّ الموت فناء والحياة بقاء، فتأخير البقاء هو الموجِب للاستمرار، ولو قيل: (نحيا ونموت)؛ لكان الحكم على نفي البعثِ لأنفسِهم فقط، وهو خلاف مرادِهم من نفي البعثِ على جميع الخلق، أي: نفي البعثِ أصلًا.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعانيّ: 13/ 150.

(2) الباقلانيّ، الانتصار لنقل القرآن: 2/ 735، والواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 150.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

شبهةُ الكافرين في إنكار البعثِ هي فيما هو مشاهد لهم ومتحقّق عندهم

إن كان المرادُ من قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، أي: يموت بعضنا، ويحيا بعضنا، فالكلام على المجاز بالإسناد؛ لإسناد ضمير ما للبعضِ، وهو إسناد الفعل إلى ضمير المتكلّمين إلى الكلِّ؛ لأنَّ المقصود موتُ طائفةٍ وحياةُ طائفة أخرى، وإن كان المراد هم يموتون، ويحيا أبناؤهم؛ كان التَّعبير بلفظ ﴿نَمُوتُ﴾ على الحقيقة، وكان المرادُ من (نَحيا) بقاء النَّسل؛ ليكون اللَّفظ على المجاز بعلاقة السَّببيَّة[1]، وعلى الوجهين فنكتة الإسناد إلى ضمير جماعة المتكلِّمين بيان أنَّ ما يعتقدونه مشاهد لهم، وهم متحقِّقون منه، مثل تحقُّق الشَّخص من نسبة الفعل إلى نفسِه.

بديعُ الطِّباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

جاء الطِّباق بين الفعلين ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ بثنائيَّة اللَّفظين على طريق التَّقابل بين الضِّدَّين لبثِّ الكافرين شبهتهم بأنَّه ليس سوى أن نموت، ونحيا في هذه الدُّنيا.

فائدةُ الواو في قوله: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ﴾:

الكافرون ينفون أن يكون الموت مقدّرًا من الله على كلِّ البشريّة

الواو في قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ عاطفة لِما بعدَها على جملة: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لتفيد الواو التَّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، في كونِهما مقولين للكفّار المنكرين للبعثِ، وفي اعتقادِهم بمضمونِ الجملتين، ولمّا كان العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه؛ أفاد أنَّهم في قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ نفوا أيَّ حياة سوى حياتهم الدُّنيا، وفي قوله: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ نفوا أن يهلكهم أيُّ شيء سوى الدَّهر، فأثبتوا حياةً واحدةً في المعطوف عليه، ونفَوا في المعطوف بطريق اللُّزوم أن يكون اللّٰه هو

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 436.

الَّذي يميتهم؛ لأنَّهم إن اعتقدوا أنَّه تعالى هو الَّذي يميتهم؛ اقتضى اعترافَهم بالبعثِ؛ لأنَّ الَّذي يميت هو الَّذي يحيي؛ ليقيم الكافرون بمجموع المقولَين، أي: المعطوف والمعطوف عليه شبهتهم - في ظنِّهم - على نفي البعثِ وإنكار إحياء اللّه تعالى لهم.

دلالةُ قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾:

من يعتقد أنَّ الله هو الَّذي يميته، يلزمه الإقرار بالبعثِ

قد يقال: لِمَ لم يصرِّح الكافرون بنفي أن يكون اللّه تعالى هو الَّذي يميتهم، ونسبوا موتَهم إلى الدَّهر، فقالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ الَّذي يفيد لزومًا نفي أن يكون اللّه تعالى هو الَّذي يميتهم، والجواب هو أنَّهم حين نسبوا إهلاكَهم إلى الدَّهر قصدوا نفي أن يكون اللّه تعالى هو الَّذي يميتهم بطريق الاستدلال بالشّاهد المعاين، وهو مرُّ الزَّمان وتأثير الحوادث، فقصدوا إثبات شبهتهم، ولهذا أعقبه بنفي أيِّ دليل لهم في ادِّعائهم في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾.

بلاغةُ أسلوب القصر في قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾:

دعوةُ الكافرين إلى الإيمان على الدَّوام، وإن جحدوا

القصر في قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ قصر إضافيٌّ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف؛ إذ قصروا إهلاكَهم على الدَّهر.

ونكتة مجيء القصر بأسلوب النَّفي والاستثناء هو أنَّ الكافرين قصدوا أن يقولوا للمؤمنين: إنَّكم مخطِئون في اعتقادكم بأنَّ اللّه تعالى هو الذي يحيي، ويميت، وإنَّكم مصرّون على خطئكم هذا، فإنَّه لا يهلكنا إلّا مضيّ الأيّام، وطول العمر، بمعنى أنَّهم قصدوا إثبات أمر، ونفي آخر، أي: قصدوا أنَّ الَّذي يُفنيهم هو الدَّهر، دون ما يعتقده المؤمنون مِن أنَّ اللّه تعالى هو الذي يُحيي، ويُميت، ففي القصر كنايةٌ عن إنكارِهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم، ويهلكهم، وأومأ التَّعبيرُ بالقصر بأسلوب النَّفي والاستثناء استمرارَ المؤمنين على دعوة الكافرين إلى الإيمان بالبعثِ والنُّشور؛ لأنَّ الكافرين بتعبيرِهم بهذا الأسلوب قصدوا الرَّدَّ على إصرار المؤمنين في اعتقادِهم أنَّ

اللهِ هو الَّذي يحيي الموتى، وما الإصرار إلّا بمعنى تأكيد الدَّعوة إلى الإيمان بالبعثِ يوم القيامة.

نكتةُ العدولِ عن الإماتة إلى الإهلاك مع تقدُّم ذكر الموت:

الكافرون يعتقدون بفنائِهم وانتفاء بقائِهم بعد الموت

لَمّا كان مرادُ الكافرين القطعَ في نفي الإحياء بعد الممات؛ عبَّر بلفظ الإهلاكِ الَّذي هو بمعنى مرِّ اللَّيالي والأيّام، بمعنى أنَّ مرورها هو المؤثِّر في هلاك الأنفس، فعبَّر بالإهلاك دون الموت في قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾؛ للإشعار بأنَّهم يفنون، ولا يبقون، فهُم كحال الأرض الجدبة الَّتي لا شيءَ فيها، بمعنى أنَّهم يُهلكون، كما تهلك الأرضُ الجدبة بمرِّ الأيام والليالي، فيكون الدَّهر هو الَّذي يهلكهم.

علَّةُ إسنادِ فعل الإهلاك إلى الدَّهر مع تقدُّم إسناد فعل الموت إلى النَّفس:

إسنادُ الكافرين الإهلاك إلى الدَّهر إنكارٌ منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله ﷻ

لَمّا كانت جملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مفسِّرة لجملة: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ ناسب ذِكر الموت والحياة فيها دون الإهلاك، وأسندوا الموت والحياة إلى أنفسِهم على طريق المجاز - كما تقدَّم - ولَمّا قصدوا أنَّه لا شيءَ بعدَ هذه الحياةِ إلّا الفناء الَّذي يكون بمرِّ الأيّام والليالي وطول العمر وكرِّ الحوادثِ؛ ناسب إسناد فعل الإهلاك إلى الدَّهر في قولِه: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾، أي: فالدَّهر هو الَّذي يهلكنا، وهو الَّذي يُفْنِينا، دون مَن تَذْكُرونه مِن أنَّ الله هو الَّذي يُحيي، ويُميت، ومن نكت إسناد الإهلاك إلى الدَّهر أنَّه لَمّا كان الهلاك يقال للعذاب والخوف والفقر، وكان من شأنِ العرب أن يذمّوا الدَّهرَ عند المصائب والنَّوائب، ونسبوا الأحداث العظام إليه[1]؛ ناسب إسناد الإهلاكِ إلى الدَّهر، وأومأ الإسناد إلى أنَّ الإفناءَ مذموم عندهم، ولا يتمنَّونه، وأنَّهم يودّون الخلود وعدم الإهلاك، فيلمح في قولِه معنى التَّحسُّر والتَّندُّم، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ إسنادهم الإهلاك إلى الدَّهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 172.

ﷺ، وكانوا يسندون الحوادث مطلقًا إليه؛ لجهلهم أنَّها مقدَّرة من عند الله تعالى، وأشعارُهم لذلك مملوءةٌ من شكوى الدَّهر[1].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ٱلدَّهۡرُۚ﴾:

تكبُّر الكافرين وتفاخرهم بطول مكثِهم في الدُّنيا وتعاقب الزَّمان عليهم

لمّا كان الدَّهر بمعنى الزَّمان المستمرِّ المتعاقبِ ليلُه ونهارُه، وكان في أصل وضعِه بمعنى الغَلَبة من قولِهم: دَهَرَهُ؛ إذا غَلَبَه[2]؛ عبَّر بلفظ الدَّهر؛ للإشعار بأنَّ المراد أنَّنا لا نهلكُ لولا غلبةُ الزَّمان الطَّويل وكرُّهُ علينا، ونزولُه بنا، كما ينزل المكروه بقوم، ففيه إيماءٌ إلى تكبُّرهم وتفاخرِهم، ولمّا كان الدَّهر بمعنى الزَّمان المدود الطَّويل، فهو ظرفٌ لغيرِه؛ أفادَ أنَّهم يهلكون بمروره عليهم، فيبتلعهم، ويغيبون[3].

فائدة (ال) في لفظ ﴿ٱلدَّهۡرُۚ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلدَّهۡرُۚ﴾ للجنس، بمعنى جنس الدَّهر، وهو الأمد المدود، والزَّمان الطَّويل الَّذي يستتبع التَّغيُّر والاختلاف.

نوع الواو في قوله: ﴿وَمَا لَهُم﴾:

شُبَهُ الكافرين في إنكار البعثِ، من خرافاتِ الأوهام، ولا تستند إلى علم

الواو في قولِه: ﴿وَمَا لَهُم﴾ حاليَّة، من الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾، ولمّا كانت الحال على معنى اقترانِها بصاحبِها؛ أفاد أنَّهم قالوا ذلك القول في حال انتفاء علمِهم بذلك القول، فيكون الحال مسوقًا لإبطالِ قولِهم وتفنيدِه بالدَّليل، بمعنى: أنَّ قولَهم من خرافاتِ الأوهام، ولا يستند إلى علم، وكلُّ ذي علمٍ ينكر قولَهم.

نكتةُ النَّفي بالأداة (ما):

أفادت الأداة (ما) نفي الحال والاستقبال، بمعنى نفي أن يكون لهم بذلك من علمٍ في حالِ قولِهم وبعده، فيكون قد نُفي عنهم العلم مطلقًا بما يقولونه.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 151.

(2) الرّاغب، المفردات: (دهر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 108.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دهر).

نكتة تكرار (ما) النافية ثلاث مرات:

لمّا تكرَّرت (ما) في قولِ الكافرين: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، وقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾؛ ردَّ عليهم بالنَّفي بـ(ما) كذلك؛ ليكون الرَّدُّ عليهم أبلغَ وأنجعَ، بمعنى أنَّ نفيَهم باطلٌ وأوهام ونفي اللّه تعالى لأن يكون لهم علم حقٌّ.

نفيُ الكافرين للبعث باطلٌ، ونسبتُهم إلى الكذب حقٌّ

فائدة اللّام في ﴿لَهُم﴾:

حرف الجرِّ اللّام في قوله: ﴿لَهُم﴾ للاختصاص، بمعنى نفي أن يكون لهم علم مختصٌّ بهم بما يقولونه، ويحتمل أن يكون للملابسة بمعنى نفي ملابستِهم للعلم في قولِهم المذكور، فيكون قد نفى عنهم قليل العلم وكثيره بنفي الملابسة.

دلالةُ القصر بتقديم المسند على المسند إليه:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ تقدَّم المسند ﴿لَهُم﴾ على المسند إليه ﴿مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ ليفيد الحصر، بمعنى نفي أن يكون لهم أيُّ علمٍ بقولِهم الَّذي قالوه.

فائدة الباء في قوله: ﴿بِذَٰلِكَ﴾:

حرفُ الجرِّ الباء في قولِه: ﴿بِذَٰلِكَ﴾ للملابسة، بمعنى نفي ملابسة أيِّ علم لهم بذلك القول، فنفى عنهم العلم بنفي ملابسة أيِّ علمٍ لهم بما قالوه، وهذا أبلغ في نفي العلم عنهم من أن يقال: ما لهم في قولِهم من علمٍ.

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد:

لمّا كان اسم الإشارة ﴿بِذَٰلِكَ﴾ يقصد به الإشارة إلى مقول الكافرين؛ أفاد عود اسم الإشارة إلى الحاصل من المصدر المفهوم من ﴿وَقَالُواْ﴾، أي: ما لهم بقولِهم من علمٍ؛ ليكون النَّفي مسلَّطًا على مقول القول، أي: المعطوف والمعطوف عليه: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾، والمعنى: ما لهم بما ذكر من

تهافتُ حججِ الكافرين في إنكارهم البعث

قصر الحياة على ما في الدُّنيا، ونسبة الإهلاك إلى الدَّهر من علم، وعبَّر باسم الإشارة دون أن يقول: ما لهم بقولِهم من علم؛ لتمييز المشار إليه - وهو مقول القول - أكمل تمييز؛ لأنَّ الكلام في سياق إبطالِ قولِهم، وعبَّر باسم الإشارة للبعيد ﴿بِذَٰلِكَ﴾؛ للتَّنبيه إلى أنَّ قولَهم هذا بعيد عن العلم، ولا ينتسب له، فليس لهم حجَّة في قولِهم.

نوع ﴿مِنْ﴾ ونكتة تنكير ﴿عِلْمٍ﴾ ودلالتها:

﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ حرف جرٍّ زائد لتأكيد نفي أيِّ علم لهم وتقريره، ولمّا جاء المسند إليه ﴿عِلْمٍ﴾ نكرةً في سياق النَّفي بـ(ما)؛ أفاد الكلامُ نفيَ العلم عنهم على سبيل الاستغراق، أي: نفي قليل العلم وكثيرِه عنهم بذلك القول، فلا علمَ لهم مستندًا إلى عقلٍ أو نقلٍ، فيكون قولهم عن جهلٍ، ويدخل في الاستغراق نفي علمِهم بقدرة اللّه على الإحياء بعد الإماتة دخولًا أوَّليًّا.

مناسبةُ الفصل لجملة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

العلمُ لا يستند إلى الظَّنِّ والأوهام

جاءت جملة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ على طريق الاستئناف البيانيِّ، وبيانُه أنَّه لمّا نفى اللّه تعالى العلم عنهم؛ كان كأنَّ سائلًا سأل عن مستندِهم في قولِهم ذلك، فأجيب بأنَّه الظَّنُّ المبني على التَّخيُّل، ويحتمل أن تكون الجملة بيانًا وتفسيرًا لجملة: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾(1)؛ ليكون المرادُ أنَّ نفي العلم عنهم إنَّما هو لأنَّهم لا يأتي منهم إلّا الظَّنُّ، ومن لا يأتي منه إلّا الظَّنُّ كيف يستند إلى العلم في قولِه؟

دلالةُ ﴿إِنْ﴾ ونكتة استعمالها دون (ما):

تصوُّرات الكافرين عن الحياة والموت هي ظنٌّ محض

﴿إِنْ﴾ في قولِه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ نافية بمعنى (ما)، وسبب العدول إلى استعمال ﴿إِنْ﴾ دون (ما) هو أنَّ الجملة جاءت تذييلًا وحكمًا ثابتًا على الكافرين، فاقتضى الكلام مزيد تأكيد، فناسب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 363.

التَّعبير بـ﴿إِنْ﴾، الَّتي هي آكدُ في النَّفي من (ما)، ويدلُّ على أنَّها آكد في النَّفي كثرة اقترانِها بـ(إلّا)(1)، كما أنَّ في العدول عن (ما) خفَّةً في اللَّفظ المناسبِ لجمال النَّظم وسلاستِه، فلو عبَّر بـ(ما) النّافية؛ لتكرَّرت، وثقل اللَّفظُ.

بلاغةُ أسلوب القصر في جملة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

متابعةُ الظَّنِّ والحِسبان في أمور الإيمان مُنكَرٌ عندَ اللهِ تعالى

جاءت جملة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ على طريق القصر الإضافي، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة، أي: قَصَرَهم على الظَّنِّ، بمعنى: ليس لهم وصفٌ سوى الظَّنِّ، فالوصفُ على سبيل المبالغة في ذمِّهم، ويلزم منه أن يكون كلُّ قولٍ يقولونه داخلًا في هذا الوصف، أي: كلُّ قولٍ إنَّما هو على ظنٍّ منهم، فليس لقولِهم سبيل إلى الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النّجم: 28].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَظُنُّونَ﴾:

عبَّر بصيغة الفعل المضارع في قولِه: ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم يجدِّدون هذا الظَّنَّ وقتًا فوقتًا، وأنَّ صغيرَهم يتلقّاه عن كبيرِهم في أجيالِهم، وما هم بمقلعين عنه(2).

مناسبةُ مجيء المسند جملة فعليَّة:

ظنُّ الكافرين مستند إلى التَّقليد

جاء المسند ﴿يَظُنُّونَ﴾ جملة فعليَّة في قولِه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ لإفادة تقوّي الحكم وتحقيقه، بمعنى تقوية قصرهم على الظَّنِّ وتأكيدِه، وأنَّهم لا يأتي منهم إلّا الظَّنُّ، ففيه ذمٌّ لهم وإيذانٌ بألّا يُؤخذَ من قولِهم شيءٌ؛ لاستنادِه إلى الظَّنِّ الَّذي لا يغني من الحقِّ شيئًا، والمعنى: إنَّما قالوا ذلك القول بناءً على الظَّنِّ المستند إلى التَّقليدِ والإنكارِ؛ لما لم يحسّوا به، وكلا الأمرين باطلٌ؛ لأنَّهما لا يفيدان العلم واليقين.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، تح: مازن المبارك، ص: 34، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 363.

حـذْفُ المفعولِ قـد يـفـيـد الـتَّـعـمـيـم؛ لـيـشـمـلَ كـلَّ الظُّنون الفاسدة

غرضُ حذفِ متعلّق فعل ﴿يَظُنُّونَ﴾:

لمّا جاء المسند جملة فعليَّة، وأفاد تقوية الحكم وتحقيقَه، بمعنى: أنَّهم لا يأتي منهم إلّا الظَّنُّ؛ ناسب حذف مفعولي الفعل ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لتنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللّازم؛ إشعارًا بأنَّ الظَّنَّ المذمومَ صار وصفًا لازمًا لهم لا ينفكُّ عنهم.

التَّكذيبُ بالبعثِ ديدن الكافرين

بلاغةُ ازدحام أسلوب القصر في الآية:

جاءت الآية مضمَّنة أربعة أساليب في القصر، فأخبر تعالى عن قول الكافرين بقصرين، وردَّ عليهم بقصرين إيذانًا بعظمة هذا الخبر، وأهمّيَّة الاعتقاد بالبعثِ والنُّشور، وإشعارًا بأنَّ التَّكذيب بالبعثِ ديدن الكافرين.

الزَّمن أعـمُّ من الـدَّهـر؛ لأنَّـه يـطـلـق عـلى المـدَّة القليلة والـكـثـيرة، ويُستعمل في الخير والشَّرِّ

الدَّهر والزَّمن:

الفرق بينهما هو أنَّ الدَّهر في الأصل: اسم لمدَّة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يُعبَّر به عن كلِّ مدَّة طويلة تكون فيها غلبةٌ ومعاناة، ومنه قولهم: دهره الأمر، أي: غلبَه، ودهر بهم أمرٌ، أي: نزلَ بهم ما يؤذي[1]، والدَّهر خلاف الزَّمان، فإنَّ الزَّمان يقع على المدَّة القليلة والكثيرة، فالزَّمن أعمُّ من الدَّهر، كما أنَّ الدَّهر يُستعمل غالبًا في الوقت الطَّويل الَّذي ينطوي على مكروه أو فيه فسادٌ وأذًى، وأمّا الزَّمن؛ فيُستعمل في الخير والشَّرِّ[2]، وقد مرَّ في التَّفسير سبب إيثار التَّعبير بالدَّهر دون غيرِه من الألفاظ المتواردة على معنى الزَّمن أو الوقت.

(1) الرّاغب، المفردات: (دهر).

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دهر).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا كان قولُهم - بأنَّه ليس من حياة إلّا هذه الحياة الدُّنيا، وأنَّه لا يهلكهم إلّا الدَّهرُ - عجبًا، زادَه عجبًا بذكر حالِهم عند سماعِهم آيات القرآن الدّالَّة على البعثِ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، ففي السّياق انتقال من تعجيب لقول الكافرين إلى تعجيب آخر أشدَّ منه.

من أساليب القرآن الانتقال من تعجيب لقول الكافرين إلى تعجيب آخر لإبطال قولِهم ونقض شبهاتِهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّتَهُمْ﴾: أصلُ (حج) أصولٌ أربعةٌ، منها ما يدلُّ على القَصْدِ، وكلُّ قصدٍ حجٌّ، ومُمكنٌ أن تكون الحُجَّةُ مُشتقَّةً من هذا؛ لأنَّها تُقصَدُ، أو بها يُقصَدُ الحقُّ المطلوبُ، يُقالُ: حاججتُ فلانًا فحججتُه، أي: غلبتُه بالحُجَّة، وذلك الظَّفَرُ يكونُ عند الخُصومة[2]، وفي الحَديث: «فَحَجَّ آدَمُ موسَى»[3]، وتنقسم إلى حُجَّة دامغة يثبت بها الحقُّ، وإلى حُجَّة داحضة يموِّه بها الباطل[4]، والحُجَّة: البُرْهان، وقيلَ: الحُجَّة ما دوفِعَ به الخَصْمُ، وقالَ الأزهريُّ: الحُجَّة الوجهُ الَّذي يكونُ به الظَّفَرُ عند الخُصومةِ، وهو رَجُلٌ مِحْجاجٌ، أي: جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التَّخاصُم[5]، واحتَجَّ بالشَّيء: اتَّخذهُ حُجَّةً[6]، والمراد بالحُجَّة في الآية: ما يُقصَدُ به إثباتُ المُخالِف[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 100.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(3) جزء من حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه، موطأ مالك، باب النهي عن القول بالقدر، رقم الحديث: (1872).
(4) المراغي، تفسير القرآن: 7/ 175.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حج - حجج).
(6) ابن سيده، المحكم: (حج).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 46.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

مَن كان قادِرًا على الإحياء والإماتة؛ كان قادِرًا على البعثِ بعد الموت

يذكر اللّه تعالى شبهة المشركين على إنكار البعث، فيقول: وإذا تليَت على هؤلاء المشركين - الَّذين سبق القول في جرائمهم - آيات الكتاب الدّالَّة على أنَّ البعث حقٌّ، وأنَّ اللّه سيعيد الخلق يوم القيامة، وينشئه نشأة أخرى؛ لم يكن لهم من حجَّة في دحض هذا إلّا أن قالوا: إن كان ما تقولونه حقًّا؛ فأحيوا آباءَنا؛ إن كُنتُم صادِقينَ في أنَّ بَعثًا كائن بعدَ الموتِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو:

التَّرقّي في الدَّليل لإبطال شبهات الكافرين وظنونهم

جاء قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ عطفًا بالواو على جملة: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ لاشتراكهما في كونهما جملتين خبريَّتين وفي الجهة الجامعة، وبيانها أنَّه لمّا نفى شبهتَهم على معتقدِهم أنَّه لا حياةَ سوى هذه الحياة، وأنَّه ما يهلكهم إلّا الدَّهر، فلمّا نفى شبهتهم، بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ ترقّى في الإتيان بالدَّليل لدحض شبهتِهم ببيان الدَّليل على خلافِ معتقدِهم[1]، فعطَفَ الجملة على معنى التَّرقّي في الدَّليل؛ لاشتراك الجملتين في كونِهما ردًّا على قول الكافرين.

سببُ إيثار التَّعبير بـ(إذا):

رغم أنَّ آيات اللّه تُتلى عليهم دائمًا إلّا أنَّهم يُكابرون

عبَّر بأداة الشَّرط (إذا)؛ للإشعار بالقطع في أنَّ الآيات تُتلى عليهم وبكثرة تلاوة هذه الآيات؛ لأنَّ (إذا) يُؤتى بها مع الأمر المقطوع بوقوعه، أو ما له حكم هذه المنزلة، وفيه ترغيب لتلاوة آيات القرآن على الكافرين والمنكرين للبعث.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ التِّلاوة دون القراءة:

عبَّر بلفظ التِّلاوة دون القراءة في قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 437.

بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّ لفظ التِّلاوة إذا جاء في سياق آيات القرآن؛ فيقصد به القراءة المتلوَّة بالاتِّباع والعمل، والمعنى: إذا تليت عليهم آياتنا تلاوة داعية إلى اتِّباعِها والعمل بما فيها من الأوامر والنَّواهي، وفيه حثٌّ على أن تكون قراءة القرآن قراءة تدبُّر، يتبعها العمل والتَّنفيذ.

الحثُّ على قراءة القرآن قراءة تدبُّر يتبعها العمل والتَّنفيذ

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

أشعر الفعل المضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بتجدُّد تلاوة آيات القرآن على الكافرين، بمعنى: أنَّ آيات القرآن لم تتلَ عليهم مرَّة واحدة، فالتِّلاوة متجدِّدة، فيكون إنكارُهم لمضمون آيات اللّه تعالى الدّاعية إلى الإيمان بالبعثِ على سبيل العناد والتَّكبُّر، وفيه تسجيل عليهم بإقامة الحجَّة وبيانها.

مع تجدُّدِ تلاوة آيات الله عليهم يتجدَّد كفرهم

نكتةُ بناء فعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمفعول:

عبَّر بصيغة المبني للمفعول في الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ للإشعار بأنَّ إنكارَهم ليس متعلِّقًا بتلاوة من معيَّن أو بتلاوة تالٍ مخصوص، بل لأجل أنَّها آيات اللّه تعالى، بمعنى: أنَّ أيَّ تالٍ يتلو عليهم آيات اللّه الَّتي تدعو إلى الإيمان بالبعثِ يقولون القول المذكور، فبناء الفعل للمفعول إنَّما يكون للعلم بالفاعل من جهة، ولدعوة المخاطَبين للانشغال بحقيقة الفعل بغضِّ النَّظر عن فاعله.

إنكارُ الكافرين ليس متعلِّقًا بنوع الَّذي يتلو الآيات بل لأجل أنَّها آيات الله تعالى

نكتةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

عبَّر بحرف الاستعلاء (عَلَى) في قوله: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للإيماء إلى أنَّ تلاوة آيات اللّه قد جاءتهم من كلِّ جانب، وأنَّها قد أحاطت بهم، وأنَّهم قد فهموا معانيها على سبيل التَّمكُّن منها، فيكون إنكارهم لها إنكار عالمٍ بمعانيها، وليس إنكار جاهل بمضمونِها.

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء يدلُّ أحيانًا على التَّسلُّط وشدَّة التَّمكُّن من الفعل

غرضُ تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على النّائب عن الفاعل ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛

إقامةُ الحجَّة على الكافرين بتلاوة آيات الله عليهم

لأنَّ موضع الاهتمام هو بيان أنَّ تلاوة الآيات كانت عليهم، وأنَّهم كانوا هم المقصودين في أن تكون الآيات تُتلى عليهم، فلم تكن الآيات تُتلى، وهم يسمعونها سماع المستطرق، ففي التَّقديم إثبات للحجَّة عليهم في أنَّ آيات الله تُتلى عليهم.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ وجمعها:

الحثُّ على إيثار تلاوة مجموعة من الآيات على المنكرين وعدم الاكتفاء بآية واحدة

عبَّر بلفظ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، والمقصود بها آيات القرآن؛ لأنَّها علامات عظيمة دالَّة واضحة، وعبَّر بصيغة الجمع؛ للإشارة إلى أنَّ ما يُتلى عليهم جمع من الآيات، وليس آية واحدة، ففيه تعجيب من إنكارِهم وعنادِهم مع ظهور عظمة هذه الآيات وكثرتِها ووضوحِها بحيث لا يمكن إنكارها.

غرضُ إضافةِ آيات إلى ضمير العظمة:

الإضافةُ قد تأتي للتَّشريف

أُضيف لفظ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ إلى ضمير العظمة دون أن يقال: آيات الله؛ للإشارة إلى عظمة هذه الآيات، فيقتضي أن يؤمنوا بها، ويمتثلوا لأوامرِها ونواهيها، لا أن يجادلوا فيها، ويدفعوها بالحجج الواهية الباطلة، كما أنَّ في الإضافة إلى ضمير العظمة إيماءً إلى الوعيد بمن يكذِّب بها؛ لِما تشعر به الإضافة من أنَّها مختصَّة بالله تعالى العظيم الجليل.

نكتةُ التَّقييد بالحال ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾:

آيات الله لا تنفكُّ عن وصف الوضوح والبيان

لمّا كان الحال على معنى اقترانِه بصاحبه، وكانت هذه الحال لازمةً للآيات؛ لأنَّ الآية هي العلامة العظيمة الواضحة - فكون الآيات بيِّنات ملازم لها - فلمّا كان الأمر كذلك؛ أفاد اقتران تلاوة الآيات بالحال ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ أنَّها آياتٌ واضحةُ الدَّلالة على ما نطقت به؛ ليفيد الحال التَّعجيب من قولِهم وعنادِهم، فيكون لفظ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ مأخوذًا من الفعل اللّازم (بانَ)، ويكون بمعنى الصِّفة المشبَّهة، ويحتمل أن يكون المعنى مبيِّناتٍ؛ لِما نطقت به.

فيكون اللَّفظ مأخوذًا من الفعل المتعدّي (أبانَ)، فيكون بمعنى اسم الفاعل[1].

نكتةُ النَّفي بالأداة ﴿مَّا﴾:

من براعة بلاغة القرآن أن يقول (ما كانَ) دون أن يقال (لم يكن)

عبَّر بأداة النَّفي ﴿مَّا﴾ دون أن يقال: لم تكن حجَّتهم؛ لأنَّ (ما) في العربيَّة أوكد في النَّفي من (لم)؛ لأنَّ (ما) تأتي نفيًا لقولِهم: (قد فعل)، و(لم) تنفي (فعل) من غير تأكيد، فكما أنَّ (قد) فيها معنى التَّأكيد، فكذلك ما جعل جوابًا لها[2]، وكأنَّ التَّقدير: واللّه ما كان حجَّتهم إلّا أن قالوا، كما أنَّ النَّفي في قولِه: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ يفيد قرب العهدِ بهذا القول؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ تفيد نفي الزَّمن الماضي القريب من الحال، بمعنى: أنَّهم متمسِّكون به، ولم يتركوه، وأيضًا النَّفي بـ﴿مَّا﴾ يأتي في مقام الرَّدِّ على قولٍ، فكأنَّه قيل لهم: هذه آياتنا بيّناتٌ، فآمنوا بها، وبما نطقت به من وقوع البعثِ يوم القيامة، فقيل في الجواب: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فكان الأقضى لحقِّ البلاغة أن يقال: ﴿مَّا كَانَ﴾، لا أن يقال: لم تكن.

دلالةُ ذكرِ فعل الكون الماضي ﴿كَانَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة الماضي في الفعل ﴿كَانَ﴾ عراقتَهم في هذا القول وتمسُّكهم به من الزَّمن الماضي.

غرضُ تقديم ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ على اسم كان:

تقديمُ ما حقُّه التَّأخير قد يفيد القصر الحقيقيَّ أو الإضافيَّ

أفاد تقديم خبر كان على اسمِها في قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ القصرَ في الكلام، وهو من باب قصر الموصوف على الصِّفة للمبالغة، بمعنى: أنَّه ليس لهم حجَّة سوى هذا القول، فإذا بطلت هذه الحجَّة؛ فما عليهم إلّا الإذعان للحقِّ والإيمان بالبعثِ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 20، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 437.

(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسّيوطي، الإتقان: 2/ 918.

سرُّ تسميةِ قول المشركين (حجَّة):

ما يحتجّ به منكرو البعث مصادرةٌ عن المطلوب ودعوى متهافتةٌ

قد يقال: إنَّ الحجَّة ما يكون بها الاحتجاج، وينقطع بها العذر، وما نطق به المشركون في الإخبار عنهم بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، هو قول مجرَّد من الاحتجاج، فما سرُّ تسمية ما نطقوا به حجَّة؟

والجواب: أنَّ ذلك لوجوه: فإمّا أن يكون تسميته حجَّة بحسب اعتقادِهم وحسبانِهم، أي: أتوا بما توهَّموه حجَّة، فيكون الإطلاق استعارة تصوُّريَّة، والمراد نفي أن تكون لهم حجَّة ألبتَّةَ، فيكون في تسمية قولِهم (حجَّة) إبطالٌ لأن يكون حجَّة، وبيانه أنَّه لو كانت لهم حجَّة في إنكار البعثِ؛ كانت مقولتهم المذكورة في الآية ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، وهذه ليست بحجَّة، بل هي استبعاد وعناد؛ لكي لا يؤمنوا بالبعثِ، فإذًا ليست لهم حجَّة ألبتَّةَ في إنكار البعثِ، فكأنَّه قيل: (ما كان حجَّتهم إلّا ما ليس بحجَّة)، بمعنى هذا أقصى ما يستطيعونه من التَّشبُّث بما يعارضون به، وهو ليس بحجَّة.

التهكّم بمَن قوله واهٍ ورأيُه واهنٌ

وإمّا أن يكون ذلك محمولًا على التَّهكُّم بهم؛ لأنَّهم أدْلَوْا به، كما يُدْلي المحتجُّ بحجَّته، وساقوه مساقها، فسُمِّيت حجَّة بزعمِهم، وإن كانت في نفس الأمر ليست بحجَّة، فيكون إطلاق الحجَّة على قولِهم على سبيل التَّهكُّم بهم وبقولِهم.

وإمّا أن يكون على أسلوب الاستعارةِ التهكُّميَّة بتنزيل التَّضادِّ منزلة التَّناسب والتَّجانس بين الضِّدَّين بواسطة التَّهكُّم، فإنَّ التَّحيَّةَ لا تكون بالضَّرب المؤلم، كما يقال للجبان: أسدٌ، وللغبي: عبقريٌّ[1]، والفرق بين الوجهين في التَّهكُّم هو أنَّه في الأوَّل لوحظ حسبانُ المنكرين ومساقُهم قولَهم مساقَ الحجَّة بزعمِهم، وفي الوجه الثّاني لم يلاحظ ذلك، والمآل

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291 - 292، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 173، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 108، والطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 256.

واحد، وهو التَّهكُّم بهم وبقولِهم؛ ليفيد أنَّ قولَهم أوهى من أن يقال عنه حجَّة، أي: لا حجَّة لهم البتَّةَ؛ لأنَّ البعثَ الموعودَ به لا يحصلُ في الحياة الدُّنيا، وهذا من تورُّكِهم واستهزائِهم.

بلاغةُ الإطنابِ بذكر الاستثناء بدل الاكتفاء بالخبر:

العدولُ عن الإيجاز إلى الإطناب؛ لقصد حصر حجَّة المنكرين، فيسهل إبطالُها

جاء قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ على أسلوب الاستثناء، فعدل إلى الإطناب بدلًا من الإيجاز بأن يقال: (وإذا تُتْلَى عَلَيهِم آياتُنا بَيِّناتٍ؛ قالوا: ائتوا بآبائِنا؛ إن كنتم صادقين)، والمعنى متقارب، ونكتة العدول إلى الإطناب هي أنَّ الآية أرادت أن تبيِّن إفلاس المشركين من الحجج، وأنَّهم ليس لهم حجَّة - إن كان قولهم يسمَّى حجَّة - إلّا ما قالوه، أي: ما كانَ حجَّتُهم شيئًا من الأشياءِ إلّا هَذا القولَ الباطلَ[1]، ففي العدول إلى الإطناب بأسلوب الاستثناء حصرٌ لحجَّتِهم، فيسهل إبطالُها، وإن لم يأتِ بأسلوب الحصر؛ لقيل: لعلَّ لهم حُججًا أخرى، فلمّا حصرَ حجَّتهم، وأبطلَها؛ كان كأنَّهم أُسقطوا في أيديهم؛ إذ لم يكن لهم حجَّة غيرها، كما أنَّ في الإطنابِ بيانًا لعنادِهم وجهلِهم حتَّى صاروا أضحوكةً للعقلاء.

غرضُ الأمر ﴿ٱئۡتُواْ﴾:

من جهلِ المنكرين أنَّهم طلبوا من المؤمنين الإتيان بآبائِهم، لا من الله القادر

لمّا كان السّياق في بيان إنكار الكافرين للبعثِ يوم القيامة؛ أفاد أنَّ الكافرين قصدوا من قولِهم: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تعجيز المخاطَبين؛ للاستدلال على إنكارِهم البعثِ، وليس الطَّلب الَّذي هو الأمر المعهود الَّذي يقصدُ به تحصيل المطلوب، ومن جهلِهم أنَّهم طلبوا من المؤمنين الإتيان بآبائِهم، والخطاب في بيان أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي يحييهم بعد الموت.

نكتةُ إيثار فعل ﴿ٱئۡتُواْ﴾:

لمّا كان الكافرون منكرين للبعثِ، وكان الظّاهر أن يطلبوا إحياء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74.

إنكارُ الكافرين البعثَ بعد الموت ما هو إلّا إيغال في العناد

الموتى بأن يقولوا: أحيوا آباءَنا؛ إن كنتم صادقين، فلمّا كان الأمر كذلك؛ كان العدول إلى الفعل ﴿ٱئۡتُواْ﴾ يُقصَد به أنَّهم طلبوا ما هو أكثر من الإحياء، وهو أن يُحضروا آباءَهم، ويكونوا معهم، فكأنَّهم طلبوا إحضارَهم؛ ليشهدوا بصحَّة البعثِ، وبصدق ما يُتلى عليهم من آيات اللّه تعالى، ففي التَّعبير بلفظ ﴿ٱئۡتُواْ﴾ إيغال ومبالغة في إنكارِ الكافرين للبعثِ، بمعنى أنَّهم لم يطلبوا إحياءَ آبائِهم فقط، بل طلبوا إحياءَهم وإحضارَهم، ويشهدوا أمامَهم على صحَّة البعثِ وصِدق الآيات.

دلالةُ الخطاب بصيغة الجمع في ﴿ٱئۡتُواْ﴾ و﴿كُنتُمۡ﴾ دون أن يكون بصيغة المفرد:

الدَّعوة إلى الإيمان بالبعثِ هي صلب دعوة الأنبياء والمرسلين

عبَّر بصيغة الجمع في قوله: ﴿ٱئۡتُواْ﴾ و﴿كُنتُمۡ﴾ دون أن يكون الخطاب بصيغة المفرد بأن يقال: ائتِ بآبائِنا؛ إن كنت من الصّادقين، والسَّبب هو أنَّهم قصدوا خطابَ الَّذين يعدّونهم بالنُّشور، فالمراد من الخطاب هو الرَّسول ﷺ والمؤمنون؛ إذ هم قائلون بمقالتِه[1]، وفيه إشعارٌ بأنَّ الكافرين كانوا يقصدون نفي الصِّدق عن جميع المؤمنين، وليس عن الرَّسول ﷺ وحدَه؛ مبالغةً في الإنكار، وسعيًا لنقضِ الرِّسالة، كما أفاد أنَّ الدَّعوة إلى الإيمان بالبعثِ لم تكن مقتصرةً على رسول اللّه ﷺ، بل كان معه المؤمنون في ذلك؛ لأنَّ الكافرين خاطبوا الرَّسول ﷺ المؤمنين جميعًا.

فائدةُ الباءِ في قوله: ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ للإلصاق، بمعنى: أن يكون الإتيان ملاصقًا للآباء على معنى طلب حضورِهم عندهم؛ وذلك لإمعانِهم في العناد والكفرِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 424، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 364.

دلالةُ إضافة الآباء للضَّمير:

الإضافةُ في قولِه الآباء: ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ للاختصاص؛ اهتمامًا بآبائِهم وافتخارًا بهم، ولأنَّهم أعلم بهم من غيرِهم.

توجيهُ استعمال ﴿إِن﴾:

الـشَّـرطُ على معنى استبعاد الكافرين لصدق المؤمنين

عبَّر بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ للإيذان بأنَّهم يشكّون في صِدقِ المؤمنين حين يتلون آيات اللّه عليهم؛ ليفيد أنَّهم إنَّما قالوا هذا القول على سبيل التَّشكيك في صِدق المؤمنين، وليس من أجلِ الإيمان بالبعثِ، فإنَّ الأصلَ في (إنْ) أنَّها تُستعمل في المشكوك فيه والموهوم، كما أنَّ أسلوب مجيء الأمر متبوعًا بالشَّرط - أي: بصيغة افعل كذا؛ إن كنت كذا - يُؤتى به لقصدِ تعجيز المخاطَب، ونفي القدرة على تحصيل الشَّرط، فيُلمح من جملة الشَّرط فيه استبعاد الوقوع، وليس الشَّك في وقوعِها، ولهذا لم يرد في مثل هذا الأسلوب ذكرٌ لجواب الشَّرط، وغاية الأمر تقديره من جملة الأمر التي تقدَّمت الشَّرط، فلمّا كان هذا الأسلوب على معنى الاستبعاد؛ لم يرد في القرآن وفي الكلام البليغ اقتران الشَّرط فيه بأداة الشَّرط (إذا).

نكتةُ التَّعبير بفعل الكون بصيغة الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾:

الـقـولُ بإحياء الموتى يـوم الـقـيـامـة أمـرٌ عـظـيـم، فلا يصدر إلّا بالحقّ

عبَّر بقولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بفعل الكون بصيغة الماضي مع أداة الشَّرط في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ لتحقيق شكِّهم، دون أن يقولوا: إن صدقتم؛ إشعارًا بأنَّهم قصدوا إن كنتم عريقين في الوصف بالصِّدق؛ إيماءً بأنَّ من يقول بإحياء الموتى يوم القيامة لا يكون إلّا ممَّن يكون الصِّدق وصفًا لازمًا له، لا ينفكُّ عنه.

سببُ إيثار لفظ الصِّدق:

الـكـافـرون يـكـذِّبـون آيـات الله، ومن يتلو هذه الآيات

عبَّر بلفظ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لردِّ الكافرين على ما يُتلى عليهم من آيات اللّه، فقصدوا أنَّ القول الَّذي يُتلى علينا ليس بصدقٍ؛ لأنَّ الصِّدق إخبارٌ عن المخبَر به على ما هو به، وهو وصف للقول أوَّلًا،

وبالذّات، ثم يأتي وصفًا للفعلِ بعد ذلك، والمراد إن كنتم صادقين في إخبارِكم وقولِكم؛ ففيه إشارة إلى أنَّهم يكذِّبون آيات الله، ويكذِّبون الرَّسول ﷺ والمؤمنين الَّذين يتلون عليهم هذه الآيات.

نكتةُ حذفِ متعلِّق اسم الفاعل ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

حَـذْفُ المتعلِّقِ ليشمل كـلَّ ما يمكن تصديقه

حذْفُ متعلِّق اسم الفاعل ﴿صَٰدِقِينَ﴾ للتَّعميم؛ لإفادة شكِّهم في وصف الصِّدق للمؤمنين، بمعنى أنَّ الكافرين قصدوا أنَّ المؤمنين ليسوا موصوفين بالصِّدق، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا شكُّهم في أن يكونوا صادقين في أنَّهم يبعثون بعدَ الموتِ، والمعنى: ائتوا بآبائنا؛ إن كنتم صادقينَ أصلًا، وإن كنتم صادقين في أنّا نبعثُ بعدَ الموتِ.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحجّة والبرهان:

الـغـايـة من البرهان توثيقُ صحَّة الأمر، والحجَّةُ لإفحام الخصم

الحجَّة هي الدَّلالة المبيِّنة للمحجَّة، وتقتضي طرفين بحيث يقضي أحدهما على الآخر بحجَّتِه، فالغاية من الحجَّة هي الإقناع مع إذعان الخصم، وقد يسمَّى ما يُحتجُّ به حجَّة، وإن لم يكن حجَّة في نفسِه، وأمّا البرهان؛ فهو بيان الحجَّة، فيقصد به إثبات المسألة بالدَّليل الصَّحيح القاطع الَّذي يوقع اليقين، فهو يقتضي الصِّدق أبدًا - لا محالة - فالغاية من البرهان هي أن يُؤتى به لإثبات صحَّة أمرٍ، والغاية من الحجَّة إقناع الخصم وإذعانه[1].

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بره، حجج).

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [الجاثية: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا أخبر اللّه عن الكافرين قولهم: ما يُهلِكُهم إلّا الدَّهرُ، وأنَّهُمُ استَدَلّوا عَلى إنكارِ البَعثِ بِما لا دَليلَ لَهُم فيهِ مِن سُؤالِ إحياءِ آبائِهِم؛ رَدَّ اللّه تعالى عَلَيهِم بِأنَّه تَعالى هوَ المُحيي، وهو المُميتُ لا الدَّهرُ، وهو الَّذي يجمعهم إلى يوم القيامة، ومَنْ قَدَرَ عَلى هَذا؛ قَدَرَ عَلى الإتيانِ بِآبائِهِم[1].

من يعتقد بوجود الله تعالى يؤمن بأنَّه يحيي، ويميت، وأنَّه يجمع الخلق يوم القيامة

وأيضًا لَمّا كان ﷻ، إنَّما يقبل الإيمانَ عند إمكانِ تصوُّره - وذلك إذا كان بالغيب - لم يجِبْهم إلى إحياء آبائهم إكرامًا لهذه الأمَّة لشرف نبيِّها عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ سنَّته الإلهيَّة جرت بأنَّ من لم يؤمن بعد كشف الأمر بإيجاد الآيات المقترحات أهلكه، كما فعل بالأمم الماضية، فرفعهم عن الحسِّ إلى التَّدريب على الحججِ العقليَّة، فقال آمرًا له ﷺ بالجواب بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾: أصلُ (جمع) يدلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ[3]، يُقال: جمع الشَّيء عن تفرقة يجمعُه جمعًا، وجمَّعه، وأجمَعَه، فاجتَمع، وكذلك تجمَّع، واستَجمَع، والمجموعُ: الَّذي جُمع مِن هاهنا وهاهنا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 424.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 101.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).

وإن لم يُجعَل كالشَّيءِ الواحد، وجمع أمره، وأجمَعَه، وأجمع عليه: عزَم، كأنَّه جمَع نفْسَه له[1]، والجَمْعُ: المجتمِعون، وجَمْعُه جُموع[2]، والمقصود بالجمع في الآية: ضمُّ الأشياء عن تفرقةٍ بتقريب بعضها من بعض.

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين منكري البعث: (إنّ اللّه أحياكم في الدنيا، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم جميعا يوم القيامة جمعا لا شك فيه)، كما أنّ في هذا إشارة إلى الآية المتقدمة: وهو أن اللّه تعالى كما كان عادلًا منزَّهًا عن الجورِ والظّلم؛ فإنَّ هذا يقتضي صحة البعث والقيامة، ثم خُتمت الآية أنَّ أكثر الناس - وهم مشركو العرب حينذاك - ينكرون البعث، من غير تأمّل وتدبّر ورويّة، ولا يدركون الحقيقة العلمية، ويقْصُرون نظرهم على المحسوسات، دون تفكر بالغيبيات، فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء، منكرين وجود الإله القادر الحكيم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

القـــادرُ على ابـتـداء الخـلقِ قادرٌ على إعادتِه

ترْكُ العطفِ هنا للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنَّ قولهم في الآية السّابقة: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ قد استوجب الرَّدَّ عليهم من أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي أحياهم أوَّلًا، ثمَّ يُميتُهم، وضمَّ إلى إلزام ذلك إلزامَ ما هو نتيجةٌ لِما تقدَّمَ، فمن قَدَر على ذلك؛ قدر على جمعهم يوم القيامة، فيكون قادرًا على إحياء آبائهم[3]، أو يقال لمّا قالوا: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ عنادًا وتمرُّدًا؛ قيل لهم: دعوا

---

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (جمع).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 292، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 520.

آباءكم، فإنَّ القاهر القادر العالم بكلِّ شيء يحييكم، ويميتكم، ويجمعكم يوم القيامة، فضلًا عمّا اقترحتموه من إحياء آبائِكم، ولكن أنتم لا تعلمون ذلك[1].

غرضُ فعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

تلقينُ الله تعالى لرسولِه ﷺ الرَّدَّ على الكافرين

جاء فعل الأمر ﴿قُلِ﴾ على معنى تلقين القول لأهمّيَّتِه، والمقصود منه تلقين رسول اللّه ﷺ القول لإبطال جميع أقوالِهم السّابقة، أي: لإبطال قولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾، وقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، وتلقين الرَّدِّ عليهم في قولهم: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فأبطلت جملة واحدة جميع مقولاتِهم.

تعيينُ المخاطَب بفعل ﴿قُلِ﴾:

رسولُ الله ﷺ هو المكلَّف الأوَّل في الإبلاغ

جاء قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ بصيغة المفرد مع أنَّ سؤال الكافرين: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ كان بصيغة الجمع؛ للإشعار بأنَّ قول الرَّسول ﷺ يكفي في جوابِهم، وأنَّه هو المكلَّف الأوَّل في الإبلاغ، كما أنَّ الخطاب وإن كان لمعيَّن، وهو رسول اللّه ﷺ، لكنَّه يشمل جميع من يتلو القرآن، فكلُّ من يتأتّى منه تلاوة آيات القرآن؛ فليقل لهم: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه والإخبار عنه بالجملة الفعليَّة:

لا أحدَ يقدر على إحياء الخلق وإماتتهم إلّا الله

أفاد تقديم المسند إليه والإخبار عنه بالجملة الفعليَّة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ تقوية الحكم وتحقيقه، بمعنى تقرير أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي يحييكم، ويميتكم، وتخصيص الإحياء والإماتة به تعالى[2]، بمعنى لا أحد يقدر على إحيائكم وإماتتكم إلّا اللّه؛ لإبطال قولِهم: إنَّ الدَّهر هو الَّذي يميتهم.

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 257.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 365.

توجيهُ اختيار اسم الجلالة دون الرَّبِّ:

مقامُ الرَّدِّ على المنكرين يناسبه ذكر الاسم الجليل (الله)

لمّا كان الإحياء والإماتة من مقتضيات الرُّبوبيَّة، قد يقال: ما سرُّ التَّعبير باسم الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ دون أن يقال: (قل: ربُّكم يحييكم)، والجواب هو أنَّه لمّا كان المقام مقامَ إنكارٍ من الكافرين للبعثِ يوم القيامة، وجاء على طريق العناد والمحاجة؛ كان التَّعبير بذكر الاسم الجليل أوفى للمقام وأقضى لحقِّ البلاغة؛ لأنَّ الجواب وإن جاء ردًّا على سؤالِهم، لكنَّه بذكر الاسم الجليل ألمح إلى الوعيد بالعذاب لمن لم يؤمن، ولهذا ناسب الكلام أن يقرن به قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ إتمامًا للدَّليل، وللتَّنبيه إلى ما سيكون عليه يوم الجمع من الجزاء على الأقوال والأعمال.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

من أساليب القرآن الاستدلالُ بالشّاهد المحسوس على الغائب

أفاد التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ و﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ تجدُّد إحياء الله تعالى للنّاس واستمراره، وتجدُّد إماتته لهم، فالخطاب يشمل جميع النّاس، وإنَّما عبَّر بصيغة الخطاب؛ لأنَّه في معرض الرَّدِّ على منكري البعثِ، فيدخلون فيه دخولًا أوَّليًّا؛ لِيكون الخطاب نذارةً لهم وتهديدًا، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المضارع تصويرًا لحالة استمرار إحياء الله النّاسَ، وإماتتهم المنبئة عن قدرة الله تعالى، أي: إنَّ الأمر أمام أعينكم، وهو حاضر بين يديكم، فلا مجال لإنكارِه، فيكون قد استدلَّ بالشّاهد المحسوس على الغائب.

نوعُ حرف التَّراخي ودلالته:

الحثُّ على التَّفكُّر والتَّأمُّل والاعتبار في تجدُّد الإحياء والإماتة

عبَّر بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾؛ للإشعار بتراخي إماتتكم عن حياتِكم، وتراخي جمعكم إلى يوم القيامة عن إماتتكم، والتَّراخي في كلِّ مرحلةٍ بحسبِها زمانًا وتقديرًا، كما أنَّ في حرف التَّراخي إيماءً إلى الحثِّ على التَّفكُّر والتَّأمُّل والاعتبار في تجدُّد الإحياء والإماتة، وفي الحشر من القبور

إلى المحشر، والاستدلال بهذه الأحوال على الحشر يوم القيامة، فإنَّ من قدر على الإحياء؛ قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ولإقامة العدل وإظهارِه.

نكتةُ اختيار مفردة ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾:

الحشرُ في صورة الجمع أبلغُ في إظهار قدرة الله تعالى من حشر فردٍ فردٍ

عبَّر بلفظ ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ دون أن يقال: (يبعثكم)، أو (يحييكم)؛ لِما في لفظ الجمع من معنى المجازاة، ويلزم من التَّعبير بلفظ ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ أنَّه تعالى يحييكم، ويجمعكم، فإنَّ جمع الموتى في القبور، لا يكون من غيرِ إعادة إحيائِهم بعد أن أرِموا، أو التَّقدير: يجمعكم أحياءً، وفيه إظهار لعظيم القدرة فإنَّ الحشر في صورة الجمع أبلغُ في الاقتدار من حشر فردٍ فردٍ ومحاسبتِه، كما أنَّ في قولِه: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾؛ إبطالًا لقولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وليس هو إبطالًا بطريق التَّفصيل والاستدلال؛ لأنَّ أدلَّة الحشرِ تكرَّرت فيما نزل من القرآن، فاستُغني عن تفصيلِها، فجاء الإبطال بطريق الإجمال والمعارضة[1].

براعةُ ترتيب الأفعال في: ﴿يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾:

ترتيبُ الأفعال متَّسق مع ترتيب الأحوال

جاء ترتيب الأفعال في قوله: ﴿يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ على وفق ما يكون عليه الواقع، ولهذا عطف الأفعال بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ للإيذان بأنَّ الدَّليل على قدرة اللّه على الحشر وجمْعِكم يوم القيامة هو مشاهدٌ وحاضرٌ أمامكم، كما أنَّ ترتيب الأفعال جاء مناسبًا لمورد إبطالِ قولِهم وشبهتِهم، أي: كما أنَّه تعالى أحيا آباءكم، وأماتهم؛ فإنَّه يحييكم، ويميتكم، ثم يجمعكم يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ دون يحشركم:

لكلِّ كلمةٍ في القرآنِ مع صاحبتِها مقامٌ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في معرض الرَّدِّ على قول الكافرين: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 365.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وإبطال حجَّتهم أوثر اختيار لفظ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه يجمعكم أنتم وآباءَكم إلى يوم القيامة، فإنَّ لفظ الجمع بمعنى ضمِّ الشَّيء المتعدِّد بأن يأتي به من هنا ومن هنا، وذلك بتقريب بعضه من بعض، كما يقال: جمعته، فاجتمع[1]، فآباؤهم سيأتون، ويحضرون، ويجتمعون معهم، ويحشرون في موضعٍ واحدٍ، ولكن ليس في الدُّنيا، بل يوم القيامة عند الحشرِ وإقامة الحساب والجزاء، فيكون التَّعبير بلفظ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ من تمام الرَّدِّ على الكافرين الَّذين طالبوا بالإتيان بآبائِهم والاجتماع بهم، فكان الأنسب بالمقام وبموضع معارضة قولِهم، أن يقول: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ دون (ثمَّ يحشرُكم)، فضلًا عن أنَّ في لفظ الجمع معنى الحشر - كما سيأتي - في سبب إيثار استعمال ﴿إِلَىٰ﴾، فلكلٍّ كلمة في القرآن مع صاحبتها مقام.

نكتةُ تعديةِ فعل الجمع بـ﴿إِلَىٰ﴾:

لمّا تعدّى الفعل ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ - ولم يقل يجمعكم في يوم القيامة - أفاد تضمين الفعل ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ معنى: يحشركم، ففيه إثراء في المعنى وتكثيف له، والمعنى: يجمعكم، ويحشركم إلى يوم القيامة، وأفاد التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾: انتهاء غاية الإحياء والإماتة والجمع عند يوم القيامة؛ لأنَّ غاية الأمر ينتهي عند يوم القيامة، الَّذي يكون فيه الجزاء الَّذي يتبعه الجنَّة أو النّار.

غايةُ الأمر ينتهي عند يوم القيامة الَّذي يكون فيه الجزاء الَّذي يتبعه الجنَّة أو النّار

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

الإضافة في قولِه: ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ على معنى الاختصاص، أي: اليوم المختصُّ بقيام النّاس فيه من قبورِهم وقيامِهم لربِّ العالمين، والتَّركيب صار علمًا على اليوم الموعود.

يوم القيامة يومٌ يقوم فيه النّاس من قبورِهم لربِّ العالمين

(1) الرّاغب، المفردات: (جمع).

بلاغةُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون بقيَّة الأسماء:

مناسبةُ التَّعبير بـ(يَومِ القِيامَةِ) للفظ (يَجمَعُكُم)

أوثرَ اختيار لفظ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون سائر الأسماء - أي: دون أن يقال مثلًا يوم يجمعكم إلى يوم الفصل أو إلى يوم الفزع الأكبر أو إلى يوم يوم التَّناد - لمجيء الكلام في سياق الرَّدِّ على منكري البعث والحساب؛ لأنَّ التَّعبير بـ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يفيد أنَّ النّاس تقوم فيه من قبورهم، ويجتمعون في المحشر، ولمّا كان الفعلُ ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ يشير إلى قيامِهم من القبور لأجل الاجتماع؛ اقتضى تعديته بما يؤذن بقيامِهم، فقال: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

بلاغةُ استعمالِ لا النافية للجنس:

أفاد نفي جنس الرَّيب المبالغة بنفي جميع أفراد الرَّيب

دلَّ استعمالُ لا النّافية للجنس في قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ على نفي جنس الرَّيب عن يوم القيامة، وعن جمعِهم فيه على سبيل التَّنصيص، والنَّفي بلا الَّتي للجنس أبلغ النَّفي؛ لأنَّه لو رفع، وقيل: (لا ريبٌ فيه)؛ لاحتمل نفي فردٍ من أفراد الرَّيب، فلمّا قال: ﴿لَا رَيۡبَ﴾؛ أفاد نفي جنس الرَّيب المقتضي نفي جميع أفراد الرَّيب، فإمّا أن يكون المراد لاريبَ حقيقيًّا فيه، أو أنَّه لعدم الاعتداد بارتياب المرتابين فيه بسبب وهنِه؛ نُزِّل منزلة العدم، فمَن يرتاب في وقوع يوم القيامة، وجمع النّاس فيه إنَّما هو بسبب جهلِه أو عنادِه.

بلاغةُ استعمال الرَّيب دون الشَّكِّ:

شكُّ الكافرين بيوم القيامة يخالطه قلقٌ واضطراب وتهمة

الرَّيب في الأصل مصدرُ رابني؛ إذا حصلت فيك الرِّيبة، وأصل الرَّيب قلقُ النَّفس واضطرابُها، ثمَّ استعمل في معنى الشَّكِّ مطلقًا، أو مع تُهمة؛ لأنَّه يُقلق النَّفسَ، ويزيل الطُّمَأنينة[1]، فعبَّر بالرَّيب في قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ دون الشَّكِّ؛ للإشارة إلى أنَّ اعتقاد الكافرين بيوم القيامة يقلقهم، ويزيل طمأنينتهم، ومعنى نفي الرَّيب عن يوم القيامة، وعن جمع النّاس فيه أنَّه في ظهورِ وقوعِه ووضوح

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 25.

البرهان التَّكوينيِّ والتَّنزيليِّ عليه بحيث ليس فيه مظنَّةٌ أن يُرتابَ في وقوعِه.

التَّوجيهُ النَّحويُّ لجملة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

تعدُّد المواقع النَّحويَّة بتعدُّد المعاني المحتملة، فالإعراب فرع المعنى

تحتمل جملة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أن تكون حالًا لاسم الزَّمان ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1]، أي: لاريبَ في وجودِه ووقوعِه بما يقتضيه من إحياء الأموات، ومعنى نفي الرَّيب في يوم القيامة أنَّ حقيقةَ الرَّيب الَّتي تتقوَّم من دلائل تفضي إلى الشَّكِّ منتفيةٌ عن قضيَّة وقوع يوم القيامة بكثرة الدَّلائل وتواردِها الدّالَّة على إمكانِه، وعلى أنَّه بالنِّسبة لقدرة اللّه ليس أعجب من بدء الخلقِ، وأنَّه بما أنَّ اللّه تعالى أخبر عن وقوعِه؛ فقد وجب القطع به[2]، كما تحتمل الجملة أن تكونَ حالًا من الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾، وهذا التَّوجيه هو ما يُفهم من قول من ذهب إلى عود الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾ إلى مصدر الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ - كما سيأتي متبوعًا - ويكون التَّقدير: لا ريب في جمعكم يوم القيامة؛ ليفيد الحال اقتران نفي الرَّيب بوقت جمع النّاس يوم القيامة، وعدم انفكاكِه عنه، وأجاز بعض المفسِّرين أن تكون جملة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ صفةً لمصدر محذوف، وتقدير الكلام: ثمَّ يجمعكم إلى يوم القيامة جمعًا لاريب فيه، أي: جمعًا موصوفًا بأنَّه لا ينبغي الارتياب فيه[3].

عود الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾:

وقوعُ يوم القيامة ممّا لا يُرتابُ فيه لظهورِه

على القول بأنَّ جملةَ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ حالٌ من اسم الزَّمان ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فإنَّ الضَّمير يعود إلى ﴿يَوۡمِ﴾، والتَّقدير لا ريب في يوم القيامة[4]، أي: لا ريب في حقيقتِه وذاتِه[5]، وعلى القول بأنَّ جملة:

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 365، ودرويش، إعراب القرآن: 9/ 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 365.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 439.
(4) الإيجي، جامع البيان: 4/ 117.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 88.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ حالٌ من الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾، فإنَّ الضَّمير في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ بما تعلَّق به، والتَّقدير: لا ريب في جمعِكم إلى يوم القيامة[1]، ففيه نفي للرَّيب عن وقوع الجمع في يوم القيامة، وهو المقصود من السّياق، ويلزمه نفي الرَّيب عن يوم القيامة كذلك؛ لأنَّ الجمع مقيَّد بالظَّرف، فيدخل يوم القيامة في نفي الرَّيب عنه كذلك، والمعنى: جمعكم يوم القيامة لاريب فيه، كما أنَّ يوم القيامة لا ريب فيه، وأيضًا في عود الضَّمير إلى الجمع دون يوم القيامة إشارة إلى أنَّ وقوع يوم القيامة ممّا لا يُرتابُ فيه، ولا ينبغي الشَّكُّ فيه لظهورِه؛ لأنَّه من مقتضى الحكمة والعدل.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

الجهلُ بالله سببُ لإنكارِ المعاد واستبعاد قيام الأجساد

الواو في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ عاطفة على مقول القول[2]، ومناسبة عطف هذه الجملة على مقول القول هو أنَّه لمّا أفاد قوله: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أنَّه تعالى قادرٌ على الإتيان بآبائِهم، كما هو قادر على الإتيان بهم؛ عطف عليه قوله: (لَكِنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ)؛ ليفيد أنَّ أكثرَ النّاس - وهم الكافرون - لقلَّة تفكُّرهم وقصور نظرِهم على ما يحسّونه، ويشاهدونه لا يعلمون أنَّه تعالى قادر على إحيائِهم، فظهر وجه ارتباط هذه الجملة بما قبلها[3]، أي: لأنَّ أكثر النّاس لا يعلمون ينكرون المعادَ، ويستبعدون قيام الأجساد[4]، ويحتمل أن يقال الواو في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ حاليَّة[5]، من الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾، أي: يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه والحال أنَّ أكثر النّاس

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 318، والآلوسي، روح المعاني.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 157.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 439.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 270.
(5) درويش، إعراب القرآن: 9/ 156.

مرتابون فيه؛ لأنَّهم لا يعلمون دلائله وشواهده، ويحتمل أن تكون الواو حالًا من الفعل ﴿قُلِ﴾، بمعنى: قل لهم هذا القول، والحال أنَّ أكثر النّاس مرتابون فيه؛ لأنَّهم لا يعلمون شواهده.

دلالةُ الاستدراكِ في السّياق:

ارتيابُ الكافرين في الجمع يوم القيامة لجهلِهم وقُصورِهم في النَّظرِ والتَّفكُّرِ لا لشائبة ريبٍ ما

حرف (لَكِنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يفيد الاستدراكَ من قولِه تعالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وهذا الاستدراك إمّا أن يكون من تمام الكلام الَّذي أمر اللّه تعالى رسولَه ﷺ بأن يقوله للمنكرين، فهو من تمام التَّلقين بـ﴿قُلِ﴾، وإمّا أن يكون استئنافًا مسوقًا من جهتِه تعالى، وتنبيهًا على أنَّ ارتيابَهُم في الجمع يوم القيامة؛ لجهلِهم وقُصورِهم في النَّظرِ والتفكُّرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيبٍ ما[1].

بلاغةُ الإظهار في موضع الإضمار:

مــن لا يــؤمــن بــالــبــعــث يــوم الــقــيــامــة جــاهــل باللّه وبصفاتِه العليا

كان الظّاهر أن يقال: ولكنَّ أكثركم لا تعلمون؛ لأنَّ أصل الخطاب في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ هو في الرَّدِّ على الكافرين الذين قالوا: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، لكنَّ الخطاب عدل إلى الاسم الظّاهر، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والنُّكتة في العدول هو نفي العلم عن أكثر النّاس، والمقصود بالأكثر الكفّارُ المعاندون المكذِّبون بالبعثِ، فلو قيل: ولكنَّ أكثركم؛ لكان المعنى أنَّ أكثر الكافرين لا يعلمون، ويلزم منه أنَّ بعضهم يعلم، ولكنَّه لايؤمن بالبعثِ، مع أنَّ من لا يؤمن بالبعث جاهل باللّه وبصفاتِه العليا، كما أفاد العدول إلى الاسم الظّاهر استقلاليَّة الجملة؛ لتكون تذييلًا يُقصد به العموم والكلّيَّة، فتُنزَّل الجملة منزلة المَثَل في حكايتِها والتَّمثُّل بها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74.

نكتةُ إيثار التَّعبير بنفي العلم على إثبات الجهل:

عبَّر بنفي العلم في قولِه: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دون إثبات الجهل بأن يقال: (ولكن أكثر النّاس يجهلون)، مع الإيجاز في اللَّفظ بسبب حذف (لا)؛ لأنَّ نفي علمِهم أبلغ من إثبات جهلِهم، وهو الأوفق بالمقام، فإنَّهم لمّا لم ينتفعوا بعلمِهم؛ نفاه عنهم، أو يقال: إنَّهم لمّا تركوا النَّظر بالتَّأمُّل في أسباب العلم؛ ناسب نفي العلم عنهم[1]، فنفيُ العلم عنهم أشدُّ توبيخًا لهم من إثبات جهلِهم، كما يفيد نفي العلم عنهم أنَّ أسباب العلم وشواهده حاضرة مستمرَّة، وأنَّه ينبغي العلم بها.

من لم ينتفع بعلمِه كمن لا علمَ له، فهو بمنزلة الجاهل

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد نفي العلم عن أكثر النّاس بأنَّ الله تعالى قادر على إحياء الموتى، وهذا الأمر ظاهر.

نكتةُ حذف متعلّق فعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حُذِفَ متعلِّقُ الفعل المتعدّي ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لتنزيل الفعل منزلة اللّازم، بمعنى نفي وصفِهم بالعلم، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا نفيُ علمِهم بأنَّه تعالى قادر على إحياء الموتى بدلالة السّياق، فكأنَّ من لا يعلم أنَّه تعالى يحيي الموتى، وأنَّه يجمع الخلقَ يوم القيامة لا يستحقُّ وصف العلم، فالعلم منتفٍ عنه.

من لا يعلم أنَّه تعالى يحيي الموتى ويجمع الخلقَ يوم القيامة لا يستحقُّ وصف العلم

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الرَّيب والشَّكِّ:

الفرق بينهما هو أنَّ الشَّكَّ تردُّد الذِّهن في أمرين على حدٍّ سواء، من غير تهمةٍ في المشكوك فيه، وأمّا الرَّيب؛ فهو شكٌّ مع

(1) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 229.

الشَّكُّ مجرَّد تردُّد الذِّهن في أمرين، والرَّيب شكٌّ مع تهمةٍ واضطراب

تهمةٍ، ففي الرَّيب اتِّهام في المرتاب فيه، مع انزعاج وقلق واضطراب فيمن يرتاب، ولهذا تقول: إنّي شاكٌّ اليوم في المَطَر، ولا يجوز أن تقول: إنّي مرتاب اليوم بالمطر، كما تقول: إنّي مرتاب بفلان؛ إذا شَككت في أمره، واتَّهمته، كما أنَّ الشَّكَّ هو مبدأ الرَّيب وسببه، كأنَّه شكَّ أوَّلًا، فيوقعه شكُّه في الرَّيب، فيقال: شكٌّ مريب، ولا يُقال: ريب مشكِّك، ولهذا جاء نفي الرَّيب في قولِه: ﴿يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ المشركين كانوا يشكّون في يوم القيامة، وفي جمعهِم فيه مع اتِّهامهم رسول اللّه ﷺ بالفرية والكذب في الإخبار عنه، فالرَّيب مذموم؛ لأنَّ فيه اتِّهامًا[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 99، والرّاغب، المفردات: (ريب، شكك)، والكفويّ، الكليات، ص: 528.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ٢٧﴾ [الجاثية: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إذا كان لله تعالى ملك السّماوات والأرض وما بينهما؛ كان قادرًا على إحياء الموتى

لَمّا احتَجَّ باللّه تعالى بكَونِه قادرًا على إيجادِكم وإماتتكم وعلى إحيائكم بعد مماتِكم؛ عمَّم الدَّليل، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ لتكون الآية تثبيتًا للدَّليل وتقوية له، فإنَّه إذا كان تعالى له ملك السَّماوات والأرض وما بينهما، وكان له القدرة عليها؛ ثَبَتَ كونُهُ تَعالى قادِرًا عَلى كُلِّ المُمكِناتِ، وثَبَتَ أنَّ حُصولَ الحَياةِ في هَذِهِ الذّاتِ مُمْكِنٌ؛ إذ لَو لَم يَكُن مُمكِنًا؛ لَما حَصَلَ في المَرَّةِ الأولى، فَيَلزَمُ مِن هاتَينِ المُقَدِّمَتَينِ كَونُهُ تَعالى قادِرًا عَلى الإحياءِ في المَرَّةِ الثّانِيَةِ[1].

وأيضًا لمّا دلَّ على قدرته تعالى على الإعادة بهذا الدَّليل الخاصِّ، الَّذي تقديره: فاللّه الَّذي ابتدأ خلقكم من الأرض على هذا الوجه قادرٌ على إعادتكم؛ عطف عليه دليلًا آخر جامعًا، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ الآيةَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخْسَرُ﴾: أصلُ (خسر) يدُلُّ على النَّقْصِ، فمن ذلك الخُسْر والخُسران، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسرانًا، ومصدره: الخسارةُ والخُسرُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[3]، وخَسَرَ: إذا نقص ميزانًا أو غيره، وخَسِرَ: إذا هلك[4]، والتَّخسيرُ: الإهلاكُ[5]، وقيل:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 103.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(5) الجوهريّ، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

الإبعادُ من الخير[1]، والمُرادُ بالخسارة في الآية: عدمُ الانتفاعِ بما يُرجى منه النَّفعُ.

2) ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: أصلُ (بطل) يدلُّ على ذهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكْثِهِ ولُبْثِه، وسُمِّي الشَّيطانُ الباطل؛ لأنَّه لا حقيقةَ لأفعاله[2]، وأبطلتُ الشَّيءَ: جعلتُه باطِلًا، وأبطلَ فلان: جاء بكَذِبٍ، وادَّعى باطلًا[3]، ويأتي الإبطالُ بِمعنى: إفساد الشَّيءِ وإزالته، سواء كان حقًّا أم باطلًا، والمُبْطِلُ: مَن يقولُ شَيْئًا، لا حَقيقةَ لَهُ[4]، والمبطلونَ في الآية معناه: الآتون بالباطل في مُعتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم؛ إذ الباطل ما ضادَّ الحَقَّ، والمقصود منه هنا الشِّركُ باللّه تعالى[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من تـصـرَّفَ في مُـلـكـه بـشيءٍ؛ كـان قـادرًا على مِثْلِه ما دام مَلِكًا

يَقولُ اللّهُ تعالَى مُذكِّرًا بأهوالِ يوم القِيامةِ: ولِلّهِ وحْدَه مُلكُ جَميعِ السَّماواتِ والأرضِ؛ فهو خالِقُهما والمتصَرِّفُ فيهما دونَ الدَّهرِ وغيرِه، مِمّا يَزعُمُ المشْرِكون أنَّ له تصَرُّفًا في الكَونِ، ويَومَ تَجيءُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النّارِ[6].

قال ابنُ أبي حاتم: (قَدِمَ سُفيانُ الثَّوريُّ المدينةَ، فسَمِعَ المَعافِريَّ يَتكَلَّمُ ببَعضِ ما يُضحِكُ به النّاسَ، فقال له: يا شَيخُ، أما عَلِمتَ أنَّ لِلّهِ يومًا يَخسَرُ فيه المُبطِلونَ؟ قال: فما زالت تُعرَفُ في المعافِريِّ حتى لحِقَ باللّهِ ﷻ)[7].

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (خسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (بطل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 366.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 173، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 778.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 270.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصل بالواو:

تنوُّع الأدلَّة على قـدرة اللـه على إعـادة الخـلـقِ وجـمـعـهـم يـوم القيامة

تحتمل الواو في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أن تكون عاطفة لِما بعدها على جملة: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فيكون الكلام من تمام مقول القول، ومن عطف الدَّليل العام على الدَّليل الخاصِّ، وبيانه أنَّه تعالى لمّا ذكر تصرُّفه في النّاس بالإحياءِ والإماتةِ والبعثِ والجمعِ للمُجازاة؛ عطف عليه اختصاص الملك المطلق والتَّصرُّفِ الكليِّ في السَّماوات والأرض، وفيما بينهُما باللّه ﷻ، فجاء العطفُ على طريق التَّرقّي في الدَّليل والقطع فيه، أو يكون عطف الجملة بمنزلة الدَّليل على أنَّه تعالى هو الَّذي يحيي، ويميت، ويجمع الخلقَ يوم القيامة، فكأنَّ هذه الآية دليل لِما قبلها[1]، ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة، فلا تكون جملة: (للّه مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ) من مقول القول، وتكون الجملةُ حينئذٍ اعتِراضًا بقصد التَّذييل لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾[2]، أي: لِما في جملة التَّذييل من معنى عموم القدرة على التَّصرُّف في ملك اللّه تعالى، والمعنى على الوجهين متقارب.

نوعُ اللّام في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

مُلكُ السَّماوات والأرض شـأنُ الله وحده دون غيره

حرفُ الجرِّ اللّام في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ﴾ للملك، أي: ملك السَّماوات والأرض ملك للّه، ففيه تقرير ملكِه تعالى؛ لِما في السَّماوات والأرض، ويحتمل أن تكون اللّام للاختصاص، والمعنى ملك السَّماوات والأرض مختصٌّ باللّه تعالى.

غرضُ تقديم ﴿وَلِلَّهِ﴾ على ﴿مُلۡكُ﴾:

أفاد تقديم المسند على المسند إليه في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 318، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 153.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 366.

تقديمُ المسند على المسند إليه قد يفيد القصر الحقيقيَّ أو الإضافيَّ

﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الحصرَ، أي: للّه وحده لا لغيرِه ملك السَّماوات والأرض؛ ليفيد الحصر تخصيص الملك المطلق باللّه، وأفاد التَّخصيص ردَّ معتقدِ الكافرين من خروج تصرُّف غير اللّه تعالى في بعضِ ما في السَّماوات والأرض، كقولهم في الدَّهر[1].

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿مُلۡكُ﴾ على (خلق):

من ملك شيئًا؛ صحَّ له التَّصرُّف فيه

لمّا كان المراد بيان اختصاص تصرُّفِه تعالى في السَّماوات والأرض، وفي جميع خلقِه؛ عبَّر بلفظ ﴿مُلۡكُ﴾؛ لأنَّ من ملك شيئًا؛ صحَّ له التَّصرُّف فيه، وعبَّر بلفظ ﴿مُلۡكُ﴾ دون أن يقال للّه خلق السَّماوات والأرض؛ لأنَّ الملِكَ هو المتصرُّف بالأمر والنَّهي على سبيل القوَّة والتَّولّي والتَّملُّك[2]، فكان التَّعبير بالملك أوفق بالمقام؛ لأنَّ الكلام سيق على سبيل الدَّليل في بيان قدرة اللّه تعالى، وتصرُّفه المطلق في الإحياء والإماتة وجمع النّاس يوم القيامة.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، فإنَّ السّامِعَ يَستحضرُ عند سماع هذين اللَّفظَين المعنى المُتبادِرَ، وهو السَّماءُ الَّتي تَعلونا، والأرضُ الَّتي نعيشُ فيها.

بديعُ الطِّباقِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

من ملك السَّماوات والأرض ملك ما بينهما

في الجمع بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ طباقُ المقابلة، ونكتة الطِّباق هو أنَّ الإخبار عن ملك اللّه تعالى لهما بطريق الجمع بينهما، مؤذن بظهور ملكِه تعالى وسعته، ويلزم من الجمع بين السَّماوات والأرض أن يكون مابينهما ملك للّه تعالى كذلك.

مناسبةُ الوصل بالواو:

أفادت الواو في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ العطف على قولِه:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 366.

(2) الرّاغب، المفردات: (ملك).

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ومناسبة العطف هو أنَّه لمّا جرى ذكر اختصاص الملك المطلق والتَّصرُّف الكلّي باللّه تعالى وحده، وكان من تصرُّفه في ملكِه أن يحشر النّاس يوم القيامة؛ لمقتضى حكمتِه وظهور عدلِه؛ ناسب أن يعقبه بإنذار الَّذين أنكروا يوم الحشرِ من سوء عاقبتِهم وظهور خسرانِهم فيه.

يحلو العطف عند التَّغاير في الذَّوات والاشتراك الموضوعيّ والأسلوبيّ

بلاغةُ العدول عن اسم القيامة إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

عدل عن ذكر يوم القيامة مع تقدُّم ذكرِه ووجاز لفظِه بالنِّسبة إلى قولِه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأنَّ السّياق في معرض المبالغة في تهويل الموقف؛ لتنبيه المنكرين للحشرِ، فعبَّر بالفعل المضارع ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لتصوير الحالِة ذلك اليوم وبيان رهبتِه، كما أنَّ في التَّعبير بالسّاعة؛ إشعارًا بسرعة قيامها ونفاذها وبيسر الأمر عند اللّه، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النّحل: 77]، وفيه إيماءٌ كذلك إلى سرعة خسرانِ المبطلين وعدم إمهالِهم، بمعنى: أنَّ حسابهم وحساب الخلائق جميعًا يوم القيامة، إنَّما يكون في ساعة، ففيه من بيان عظيم قدرة اللّه وجليل أوصافِه ما فيه.

من عظيم قدرة الله أنَّ حساب الخلائق جميعًا يوم القيامة إنَّما يكون في ساعة

نكتةُ تقديمِ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على فعل ﴿يَخۡسَرُ﴾:

لمّا تقدَّم الظَّرف على الفعل في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ أفاد الحصرَ، بمعنى الخسران التّام ينحصر في ذلك اليوم؛ لأنَّ كلَّ خُسران عندَه في ذلك اليوم كَلا خُسران[1]؛ لأنَّ في تقديم الظَّرف وتأخير الفعل ﴿يَخۡسَرُ﴾ دلالةً على أنَّ المراد من دلالة الفعل ﴿يَخۡسَرُ﴾ الفرد المطلق، أي: الخسران التّامّ الكامل يكون في ذلك الوقت، كما أنَّه لا تظهر خسارة المبطلين، ولا تبين على الحقيقة إلّا يوم تقوم السّاعة، وفي تقديم الظَّرف وتأخير الفعل

لا تظهر خسارة المبطلين ولا تبين على الحقيقة إلّا يوم تقوم السّاعة

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 21، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 440.

وفاعلِه اهتمامٌ بالظَّرف واسترعاء للأسماعِ؛ لِما يرد من وصف أحوالِ ذلك اليوم[1]، وفي التَّقديم كذلك رعاية للفاصلة ومناسبة رؤوس الآي.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي:

قيامُ السّاعة يباغت الخلق، ويفاجئهم

جاء قوله تعالى: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على طريق المجاز بإسناد الفعل ﴿تَقُومُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، والمراد يقيم الله السّاعة، ونكتة إسناد الفعل إلى السّاعة بيان سرعة قيامِها وسرعة الحساب فيها، وفي الإسناد تهويلٌ لذلك اليوم؛ لما يقتضيه الإسناد من المباغتة في وقوعِها والرُّعب الحاصل من المفاجأة بها، فإسناد القيام للسّاعة مجاز عقليٌّ علاقته الزَّمانيَّة، ويحتمل أن يكون الإسناد على طريق الاستعارة بتشبيه السّاعة بالإنسان، ثمَّ أسند إليها القيام، فيكون قيام السّاعة مشبَّهًا بالإنسان القائم، الَّذي هو على كمال الاستعداد، وقد تأهَّب للعمل بقيامِه، والمقصود أنَّ السّاعة توجد، وتتحقَّق تحقُّق القائم الَّذي هو على كمال تمكُّنه وتمام أمره النّاهض بأعباء ما يريد[2].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في الأصل للعهد، أي: السّاعة الَّتي هي ساعة القيامة، وصار لفظ السّاعة علمًا بالغلبة على وقتِ الحشرِ والحساب[3].

دلالةُ تكرار لفظ يوم:

التَّكرارُ لتأكيد مضمون الخبر

كرَّر لفظ يوم مضافًا إلى الظَّرف في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، ولمّا كان التَّنوين فيه عوضًا عن المضاف إليه المحذوف بتقدير: يوم إذْ تقوم الساعة يخسر المبطلون؛ كان الظَّرف مكرَّرًا على سبيل التَّأكيد،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 366.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 104.
(3) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 177، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.

وفائدته تأكيد مضمون الخبر وتهويل ذلك اليوم[1]، والمقام مقام تهويل - كما تقدَّم - ويحتمل أن يكون لفظ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدلًا من الظَّرف في ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وبيانه أنَّ اليوم هو الوقت، والمعنى: يومَ إذْ تقوم السّاعة، ويحشر الموتى فيه يخسر المبطلون، فيكون قد قصد الكلام على جزء من ذلك اليوم بعد أن ذكرَه كلَّه؛ لأنَّ يوم تقوم السّاعة يوم متَّسع مبدأه من النَّفخة الأولى، فيكون قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل البعض من الكلِّ بمعنى وقت من اليوم والعائد مقدر، وعبَّر في بدل البعضِ باليوم دون الوقت؛ للإشعارِ بأنَّ ظهور خسرانهم إنَّما يكون يومَ حشرهم، فكان بدل البعضِ هو المقصود بالنِّسبة[2].

نوعُ التَّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التَّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنوين عوضٍ عن جملةٍ ملحوظةٍ من السّياق، والتَّقدير: يومَ إذْ تقوم السّاعة، وهذا من براعة الإيجاز.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿يَخۡسَرُ﴾:

الحياةُ الدُّنيا رأس مال الإنسان لطلب سعادة الآخرة

لمّا كان ما قاله الكافرون باطلًا من أنَّه ليس من حياة إلّا هذه الحياة الدُّنيا، وأنَّ ليس يهلكهم إلّا الدَّهر، وكانت حجَّتهم في إنكار البعث باطلةً؛ عبَّر بلفظ الخسران الَّذي هو مستعار لحصول الضُّرِّ لمن أراد النَّفع، كخسارة التّاجر الَّذي أراد الرِّبح، فذهب رأس المال[3]، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، ومورد الاستعارة هو أنَّ الحياة في هذه الدُّنيا كأنَّها رأس المالِ، والتَّصرُّف فيها لطلب سعادة الآخرة يَجري مَجْرى تَصَرُّفِ التّاجِرِ في رأسِ المالِ لِطَلَبِ الرِّبْحِ، والكُفّارُ قَد أتعَبوا أنفُسَهُم في هَذِهِ التَّصَرُّفاتِ، وما وجَدوا مِنها إلّا الحِرمانَ والخِذلانَ، فَكانَ ذَلِكَ في الحَقيقَةِ نِهايَةَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 153، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 366.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 453.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 213.

الخُسرانِ[1]، كما يشعر اللَّفظ بأنَّ الكفّار كانوا يظنّون أنَّ الرِّبح والخسارة إنَّما يكون في هذه الحياة الدُّنيا، فردَّ اللّه تعالى عليهم بأنَّ هناك حياةً أخرى سوى الحياة الدُّنيا هي الَّتي يكون فيها على الحقيقة الرِّبح والخسران، ويشعر التَّعبير بالخسران بحسرة المبطلين وندمِهم وحزنِهم على ما قدَّموا بعدَ أن تبيَّن لهم خسارتَهم، ففيه إشارة إلى العذاب النَّفسي للمنكرين البعث يوم القيامة؛ لأنَّهم ما حصَّلوا من إنكارِهم إلّا الخسران، ولو تأمَّلوا، وآمنوا؛ لربحوا، وفي التَّعبير بالخسران إشارةٌ كذلك إلى أنَّه يجب الرُّجوع إلى اللّه قبلَ أن يجيء أمرُه وقضاؤه بالموت والعذابِ، فإنَّه ليس بعده إلّا الأحزانُ، فكان اختيار لفظ ﴿يَخۡسَرُ﴾ هو الأقضى لحقِّ البلاغة في هذا المقام، ولو قيل: ويومئذٍ يُعذَّبُ المبطلون، أو يعاقب المبطلون؛ لَمَا ناسب سياق اللَّفظ وسباقه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَخۡسَرُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المضارع تجدُّد خسارة المبطلين واستمرارَها يومَ الحشرِ، بحيث لا انفكاك لهم عنها، فهُم يخسرون وقتًا فوقتًا، واستمرار الخسارة وعدم توقُّفها عذاب أليم شديد إضافةً إلى العذاب الموعود.

نكتةُ تعلُّق الخسران بالمبطلين:

خيبةُ الكافر في مجازاتِه بالخسران على خلاف ما كان يتأمَّل من تحصيل الرِّبح

لَمّا كان المبطل هو الغارق في الباطل المتمسِّك به، وهو إنَّما يتمسَّك بالباطل طمعًا في الرِّبح؛ أفاد قوله: ﴿يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أنَّ خسرانه بسبب تمسُّكه بالباطل وإغراقِه فيه، كما أفاد خيبته في أنَّه جوزي بالخسران على خلاف ما كان يتأمَّل من تحصيل الرِّبح.

براعةُ ترتيبِ خسارة المبطلين على قيام السّاعة:

لَمّا كان من شأنِ قيام السّاعة أن ينتهي فيه النّاس من المشقّات

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.

تتابعُ الخسارات للكافرين يوم القيامة

والمكروهات، وكأنَّ قيام السّاعة بحدِّ ذاتِه فوز؛ لأنَّ فيه خلاصًا من عذاب القبر للكافرين؛ رتَّب عليه خسران المبطلين، فقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، ففاجأهم بما لم يكن في حسبانِهم، بتتابع الخسران بعد الخسران، ففيه مبالغة في العذاب والأذى النَّفسي فوق العذاب الجسدي.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

كلُّ حججِ منكري البعث باطلة

عبَّر بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ دون أن يقال: (يومئذٍ يخسر الكافرون، أو يخسر المشركون)؛ لأنَّ اللَّفظ منظور فيه لحالِهم في الواقع؛ لأنَّهم أنكروا البعثَ مع انتفاء شبهة إنكار البعثِ بما ذكره من الدَّليلين في قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فلمّا انتفت شبهة إنكار البعثِ؛ كان إنكارهم باطلًا، كما أفاد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أنَّ كلَّ ما قاله منكرو البعث باطلٌ، وأنَّ حجَّتهم باطلة، فتنوَّع باطلهم، وأُغرقوا فيه مع ظهور الحقِّ وانتفاء الشُّبهة.

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

من ينكر البعثَ كمن صار مغرقًا في الباطل، فلا يأتي منه إلّا الباطل

﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ اسم فاعل بمعنى الدّاخلين في الباطل، أي: العريقين في الاتِّصاف بالباطل المتمسِّكين به على الإطلاق، حتَّى آثروا الباطل على الحقِّ، فلا يأتي منهم إلّا الباطل، والمبطل صاحب الباطل، الَّذي يأتي به، ويتمسَّك به، ففي التَّعبير بالمشتقِّ إشعارٌ بأنَّ من ينكر البعثَ؛ كان كمن صار مغرقًا في الباطل بحيث لا يأتي منه إلّا الباطل في قولِه وفعلِه؛ تعظيمًا لشأن الإيمان بالبعثِ يوم القيامة.

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ وجمعه:

(الـ) في قولِه: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ للاستغراق، والمعنى: يومئذٍ يخسرُ جميعُ المبطلين، وجاء اللَّفظ بصيغة الجمع للإشعار بكثرة المبطلين.

الكافرون يخسرون كلَّ ما يفوز به المؤمنون يوم القيامة

نكتةُ حذف مفعول ﴿يَخۡسَرُ﴾:

جاء الفعل المتعدّي ﴿يَخۡسَرُ﴾ محذوفَ المفعولِ؛ لإفادة عموم الخسران، أي: إنَّهم خسروا رضوان اللّه تعالى ومحبَّته، وخسروا المنازل في الجنَّة، وخسروا ما فاز به المؤمنون، والمعنى خسروا كلَّ شيءٍ.

يوم تقوم السّاعة يخسر المبطلون، ويربح المحقّون

نكتةُ التَّلويح في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ دلالة لطيفة، فإنَّه لمّا جعل خُسران المبطلين كائنًا يومَ تقوم السّاعة؛ دلَّ بمفهومِه على مقابله، وهو ربح المحقّين كذلك، فيوم تقوم السّاعة يربح المحقّون؛ لأنَّ الحياة الدُّنيا تجارةٌ في المعنى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: 10][1].

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات في القرآن المجيد: 3/ 505.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [الجاثية: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تنوُّع أهوال القيامة وأحوالِها

لمّا بيَّن اللّه تعالى صحَّة وقوع الحشر، وأخبر عن وقوعِه؛ ذكر تفاصيل أهوالِه وأحوالِه، فأوَّلها قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لَمّا أخبر عن ما يقع للمبطلين المنكرين البعث من الخسران والذِّلَّة والخيبة؛ عمَّ الهول مصوِّرًا حالَهُ في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ﴾ الآيةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَاثِيَةٗۚ﴾: أصلُ (جثو) يدلُّ على هيئَةِ الخاضعِ الذَّليل، جثا يَجْثو جُثوًّا وجُثِيًّا: جلس على رُكبَتَيهِ للخصومة[3]، نحو: عتا يعتو عُتوًّا وعتيًّا، وجمعه جُثِيَ، نحو: باكٍ وبُكِيَ، وقوله ﷻ: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: 72]، يصحُّ أن يكون جمعًا، نحو: بكي، وأن يكون مصدرًا موصوفًا به، والمراد بالجاثية في الآية: الباركةُ على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المُذنب الخائف المُخاصَم بين يدَي الحاكِم ينتَظر القضاءَ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الجُثوُّ على الرُّكبةِ يَليقُ بالخائفِ

يهتمُّ النَّصُّ الكريم بالحديث عن أهوال يوم القيامة؛ لكي يفيء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 104.
(3) ابن سيده، المحكم: (جثو).

النّاس إلى رشدهم، ويستعدّوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح، فقال اللّه تعالى: وترى في ذلك اليَوم يا محمَّدُ ﷺ أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللّهِ تعالَى وحُكمَه عليهم، وكلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها الَّتي كتبَتْها الملائِكةُ، يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم الَّتي كَتَبَتْها الملائِكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو موافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ، إنّا كُنّا نَأمُرُ الملائِكةَ أن تَكتُبَ ما كنتُم تَعمَلونه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

جثوُّ الأمم يوم القيامة يعمُّ الجميع

جاءت جملة: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ بطريق الوصل بالواو؛ عطفًا على الجملة الفعليَّة: ﴿يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، وتقدير الكلام: ويوم تقوم السّاعة يخسر المبطلون، ويوم تقوم السّاعة ترى كلَّ أمَّة جاثية[2]، ومناسبة العطف التَّشريك في عظم الهول وتعميمه.

نوعُ فعل الرُّؤية:

المقصودُ من الرُّؤية في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ﴾ الرُّؤية البصريَّة[3]، فيتعدَّى الفعل إلى مفعول واحدٍ، وهو قوله: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، وهو الظّاهر من مناسبة السّياق في بيان هول الموقف وشدَّته، وأجاز الزَّركشي أن تكون الرُّؤية قلبيَّة، فيتعدَّى الفعل إلى مفعولين[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 101، والواحديّ، الوسيط: 4/ 100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 271.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 440.
(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 593، وابن عادل، اللباب: 17/ 369، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 440.
(4) الزّركشي، البرهان: 4/ 149.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع (تَرَى):

لتحقُّق الرُّؤية وتصويرها رأي العَيْن؛ عبَّر عنها بالفعل المضارع

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: (تَرَى) - مع أنَّ المراد منه الاستقبال؛ لأنَّ التَّقدير يوم تقوم السّاعة ترى كلَّ أمَّة جاثية - لتصوير الحالة الَّتي ستقع، ولبيان أنَّ الرُّؤية محقَّقة، فهي بمنزلة وقوعِها في الحالِ، أو يقال: إنَّ الفعل المضارع لمّا كان دالًّا على الحال أو الاستقبال؛ عبَّر به للدَّلالة على الاستقبال.

بلاغةُ مجيءِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

رسولُ الله ﷺ شاهدٌ على جثوِّ جميع الأمم

لمّا كان حقُّ الخطاب أن يكون مع مخاطَبٍ معيَّن؛ كان التَّعبير بالفعل بصيغة الخطاب في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّه لايُقصَد به مخاطبٌ معيَّن؛ قصدًا إلى تفظيع الحالِ وما يقع لكلِّ أمَّة بحيث إنَّه قد بلغت الحالُ يوم تقوم السّاعة من ظهور جثوِّ كلِّ أمَّة، ودعاء كلِّ أمَّة إلى كتابِها إلى حيث يمتنع خفاؤُها ألبتَّةَ، فلا تختصُّ براءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من يتأتّى منه الرُّؤية فله مدخل في الخطاب، فالمراد من الخطاب بلفظ (تَرَى) أنَّ كلَّ أمَّة تكون على حالٍ ووصفٍ، بحيث إذا طلبها طالب رآها على تلك الحالِ والوصف، وليس ضمير المخاطَب لواحد مخصوص معيَّن دون غيره[1]، ويحتمل أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ للرَّسول ﷺ[2]؛ تسليةً له وأنَّه في مكانٍ بحيث يكون شاهدًا على جميع الأمم، وعلى هذا الوجه يكون الكلام على مقتضى الظّاهر.

نكتةُ التَّعبير بتركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ دون الجمع المحلّى بـ(ال) في (الأمم):

كلُّ أمَّةٍ جاثية يوم تقوم السّاعة، وكلُّ فردٍ منها يكون جاثيًا

عبَّر بتركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ دون أن يقال، وترى الأمم جاثيةً؛ لأنَّ في قولِه: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ إيذانًا بأنَّ كلَّ أمَّة من الأمم المجموعة، تكون وحدها يوم الحشرِ والحساب، كما أنَّ التَّعبير بـ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ يفيد أنَّ كلَّ فردٍ

(1) الإسكافي، درَّة التّنزيل، ص: 831 - 832.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 82.

من أفرادِ تلك الأمَّة الجاثية يكون جاثيًا؛ لأنَّ لفظ ﴿كُلَّ﴾ يقصد به العموم على سبيل استغراق الأفراد لا المجموع، فيفيد تركيب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أنَّ كلَّ أمَّةٍ من الأمم الفائزة أو الخاسرة تكون جاثية على سبيل النَّصِّ على كلِّ فردٍ ضمن مجموع الأمَّة.

نكتةُ استعمال ﴿أُمَّةٍ﴾ دون مقارباتها:

الأمَّة هي الجماعة العظيمة من النّاس الَّتي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها، ويكونون مجتمعين على طريق واحدٍ بحيث يتميَّزون من غيرهم[1]، والمقصود بالأمَّة هنا أنَّه قد جمعهم دين واحدٌ، فعبَّر بلفظ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ للإشعار بأنَّ أهلَ كلِّ دين يكونون على حدةٍ في الجثوِّ وفي الحساب، والظّاهِرُ عُمومُ كُلِّ أُمَّةٍ مِن مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فيشمل الفائزة والخاسرة - كما تقدَّم - ويؤيِّده قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، وبدليل التَّفريع في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[2]، وذلك الجثوُّ يكون عند الحساب، ونقل بعض المفسِّرين أنَّ ذلك خاصٌّ بالكفّار[3].

أهلُ كلِّ دين يكونون على حدةٍ في الجثوِّ والحساب، والمؤمنون على حدةٍ والكافرون على حدةٍ

دقة التَّعبير بمفردة ﴿جَاثِيَةٗۚ﴾:

من روائع التَّعبير القرآني التَّعبير بلفظ ﴿جَاثِيَةٗۚ﴾؛ لتصوير حالةِ كلِّ أمَّة يوم الحشر، وليس من لفظ يحمل المعاني المعبِّرة عن حالِ اجتماع الأمم في ذلك الموقف، مثل مفردة ﴿جَاثِيَةٗۚ﴾؛ لأنَّها تفيد أنَّ كلَّ أمّةٍ على حدةٍ تكون مجتمعة مستوفزة خائفة قلقة غير مطمئنَّة، باركةً على ركبها لا تحملها أقدامها لعجز النّاس عن القيام لما اعتراهم من الشِّدَّة من هول ذلك اليوم، فتنتظر الحساب والقضاء الحازم الجازم من الله تعالى راجيةً النَّجاة، والجثوُّ جلسة الخائف

الجثوُّ جلسة الخائف المخاصِم المعظِّم بين يدي الحاكم

(1) الراغب، المفردات: (أمم)، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 88.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 680.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 425.

المخاصِم المعظّم بين يدي الحاكم، فكلُّ هذه المعاني مجتمعةً تفيدها مفردة ﴿جَاثِيَةً﴾ في سياق قولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[1].

علاقةُ مفردة ﴿جَاثِيَةً﴾ بموضوع السّورة:

كلُّ أمَّة ستحضر جاثية للقضاء عند الله تعالى

لّما كان موضوع السّورة هو الشِّكاية من الكفّار والمتكبِّرين، وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذَمُّ متابعي الهوى، وذلُّ الناس في المحشر؛ ناسب أن يكون لفظ الجاثية اسمًا للسّورة؛ للإشعار بهول موقف المتكبِّرين على الشَّريعة، المتَّبعين الهوى المنكرين للبعثِ، وأنَّ استهزاء الكافرين بالمؤمنين لن يمرَّ من دون حساب، فإنَّ كلَّ أمَّة ستحضر جاثية للقضاء عند اللّه تعالى.

توجيه إعراب ﴿جَاثِيَةً﴾ وتنوُّع المعنى:

تعدَّدت إعرابات اللَّفظة بحسب معاني الرُّؤية

لّما كان الظّاهر أنَّ لفظ الرُّؤية في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الرُّؤية العينيَّة، الَّتي تأخذ مفعولًا واحدًا؛ كان لفظ ﴿جَاثِيَةً﴾ حالًا من المفعول به ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾[2]، الَّذي أقيم مقام المعرفة لِما فيه من معنى العموم، وسبب مجيء الحال تجسيد المشهد المهول في ذلك اليوم العصيب، ويحتمل أن يكون ﴿جَاثِيَةً﴾ صفة للمفعول به على اعتبار أنَّه نكرة وما بعد النَّكرات صفات، ويكون المراد بيان وصفِ كلِّ أمَّة الملازم لها في وقت انتظار قضاء اللّه تعالى فيها، ففيه إيماء إلى طول جثوِّهم في وقت انتظار القضاء.

والفرق بين الحال والصِّفة في التَّوجيه هو أنَّه على الحال يكون قد أخبر بخبرين، **الأوّل:** هو رؤية كلِّ أمَّة من الأمم بمعنى رؤيتها حاضرةً، **والثّاني**: هو رؤيتها جاثيةً، وأمّا على الوصف؛ فإنَّ الكلام

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 48، والنّحاس، معاني القرآن: 6/ 431، وابن جرير الطبري، جامع البيان: الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 231، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 88، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 174.

(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 593، وابن عادل، اللباب: 17/ 370.

على معنى جملة واحدةٍ، وظاهر كلام الزَّركشي أنَّه يجوز أن يكون الفعل (تَرَى) من الرُّؤية القلبيَّة أو العلميَّة، فيأخذ مفعولين، ويكون ﴿جَاثِيَةً﴾ مفعولًا ثانيًا[1].

القيامة مواقف، ففي بعضِها قيام ينظرون، وفي وقت القضاء جاثون على الرُّكب

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، وقال تعالى في الزمر: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]، فما هو سبب اختلاف الوصف في الآيتين، وجوابه أنَّ القيامة مواقف، ففي بعضِها قيام ينظرون، وفي وقت القضاء جاثون على الرُّكب.

مناسبةُ الفصل في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ﴾:

الخوفُ من الحساب يجعل الأمم جاثية يوم القيامة

جاءت جملةُ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ على طريق الفصل؛ لتكون استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها في تقدير جواب سؤالٍ يعرض؛ لبيان سبب جثوِّ الأمم[2]، فكأنَّه قيل: ما سبب جثوِّ كلِّ أمَّةٍ من الأمم يوم تقوم السّاعة؛ لأنَّ جثوَّ الأمم مشعرٌ بالخوف والشِّدَّة والقلق؟ فكان الجواب في بيان السَّبب واستكمال الموقف: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: لأنَّ كلَّ أمَّةٍ مدعوَّةٌ إلى كتابها، الَّذي تُحاسب به.

دلالةُ استعمالِ لفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

دعوةُ الأممِ تشمل الأفراد دون النَّظر إلى عقائدهم

لمّا كان لفظ (كلّ) من ألفاظ العموم، ويُستعمل اللَّفظ عند إضافتِه إلى النَّكرة لاستغراق أفراد المضاف إليه، بمعنى أنَّ الحكم يتناول جميع أفراد ما أضيف إليه (كلّ) نصًّا في كلِّ فردٍ وعلى المجموع لزومًا[3]؛ أفاد التَّعبير بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الحكم على كلِّ أمَّة بأنَّها تُدعى إلى كتابها، أي: كلُّ أمَّةٍ أمَّةٍ، ويلزم منه أن يُدعى كلُّ فردٍ فردٍ من الأمَّة، كما أفاد

(1) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 149.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 252، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

(3) السّبكي، الإبهاج في شرح المنهاج، تح: الزمزمي: 4/ 1235.

اللَّفظ لزومًا استغراق جميع الأمم، أي: الحكم على مجموع الأمم بأنَّها تُدعى إلى كتابها من غير فرقٍ بين أهل الأديان المتَّبعين للرُّسل وغيرِهم من أهل الشِّرك، أو من الملحدين والدَّهريِّين واللّادينيّين.

سببُ إيثار التَّعبير بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

أوثر التَّعبيرُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ دون أن يقال مثلًا جميع الأمم يدعون إلى كتابهم، أو يقال: الأمَّة تدعى إلى كتابِها؛ لأنَّ لفظ (كُلُّ) هو نصٌّ في عموم أفراد ما أضيف إليه، ولأنَّه ليس في كلام العرب كلمةٌ أعمُّ منها تفيد العموم، فكان الأقضى لحقِّ البلاغة التَّعبير بلفظ يستغرق كلَّ أمَّة من الأمم، ويستغرق أفراد كلَّ أمَّةٍ من الأمم كلِّها، فقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾، ففي التَّعبير بيان لهول الموقف يوم القيامة، باجتماع الخلائق على شكل أمم، مع الحكم على كلِّ فردٍ فردٍ بأنَّه يُدعى إلى كتابِه؛ ليُجزى على عملِه.

بلاغةُ النَّظم في تكرار (كُلُّ أُمَّةٍ):

جثوُّ الأمم يوم القيامة يكون قبل استدعائِها إلى الحساب

قد يقال: لو قيل: (وترى كلَّ أمَّة جاثية تُدعى إلى كتابها)؛ لأغنى عن الإطالة، والجواب أنَّ تكرارَ تركيب (كُلُّ أُمَّةٍ) أقضى لحقِّ البلاغة، فإنَّ الغرض هنا هو الإسهاب؛ لأنَّه موضعُ إغلاظ ووعيد وتهويلٍ بمعنى أنَّ كلَّ الأمم تجثو، ثمَّ تُدعى كلُّ أمَّة إلى كتابها، فتذهب إليه للحسابِ، أي: يذهب أفرادُها للحساب، كما أنَّ في إعادة (كُلُّ أُمَّةٍ) دفعًا للَّبسِ وإيضاحًا للمقصود، فإنَّه لو قيل: (وترى كلَّ أمَّةٍ جاثيةً تُدعى إلى كتابِها)؛ لأوهمَ أنَّ الجثوَّ والاستدعاءَ إلى الكتابِ يحصلان معًا، وهو خلاف المقصود، مع ما في إعادة الخبر مرَّةً ثانية من التَّهويل[1].

غرضُ تقديم المسند إليه على المسند الفعلي:

في قولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أفاد مجيء الخبر جملة

(1) ابن جنّيّ، المحتسب: 2/ 311، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

ما من أمَّـة من الأمم إلّا وتُدعى إلى كتابِها

فعليَّة بتقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ تقوية الحكم وتحقيقه، بمعنى: تقرير أنَّ كلَّ أمَّة تُدعى إلى كتابِها، وأنَّه ما من أمَّة إلّا وتدعى إلى كتابِها، ولمّا كانت الأمم كثيرة؛ أفاد أنَّه ستُدعى أُمَّةٌ قبلَ أُمَّةٍ، وقومٌ قبلَ قومٍ، ورجلٌ قبلَ رجلٍ[1].

توجيهُ القراءات القرآنيّة في لفظ ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾:

تنوُّعُ القراءة فيه تنويع للمعنى وتوسيع له

قرأ جمهور القرّاء: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ﴾ برفع ﴿كُلُّ﴾ على الابتداء، وقرأ يعقوب الحضرمي: ﴿كُلَّ﴾ بالنَّصب على البدل من ﴿كُلَّ﴾ الأولى، أي: في قولِه: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٗۚ﴾، وتكون الجملة الفعليَّة ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ على هذا التَّوجيه مفعولًا ثانيًا على تقدير: أنَّ يكون الفعل (تَرَى) من الرُّؤية العلميَّة؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الكتاب ليست مبصرَةً إلّا على سبيل المبالغة، أو تكون الجملة حالًا أو صفةً لـ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، لكنَّها ليست صفةً احترازيَّة، بل لبيان عموم دعوة كلِّ أمَّة إلى كتابِها[2]، ومناسبة البدل هو أنَّ في ﴿كُلَّ﴾ الثّانية إيضاحًا لموجِب الجثوِّ وسببِه، أي: لأنَّ جُثوَّها ليس فيه شيء من شرح حال الجثوِّ، كما في الثّانية من ذكر السَّبب الدّاعي إلى جُثوِّها، وهو استدعاؤها إلى كتابها، للمجازاة على عملِها، فالجملة الثّانية أشرح من الأولى؛ فلذلك أفاد إبدالها منها معنًى زائدًا[3]، وكان مقصودًا في المعنى كما أنَّ معنى الجملة المبدل منها كان مقصودًا كذلك.

سرُّ اختيار لفظ ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾:

يـوم القيامة تُدعى كلُّ أمَّة فيها بصوتٍ عالٍ أو بما يفيد الإعلان أمامَ الملأِ لطلب حضورِهم

عبَّر بقوله: ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ دون أن يقال مثلًا: كلُّ أمَّة تُؤتى كتابها؛ لأنَّ لفظ ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ يُقصد به استدعاء كلِّ أمَّة وكلِّ فردٍ فيها بصوتٍ عالٍ مرتفعٍ، أو بما يفيد الإعلان والإشهاد أمامَ الملأِ لطلب حضورِهم،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 82.

(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 441.

(3) ابن جنّيّ، المحتسب: 2/ 311، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 88، والهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 594.

والمقام مقام قضاء وفصلٍ وتهويلٍ في ذلك اليوم، فيناسبه الاستدعاء المقتضي كذلك ترقُّب المستدعَى لاستدعائه وحضورِه، كما يفيد لفظ ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ المسند إلى ﴿كُلُّ أُمَّةٖ﴾ أنَّ كلَّ أمَّة وكلَّ فردٍ مطلوب للقضاء، ولمّا كان الدُّعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم[1]؛ أفاد أنَّ كلَّ أمَّة تُدعى إلى كتابها، فإنَّما تُدعى باسمِها، وكذلك كلُّ فردٍ يُدعى باسمِه، فيُفتضح المجرم، ويفرح المؤمن، ولو قيل: (تؤتى)؛ لكان في اللَّفظ تكريمٌ، بمعنى: أنَّهم يأتون إلى كتابِهم مكرَّمين، وهذا لا يناسبه المقام، وليس هو المقصود.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:

التَّعبيرُ بصيغة الفعل المبني للمفعول ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ مناسب لهول الموقف، فلا تعلم كلُّ أمَّة، ولا يعلم أفرادها من أيِّ جهةٍ يأتيهم الاستدعاء، ولا يعلمون من الَّذي يستدعيهم، وجيء بصيغة المبني للمفعول؛ لأنَّه ليس المقصود بيان من الَّذي يدعو كلَّ أمَّة إلى كتابها، بل المقصودُ استدعاءُ كلِّ أمَّةٍ وأفرادِها وحضورهم إلى كتابِهم لأجل الجزاء.

العـدولُ عن الفـاعـل إلى فعل الاستدعاء تهويلًا

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾؛ لتصوير حالة استدعاء كلِّ أمَّةٍ في ذلك اليوم المهيب.

دلالةُ استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

عبَّر بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ لبيان انتهاء الغاية من استدعاء كلِّ أمَّة، بمعنى أنَّه تُدعى، فتصل إلى كتابِها؛ لتُجزى بما عملت.

دلالةُ لفظ ﴿كِتَٰبِهَا﴾:

يحتمل أن يكون المرادُ من لفظ ﴿كِتَٰبِهَا﴾ الكتاب الَّذي تُسجَّل فيه الأعمال، أي: كلُّ أمَّة تُدعى إلى صحائف أعمالِها الَّتي تسجِّلها

كـلُّ صحائف النّـاس يوم القيامة بمنزلة كتاب واحدٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (دعا).

حفظة الملائكة، وهو المذكور في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: 19]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: 25]، وهذا الرَّأي ذهب إليه جمهور المفسِّرين، وعلى هذا التَّأويل يكون إفراد لفظ الكتاب على إرادة الجنس، أي: جنس الكتاب[1]، وتَكونُ إضافتُهُ إلَى ضَميرِ الأُمَّةِ عَلى إرادَةِ التَّوزيعِ عَلى الأفرادِ؛ لأنَّ لكُلِّ واحِدٍ مِن كُلِّ أُمَّةٍ صحيفةَ عَمَلِهِ تختصُّ به، فالعموم المستفاد من الجنس بدليٌّ، أي: كلُّ فردٍ يُدعى إلى كتابِه، ثمَّ يأتي فرد آخر وهكذا[2]، والنُّكتة في الإفراد دون أن يقال: (كلُّ أمَّة تُدعى إلى كُتُبها) هو بيانُ أنَّ كلَّ الصَّحائف بمنزلة كتاب واحدٍ عند الله تعالى في الحفظ وسرعة الحساب، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿كِتَٰبِهَا﴾ الكتابَ، الَّذي دُعيت كلُّ أمَّة إليه في الدُّنيا، من نحو القرآن والتَّوراة والإنجيل؛ ليُقارَن بين ما دعا عليه الكتاب، وبين أعمالِهم، فيُجزَون على وفق ما التزموا فيه من الأوامر والنَّواهي في كتابِهم[3].

سببُ تنوُّع الإضافة في قولِه: ﴿كِتَٰبِهَا﴾ و﴿كِتَٰبُنَا﴾:

إن قيل: كيف أضاف الكتاب إلى الأمَّة في قولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، ثمَّ أضافه إليه تعالى في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؟ فما هو نوع الإضافة؟ وما سبب تنوُّعها؟ والجوابُ هو أنَّ الإضافة في اللَّفظين لأدنى ملابسة وأدقِّها؛ أمّا ملابسة الكتاب إيّاهم؛ فلأنَّ أعمالهم مثبتة فيه، فأُضيف الكتاب إليهم؛ لأنَّ كلَّ فردٍ له كتابٌ خاصٌّ به تُسجَّل فيه الأعمال، أو لأنَّ كلَّ أمَّة لها كتاب منزَّل عليها مختصٌّ بها، فصحَّت الملابسة، وأمّا ملابسة الكتاب لله تعالى؛ فلأنَّه مالك الكتاب الَّذي تُسجَّل فيه الأعمال، وهو تعالى الآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده، فمعنى كتابهم أنَّهُ الكِتابُ المُشتَمِلُ عَلى أعمالِهِم، ومعنى كِتابِ اللّه أنَّهُ مالكه، وأنَّه هوَ الَّذي أمَرَ المَلائِكَةَ بِكَتْبِهِ[4]، وقد يقال: إنَّ الإضافة في قولِه: ﴿كِتَٰبِهَا﴾ على معنى الاختصاص، فتدلُّ على معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ [الإسراء: 13]، والمعنى: كلُّ أمَّةٍ تُدعى إلى كتابها الذي هو لها، وتُدعى إلى ما يختصُّ بها من

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 367.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 231، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 188، وأبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 368، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 109.

(4) الإسكافيّ درّة التّنزيل وغرة التّأويل: 1/ 1117، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 681.

كلُّ فردٍ له كتابه الخاصُّ به يوم القيامة، ومالك الكتاب هو الله تعالى

الأعمال صالحها وسيِّئها[1]، بمعنى أنَّ لكلِّ فردٍ كتابَه الخاصَّ به، فيكون جزاؤه على وفق أعمالِه، وأمّا إضافة الكتاب إلى الله تعالى في قولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؛ فعلى معنى المُلك، بمعنى: أنَّ الكتاب ملكه تعالى، وهو الَّذي يتصرَّف فيه، ولهذا جعله ناطقًا يبيِّن ما فيه، ويفصِح عنه.

مناسبةُ الفصل في قولِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

الجزاء يوم القيامة على وفق الأعمال والكتاب المنزَّل من أفعال الحسنات والسَّيِّئات

لم تعطف هذه الجملة على ما سبقها، وجاءت على طريق الفصل؛ لكمال الاتِّصال بها؛ لأنَّها بدل اشتمالٍ من جملة: ﴿تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بتقدير قولٍ محذوف، أي: يُقال لهم: اليوم تُجزَونَ على وفق أعمالِكم، وعلى ما يوافق كتاب دينكم من أفعالِكم الحسنات والسَّيِّئات[2]، وعلى هذا التَّوجيه يكون سبب حذف الفعل (يقال لهم) هو المفاجأة في المقول المناسب لمقام التَّهويل في ذلك اليوم.

ويحتمل أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا؛ لتكون جوابًا لسؤالٍ مقدَّر يقتضيه السّياق، فكأنَّه قيل: لمَ تُدعى كلُّ أمَّة إلى كتابِها في ذلك اليوم؟ فكان الجواب: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3]، وإذا كانت الجملة استئنافًا بيانيًّا؛ كان الكلام على الالتفات؛ إذ كان الظّاهر أن يقال: اليوم يُجزون ما كانوا يعملون؛ ليكون على مساق التَّعبير بأسلوب الغيبة في الآية، لكنَّه عدل إلى الخطاب، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

والنُّكتة في العدول إلى الالتفات الإشعارُ بأنَّ الحساب يكون على سبيل المواجهة والمخاطبة؛ لِيفيد الخطابُ المبالغة في التَّنديم والتَّوبيخ للكافرين والفرح والسُّرور للمؤمنين.

---

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 258.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 681، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 252.

وعلى القولِ بأنَّ الجملة استئنافٌ بيانيٌّ يكون سببُ مجيء الجملتين في الآية، بطريق الاستئناف البيانيِّ بيانَ هولِ الموقف وعظمتِه لشمولِه جميع الخلائق، ممّا يستدعي من المتلقّي السُّؤال عن سببِ كلِّ حدثٍ.

براعةُ موقعِ الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في النَّظم:

يوم تقوم السّاعة هو يوم العدل الأكبر

جاء ظرف الزَّمان ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في صدر جملة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فقدِّم على عاملِه لإفادة الحصر، بمعنى اليوم، وليس في أيِّ وقتٍ آخر تُجزون ما كنتم تعملون، ففيه تبكيت للكافرين بقطع ما قد يرجونه من تأخير الجزاء، وبشارةٌ للمؤمنين بسرعة حصولِهم على المكافأة، ولمّا كانت (الـ) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للعهد الحضوريِّ؛ كان المعنى هذا اليوم، أي: يوم تقوم السّاعة، وهو يوم الجزاء، ومن فوائد ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ التَّنويه بعظم هذا اليوم، وأنَّه يوم العدل والجزاء على أعمالِكم.

نكتة اختيار مفردة ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾؛ للإيذانِ بالمقابلة على الأعمال يوم تقوم السّاعة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾:

عبَّر بصيغة الفعل المبني للمفعول في قولِه: ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾؛ لأنَّه ليس المقصود بيان الَّذي يجزي، وإنَّما بيان من يُجزى.

بلاغةُ إيقاعِ فعل الجزاء على ﴿مَا﴾:

المكافئ على الأعمال مطابق تمامًا، فلا زيادة ولا نقصان في الجزاء

لمّا قال تعالى: ﴿تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أوقع فعل الجزاء على الاسم الموصول ﴿مَا﴾، مع أنَّ الجزاء لا يكون نفسَ العمل الَّذي عمل في الدُّنيا، بل يكون مكافئًا له؛ لأنَّ مفهوم الجزاء يفيد أن يكون المجزيُّ مكافئًا للعمل، وليس نفس العمل، فإنَّ فعلَ الجزاء إن تعدَّى بنفسِه؛ كان المراد من الجزاء العوض المقابل المجعول جزاءً، وإن تعدَّى بحرف الباء؛

كان المراد هو العمل المجزيَّ عليه بدلالة الباء التي للمقابلة، والنُّكتة في إيقاع فعل الجزاء على نفس الفعل المجزيِّ عليه، أي: على ﴿مَا﴾ هو بيان أنَّ المكافئ مطابق تمامًا لِما عُمِل، ففيه تصوير للعدل المطلق ذلك اليوم، فكأنَّ العمل يُتصوَّر بصورة الجزاء.

دلالةُ العمومِ في الاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته:

أفاد الاسم الموصول ﴿مَا﴾ العموم، بمعنى: أنَّ الجزاء يكون على وفق الأعمال، الَّتي كانت في الدُّنيا، وأنَّه ما من عملٍ إلّا ويُجزى عليه، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، وعبَّر بتركيب ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارة إلى تنوُّع أعمالِكم الَّتي قدَّمتموها، وتكرُّرها منكم، وإلى أنَّكم كنتم تعملونها عمدًا حتَّى صارت جبلًّا وطبعًا لكم، وفي التَّعبير بهذا التَّركيب إشارة إلى أنَّه لا أحدَ يُؤاخذ بما عمل غيره، ولا بما أخطأ فيه، أو تاب منه.

سرُّ اختيارِ العمل دون الكسب:

يعلمُ الله تعالى كلَّ عمل يعمله النّاس، وكلَّ ما كتب من الأعمال في الصَّحائف

عبَّر بـ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دون تكسبون؛ لخَصوصيَّة لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ المناسب للسّياق، وبيانه أنَّه لمّا ذكر الكتاب في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الَّذي يفيد أنَّ كلَّ عملٍ مكتوبٌ في الكتاب؛ ناسب أن يعبِّر بالعمل؛ للإشعار بأنَّه تعالى يعلم كلَّ ما هو مكتوب، وبأنَّ هذه الأعمال قد ثبتت في الكتاب، كما يثبت أثر الشَّيء؛ لأنَّ العمل هو إيجاد الأثر في الشَّيء[1]، كما أفاد التَّنبيه إلى أنَّ كلَّ عملٍ مكتوب هو ما كان بقصد منكم إليه؛ لأنَّ العمل ما كان بقصد[2]، كما أنَّه لمّا كان الكلام عن المؤمنين والكافرين؛ ناسب التَّعبير بلفظ يشملهم، فقال: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهو العائد إلى الاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ لتقرير عموم ﴿مَا﴾؛ ليشمل كلَّ ما يُسمّى عملًا، ولرعاية الفاصلة.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ليس للنّاس يوم القيامة إلّا الإذعان للجزاء ولا سبيل للكافرين إلى الإنكار

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ كلَّ أمَّة تُدعى إلى كتابها لأجل عرض الأعمال عليها وجزائِها على ما كانوا يعملون؛ بيَّن أنَّه لا يمكن للنّاس إلّا الإذعان للجزاء ولاسبيل إلى الإنكار، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الآيةَ.

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ الجزاء يوم القيامة على جميع الأعمال؛ بيَّن طريقة إخبار النّاس بما كانوا يعملون في الدُّنيا وطريقة إحصاء أعمالِهم جميعًا وإثباتِها عليهم، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الآيةَ.

وأيضًا على القول بأنَّ المراد من الكتاب في الآية: الكتاب المنزَّل من اللّه تعالى إلى النّاس؛ يقال في وجه المناسبة: لمّا أخبر اللّه تعالى بالجزاء؛ بيَّن كيفيَّة ما به يُطبَّق بين كتاب الإنزال وكتاب الأعمال، فما حكم به كتاب الإنزال؛ أنفذه الكبير المتعال، فقال مشيرًا إلى كتاب الإنزال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنطِقُ﴾: أصلُ (نطق) يدلُّ على كلام أو ما أشبَهَه[2]، ومنه النُّطقُ: التَّكَلُّمُ بصوتٍ، يُقالُ: نطَقَ، ينطِقُ، نُطقًا ونَطْقًا، فهو ناطِقٌ، أي: تكلَّم بصوتٍ وحرفٍ، وضِدُّ النُّطقِ: الصَّمْتُ والسُّكوتُ، والـمَنطِقُ: الكَلامُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 105.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطق).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (نطق).

2) ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾: أصلُ (نسخ) يدلُّ على رَفْعِ شيءٍ وإثباتِ غيره مكانه، يُقالُ: نسخَ الشَّيءَ ينسَخُه نَسْخًا، فهو ناسخٌ؛ إذا رفعه، وثَبَتَ مكانه، وكلُّ شيءٍ خَلَفَ شيئًا؛ فقد نَسَخَه، وانتَسَخَه[1]، ويأتي النَّسخُ بمعنى الإزالةِ، تقولُ: نَسَخَتِ الرِّيحُ الأثَرَ، أي: أزالته، ونسخ اللّهُ الآيةَ؛ إذا أزال حُكمها[2]، ويأتي بمعنى: النَّقْل، كقولكَ: نسختُ الكتابَ؛ إذا نقلته حرفًا بحرفٍ، والنُّسخَةُ: الكتابُ المنقولُ، والتَّناسُخُ: الانتقالُ، والاستنساخُ: طَلَبُ النَّسْخِ[3]، وأمّا النَّسخُ في الآية؛ فمُرادٌ به: الكِتابةُ، أي: إثبات الكتابة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الاستئناف في الآية:

كتابةُ الأعمال في الصَّحائف دليل شاهد على النّاس يوم القيامة

جاءت جملة: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ على طريق الفصل مستأنفة استئنافًا بيانيًّا[4]، فكأنَّ سائلًا يسأل: ما هو طريق إثبات الأعمال على النّاس يوم الحشرِ، فجاء الجواب بقولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارة للقريب:

التَّعبيرُ باسم الإشارة القريب يفيد قرب الكتاب منهم لينطق عليهم بالحقِّ

عبَّر باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾ المشار به إلى كتاب الأعمال؛ للتَّنبيه إلى قرب الكتاب منهم وحضورِهم عنده حين ينطق عليهم بالحقِّ، وجاء اسم الإشارة مفردًا؛ لأنَّ المراد جنس الكتاب - كما تقدَّم - فهو مفردٌ لفظًا، وإن كان متعدِّدًا من حيث المعنى، وإفرادُ ضَمير ﴿يَنطِقُ﴾ عَلى هَذا الوَجهِ مُراعاةً للَفظِ ﴿كِتَٰبُنَا﴾، فالمَعنَى هَذِهِ كُتُبُنا تَنْطِقُ عَليكُم بالحَقِّ، ويحتمل أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى كتاب شريعة الأمَّة المدعوَّة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (نسخ).
(2) المناوي، التّوقيف على مهمات التّعاريف، ص: 697.
(3) الرّاغب، المفردات: (نسخ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 441، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

فائدةُ الإضافة إلى ضمير العظمة:

كلُّ ما ثبت في كتاب الأعمال صِدقٌ وحقٌّ وعدلٌ

إضافة الكتاب إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿كِتَٰبُنَا﴾ تفخيمٌ لشأنِ الكتاب وتهويلٌ لأمره[1]، وللإشارة إلى أنَّ كلَّ ما ثبت في الكتابِ صدقٌ وحقٌّ وعدل، فإنَّ مقتضى عظمة الكتاب وإضافته إلى اللّه تعالى ألّا يكون فيه إلّا الحقُّ، ولذلك عقب بقوله: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾، كما تفيد الإضافة أنَّه لا يغفل شيئًا، بمعنى أنَّه تعالى يجازي النّاس على القليل والكثير[2].

التَّوجيه الإعرابيُّ ودلالاته لقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾:

تنوُّعُ الإعراب يدلُّ على تنوُّع المعنى وتوسُّعه

يحتمل أن تكون الجملة الفعليَّة: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ في مَوضِع نصبٍ على الحالِ من خبر المبتدأ ﴿كِتَٰبُنَا﴾، أو من المبتدأ ﴿هَٰذَا﴾، والمعنى هذا كتابنا حالَ كونِه ينطق عليكم بالحقِّ، بمعنى: اقتران نطق الكتاب بحضورِه وقربِه من المخاطَبين، ويحتمل أن تكون الجملة الفعليَّة خبرًا ثانيًا لـ﴿هَٰذَا﴾، فيكون قد أخبر عن اسم الإشارة بأنَّه كتاب عظيم قد جمع أعمالكم، وبأنَّه ينطق عليكم بالحقِّ، فيكون قد أخبر بخبرين؛ تعظيمًا للأمر في ذلك اليوم، ويجوز أن يكون ﴿كِتَٰبُنَا﴾ بَدلًا من ﴿هَٰذَا﴾، والجملة الفعليَّة: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ هي خبر المبتدأ، فيكون قد أخبر عن المسند إليه بالجملة الفعليَّة؛ لتقوية الحكم وتقريره، بمعنى ليس من كتابٍ ينطق عليكم بالحقِّ إلّا كتابنا هذا[3].

بلاغةُ الإسنادِ في قوله: ﴿يَنطِقُ﴾ بين الاستعارة والمجاز العقلي:

يوم الجزاء هو اليوم الَّذي يَفتضِحُ فيه الظّالمون، ويفرح فيه المؤمنون

إن كان المراد من النُّطق في قولِه تعالى: ﴿يَنطِقُ﴾ معنى الدَّلالة؛ فيكون الفعل ﴿يَنطِقُ﴾ مستعارًا استعارة تبعيَّة[4]؛ لأنَّ الكتاب غير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74.
(2) الطّيبي، حاشية على الكشّاف: 14/ 258.
(3) مكّي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 2/ 663، والعكبري، التّبيان: 2/ 1153.
(4) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: شاكر، ص: 51، والسّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 381، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 441.

ناطقٍ، وإنَّما يكون النُّطق من الإنسان[1]، وقرينة الاستعارة إسناد النُّطق إلى الكتاب، وبيان الاستعارة في الآية: أنَّه شبَّه الكتاب - الذي هو مقروءٌ - بالإنسان الَّذي ينطق، فيفصِح عمّا في نفسِه، أو يقال: شبَّه الكتاب بمن يصدر عنه البيان، فالكتاب يعرب عمّا فيه، كما يعرب النّاطق المحقُّ، فالجامع بينهما هو البيان والإيضاح بما لا يقبل الشَّكَّ واللَّبسَ، أو يقال: شبَّه الكتاب بشاهد يدلي بشاهدته، ويشهد بالحقِّ، وقد حذف المشبَّه به، واستعار له شيئًا من لوازمه، وهو النُّطق، فقال: ﴿يَنطِقُ﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة، فصار الكتابُ ناطقًا مجازًا، ومن فَهِمَ من شيء معنًى؛ فذلك الشَّيء بالإضافة إليه ناطِقٌ، وإن كان صامتًا، فالمراد من إسناد النُّطق إلى الكتاب إيضاح ما في الكتاب وبيانه، كما يقال: نطق الكتاب بكذا، ونطق التَّنزيل بكذا، أي: بيَّنه بيانًا شافيًا واضحًا لا لبسَ فيه حتى كأنَّه ينطق[2]، وسبب العدول إلى الاستعارة هو أنَّه لمّا كان النَّطق يقتضي سمعًا، وكان المسموع يسمعه كلُّ من هو حاضرٌ عبَّر بقولِه: ﴿يَنطِقُ﴾؛ للإيذان بأنَّ الكتاب يشهد عليكم بما لا مجالَ للإنكارِ أو الشَّكِّ، وأنَّ ما في الكتاب يعلمه أهل المحشر، ولا ينفرد به صاحب الكتاب الَّذي تُقرأ عليه الأعمال، فهو اليوم الذي يَفتضِحُ فيه أهل المعاصي والظّالمون، ويفرح فيه المؤمنون والمتَّقون.

وإن كان المرادُ من النُّطق الحقيقة؛ فيكون إسناد النُّطق إلى الكتاب مجازًا عقليًّا؛ لأنَّه إنَّما تنطق بما في الكتاب ملائكةُ الحساب[3]، وجمهور المفسِّرين والبلاغيّين على أنَّ الكلام على الاستعارة.

نكتةُ استعمالِ مفردة النُّطق دون الكلام:

عبَّر بلفظ النُّطق في قولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ دون أن يُعبِّر بلفظ الكلام؛ لأنَّ حقيقة النُّطق هو اللَّفظُ الَّذي هو كالنِّطاق للمعنى في ضَمِّه وحَصْره[4]، ويُعبَّر به عن بيان المعنى بأوضح شيءٍ وأبلغِه، ويدلُّ كذلك على ثبات المعنى وقصدِه؛ لأنَّ النُّطق في الأصلِ هو العقل المدرِك[5]، وأمّا

(1) الرّاغب، المفردات: (نطق).

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 152.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 368.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 81.

(5) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نطق).

الكلام؛ فقد يكون مفهومًا، وقد لا يُفهَمُ، فالنُّطق أخصُّ من الكلامِ، ومن التَّعبير بالنُّطق دون الكلام في الدَّلالة على قوَّة المعنى ووضوحِه قول العرب: هو منطيق، أي: بليغ، وقولهم: كتاب ناطقٌ، أي: واضحٌ بيِّن[1]، وقولهم: نطقت الحال، أي: بيَّنت، وأظهرت الدَّلالة المقصودة، ولم يقولوا: تكلَّمت الحال، فكان التَّعبير عن عرض الأعمال يوم القيامة بقولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ أقضى لحقِّ البلاغة؛ لدلالتِه على تبيين المعنى وإيضاحِه بما لا لبسَ فيه، ولهذا أخبر اللّٰه تعالى عن سليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: 16]، ولم يقل: عُلِّمنا كلامَ الطَّير؛ لأنَّ المراد فهْمُ معنى أصواتِها بأبلغ فهْمٍ وأوضحِه، ولم يكن المقصود تعلُّم كلام الطَّير، فلم يكن سليمان عليه السلام يتكلَّم كلام الطَّير، فلكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقام.

النُّطق أخصُّ من الكلامِ؛ لأنَّه لا يُستعمل إلّا في إيضاح المعنى وإفهامه

بلاغةُ التَّضمين في فعل ﴿يَنطِقُ﴾:

لمّا كان الفعل ﴿يَنطِقُ﴾ يتعدّى بالباء، فيقال: ينطق بكذا لتضمُّنه معنى الصُّدور؛ كانت تعدية الفعل بـ(عَلى) في قولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ مؤذنةً بتضمين الفعل معنى يشهد، ويقضي، فكأنَّ المعنى يدلُّ، ويشهد، ويقضي عليكم بالحقِّ، فضمَّن الفعل معنى ثلاثة أفعالٍ، وهذا من لطائف بلاغة القرآن، ففي تضمين الفعل معنى (يشهد، ويقضي)، إشارة لطيفة إلى أنَّ النّاس يوم القيامة حين ينطق عليهم الكتاب ليس لهم إلّا الاستماع والإصغاء، وليس لهم الرَّدُّ على الكتاب ومناقشته، بمعنى لا ترديد في النُّطق مع المخاطَبين، فهو مثل نطق الحاكم بالحكم، فيكون هذا الوجه من المعنى مقرِّرًا لنكتة العدول إلى النُّطق دون الكلام، فإنَّ الكلامَ قد يكون فيه أخْذٌ وردٌّ بمعنى أنَّه قد يكون فيه ترديد بين المخاطَبين، والنُّطق ليس كذلك.

كتابُ الأعمال ينطق، ويشهد بالحقِّ على صاحبه يوم القيامة

---
(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (نطق).

حرفُ الاستعلاءِ فيه معاني التَّسلُّط والقهر

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء (عَلَى):

يشير مجيء حرف الجرِّ (عَلَى) في قولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ إلى أنَّ الكتابَ ينطق من علوٍّ؛ لأنَّه حقٌّ[1]، وهو المناسب لمقام التَّعظيم في قوله: ﴿كِتَٰبُنَا﴾، فلمّا كان المقام مقامَ تهديد ووعيد للكافرين المنكرين للبعثِ والحساب، ويؤذن به الإخبار عن جثوِّ الأمم ودعوتها إلى كتابها، وأنَّ اليوم يوم الجزاء اقتُصِرَ فيه على تعديةِ ﴿يَنطِقُ﴾ بحرف (عَلَى).

الكتابُ ينطق بجميع الأعمال يوم القيامة صغيرِها وكبيرِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَنطِقُ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿يَنطِقُ﴾؛ للإشعار بتكرُّر النُّطق وتواليه، بمعنى عَرْضِ جميع الأعمال، وفيه تصوير للحالة، وتعجيب ممّا يقع في ذلك اليوم المهيب.

نوع الباء ودلالتها ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، بمعنى أنَّ نطق الكتاب ملتبس بالحقِّ، فكلُّ ما ينطق الكتابُ به هو حقٌّ.

التَّوجيهُ الإعرابي لقولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾ العائد إلى الكتاب؛ ليفيد أنَّ الحقَّ مقترن بنطق الكتاب لا ينفكُّ عنه؛ ليفيد بلازمِه حقّيَّة الكتاب وحقّيَّة نطقه.

يوم القيامة هو اليوم المناسب للجزاء ولنطق الكتابِ ولا يومَ غيرُه يؤدّي هذا الغرض

علَّةُ استعمالِ الحقِّ دون الصِّدقِ:

لمّا كان لفظ الحقِّ بمعنى الثّابت الَّذي لا يُسوَّغ إنكاره من قولهم: حقَّ الشَّيءُ يحِقُّ؛ إذا ثبت، ووجب، ويكون في الأقوال والأفعال والمعتقدات، فيعمُّ الأعمال كلَّها، وأمّا الصِّدق؛ فهو في الأصل خاصٌّ بالأقوال[2]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ عبَّر بالحقِّ دون الصِّدق؛ للإشعار بأنَّ ما ينطق به

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 253.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حق).

الكتاب لا يمكن إنكاره، وأنَّ ما يشهد عليكم من أعمالِكم لازيادةَ فيه ولا نقصانَ، كما أنَّه لمّا كان الحقُّ أعمَّ من الصِّدق من حيث إنَّ الحقَّ هو وقوع الشَّيءِ في موقعِه الَّذي هو أولى به، والصِّدق هو الإخبار عن الشَّيءِ على ما هو به؛ أفاد أنَّ نطق الكتاب بالأعمالِ في ذلك اليوم وقع موقعه الَّذي هو أولى به، ولهذا صُدِّر الجزاء بلفظ اليوم في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: هذا اليوم هو اليوم المناسب للجزاء ولنطق الكتاب، ولا يوم غيره يؤدّي هذا الغرض.

مناسبةُ الفصل قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ﴾:

كـلُّ مـا يعمله العباد مسجَّلٌ ومثبَّتٌ عليهم في الكتابِ

جاءت جملة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لتفيد التَّعليلَ لنطق الكتابِ عليهم بأعمالِهم من غير إخلالٍ بشيء منها[1]، ففي الاستئناف البيانيِّ إجابة عمّا يخطر بالبال من سؤال، فيقال: ومن يحفظ أعمالَنا على كثرتها مع طولِ المدَّةِ وبعدِ العهد؟ فأجيبوا بهذا الجواب[2]، وفيه دفْعٌ للتَّعجُّب من أن يكون في الكتاب كلُّ الأعمالِ[3]، أي: إنَّما ينطق الكتاب عليكم بالحقِّ من غير زيادة ولا نقصان في ما عملتم؛ لأنّا كُنّا نستكتبُ الملائكةَ ما كُنتُم تَعمَلونَ في الدُّنيا منَ الأعمالِ حسنةً كانت أو سيئة، فلا تعجبوا، ولا تستغربوا، وفي التَّعليل تنبيهٌ للمخاطَبين ومن هم في هذه الدُّنيا بأنَّ كلَّ ما يعملون مسجَّل، ومثبَّت عليهم في الكتاب، وفي هذا تهديدٌ للعصاة والظّالمين، وتأنيسٌ من الحيف والظُّلم للمطيعين والمؤمنين، وإن حُملَ الكِتابُ عَلى كُتُبِ الشَّريعَة؛ كانَت جُملَةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلًا لِلجُملَةِ قَبلَها باعتِبارِ تَقييدِ النُّطق بِأنَّهُ بِالحَقِّ، أي: لأنَّ أعمالَكُم كانَتْ مُحْصاةً، مُبَيَّنٌ ما هوَ مِنها مُخالِفٌ لِما أمَرَ بِهِ كِتابُهُم[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 74.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 163.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 253.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 369.

بلاغةُ تركيب ﴿كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾:

تكرُّرُ الكتابة في صحائف الأعمال واستمرارُها باستمرار أعمالِ العبادِ وتجدُّدها

عبَّر بتركيب: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾؛ لِما يفيده التَّركيب من معنى تكرُّر الكتابة واستمرارِها باستمرار أعمالِ العبادِ وتجدُّدها، فيفيد التَّركيب دوام الكتابة في الدُّنيا، والمعنى: كنّا على الدَّوام نستنسخ ما كنتم تعملون، ولو قيل: (إنّا نسخنا)؛ لَمَا أفاد هذا المعنى؛ لِما يفيده الفعل الماضي من الدَّلالة على وقوع الكتابة مرَّة واحدةً.

دلالةُ السّين والتّاء في ﴿نَسْتَنسِخُ﴾:

الملائكة مأمورون بنسخ الأعمال وإثباتِها في الصَّحائف

السّين والتّاء في قوله: ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ بمعنى الطَّلب، والمعنى: نطلبُ نسْخَ ما تعملون بمعنى كتبِه وإثباتِه عليكم، والمراد نأمرُ الملائكة بنسخ أعمالِكم وإثباتِها في الصَّحائف[1]، ويحتمل أن تكون السّين والتّاء للمبالغة في نسخِ الأعمال وتثبيتِها؛ لأنَّ نَسَختُ، واستنسختُ بمعنى، مثل: عَجِبتُ، واستَعجَبتُ، وليس من فرقٍ في المعنى بين اللَّفظين إلّا معنى المبالغة، فعُبِّرَ بلفظ ﴿نَسْتَنسِخُ﴾، وإن كان أصلُ النَّسخ أن يكون الخطُّ منقولًا عن أصلٍ، ولكن قد يُستعمَلُ لابتداء النَّسخ بقصد أنَّه قد ثبت، فالمعنى: إنّا كنا نقيِّدُ كلَّ ما عملتم، ونثبِّته[2]، ويحتمل كذلك أن يكون ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ بمعنى: نأخذ نسخته، وذَلِكَ أنَّ الملكين يرفعان عمل الإنسان، فيثبت الله مِنهُ ما كانَ لَهُ فيهِ ثَوابٌ أو عِقابٌ، ويَطرحُ مِنهُ اللَّغْوَ من الكلام، وعلى وفق ما تقدَّم، فليس المراد من ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ النَّقلَ من اللَّوح المحفوظ، وإن ذكر هذا الرَّأي بعض المفسِّرين[3].

بلاغةُ المجاز العقلي في ﴿نَسْتَنسِخُ﴾:

كلُّ ما تكتبه الملائكة في صحائف الأعمال هو بعلم الله تعالى

إسناد الفعل ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ إلى ضمير العظمة، أي: إلى الله تعالى مجاز عقليٌّ علاقتُه السَّببيَّة؛ لأنَّ الله أمرَ الحفظة بكتابة الأعمال

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 152، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 189.

(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 13/ 364، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 89.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2820.

وتثبيتِها[1]، ونكتةُ التَّعبير بالمجاز العقلي الإشعار بأنَّ كلَّ ما يكتبونه هو بعلم اللّه تعالى، كما أنَّ فيه زيادة في التَّهديد وتربيةً للعصاة، فإنَّ المرتكب للمعاصي؛ إذا علمَ أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي يكتب أعمالَهُ، يركبه الحياء والخوف والوجل؛ فلا يعمل المعصية.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته:

أفاد الاسم الموصول ﴿مَا﴾ العموم، بمعنى: أنَّه تعالى يستنسخ جميع الأعمال الَّتي كانت في الدُّنيا صغيرها وكبيرها، وعبَّر بتركيب: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارة إلى تكرُّر أعمالِكم واستمرارِها في الدُّنيا، وإلى أنَّكم كنتم تعملون الأعمال عن عمدٍ حتَّى صرتم مطبوعين عليها.

سرُّ اختيارِ العمل دون الكسب:

تُستعمل لفظة العمل فيما كان مقصودًا وممتدًّا زمانه

عبَّر بـ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دون تكسبون؛ لخَصوصيَّة لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ المناسب للسّياق؛ لأنَّ لفظ العمل مشعر بالعلم بهذا العمل؛ ليفيد أنَّه تعالى يعلم جميع ما يُكتب في الكتاب كما أنَّ في اللَّفظ إيماءً إلى أنَّ ما يُكتب هو الَّذي يكون عن قصدٍ، ولمّا كان الكلام يشمل المؤمنين والكافرين؛ عبَّر بلفظ يتناول الفريقين، فقال: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دون أن يقال: (كنتم تكسبون).

نكتةُ حذف مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

إنــزالُ الفعل المتعدّي منزلة الفعل الـلّازم للتَّعميم

حُذِفَ مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهو العائد إلى الاسم الموصول ﴿مَا﴾، وأصل الكلام ما كنتم تعملونه، وإنَّما حذف المفعول؛ لتقرير عموم ﴿مَا﴾، فيشمل اللَّفظ جميع الأعمال جليلها وحقيرها، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلةِ.

براعةُ الجناس التّام بين الفاصلتين:

من لطائف الجناس في هذه الآية مع الَّتي قبلها ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 370.

كتابة الأعمال في الصّحائف على وفق الواقع، والجزاء على وفق ما هو مكتوب

﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هو الجناس في التَّركيب الموصولي: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، واللَّفظ واحدٌ، والمعنى يختلف، ففي الآية السّابقة تعلَّق الموصول وصلته بالفعل ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾، فدلَّ على أنَّ الجزاء لجميع الأعمال الَّتي كُتبت في الكتاب، وفي هذه الآية تعلَّق الموصول وصلته بالفعل ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾، فدلَّ على استنساخ الأعمال الَّتي كانت في الدُّنيا، والنُّكتة في الجناس بيان عدل الله تعالى في القضاء بين العباد، فالتَّركيب الأوَّل يفيد أنَّ الجزاء على وفق المكتوب، والتَّركيب الثّاني يفيد أنَّ الكتابة على وفق الواقع، فلا ظلمَ في الكتابة، ولا ظلمَ في الجزاء.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النُّطق والكلام:

النُّطق توصف به المخلوقات، ولا يوصف به الله تعالى، والكلام يوصف به الله تعالى كما يوصف به العباد

تقدَّم أنَّ النُّطق هو اللَّفظُ الَّذي هو كالنِّطاق للمعنى في ضَمِّه وحَصْره[1]، والفرق بينه وبين الكلام أنَّ النُّطق إذا أُطلِق؛ فيكون المراد التَّعبير عن المعنى بأوضحِ طريقةٍ وأبلغِها، والنُّطق يوصف به المخلوقات، ولا يوصف به الله تعالى؛ لأنَّ النُّطق في الأصلِ هو العقل المدرك[2]، وأمّا الكلام إذا أُطلِق؛ فقد يكون مفهومًا، وقد لا يُفهَمُ، فالنُّطق أخصُّ من الكلامِ؛ لأنَّ النُّطق لا يُستعمل إلّا في ما كان بيِّن الدَّلالة، ومنه قول العرب: هو منطيق، أي: بليغ، وقولهم: كتاب ناطقٌ، أي: واضحٌ بيِّن[3]، وقولهم: نطقت الحال، أي: بيَّنت، وأظهرت الدَّلالة المقصودة، ولم يقولوا: تكلَّمت الحال، فأوثر لفظ: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ دون أن يقال: (يتكلَّم)؛ لأنَّ المرادَ ينطق بأوضح معنى بحيث لا سبيل إلى المراجعة والمناقشة.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 81.
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نطق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (نطق).

الاستنساخ والكتابة:

الاستنساخ نقل صورة الشَّيء من غير زيادة ولا نقصان، والكتابة أعمُّ من الاستنساخ

أصل النَّسخ يدلُّ على النَّقل والتَّحويل، ومنه نسخ الكتاب، وهو نقل صورتِه المجرَّدة إلى كتاب آخر؛ وذلك لا يقتضي إزالة الصّورة الأولى بل يقتضي إثباتَ مثلها في مادَّةٍ أُخرى، فالنَّسخ: هو اكتتابك كتابًا عن كتاب حرفًا بحرفٍ[1]، ونسْخُ الأعمال بمعنى كتابتها، أي: نقل صورة العمل وتحويله إلى كتابةٍ حرفًا بحرفٍ من غير زيادةٍ ولا نقصان، وأمّا الكتابة؛ فهي ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، والكتابة تكون ابتداءً، ولا تقتضي نقلًا من موضعٍ إلى موضعٍ آخر، كما في النَّسخ، ونكتة التَّعبير بلفظ ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾ دون أن يقال: نكتب هو أنَّه لمّا كان العمل على شكلِ صورةٍ، وهو حدث غير ثابت؛ كانت كتابته تفيد أنَّه قد نسخ، ونقل من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، ومن موضعٍ إلى موضعٍ آخر، بمعنى نقل صورةِ العملِ إلى كتابة ثابتة في الصُّحف، ويكون النَّقل من غير زيادة ولانقصان، فيكون طبق الأصل، وليس من لفظٍ يؤدّي هذا المعنى في النَّظم سوى لفظ ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نسخ).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾ [الجاثية: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تفصيلُ المجمل في بيان حالِ المؤمنين والكافرين بعد عرض الأعمال

لمّا صرَّح بالمبطلين حسب ما اقتضاه الحال - كما تقدَّم - وأشار إلى المحقِّين؛ صرَّح بما لوَّح إليه من أمر المحقِّين، وعطف عليهم أضدادَهم، فقال بادئًا بهم على طريق النَّشرِ المشوَّش مفصِّلًا لما يكون إليه مآل الفريقين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ الآيتين[1]، وأيضًا لمّا أجمل ما يكون إليه حال المؤمنين والكافرين في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وبيَّن أنَّ أعمال الفريقين مثبَّتة في الكتاب بما ينطوي عليه من الوعد والوعيد؛ فصَّل هذا المجمل، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ الآيتين[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾: أصلُ (دخل) يدلُّ على الوُلوجِ والنُّفوذ في الشَّيءِ، يُقالُ: ولَجَ البيتَ، ووَلَجَ فيه، أي: دَخَلَه، وضدُّه: الخُروج، ويأتي الدُّخولُ بمعنى الابتداءِ، تقولُ: دَخَلَ في الأمْرِ؛ إذا بدأ، وأخَذَ فيه، وداخِلُ كُلِّ شيءٍ: باطِنُه، ومنه داخِلَةُ الرَّجُلِ، أي: بطانَتُه، والمَدْخَلُ: مكانُ الدُّخول، ومن معاني الدُّخول في اللُّغة أيضًا: الورودُ والاختِلاطُ والاقتِحامُ، والمقصود بالدُّخول في الآية: نَقيضُ الخُروجِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 106 - 107.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 75.

2) ﴿رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: أصلُ (رحم) يدلُّ على الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفة، يُقالُ مِن ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إذا رَقَّ له، وتَعطَّفَ عليه[1]، والرَّحْمَةُ: اسمُ مَصدَرٍ لِصِفَةِ الرّاحِمِ، وهيَ مِن صِفاتِ الإنسانِ، فهي رِقَّةٌ في النَّفْس تبعثُ على سَوْقِ الخير لمن تتعدَّى إليه[2]، وإذا وُصِف به الباري ﷻ؛ فليس يراد به إلّا الإحسان المجرَّد دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمة من الله إنعامٌ وإفضالٌ، ومِن الآدميِّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[3]، والرَّحمَةُ أيضًا: القرآن[4]، والمَغفِرَةُ[5]، والنُّبوَّة[6]، والمراد بالرَّحمة في الآية: الجنَّة، وهو لفظٌ شاملٌ لما تَتصوَّرُه النَّفْس من أنواع الكرامةِ والنَّعيم؛ إذ جُعِلَتْ رحمةُ الله سبحانه بمنزلة المكانِ يدخُلونَهُ[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

في الآخرة تنكشف الحقائق، وتنجلي الأمور، فإمّا رحمة، وإمّا عذاب

ذكَر اللّه تعالى حالَ الطّائفتينِ مِن المؤمنينَ والكافِرينَ، وقرَن بينَهم في الذِّكرِ؛ ليَبينَ الأمرُ في نفسِ السّامعِ؛ فإنَّ الأشياءَ تتبيَّنُ بذكرِ أضدادِها، فقال سبحانه: فأمّا الَّذين آمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصّالحة الموافقة للشَّرع، فيُدخلهم ربُّهم في رحمته، وهي الجنَّة، كما ثبت في الصَّحيح أنَّ اللّه تعالى قال للجنَّة: «أنتِ رَحمَتي أرحَمُ بِكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي»[8]، ذلك الجزاء، وهو الإدخال في الجنَّة هو الفوز الظّاهر؛ لكونه فوزًا لا فوز وراءه، وأمّا الَّذين كَفَروا باللّهِ؛ فيَقولُ اللّهُ سبحانه لهم تَقْريعًا وتَوبيخًا: ألم تكُن آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرتُم عن الإيمانِ بها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 24.
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 358، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 75.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(6) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 173.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 371.
(8) رواه أبو هريرة، صحيح البخاري، رقم الحديث: (4569).

واتِّباعِها، وأعرَضتُم عن سَماعِها وقَبولِها، وكنتُم قَومًا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ في أفعالِكم، فتَكتَسِبونَ الآثامَ، معَ ما اشتَمَلت عليه قلوبُكم مِن التَّكذيبِ.[1]

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

لكلِّ فريق من المؤمنين والكافرين موضعه ومكانه الخاصُّ به بعد الحساب

الفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هي لتفصيل الإجمال في قوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فإنَّ الإجمال مضمَّن في قولِه: ﴿كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، كما أنَّه لمّا قال: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ فهُم منه أنَّ العاملين فرقتان مؤمن وكافر، وأفاد التَّعبير بالفاء أنَّ الأمرَ لا يتوقَّف عند الحساب، بل يفرَّق بين المؤمنين والكافرين بعد الحساب، فلكلٍّ موضعه ومكانه الخاصُّ به، ففصَّل مآل حالِ الفريقين، وبيَّنه عن طريق الفاء.

بلاغةُ الشَّرط والتَّفصيل لما سبق:

لا يوجد يوم القيامة بعد الحساب إلّا فريقان، أهل الإيمان وأهل الكفر

(أمّا) فيها معنى الشَّرط والتَّفصيل؛ فهي أداة رابطة لِما قبلها بتفصيل إجمالٍ، ورد في كلام قبلها، وهي شرطيَّة، فتقتضي شرطًا وجزاءً فيما بعدها، وفيها معنى التَّحقيق والتَّأكيد، بمعنى تحقُّق وقوع الجزاء وتأكيده، فإنَّهم لمّا قدَّروها بمعنى: مهما يكن من شيء، أفاد أنَّ الجزاء يتحقَّق بوقوع أيِّ شيء، ولاشكَّ أنَّ شيئًا ما سيقع، فدلَّ على تأكيد وقوع الجزاء، ولمّا جاءت الأداة في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وكانت الفاء لتفصيل إجمال؛ جاءت (أمّا)؛ لبيان هذا التَّفصيل، واقتضت تكرارًا وعطفًا في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لبيان أنَّه لا يوجد إلّا فريقان، فلا ثالث لهما.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 106 - 107، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 89، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 272، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 778.

علّة البدءِ بذكر المؤمنين مع حديث السّياق عن الكافرين:

بشارة المؤمنين بالخلاص والنَّجاة وتعجيل المسرَّة بإدخالِهم الجنّات

بدأ بذكر مآلِ الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات، فلم ينتظر بهم، حتى يفصِّل في الكافرين المبطلين - مع أنَّ المقام للحديث عن المبطلين في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ - تنويهًا بالمؤمنين، وتعجيلًا لمسرَّتِهم، وتعجيلًا لمساءة المبطلين وخيبتِهم، فيرى المؤمنون وجه الخلاص والنَّجاة من أول الأمر، وبذلك تخلو نفوسهم من هواجس القلق، والفزع؛ لما يرون ممّا يحلُّ بالكافرين من بلاء[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول دون الظاهر:

الإيمانُ والعمل الصّالح سببان في تحصيل الرَّحمة في الدّارين

عبَّر بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، دون أن يقال: (فأمّا المؤمنون)؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلَّته، بمعنى: أنَّ إيمانهم وعملهم الصّالح هما السَّبب في دخولِهم في رحمتِه، وفي التَّعبير بالموصول وصلتِه تعظيم لشأنِ الإيمان والعمل الصّالح، كما أنَّ التَّعبير بصيغة الفعل الماضي في صلة الموصول يدلُّ على تحقُّق وقوع الإيمان والعمل الصّالح منهم، بمعنى أنَّهم آمنوا بجميع ما كان عليهم الإيمان به، وأنَّهم عملوا الصّالحات حقيقةً ويقينًا، ففيه بشارة لأهل الإيمان بالفوز والنَّجاة وتعجيل المسرَّة يوم القيامة.

نكتةُ حذفِ متعلِّق الإيمان:

في قوله ﷻ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ حُذِف متعلِّق الإيمان؛ للتَّعميم ليشمل كلَّ ما يدخل في معنى الإيمان، من إيمانٍ باللّٰه وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر.

دلالةُ عطف عمل الصّالحات على الإيمان:

عطف عمل الصالحات على الإيمان في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 370.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإشعار باجتماع المعطوف والمعطوف عليه في علَّة الدُّخول في الرَّحمة، ففيه إيماء إلى أنَّ الدُّخول في رحمة اللّه لا يتحقَّق من دون اقتران الإيمان بالعمل الصّالح.

الدُّخول في رحمة الله لا يتحقَّق من دون اقتران الإيمان بالعمل الصّالح

معنى(ال) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وموقعها الإعرابيُّ:

تعريف الصّالحات هنا أفاد الاستغراق؛ ليشمل كلَّ عملٍ صالح، وجيء بها جمعًا رحمة بالعباد؛ لأنَّه لو قال: (عملًا صالحًا)؛ لكان مطلوبًا أن يكون كلُّ عمل الإنسان وصفه كذلك، وقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي صفة لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الصّالحات.

جمع الأعمال الصّالحة فيه ترفُّق بالعباد

نوع الفاء في قوله: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾:

لمّا كانت الفاء تفيد التَّرتيب والتَّعقيب؛ أفاد العطف بها في قولِه: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾ أنَّ الإدخال في رحمة اللّه مرتَّبٌ على الحساب الَّذي يكون على وفق ما هو مكتوب في صحيفة الأعمال، كما أفادت الفاء إدخال الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات في رحمتِه من غير مهلةٍ بعد الحساب، ومن يدخل في رحمة اللّه؛ لا يُعذَّب.

من يدخلُ في رحمة الله لا يُعذَّب

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإدخال:

أوثر لفظُ الإدخال في قولِه: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ للإيماء إلى أنَّهم لا يدخلون في رحمتِه لولا إدخال ربِّهم لهم، وإذنِه لهم، وأنَّهم يدخلون في رحمتِه من غير توقُّفٍ؛ لأنَّهم يدخلون في رحمتِه بإدخال ربِّهم لهم، كما أشعرَ لفظ الإدخال بولوجِ المؤمنين في رحمتِه ونفوذِهم فيها وفي باطنِها، كما أفاد لفظ الإدخال بلازمِه أنَّ غيرَهم خارج عن رحمتِه.

لا توقُّف ولا مهلة في دخول المؤمنين في رحمة الله يوم القيامة

نكتةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

عبَّر بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ إدخالَ المؤمنين في رحمتِه هو بإحسانِه، وأنَّه لولا تربيتُه لهم وإنعامُه عليهم؛ لَما دخلوا في رحمتِه.

لولا إحسانُ الله تعالى وفضله؛ لما أدخل المؤمنين في رحمتِه يوم القيامة

دلالةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير:

في قوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ﴾ أفادت إضافةُ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير العائد إلى الاسم الموصول بقيد صلتِه تشريفَ المؤمنين بربوبيَّته تعالى لهم وإحسانِه إليهم، والتَّقدير، فيدخلهم ربُّ الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات؛ ليفيد أنَّهم في إيمانِهم وعملهم الصّالحات كانوا في دائرة إحسان اللّٰه تعالى إليهم وتربيته لهم، فلم ينفكّوا عن إحسان اللّٰه تعالى ورحمته لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

لم ينفكَّ المؤمنون عن إحسان الله وتربيتِه لهم في الدُّنيا والآخرة

بلاغةُ حرف الظَّرفيَّة:

لمّا أخبر اللّٰه تعالى أنَّه يُدخل المؤمنين ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ أفاد أنَّ رحمته تعالى صارت ظرفًا لهم تعمُّهم، وتحيط بهم من كلِّ الجوانب، والمعنى: فأدخلناهم في رحمتنا، وفعلنا بهم من الإحسان ما يفعله الرّاحم بمَن يرحمُه على وجهٍ يعمُّهم من جميعِ جهاتِهم.

بلاغةُ المجاز المرسل لفظ ﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾:

لمّا كان المقصود من الدُّخول في رحمتِه هو الدُّخول في جنَّته؛ لأنَّ الدُّخول حقيقة هو في الجنَّة دون غيرها من أقسام الرَّحمة؛ كان التَّعبير بقولِه: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ من باب تسمية الشَّيء باسم حالِّه، أي: لمّا كانت الجنة محلَّ رحمته تعالى؛ أطلق عليها الرَّحمة بطريق المجاز المرسل، والعلاقة محلّيَّة، ومناسبة التَّعبير بالمجاز المرسل الإشعار بأنَّه لولا رحمته تعالى؛ لَما دخلوا الجنَّة، فالجنَّة تنال برحمتِه، وأُعِدَّت لأهل رحمتِه، أو لأنَّها هي النِّهاية والغاية الَّتي تُطلب بالرَّحمة، وتُراد بها[1]، وعلى هذا فالظَّرفيَّة في قولِه: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ حقيقيَّة، والمجاز المرسل في تسمية الجنَّة باسم الرَّحمة، أي: في تسمية المحلِّ باسم الحالِّ فيه، ويحتمل أن يكون المراد بالرَّحمة العموم الشّامل للجنَّة والثَّواب المخلَّد ورضوان

المؤمنُ وإن استغرق عمرَه في طاعة الله تعالى، فإنَّه لا يدخُل الجنَّة إلّا برحمته تعالى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 233، وأبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 365.

اللّه، والنَّظر إليه ﷻ، فيكون التَّعبير بالرَّحمة جمعًا بين الحقيقة والمجاز، فعبَّر بالرَّحمة الَّتي من جملتِها الجنَّة؛ بيانًا لعموم رحمتِه تعالى بالمؤمنين[1]، فناسب أن يكون ذلك هو الفوز المبين، وعلى هذا التَّوجيه تكون الظَّرفيَّة في قولِه: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ مجازيَّة؛ لقصد المبالغة في إحاطة هذه المعاني بالمؤمنين.

دلالةُ إضافة الرَّحمة إلى الضَّمير:

أفادت إضافة الرَّحمة إلى الضَّمير العائد إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ أنَّ رحمته تعالى هي رحمة المحسن إليهم، كما أفادت الإضافة تخصيصَ هذه الرَّحمة وتعظيمَها.

بلاغةُ الإطناب في قوله: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾:

موضعُ رحمةِ الله الَّذي يدخله المؤمنون هو مكان كرامةٍ وتشريف وعزٍّ لهم

في قوله: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ عدل إلى الإطناب دون الإيجاز بأن يقال: (فيرحمهم ربُّهم)؛ لأنَّ في الإطناب بيانًا لا يحصل في غيرِه، فإنَّه بيَّن أنَّ مكان رحمتِه ليس هو مكان الحساب، فهو خارجُها، وأنَّهم يذهبون إلى موضع هو رحمةٌ ومحاط بالرَّحمة، وتتغشّاهم فيه الرَّحمة، فالتَّعبير شاملٌ؛ لِما تتصوَّره النَّفس من أنواع الكرامة بالدُّخول ونيل الرَّحمة والنَّعيم؛ إذ جُعِلَت رحمة اللّه بمنزلة المكان يدخلونه[2]، كما أفاد الإطناب أنَّهم إنَّما يكونون في رحمة ربِّهم بإدخاله لهم، فالفضل أوَّلًا وأخيرًا إليه تعالى.

علَّة فصل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

إدخالُ الله المؤمنين في رحمته فوزٌ محض

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا سأل هل إدخال المؤمنين في رحمة اللّه تعالى هو الفوز، وهو آخر المطاف؟ فأُجيب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: الفوز الَّذي لا فوزَ بعدَه.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 371.

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد:

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يُشار به إلى المصدر المفهوم من الفعل ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾، أي: ذلك الدُّخول في رحمتِه هو الفوز المبين، ويحتمل أن يكون مشارًا به إلى الإحسان العالي المنزلة[1] المفهوم من مضمون جملة: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، وعبَّر باسم الإشارة للبعيد؛ للإشارة على رفعتِه وعلوِّ منزلته، بحيث لاينالُه إلّا المؤمنون.

الدُّخول في رحمة الله لاينالُه إلّا المؤمنون

غرضُ استعمالِ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

أُشير بضمير الفصل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إلى الشَّأن والقصَّة، بمعنى أنَّ دخول المؤمنين الجنَّة، ونيلهم المرتبة العالية، أمرٌ عظيم الشَّأن، كما أفاد ضمير الفصل تأكيدَ مضمون الجملة وتقريرَها، بمعنى تأكيد أنَّ ذلك الأمر هو الفوز المبين.

بلاغةُ القصر في جملة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قصرٌ في الكلام من خلال تعريف طرفَي الإسناد، وبمجيء ضمير الفصل بين المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ والخبر ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾، وفائدته تخصيص المسند إليه بالمسند على معنى حصر المسند بالمسند إليه ونفيه عن غيرِه، وتقدير الكلام: ذلك هو - وليس غيره - الفوز المبين، ومناسبة الفصل في الآية الرَّدُّ على منكري البعثِ الَّذين يظنّون أنَّ الفوز بما يجنونه في هذه الحياة الدُّنيا، فكلُّ نعيم الدُّنيا ليس هو بالفوز المبين، وفي القصرِ إيذانٌ بظهور الفوز ووضوحِه في دخول المؤمنين في الجنَّة، أو في إحسان اللّه تعالى للمؤمنين بإدخالِهم في رحمتِه.

لا يقدر الفوز إلّا بالدُّخول في رحمة الله

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ للجنس، بمعنى استغراق كلِّ أنواع الفوز، فيكون جنس الفوز وحقيقته في دخول الجنَّة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 107.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:

لمّا كان الفوز هو الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة[1]؛ عبَّر بلفظ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم نالوا الظَّفر في الدُّخول في رحمة الله بما كانوا يؤمنون به، ويؤمِّلونه، ويرجونه من العمل، وأنَّهم سلموا من الخوفِ ومن العذاب، والفوز هو الفلاح الَّذي لا خوفَ بعدَه، فإنَّ من يدخل في رحمته تعالى يصرف عنه العذاب في ذلك اليوم.

من يدخل في رحمة الله تعالى؛ يُصرَفُ عنه العذابُ يوم القيامة

توجيهُ تخصيص وصف الفوز بالمبين:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ جاء تخصيص الفوز بكونِه مبينًا دون أن يقال مثلًا: الفوز العظيم أو الكبير، والسَّبب هو أنَّه لمّا كان الكلام عن ما يكون إليه الحالُ بعدَ جثوِّ كلِّ أمَّة من الأمم يوم الحساب، وعن ما يكون إليه مآل الفريقين من المؤمنين والكافرين، بعد الحساب والنُّطق بالكتاب؛ ناسب التَّخصيص بالمبين؛ للإشعار بأنَّ فوز المؤمنين يوم القيامة يبين، ويظهر، فلا يخفى على أحدٍ من الأمم، ففيه تأنيس للمؤمنين وخيبة وخسران للكافرين، فلكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقامُها الخاصُّ بها.

فوزُ المؤمنين يوم القيامة يبين، ويظهر لجميع الأمم

دلالةُ عطفِ الضِّدِّ على ضدِّه:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بطريق الوصل بالواو، وهو من عطف الضِّدِّ على الضِّدِّ؛ ليكون الجامع بينهما هو الجامعَ الوهميَّ[2]، وإنَّما ذكر الشَّيءَ وما يضادُّه؛ للإشعار بأنَّه ليس إلّا هذان الفريقان يوم القيامة، كما أنَّه لمّا ذكر حال المؤمنين يوم القيامة؛ كان في ذكرِهم تشوُّقٌ لمعرفة حال الكافرين، فإنَّ الضِّدَّ أقربُ خطورًا بالبال مع الضِّدِّ.

ذِكرُ حال المؤمنين يوم القيامة فيه تشويقٌ لمعرفة حال من كفر بالله، وعصى، واستكبر

---

(1) الرّاغب، المفردات: (فوز).

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 254.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

عبَّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لبيان وجه بناء الخبر وسببه، بمعنى: أنَّ كفرَهم هو سببُ توبيخِهم وتبكيتِهم حين يقال لهم: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، كما أنَّ في التَّعبير بالموصول وصلتِه تعريضًا بذمِّ الكفر والكافرين وإهانتِهم بسبب كفرِهم.

سببُ الاكتفاء بذكر الكفر دون الأعمال:

الـكـفـرُ وحـده كـافٍ في دخـول جـهـنَّـم، فكيف إذا ضُـمَّ إليـه الأعمال السَّيِّئة

لم يعطف على الكفر الأعمال السَّيِّئة، كما جاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إشعارًا بتهويل شأن الكفر وعظيم خطرِه، وأنَّه وحده كافٍ في دخول جهنَّم، كما أنَّه لمّا قال: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أومأ إلى أعمالِهم السَّيِّئة والقبيحة، الَّتي كانت سببًا يُضاف إلى كفرِهم لتوبيخِهم وتبكيتِهم.

بلاغةُ حذفِ فعل القول للكافرين:

تعذيبُ الكافرين العذاب النَّفسي قبل الدُّخول إلى العذاب الحسّيِّ

جواب (أمّا) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ محذوف؛ لأنَّ في الكلام دليلًا عليه، فيُقدَّر من فحوى الكلام، والتَّقدير: وأمّا الَّذين كفروا؛ فيقال لهم: ألم تكن آياتي تُتلَى عَلَيكُم، ودلَّت الفاء في قوله: (أفلم) على الفاء المحذوفة في قولك، فيقال لهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106][1]، ونكتة حذف (فيقال لهم) هو أنَّهم بلغوا من سوء الحالِ بعدَ ظهور الآيات أنَّ كلَّ من يراهم، ويعلم ماعملوا في الدُّنيا؛ يعلم أنَّه يقال لهم: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وإنَّما كان الكلام على تقدير محذوف؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إنَّما هو إخبار عن معاينةٍ للكافرين، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 453، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 86.

خطاب ومشافهة، فلا يكون خطاب المشافهة جوابًا للإخبار عنهم، فاقتضى الكلام التَّقدير، فكأنَّه قال: وأمّا الَّذين كفروا في الدُّنيا؛ فيقال لهم اليوم[1]، وإنَّما انتقل إلى خطابِهم؛ لأنَّ التَّوبيخ والتَّبكيت على سبيل المخاطبة أشدُّ عليهم، فيزدادون حسرة وندامة قبل ولوجِ العذاب، ويحتمل أن يكون تقدير الكلام: (وأمّا الذين كفروا؛ فيقال لهم: ألم يأتِكم رسلي، أفلَم تَكُن آياتي تُتلى عَليكُم)، فحذف القول والمعطوف عليه؛ اكتفاء بالمقصود، وهو التَّسجيل عليهم بتلاوة آيات القرآن عليهم، واستغناء بالقرينة الدّالَّة على المحذوف[2]، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الكلام لّما كان حكاية لِما يقال لهم؛ فلا التفات فيه من الغيبة إلى الخطاب.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

التَّعجيبُ من استكبارِ الكافرين وإجرامِهم مع أنَّ آيات الله تُتلى عليهم

ورد الاستفهام المجازيُّ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهو على معنى التَّقرير[3]، بمعنى تقريرهم على ما كانوا عليه في الحياة الدُّنيا من أنَّ آيات اللّه كانت تتلى عليهم، وأنَّ الدَّعوة بلغتهم بأتمِّ وجهٍ وأبينِه، فلم يكن منهم إلّا الاستكبارُ على الإيمان بالقرآن، والإيغالُ في الإجرام والفسقِ، ويتولَّد من الاستفهام التَّقريريِّ توبيخهم على استكبارِهم وإجرامِهم وتقريعهم عليه[4]، كما يفيد الاستفهام التَّقريريُّ التَّعجيبَ من استكبارِهم وإجرامِهم مع أنَّ آيات اللّه كانت تُتلى عليهم، ففيه إيماءٌ إلى أنَّه كان ينبغي أن تخضعوا لآيات اللّه، وتؤمنوا بها، وتعملوا صالحًا، لا أن تستكبروا، وتكونوا قومًا مجرمين.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 233.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109.

(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 594.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 75، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 154.

سببُ إيثار تقريعهم وتوبيخهم قبل الأمر بإدخالِهم النّار:

المــؤمــنــون يدخلون الجنَّة والــكــافــرون بعد في الموقف مــعــذَّبــون بالتَّوبيخ

لمّا قال اللّه تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾، كان الظّاهر أن يخبر بما سيكون عليه حال الكافرين بأن يقال فيهم، وأمّا الذين كفروا؛ فيدخلون النّار، كما هو مقتضى المقابلة بـ(إمّا) التَّفصيليَّة، لكنَّه عدل إلى تقريرِهم وتوبيخِهم وتقريعِهم، قبل الأمر بإدخالِهم النّار، وفائدة هذا الأسلوب هو الدَّلالة على أنَّ المؤمنين يدخلون الجنَّة، والكافرون بعد في الموقف معذَّبون بالتَّوبيخ[1]، والتَّقريع والتَّسجيل على كفرِهم واستكبارِهم، ففيه المبالغة في تنديمهم وتقريعِهم قبل دخولهم النّار.

نكتةُ دخول فعل الكون:

أفاد دخول فعل الكون تقريرهم بتلاوة آيات الله تعالى عليهم

عُبِّر بتركيب: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ دون أن يقال: (ألم تتلَ آياتي عليكم)؛ لأنَّ في تركيب النَّظم القرآنيِّ تقريرًا لاستمرار تلاوة آيات اللّه عليهم وتجدُّدها، بدلالة الفعل ﴿تَكُنْ﴾، كما أنَّ في تركيب: ﴿ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إخبارًا بالجملة الفعليَّة ﴿تُتْلَىٰ﴾ عن المسند إليه ﴿ءَايَٰتِى﴾، وهو أثبت في تقوية الحكم وتقرير المعنى وتحقيقِه، فكأنَّه يؤكِّد تقريرهم بتلاوة آيات اللّه عليهم وإقامة الحجَّة عليهم في مقام التَّوبيخ.

دلالةُ إضافة آيات إلى الضَّمير:

في قولِه: ﴿ءَايَٰتِى﴾ أُضيف لفظ الآيات إلى الضَّمير العائد إلى اللّه تعالى، والمقام مقام سؤال وحساب ووعيد، ومناسبة الإضافة تعظيمُ هذه الآيات وتفخيمُها، وتفظيع الاستكبار عن الإيمان بها وعن مَن يتلوها عليهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 154.

نكتةُ بناء فعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمفعول:

بناءُ الفعل للمفعول، هو للعلم بالفاعل ولدعوتهم للانشغال بالفعل نفسه

لمّا كانت هذه الآيات توجب الإيمان؛ لما لها من العظمة بمجرَّد تلاوتها؛ بني الفعل للمفعول في قوله: ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ للإشعار بأنَّكم كنتم تستكبرون عليها، ولم تنتفعوا منها، وإن تلاها أيُّ تالٍ، فكيف إذا كان التّالي لآيات الله هو الرَّسول ﷺ؟[1]

فائدةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

أوثر الفعل المضارع في قولِه: ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ للإشارة إلى تكرُّر تلاوة آيات الله عليهم ممّا يتيح فهمها وتدبُّرها، ففيه إشارة إلى قيام الحجَّة عليهم والتَّسجيل عليهم باستحقاقِهم النّار.

بلاغةُ استعمال حرف الاستعلاء:

إقامةُ الحجَّة على الكافرين بتلاوة آيات الله عليهم

لمّا تعدَّى فعل التِّلاوة بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أفاد استيعاب تلاوة آيات الله لهم وإحاطتِها بهم في جميع أزمانِهم وأماكنهم، ففيه بيان لإقامة الحجَّة عليهم والتَّعجيب من استكبارِهم مع أنَّ آيات الله قد أحاطت بهم.

نوعُ الفاء ودلالتها في ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾:

الفاء للتَّرتيب والتَّعقيب، أي: تسبَّب عن تلاوة آيات الله الَّتي من شأنها إيراث الخشوع والإخبات والخضوع أن استكبرتم، ففيه تعجيب من استكبارِهم في موضعٍ ينبغي فيه أن يخضعوا، ويؤمنوا.

فائدةُ ذِكر الاستكبار دون التَّكذيب:

الاستكبارُ علَّةُ التَّكذيب وسببُ الكفر، وقد يلازم الكفرُ الاستكبارَ

عبَّر بالاستكبار دون التَّكذيب، فأخبر عن تحقُّق وقوع استكبارِهم، فقال: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، ولم يقل: (فكذبتم)؛ للإشارة إلى أنَّ الاستكبار هو علَّةُ التَّكذيبِ وسببُ الكفرِ، ويمكن أن يكون بالعكس بأن يقال: إنَّ فيه إشارة إلى أنَّ الكفر هو سبب استكبارِهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 18/ 108.

وعلى الوجهين ففيه إيماء إلى تلازم الكفر والاستكبار، كما أنَّهم لمّا كذَّبوا آياتِ اللّه، وردّوها، ولم يعملوا بها؛ كان كأنَّهم استكبروا عليها، وهو كما قال: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: 44]، ولا أحد يقصد قصد عبادة الشَّيطان، لكنَّهم لمّا عبدوا الأصنام بأمر الشَّيطان؛ فكأنَّهم عبدوه، كما يومئ اللَّفظ إلى أنَّ الاستكبار على رسل اللّه بمنزلة الاستكبار على آياته تعالى[1].

دلالةُ دخول السّين والتّاء في ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾:

السّين والتّاء في لفظ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ للطَّلب، بمعنى تسبَّب عن تلاوة آياتنا عليكم - الَّتي من شأنِها إيراث الإيمان بها والخضوع لها، كما تقدَّم - أن طلبتم الكبر لأنفسكم[2]، ففيه تعجيبٌ من استكبارِهم عن الإيمان بآيات اللّه مع تلاوتِها عليهم، ويمكن أن يكون دخول السّين والتّاء للمبالغة في استكبارهم.

سببُ حذف متعلّق ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾:

أفاد حذفُ المتعلّق عموم تقديره

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾؛ لإفادة عموم استكبارِهم المذموم، والمعنى: استكبرتم على آياتنا وعن الإيمان بها وعلى الرَّسول ﷺ الَّذي جاء بها، ويحتمل أن يكون حذف المتعلِّق؛ لإفادة أنَّ استكبارَهم صار سجيَّة فيهم بعد أن تُليت عليهم آيات اللّه، فلا يأتي منهم إلّا الاستكبار.

نوع الواو ودلالتها في ﴿وَكُنتُمۡ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ لعطف ما بعدها على ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، فتدخل الجملة المعطوفة في حيِّز التَّرتيب والتَّعقيب، والتَّقدير: فكنتم قومًا مجرمين؛ ليفيد العطف جمعهم بين الاستكبار في القلب والإجرام في القول والفعل.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 233.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرّر: 18/ 109.

دلالةُ ذكر ﴿وَكُنتُمۡ﴾:

اعتيادُ الإجرام وصفٌ أقبح من الإجرام نفسِه

عُبِّرَ بقولِه: ﴿وَكُنتُمۡ﴾ دون أن يقال: فاستكبرتم، وأجرمتم، فيكون في نظم القرآن إطنابٌ في الكلام، وسببه هو إضافة معنى آخر سوى إجرامِهم، وهو أنَّكم مجرمون، وأنَّ الإجرامَ كان عادةً لكم[1]، فاعتيادُ الإجرام وصفٌ أقبح من الإجرام نفسِه.

سببُ إيثار ذكر ﴿قَوۡمًا﴾:

أوثر ذِكر ﴿قَوۡمًا﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الاستكبار صار أصيلًا فيما بينهم، ومقوِّمًا من مقوِّماتِهم، وأنَّهم كانوا يجتمعون على الإجرام، ففيه من المبالغة في وصفِهم بالتَّكبُّر ما ليس في ما لو قيل: (وكنتم مجرمين).

توجيهُ إيثارِ فعل الإجرام بالذِّكر من بقيَّة الأفعال كالظُّلم:

قد يقال: ما سبب وصف الكافر بالإجرام دون غيرِه؟ وجوابه هو بيان أنَّهم مع كونِهم كفّارًا ما كانوا عدولًا في أنفسِهم، بل كانوا فسّاقًا في أعمالِهم وأقوالِهم، فوصفهم بوصف الكفر والفسق الشَّديد.

بديعُ الاحتباك في الآية:

في هذه الآية مع الَّتي قبلها احتباك لطيف؛ إذ ذكر مع المؤمنين أوَّلًا الإدخال في الرَّحمة؛ ليكون إشارةً إلى إدخال الكافرين في اللَّعنة ثانيًا، وذكر التَّوبيخ والتَّقريع والتَّبكيت للكافرين ثانيًا، وذلك بما دلَّ عليه الاستفهام المجازي للإشارةِ إلى تشريف المؤمنين أوَّلًا، وفائدة الاحتباك الإيجاز في اللَّفظ والدَّلالة على شرف المؤمنين ورفعتهم وعلى إذلالِ الكافرين وإهانتِهم[2].

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 109.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 18/ 109.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾

[الجاثية: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تتابعُ توبيخ الله تعالى للكافرين لتنوُّع قبائح أعمالِهم وأقوالِهم

لمّا أخبر اللّه تعالى عن توبيخ الكافرين وتقريعِهم؛ بسبب استكبارِهم وإجرامِهم؛ أتبعه بتوبيخٍ آخر، وهو توبيخهم على تكذيبِهم بوعد اللّه وبقيام السّاعة، فذكر أنَّه يقال لهم حينئذٍ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَدۡرِي﴾: أصلُ (دري) يدلُّ العِلم والمعرفة، ومنه الدِّراية: المعرفة المدركة بضرب من الخَتل[1]، يُقالُ: دَرَيْتُ الشَّيءَ أدريهِ عَرَفْته، وأدرَيْتُه غَيري؛ إذا أعلَمْته[2]، ويُقالُ: أتى فلانٌ الأمرَ من غير دِريَةٍ، أي: من غير عِلم، والعرب رُبَّما حذفوا الياءَ من قَوْلهم: (لا أدْرِ)، في موضع: لا أدْري، يكتفون بالكسرة فيها، كقول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر: 4]، والأصل: يَسري[3]، والمرادُ بالدِّراية في الآية: العِلم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرُ شاكٌّ مُتحيِّرٌ لا يوقِن، ولا يُؤمِن بحدوث السّاعة

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانه حالَ الكافرين في الدُّنيا، وإنكارَهم للبعثِ، فيَقولُ: وإذا قيلَ لكم: إنَّ ما وعَد اللّهُ به عِبادَه من البَعثِ أو غيرِه أمرٌ كائِنٌ - لا مَحالةَ - وإنَّ القيامةَ الَّتي يَجمَعُ اللّهُ فيها النّاسَ للحِسابِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (درى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دري).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دري).

والجَزاءِ، لا شكَّ في مجيئِها، قُلتُم تكذيبًا وإنكارًا: لا نَعرِفُ ما القِيامةُ؟ وقُلتُم: ما نَعلَمُ وُقوعَ السّاعةِ إلّا على وجهِ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ، وما نحن بمُتَحقِّقينَ مِن قِيامِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾:

الكافرون يُسقَطُ في أيديهم يوم القيامة، فليس لهم إلّا الحسرة والنَّدامة

جاء قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ على طريق الوصل بالواو معطوفًا على خبر (كان) في قولِه: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ﴾، والتَّقدير: وكنتم إذا قيل لكم: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾[2]، ومناسبة الوصل التَّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في كونِهما توبيخًا للكافرين على ما كانوا يعملونه في الدُّنيا، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، وتقدير الكلام: وقُلتُم ما ندري ما السّاعَةُ؟ إذا قِيلَ لَكُم: إنَّ السّاعَةَ لا رَيبَ فِيها[3]، ونكتة ذِكر تكذيبِهم بالسّاعة وعطفِه على توبيخِهم على استكبارِهم وإجرامِهم: هو اقتضاء المقام له، فإنَّ الخطاب يحكي ما يقال لهم يوم الحشرِ والحساب، أي: قد أُسقِط في أيديكم، فهذه هي السّاعة الَّتي كنتم تكذِّبون بها، ففيه تحقيق لاستحقاقِهم العذابَ، وتبكيت لهم ما بعدَه تبكيت.

مناسبة التَّخصيص بعد التَّعميم:

الإيمانُ بالبعثِ يـوم الـقـيـامـة مـن أهـم أركـان الإيمان وأصولِه

لّما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وآيات اللّه تضمَّنت معاني متنوِّعة من الإيمان باللّه وبرسلِه وباليوم الآخر، وغير ذلك من أمور الإيمان وأحكام الحلال والحرام وغيرها؛ كان العطف في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 177، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 272.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 255.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.

من قبيل تخصيص بعض آيات القرآن بالذِّكر بعد التَّعميم في قولِه: ﴿ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وفائدة التَّخصيص بعد التَّعميم بيانُ أهمّيَّة الإيمان بالبعثِ، ولاسيَّما أنَّ سياق الآيات في إثبات البعثِ والحساب، وللتَّمهيد لختم السّورة بذكر الآيات الَّتي تتكلَّم عن خواتيم الأمور يوم القيامة.

نكتةُ استعمال (إذا):

إقـامـةُ الحـجَّة عـلى الكـافريـن يـوم القـيامة بـإبـلاغِـهـم في الدُّنيا بوعد الله وبقيام السّاعة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بأداة الشَّرط (إذا) دون (إنْ)؛ للإشعار بالقطع في وقوع الشَّرط، وناسبه مجيء فعل الشَّرط بصيغة الماضي المؤذن بتحقُّق الوقوع، بمعنى: أنَّه قد قيل لهم: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾، ولهذا لم يعبِّر بـ(إنْ) الَّتي تفيد ندرة وقوع الشَّرط أو استحالتِه، والمقصود من الشَّرط تحقيق أنَّ الكافرين قد أُبلِغوا بأنَّ وعد اللّه حقٌّ، وأنَّ السّاعة لا ريب فيها وفي قيامِها.

نكتةُ بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

بـنـاء الـفـعـل لـلـمـفـعـول هو مـن الإيـجـاز للعلم بالفاعل

عبَّر بصيغة الفعل المبني للمفعول ﴿قِيلَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ القول بأنَّ وعد اللّه حقٌّ، وأنَّ السّاعة لا ريب فيها ممّا ينبغي الإيمان بِهِ من غير نظر إلى تعيين القائل، بمعنى ينبغي الإيمان بهذه الحقيقةِ من أيِّ قائل كان، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّهم كانوا يكذِّبون، وينكرون هذا القول من أيِّ قائلٍ كان، فتكذيبُهم راجعٌ إلى حظوظِهم وجهلِهم، وليس إلى نوع القائل.

بلاغةُ التَّوكيد:

تحذيرُ الكافرين بوجوب الرُّجوع إلى الـحـقِّ بأن يؤمنوا بوعد الله

أكَّد مضمون الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، وسبب إيثار التَّأكيد هو مراعاة سياق أنَّ الخطابَ للكافرين المنكرين للبعثِ يوم القيامة، والإيذان بأنَّهم قد أُشربوا الإنكار في اعتقادِهم، وفي التَّأكيد تنبيهٌ للكافرين الَّذين في الدُّنيا إلى وجوب أن يرجعوا إلى صوابِهم بأن يؤمنوا بوعد اللّه.

ما وعدَ الله به ثابتٌ، لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا محيد عن وقوعِه

دلالةُ لفظ ﴿وَعۡدَ﴾:

الظّاهر أنَّ لفظ المصدر ﴿وَعۡدَ﴾ بمعنى اسم المفعول، أي: الموعود، فيكون الإخبار عنه بأنَّه حقٌّ على طريق المجاز في الكلمة بإطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول؛ لأنَّ الحقّيَّة ظاهرةٌ في الموعود الواقع، بمعنى أنَّ ما وعدَ اللّه به ثابتٌ لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ولا محيد عن وقوعِه، وتقدير الكلام وموعود اللّه حقٌّ، ونكتة التَّعبير بالمصدر دون اسم المفعول هو المبالغة في المعنى، بمعنى أنَّ مجرَّد الوعد فيه إيذانٌ بوقوع الموعود به وتحقُّقه، والوعد أعمُّ من الوعيد، فهو يُطلَقُ على التزام المخبِر بوقوع ما يخبِر عنه في المستقبل نافعٍ أو ضارٍّ، أو لا نفعَ فيه ولا ضرَّ، والوعيد خاصٌّ بالضّارِّ[1]، ويحتمل أن يكون المصدر على أصلِه، فيكون الإخبار عن حقّيَّته بمعنى متعلَّقه، ويكون من قبيل المجاز في النِّسبة، وعلى كلا الوجهين فإنَّ التَّلازم بين إرادة الاسم المفعول أو المصدر ظاهر[2]، ولهذا لم يرد في القرآن الوعد إلّا بصيغة المصدر.

وعد الله لايُخلَفُ

فائدةُ إضافة الوعد لاسم الجلالة:

لّما كانت الإضافة في قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على معنى الاختصاص، بمعنى الوعد المختصِّ باللّه تعالى؛ أفادت الإضافة تعظيم وعد اللّه وتشريفه، وفي الإضافة المفيدة للاختصاص تلويحٌ بأنَّه وعدٌ ثابتٌ لا محيد عنه، وأنَّه مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الإلهِ الملك القادر الغنيِّ الصّادق الوعدِ لا موجِبَ لإخلافِه.

بلاغةُ الجملة الاسميَّة ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾:

جاءت جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ اسميَّة مؤكَّدَةً؛ لتفيد ثبوت

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 255.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 22، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 443.

مضمونها وعدم تغيُّره، فإنَّ الحقَّ هو الثّابت الَّذي لا ريبَ فيه ولا مبالغةَ، وهذه الجملة فيها إيماءٌ إلى الوعد بالبُشرى والسَّعادة للمؤمنين والوعيد بالعذاب والشَّقاء للكافرين، والوعد وإن كان يُطلق على الخير والشَّرِّ والنَّفع والضُّرِّ - كما تقدَّم - لكنَّ في تسميتِه وعدًا في سياق توبيخ الكافرين على تكذيبِهم بالسّاعة وبالجنَّة بالنّار، وغيرِها من أمور الاعتقاد، إشارةً إلى أنَّهم لو آمنوا؛ لكان في إيمانِهم خيرٌ ونفعٌ عظيم لهم، ومن براعة هذه الجملة أنَّها تُستعمل لتأنيس المؤمنين بنصرِهم وقرب حلول النَّعيم لهم، ولترهيب الكافرين وقرب الانتقام منهم، ولبيان عظمة الإله وعظيم قدرتِه، وأنَّه الملك الواحد الأحد، الَّذي لا يُغلَب، وأنَّ ما يقطع بوقوعِه هو حقٌّ ثابتٌ، وكلُّ ما قطع اللّه تعالى بوقوعِه في المستقبل يدخل في عموم وعد اللّه الَّذي هو حقٌّ، ففي الجملة معنى العموم والكلّيَّة في مضمونِها وموارد استعمالِها، وقد تكرَّرت هذه الجملة، وما عطف عليها في سورة الكهف في قولِه: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: 21]، في سياق تقريب الإيمان بالسّاعة بالمشهد الحسّيِّ.

فائدةُ ذِكر ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ وعدم الاكتفاء بذِكر السّاعة:

عبَّر بقولِه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقتصر على ذِكر السّاعة؛ لأنَّ المقام مقام توبيخ للكافرين، وتبكيت لهم على تكذيبِهم، فذكر ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارة إلى عموم وعدِه تعالى، فيشمل كلَّ ما وعد اللّه به من البعثِ والجزاء على الأعمال بالثَّواب والعقاب، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا الوعد بالسّاعة.

نوعُ الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾:

العطف في قولِه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ من عطف الخاصِّ على العام؛ لأنَّ البعثَ من جملة ما وعده اللّه، فهو مثل عطف جبريل عليه السلام على الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾

[البقرة: 98][1]، وسبب عطف الخاصِّ على العامِّ في الآية إفرادُ المقصود من المقام، وهو الوعد بحلول السّاعة والبعث فيها اعتناءً به، ولأنَّه محطُّ الفائدة في السّياق، كما أنَّ السّاعة أعظم ما تعلَّق به وعد اللّه؛ فإنَّه مورد ما يأتي بعده من الثّواب والجنَّة للمؤمنين، والعقاب والنّار للكافرين، فاقتضى إفراده في الذِّكر.

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾:

منكِرُ السّاعة إن تأمَّل الدَّلائل البيِّنة؛ ارتدع عن الإنكار

قرأ حمزة وحده ﴿وَٱلسَّاعَةَ﴾ بالنَّصب، وقرأ الباقون ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ بالرَّفع[2]، فمن نصب؛ فَعَطْفٌ على الوعد، والمعنى: وإذا قيل: إنَّ وعْدَ اللّه حَقٌّ، وإنَّ السّاعةَ، ومن رفع؛ فعلى معنى، وقيل: السّاعةُ لا ريب فيها[3]، فتكون الجملة معطوفةً على معنى ﴿إِنَّ﴾ وما عملت فيه، كما يحتمل أن يكون الرَّفع على الابتداء، ويكون من عطف الجملة على الجملة[4]، فعلى رفْع السّاعة لا توكيد في مضمون الجملة؛ للإيذانِ بأنَّ أمرَ السّاعة من الظُّهور بحيث لا تحتاج إلى تأكيد لوقوعِها، وأنَّ المنكِرَ إن تأمَّل الدَّلائل؛ ارتدع عن الإنكار، فيكون من قبيل تشبيه حالِ المرتاب في وهن ريبِه وعدم الاعتداد به بحال من ليس بمرتابٍ أصلًا.

بلاغةُ اختيار لفظ الرَّيب دون الشَّكِّ:

التَّوبيخُ لعقلِ كلِّ من يشكُّ في السّاعة

عبَّر بلفظ الرَّيب دون الشَّكِّ؛ لأنَّ الرَّيب هو شكٌّ مع تهمةٍ، وفيه معنى القلق والاضطراب، ففي قولِه: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ إيماءٌ إلى الرَّدِّ على شكِّ الكافرين في السّاعة، واتِّهامِهم رسول اللّه ﷺ بالكذب فيها، وفيه توبيخٌ لعقلِ كلِّ من يشكُّ في السّاعة.

بلاغةُ جملة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾:

أفادت ﴿لَا﴾ النّافية للجنس في قولِه: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ نفي جنسِ

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 22.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 377، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 372.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 435.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 102، والواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 155.

الرَّيب عن السّاعة، بمعنى نفي أيِّ فردٍ من أفرادِ الرَّيب عن السّاعة ووقوعِها، ونفي الرَّيب عن السّاعة بمعنى أنَّها من ظهورِها وسطوع برهانِها بما ذكر من الأدلَّة بحيث ليس فيها مظنَّةٌ أن يُرتابَ في وقوعِها، وليس المقصود أنَّه لا يرتاب فيها أحدٌ أصلًا، بمعنى أنَّ الرَّيب من جهةِ المرتابين، وليس من جهة السّاعة نفسِها، ومجيء الجملة الاسميَّة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ خبرًا عن السّاعة يفيد تحقيق نفي الرَّيب عنها، والمعنى: ليس في السّاعة ما يوجب الارتياب في قيامِها لظهور دلائلِها ووضوحِها، كما أنَّه لاينبغي الارتياب فيها، فيفيد المعنى: أنَّ ريبَ المرتابين في السّاعة إنَّما هو عن مكابرةٍ منهم وإعراضٍ عن النَّظر في الدَّلائل الواضحةِ.

ليس في السّاعة ما يوجب الارتياب في قيامِها لظهور دلائلِها بل لا ينبغي الارتياب فيها

بلاغةُ المقابلةِ بين إثبات الحقِّ للوعد ونفي الرَّيب عن السّاعة:

جمع في الآية بين إثبات الحقِّ للوعد، ونفي الرَّيب عن السّاعة؛ ليكون في الجمع بين الإثبات والنَّفي كمال الظُّهور في حقِّيَّة السّاعة، وأنَّ دلائل إثبات الإيمان بها ظاهرةٌ، كما أنَّ دلائل نفي الشَّكِّ عنها كذلك أيضًا؛ تعظيمًا لشأنِها، وبيانًا لأهمّيَّتها؛ فإنَّ ما بعدَها من الجزاء، وما يتعلَّق به مرتَّب عليها.

كلُّ ما يقع من الجزاء وما بعده يوم القيامة مرتَّبٌ على قيام السّاعة

فائدة ﴿مَّا﴾ النّافية:

أفاد التَّعبير بـ﴿مَّا﴾ النّافية أنَّهم قصدوا الرَّدَّ على القول بأنَّ وعد اللّه حقٌّ، والسّاعة لاريب فيها؛ لأنَّ (ما) تأتي للرَّدِّ على قولٍ، كما أفادت ﴿مَّا﴾ تأكيد نفي درايتِهم بحقيقة السّاعة، وبكونِها كائنةً واقعةً؛ وذلك لأنَّ (ما) النّافية فيها معنى التَّأكيد، فإنَّ قولنا: (ما فعل) يكون في جواب (لقد فعل)[1]، ففي التَّعبير بـ﴿مَّا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عطف الخاصِّ على العامِّ في قولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فيه تأكيد للعلم بالسّاعة، وتأكيد لوقوعِها.

التَّعبيرُ بـ(ما) النّافية لتأكيد نفي علمهم بحقيقة السّاعة

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسّيوطي، الإتقان: 2/ 289.

علّةُ اختيار مفردة ﴿نَدۡرِى﴾ دون نعلم:

لفظةُ الدِّرايةِ تدلُّ على بذل الوسع والجهد في سبيل تحصيل العلم

لمّا كانت الدِّراية هي المعرفة المدركة بضرب من الفِطنةِ، والَّتي يكون فيها نفاذٌ إلى ما خَفِيَ بوسائل ظاهرة، وأدلَّة واضحة[1]؛ عبَّر بلفظ ﴿مَّا نَدۡرِى﴾ دون أن يقولوا: ما نعلم ما السّاعة؟ للإشعار بأنَّهم نظروا في الأدلَّة الَّتي ذكرتها آيات القرآن، وبحثوا فيها، ونفذوا إلى باطنِها، فما توصَّلوا إلى درايتِها والعلم بوقوعِها، فكأنَّهم استنفدوا جميع الوسائل الَّتي تمكّنهم من العلم بالسّاعة، فلم يتوصَّلوا إلى صحَّة وقوعِها، ومجيء لفظ الدِّراية مسبوقًا بنفي أو استفهام في القرآن؛ لتعلُّق فعل الدِّراية بأمرٍ غيبيٍّ، أو بمجهول يحتاج إلى نظر واستدلال، أو بشيءٍ يعظم عن أن يحيط الإنسان به، ففي تعبير الكافرين بقولِهم: ﴿مَّا نَدۡرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تنبيهٌ للمؤمنين إلى غوايتِهم وخداعِهم؛ لأنَّهم لو نظروا في الأدلَّة البيِّنة الظّاهرة؛ لآمنوا، واستيقنوا بها.

بلاغةُ الاستفهام في قوله: ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾:

وقاحة الكافرين في تكذيبِهم بالسّاعة بطريقة الاستغراب من اسمِها ومن حقيقتِها

الاستفهام في قولِه: ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، بمعنى: أيُّ شيء السّاعة[2]؟ ولمّا كان السُّؤال بـ﴿مَا﴾ إنَّما يكون عن ماهيَّة الشَّيء وحقيقتِه؛ كان كأنَّهم في استفهامِهم بالغوا في التَّكذيب بنفي علمِهم بحقيقة شيء اسمه السّاعة، ولهذا نفوا درايتهم بشيءٍ اسمه السّاعة، فالاستفهام على جهة الاستغراب، أي: عدّوا السّاعة منكرةً غريبةً، بقصد التَّكذيب بها، وسبب إيثار هذا الأسلوب هو بيان أنَّهم كذَّبوا بحقيقة السّاعة وحقيقة وجودِها، فكيف لايكذِّبون بوقوعِها وبالأخبار عن أحوالِها، فالاستفهام عن السّاعة على جهة الاستغراب في قولهم: ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أبلغ في التَّكذيب من أن يقولوا: كذَّبنا بوقوع السّاعة

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (درى).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293.

أو بأحوالِها؛ لأنَّ نفي العلمِ بحقيقة الشَّيء أبلغُ من نفي وقوعِه أو نفي أحوالِه، فيكون نفي العلم بحقيقتِها كنايةً عن جحد وقوعِها؛ استنادًا للتَّخيُّلاتِ الَّتي ظنّوها أدلَّةً كقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: 49].

نوع ﴿إِن﴾ ووظيفتها:

﴿إِن﴾ في قولِه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ نافية، وتفيد تأكيد النَّفي وتحقيقه؛ لأنَّ هذه الأداة تأتي غالبًا متعقّبةً بـ(إلّا)[1]، فقصد الكافرون تحقيق ظنِّهم وكونِهم ليسوا بمستيقنين.

معنى الظَّنِّ المقصود في الآية:

كلمةُ الظَّنِّ من المشترك اللَّفظيِّ

الظّاهرُ أنَّ الظَّنَّ المقصود في قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ هو المعنى المشهور للظَّنِّ الَّذي لايصل إلى اليقين، ويكون فوق الشَّكِّ المستوي الطَّرفين، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون ﴿نَّظُنُّ﴾ بمعنى العلم والاعتقاد، و﴿ظَنًّا﴾ بمعنى الشَّكِّ، فيُحمل الظَّنُّ المنفيُّ على الاعتقاد المطلق والمثبت بعد ﴿إِلَّا﴾ على موضوعِه، وهو الظَّنُّ المعروف، فيكون من قبيل استخدام اللَّفظ في معنيين، والتَّقدير: ما نعتقد السّاعة قائمة إلّا ظنًّا[2] أو إلّا شكًّا[3].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿نَّظُنُّ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿نَّظُنُّ﴾ تكرُّر ظنِّهم، وأنَّهم لا ينتقلون عن ذلك الظَّنِّ، بل لا يزالون ظانّين، ولهذا أخبر اللّه تعالى عنهم وعن طريقة تفكيرِهم بقولِه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس: 66][4].

فائدةُ مجيء ﴿ظَنًّا﴾ في الاستثناء المفرَّغ:

وتقدَّم أنَّ الظّاهر أن يكون الظَّنُّ على موضوعِه ومعناه المعروف،

---

(1) الرّاغب، المفردات: (إن).
(2) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 259.
(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1153.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 15.

أكثر ما يصل إليه المنكرون المعاندون بعد ظهور الدّلائل هو الظّنُّ بقيام السّاعة

ولمّا جاء الكلام بصيغة النَّفي والاستثناء في قولِه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أفادَ إثبات الظَّنِّ مع نفيِ ما سواه، فليس المقصود من التَّعبير بأسلوب النَّفي والاستثناء الإنكار على منكر، وإنَّما إثبات ظنِّهم وتقريره، كأنَّه قيل: نظنُّ ظنًّا، ثم دخل عليه النَّفي وإلّا لتأكيد الإثبات[1]، وفائدة التَّعبير بأسلوب الاستثناء المفرَّغ هو الاستثناء من أعمِّ الأحوال، بمعنى نفي أن يكون لهم أيُّ حالٍ، وفي جميع الأزمنة والأمكنة، سوى الظَّنِّ في وعد الله وفي قيام السّاعة، بمعنى أنَّكم وإن أتيتم بجميع الدَّلائل والآيات، فأكثر ما يصل إليه حالُنا هو الظَّنُّ بقيام السّاعة، ولن نصل إلى اليقين، ففي قولِهم هذا، إبلاسٌ من إيمانِهم بالسّاعة، وإيذانٌ باستحقاقِهم العذاب.

سرُّ اقترانِ المصدر مع الفعل:

استهزاءُ المنكرين للبعثِ، وإن حصل لهم الظَّنُّ في البعث، لكنَّه ظنٌّ لا يُعبَأُ به

في قولِه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ قد استثنى المصدر من الفعل، وهو مشكِل في ظاهرِه؛ لأنَّ الفعل لمّا كان يدلُّ على المصدر بتضمُّنه له؛ لأنَّ الفعل بنفسِه يدلُّ على الزَّمن والحدث؛ كان الظّاهر تقدير الكلامِ: إن نظنُّ إلّا نظنُّ، وهو ناقص من الكلام؛ لأنَّه من قبيل قولِهم: (ما ضربت إلّا ضربًا)؛ لأنَّ معناه، ما ضربت إلّا ضربت، ولا فائدة فيه[2]، فإنَّ الاستثناء يجري في الفاعل والمفعول وغيرهما إلّا أنَّه لا يُستثنى المصدر من الفعل، فلا يقال: ما ضربت إلّا ضربًا[3]، ويُجاب عنه بأنَّ الاستثناء على تقدير وصف في المستثنى بقرينة السّياق، وتقدير الكلام: إن نظنُّ إلّا ظنًّا قليلًا، أي: لا يُعبَأُ، أو لا يعتدُّ به[4]، أي: لا يصل ظنُّهم إلى أن يؤمنوا بالبعثِ، ويدلُّ على تقليل شأنِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109.

(2) مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 2/ 664، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 259.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 427.

(4) الزّركشي، البرهان: 4/ 92، والسّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 193، والعصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/ 334.

هذا الظَّنِّ، وأنَّه لا يُعبأ به مجيء الظَّنِّ نكرةً منوَّنًا؛ لإفادة تحقيرِه وتقليلِه[1]، أو يقال بأنَّ امتناع استثناء المصدر من الفعل ليس مطرَّدًا؛ لأنَّ مجيء الفعل بصيغة المضارع يفيد تكرار الظَّنِّ، فيتطرَّق إليه الاختلاف والتَّنويع؛ لأنَّ تكرار الظَّنِّ مؤذن بتنوُّعه واختلافِه، فيصحُّ الاستثناء منه حينئذٍ بمعنى الاستثناء من نوع من أنواع ظنونِهم[2].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾:

في هذه الجملة قصرٌ بالاستثناء بعد النَّفي، ويُؤتى به مع المخاطَب المنكر لمضمونه، وهو قصر موصوفٍ على صفة، وهو من القصر الإضافيِّ، على معنى: ما ظَنُّنا إلّا شيئًا لا يُعتدُّ به.

فنُّ الجناس في لفظ الظَّنِّ:

في قولِه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ جناس ناقص في لفظ الظَّنِّ بمجيئه بصيغة الفعل تارةً، وبصيغة المصدر تارة أخرى، وسبب التَّعبيرِ بطريق الجناس أنَّ الكافرين قصدوا به إثبات ظنِّهم في قيام السّاعة وعدم تزعزعِهم عنه إلى اليقين بها مع ظهور الدَّلائل وتلاوة الآيات.

نوعُ الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾ للعطف، فيكون العطف من قبيل المبالغة في عدم الإيمان بالسّاعة، فكأنَّهم أرادوا التَّرقّي في التَّكذيب، فعطفوا نفي الاستيقان، بالسّاعة على إثبات ظنِّهم وحدسِهم فيها.

سرُّ الجمع بين إثبات الظَّنِّ ونفي الاستيقان:

عنادُ الكافرين وشدَّة تكذيبِهم بالعدول من الظَّنِّ إلى عدم الاستيقان بإمكان البعث

العطفُ في الإخبار عن قول الكافرين في قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ بمنزلة الإخبار عن التَّردّي في كفرِهم، فإنَّهم لمّا أثبتوا ظنَّهم في السّاعة على سبيل التَّكذيب بها؛ عدلوا إلى تكذيبٍ أشدَّ، فنفوا استيقانَهم بها، فكأنَّهم قالوا: لم يحصل

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.

لنا من الآيات الَّتي تُتلى علينا إلّا الظَّنُّ، بل لم يحصل لنا منها إلّا عدم اليقين الشّامل للظَّنِّ والشَّكِّ[1]، فيكون العطفُ لِتأكيد نفي ما سوى الظَّنِّ وتقريره[2]؛ تقريرًا لعدم إيمانِهم بالسّاعة، ولِتكذيبِهم بها مهما تُليت عليهم الآيات، وظهرت دلائل الإيمان.

نكتةُ ذِكر ضمير ﴿نَحۡنُ﴾:

ذُكِرَ الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾؛ لتقرير عدم استيقانِهم، فإنَّ تقديم المسند إليه بصيغة الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ يفيد الحصر الإضافي، بمعنى نفي عدم الاستيقان عنهم حصرًا، أي: ما نحن بمستيقنين في إمكان السّاعة فضلًا عن وقوعِها، وإن كانت الآيات تُتلى علينا، وتوالت الدَّلائل والبيِّنات، وفي الحصر الإضافي إشارةٌ إلى أنَّهم قصدوا التَّعنُّت في قولِهم.

دلالةُ السّين والتّاء:

السّين والتّاء في ﴿بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾؛ للمبالغة في نفي يقينِهم، أو تكون السّين والتّاء للطَّلب، والمعنى: إنْ نظنُّ السّاعة قائمةً إلّا ظنًّا، ولسنا بطالبين اليقين فيها.

نكتةُ اختيار مفردة الاستيقان بصيغة اسم الفاعل:

عُبِّر بلفظ ﴿بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ للإشعار بنفيِهم أن يكون منهم استيقان، وأن يثبت فيهم، وإن تليت عليهم الآيات، وظهرت الدَّلائل.

الجمع بين كون الكافرين نافين السّاعة، وبين تردّدهم في إثباتها:

قد يقال: أخبر اللّه تعالى عن الكافرين إنكارَهم القيامة، فقال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وفي هذه الآية أخبر عن ظنِّهم وعدم استيقانِهم، فقال حكاية عنهم: ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾، فهل أنكر الكافرون السّاعة، أم كانوا في ظنٍّ وشكٍّ منها؟ وما توجيه الآيتين مع اختلاف المعنيين؟ وجوابه من وجوه:

أحدها: أنَّ القومَ الكافرين كانوا في هذه المسألة على فرقتين: فمِنهُم مَن كان قاطعًا بنَفي البَعثِ والقِيامةِ، وهم الَّذينَ ذكرهمُ اللّه في الآيةِ المُتقدِّمة بقوله وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، ومِنهُم مَن كانَ شاكًّا مُتحيِّرًا فيه؛ لأنَّهم لِكثرةِ ما سمعوهُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ، ولِكثرةِ ما سمعوهُ من دلائل القولِ بِصِحَّته؛ صاروا شاكِّينَ فِيه، وهُمُ الَّذين أرادهم اللّه

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16، والبسيليّ، نكت وتنبيهات: 3/ 508.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109.

بِهَذِهِ الآيةِ، والَّذي يدُلُّ عليهِ أنَّهُ تعالى حكى مذهبَ أولئِكَ القاطعِينَ، ثُمَّ أتبعَهُ بِحكايةِ قَولِ هؤُلاءِ، فوجبَ كَونُ هؤُلاءِ مُغايرينَ لِلفريقِ الأوَّلِ، فناسب ذكرهم هنا؛ ليكون الكلام شاملًا للفرقتين.

الثّاني: أنَّ القومَ كانوا فرقة واحدة، بمعنى اتِّحاد قائل ذاك وقائل هذا إلا أنَّ كلَّ قول في وقت وحال، فتارةً تقوَى عليهم الحظوظُ مع ما يقترنُ بها من الشُّبهةِ المبنيَّة على الجهلِ فيظنّونَ عدمَها، فيقطعونَ بهِ؛ لِما للنَّفسِ إليه من الميلِ، فيجزمونَ بالنَّفي، فيقولون: إن هِيَ إلّا حَياتُنا الدُّنيا، وتارةً يقوى عندهم ما في جِبِلّاتِهم وفِطَرِهم الأولى من أمرِها، فيظنّونها، فيقولون: إن نظنُّ إلّا ظنًّا[1].

الثّالث: أنَّهم كانوا منكرين للسّاعة، وأمّا إثبات ظنِّهم فيها؛ فإنَّهم قصدوا به أنَّكم حتَّى لو تليتم علينا آيات اللّه، فأقصى ما نصل إليه هو الظَّنُّ، ولن نصل إلى اليقين في السّاعة، أي: إن نَظُنُّ بعد قبول خبركم إلّا ظَنًّا لايؤدّي إلى اليقين[2]، وما دام الأمر ليس يقينًا بالنِّسبة لهم، فهُم منكرون لها.

الرّابع: هو أنَّهم على الإنكار، وإنَّما قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ بقصد الاستهزاء بالآيات، ولم يقصدوا إثبات حقيقة الظَّنِّ[3]، وقصدُهم ردُّ الإيمان بها، فيكون قولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ مفيدًا الإنكار لكلِّ آيةٍ تُتلى عليهم مع الاستهزاء والسُّخرية بها.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الدِّراية والعلم:

الفرق بينهما هو أنَّ الدِّراية هي الفهْمُ، وهي لنفي السَّهْو عَمّا يرد على الإنسان، فيدريه، أي: يفهمهُ، ويُستعمل فعل الدِّراية في المخاتلة

الـدِّرايـة هي الـفـهْـمُ عن طريق المعالجة في الأمر، فهي بمعنى التَّفهُّم، والعلم قد يحصل بأسباب، وقد يحصل من غير أسباب

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 682، والبقاعيّ، نظم الدّرّر: 18/ 111، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 156.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 90، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غرائب القرآن، ص: 293.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 372.

والتَّستُّر والمعالجة في الأمر، ومنه قولهم: داريْتُه؛ إذا خاتَلْته، والدَّرِيَّة: النّاقَةُ والبَقَرَةُ يَستَتِرُ بِها مِنَ الصَّيدِ، فيختِلُ، ولمّا كانت الدِّراية على وزن فِعالة – مثل عِصابة عِمامة – جرت مجرى ما يُعالج بالأسباب والوسائل للوصول إلى المعرفة، فتجري مجرى ما يفطنُ الإنسانُ لَهُ من المعرفَة، وأكثر ما يُستعمل فعل الدِّراية مسبوقًا بنفيٍ؛ لقصد نفي المعرفة بالأمر من حيث يظنُّ المقابل تحقُّقه بالعلم به، ولهذا لا يجوز أن يوصف اللّٰه تعالى بالدِّراية، فلا يقال: اللّٰه دارٍ، أو اللّٰه يدري هذا الأمر، وأمّا العلم؛ فقد يحصل عن طريق أسباب توصل إليه، وقد يحصل بلا سبب، ولهذا يصحُّ أن يوصف اللّٰه بالعلم، فيقال: هو عليم[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 91 - 92، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (درى، علم).

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٣﴾ [الجاثية: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّكذيبُ بالسّاعة ليس له جزاء إلّا دخول دار العذاب

لمّا وبَّخ اللّه تعالى الكافرين على تكذيبِهم بوعد اللّه وإنكارِهم للسّاعة واستهزائِهم بها؛ حكى حالَهم، وما يكونون عليه بعد عرض أعمالِهم عليهم؛ للإيذان بدخولِهم دارَ العذاب، فقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَدَا﴾: (بدو) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ ظهورًا بيِّنًا؛ لكونِه مطلعَ ظهور الشَّيء وبدايتَه، ولذا لا يحتاجُ إلى مجهودٍ في استظهاره واكتشافِه؛ لأنَّ أوائلَ الأشياء واضحةُ الظُّهور[1]، و"بدوتُ أبدو؛ إذا ظَهَرْتُ، وبدا لي الشَّيءُ بَدْوًا وبُدوًّا؛ إذا ظهر لك، وكلُّ شيء ظهر لك؛ فقد بدا لك"[2]، ومن ذلكَ: البَدْوُ، وهو خلافُ الحَضَرِ[3]، وسُمِّيَتِ الباديةُ بذلكَ؛ لأنَّها يظهرُ كلُّ ما فيها؛ لخُلوِّها من ساترٍ[4]، وجاء الفعلُ ﴿وَبَدَا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ بمعنى: ظهرَ لهم.

2) ﴿وَحَاقَ﴾: (حيق) أصلٌ يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[5]، ومِن ذلكَ يقالُ: حاقَ بِهِ كذا، أي: نزلَ به، وأصابَهُ[6]، حاق به الشَّيء يحيقُ، أي: أحاط به، وحلَّ به[7]، والحَيْقُ ما حاقَ بالإنسان من مَكْرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو)، والرّاغب، المفردات: (بدا).
(2) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (بدو).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدو).
(4) السَّمين الحلبي، عُمْدَة الحُفّاظ: (بدو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيق).
(6) الرّاغب، المفردات: (حيق).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حيق).

أو سوء عَمَلٍ يَعملُهُ، فينْزِلُ ذَلِكَ بِهِ، ويُحيطه[1]، والمرادُ بـ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: نزلَ بهم، وأحاطَ بهِم مِن جميعِ الجوانبِ، ووَجَبَ لَهُم[2]، وثبتَ، ولزمَ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وظهر لهؤلاء الَّذين كانوا يكذِّبون بآيات اللّه ما عملوا في الدُّنيا من الأعمال القبيحة، ونزل بهم من عذاب اللّه جزاء ما كانوا به يستهزئون[4].

وعيدُ الله سبحانه لا يتخلَّف

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

جاءت جملة: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: 31]، بتقدير: فيقال لهم، أي: فيقال لهم ذلك، وبدا لهم سيّئات ما عملوا، وسبب العطف الإيذان بأنَّه قد جمع للكافرين بين التَّوبيخ والإزعاج، فوبَّخوا بقوله: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: 31] الآيةَ، وأزعجوا بظهور سيّئات ما عملوا وانكشافِ الأمر لهم[5].

الجمعُ بين توبيخ الكافرين وإزعاجهم بانكشاف سيّئاتِهم يوم القيامة

براعةُ استعمالِ مفردة (بَدا):

عبَّر بمفردة (بَدا) دون أن يقال مثلًا: وظهر لهم، أو وانكشف لهم؛ لِما في البدوِّ من معنى الظُّهور البيِّن الَّذي يكون في مطلع الأمر، بحيث لا يحتاج إلى كلفةٍ في المعاينة، كما أنَّ في البدوِّ معنى الفجأة، بمعنى: أنَّهم لم يتوقَّعوا أن يكون الحال على ما هم عليه في يوم القيامة، فكأنَّه أُسقط في أيديهم، ويُفهم من لفظ (بَدا)

الكافرُ يُسقَطُ في يديه يوم القيامة، فيفاجأ بالسَّيّئات، وكان يظنُّها حسنات

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حيق).
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 185.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 535.
(4) مجموعة من المفسّرين، التّفسير الميسّر: 1/ 502.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 373.

أنَّهم عملوها في الدُّنيا، وعندهم أنَّها حسنات، فكانوا يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، فظهر لهم في الآخرة كون أعمالِهم سيِّئات[1]، أو المعنى: ظهر لهم في الآخرة، وتذكَّروا سيِّئات ما عملوا في الدُّنيا، أو بدا لهم جزاء سيِّئات ما عملوا وعقوبتها[2]، فالتَّعبير بالبدوِّ هو المناسب لتوبيخِهم وتنديمِهم على ما ارتكبوه من السَّيِّئات في الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَبَدَا﴾:

ظهورُ سيّئات الكافرين وانكشافها يوم القيامة أمر مقطوع به

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَبَدَا﴾ مع أنَّ الكلام في ما يقع في يوم القيامة، فهو من قبيل الإخبار عن المستقبل بصيغة الماضي؛ للإيذان بتحقُّق وقوع بدوِّ سيِّئات ما عملوا[3]، بمعنى: أنَّه أمر مقطوع به، ويمكن أن يكون تكييفه بلاغيًّا على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، بأن شبَّه الفعل المستقبل بالفعل الماضي بجامع قوَّة التَّحقُّق.

نوعُ اللّام ودلالتها في ﴿لَهُمْ﴾:

تقريرُ توبيخ الكافرين وتبكيتهم باختصاص بدوِّ السَّيّئات لهم دون غيرِهم

اللّامُ في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ للاختصاص؛ لتحقيق بدوِّ السَّيّئات لهم، فكأنَّ هذا البدوَّ لهم، وليس لغيرِهم، ففيه زيادة في التَّوبيخ والتَّبكيت.

تعيينُ مرجعِ ضمير ﴿لَهُمْ﴾:

الضَّميرُ يعود لأقرب مذكور إلّا إذا قامت قرينة على خلاف ذلك

يعود الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ إلى الاسم الموصول في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الجاثية: 31] بما اتَّصف به، أي: وبدا للَّذين كفروا، واستكبروا، وكانوا قومًا مجرمين، وقالوا: ما ندري ما السّاعة؟ وأنكروا وقوعَها؛ ليفيد عود الضَّمير تعداد سيِّئاتِهم، واستحقاقَهم الجزاء عليها، ففي التَّعبير بالضَّمير إيجاز في اللَّفظ.

بلاغةُ الالتفات في الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ﴾ بأسلوب الغيبة، ملتفتًا إليه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 75.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 445.

لا يناسب المستهزئين إلّا الإعراض عنهم يوم القيامة؛ ليجتمع عليهم العذاب النَّفسي والجسدي

بعد أسلوب الخطاب للكافرين في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾ [الجاثية: 31]، وقوله: ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: 32]، فكان الظّاهر أن يقال: (وبدا لكم سيِّئات ما علمتم)، لكنَّه عدل إلى الغيبة في موقع الحساب وإنزال العقاب؛ إيذانًا بشديد غضبِه تعالى عليهم، فلا يناسب المستهزئين إلّا الإعراض عنهم؛ ليجتمع عليهم العذاب النَّفسيُّ والجسديُّ.

غرضُ تقديمِ الجار والمجرور على المسند إليه:

ظهورُ سيّئات الكافرين يوم القيامة غاية الظُّهور بحيث لا يستطيعون إنكارَها

قدَّم الجار والمجرور على المسند إليه الفاعل في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ﴾؛ للاهتمام بظهور السَّيّئات لهم، بمعنى: ظهر لهم سيِّئات ماعملوا غاية الظُّهور، كما يُلمح في التَّقديم معنى التَّخصيص؛ لِما في بدوِّ السَّيّئاتِ من معنى المفاجأة السَّيّئة غير المتوقَّعة، الَّتي ترتَّب عليها تنديمهم وتوبيخهم.

نكتةُ استعمال مفردة ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ دون أن يقال: وبدا لهم معاصي ما عملوا أو آثام ما عملوا؛ لِما في مفردة ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ من معنى السّوء، فهي سيِّئة وجزاؤها سيّئ على صاحبِها، وظهورها سيّئٌ كذلك.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الكافرون تبدو لهم قبائح أعمالِهم يوم القيامة، فيعرفون وخامة عاقبتها

لمّا كانت الإضافة على معنى المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؛ أفادت إضافة السَّيّئات إلى الاسم الموصول، في قوله: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا﴾ مغايرة السَّيّئات للأعمال، فإمّا أن يكون المراد من السَّيّئات المعنى الحقيقيَّ، وهي القبائح، أي: بدا لهم قبائح أعمالِهم بعنى عاينوها، وعرفوا وخامة عاقبتها، وانكشف لهم وجهها القبيح، والمعنى: بدا لهم سيِّئات ما عملوا على الصّورة المنكرة الهائلة الَّتي هي عليها[1]،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 75، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 14.

وإمّا أن يكون الكلام على طريق المجاز المرسل بذكر سبب العقوبات، وهي السَّيّئات وإرادة المسبَّب، وهي العقوبات، والمعنى: وبدا لهم عقوبات أعمالِهم السَّيّئات[1]، وسبب العدول إلى المجاز - بالتَّعبير عن السَّيِّئات عن جزائِها - هو الإشارة إلى تمام المعادلة بين العمل وجزائِه، حتَّى جعل الجزاء نفس العمل على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التَّوبَة: 35][2]، وإمّا أن يكون مجازًا بالحذف، بتقدير حذف المضاف، أي: وبدا لهم جزاء سيِّئات ما عملوا[3].

سببُ إيثارِ الإضافة إلى الموصول دون أن يقال: سيِّئات عملِهم:

مـــن يـعـمـل السَّيّئات يظهر له قبيحُ عمله وآثـــارُ يـوم القيامة

جاء النَّظم الكريم بـ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: سيِّئات عملِهم؛ لِما تشعر به الإضافة إلى الاسم الموصول من ظهور قبح آثار أعمالِهم وظهور قبح أعمالِهم كذلك؛ لأنَّ إضافةَ الأثر إلى المفعول، وهو المؤثِّر، إنَّما تكون بعد إضافته إلى الفعل، فإذا بدَتْ لهم سيِّئات الشَّيء الَّذي عملوه، فأحرى أن تبدو لهم سيِّئات عملهم[4]، ولو قيل: وبدا لهم سيِّئات عملِهم؛ لأفاد ظهور قبح عملِهم فقط دون آثارِه.

غرضُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿عَمِلُواْ﴾:

التَّعبيرُ بالفعل الماضي؛ لتحقُّق أعـمـالـهـم في الدُّنيا على وجه الحقيقة

عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: (ما كانوا يعملون)، كما هو في كثير من الآيات؛ لأنَّه ليس المقصود إثبات استمرارِهم على عملِهم السَّيِّئ في الدُّنيا، وإن كانوا كذلك، بل المقصود مفاجأتهم ببدوِّ سيِّئات ما وقع من أعمالِهم بعد أن كانوا يظنّون أنَّها ليست سيِّئة، فإنَّ في التَّعبير بصيغة الماضي ﴿عَمِلُواْ﴾ تحقيقًا لوقوع عملِهم السَّيِّئ؛ ليترتَّب عليه تحقيق بدوِّ سيّئاته وانكشافِها لهم.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 427.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 109، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 159.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.

بلاغةُ الإطنابِ:

سوء الأعمال سببٌ لسوء الجزاء يوم القيامة

جاء قولُه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ على طريق الإطناب، دون الإيجاز في اللَّفظ، أي: لم يقل: وبدا لهم أعمالُهم، ونكتة العدول إلى الإطناب الإشعار بأنَّه بدا لهم أنَّ ما عملوا كان سيِّئًا قبيحًا، ولو قيل: وبدا لهم أعمالهم؛ لم يفد بدوَّ سوء أعمالِهم، مع أنَّ المقصود ظهور سوئِها لهم المشعر بسوء الجزاء عليها.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته ﴿مَا عَمِلُواْ﴾:

عبَّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾، دون أن يقال: سيِّئات أعمالِهم؛ لغرض إهانتِهم وإذلالِهم وتنديمِهم على فعلِهم، وللإيذان بتحقُّق وقوع أعمالِهم السَّيِّئة في الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالعمل دون الكسب:

كلُّ عملٍ يُبنى على الكفر سيّئ وقبيح، ويعاقب عليه صاحبه يوم القيامة

لما كان السّياق للكفرة، وكان الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ راجعًا إلى الَّذين كفروا، بما اتَّصفوا به من الأعمال، ولمّا كان السّياق في بيان أنَّ الكافرين مؤاخذون بجميع أعمالهم لبنائِها على الكفرِ، فإنَّه ليس لهم أساس صالح، يكون سببًا لتكفير شيء ممّا تقلَّبوا فيه؛ عُبِّر بالعمل في قوله: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾؛ لأنَّ العملَ أعمُّ من الكسب والصُّنع والفعل، فشمل اللَّفظ جميع أعمالِهم المبنيَّة على الكفر[1].

فائدةُ حذف العائد في ﴿عَمِلُواْ﴾:

حُذِفَ العائد في قولِه: ﴿عَمِلُواْ﴾؛ لإفادة عموم أعمالِهم، بمعنى: أنَّ كلَّ ما عملوه سيّئ قبيح، وهو المناسب للتَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ المفيد معنى العموم.

معنى الواو في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ للعطف المفيد الاشتراك بين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرّ: 18/ 112.

المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، بمعنى: أنَّه جمع عليهم بدوَّ سيّئات أعمالِهم وحوق ما كانوا به يستهزئون، كما يفيد عطف (حاقَ بِهِم) على ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ التَّرتيب في المعنى، بمعنى أنَّ حلولَ العذاب بهم وإحاطتَه لهم بعد بدوِّ سيِّئات ما عملوا، فيكون من باب تلقِّيهم الأشدَّ فالأشدَّ.

حلولُ العذاب بالمستهزئين وإحاطتُه لهم يوم القيامة بعد بدوِّ سيِّئات ما عملوا

براعةُ التَّعبيرِ بلفظ (حاقَ):

عبَّر بلفظ (حاقَ) دون لفظ (حلَّ)، أو ما يقاربُه في المعنى؛ لأنَّ لفظ (حاقَ) يفيد معنى أنَّه نزل، وحلَّ، وأحاط بهم، ولزمهم على حالِ الغلبة والقهر لهم، فلا ينفلتون منه، كما يفيد اللَّفظ أنَّ العذاب قد وجب عليهم؛ بسبب استهزائهم وتكذيبِهم، فما من لفظ يؤدّي هذه المعاني في بيان عقوبة المستهزئين بآيات اللّه تعالى مثل هذا اللَّفظ، ولفظ (حاقَ) لا يُستعمل إلّا في الضُّرِّ والأذى والمكروه[1].

لفظ (حاقَ) لا يُستعمل إلّا في الضُّرِّ والأذى والمكروه

بلاغةُ المجاز في إسناد (حاقَ) إلى ﴿مَّا﴾:

إسناد الفعل (حاقَ) إلى الاسم الموصول، في قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مجاز عقليٌّ، قصد به المبالغة في الجزاء والعقاب، فكأنَّ نفس ما كانوا به يستهزئون هو الَّذي حاق بهم، وأحاط بهم؛ تعبيرًا عن قبح استهزائِهم وهولِه، فيكون من قبيل تَنْزِيلِ العقاب منزلَةَ المُستهزَأ بِه، وفيه تنديم لهم على ما فعلوه، وقالوه، ويحتمل أن يكون الكلام على طريق المجاز بحذف المضاف، وتقدير الكلام: وحاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزِئون، أي: عقاب ما كانوا به يستهزِئون[2].

المبالغةُ في الجزاء والعقاب يوم القيامة للمستهزئين بآيات الله تعال

فائدةُ تقديمِ الجار والمجرور على الفاعل:

قدَّم ﴿بِهِم﴾ على الفاعل ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 234، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 90، والخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 602.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 90.

﴿بِهِۦ﴾؛ للاهتمام بإحاطةِ العذاب بهم، ويُلمح في التَّقديم معنى التَّخصيص، بمعنى: أنَّ إحاطة عذاب ما كانوا به يستهزئون ونزولَه يكون بهم، وليس بغيرِهم.

نوع ﴿مَّا﴾:

﴿مَّا﴾ في قولِه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ﴾ اسم موصول بمعنى الَّذي، وعبَّر بـ﴿مَّا﴾ دون الَّذي؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ أعمُّ من الَّذي وأشدُّ إبهامًا؛ ليعمَّ لفظ ﴿مَّا﴾ كلَّ ما يصدر من أقوالِهم وأعمالِهم الَّتي يقصدون بها الاستهزاء بآياتِ اللّه الظّاهرة البيِّنة.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته:

عبَّر بالموصول وصلتِه في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون أن يقال: وحاق بهم عملهم؛ لأنَّ في العدول عن الإضمار إلى الموصوليَّة تغليظًا لهم، وتنديمًا على ما فرَّطوا من أخذ العدَّة ليوم الجزاء[1]، كما أنَّ فيه تغليظًا لشأن الاستهزاء بآيات اللّه وبدينِه؛ للإيذان بأنَّ كلَّ من يستهزئ بآيات اللّه يحيق به العذاب يوم القيامة.

نوعُ الباء في ﴿بِهِۦ﴾ ودلالتها:

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ للسَّببيَّة[2]، والمعنى: حاق بهم ما كانوا بسببه يستهزئون، ويحتمل أن تكون الباء للإلصاق، بمعنى التصاق استهزائِهم بآيات اللّه وبالبعثِ؛ لتفيد الباء معنى المبالغة في استهزائِهم وتكذيبِهم، حتَّى صار استهزاؤهم ملتصقًا بآيات اللّه وبالبعثِ، أي: كلَّما رأوا آية من آيات اللّه؛ استهزَؤوا بها، وكلَّما ذكر البعث؛ استهزؤوا به، ففيه تقبيح لهم ولعملِهم الشَّنيع.

فائدةُ تقديم الجار والمجرور على الفعل:

قدَّم الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لتعظيم

كلُّ لفظٍ أو فعلٍ يُقصَد به الاستهزاء بآيات اللّه، وإن كان قليلًا يُعاقب عليه صاحبه

كلُّ من يستهزئُ بآيات الله يحيق به العذاب يوم القيامة

الجزاء من جنس العمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.

شأن استهزائِهم بآيات اللّه وبالبعثِ وتكذيبِهم بهما، ويُلمح في التَّقديم معنى التَّخصيص، بمعنى: أنَّهم ما كانوا يستهزِئون بشيءٍ في الدُّنيا سوى بآيات اللّه وبالبعثِ، كما أفاد تقديم الجار والمجرور رعاية الفاصلة ومناسبة رؤوس الآي في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

في تقديم ما حقُّه التَّأخير عناية بالمقدَّم، وقد يؤذن غرضه التَّخصيص

دالَّة تركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

يفيد تركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أنَّهم كانوا مستمرّين على استهزائِهم حتّى صار فيهم جبلَّةً وطبعًا ملازمًا لهم، لا ينفكّون عنه، كما أفاد التَّعبير أنَّهم يوجدون الهزء به على غاية الشَّهوة واللَّذَّة إيجاد من هو طالب لذلك راغبٌ فيه[1].

من جهل المستهزئين وقبحِهم أنَّهم يستهزئون بآيات الله على غاية الشَّهوة واللَّذَّة

بلاغةُ حسن الائتلاف:

في الآية حسن الائتلاف، فاقترن الفعل (بَدا) بـ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، واقترن (حاقَ) بـ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّ البدوَّ عبارة عن أوَّل ما يظهر من الشَّيء، و﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ يقتضي مطلقَ الذُّنوب النّاشئة عن مطلق ما اتَّصفوا به من العمل، والاستهزاء عبارة عن شدَّة ما اتَّصفوا به من القبيح، فناسب الاستهزاء لفظ الحوق الَّذي هو بمعنى الإحاطة، ففرَّق الأشدَّ بالأشدِّ، والأحقَّ بالأحقِّ[2].

لكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقام

بلاغةُ استعمالِ مفردة الاستهزاء دون السُّخرية:

عبَّر بمفردة الاستهزاء في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون أن يقال: يسخرون؛ لأنَّه قصد أنَّهم استهزؤوا بآيات اللّه وبالبعث، من غير موجبٍ من فعلٍ أو قولٍ يقع الاستهزاء من أجلِه، والتَّعبير بالاستهزاء يدلُّ على استخفافِهم بآيات اللّه المقتضي تكذيبها، كما أنَّ إسناد الاستهزاء إليهم يدلُّ على ارتيادهم الهُزُؤَ وتعاطيه، ولهذا لم يقل: (ماكانوا به يسخرون)؛ لأنَّ السُّخرية تدلُّ على فعل يسبق من المسخور مِنهُ[3].

الاستهزاءُ بآيات الله يدلُّ على الاستخفافِ بها وتكذيبِها

(1) البقاعي، نظم الدّرّر: 18/ 112.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254، والرّاغب، المفردات: (هزؤ).

بلاغةُ اختلاف التَّعبير عن الفاعل بين ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ و﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

براعةُ اقتران لفظ البدوِّ بالسَّيّئات ولفظ الحَوْق بما كانوا به يستهزئون

لمّا كان البدوُّ بمعنى الظُّهور؛ ناسب إسناده إلى السَّيّئات؛ لأنَّ الَّذي يظهر هو سوء أعمالِهم، ولمّا كان الحوق بمعنى النُّزول بالشَّيء على معنى الإحاطة به ولزومه ووجوبه؛ ناسب إسناده إلى قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ ليفيد أنَّ الَّذي كانوا به يستهزئون هو سبب نزول العذاب وإحاطتِه بهم ووجوبِه لهم، كما أنَّه لمّا قصد استمرار حلولِهم في العذاب؛ ناسب أن يعبِّر بتركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الدّالِّ على استمرارهم على الاستهزاء، فناسب العقاب العمل، واقترن كلُّ لفظ بما يناسبه، فلكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقامها.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البُدوّ والظُّهور:

البدوُّ ظهورٌ بعد خفاء، وفيه معنى المفاجأة، والظُّهور لا يلزم منه الخفاء قبله

الفرقُ بينهما هو أنَّ البدوَّ يكون بمعنى الظُّهور بعد خفاء، ويكون في طلعة الشَّيء، وفيه معنى المكاشفة والمجاهرة، كما يدلُّ البدوُّ على المفاجأة، ومنه قولهم: بدا له العيب في الحاجة الَّتي اشتراها، أي: تفاجأ بها، ولم يعلمها، فله الرَّدُّ بالعيب، بمعنى: بدا له الأمر بعد أن كان غير متوقَّع، وأمّا الظُّهور؛ فلا يلزم منه الخفاء، ومنه اسم اللّه تعالى الظّاهر، ولا يوصَف بأنَّه البادي، كما أنَّ الظُّهور قد يزداد؛ لأنَّ الشَّيء قد يزداد ظهورًا، بمعنى أنَّه ظاهر ثم يزداد ظهورًا، وليس كذلك البدوُّ، فلا يقال: بدا الشَّيء، ثمَّ ازداد بدوًّا؛ لأنَّ البدوَّ هو الظُّهور التّامُّ بعد خفاءٍ، وقال أبو هلال العسكريُّ في بيان الفرق بينهما: "الظُّهور يكون بِقصد وبغير قصد، تَقول: استتر فلان، ثمَّ ظهر، ويدلُّ هَذا على قصد للظُّهور، ويقال: ظهر أمر فلان؛ إن لم يقْصد لذَلِك... والبدوُّ ما يكون بِغَيْر قصد تَقول: بدا الصُّبْح،

وبدت الشَّمْس وبدا لي في الشَّيء؛ لأنَّك لم تقصد للبدوِّ"[1]، ومنه قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ لأنَّهم لم يقصدوا بدوَّ سيِّئات أعمالِهم، وما كانوا يريدون بدوَّها، فتفاجَؤوا ببدوِّها منكشفةً.

الاستهزاء والسُّخرية:

الاستهزاءُ يكون مـن غـير فعـلٍ سابق يُستهزأُ بـه مـن أجلـه، والـسّخـر يـدلُّ على فعل يُسْبق من المسخور مِنه

الفرق بينهما هو أنَّ الإنسان يُستهزأ بِهِ من غير أن يسْبق مِنهُ فعل يُستهزأ بِهِ من أجله، والسَّخرُ يدلُّ على فعل يُسْبَق من المسخور مِنهُ، وتعدية كلِّ فعلٍ منهما تدلُّ على المذكور، فإنَّ الفعل (استهزأ) يتعدّى بالباء، فيقال: استهزأ به، والباء للإلصاق، كَأنَّك ألصقت بِهِ استهزاء، من غير أن يدلَّ على شَيء وقع الاستِهزاء من أجله، ولهذا لم يأتِ في القرآن ذكر السُّخرية من آيات اللّٰه، والفعل سخرَ يتعدّى بـ(مِنْ)، فيقال: سخر منه، فيدلُّ على فعلٍ أو قولٍ وقع السُّخر من أجلِه، كما أنَّ السُّخرية تدلُّ على تعاطي السُّخر فقط دون ارتيادِه، ولذلك عبَّر بالاستهزاء في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ استهزاءَهم يكون في الذَّوات والأقوال والأفعال بخلاف السُّخرية الَّتي تكون في الذَّوات فقط، فقد كانوا يستهزِئون بالنَّبيِّ ﷺ وبآيات القرآن وبما يدعوه إليه، كما أنَّ الاستهزاء بالشَّيء يقتضي التَّكذيب به، والسُّخرية ليست كذلك، فقد يسخر قوم من المؤمنين من قوم آخرين مثلهم في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: 11]، بينما لم يرد الاستهزاء في القرآن إلّا على سبيل التَّكذيب واستحقاق العذاب عليه، فيكون التَّعبير بالاستهزاء أشدَّ قبحًا ومؤذنًا بالعقاب[2].

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254، والرّاغب، المفردات: (هزؤ).

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾ [الجاثية: 34 - 35]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تأييس المستهزئين بآيات الله من العفو والمغفرة فوق العذاب

لمّا أودعوا جهنَّم، وأحاطت بهم؛ نودوا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ الآية؛ تأييسًا لهم من العفو عنهم[1]، ولمّا ذكر جزاءَهم على ما هو مطابق لأعمالِهم؛ علَّله بما لزم من أعمالِهم، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النَّصر يدلُّ في أصلِه على إتيان خيرٍ وإيتائِه، فهو بمعنى العون[3]، أو يقال: يدور لفظ النَّصر على الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّة[4]، ونَصرَ اللهُ المُسْلِمِينَ نصرًا: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِم، وأعانَهم عليهم، ونُصِرَ القومُ؛ إذا أُغيثوا[5]، وأُعينوا، وهم بحاجةٍ إلى الإغاثة، والتَّناصر: التَّعاون الَّذي يترتَّب عليه الغلبة، والنَّصر العطاء؛ ولِذلِكَ يُسَمَّى المَطَرُ نَصرًا؛ لأنَّه نصرة الأرض، والانتِصارُ والاستِنصارُ: طلب النُّصرَة، واستُعمِل النَّصر بمعنى الإنقاذ أو الخلوص من العذاب؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 113.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نصر).

لأنَّه بمعنى العون، و﴿نَّٰصِرِينَ﴾ في الآية بمعنى منقذين[1]، أي: وما لكم من منقذين يخرجونكم من العذاب.

2) ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾: أصل كلمة (أخذ) يدلُّ على حوزِ الشَّيء وتحصيله وجمعِه على جهة القبض عليه بقوَّة ماديًّا أو معنويًّا، بحيث يكون في المتناول، ولهذا قيل للأسير: (أخيذ)[2]، وأَخَذَه بذَنْبه وآخذَه: عاقبه[3]، أصلها: ضبطه، أو تمكَّنَ منه، فعاقبه، ويقال: أَخَذْتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أَخْذًا، والأخذ خِلافُ العَطاءِ، والاتِّخاذ افتعال من الأخذ، بمعنى أخذ لنفسِه[4]، ففيه معنى القوَّة في التَّحصيل والتَّمسُّك بالمأخوذ وعدم النَّزع منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾.

3) ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾: أصل الغرِّ يدلُّ على الأثر الظّاهر من الشَّيء، ومنه غُرَّةُ الفرس الَّتي تكون في جبينِه، وغَرُّ الثَّوب: أثر كسره وطيَّتِه، وغرَّه غرورًا كأنَّما طوى يقظتَهُ، وأبقاه في الغفلة[5]، أو يقال: أصل الغرِّ يدلُّ على النُّقصان، ومنه: غارَّتِ النّاقَةُ تُغارُّ غِرارًا؛ إذا نَقَصَ لَبَنُها، والغِرارُ في الصَّلاة ألّا يُتِمَّ رُكوعَها أو سُجودَها، ومنهُ الغِرارُ: النَّومُ القَليلُ[6]، ومن النُّقصان غرَّه غرورًا، أي: خدعه؛ لأنَّ فيه نقصان اليقظة، والغِرار الغفلة[7]، والتَّغريرُ: الإطماعُ الباطِلُ[8]، و(غَرَّتۡكُمُ) في الآية بمعنى: خدعتكم[9].

4) ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾: أصل عتب يدلُّ على الأمرِ الَّذي فيه بعض الصُّعوبة من كلام أوغيره، ومِن ذَلِكَ العَتَبَةُ، وهِيَ أُسْكُفَّةُ البابِ، وإِنَّما سُمِّيَت بِذَلِكَ؛ لارتِفاعِها عَنِ المَكانِ المُطمَئِنِّ السَّهْلِ، وأعتبه بزيادة همزة السَّلب: أزال عَتْبَهُ عنه، ورجع عما يُغْضِبُ العاتب بإرضائه[10]، والاستِعتابُ: طَلَبُ العتابِ؛ وذلك ليُزيلَ العاتبُ من نفسه الغضبَ عَلى خَصْمِهِ، كما يأتي

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 109.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (أخذ).
(4) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(5) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غر).
(7) الرّاغب، المفردات والفيومي، المصباح المنير: (غرر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.
(9) الفيومي، المصباح المنير: (غرر).
(10) الراغب، المفردات: (عتب).

استَعتبَ بمعنى أعتب، أي: أزال عُتْباه، أي: غضبه[1]، و﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ في الآية بمعنى: لا يُعتبون، أي: لا يُرضَون بما يَسألون، ولا يُزال غضبُهم، أو بمعنى: لا يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ لأنَّه لا يُقبَل ذلك اليوم عذرٌ ولا توبةٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أوانُ التَّوبة والاعتذار يفوت يوم القيامة

يخبر اللّه تعالى عمّا يُقال للكافرين يوم القيامة؛ تأييسًا لهم من العفو عنهم، فيقول: وقيل للكافرين: اليومَ نَتْرُكُكُم في النّارِ، كَما تَرَكْتُمُ الإيمانَ والعَمَلَ لِلقاءِ هَذا اليَوم، ومستقرُّكم الَّذي تأوون إليه هو نار جهنَّم، وما لكم من ناصرين ينصرونكم ممَّن يعذِّبكم، ويخلِّصونكم من النّار، وهذا الَّذي حلَّ بكم من عذاب اللّه؛ بسبب أنَّكم اتَّخذتم آيات اللّه هزوًا وسخريَّةً تسخرون منها، وخدعتكم زينة الحياة الدُّنيا، فآثرتموها على العمل؛ لما ينجيكم اليوم من عذاب اللّه، ففي هذا اليوم لا يخرجون من النّار، ولا هم يردّون إلى الدُّنيا، فيُطلب منهم أن يرضوا ربَّهم بأن يرجعوا إلى طاعة اللّه؛ لفوات أوان التَّوبة والاعتذار[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تقريعُ المستهزئين بآيات الله بالجمع بين رؤية ما يكرهونه وسماع ما لا يرجونه

الواو في قولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ عاطفة لخبر على خبر؛ لاشتراكِهما في كونِهما جملتين فعليَّتين، وفي كونهما إخبارًا عمّا يقع للمستهزِئين يوم القيامة، بمعنى أنَّه لمّا أخبر عمّا يراه الكافرون المستهزئون يوم القيامة من بدوِّ سيّئاتِهم، الَّتي

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 9/ 56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 87 - 88، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 101، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110.

عملوها؛ عطف عليه ما يقال لهم؛ ليجمع عليهم تقريعهم برؤية ما يكرهونه وسماع ما لا يرجونه.

نكتةُ بناء فعل (قِيلَ) للمفعول:

كلُّ ما يُخاطَبُ به النّاس يوم القيامة حقٌّ؛ لأنَّه بأمرِ الله

بُنِيَ فِعْلُ (قِيلَ) للمفعول؛ حَطًّا لِلمستهزئين عَن رُتبَةِ أن يُصَرَّحَ باسم اللّه في حِكايَةِ الكَلامِ الَّذي واجَهَهُم بِهِ بِناءً عَلَى أنَّ ضَميرَ ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ ضَميرُ الجَلالَة، ولَيسَ مِن قَولِ المَلائِكَة، فَإن كانَ مِن قَولِ خَزَنَة جَهَنَّمَ؛ يكون التَّعبير بصيغة المبني للمفعول (قِيلَ) لِلعلم بالفاعل[1]، وللاهتمام بالمقول، بمعنى: إلفات نظرِهم إلى المقول؛ لأنَّه هو المقصود، وليس العلم بالقائل، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ كلَّ ما يُخاطَبُ به النّاس في ذلك اليوم حقٌّ؛ فليس من ضرورة للعلم بالقائل لهول الموقف أوَّلًا، ولأنَّ النّاسَ لا يُخاطَبون بشيءٍ يوم القيامةِ إلّا بأمر اللّه.

معنى (الـ) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

خسارةُ المبطلين في نسيانهم يوم القيامة من ربِّ العالمين

(الـ) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للعهد الصَّريح، أي: اليوم الحاضر الَّذي أنتم فيه، ويُقصَد به يوم تقوم السّاعة الَّذي يخسر فيه المبطلون، ففي التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ إشارة إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾ [الجاثية: 27]، أي: اليوم تظهر خسارة المبطلين، وتتحقَّق بتركِ اللّه تعالى لهم ونسيانِهم في العذاب، كما نسوا لقاء يومهم هذا، ولم يعدّوا العدَّة له.

نكتةُ تقديم الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على عامله:

تعظيمُ شأنِ يوم القيامة وتفخيم ما يقع فيه من الجزاء

قُدِّمَ ظرف الزَّمان ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على عاملِه ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾؛ للتَّنبيه إلى عظمة هذا اليوم لِهولِه ولشدَّة ما يقع فيه، ولأنَّه يوم الجزاء، كما أنَّ في التَّقديم تخصيصًا للعامل، بمعنى: اليوم الَّذي أنتم حاضرون فيه نساكم، ونترككم في العذاب، وليس في أيِّ يوم آخر؛ لأنَّه يوم الجزاء.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.

نكتةُ إسناد الفعل للفاعل في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾:

نسيانُ الكافرين في العذاب متحقِّق، وهو معلوم عند من يتركهم فيه

قد يقال: لماذا جاء فعل القول محذوف الفاعل، وفعل ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ مسندًا إلى الضَّمير بصيغة المبني للفاعل؟ والجواب هو أنَّ الضَّمير في ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ سواء أكان هو ضمير الجلالة، أو أن يكون راجعًا إلى الملائكة من خزنة جهنَّم، فإنَّ التَّصريح بالفاعل في الفعل ننساكم مع حذفه في ﴿وَقِيلَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ نسيانهم في العذاب متحقَّقٌ، وأنَّه معلوم عند من ينساهم، ولو قيل: وقيل اليوم تنسَون؛ لكان ربَّما توهَّموا أن يخرجوا من العذاب، بأن يغفل عنهم من ينساهم لعدم علمِهم به وعدم تعيُّنه عندهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازي في فعل ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾:

مــن زرع في مـزرعـة الدُّنيا بـذور النِّسيان؛ أثـمـر في الآخـرة ثمرة النِّسيان

لمّا كان الكافرون لا يُنسَون يوم القيامة؛ لأنَّهم لو كانوا يُنسَونَ؛ لسلموا من العذاب، كما أنَّ النِّسيان في حقِّه تعالى محالٌ، كما أنَّ اقترانه باليوم يمنع حمله على الحقيقة؛ لاستحالة نسيان الأمر الحالي؛ إذ هو مرئيٌّ ومشاهد، وإنَّما يُنسي الغائب[1]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ كان لفظ النِّسيان في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾ على المجاز، فإمّا أن يكون مجازًا مرسلًا بإطلاق النِّسيان على التَّرك المؤبَّد؛ لأنَّ النِّسيانَ يستلزم ترْكَ الشَّيء في محلِّه أو تركِه على حالتِه الَّتي هو عليها، والمعنى: اليوم نترككم في النّار وفي العذاب، كما تركتم أنتم العمل لذلك اليوم والنَّظر فيه، وتركتم عدَّة لِقاءَ يَومِكُم هذا، وهي الإيمان والطّاعة، وإمّا أن يكون النِّسيان مستعارًا استعارةً تبعيَّة؛ للإهمالِ وعدم المبالاة، وأصله من تشبيه الشَّيء الَّذي لا قيمة له، فيطرح غير مبالًى به بالشَّيءِ المنسيِّ، فيكون نسيًّا منسيًّا، والمعنى: اليوم نجعلكم في النّار بمنزلة الشَّيء

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.

المنسيِّ غير المبالى به، لا يكترث إليكم، ولا يلتفت، ولا يعبأ بكم، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم، ولم تخطروه ببال، وكما صيَّرتم هذا اليوم كالشَّيء الَّذي يُطرح نسيًّا منسيًّا، لم تكترثوا إليه، ولم تعملوا له[1]، وعلى الوجهين فإنَّ في التَّعبير بالنِّسيان استهانةً بهم في موضع حاجتِهم واضطرارِهم، كما أنَّه سُمّيت العقوبة في هذه الآية، أي: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ باسم الذَّنب، أي: ﴿نَسِيتُمْ﴾، وجاءت على وفقِها مطابقة لها[2]، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ بعض المفسِّرين ذهبوا إلى أنَّ قولَه: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ واردٌ على المشاكلة[3]، وإن تقدَّم على صاحبه؛ بسبب تقديم المعلول على العلَّة، فيكون قد ذكر: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ - مع أنَّ النِّسيان في حقِّه تعالى محالٌ - لوقوعه في صحبة ﴿نَسِيتُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ العقوبة على وفق الذَّنب، كما تقدَّم.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾:

تعليقُ المضارع بالمشكوك في تحقُّقه يؤذن بتجدُّده أو تصويره حيًّا

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾؛ للدَّلالة على استمرار تركِهم في النّار وبقائِهم فيها، أو للدَّلالة على استمرار عدم المبالاة بهم، وعدم الاكتراث بعذابِهم وبقائِهم في النّار، ويمكن أن يكون غرض التَّعبير بالفعل المضارع هو تصوير المشهد الفظيع، كأنَّه رأي عين أمام القارئ.

نوعُ الكاف ودلالتها في قوله: ﴿كَمَا﴾:

سببُ نسيان الكافرين في العذاب إعراضهم عن الإيمان والعمل الصّالح في الدُّنيا

الكافُ في: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ للتَّعليلِ، كَما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: 198]، والتَّقدير فاليوم ننساكم لنسيانِكم لقاء يومكم هذا، أي: لإعراضِكُم عَنِ الإيمانِ بهذا اليوم، وما يتبعه

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 234، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 90.

(3) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 262، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 128، و13/ 195.

من العدَّة والعمل[1]، ويمكن أن تكون الكاف للتَّشبيه، وذلك بتشبيه نسيانهم في ذلك اليوم بنسيانهم لقاء اللّه تعالى، فيكون جزاؤهم من نفس العمل الَّذي عملوه.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿نَسِيتُمۡ﴾:

مَـنْ وقـع منه نسيان لقاء الله وقتًا ما وإن قلَّ؛ كـان عـلى خطر عظيمٍ

عبَّر بصيغة الماضي ﴿نَسِيتُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ عقابَهم بسبب تحقُّق نسيانِهم، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ مَن وقع منه نسيان لقاء اللّه وقتًا ما وإن قلَّ؛ كان على خطر عظيمٍ بتعريضِ نفسه لاستمرار الإعراض عنه وعدم المبالاة به[2].

سببُ إيثارِ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

لـقـاءُ الـلـهِ لا يُنسى، ولا يغيب عن القلب

لم يقل: فاليوم ننساكم كنسيانِكم لقاء يومكم هذا، بل عبَّر بالمصدر المؤوَّل، فقال: ﴿كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾، والسَّبب هو الإخبار عن أنَّ سبب نسيان اللّه تعالى لهم هو مجرَّد معنى الحدث، أي: مجرَّد نسيانهم لقاء اللّه تعالى دون احتمال معنى زائد عليه أو وصف مقيَّد له بأن كان لسبب ما أو كان نسيانًا قليلًا أو كثيرًا؛ ليفيد قطعَ حجَّتهم؛ لأنَّ لقاء اللّه لا يُنسى، فهو يقين في القلب، ففي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل تحصين للمعنى من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3].

بديع الجناس في ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾:

مـن نـسي لقاء الـلـه تـعـالى؛ تركه، ولم يبالِ به يوم القيامة

جاء الفعلان ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾ على طريق جناس الاشتقاق؛ للإشعار بأنَّ الجزاء من جنس العمل، فقد تركهم اللّه تعالى، ولم يبالِ بهم يوم القيامة؛ لتركِهم الإيمان به تعالى وبيوم البعثِ وتركِهم إعداد العدَّة له.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 113.
(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/ 93.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿لِقَآءَ﴾:

لمّا كان اللِّقاء هو مقابلة الشَّيء ومصادفته معًا عن قربٍ[1]؛ عبَّر باللِّقاء في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾؛ للإشعار بمقابلتِهم للأحداث الَّتي تقع يوم القيامة ومصادفتِهم لها، وهم متحقِّقون منها، وناسون لها نسيان تكذيب وتحقير، كما أنَّ في التَّعبير باللِّقاء إشارة إلى لقائِهم ذلك اليوم، وما فيه من أهوال بالحسِّ وبالبصرِ وبالبصيرة[2]، وإلى أنَّهم يلاقون ذلك اليوم، وهو لاقيهم، فإنَّ ما تستقبله أنت؛ فهو أيضًا يستقبلك.

الكافرون يلقون يوم القيامة ما وُعدوا به في الدُّنيا بالحسِّ وبالبصر وبالبصيرة

بلاغةُ إضافةِ المصدر إلى ظرف الزَّمان:

أُضيف اللِّقاء إلى اليوم في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى ظرف الزِّمان على التَّوسُّع في الظَّرف، بإقامتِه مقام المفعول به؛ إذ أضاف إليه ما هو واقع فيه[3]، فتكون الإضافة بطريق المجاز الحكمي، وذلك للإيجاز؛ وإنَّما لم تكن الإضافة إلى المفعول على الحقيقة؛ لأنَّ التَّوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه، بل نسيان لقاء ما فيه من الجزاء[4]، فالمراد من نسيان لقاء اليوم نسيان لقاء جميع ما فيه، وهو الأنسب بالمقام؛ لأنَّ السّياق في إنكار البعث[5]؛ ليشمل الكلامُ توبيخَهم على كلِّ ما يلقونه في ذلك اليوم، بمعنى أنَّ ذلك اليوم قد حوى كلَّ ما يلقونه، وأهمُّ ما فيه الجزاء على تركِهم الإيمان وطاعة الله تعالى، وإنَّما عبَّر بطريق المجاز؛ لتهويل اليوم، وليكون أعمَّ في التَّوبيخ والتَّقريع، فإنَّ مَن نَسِيَ لقاءَ اليوم؛ نَسِيَ لقاءَ الكائنِ فيه بطريق الأولى[6]، فالإضافة هنا مثل إضافة

مَن نَسِيَ لقاءَ اليومِ نسيَ لقاء الكائن فيه بطريق الأولى

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 375.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 23، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 159.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 23.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 112.

المكر في قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33][1]، ويحتمل أن تكون الإضافة على مجاز الحذف بتقدير مفعول محذوف، أي: كما نسيتم لقاء الله في يومكم هذا[2]، وعلى كلِّ تقديرٍ؛ فإنَّ إضافةَ المصدر إلى الظَّرف فيها من الرَّشاقة والبلاغة ما فيها.

الإيجازُ في المجاز

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾:

أُطلِقَ اليوم في قولِه: ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾ على ما فيه من الأحداث المتنوِّعة على سبيل المجاز المرسل، فبدلًا من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعثِ إلى قضاء الجزاء على الأعمال، وبدلًا من تعداد كلِّ ما نسوه أوجز في اللَّفظ، فعبَّر بالزَّمان الَّذي يحوي جميع هذه الأحداث، فقال: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾[3].

تعليقُ اليوم بالمؤمنين بشارة، وبالكافرين نذارة

غرضُ إضافة اليوم إلى الضَّمير:

إضافَةُ (يَوم) إلَى ضَميرِ المُخاطَبِينَ في ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾ باعتِبارِ أنَّ ذَلِكَ اليَومَ ظَرفٌ لأحوالٍ مهمَّة تَتَعَلَّقُ بهِم، فَإنَّ الإضافَةَ تَكونُ لِأدنَى مُلابَسَةٍ، كما في إضافة اليوم إلى ضمير المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103][4]، ويحتمل أن تكون الإضافة بمعنى اللّام، فتكون للاختصاص، فيوم القيامة له أهوال يختصُّ بها الكافرون، وألطاف يختصُّ بها المؤمنون، كما قال تعالى في وصف حال المؤمنين في يوم القيامة: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103]، فأضاف اليوم إلى الضَّمير العائد إلى المؤمنين، ففي إضافة يوم إلى الضَّمير العائد إلى الكافرين في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾ إشعارٌ باختصاصِهم بهذه الأهوال المرعبة، فيوم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

القيامة حين إضافتِه إلى ضمير المؤمنين بأن يقال: يومكم يُقصد به يوم البشارة والثَّواب، وحين إضافتِه إلى ضمير الكافرين يُقصد به يوم النِّذارة والعقاب.

دلالةُ استعمال اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تنوُّع المقاصد والفوائد بنعت اليوم باسم الإشارة

وُصِفَ اليوم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾؛ لتمييزِ يومِهم أكمل تمييز، فإنَّه بعد أن عرَّفه بالإضافة، وعيَّنه بقولِه: ﴿يَوْمِكُمْ﴾، وصفه باسم الإشارة؛ لتقريرِ تعيينِه وتشخيصِه لأجلِ تهويلِه، ولئلّا يلتبس عليهم بيوم آخر[1]، وليكون في تقرير تشخيص اليوم زيادةٌ في توبيخِهم وتنديمِهم وحسرتِهم، ولتثبيت أنَّه يوم الجزاء على نسيانِهم له.

بلاغةُ العدولِ في عطف الجملة الاسميَّة على الفعليَّة:

تَرْكُ الكافرين في النّار مؤبَّد

عُطِفت الجملة الاسميَّة: (مَأواكُمُ النّارُ) على الجملة الفعليَّة: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ على طريق العدول في الصّيغة من الفعليَّة إلى الاسميَّة للمبالغة في التَّهديد[2]؛ لِما في الجملة الاسميَّة من معنى الثُّبوت، أي: لِيعلموا أنَّ تَرْكَهم في النّار مؤبَّدٌ[3].

نكتة التَّعبير بلفظ المأوى:

النّارُ مأوى مَن نَسِيَ اللهَ، وانشغلَ عن طاعتِه، والجنَّةُ مأوى مَن ذكرَ اللهَ، ولَزِمَ طاعتَهُ

المأوى: هو الموضع الَّذي يسكنه الشَّخص بعد إيوائِه من عملِه؛ ليكون مقرَّ راحتِه وإقامتِه، ويكون فيه عامَّة أوقاته أو كلها أجمع[4]، وعبَّر بالمأوى في قولِه: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ للإشعار بأنَّ حياتَهم الدُّنيا كانت مكان عملِهم، وأنَّ مرجعَهم إلى النّار يأوون إليها، فالمعنى: أنَّكم قد أويتم إلى النّار، فأنتم باقون فيها[5]، فالنّار مأوى من نسي اللّه، وانشغل عن طاعتِه، والجنَّة مأوى من ذكر اللّه، ولزم طاعته.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 90.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

دلالة استعمال لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ دون رديفاتها كجهنَّم:

النّار هو الاسم الّذي يشمل جميع طبقات العذاب يوم القيامة

لمّا كان الكلام مع عموم الكافرين بجميع طبقاتِهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: 31]؛ ناسب التّعبير بالاسم الّذي يشمل مأواهم في جميع طبقات العذاب، وهو لفظ النّار، فقال تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

دلالةُ عطف جملة النّفي على الإثبات:

أفاد عطف الجملة المنفيَّة على المثبتة مزيدًا من الوعيد والتّهديد

لمّا ذكر تعالى أنَّه تاركٌ للكافرين في العذاب، وأنَّ مثواهم النّار؛ دفع ما قد يتوهَّم أنَّه قد ينصرهم ناصرٌ، أو يدفع عنهم دافعٌ، فيستنقذهم من النّار وأهوالِها وشدَّة عذابِها، فناسب أن يعبِّر بأسلوب النَّفي؛ لدفع هذا التَّوهُّم، فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، فالمقصود قطْعُ الباب عليهم بأنَّه ليس من ناصرٍ لهم.

دلالة ﴿مِّن﴾:

نفي النّاصرين أبلغُ من نفي القدرة على نصرِهم؛ لأنَّه نفيٌّ لحقيقة وجود ناصرٍ أصلًا

لمّا دخل حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ على الاسم النَّكرة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾، وكان في سياق النَّفي؛ أفاد النَّصَّ على عموم نفي أيِّ ناصرين للكافرين من النّار، فيشمل نفي الواحد والمجموع، أي: لا ناصرَ واحدًا ولا مجموعةً من النّاصرين لهم يوم يكون مأواهم النّار، كما أنَّ نفيَ الجمع يفيد بطريق الأولى نفي قدرة الفرد الواحد على نصرِهم، ولم يقل: ولا قدرةَ لأحدٍ على نصرِهم؛ لأنَّ نفي النّاصرين أبلغُ من نفي القدرة على نصرِهم؛ لأنَّه نفيٌّ لحقيقة وجود ناصرٍ أصلًا.

نكتةُ التَّعبير بمفردة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾:

لمّا قال تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، والمأوى هو موضع استقرار وسكن؛ ناسب نفي النّاصرين لهم؛ للإشعار برسوخِهم في النّار وشدَّة استقرارِهم فيها، وأنَّهم في النّار في حالِ المغلوبين المقهورين الّذين لا منقذَ لهم، أي: ما لكم من ناصرين يخلِّصونكم من النّار،

لیس للکافرین من ناصرین أصلًا یوم القیامة، ولا وجود لهم في الحقیقة

وينقذونكم منها بقهرٍ أو بشفاعةٍ أو بفديةٍ[1] أو بأيِّ طريقة أخرى، ولهذا لم يقل مثلًا: وما لكم من شافعين؛ لأنَّ نفي النّاصرين لهم يشمل نفيَ كلِّ معونةٍ أو إنقاذٍ أو تخليص لهم من النّار، سواء أكان بشفاعة أو غيرِها، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام، وعبَّر بصيغة الجمع في نفي النّاصرين؛ للإشعار بشدَّة قهرهم فيها، بمعنى: إن تُصوِّر وجود ناصرٍ لهم؛ فإنَّما يكون بجمع النّاصرين كلِّهم، ولا يقدرون عليه؛ لِعظم الأمر وشدَّته، والحالُ أنَّه ما لهم من ناصرين أصلًا، ولا وجود لهم في الحقيقة.

مناسبةُ جمع ثلاثة أنواعٍ من العذاب:

وجوهُ العذاب المتلاحقة تؤذن بالبقاء فيه

جَمَعَ اللّه تَعالَى على الكافرين من وجوه العذاب الشَّديد ثلاثة أنواع، فأوَّلها: قطْعُ الرَّحمة عنهم بالكلّيَّة، وترْكُهم في العذاب، وثانيها: أنَّه يصير مأواهم النّار؛ ليستقرّوا فيها، وثالثها: عدم وجود الأعوان والأنصار؛ لينقذوهم من النّار[2]، ويُلحظ في العطف التَّرتُّب بين المعطوفات، فإنَّه إنَّما نفى الأنصار؛ للإيذان ببقائِهم في النّار وقهرِهم فيها، وإنَّما ذكر أنَّ مأواهم النّار؛ لأنَّه مسبَّب عن ترْكِهم وقطع الرَّحمة عنهم.

مناسبةُ الفصل في قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ﴾:

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها في مقام بيان السَّبب والعلَّة؛ لاجتماع ثلاثة أنواع من العذاب عليهم، فالفصل إمّا لكمال الاتِّصال، أو للاستئناف البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حول سبب جزائهم.

براعةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكُم﴾:

عبَّر بـ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ ليشير إلى مجموع أنواع العذاب الثَّلاثة؛

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 682، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 375، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 166.

لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، وجاء بصيغة المفرد؛ للإشعار بأنَّ مجموع أنواع العذاب كلِّها صارت عذابًا واحدًا عليهم، فيكون أشدَّ أذًى عليهم، وعبَّر بصيغة اسم الإشارة - الَّذي هو للبعيد - إشارة إلى عظم كلِّ نوعٍ من أنواع العذاب وشدَّته، فكيف إذا اجتمع عليهم قطْعُ الرَّحمة عنهم، واستقرارهم في النّار، ونفي النّاصرين لهم؟

مجموعُ أنواع العذاب كلِّها صارت عذابًا واحدًا على الكافرين، فيكون أشدَّ أذًى عليهم

نوعُ الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِأَنَّكُمُ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ سببيَّة؛ لبيان علَّة اجتماع العذاب عليهم، وعبَّر بالباء دون اللّام، أي: لم يقل: (ذلكم لأنَّكم)؛ لِما في الباء من رائحة الإلصاق؛ ليكون التَّعبير بالباء فيه إشارة إلى التصاقِهم بالأسباب ولزومهم لها، وعدم انفكاكِهم عنها في الحياة الدُّنيا، والمقصود من ذكر سبب العذاب كشْفُ حالِ الكافرين، وإلزام الحجَّة عليهم يوم القيامة، وفيه كذلك تحذير السّامعين ممَّن يكون في هذه الحياة الدُّنيا من التَّورُّط في الاغترار بها.

تحذيرُ السّامعين من التَّورُّط في الاغترار بالحياة الدُّنيا

غرضُ ذكر ﴿بِأَنَّكُمُ﴾:

علَّق سبب عذابِهم بقولِه: ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمُ﴾؛ للإيذان بأنَّ السَّبب متعلِّق بذواتِكم وبأفعالِكم، وليس بأفعالِكم فقط، ولهذا لم يقل: (ذلكم باتِّخاذكم)، ففيه زيادة في توبيخِهم وتقريعِهم؛ للإيذان بفساد ذواتِهم وأفعالِهم، كما أنَّ في مجيء المسند جملة فعليَّة تقويةً للحكم وتحقيق له، بمعنى: أنَّه لا سبب سوى أنَّكم أنتم اتَّخذتم آيات اللّه هزوًا، وغرَّتكم الحياة الدُّنيا.

لا سبب لدخول المستهزئين النّار سوى أنَّهم اتَّخذوا آيات اللّه هزوًا، وغرَّتهم الحياة الدُّنيا

نكتةُ استعمالِ مفردة الاتِّخاذ:

عبَّر بلفظ الاتِّخاذ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾؛ للإشعار بقوَّة تمسُّكهم بالاستهزاء بآيات اللّه، وعدم انفكاكِهم عنه ولزومِهم له وحرصِهم عليه، وعدم نزعِهم عنه؛ ليفيد بلازمِه تكرُّره منهم، ولو قيل: (ذلكم بأنَّكم استهزأتم)؛ لأفاد إثبات استهزائِهم بآيات

أشدُّ أنواعِ الكفر التَّمسُّك بالاستهزاء بآيات اللّه تعالى والاستمرار عليه

اللّه مطلقًا، وقد يكون مرَّة أو أكثر، والحال هو أنَّهم كانوا مستمرّين على الاستهزاء حريصين عليه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾:

لمّا كان الاتِّخاذ يكون لِما هو محسوس؛ لأنَّ الأخذ هو حَوْزُ الشَّيءِ وجَبيُهُ وجَمْعُهُ، ويكون بالتَّناول؛ كان إسناد الاتِّخاذ إلى آيات اللّه في قولِه: ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من باب الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذ شبَّه إعراضهم عن هذه الآيات بالاتِّخاذ لها بجامع التَّمكُّن في الاستهزاء؛ إشعارًا بأنَّهم جعلوها كالمحسوسات في قوَّة اتِّخاذِهم لها هزوًا وحرصِهم على الأمر.

غرضُ إضافة الآيات إلى اسم الجلالة:

في قولِه تعالى: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أفادت إضافة الآيات إلى الاسم الجليل تعظيم هذه الآيات وشدَّة قبح فعلِهم والتَّعجيب منه، أي: كيف يستهزئون بالآيات، والحال أنَّها آيات اللّه؟

التَّعجيبُ ممَّن يستهزئ بالقرآن، والحالُ أنَّها آيات الله تعالى

نكتة إيقاع ﴿هُزُوٗا﴾ مفعولًا ثانيًا:

لمّا أسند الفعل ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾ إلى مفعولين، وهما ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾، وكان ﴿هُزُوٗا﴾ مفعولًا ثانيًا، وكان الفعل (اتَّخَذ) من أفعال التَّصيير والتَّحويل؛ أفاد أنَّهم صيَّروا آيات اللّه هزوًا، وهي ليست كذلك، فيكون اتِّخاذُهم المذكور افتراءً منهم وتكذيبًا للحقيقة؛ لأنَّ آيات اللّه ليست موضعًا للهزوِ.

الاستهزاء بآيات الله تكذيب للحقيقة وافتراء عليها

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿هُزُوٗا﴾:

لمّا كان الأصل في المفعول الثّاني للفعل - الَّذي يأخذ مفعولين - أن يكون وصفًا مشتقًّا؛ لأنَّ الفعل (اتَّخَذ) يدخل على ما أصله مبتدأ وخبرٌ؛ كان قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ بتقدير اتَّخذتم آيات اللّه مستهزأ بها؛ ليكون المصدر بتقدير اسم المفعول، ونكتة التَّعبير بالمصدر المبالغة في المعنى، أي: إنَّهم جعلوا آيات اللّه مورد

أيُّ استهزاءٍ بآيات الله، ولو مرَّة واحدة؛ فإنَّه يعدُّ هزوًا بها

الهزو ونفس الهزو[1]؛ للإيذان بكثرة استهزائِهم بها واستمرارِهم عليه، كما أنَّ في التَّعبير بالمصدر إشارةً إلى أنَّ أيَّ استهزاءٍ بآيات اللّه، ولو مرَّة واحدة؛ فإنَّه يعدُّ هزوًا.

نكتةُ عطف فعل (غَرَّتكُمُ) على ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾:

الاغترارُ بالحياة الدُّنيا سبب للعذاب يوم القيامة

عطف الفعل (غَرَّتكُمُ) على ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾؛ للإشارة إلى اجتماع السَّبب المحسوس: وهو اتِّخاذ الآيات هزوًا، والسَّبب المعنويِّ: وهو الخداع، ولمّا كانت الجملة الفعليَّة: (غَرَّتكُمُ) معطوفة على ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ﴾؛ أفاد أنَّه أخبر عنهم بخبرين، وتقدير الكلام بأنَّكم اتَّخذتم آيات اللّه هزوًا، وبأنَّكم غرَّتكم الحياة الدُّنيا، فيكون غرورهم بالحياة الدُّنيا داخلًا في بيان سبب عذابِهم.

سببُ إيثار عطف الاغترار على الاستهزاء بآيات الله:

الاستهزاء بآيات الله تعالى أقبح عند الله تعالى من الاغترار بالحياة الدُّنيا، وكلاهما مذموم

لم يقل: ذلكم بأنَّكم غرَّتكم الحياة الدُّنيا، واتَّخذتم آيات اللّه هزوًا؛ لأنَّه لمّا كان الظّاهر في العطف أن يكون المعطوف عليه أشدَّ من المعطوف وأقوى منه؛ لأنَّ المتكلِّم إنَّما يقدِّم الَّذي هو عنده أولى وأهمُّ؛ أفاد أنَّ الاستهزاء بآيات اللّه تعالى أقبحُ عند اللّه تعالى من الاغترار بالحياة الدُّنيا، مع أنَّ كليهما قبيحٌ ومذموم؛ فإنَّ الاستهزاء تكذيب وتشهير وخداع من المستهزئين، والاغترار بالحياة الدُّنيا أمر راجع إلى الفرد؛ لانخداعِه بها وبزينتها وتركِه الإيمان والعمل الصّالح.

بلاغةُ المجاز العقلي في إسناد فعل (غَرَّتكُمُ) إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾:

أسباب الغرور بالحياة الدُّنيا متنوِّعة كثيرة

في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أسند التَّغرير إلى الحياة الدُّنيا على طريق المجاز العقلي؛ لأنَّه لم يكن من الحياة الدُّنيا على التَّحقيق تغرير وخداع، وسبب إسناد تغريرِهم إلى الحياة الدُّنيا هو أنَّ ما فيها كان سببًا لتغريرِهم، فهُم قد اغترّوا بها، فإنَّه لمّا كان

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 447.

غرور الكافرين في الحياة الدُّنيا متنوِّعًا؛ فمنه أنَّهم قاسوا أحوالَ الآخِرَةِ عَلى أحوالِ الدُّنيا، فَظَنّوا أنَّ اللهَ لا يُحيي الموتَى، وتَطَرَّقوا مِن ذَلِكَ إلى إنكارِ الجَزاءِ في الآخِرَةِ عَلى ما يُعْمَلُ في الدُّنيا، وغَرَّهُم أيضًا ما كانوا عَلَيهِ مِنَ العِزَّةِ والمَنَعَة، فَخالوهُ مُنتَهَى الكَمالِ، فَلَم يُصيخوا إلَى داعي الرُّشْدِ وعِظَةِ النُّصحِ، وأعرَضوا عَنِ الرَّسولِ ﷺ، وعَنِ القُرآنِ المُرشِدِ، ولَولا ذَلِكَ؛ لأقبَلوا عَلى التَّأمُّلِ فِيما دَعَوا إلَيه، فاهتَدَوا، فَسَلِموا من عَواقِبِ الكُفرِ، فلمّا كان اغترارُ الكافرين متنوِّعًا بهذه المغرِّرات؛ أَسْنَدَ التَّغريرَ إلَى الحَياةِ الدُّنيا عَلى سَبيلِ المَجازِ العَقليِّ؛ لأنَّ ذَلِكَ أجْمَعُ لأسبابِ الغُرور[1].

فائدة (ال) في معنى تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ للعهد الذِّكري، والمقصود الحياة الَّتي عاشوها في الدُّنيا.

نكتةُ وصف ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ بصفة ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ دون (الأولى):

زيـادةُ تحسير الـكـافـريـن يـوم الـقيامة بـتـذكـيرهـم بـإهـمـالِـهـم الإيـمـان في الحياة الدُّنيا

لمّا كان الخطاب في الآخرة؛ كان مقتضى الظّاهر أن يصف الحياة بالأولى؛ لأنَّها صارت أولى بالنِّسبة للآخرة؛ ليكون لفظ الأولى مقابلًا للفظ الآخرة، لكنَّه قال: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، ولفظ الدُّنيا بمعنى القريبة؛ لأنَّها من الدُّنوِّ بمعنى القرب، ونكتة العدول إلى وصف الحياة بالدُّنيا في قوله: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ زيادة التَّحسير في نفوس المخاطَبين من الكافرين وترسيخ ندامتِهم؛ لما صدر عنهم من إهمال الاعتبار في الدُّنيا، وقت أن كانت دانية قريبة منهم، فهو تذكير بتلك الأيّام، كأنَّها حاضرة الآن، وهي بالفعل قريبة من حيث شعور المخاطَبين بها.

نكتةُ ذكر ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾:

ذكر الحياة في الآية، فقال: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ دون أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

يقال: غرَّتكم الدُّنيا؛ لِما في إسناد الاغترار إلى الحياة من موقع عظيم؛ لأنَّ المقام مقام توبيخ وتقريع للمخاطَبين، ففيه إيذانٌ بأنَّ همَّهم من هذه الدُّنيا هو الحياة فيها، والتَّنعُّم بمعيشتِها، لا ما يتكسَّب فِيها مِنَ الخَيراتِ الَّتي تَكونُ بِها سَعادَةُ الحَياةِ في الآخِرَةِ، أي: غَرَّتْهمُ الحَياةُ الدُّنيا، فَأوهَمَتْهُم أنَّه لا حياة بعدها، فأنكروا الحياة الأخرى، ونسوا لقاء يوم الآخرة[1]، والمرادُ بالحياةِ الأحوال المتنوِّعة، الَّتي تجري عليهم، والحاصلة لهم من التَّكبُّر والتَّفاخر واللَّهو عن آيات الله والعناد والاغترار بما لا ينفع.

هَمُّ الكافرين من هذه الدُّنيا هو الحياة فيها، والتَّنعُّم بمعيشتِها، لا ما يتكسَّب فِيها مِنَ الخَيراتِ الَّتي تَكونُ بِها سَعادَةُ الحَياةِ في الآخِرَةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾:

لمّا كان الغرور هو الإطماعَ في أمرٍ محبوب على نيَّة عدم وقوعِه، أو هو إظهار الأمر المضرِّ في صورة النّافع، وكان يلزم منه الخداع بالمغرور به؛ لأنَّه باطلٌ، كما يلزم منه الغفلة عن ما هو مهمٌّ، فلمّا كان الأمر كذلك؛ استُعير لفظ الغرور بصيغة الفعل ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾ على طريق الاستعارة التَّبعيَّة؛ لبيان أنَّ الحياة الدُّنيا كانت في صورة الأمر المحبوب المرغوب فيه، والحال أنَّ عاقبة الغفلة فيها، والرُّكون إليها مكروه، وأنَّ الاغترارَ بها باطلٌ، وأنَّهم باغترارِهم بالحياة الدُّنيا قد غفلوا عن الآخرة الَّتي هي الأهمُّ، وأنكروها.

الاغترارُ بالحياة الدُّنيا باطل والرُّكون إليها مكروه

نكتةُ التَّعبير بلفظ الغرور:

عبَّر بلفظ ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾؛ للإشعار بعجبِهم بالحياة الدُّنيا وتكبُّرهم وعنادِهم فيها، كما يفيد لفظ الغرور انشغالَهم فيها عن الحياة الأخرى، واختير لفظ ﴿وَغَرَّتۡكُمُ﴾ دون أن يقال: أعجبتكم؛ للإشارة إلى أنَّه عجب كاذب باطل؛ لأنَّ الاغترارَ اعتقاد النَّفع في شيءٍ بحسب ظاهر حالِه، وهو في حقيقتِه ضرٌّ، أو مآله ضرٌّ[2].

الاغترارُ اعتقاد النَّفع في شيءٍ بحسب ظاهر حالِه، وهو في حقيقتِه ضرٌّ أو مآله ضرٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 61.

نوعُ الفاء ودلالتها:

استحقاقُ الكافرين عدم الخروج من النّار وعدم استعتابِهم فيها

تحتمل الفاء في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أن تكون تفريعيَّة بمعنى يتفرَّع على ذكر أسباب العذاب، وينبني عليه أنَّهم لايُخرجون من النّار، ولا هم يستعتبون، كما تحتمل أن تكون الفاء فصيحة؛ لتفصح عن شرطٍ مقدَّر، وتقدير الكلام: إذا كان الأمر كذلك؛ فاليوم لايُخرجون منها، ومناسبة الفاء على الوجهين بيانُ استحقاقِهم عدم الخروج من النّار وعدم استعتابِهم فيها.

بديعُ فنِّ التَّصدير بذكر لفظ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

في إعادةِ ذِكر اليوم في فاصلة الآية مزيدٌ من النَّعي عليهم والوعيد لهم

لمّا ابتدأ الكلام في خطاب الكافرين يوم القيامة بقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾؛ ردَّ الفاصلة على مبدئِه، فقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، فهو من قبيل ردِّ العجز على الصَّدر بتكرير لفظ اليوم، ومناسبةُ ردِّ الفاصلة على مبدأِ الكلام بيانُ أنَّ اليوم الَّذين ينساهم اللّه فيه، ويكون فيه مأواهم النّار هو اليوم الَّذي لا يُخرجون فيه من النّار، ولا هم يُستعتبون، ولفظ اليوم، وإن تكرَّر؛ لكنَّه في صدر الكلام عند قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ إخبار بما يقع يوم القيامة، وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ إخبار عن اليوم الَّذي يكون بعد إيوائِهم في النّار[1] واستقرارِهم فيها.

نكتةُ نفي الخروج دون إثبات الدُّخول:

نفيُ الخروج من النّار يلزم منه إثبات الدُّخول فيها

لمّا قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾؛ نفى خروجَهم من النّار، وإنَّما نفى خروجهم، ولم يقل: (اليوم يُدخَلون فيها)؛ لأنَّ نفي الخروج من النّار يلزم منه إثبات الدُّخول فيها، كما أنَّ في نفي الخروج إشارةً إلى مقاساتِهم في النّار بعد دخولِهم فيها وقهرِهم فيها، وهو المقصود في الآية.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 114.

من أنواع العذاب للكافرين يوم القيامة الإعراضُ عنهم والاستهانة بهم

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

لمّا كان قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ من تمام الكلامِ الذي قيل للكافرين يوم القيامة؛ لأنَّ وُقوعَ كَلِمَةِ (اليَوم) في أثنائِهِ يُعَيِّنُ أنَّهُ مِنَ القِيلِ الَّذي يُقالُ لَهُم يَومَئِذٍ[1]، فلمّا كان الأمر كذلك، وكان الكلام أوَّلًا بصيغة الخطاب، ثمَّ انتقل إلى صيغة الغيبة؛ كان الكلام على طريق الالتفات والنُّكتة فيه هو الإيذان بالإعراض عن الكافرين، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم، بعد توبيخِهم وتأييسِهم، فإنَّ صرفَ بقيَّة الإخبار عنهم إلى مخاطَب آخر ينبئُ ببقيَّة أمرِهم، وأنَّهم صاروا في معرض الإعراض والتَّرك تحقيرٌ لهم، كما أنَّه لمّا كان قولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ حكاية لما يكون بعد إيوائِهم في النّار؛ أشار إلى نقلهم من مقام الخطابة إلى غيابة النار[2]، وأيضًا في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى تنوُّع مواقع المساءات الَّتي تأتيهم من كلِّ جهة، فتارةً يواجَهون بما يسيئُهم، وتارةً تجيئُهم المساءات من حيث لا يشعرون؛ فهُم إذ يواجهون بهذا التَّقريع لِما كان منهم من الهُزْء بآيات اللّه، والاغترار بدنياهم، يأتيهم هذا القولُ الَّذي يكون كالصّاعقة الَّتي تنصبُّ على رؤوسِهم[3]، وذهب أبو حفص النَّسفيُّ إلى أنَّ قولَه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ ليس مُتَّصِلًا بالكلام الأوَّل الَّذي كان مِن خِطاب الملائكة لهم، بل هو ابتداءُ إخبارٍ مِن اللّه أنَّهم لا يُخرجون من النّار أبدًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 76، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 256.

(4) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التّفسير: 13/ 366.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

قرأ الجمهور: ﴿لَا يُخۡرَجُونَ﴾ بضمِّ الياء وفتح الرّاء بصيغة المبني للمفعول، وقَرَأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَا يَخۡرُجُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الرّاء بصيغة المبني للفاعل[1]، وتوجيه القراءتين: أنَّ المعنى على قراءة البناء للمفعول: ﴿لَا يُخۡرَجُونَ﴾ أنَّهُم يَسألونَ مَن يُخرِجُهُم، فلا يُخرِجُهُم أحَدٌ كائنًا من كان، كَما في قَولِه تَعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ [المؤمنون: 107]، وقَوْلِه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11]، والمعنى على قراءة البناء للفاعل (لا يَخْرُجون) أنَّهم يريدون الخروج، ويفزعون إليه، ولكن لايستطيعون[2]؛ لأنَّه تعالى حكم عليهم بأنَّ مثواهم النّار؛ لقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: 22].

الـكــافــرون لا أحـد يُخرجُهـم مـن الـنّـار، ولا يـسـتـطـيـعـون أن يـخـرجـوا بأنفسِهم

دلالةُ حرف الجرِّ (مِنْ):

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه: ﴿لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ لابتداء الغاية، والمعنى نفي ابتداء خروجِهم من النّار.

نكتةُ عطْفِ عدم الاستعتاب على عدم الخروج:

عطف نفي استعتابِ الكافرين على نفي خروجِهم من النّار في قولِه: ﴿لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ ليفيد أنَّه يُجمَع عليهم العذاب الحسِّيُّ الجسديُّ والعذاب النَّفسيُّ، وبدأ بالعذاب الحسّيِّ، وانتهى بالعذاب النَّفسيِّ؛ لأنَّ عدم استعتابِهم مرتَّبٌ على عدم خروجِهم من النّار، وليفيد الإبلاغ عن نهاية أمرِهم، فإنَّهم حين لا يُستعتبون ينتهي أمرُهم، فيعلمون أن ليس لهم خروج من النّار، فيكون عذاب عدم استعتابِهم أشدَّ عليهم؛ لأنَّه قطع الأمر عليهم.

اجـتـمـعَ عـلى الـكـافـريـن في النّار شتّى أنواع العذاب الحسِّيِّ والمعنويِّ

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 401، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 267.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 178، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

غرضُ مجيء المسند جملة فعليَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ جاء المسند ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ جملةً فعليَّةً، ولمّا كان الكلام على معنى أنَّ نهاية أمرِهم هو عدم الاستعتاب؛ جاء المسند جملة فعليَّة؛ لتقوية الحكم وتحقيقِه، بمعنى: لا يُطلب منهم استعتاب، ولا يكون منهم أبدًا.

دلالةُ السّين والتّاء في قوله: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾:

يومُ القيامةِ هو يوم فوات أوان الاستعتاب والاسترضاء

السّين والتّاء في قولِه: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ لِلطَّلب[1]، بمعنى: لا يُطلب منهم أن يُعتِبوا ربَّهم سبحانه، أي: يزيلوا عتبَهُ ﷻ، وهو كناية عن طلبِ إرضائه تعالى، أي: لا يُطلَب منهم إرضاؤه ﷻ لفوات أوانِه[2]، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ السّين والتّاء للمبالغة[3]، أي: مثل يجيب ويستجيب؛ لتفيد المبالغة في نفي استعتابِهم وإزالة شكواهم.

نكتةُ بناء فعل ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ للمفعول:

عبَّر بصيغة المبني للمفعول في قولِه: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه لا يَطلبُ أيُّ أحد منهم أن يرضوا ربَّهم، ولا يزيل أيُّ أحدٍ عتبَهم؛ لفوات أوان الإرضاء، ففي بناء الفعل للمفعول إيجازٌ من ناحية، ودعوة للانشغال بذات الفعل عن فاعله من ناحية أخرى.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

الكافرون يوم القيامة لا يُرضون في طلبِهم، وليسوا براضين عن حالِهم

قد يقال جاء في هذه الآية وفي آيات أخرى نفيُ استعتابِ الكافرين، فقال تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وأخبر في آية أخرى أنَّهم غير مُعۡتَبين، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]، فما توجيه اللَّفظين على القول بأنَّ السّين والتّاء في ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ للطَّلب، والمقام والوقت واحد، وهو عند

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 447.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 160.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

إيوائِهم في النّار يوم القيامة؟ والجواب: أن يقال: أمّا كونهم غيرَ مُسْتَعْتِبين؛ فمعناه أنَّ غضبَهم لا يُزال، أي: لا يقال لهم: ارضوا ربَّكم لفوات الأوان، وأمّا كونُهم غيرَ مُعْتَبين؛ فمعناه: أنَّهم غيرُ راضين بما هم فيه، فشُبِّهَتْ حالُهم بحالِ قوم جُني عليهم، فهُم عاتِبون على الجاني، غيرُ راضين عنه بما هم فيه، فإن يَسْتَعتبوا اللّهَ، أي: يَسألوه إزالة ما هم فيه؛ فما هم مِن المجابين(1).

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 9/ 56.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾ [الجاثية: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الله تعالى أعلى وأكبر من حمد الحامدين، ونعمه أجلُّ وأعظم من شكر الشّاكرين

لمّا أتمَّ الكلام على ما حوته هذه السّورة، وأخبر عمّا يحكم به يوم القيامة على جميع النّاس من المؤمنين والكافرين؛ ختم بتحميد الله تعالى والثّناء عليه، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولمّا أفاد قصرُ الحمدِ عليه تعالى أنَّه هو الغنيُّ المطلق، وأنَّه لا كُفءَ له؛ عطف عليه بعض اللّوازم لذلك؛ تنبيهًا على مزيد الاعتناء به؛ لدفع ما يتوهّمونه من ادّعاء الشّركة الّتي لا يرضونها لأنفسهم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا بعدَ أن ذَكر ما حَوَته السّورةُ مِن آلائه تعالَى وإحسانِه، وما اشتَمَلَت عليه مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي في الآفاقِ والأنفُسِ، وما انطَوَت عليه مِنَ البَراهينِ السّاطِعةِ على المَبدَأ والمَعاد؛ أثنَى تعالَى على نَفسِه بما هو له أهلٌ، فقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: أصل الكلمة من الكِبَر الَّذي يُستعمل في الأعيان، ثمَّ استُعير للمعاني مثل الكِبَر في المنزلة والرِّفعة والشَّرف[3]، إمّا بحسب الأصل، وهو الحقيقة فيه، وإمّا بحسب اعتقاد المتكلِّم، كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63]، فسمّاه كبيرًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/ 603.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 167.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (كبر).

بحسب اعتقادِهم فيه لا لقدر ورفعة له على الحقيقة، ويُقالُ: كَبُرَ بِالضَّمِّ يَكْبُرُ، أي: عَظُمَ، فهوَ كَبيرٌ، والكبير والمتكبِّر: العظيم، والتّاء في المتكبِّر للتَّفرُّد والتَّخصُّص، وليست هي تاء التَّعاطي والتَّكلُّف[1]، والكبرياء على وزنِ (فِعلياء) من الكِبر، بمعنى العظمة والملك[2]، والتَّرفُّع عن الانقياد لعظمة المتكبِّر وقوَّة سلطانِه[3]، وذلك لا يكون في الحقيقة إلّا للّه تعالى، ولا يستحقُّه غيره سبحانه.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

ربُّ السَّماوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين مستحقٌّ لكلِّ حمدٍ وثناء جميل

فلله الحمد على جلالِه وسلطانِه وعلى نعمِه على خلقه، وعلى حسن تدبيره، وله الحمد على ربوبيَّته للسَّماوات وربوبيَّتِه للأرضِ؛ إذ خلق الخلق، وربّاهم، وأنعم عليهم بالنِّعم الظّاهرة والباطنة، وله الجلال والعظمة والسُّلطان في السَّماوات والأرضِ، فكلُّ شيءٍ خاضع له، مفتقر إليه دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز الَّذي لا يمانع، ولا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، تقدَّس ربُّنا، جلَّت قدرته، وعظمت آلاؤه[4]، وعن أبي هريرة ﷺ، قالَ: قالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ في الحديث القدسي: «الكِبرياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نازَعَنِي واحِدًا مِنهُما؛ أدخَلْتُهُ جَهَنَّمَ»[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ التَّعقيب بالفاء في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

اللّه تعالى هو المستحقُّ للحمد والكبرياء؛ إذ ظهر للعالمين أنَّ الثَّواب والعقاب وعموم الجزاء بيده سبحانه

لمّا أخبر اللّه تعالى عن ظهور ملكِه لجميع الخلائق يوم القيامة، وأخبر عن الثَّواب والعقاب بيده تعالى، فأدخل المؤمنين في رحمتِه وجنَّته، وأدخل الكافرين في النّار؛ لتركِهم الإيمان والطّاعة، وظهر

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (كبر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 167، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 778.
(5) مسند أحمد، رقم الحديث: (8893)، وسنن ابن ماجة، تح: عبد الباقي، رقم الحديث: (4174).

به وصفه بالجلال والكمال وتعاليه على جميع خلقِه وأوصافِهم، كما أنّه لمّا كان الكلامُ عن أحوال القيامة، الَّتي تظهر فيها إضافة كلّيَّة الأشياء وجزئيّاتِها إليه تعالى، فلمّا كان الأمر كذلك؛ ناسب اختيار لفظ الحمد وتخصيصه بالله تعالى[1]؛ تفريعًا على ما قبله بالفاء في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾؛ ليظهر بالبناء على ما تقدَّم الثَّناء عليه تعالى بالحمد الدّالِّ على تعاليه على جميع معاني الخلق وأوصافهم، فهو المستحقُّ للحمد والكبرياء؛ إذ ظهر لجميع العالمين أنَّ الثَّواب والعقاب وعموم الجزاء بيده سبحانه، وأيضًا جاءت الفاء؛ لتفريع قصر الحمد على الله تعالى على ما حوته السّورة من ألطاف الله تعالى فيما خلقَ، وأرشد، وفيما تفضَّل، وأنعم، وما سخَّر السَّماوات والأرض للخلقِ، وممّا اشتملت عليه من الدَّلائل الآفاقيَّة والأنفسيَّة المنطوية على البراهين السّاطعة والنصوص القاهرة في المبدأ والمعاد، وممّا تضمَّنته من إنزالِ الشَّريعة؛ لإقامة العدل في الأرض، وما أنعم على المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وما أوعد به المعرضين عن الحقِّ المكذِّبين له المحتجِّين عليه، وما أخبر به من العقاب عليهم، فَلمّا كانَ ذَلِكَ كُلُّه مِنَ الله؛ كانَ دالًّا عَلى اتِّصافِهِ بِصِفاتِ العظَمَةِ والجَلالِ، وعَلى إفضالِهِ عَلَى النّاسِ بِدينِ الإسلامِ؛ كانَ حَقِيقًا بإنشاءِ قَصْرِ الحَمْدِ عَليه[2].

نوعُ اللّام ودلالتها في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾:

الحمدُ الكامل والمطلق على الحقيقة مختصٌّ بالله تعالى، ولايليق إلّا به

اللّام في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾؛ للاختصاص اللّائق المقيَّد بجملة القصر، بمعنى أنَّ الحمد على الحقيقة مختصٌّ بالله تعالى، ولايليق إلّا به، وتحتمل أن تكون للاستحقاق، بمعنى: أنَّ الحمد مستحقٌّ لله تعالى، ولا مانع من اجتماع المعنيين؛ لعظيم جلالِه وكثرة فضلِه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.

وإحسانِه على جميع الخلقِ، أي: لا يكون الحمد إلّا للّه لاختصاصِه به ولاستحقاقِه له سبحانه، ويؤيِّد هذا المعنى تفريعُه بالفاء؛ عطفًا على ما تقدَّم من حكاية أخبار القيامة، وما يجري فيها للعالمين.

نكتةُ تقديم المسند على المسند إليه:

لله تعالى وحده الحمد، فهو المحمود، ولا محمود بحقٍّ سواه

أفاد تقديمُ المسند على المسند إليه في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ القصر، وهو من قبيل قصر الصِّفة، وهو الحمد على الموصوف، وهو (للّه)، وهو قصر حقيقيٌّ، أي: فالله تعالى وحده الحمد، فهو المحمود ولا محمود بحقٍّ سواه.

نكتةُ مجيء الحمد بصيغة القصر:

اقتضى السّياق والسّباق مجيء الحديث عن الحمد بصيغة القصر

جاء الحمد بصيغة القصر في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ دون أن يقال: (فالحمد للّه)؛ لمناسبة السّياق، فقد جاءت جملة القصر على تقدير الجوابِ بعدَ إرغامِ المكذِّب بالبعثِ وقهرِه ووقوع الأمرِ، مطابقًا لما أخبر به الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وظهور ماكذَّب به الجاحد، فعند ظهور الثَّواب للمؤمنين والعقاب للكافرين المكذِّبين، كأنَّ سائلًا سألَ: لِمن الحمد ومَن أهلُه ومَن يستحقُّه، فكان الجوابُ على ذلك: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فائدة (ال) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

جميعُ المحامد مختصَّة بالله تعالى وحده على الإطلاق

(الـ) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس، فيكون اللَّفظ على معنى العموم، وصيغ العموم كلّيَّة، فيستغرق جميع أنواع المحامد، بمعنى أنَّ جميع المحامد مختصَّة باللّه تعالى وحده على الإطلاق، فالمراد بالحمدِ: الحمدُ الكاملُ، أمّا مجَرَّدُ الحمدِ؛ فلا يختصُّ باللّه، فقد يُحْمَدُ الإنسان على خَصْلَةٍ من الخِصالِ، فيُحْمَدُ بقدْرِ هذه الخصلَةِ، أمّا الحمدُ الكاملُ الواسِعُ؛ فهو مختَصٌّ ومستَحِقٌّ للّه وحْدَهُ[2].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 12.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 386.

دلالة الجملة الخبرية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

من نِعَمِ الله تعالى على العباد أن علَّمهم كيف يحمدونه، ويثنون عليه

تحتمل جملة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أن تكون خبريَّة قُصد بها الثَّناء على اللّه تعالى بمضمونِها، أي: الإخبار بأنَّ اللّه تعالى هو المستحقُّ للحمد المختصُّ به، ويجوز أن يكون الخبر مستعملًا في معناه الكنائيِّ مع قصد الخبريَّة، فيجمع بين معنيين، بمعنى الإخبار عن الثَّناء على اللّه تعالى، وأمر النّاس أن يقصروا الحمد عليه سبحانه، وتحتمل أن تكون خبريَّة اللَّفظ إنشائيَّة المعنى، على اعتبار أنَّ المقصود من الصّيغة الأمرُ بحمد اللّه تعالى[1]؛ تعليمًا للنّاس كيف يثنون عليه سبحانه، فكأنَّه قيل: فإذا علمتم ما يكون من شأن اللّه تعالى في الحياة الدُّنيا وفي يوم القيامة؛ فقولوا: للّه الحمد، ربِّ السَّماوات وربِّ الأرض؛ إيذانًا بوجوب حمدِه تعالى على أحكامِه على العباد وأفعالِه فيهم.

بلاغةُ الجمع بين عنوان الألوهيَّة والرُّبوبيَّة:

كما استحقَّ الحمد بوصف ألوهيَّتِه فإنَّه يستحقُّه كذلك بوصف ربوبيَّتِه

لمّا جعل الحمد مختصًّا بعنوان الألوهيَّة، بمعنى: أنَّ الحمدَ لا يليق إلّا باللّه تعالى، وهو مختصٌّ به؛ أتبعه بوصف الرُّبوبيَّة على سبيل البدل؛ على اعتبار أنَّ البدل والمبدل منه كلاهما مقصودان؛ للإشعار بأنَّه كما استحقَّ الحمد بوصف ألوهيَّتِه، فإنَّه يستحقُّه كذلك بوصف ربوبيَّتِه، ولكونِه تعالى مالكًا مدبِّرًا خالقًا للسَّماوات وللأرض، أو يقال: إجراءُ وصف ربِّ السَّماوات على اسمِه الجليل (اللّهِ) إيماءٌ إلى علَّة قصرِ الحمدِ على اللّه، سواء أكان الكلام على معنى الخبرِ أم الإنشاء؛ تأكيدًا لما اقتضته الفاء في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾[2]، كما أنَّه لمّا جاء الكلام في سياق تقريع المكذِّبين وتوبيخهم يوم القيامة، وذلك عند انقطاع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.

الدَّعاوى ووضوح الأمر؛ أتبع حمده تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

دلالةُ إضافة لفظ ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

لَمّا جاء حمْدُ اللّه تعالى في سياق حُكمِه تعالى في الخلقِ الَّذي يشمل مافي السَّماوات وما في الأرض؛ نبَّه إلى أنَّه تعالى يستحقُّ الحمد لوصف ألوهيَّتِه، ولوصف كونِه مدبِّر السَّماوات ومدبِّر الأرض وخالقًا لهما ومتصرِّفًا فيهما.

سرُّ تكرار لفظ (رَبِّ) وإضافته إلى لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الحمْدُ مستحقٌّ لله خالق السَّماوات والأرض ومدبِّرهما

كرَّر لفظ الرُّبوبيَّة في العطفِ في قولِه: ﴿وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: (ربَّ السَّماوات والأرض)؛ لأنَّ المقامَ مقامُ بيانٍ وتفصيل وتأكيد، بمعنى كما أنَّه تعالى يستحقُّ الحمد؛ لأنَّه خالق السَّماوات ومالكها ومدبِّرها، وهو المتصرِّف فيها، فإنَّه يستحقُّه؛ لأنَّه خالق الأرض ومالكها ومدبِّرها، وهو المتصرِّف فيها، بمعنى: أنَّه يستحقُّ الحمد على سبيل النَّظر إلى الجمع في ربوبيَّته للسَّماوات والأرض، وعلى سبيل النَّظر إلى ربوبيَّتِه تعالى للسَّماوات على حدةٍ، وللأرضِ على حدةٍ؛ تعظيمًا لشأنِ خلقِه لكلٍّ منهما، وأيضًا في تكرار لفظ الرُّبوبيَّة تأكيدٌ وإيذانٌ بأنَّ ربوبيَّتَهُ تعالى لكلٍّ منْهما بطريقِ الأصالة[2]، وفيه كذلك تنويهٌ بشأنِها؛ لأنَّ رَبَّ السَّماواتِ والأرْضِ يَحِقُّ حَمْدُهُ عَلى أهلِ السَّماءِ والأرضِ، فَأمّا أهلُ السَّماءِ؛ فقد حَمِدوهُ، كَما أخبَرَ اللّه عَنهُم بِقَولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 5]، وأمّا أهْلُ الأرضِ؛ فَمَن حَمِدَهُ منهُم؛ فَقَد أدَّى حَقَّ الرُّبوبيَّة، ومَن حَمدَ غَيْرَهُ، وأعْرَضَ عَنْهُ؛ فَقَد سَجَّلَ عَلى نَفسِه سِمَةَ الإباقِ، وكانَ بِمَأوَى النّارِ مَحَلَّ استِحقاقٍ[3].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 13.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 76.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.

سببُ تكرار لفظ الرُّبوبيَّة:

حِفظُ اللهِ تعالى للخَلقِ ذو ألوانٍ بحَسَبِ شُؤونِ الخَلقِ وتنوُّعهم

أعاد ذِكرَ الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ حِفظَه للخَلقِ وتَربيتَه لهم ذو ألوانٍ بحَسَبِ شُؤونِ الخَلقِ؛ فحِفْظُه لهذا الجُزءِ على وجهٍ يُغايِرُ حِفظَهُ لجُزءٍ آخَرَ، وحِفظُه للكُلِّ - من حيث هو كُلٌّ - على وجهٍ يُغايِرُ حِفظَهُ لكُلِّ جُزءٍ على حِدَتِه، مع أنَّ الكُلَّ بالنِّسبةِ إلى تَمامِ القُدرةِ على حَدٍّ سَواءٍ[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وجمعها:

الله مدبِّرٌ للخلق أجمعين

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمعُ عالَم، والمرادُ بهم في هذا الموضع: جميعُ الخلق، فكلُّ جنسٍ من المخلوقات عالَم، تقول: عالَمُ الإنس، وعالَم الجنِّ، وعالَم الملائكة، وعالَم الحيوان، وغير ذلك، ومعنى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّه تعالى مُدَبِّرُ العالَمين من الجنِّ والإنس والملائكة وكُلِّ الحيوانات، وهو مالِكها وحافِظُها ومُصَرِّفُها على ما أراد[2].

دلالةُ عطفِ جملة: (لَهُ الكِبرياءُ) على السّابق:

نفيُ الكبرياءِ عن غيره ﷻ

عُطِفَت جملة: (لَهُ الكِبرياءُ) على جملة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾، فتكون جملة: (لَهُ الكِبرياءُ)، وما تعلَّق بها في حيِّز التَّفريع بالفاء في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾، ويتفرَّع على حكمِه في الخلقِ - وجميع ما ذُكِر في مقتضى التَّفريع - قصْرُ الكبرياء عليه تعالى، أي: فيتفرَّع على ما ذُكِرَ قَصْرُ الحمد عليه وتعالى، وقصْرُ الكبرياء عليه كذلك.

نوع اللّام ودلالتها في (لَهُ):

الكبرياءُ على الحقيقة مختصٌّ بالله تعالى، ولايليق إلّا به سبحانه

اللّام في (لَهُ) للاختصاص، بمعنى: الكبرياء على الحقيقة مختصٌّ بالله تعالى، ولايليق إلّا به سبحانه، وتحتمل اللّام أن تكون للاستحقاق، بمعنى: أنَّ الكبرياء مستحقٌّ للهِ تعالى، ولا مانع من اجتماع المعنيَين، كما في لام (للهِ الحَمدُ)، بمعنى أنَّ الكبرياء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 116.
(2) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 367.

مختصٌّ به تعالى، وهو وحده يستحقُّه، ويؤيِّد هذا المعنى عطفه بالواو على الفاء التَّفريعيَّة في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، أي: لِما يظهر من آثار كبريائِه في حكمِه على خلقِه يوم القيامة، فله السُّلطان والقهر والعظمة، فلا منازع ولا معترض ولا أحدَ خارجًا عن حكمِه.

دلالةُ تقديمِ (لَهُ) على المسند إليه:

لا عظمةَ ولا سلطانَ لأحدٍ على الحقيقة إلا لله تعالى

أفاد تقديمُ المسند على المسند إليه في قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ قَصْرَ الكبرياء عليه تعالى، وإنَّما جاء الكلامُ بطريق القصر؛ لبيان ظهور آثار كبريائِه تعالى في السَّماوات والأرض وعظمتِه فيهما، والمعنى قصر العظمة والسُّلطان والقوَّة والقدرة عليه تعالى، فلا عظمة ولا سلطانَ لأحدٍ على الحقيقة إلّا للّه تعالى.

معنى(ال) في ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ للجنس، بمعنى: جنس الكبرياء وحقيقته مقصور على اللّه تعالى.

توجيهُ تخصيص ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ بالذِّكر:

إذلالُ الله تعالى لأعدائِه وإعزازه لأوليائِه من آثار كبريائِه سبحانه

أوثر وصفُ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ بالذِّكر في هذه الآية دون غيرِه من أوصاف العظمة والجلال؛ لأنَّه أمسُّ بالمقام، وأقضى لحقِّ البلاغة؛ إذ الانتقام من الكفّار، وعدم النُّصرة لهم، وإدخالهم النّار، وعدم قدرتِهم على الخروج منها، وعدم استعتابِهم - وهم في النّار - من آثار كبرياءِ اللّه تعالى وعظمتِه الَّتي ظهرت في السَّماوات والأرض، كما أنَّ إدخالَ المؤمنين الجنَّة وقصْرَها عليهم من آثار كبريائِه، فلزم من ذكر كبريائِه إذلال أعدائه وإعزاز أوليائِه، وهو المناسب لختم السّورة، واختير لفظُ الكبرياء على العظمة؛ لأنَّها أبلغ[1].

نكتةُ تقييد الكبرياء بكونه ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

قُيِّد وصفُ الكبرياء المقصور على اللّه تعالى بحرف الظَّرفيَّة

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 448.

الكبرياءُ أثرُ عظمتِه ﷻ

﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّه تعالى متَّصف بوصف الكبرياء، وهذا الوصف مقصور عليه سبحانه من غير تقييد بشيءٍ دون شيءٍ، فنكتةُ تقييد الكبرياء بكونِه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإشعار بظهور آثار كبريائِه وعظمتِه في السَّماوات والأرض وأحكامِه القاهرة فيهما[1]، فلمّا كان آثار كبريائِه ظاهرةً في السَّماوات والأرض، وكانتا ظرفًا للآثار؛ كان الكبرياء فيهما[2]، ففي تقييد الكبرياء بكونِه في السَّماوات والأرض مبالغة في المعنى.

نكتةُ إظهارِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في موضع إضمارهما:

تفخيمُ شأن وصف الله تعالى بالكبرياء

أُظهِر لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع تقدُّم ذكرِهما قريبًا، فكان الظّاهر أن يقال: (وله الكبرياء فيهما)، لكنَّه عدل إلى الإظهار في موقعِ الإضمارِ لتفخيمِ شأنِ الكبرياءِ[3]، ولتحقيقِ رسوخِ آثار تخصيص اتِّصافِه تعالى بهذا الوصف الجليل فيهما.

مناسبةُ الجمع بين الثَّناء على الله ووصفه بالكبرياء:

الثَّناءُ على الله الغنيِّ عن العباد لا مزية فيه من الحامد

جُمِعَ بحرف العطف الواو بين الثَّناء على اللّه، وإثبات وصف الكبرياء له سبحانه، وكلا الخبرين (للّه الحَمدُ) و(لَهُ الكِبرِياءُ) جاءا بطريق القصر، ومناسبة الجمع بينهما وقصرُهما عليه سبحانه هو أنَّ الحمد فيه الثَّناء على اللّه بصفات الكمال ومحبته تعالى وإكرامه، والكبرياء فيها عظمته وجلاله، فأفاد أنَّ الثَّناء عليه تعالى، لا لكونِه فضلًا من الحامد، فإنَّه تعالى مستغنٍ عن ثناء الحامدين، بمعنى أنَّ استدعاءَه خلْقَه لحمدِه إنَّما هو لنفعهم وتزكية نفوسِهم، فإنَّ له الكبرياء في السَّماوات والأرض، فهو غنيٌّ عنهم[4]،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 148.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 76.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 25/ 378.

كما أنَّ في الجمع بينهما إشارة إلى أنَّ التَّوجُّه إلى اللّه تعالى مبنيٌّ على ركنين: محبَّةِ اللّه بالثَّناء عليه والذُّلِّ له بإثبات وصف الكبرياء له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد اللّه وجلاله وكبريائه[1].

مناسبةُ معنى الآيتين لمعنى الحديث القدسي:

مناسبةُ الآية لمعنى الحديث القدسي

من لطائف الآيتين هو أنَّه إذا ضممت مع معنى الزُّبدة والخلاصة من قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ - وهو تصوير عظمة اللّه - معنى قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وأخذت فائدة تقديم المسند على المسند إليه فيهما، الدّالَّة على قصر الحمد والكبرياء عليه سبحانه؛ لمحت مسحةً من معنى الحديث القدسي[2]: «الكِبرياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نازَعَنِي واحِدًا مِنهُما؛ أدخَلْتُهُ جَهَنَّمَ»[3].

نوع الواو في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَهُوَ﴾ عاطفة للجملة الاسميَّة على الاسميَّة، والعطف هنا من عطف أسلوب قصر الصِّفة على الموصوف على مثلِه؛ ليفيد العطف الجمع بين المعطوفات على معنى إثبات هذه الأوصاف الجليلة للّه تعالى، وقصْرِها عليه.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة ثبوت مضمون الجملة، بثبوت هذين الوصفين للّه تعالى، وثبوت ظهور آثارِهما في خلقِه، وجاءت الجملة بطريق القصر؛ بسبب مجيء المسند والمسند إليه معرفتين؛ للدَّلالة على قصر هذين الوصفين عليه سبحانه.

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 778.

(2) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 263.

(3) مسند أحمد، رقم الحديث: (8893)، وسنن ابن ماجة، تح: عبد الباقي، رقم الحديث: (4174).

نكتةُ تذييلِ السّورة بذكر الوصفين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

من براعة نظْمِ القرآن مطابقة أوّل السّورة لآخرها

أتبعَ ما سبق من الآيات بذكر وصفي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للإشعار بأنَّه تعالى هو العزيز الغالب في خلقِه وأمرِه، وأنَّه هو الحكيم في أمرِه وتدبيره في خلق الخلق والتَّصرُّف فيه، وفي إنزال الشَّرائع على النّاس وحكمِه فيهم، وفي بعْثِهم بعد مماتِهم، وإقامة الحساب فيهم، وفي إثابة المؤمنين وعقاب المنكرين الكافرين، فكلُّ ما فعلَه سبحانه هو بمقتضى عزَّته وحكمته؛ لأنَّ العزَّةَ تَشملُ مَعانيَ القُدْرةِ والاختيارِ، والحِكمةَ تَجمَعُ مَعانيَ تَمامِ العِلمِ وعُمومِه، وبهذه الخاتمةِ آذَنَ الكلامُ بانتهاءِ السّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ خَواتمِ السّوَرِ[1]، فانطبق آخر السّورة على أوَّلها، وناسب تذييل السّورة بهذين الوصفين دون غيرِهما.

بديعُ ردِّ العجز على الصَّدر:

كلُّ ما قدَّره الله من الخلق والتَّنزيل فبعزَّته وحكمته

في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ردٌّ لعجز السّورة وآخرِها على صدرِ السّورة وأوَّلها في قولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [الجاثية: 2]؛ ليفيد أنَّ إنزالَ الكتاب العظيم وخلْقَ السَّماوات والأرض وما فيهما، إنَّما هو بعزَّته وحكمتِه، وأنَّ البعثَ يوم القيامة والقضاء بين النّاس يومئذٍ إنَّما هو بعزَّته وحكمتِه.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في كلِّ المواضع:

العزَّةُ صفةُ ذات والحكمة صفة فعل

في كلِّ المواضع الَّتي اقترن فيها هذان الاسمان في فواصل الآيات القرآنيَّة؛ كان اسم الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يتقدَّم على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، وربَّما كان ذلك؛ لأنَّ العزَّة صفة ذات، والحكمة صفة فعل، وربَّما كان ذلك؛ لأنَّ العزَّة إذا لم تقترن بالحكمة؛ كانت قاهرة، ولا يردُّها شيء، فقدَّمت الآية هنا العزَّة؛ لأنَّ مشاهدة هذه الآيات، وطبيعة هذا التَّكليف، اقتضت ذلك، ثمَّ أتبعها بالحكمة؛ لأنَّه من لوازمها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 378.

فائدة المبالغة في الأبنية الصَّرفيَّة:

في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ جاءت الصِّفتان الكريمتان على بناء (فعيل) الَّذي يقتضي المبالغة، وهذا يعني أنَّ عزَّته فاقت كلَّ عزَّةٍ، وحكمته تجاوزت كلَّ حكمة.

من لطائف ذِكر أوصاف الله تعالى في الآيتين:

تعليقُ الانقياد لله وتعظيمه والثَّناء عليه بمقامات العزَّة والكبرياء والحمد

في جمل القصر ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ و﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ و﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إرشادٌ للمخاطَبين إلى أوامر جليلة، متعلِّقة بما يناسب كلُّ جملةٍ على طريق الكناية أو المجاز، فإنَّه لمّا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾، وذكر أنَّه ربُّ كلِّ شيء في السَّماوات والأرض والعالمين؛ فإنَّ مثل هذه الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ يوجب الحمد والثَّناء على كلِّ مربوب، فكأنَّه قيل: لله الحمد، فاحمدوه، وأثنوا عليه، ولمّا قال: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ دالًّا على ظهور آثار كبريائه وعظمته في السَّماوات والأرض؛ حُقَّ لمثله أن يُكبَّر، ويُعظَّم، فكأنَّه قيل: وله الكبرياء، فكبِّروه، وعظِّموه، ولمّا قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حُقَّ للعزيز الغالب الحكيم في أفعاله وأقوالِه وتدبيرِه أن يُطاعَ، ويُنقادَ له، فكأنَّه قيل: ولَه الكبرياء، فأطيعوه، وانقادوا له[1]، وفي كلام الزَّمخشريِّ والبيضاوي إشارة إلى هذا التَّوجيه[2].

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 24، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110.

الجُزْءُ
السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سُورَةُ الأَحْقَافِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكيُّ والمدنيُّ:

سورة الأحقاف كلُّها مكيَّة بالاتِّفاق[1]، ونقل ابن عطيَّة استثناء آيتين منها، وهما: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: 10]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 35][2]، وزاد السّيوطي على الآيتَين السّابقتَيْن آيات أربع، وهي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]... ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 18][3]، ويبدو أنَّ العلماء تفاوتوا في الحكم على أسانيد هذه الرِّوايات، ولكن المحقّقونَ من العلماء على مكّيّتها جميعها.

ترتيبُ النُّزول وترتيب المصحف وعدُّ الآي:

هي السّورة السّادسة والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتَي الجاثية ومحمَّد، وهي الخامسة والسُّتّون في ترتيبها النُّزوليِّ[4]، نَزَلَتْ بين السّورتَيْن السّابقتَيْن، وفصول السّورة مترابطة، وآياتها متوازنة ممّا يسوِّغ القول: إنَّها نزلت دفعة واحدة أو متتابعة[5]، وَهِي ثَلاثونَ وخمس آيات فِي الكوفيِّ، وأَرْبع فِي عدد الباقِينَ[6].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 178.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 91.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 65.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 7، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 6.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 7.
(6) الدّاني، البيان في عد آي القرآن، ص: 227.

اسم السورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ الأحقاف اشتهرت بهذا الاسم، ولم يذكروا لها أسماء أخرى

وردت تسميتها بسورة (الأحقاف) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريّ تسميتها بـ(حم الأحقاف)[1]، وقد ذكر الكثيرون أنَّ تسميتها بالأحقاف إنَّما كان لورود هذه اللَّفظة فيها في قوله تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، يقول ابن عاشور: وتُسمَّى الأحقاف؛ لورود لفظ: ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: 21] فِيها، ولَم يَقَع في مَوضِعٍ آخَرَ مِنَ القُرآنِ[2]، وقد حاول البقاعيُّ الرَّبط بين اسمها ومقصودها، فقال: ومقصودها: إنذار الكافرين بالدَّلالة على صِدق الوعد في قيام السّاعة، اللازم للعزَّة والحكمة الكاشف لها أتمَّ كشف، بما وقع الصِّدق في الوعد به، من إهلاك المكذِّبين، وأنَّه لا يمنع من شيء من ذلك مانع؛ لأنَّه لا شريك له، فهو المستحقُّ للإفراد بالعبادة، وعلى ذلك دلَّت تسميتها بالأحقاف، بما دلَّت عليه قصَّة قوم هود عليه السلام من التَّوحيد وإنذارهم بالعذاب دنيا وأخرى، ومن إهلاكهم، وعدم إغناء ما عبدوه عنهم، ودفنهم تحت أحقافهم، بما تحقَّق من إعراضهم وخلافهم، ومباعدتهم للحكمة في عبادتهم حجرًا، وإنكارهم أن يكون النَّبيُّ بشرًا، فسلبت أرواحهم بالرّيح العقيم، ودمَّرت أشباحهم بالعذاب الأليم، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّه العزيز الحكيم[3].

ولا شكَّ أنَّ كلام البقاعيِّ في محلِّه، فمعظمُ مقصود السّورة يقوم على الإنذار والتَّحذير للكافرين، لكنَّ الخيط العامَّ النّاظم لهذا المقصود ولغيره يقوم على بيان: أنَّ المنهج البشريَّ الحقَّ لا بدَّ أن يقوم على الاستجابة لمنهج اللّٰه وحده، والمقرَّر في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه، وليس للمناهج الوضعيَّة البشريَّة؛ لأنَّها لا تصلح

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ: باب: تفسير سورة حم الأحقاف: 4/ 1826.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 5.
(3) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 480 - 481.

لذلك، ولذا فإنَّ تسميتها بسورة الأحقاف إنَّما جاء لارتباط هذا الأنموذج البشريِّ، الَّذي سكن الأحقاف بهذا المحور الَّذي قامت عليه السّورة؛ إذ بيَّن القرآن موقفهم من هذا المنهج الإلهيِّ حين عرضه نبيُّهم عليهم، فتضمَّن هذا الجانب الموجز من قصَّتهم خلاصة هذا المنهج، وأسباب رفضهم له وإعراضهم عنه، ثمَّ ما لحقهم جرّاء ذلك، ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 21 - 25]، ثمَّ ربطت السّورة بين قصَّتهم والواقع البشريِّ الَّذي واجهه النَّبيُّ ﷺ، فقالت لقومه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: 26 - 27].

المحورُ العامُّ للسّورة:

إذا كان محورُ سورة الجاثية الَّتي سبقت هذه السّورة يقوم على بيان تضافر الآيات التَّنزيليَّة والآيات الكونيَّة في كتابي اللّٰه المسطور والمنظور، في دعوة النّاس للإيمان باللّٰه وبكتبه ورسالاته، فإنَّ مدار هذه السّورة ومحورها قد جاء مكمِّلًا له ومنبثقًا عنه، فمحورها يقوم على بيان أنَّ المنهج البشريَّ الحقَّ لا بدَّ أن يقوم على الاستجابة لمنهج اللّٰه وحده، والمقرَّر في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه، وليس للمناهج البشريَّة؛ لأنَّها لا تصلح لذلك؛ لذا اقتضاها هذا المحور أن تُعرِّض بالمناهج الأرضيَّة الأخرى المستمدَّة من ادِّعاءات البشر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

واقتضاها الأمر أن تردَّ عليهم شبهاتهم حول مصدريَّة المنهج الإلهيِّ في الوحي

محور السّورة يقوم على بيان أنَّ المنهج القويم هو في اتِّباع الوحي الإلهيِّ

والرِّسالة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف: 8 - 9].

واقتضاها هذا المحور أن تبيِّن وحدة المصدر للمنهج الإلهيِّ، فكلُّ الرِّسالات من مشكاة واحدة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ [الأحقاف: 12].

واقتضاها هذا المحور أن تبيِّن أنَّ هذا المنهج الإلهيَّ مركوزٌ في الفطرة، وأنَّه يجب نقْلُه مع الإنسان منذ أن تضعه أمُّه حتّى يبلغ أشدَّه، وأنَّه يقوم على الإحسان للوالدين وترك العقوق لهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [الأحقاف: 15] ... ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾ [الأحقاف: 18].

واقتضاها الأمر أن تعرض أنموذجًا سابقًا من قصص الأنبياء من خلال ذِكر قصَّة عاد، يمثِّل خلاصة مواقف الأقوام السّابقة مع أنبيائهم وأسباب إعراضهم عنهم، وما الَّذي حلَّ بهم بعد ذلك.

واقتضاها الأمر أن تبيِّن للنّاس موقف الجنِّ عندما سمعوا بهذا المنهج، وكيف تعاملوا معه، وهو المنهج ذاته الَّذي يجب عليهم أن يتَّبعوه، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ﴾ [الأحقاف: 29] ... ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: 32].

واقتضاها الأمر أن تحذِّرهم عاقبة النّار، الَّتي أُعدَّت لهم إن أصرّوا على كفرهم، وأن توصي الرَّسول والدُّعاة إلى الصَّبر على

تبعات مهمَّة حمل هذا المنهج: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35].

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورةِ يـدور حـولَ بيان أنَّ المنهج الحقَّ لا بـدَّ أن يكون باتِّباع منهج الله تعالى

يقول الزُّحيليُّ: موضوع هذه السّورة كسائر موضوعات السّور المكّيَّة، وهو إثبات أصول العقيدة الإسلاميَّة الثَّلاثة: وهي التَّوحيد، والرِّسالة والوحي، والبعث والجزاء.

بدأت السّورة بالحديث عن تنزيل الكتاب، وهو القرآن من اللّٰه تعالى، وإنَّما كرَّر؛ لأنَّه بمنزلة عنوان الكتب (الكتابة)، ثمَّ أقامت الأدلَّة على وجود الإله والتَّوحيد والحشر، وذمَّت المشركين عبدة الأصنام، وردَّت عليهم ردًّا دامغًا مقنعًا، وأجابت عن شبهاتهم حول الوحي والنُّبوَّة.

ثمَّ ذكرت حال فريقين: فريق أهل الاستقامة الَّذين أقرّوا بتوحيد اللّٰه، واستقاموا على ملَّته، وأطاعوا والديهم، وأحسنوا إليهم، فكانوا أصحاب الجنَّة، وفريق الكافرين الخارجين عن هدي الفطرة، المنهمكين في شهوات الدُّنيا، المنكرين البعث والحساب، العاقّين لوالديهم، بالتَّنكُّر للإيمان والمعاد، فكانوا أصحاب النّار.

ثمَّ ضربت المثل بقصَّة هود عليه السلام مع قومه (عاد) الطُّغاة الَّذين اغترّوا بقوَّتهم، وأصرّوا على عبادة الأصنام، فأهلكهم اللّٰه بريح عاتية، تدمِّر كلَّ شيء بأمر ربِّها؛ إرهابًا لكفّار قريش، وتحذيرًا من استبدادهم وتكذيبهم رسول اللّٰه ﷺ، وإنذارًا بعذاب مماثل جزاء استهزائهم.

كما ذكَّرتهم بإهلاك القرى المجاورة، وبمبادرة الجنِّ إلى الإيمان بما سمعوه من آيات القرآن، ودعوة قومهم إلى إجابة نبي

اللّٰه والإيمان برسالته، فإنَّ مَن عاند، وأعرض عن إجابة داعي اللّٰه، فهو في ضلال مبين.

ثمَّ خُتِمت السّورة بالتَّأكيد على قدرة اللّٰه على البعث؛ لأنَّه خالق السَّماوات والأرض، وبأنَّ تعذيب الكافرين بالنّار حقٌّ كائن لا محالة، وبالتَّهديد بأهوال القيامة، وبأنَّ العذاب أو الهلاك لا يكون إلّا للقوم الفاسقين الخارجين عن حدود اللّٰه وطاعته، فما على الرَّسول إلّا الصَّبر، كما صبر أولو العزم من الرُّسل، وعدم استعجال العذاب(1).

الخصائصُ الموضوعيَّة لسورة الأحقاف:

تميَّزت سورة الأحقاف بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

تميَّزت السّورة الكريمة بتعانق مطلعها مع خاتمتها تعانقًا عجيبًا، فقد تحدَّثت في بدايتها عن الكتاب، واختتمت الآيات الأخيرة منها بالحديث عن إيمان الجنِّ، لمّا سمعوا آيات الكتاب، واستهلَّت كذلك بالحديث عن خلق السَّماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ، وختمت بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: 33]، واستهلَّت كذلك بالحديث عن أنَّ الذين كفروا عمّا أُنذروا معرضون، وكان آخر جملة في السّورة هو بيان عاقبتهم: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 35].

وتميَّزت السّورة الكريمة بموضوعاتٍ وتفصيلاتٍ لم ترد في غيرها من السّور، مثل حديثها عن وجود شرك في السَّماوات للكافرين، وعن نفي النَّبيِّ عن نفسه أن يكون بدعًا من الرُّسل، وعن شهادة الشّاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وعن تفاصيل حمل الإنسان وبلوغه الأشدَّ، وعن الَّذي قال لوالديه: أفٍّ لكما، وعن تفاصيل في قصَّة عاد اختصَّت بها السّورة الكريمة، وعن استماع

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 6 - 7.

نفر الجنِّ للقرآن ودعوتهم لقومهم، وعن وصيَّة النَّبيِّ بالصَّبر مثل أولي العزم من الرُّسل وغير ذلك.

الخصائصُ الأسلوبيّة لسورة الأحقاف:

تميَّزت السّورة الكريمة بجرسها الموسيقيِّ الخاصِّ، فمعظم فواصلها تنتهي بحرف النّون المسبوق بحروف العلَّة بنسبة قد تصل لأكثر من ثلاثة أرباع السورة، وجلُّ آياتها الباقية تنتهي بحرف الميم المسبوقة بحروف العلَّة كذلك، ممّا أعطاها هذا الإيقاع العجيب المنسجم.

وقد تميَّزت السّورة الكريمة بأنساق وأنماط تعبيريَّة فريدة منها، قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 8]، ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: 10]، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ [الأحقاف: 11]، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: 11]، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15]، ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [الأحقاف: 15]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16]، ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: 17]، ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24]، وغيرها الكثير.

وتميَّزت السّورة الكريمة بكثرة تكرار لفظ (الحقّ) بالجمع؛ إذ وردت خمس مرّات: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأحقاف:7]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف: 20]، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾ [الأحقاف: 34]، وهذا الاعتناء بهذه المفردة مرتبطٌ بمحورها العامِّ القائم على بيان المنهج الحقِّ في اتِّباع الوحي الإلهيِّ.

وقد كثر في السّورة الكريمة استعمال أساليب القصر وطرائقه المتنوِّعة، ومنها: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف: 9]، و﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ [الأحقاف: 17]، و﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: 21]، و﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 23]، و﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25]، و﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: 35].

وتفرَّدت السّورة الكريمة بصيغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿شِرْكٌ﴾، ﴿أَثَٰرَةٍ﴾، ﴿بِدْعًا﴾ [الأحقاف: 9]، ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ [الأحقاف: 17]، ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾ [الأحقاف: 17]، ﴿وَيْلَكَ﴾ [الأحقاف: 17]، ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ [الأحقاف: 20]، ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ [الأحقاف: 20]، ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: 22]، ﴿عَارِضًا﴾ [الأحقاف: 24]، ﴿مُّسْتَقْبِلَ﴾ [الأحقاف: 24]، ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: 24]، ﴿حَضَرُوهُ﴾ [الأحقاف: 29]، ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]، ﴿يَعْيَ﴾ [الأحقاف: 33]، ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: 35]، ﴿تَسْتَعْجِل﴾ [الأحقاف: 35]، ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24]، وغيرها.

بيانُ المناسبة بين سورة الأحقاف والسّور المجاورة لها:

سورةُ الأحقاف متَّصلة تمامًا بسورتي الجاثية ومحمَّد مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متمِّمة لما تقدَّم في سورة الجاثية، وقد ذكروا هناك وجوهًا من الرَّبط بينهما، ومن ذلك ما جاء عند ابن الزُّبير الغرناطيِّ: لمّا قدَّم ذِكر الكتاب وعظيم الرَّحمة به وجليل بيانه، وأردف ذلك بما تضمَّنته سورة الشَّريعة من توبيخ من كذَّب به وقطع تعلُّقهم، وأنَّه سبحانه قد نصب من دلائل السَّماوات والأرض ما ذكر في صدر السّورة ما كلُّ قسم منها كافٍ في الدَّلالة وقائم بالحجَّة، ومع ذلك فلم يجرِ عليهم إلَّا التَّمادي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم وسيِّئ محالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلًا بسوء مرتكبهم، وإعلامًا بأليم منقلبهم فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ولو اعتبروا بعظيم ذلك

الخلق وإحكامه وإتقانه؛ لعلموا أنَّه لم يوجد عبثًا، ولكنَّهم عموا عن الآيات، وتنكَّبوا عن انتهاج الدَّلالات: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾، ثمَّ أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضرُّ، ولا ينفع، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ... ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: 6]، ثمَّ ذكر عنادهم عند سماع الآيات، فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [الأحقاف: 7] الآيات، ثمَّ التَحَمَ الكلام، وتناسق إلى آخر السّورة[1]، وقال الزُّحيليُّ: تظهر مناسبة السّورتَيْن من وجوه ثلاثة، هي:

أولًا: تطابق مطلع السّورتين في: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

ثانيًا: تشابه موضوع السّورتين، وهو إثبات التَّوحيد والنُّبوَّة والوحي والبعث والمعاد.

ثالثًا: خُتِمت سورة الجاثية بتوبيخ المشركين على الشِّرك، وبدأت الأحقاف بتوبيخهم على شركهم، ومطالبتهم بالدَّليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام الَّتي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة[2].

وأمّا وجه اتِّصالها بسورة محمَّد المدنيَّة؛ فقد بيَّن ابنُ الزُّبير الغرناطيُّ بعض وجوه اتِّصالهما، وممّا ذكره: لمّا انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من كذَّب، وكفر، وافتُتِحت السّورة بإعراضهم؛ خُتِمت بما قد تكرَّر من تقريعهم وتوبيخهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: 33]، ثمَّ ذكر عرضهم على النّار إلى قوله: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، فلمّا ختم بذكر هلاكهم؛ افتتح السّورة الأخرى بعاجل ذلك اللّاحق لهم في دنياهم، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: 4] الآية.

وبعد ابتداء سورة محمَّد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾ [محمد: 1]، فنبَّه على أنَّ أصل محنتهم إنَّما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه؛ ليعلم المؤمنون أنَّ الهدى والضَّلال بيده، فنبَّه على الطَّرفين بقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ [محمد: 8]، وقوله في الآخر: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾ [محمد:

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن: 305 - 306.
(2) الزحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 5.

2]، ثمَّ بيَّن أنَّه تعالى لو شاء؛ لانتصر منهم، ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختبارًا، ثمَّ حضَّ المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك، فقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]، ثمَّ التحمت الآي[1].

وأوجز هذه الصِّلات الزُّحيليُّ بقوله: هذه السّورة (سورة محمَّد) يرتبط أوَّلها ارتباطًا قويًّا بآخر سورة الأحقاف: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، حتّى إنَّه لو أُسقطت البسملة بينهما؛ لكان الكلام متَّصلًا مباشرة بما قبله اتِّصالًا لا تنافر فيه، كالآية الواحدة[2].

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 306 - 307.

(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 75.

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف: 1- 3]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

آيـــاتُ الـلـه القرآنيَّة، وآياته الـكـونـيَّـة، على سـواء، في أنَّها جـمـيـعًـا من الحقِّ

لمّا ثبت في الجاثية مضمون قوله تعالى في الدُّخان: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ [الدخان: 38]، بما ذكر فيهما من الآيات والمنافع والحِكم؛ أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل، فقال دالًّا على عزَّته وحكمته: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا ذكر تنزيل الكتاب من اللّه العزيز الحكيم؛ ناسب الجمع بينه وبين خلق السَّماوات والأرض، والحقِّ الَّذي خُلِقا به، ففي هذا الجمع إشارة إلى أنَّ آيات اللّه القرآنيَّة، وآياته الكونيَّة، على سواء، في أنَّها جميعًا من الحقِّ، وأنَّ ما يتلوه أصحاب الألباب من صحف الكون، هو شبيه بما يتلونه من كتاب اللّه وآياته، فالحقُّ يأتي عن طريق السَّمع من الكتاب المنزَّل، وعن طريق النَّظر في آيات اللّه الكونيَّة[2].

وأيضًا لَمّا كانَ مِن أهَمِّ ما جاءَ بِهِ القُرآنُ إثباتُ وحدانيَّةِ اللّه تَعالَى، وإثباتُ البَعثِ والجَزاءِ؛ لِتَوَقُّفِ حُصولِ فائِدَةِ الإنذارِ عَلى إثباتِهِما؛ جُعِلَ قَولُهُ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ تَمهِيدًا للاستِدلالِ عَلى إثباتِ الوَحدانيَّةِ والبَعْثِ والجَزاءِ، فَجُعِلَ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ مَحَلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عَليهِ أنَّهُ ما كانَ ذَلِكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 121.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 261.

الخَلقُ إلّا مُلابِسًا لِلحَقِّ، وتَقتَضِي مُلابَسَتُهُ لِلحَقِّ أنَّهُ لا يَكونُ خَلْقًا عَبَثًا، بَل هوَ دالٌّ عَلَى أنَّهُ يَعْقُبُهُ جَزاءٌ عَلى ما يَفْعَلُهُ المَخلوقونَ(1).

وأيضًا لمّا بَيَّن اللّهُ تعالى إنزالَ كِتابِه المتضَمِّنِ للأمرِ والنَّهيِ؛ ذكَرَ خَلْقَه السَّماواتِ والأرضَ، فجَمَع بيْنَ الخَلقِ والأمرِ(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى جَمْعِ شَيءٍ إلَى شَيءٍ(3)، وقد كتب الكتاب يَكْتُبُه كتبًا؛ إذا جمع حُروفه(4)، والكتاب: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر(5)؛ إذ به يُعبَّر عن الإثبات والتَّقدير والإيجاب والفرض والعزم والإلزام، ووجه ذلك أن الشَّيء يُراد، ثمَّ يقال، ثم يُكتب، فالإرادة مبدأ، والكتابة منتهى، ثم يُعبَّر عن المراد الَّذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة الَّتي هي المنتهى، ومنه ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ [آل عمران: 154](6).

2) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: يرجع أصل الكلمة إلى العَرضِ الَّذي يقابل الطّول، ومِن البابِ: عَرَضَ المَتاعَ يَعرِضُه عَرضًا، وهوَ كَأنَّهُ في ذاكَ قَد أراهُ عَرْضَهُ، وأصله أن يقال في الأجسام، كقولنا: أعرض عن فلان، ثمَّ يُستعمل في غيرها، مثل: أعرض عن الأمرِ؛ لأنَّهُ إذا كانَ كَذا؛ ولّاهُ عَرْضَهُ؛ تعبيرًا عن عدم الاهتمام به والانشغال عنه، وكلُّ مانعٍ منعَكَ من شُغل وغيره من الأمراض؛ فهو عارضٌ(7)، وبحسب تعلُّق الحرف بالفعل يختلف المعنى، فإذا قيل: أعرض لي الشَّيءُ، أي: بَدا عَرْضُهُ، وظهر، فأمكن تناولُهُ(8)، وإذا قيل: أَعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، ومصدر أعرض إعراض واسم الفاعل منه معرِضٌ، ومعنى ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ في الآية: مولّون لاهون غيرُ مستعدّين له(9).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 779.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).

(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).

(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).

(6) الرّاغب، المفردات: (كتب).

(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عرض).

(8) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرض).

(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 179.

المَعْنى الإجْماليُّ:

من كمالِ عزَّة اللهِ وتمامِ حكمتِه أنَّه نزَّل القرآن على عبدِه؛ ليكون للعالمين نذيرًا

ابتدأت هذه السّورةُ الكريمةُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي؛ لبيانِ أنَّ هذا القرآن من جنس الأحرف المعهودة لكم، ولم تستطيعوا أن تأتوا بمثلِه، ففي الأحرف المقطَّعة بيان لإعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه تَنزيلٌ مِن عندِ اللّهِ المتَّصف بكمال العزَّة الغالب، الَّذي لا يُغلَبُ، والمتَّصف بصفة الحكمة الكاملة التّامَّة في تنزيلِه للكتاب، وفي شرعِه وفي خلقِه وتدبيرِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ المناسبِ له اللّائِقِ به.

من مقتضى خلْقِ السَّماوات والأرض بالحقِّ أن يجتمع النّاس للحساب والجزاء يوم القيامة

ويخبر اللّه تعالى في الآية الثالثة منزِّهًا نفسَه عن العبث أنَّه ما خلق السَّماوات والأرض وما بينهما من أنواع المخلوقات إلّا بالحقِّ، فلم يخلقهما وما بينهما باطلًا وعبثًا لغير شيءٍ، بل خلق كلَّ شيءٍ مصحوبًا بالحقِّ قائمًا بالعدل، ومن الحقِّ أنَّه تعالى خلقَهما وما بينهما بتقدير وقت معيَّن مضروبٍ، لا يزيد، ولا ينقص؛ لانتهاء آجالها، وهو يوم القيامة، فلا شيءَ في الدُّنيا بدائم، ولا بدَّ من يوم يجتمع النّاس فيه للحساب والجزاء، والعجبُ من الَّذين كفروا أنَّهم عمّا أنذروا به، وخوِّفوا به في القرآن، من حلول يوم القيامة ومن الحساب والجزاء، مولّون منكرون، لا يتفكَّرون فيه، ولا يستعدّون له.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الابتداء بالأحرف المقطَّعة:

الإعجازُ في إدانة المكلَّف بمعهوداته

الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السّورةُ وغيرُها، يُقصَدُ بها بيان إعجازِ القرآنِ؛ فهذا القرآنُ مركَّبٌ من جنس هذه الحروف المعروفة، ومن نسيج لغة العرب، وهم عاجزون عن الإتيان بمثلِه، ففي حَرفَي الهِجاءِ ﴿حمٓ﴾ إشارةٌ إلى عَجْزِهم عن مُعارَضَتِه بَعدَ أن تحدّاهم، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ

به، وللعلماء فيها أقوال كثيرة، أوصلوها إلى نحو ثلاثين قولًا[1]، وتفويضُ أمر حقيقة معناها إلى الله علّام الغيوب أسلمُ وأحكمُ.

سببُ إيثارِ تكرار ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

كونُ القرآن منزَّلًا من الله العزيز الحكيم يوجب عدمَ الاختلاف فيه

إنَّما كرَّر المركَّب الإضافي ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في هذه السّورة، وقد جاء هذا التَّركيب الإضافي في الآية الثّانية من سورة السَّجدة، والآية الأولى من سورة الزُّمر، والثّانية في سور غافر والجاثية والأحقاف، وإنَّما كرَّر هذا التَّركيب الإضافي؛ لأنَّه صار بمنزلة عنوان الكتاب الَّذي بين أيديهم[2]؛ ليفيد أنَّ كونَه منزَّلًا من اللّه العزيز الحكيم، ممّا لا ينبغي الاختلاف فيه ولا الشَّكُّ فيه، فكلُّ ما يُذكر فيه حقٌّ وصدقٌ، فليس للمخاطَبين سوى الإذعان له، وفي التَّكرار تأكيد؛ لكونِه منزَّلًا من عند اللّه؛ إذ به يثبت الإعجاز، ويكون برهانًا على نبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

عبَّر بصيغة الجملة الاسميَّة: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت مضمون الجملة، بمعنى ثبوت كون هذا الَّذي يُتلى عليكم، هو تنزيل الكتاب من اللّه، وثبوت كونِه من العزيز الحكيم.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآن وتشريفُه ببيان وصفٍ من أوصافِه، وهو أنَّه نزلَ من علوٍّ

أفاد التَّعبيرُ بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾ بلازمِه أنَّه منزَّل من علوٍّ؛ ليدلَّ على رفعة المنزَّل وعلوِّه، ففيه تعظيم للقرآن وتشريف له، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى الاعتناء به لرفعتِه وعلوِّ شأنِه.

دلالةُ التَّعبير بالمصدر ﴿تَنزِيلُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ أنَّ القرآن منزَّلٌ على دفعات، وأنَّه لم ينزل على رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ دفعةً واحدةً؛

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (الم)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 224.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 117.

تـنـجـيـمُ آيِ الـقـرآن يـؤذن بـدرك مقاصده وامتثال أوامره

ليسهل فهمُه وإبلاغه والعمل به، وأشعر وصف اللّه تعالى بـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، في سياق بيان تنزيل القرآن أنَّ تفريق تنزيله هو من مقتضى عزَّة اللّه وغلبتِه وحكمتِه وحسن تدبيره.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تعـظيـمُ شـأنِ الـقـرآن بكـونِه مـنـزَّلًا مـن عند الـلـه الـعـزيـز الحكيم

تحتملُ الإضافةُ أن تكون على معنى لام الاختصاص، بمعنى: تنزيل للكتاب بقصد تعظيم الكتاب وتخصيص التَّنزيل به، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة الصِّفة إلى الموصوف على اعتبار أنَّ المصدر بمعنى اسم المفعول، والمعنى: هذا الكتابُ المنزَّل من اللّه العزيز الحكيم، على تقدير: مبتدأ محذوف، أو الكتاب المنزَّل هو من اللّه العزيز الحكيم، فيكون الجار والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرًا.

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الــقــرآنُ هـو الكتاب الكامل في مـعـانـيـه ونظمِه وأحكامِه وتشريعاتِه

(الـ) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تحتمل أن تكون للكمال، بمعنى تنزيل الكتاب الكامل في معانيه ونظمِه وأحكامِه وتشريعاتِه، ففيه إشارة إلى أنَّه هو الكتاب الكامل على الحقيقة، ويحتمل أن تكون (الـ) للعهد، أي: الكتاب المعهود عندكم، ولمّا كان نزول الآية في سياق نزول القرآن، ولم يكتمل نزوله بعد أيٍّ في ذلك الوقت؛ كان المعنى: الكتاب الَّذي نزل منه بعض السّور، وفيه إشارة إلى أنَّ التَّنزيل سيكتمل، ويكون كتابًا كاملًا.

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون القرآن:

من براعةِ نظم القرآن مناسبة لـفـظ الـتَّـنـزيـل لاقــتـران لـفـظ (الكِتابِ) به

أوثر اختيار لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون القرآن؛ لمجيء اللَّفظ في سياق التَّنزيل؛ لأنَّ المقصود بيان أنَّه منزَّلٌ من علوٍّ، وهو أنسب للوحي المكتوب في اللَّوح المحفوظ، فناسب لفظ التَّنزيل اقتران لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ به، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام.

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة، بمعنى: أنَّ ابتداء تنزيل

الكتاب هو من اللّٰه العزيز الحكيم، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ إعجازَه وكمالَه بسبب جهة صدوره ومبدأ تنزيله.

إعجازُ القرآنِ وكمالُه بسبب أنَّ مبدأ تنزيلِه من الله العزيز الحكيم

براعةُ بدء السّورة بصفتي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ مع ختم السّابقة بهما:

ابتدأت السّورة بذكر وصفي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، واختتمت سورة الجاثية بذكر الوصفين الجليلين: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، والسَّبب هو بيان أنَّ العزيز الحكيم الَّذي له الحمد، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ وربُّ العالم أجمع، والَّذي له الكبرياء في السَّماوات والأرض هو نفسه العزيز الحكيم الَّذي نزَّل الكتاب، ففيه إشعار إلى وجوب طاعة ما في الكتاب والانقياد له.

بعزَّتِهِ وحكمته سبحانه وتعالي خلق الكون، وأنزل القرآن

بلاغةُ اقترانِ الأسماء الثَّلاثة ﴿ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

وردت الأسماء الثَّلاثة الجليلة؛ بيانًا لأوصاف منزِّل الكتاب، فذكر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للإشعار بوجوب تعظيمِه والإذعان له؛ لما يفيدُه اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ من الدَّلالة على وصف الألوهيَّة، وذكرَ وصف ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ للإشعار بعزَّة الكتاب، وأنَّه لإعجازِه يغلب، ولا يُغلَب، وذكرَ وصف ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ تنزيلَه بحكمةٍ بالغة وتدبير متقَنٍ، وأنَّه محكَم في نفسِه، فالتَّعرُّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثريهما في الكتاب، فالغلبةُ للكتاب الَّذي نزَّله اللّٰه تعالى، والَّذي حفظه، كما أنَّه بُني على أساس من الحِكَم الباهرة الظّاهرة.

التَّعرُّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثريهما في الكتاب

مناسبةُ الفصل في مطلع الآية الثالثة:

جاء قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ على طريق الفصل للاستئناف البيانيِّ، أو ما يُسمّى شبه كمال الاتِّصال؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ؛ لأنَّ الآية جاءت في مقام الاستدلال على أنَّ القرآنَ تنزيل من اللّٰه العزيز الحكيم، بمعنى: أنَّه لمّا ذكر كون القرآن تنزيل العزيز الحكيم؛ ذكر ما هو دليل عليه[1]، فكأنَّه قيل: ودليل ذلك هو أنَّنا ما خلقنا السَّماوات والأرض

الدَّعوةُ إلى التَّفكُّر في خلق السَّماوات والأرض والاستدلال به على كون القرآن من عند الله

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 450.

وما بينهما إلّا بالحقِّ، فَجُعِلَ خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ محلَّ اتِّفاقٍ؛ لإقامتِه مقام الدَّليل لظهورِه ووضوحِه، ففي الكلام دعوة إلى التَّفكُّر والقياس؛ ليُعلَمَ الارتباطُ بين كون القرآن من عند الله، وكونه تعالى خلق السَّماوات والأرض، وما بينهما بالحقِّ.

بلاغةُ القصر في الآية:

ألوهيَّةُ اللهِ تعالى تقتضي أن يكون خلْقُهُ بالحقِّ والعدلِ

جاء قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ على طريق القصر، وسبب التَّعبير بهذا الأسلوب أنَّه لمّا أخبر الله تعالى أنَّ القرآن هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، وكان الكفّار المخاطَبون منكرين لكونِه من الله تعالى؛ جاءت الآية بطريق القصر بالنَّفي، و﴿إِلَّا﴾ لتكون في مقام الرَّدِّ على إنكارِهم كونَه حقًّا، بمعنى: كما أنَّه تعالى خلق السَّماوات والأرض، وما بينهما بالحقِّ، فإنَّه أنزل القرآن بالحقِّ، وكما ظهر لكم أنَّ السَّماوات والأرض قائمة بالحقِّ، وثبت لكم ذلك؛ لأنَّه إن لم يكن خلقهما بالحقِّ؛ كانَ باطلًا وعبثًا، وهذا لا يليقُ بعظمةِ الخالقِ وعجيب خلقِه وسعتِه، فإنَّ القرآن حقٌّ، ونزل من عند الحقِّ، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة، وهو قصر ادِّعائيٌّ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿خَلَقْنَا﴾ دون فطرنا:

من لم يصدِّق بالقرآن؛ فهو على باطلٍ

لمّا كان المقصودُ بيان أنَّه تعالى أوجد السَّماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ، وليس بالعبث والباطل؛ ليستدلَّ بخلقِه لهما على أنَّ القرآن تنزَّل من عنده تعالى بالحقِّ؛ ليفيدَ أنَّ مَن لم يصدِّق بالقرآن؛ فهو على باطلٍ، ولم يكن المقصودُ بيان أنَّه تعالى أوجدهما، وما بينهما على سبيل الإبداع الَّذي لم يكن، وأنَّه أوجدهما لغاية؛ عبَّر بقوله: ﴿خَلَقْنَا﴾ دون (فطرنا)؛ لأنَّ معنى فطر الله الخلق إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشِّحة لِفعل من الأفعال[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (فطر).

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب:

في الانتقال من الغيبة بذكر الاسم الظّاهر في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إلى التَّعبير بضمير العظمة ﴿خَلَقۡنَا﴾ التفات بلاغيٌّ، وذلك لأنَّ في العدول إلى المقام الخطابي إيذانًا بكمال خلقِ السَّماوات والأرض وما بينهما، في خصائِصِه وصفاتِه وحقّيَّتِه، وفي كونِه مقصودًا لأمرٍ معيَّن.

في الالتفات تنشيطٌ لذهن السّامع وتجديدٌ للخطاب، ويختصُّ كلُّ موضع بفوائد جليلة

نكتةُ إسنادِ فعل الخلق إلى ضمير العظمة:

أسندَ فعل الخلق إلى ضمير العظمة في قولِه: ﴿خَلَقۡنَا﴾: تعظيمًا لشأنِ خلقِه تعالى وتفخيمًا له، بمعنى: أنَّ هذا الخلق لا يكون إلّا من الملك الواحد الأحد.

تخصيصُ ذِكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دون سائر الكون:

لأنَّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ آيتان هائلتان بارزتان، فمجرَّد الإشارة إليهما يكفي، ويرد الشّارد إلى الرُّشد سريعًا، ولم يزيدوا على الإشارة شيئًا؛ لأنَّها وحدها تكفي، فكان التَّخصيص بهما، إضافة إلى أنَّ وجود السَّماوات والأرض دالٌّ على أنَّ لهما خالقًا حكيمًا؛ لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظَّمة عن غير فاعل مختار، وذلك معلوم بأدنى تأمُّل، وذلك لتأييد إنكار وقوع الشَّكِّ في انفراده بالألوهيَّة؛ لأنَّ انفراده بالخلق يقتضي انفراده باستحقاقه عبادة مخلوقاته، إضافة إلى أنَّ أحدًا لم يدَّعِ خلْقَ السَّماوات والأرض، فكان في ذكرهما تفرُّدُ الخالقِ وعجز البشر، مع كونهما أظهرَ الآلاء وأقربها من الحواسِّ.

عظمةُ الآيتين بحيث لا تُنكران

إيثارُ (ما) عن (الذي) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

إنَّ (ما) في التَّركيب بمعنى الَّذي، فكلاهما اسم موصول، وعندما تُفسَّر (ما)؛ فإنَّها تفسَّر بـ (الذي)، لكن (ما) أعمُّ وأشمل، تُطلق على كلِّ شيء، وتُطلق على ما ليس بشيء، فهي أعمُّ؛ لأنَّ

بيانُ الاتّساع وعجز الإنسان عن إدراك كنه المخلوقات

مِن سماتها فرط الإبهام، إضافة إلى أنَّ بناءها يوافق استعمالها المتَّسع، فمدُّ الألف المتَّسع يناسب تشاكل الاتِّساع في معناها، ومِن ثمَّ كانت دالَّة على كلِّ شيء سواء أكنا عالمين به أو جاهلين، ففيها مطلق المخلوقات؛ بحيث لا يمكننا حصر ما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب؛ لذا كانت الأنسب في المقام.

غرضُ فنِّ الطِّباق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

التَّناظُرُ بين السَّماوات والأرض من آثار خلقِ الله لهما بالحقِّ

في عطف (الأرضَ) على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طباق لطيف؛ وذلك للإشارة إلى العالم العلويِّ والسُّفليِّ، ففي الطِّباق إشارة إلى التَّناظر بين السَّماوات والأرض، وأنَّ هذا التَّناظر جعله اللّٰه بالحقِّ كذلك.

دلالةُ عطفِ (ما بَينَهُما) على السّابق:

تنبيهُ النّاس إلى عجزهم عن معرفة جميع أحوال العالم

في عطف (ما بَينَهُما) على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما بين السَّماوات والأرضِ في الأحوال المتنوِّعة من شمسِها وقمرِها وكواكبِها ونجومها ومجرّاتِها ما هو من جملةِ الحقِّ، وأنَّه تعالى ما خلقَ شيئًا في هذه السَّماوات إلّا وهو ملابسٌ للحقِّ، لا ينفكُّ عنه، وعبَّر بالاسم الموصول (ما) في قولِه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ للإشارة إلى عموم خلقِه بينهما وإلى أنَّ فيه إبهامًا، بمعنى أنَّ مِن أحوالِ ما بينهما ما لا نعرفُ نسبة تعلُّقه بهذا العالم، ولا نعرف مداه، ففيه إشارة إلى عجز النّاس عن معرفته، وإلى أنَّ الَّذي علينا هو قياس الغائب على الشّاهد؛ لنوقنَ بأنَّه كلُّ ما خلقَه اللّٰه تعالى ممّا نعلمه، وممّا لا نعلمه، لم يخلقه إلّا بالحقِّ.

نكتةُ إيثارِ الظَّرف (بَينَ) على حرف الظَّرفيَّة:

ما بين السَّماوات والأرض غير محدود، والخلق عاجزون عن معرفة جميع أسرار خلقِ الله تعالى

عبَّر بظرف المكان (بَينَ) في قولِه: ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ دون أن يقال: (وما فيهما)؛ للتَّنبيه إلى سَعة ما خلقه اللّٰه تعالى بين السَّماوات والأرض؛ لأنَّ ظرف المكان (بَينَ) مبهمٌ غير مختصٍّ، بمعنى أنَّه ليس له حدود معلومة ونهايات مضبوطة، ولو قيل: (وما فيهما)؛ لدلَّ على أنَّ ما

بين السَّماوات والأرض له حدود معيَّنة، فأفاد التَّعبير بظرف المكان المبهم (بَينَ) كون ما بين السَّماوات والأرض غير محدود في نظرِنا ومعرفتِنا؛ تعظيمًا لشأنِ خلقِه تعالى، وتعجيزًا للمخاطَبين عن معرفة جميع أسرار خلقِه.

جـاء ضمير التَّثنية لدفع توهُّم أنَّ الضَّمير يعود لغير المراد

بلاغةُ الاحتراسِ في إضافةِ الظَّرف لضمير التَّثنيةِ:

ضمير التَّثنية في قوله: ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ عائدٌ على لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، والتَّقدير: وما بين السَّماواتِ والأرضِ، فالمرجوع عليه السَّماواتُ - باعتبارِ مجموعِها - والأرضُ، ولو قال: (وما بينها)؛ لتوهِّم أنَّ الضَّمير عائد إلى السَّماوات، والمعنى: وما بين السَّماوات، أو لتوهِّم أنَّ الضَّمير عائد إلى الأرض، والمعنى: وما بين قطَعِ الأرض، فجاء الضَّمير بصيغة التَّثنية للاحتراس ودفعِ التَّوهُّم.

نوعُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾:

الاستثناءُ في قولِه: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ هو استثناء مفرَّغٌ؛ ليفيد الاستثناءَ من عموم الأحوال، ويحتمل أن يكون قولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حالًا من المفعول، والتَّقدير: ما خلقناهما في حالٍ من الأحوال إلّا في حالِ ملابستِهما بالحقِّ والحكمة، كما يحتمل أن يكون حالًا من الفاعل، والتَّقدير: ما خلقناهما في حالٍ من الأحوالِ إلّا في حالِ ملابستنا لخلقِهما بالحقِّ، ومآل المعنى على الوجهين واحدٌ[1]، وهو إثبات كونِ خلقِه تعالى لهما بالحقِّ، وكونِ خلقِهما ملتبسًا بالحقِّ، وأنَّ خلْقَهما ليس عبثًا وباطلًا، ففي الاستثناء من أعمِّ الأحوالِ من الدَّلالة على وجودِ الصّانعِ تعالى وصفاتِ كمالِه وابتناءِ أفعالِه على حِكمٍ بالغةٍ وانتهائِها إلى غاياتٍ جليلةٍ ما لا يخفى.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 450.

كلُّ ذرَّةٍ في هذا الوجود، لها مكانُها فيه، ولها وظيفتُها الَّتي تؤدّيها لانتظامِ نظامِه، واتِّساقِ حركتِه

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الظّاهر أنَّ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، والمعنى: ما خلقنا السَّماوات والأرض وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ غير منفكٍّ عنه[1]؛ ليفيد إثبات التباس خلقِها بالحقِّ، ونفي ماعداه نفي أن يكون خلقهما بالباطل والعبث، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ كلَّ ما خلقَه اللّه تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأفعالُه سبحانَه كذلك، وفي إثبات كونِ خلقِهما وما بينهما بالحقِّ إيذانٌ بأنَّ كلَّ ذرَّة في هذا الوجود، لها مكانها فيه، ولها وظيفتها الَّتي تؤدّيها لانتظام نظامه، واتِّساق حركته، وتقتضي ملابسة الحقِّ لخلقِ السَّماوات والأرض ألّا يكون خلقًا عبثًا، بل هو دالٌّ على أنَّه يعقبُه جزاءٌ على ما يفعلُه المخلوقون[2]، وتحتمل الباء أن تكون سببيَّة، والتَّقدير على وجهين، فإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السَّماواتِ والأرْضَ وما بينهما إلّا لأجل الحقِّ، أي: بسبب إقامة الحقِّ بين الخلقِ[3]، ولِلعدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السَّماوات والأرضَ، وما بينهما إلّا بسبب الحقِّ الَّذي اقتضاه الدَّليل من الإيمان والطّاعة أو البعث والجزاء.

نكتةُ تعريف لفظ (الحَقِّ) ونوعه:

(الـ) في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للجنس؛ لتفيد استغراق جميع أنواع الحقِّ، ليشمل لفظ الحقِّ معنى خلقِهما بالحكمة والغرض الصَّحيح[4]، والثّابت والواجب الحسن الَّذي قد حُقَّ أن يكون.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 111.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 6808، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2055، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 597.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 91.

نهايةُ العالم مبهمٌ عند النّاس ثابت معيَّن عند الله تعالى

نكتةُ تنكير لفظ (أجَلٍ):

نُكِّرَ لفظ (أجَلٍ)؛ للإشعار بأنَّ الوقت المحدَّد الَّذي ينتهي إليه خلق السَّماوات والأرض وما بينهما، وهو يوم القيامة مبهمٌ غيرُ متعيَّن عند المخاطَبين، لكنَّه ثابتٌ مقدَّرٌ عنده تعالى.

دلالةُ وصف (أجَلٍ) بصفة ﴿مُّسَمّٗىۚ﴾:

وُصِفَ الأجل بكونِه ﴿مُّسَمّٗىۚ﴾؛ للإشارة إلى كونِ زمن بقائِهما محدَّدًا بوقتٍ مؤقَّت، فلا بقاء لخلقِهما بمقتضى ملابستهما للحقِّ، فالفناء محدَّد في وقتٍ معيَّن للمخلوقات، وهو يوم القيامة الَّذي يأتي بعده البعثُ والنُّشور.

الَّذين كفروا خرجوا عن سننِ الحقِّ بتكذيبِهم بالبعثِ والجزاء يوم القيامة

نوعُ الواوِ ودلالتها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للحال، والجملة الاسميَّة حاليَّة[1]، فتكون مرتبطةً بجملة الاستثناء على معنى اقتران المستثنى بهذه الحال، والتَّقدير: إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ في حالِ إعراض الَّذين كفروا عن ما أنذروا به، ممّا دلَّ عليه خلقُ السَّماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ، والغرض من مجيء الحال التَّعجيب من موقف الَّذين كفروا الَّذين خرجوا عن سنن الحقِّ الَّذي قام عليه الوجود كلُّه، وأعرضوا ما أنذروا به من البعثِ والجزاء يوم القيامة، مع أنَّه تعالى خلق السَّماوات والأرض خلقًا ملتبسًا بالحقِّ مصاحبًا له، كما أفاد الحال تقريعَهم وتوبيخَهم على كفرِهم وإعراضِهم عمّا أُنذروا به، ويمكن أن تكون الواو استئنافيَّة شرعت بوصف حال الَّذين كفروا مع الإنذار، ولكنَّ الحمل على الحاليَّة أفضل.

الكفرُ سببٌ للإعراض عن الإنذار بالبعثِ والحساب

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصول (ٱلَّذِينَ كَفَرواْ):

أفاد التَّعبيرُ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ الإيماءَ إلى وجه إعراضِهم، بمعنى: أنَّ سببَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 77، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.

إعراضِهم هو كفرُهم باللّه تعالى وبرسولِه ﷺ، وبالقرآن المنزَّل، وفيه كذلك إشارةٌ إلى تسجيل كفرِهم عليهم، والتَّعريض بإهانتِهم بوصفِهم بفعل الكفرِ، كما أنَّ فيه تنبيهًا إلى غرابةِ فعلهِم وإعراضِهم عمّا أنذروا به؛ وذلك لتوجيه ذهن المخاطَب إلى ما سيخبر به عنهم منتظرًا لورودِه عليه، فإذا وصل إلى الخبر ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ تمكَّن علمُه بسوء فعلِهم وقبْحِ إعراضِهم.

غرضُ استعمالِ عنوان الكفر دون الشِّرك:

الكـفـرُ أنــواعٌ وأقبحها الكفر بـالـلـه ورسـولـه ﷺ وبـالـقـرآن وبيوم القيامة

لمّا أخبر تعالى عن أنَّه ما خلقَ السَّماوات والأرض وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ ولأجل الحقِّ وإقامتِه؛ كان المناسب التَّعبيرَ عن إعراض المعرضين بوصفِهم بالكفرِ، فقال: (الَّذِينَ كَفَرواْ)، ولم يقل: (والذين أشركوا)؛ وذلك لأنَّ الكفرَ بمعنى السَّتر، فأشعر التَّعبير بالكفر بأنَّهم ستروا فطرتِهم وعقلَهم عن الحقِّ الظّاهر في خلقِهما، كما أشعر اللَّفظ تنوُّعَ كفرِهم، فلم يقتصروا على الإشراك باللّه تعالى، بل كذَّبوا القرآن، وكذَّبوا رسولَه ﷺ، وكذَّبوا بيوم القيامة وبالجزاء فيه.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لإثبات وقوع كفرِهم، وللإشارة إلى أنَّ مَن يعرض عن ما أنذر به يوم القيامة إنَّما هو لتحقُّق كفرِه ووقوعِه منه.

نكتةُ حذفِ متعلِّق الكفر:

لم يُذكر مفعول الكفر هنا بقوله: كفروا باللّه أو رسوله أو باليوم الآخر، وغيره، وذلك للتَّعميم حتّى يشمل كلَّ هذا وغيره ممّا يمكن أن يكفر به.

دلالةُ حرف (عَنْ):

في قولِه: ﴿عَمَّآ﴾ أفاد حرف الجرِّ (عَنْ) المجاوزة، بمعنى مجاوزةِ إعراضِهم؛ لِما أُنذروا به، فلا يتفكَّرون فيه، ولا يستعدّون لحلولِه؛ ليفيدَ تعدّيهم بهذا الإعراض.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

التَّعبيرُ بالاسم العامِّ الموصول أدلُّ من غيره على عموم ما أنذروا به

(ما) في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ موصولة؛ لتفيد عمومَ ما أنذروا به من البعثِ والحساب والجزاء والثَّواب والعقاب، ويكون العائد محذوفًا، ودلَّت عليه قرينة السّياق، وتقديره عمّا أنذروا به، كما تحتمل أن تكون مصدريَّة[1]، والتَّقدير: والَّذين كفروا عن إنذارِهم معرضون، ولا حذف على هذا التَّقدير.

نكتةُ تقديم ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ على ﴿مُعۡرِضُونَ﴾:

من أهمِّ ما يتسبَّب عن الكفر بالله الإعراض عن إعداد العدَّة ليوم القيامة

قُدِّمَ متعلِّق الخبر من الجار والمجرور في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ على الخبر ﴿مُعۡرِضُونَ﴾؛ للاهتمام بالمتعلِّق؛ لأنَّه هو موضعُ التَّعجيب من مجيءِ جملةِ الحال، وكأنَّ أهمَّ ما تسبَّب عن كفرِهم هو إعراضُهم عمّا أُنذِروا به، كما أنَّ في تقديم متعلِّق الخبر على ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ رعايةً للفاصلة ورؤوس الآي.

بلاغةُ بناء فعل ﴿أُنذِرُواْ﴾ للمفعول:

جاء الفعلُ ﴿أُنذِرُواْ﴾ بصيغة المبني للمفعول؛ للإشعار بأنَّهم معرضون عن البعثِ ويوم القيامة بغضِ النَّظر عن من ينذرُهم، فليس سبب إعراضِهم عنه أنَّه من منذرٍ معيَّن، فهُم معرضون عنه من أيِّ منذرٍ كان.

توجيهُ تخصيصِ الإنذار بالذِّكر دون البشارة:

أوثر لفظُ الإنذار دون البشارة في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لمجيئِه في سياق لفظ الكفرِ المناسب للإنذار.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 431.

الجملةُ الاسميَّة أدلُّ من الفعليَّة عـلى الـثَّـبـات والتَّمكُّن

سببُ إيثارِ مجيء الخبر اسمًا دون أن يقال يُعرضون:

أوثرت جملة الحال أن تكون اسميَّةً، بمجيء مسندِها اسمًا مشتقًّا ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، دون أن يقال: (يُعرضون)؛ لتفيد تمكُّن إعراضِهم وثبوته، وهو المناسبُ لسياق ذِكر لفظ الحقِّ الدّالِّ على التَّمكُّن والثُّبوت، ففيه معنى التَّعجيب من مخالفتِهم الحقَّ الَّذي تقوم عليه السَّماوات والأرض وما بينهما.

الإعــراضُ عـنِ الدَّليل مذموم في الدّين والدُّنيا

نكتةُ استعمال مفردة ﴿مُعۡرِضُونَ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الذين كفروا لم يقفوا عند حدِّ الإنكار والتَّكذيب، بل تعدّوا إلى إعراضِهم عمّا أُنذروا به، أي: إنَّهم مبدون إعراضهم؛ لِما أُنذروا به، مدبرون عنه إلى ناحية بعيدةٍ، غيرُ مهتمّين به؛ تعبيرًا عن صرف عقولِهم عن التَّفكير بيوم القيامة والاستعداد لحلولِه وإبائِهم له، ففي طيِّ اللَّفظ معنى إنكارِهم؛ لِما أُنذروا به وتكذيبِهم به، وعبَّر بصيغة اسم الفاعل؛ للإيماء إلى أنَّ إعراضَهم عمّا أنذروا به صار وصفًا ثابتًا لهم وعادة معروفةً بهم؛ لكثرة تكرُّره منهم ولإصرارِهم عليه.

من فوائد الجملة الخبريَّة في الآية:

من دلالات الجملة الخبريَّة بيانُ أنَّ مِن الحقِّ الإيمان بالبعثِ؛ ليكون متناسقًا مع حقّيَّة، كونه تعالى ما خلق السَّماوات وما بينهما إلّا بالحقِّ وفيه فائدة أخرى، وهي وعظُ المخاطَبين وزجرِهم، أي: فانتبهوا أيُّها النّاس، وانظروا ما يراد بكم، ولِمَ خُلقتم[1].

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 91، والعليمي، فتح الرّحمن: 6/ 280.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾ [الأحقاف: 4]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تقريرُ توحيدِ الله يدلُّ على إبطال صفة الإلهيَّة عن غير الله تعالى

لمّا قرَّر اللّه تعالى الأصلَ الدّالَّ على التَّوحيد وإثبات العدل والرَّحمة بالبعث للفصل، وكان الكفّار يدَّعون في أصنامِهم أنَّهم شركاء للّه تعالى، وأنَّها هي الَّتي تدفع عنهم الضُّرَّ؛ إن أصابَهم، أو توعِّدوا به؛ بنى على ذلك الأصل تفاريعَه، وبدأ بإبطال متمسَّكهم في إلهيَّة أصنامِهم، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا قرَّر اللّه تعالى الأصلَ الدّالَّ على إثبات كونِه تعالى خلقَ العالمَ بمقتضى الحقِّ والحكمةِ والعدل، وعلى إثبات البعثِ ويوم القيامة؛ بنى عليه التَّفاريع، فالفرع الأوَّل تقريرُ التَّوحيد وإبطال الإشراك - الَّذي هو أصل ضلالِ الكافرين - بإبطال صفة الإلهيَّة عن الأصنام الَّتي يعبدونها، وإبطال استحقاقِها للعبادة، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُم﴾: أصل لفظ رأى يدلُّ عَلى نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ أو بَصِيرَةٍ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراك المرئيِّ، وأصله أن يكون بحاسَّة البصر، ورأى إذا عدّي إلى مفعولين؛ اقتضى معنى العلم، ويجري (أرأيتَ) مجرى أخبرني، ويلزم حينئذٍ فتح التّاء مفردةً على كل حالٍ، ومنه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ [الإسراء: 62]، وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾ [العلق: 9]، ويفيد (أرأيت) الَّذي بمعنى: أخبرني معنى التَّنبيه، أي: تنبيه المخاطَب، و﴿أَرَءَيْتُم﴾ في الآية بمعنى: أخبروني[1].

2) ﴿أَثَٰرَةٍ﴾: الأثر: حصولُ ما يدلُّ على وجودِ شيءٍ، ومنه: أثرُ البعيرِ والرَّجلِ، يقالُ: إِثْرٌ وأَثَرٌ، ومنه أثرُ السُّجودِ في الجبهة، والجمع آثار[2]، وكلُّ ما يُروى، أو يُكتب، فيبقى له أثر، فهو من الآثار[3]، وقال الخليل: الأثَرُ بَقيَّةُ ما يُرَى مِن كُلِّ شَيءٍ، والأثارَةُ: البَقِيَّةُ مِنَ الشَّيءِ، والجَمعُ أثاراتٌ[4]، والمآثر: ما يُروى من مكارم الإنسان، والاستئثار: التَّفرُّد بالشَّيء من دون غيره، وتأتي أثارة بمعنى علامة مِن عِلم، و بقيَّة من علم، وما يؤثر من علم[5]، و﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بمعنى: بقيَّة من علمٍ تُروى عن الأوَّلين[6].

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ الدَّليل العقلي والسَّمعي على أنَّ الجماد لا يمكن أن يُدعى من دون الله

يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يوبِّخ المشركين، ويقيم عليهم الحجَّة، ويبيِّن بطلان ما هم عليه، فيقول: قل يا محمَّد لهؤلاء الكفّار باللّه سبحانه من قومك: أرأيتم الآلهة الَّتي تعبدون من دون اللّه سبحانه: أروني أيَّ شيء خلقوا من الأرض، فإنَّ ربّي خلق الأرض كلَّها، أم لآلهتكم شرك في خلقِ السَّماوات السَّبع، جيئوني بكتاب من قبل هذا القرآن فيه أنَّ آلهتكم خلقت شيئًا من السَّماوات والأرضين، أو جيئوني ببَقِيَّةٍ مِن عِلْمٍ يُؤْثَرُ على الأوَّلِينَ، تخبر أنَّ آلهتكم خلقت شيئًا، أو لها شرك في شيء؛ إن كنتم صادقين في عبادتكم إيّاها،

(1) الرّاغب، المفردات: (أثر)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 56.
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أثر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أثر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 438.
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، تح: صقر، ص: 407.

وفي دعواكم لها ما تدّعون، فيكون لكم بذلك حجّة؛ فإنَّ الدَّعوى إذا لم يكن معها حجَّة، لم تُغنِ عن المدَّعي شيئًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

تَـرْكُ الـعـطـفِ بـيِّنُ الـجـمـالِ، إمّــا لاتِّــصــالِ الآيــة لـغـايـة، أو انـفـصـالـهـا لغاية، أو لما هو بينهما

جاءت هذه الآية مفصولةً عن الآية السّابقة؛ لأنَّها إنشائيَّة، وما سبقتها كانت إخباريَّة، ولا يجوز عطف الإنشائيَّة على الخبريَّة أو العكس، إلّا إذا آلت إحدى الجملتَيْن لمعنى الأخرى، فضلًا عن أنَّ سبب الفصل قد يكون للاستئناف البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: فماذا كان ردُّ اللّٰه عليهم بسبب إعراضهم؟.

نكتةُ الانتقالِ إلى الخطاب المباشر:

المواجهة بالحجَّة إلجاء للخصم إلى الاعــتــراف بــالــعــجــز عن معارضة الحجَّة

انتُقِلَ بالكلام إلى طريق الخطاب في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾؛ لأنَّ الكلام جاء على طريق المناظرة والمحاجة؛ لإبطال نفي صفة الألوهيَّة عن أصنامِهم، وطريق المحاجة مواجهة الخصوم الَّذين يشركون باللّٰه تعالى؛ لإثبات عجزِهم المقتضي سكوتهم عن الجواب ووجومهم، فجعل النَّبيَّ ﷺ مواجِهًا لَهُم بالاحتِجاجِ؛ لِيكونَ إلجاءً لَهُم إلى الاعترافِ بِالعَجْزِ عَن مُعارَضَةِ حُجَّتِه، وفي الخطاب إشعارٌ بأهمّيَّة المقول المأمور بقولِه.

غرضُ فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

إلـقـاءُ الـدَّلـيـل بـطـريـق الـقـول مــن مــنــاظِــرٍ مواجِهٍ أقوى في الإلزامِ والإذعانِ

أفاد التَّعبيرُ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ الموجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ الأمرَ بإلقاءِ الدَّليلِ عَلى إبطالِ الإشراكِ، وهوَ أصلُ ضَلالِهِم[2]، فإنَّ إلقاء الدَّليل بطريق القول من مناظِرٍ مواجِهٍ أقوى في الإلزامِ والإذعانِ، والقصد منه تبكيتهم وتوبيخهم[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 92.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 9.
(3) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 8/ 77.

نكتةُ حذفِ متعلّق فعل الأمر هو (لهم):

تعليمُ المؤمنين طريقة إلقاء الحجَّة على جميع المشركين

كان الظّاهر أن يقال: (قل لهم أرأيتم)؛ لأنَّ الكلام في معرض إلقاء القول للمشركين، ولكن حُذِفَ متعلّقُ فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ للإيماء إلى العموم، بمعنى: أنَّ هذا القول يقال لكلِّ مشركٍ باللّه تعالى، وليس مختصًّا بقومِك المشركين من أهل قريش.

نوع فعل (رأى):

المشركون إنَّما يعبدون معبوداتِهم عن تقليد بلا وعيٍ ولا تفكيرٍ

الظّاهر أنَّ الفعل (رَأى) يدلُّ على الرُّؤية العلميَّة المسبَّبة عن الرُّؤية البصريَّة؛ لأصنامِهم الَّتي كانوا يعبدونها، فهو من باب المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ أفضل وسيلة للعلم هي الرُّؤية، ويمكن أن يكون التَّعبير بالرُّؤية البصريَّة للرُّؤية العلميَّة في قوله: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾؛ ليكون على وجه الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ المستفهمَ عنه بالرُّؤية يقصد به الاستفهام عن أحوالِ المرئيِّ وإناطة البصر بها، أي: إنَّ أمرَ المستفهَم عنه واضحٌ بادٍ لكلِّ من يراه[1]، ففي التَّعبير بِفعل الرُّؤية إشارة إلى أنَّ هؤلاء المشركين، كانوا في غفلة عن معبوداتهم تلك، وأنَّهم إنَّما يعبدونها عن تقليد، بلا وعيٍ أو تفكير[2].

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾:

دعوةُ المشركين إلى التَّأمُّل في حقيقة معبوداتِهم؛ ليتَّضح لهم حالُها، وليعلموا بطلانَها

الاستفهامُ في ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ مجازيٌّ على معنى التَّقرير[3] المتولَّد منه التَّوبيخ[4]، فهو بمعنى أخبروني، وذلك على طريقة المجاز المرسل؛ لأنَّ الإخبارَ بالشّيء ناشئٌ عن العلم به، وكأنَّ الكلام على تقدير أعلمتم علمًا جازمًا، بالنَّظر في حال معبوداتكم في الخسَّة والهوان، فلا سبيل لكم إلّا الإقرار بأنَّهم لم يخلقوا شيئًا، فأخبروني عن ما تدعون من دون اللّه، وإنّما قدَّر ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ على معنى أخبروني؛ لأنَّ الإخبار المسبَّب

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 324.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 261.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 9.

(4) العليمي، فتح الرّحمن: 6/ 280، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 77.

عن الرُّؤية العلميَّة أو البصريَّة، لا سيَّما في مقام المناظرة والمحاججة في إثبات الألوهيَّة، لا يكون إلّا بالتَّأمُّل الصّادق، فَسِرُّ التَّعبير بالرُّؤية البصريَّة للرُّؤية العلميَّة في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ - ليكون على وجه الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة - هو أمرهم أن يتفكَّروا في حالِ أصنامِهم، ويتأمَّلوا فيها؛ ليتَّضح لهم حالُها وحقيقتُها من الحقارة والهوان حتَّى لكأنَّهم ينظرون إلى حقارتِها نظر العين؛ ليكون الاستفهام تمهيدًا لما بعده؛ ليكون كالدَّليل عليه بعد وضوحِه وبيانِه، ففي الاستفهام التَّقريريِّ إيماءٌ إلى طلبِ التَّأمُّل منهم، وأن يعيدوا النَّظر في معبوداتهم تلك، وأن يتحقَّقوا من صفاتها، وما تملك بين أيديها من قوًى، والقصد من مجيء الاستفهام على سبيل التَّقرير هو إثبات شركِهم باللّه تعالى، ففيه توبيخ لهم مع إقرارِهم؛ ليكون تمهيدًا للمناظرة وإقامة الحجَّة عليهم.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي (رَأيتُم):

عبَّر بصيغة الفعل الماضي (رَأيتُم)؛ للإيذان بوقوع رؤيتِهم وتحقُّقها؛ لأنَّ الاستفهام مجازيٌّ على معنى تقرير وقوع رؤيتِهم.

نوع ﴿مَّا﴾ ودلالة استعمالها:

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾ من ألفاظ العموم؛ ليشمل كلَّ ما يدعون من دون اللّه، وعبَّر بـ﴿مَّا﴾ الَّتي لغير العاقل؛ للإشعار بأنَّ كلَّ إلهٍ مع اللّه تعالى يدخل في دائرة غير العاقل، ويدخل في اللَّفظ الأصنام الَّتي كانوا يعبدونها دخولًا أوَّليًّا؛ تقريرًا لحالِها التي هي عليها من الجماد الَّذي يظهر فيه أنَّه لا يضرُّ، ولا ينفع.

كـلُّ إلـهٍ يُعبَد سوى الله تعالى يـظهـر بطلانه بقليل من التَّأمُّل والتَّفكير

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿تَدۡعُونَ﴾ دون تعبدون:

عبَّر بقولِه: ﴿تَدۡعُونَ﴾ على سبيل المجاز المرسل من إطلاق المسبَّب، وهو الدُّعاء، وإرادة المسبِّب، وهو العبادة، وسبب العدول إلى المجاز دون أن يقال: (أرأيتم ما تعبدون من دون اللّه) هو الإشعار بأنَّ دعاء الأصنام عبادة لها، وشرك به سبحانه، ويدخل فيه دعاء

دعاءُ ما سوى الله تعالى والطَّلب منه على سبيل تعظيمِه وتأليهه عبادة له

كلِّ ما هو من دون اللّٰه تعالى، وفي العدول إلى المجاز إيماءٌ إلى أنَّه ليس المقصود من العبادة الرُّكوع والسُّجود للمعبود فقط، بل دعاؤُه والطَّلب منه على سبيل تعظيمِه وتأليهه عبادة له كذلك، وعلى هذا فيكون المراد من الدُّعاء المعنى الأعمَّ الَّذي يشمل الحقيقة والمجاز، أي: الدُّعاء والعبادة، فيكون من قبيل الجمع بين الحقيقة والمجاز بلفظ واحدٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالفعل المضارع هنا قد يكون للتَّجدُّد الاستمراريِّ ولاستحضار الصّورة

عبَّر بصيغة المضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾؛ للإشعار بتكرُّر دعائِهم لأصنامِهم وتجدُّده منهم، فهُم لا يكفّون عن دعائِها، ولا ينفكّون عنه، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المضارع تصويرًا لقبحِ حالِهم، وهم يدعون ما هو من دون اللّٰه.

فائدةُ حذفِ مفعول ﴿تَدۡعُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ ﴿تَدۡعُونَ﴾؛ لتقرير عموم الاسم الموصول، كما أنَّ في الحذف إشعارًا بهوانِه وضعتِه بحيث ينبغي ألّا يُذكَر لولا مقام الاستدلال والتَّنبيه إلى تركِ دعائِه وعبادته.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان للاسم الموصول في قولِه: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾؛ لتفيد ﴿مِن﴾ البيانيَّة أنَّ المراد بـ﴿مَّا﴾ العموم، فيشمل كلَّ ما هو سوى اللّٰه تعالى.

نكتةُ استعمالِ الظَّرف ﴿دُونِ﴾:

لا يصل أيُّ معبودٍ إلى ألوهيَّة الله تعالى وعلوِّهِ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه

عبَّر بالظَّرف ﴿دُونِ﴾ في معرض بيان الاسم الموصول ﴿مَّا﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ ما سوى اللّٰه تعالى هو دونَه، ففيه إشارة إلى سفول كلِّ ما يُتَّخذ إلهًا من دونه سبحانه، فلا يصل أيُّ معبودٍ إلى ألوهيَّة اللّٰه تعالى وعلوِّهِ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه.

دلالةُ التَّعبير باسم الجلالة:

عبَّر بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقام إثبات للألوهيَّة وردع عن الشِّرك، فناسب التَّعبير بالاسم الجليل، فإنَّ لكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقامًا يناسبها، ويطلبها.

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿أَرُونِي﴾ بين معنى التَّأكيد وبدل الاشتمال:

الفصلُ لكمال الاتِّصال بين الجملتَيْن

جاءت جملة ﴿أَرُونِي﴾ بطريق الفصل، فيُحتمل أن تكون تأكيدًا لجملة ﴿أَرَءَيْتُم﴾؛ لأنَّها بمعنى أخبروني[1]، فإنَّ الإراءة إخبار كذلك، فيكون قوله: ﴿أَرُونِي﴾ تصريحًا بما كنّى عنه في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾[2]، ويحتمل أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿أَرَءَيْتُم﴾[3]، بمعنى أنَّ الإراءة نوع مشتمل على الإخبار، وعلى كلا الوجهين فإنَّ جملةَ ﴿أَرُونِي﴾ مسوقة للتَّعجيز والتَّبكيت؛ لقصد إثبات الحجَّة عليهم وإذعانِهم وتسليمِهم، كما تحتمل أن تكون تفصيلًا لِما أُجمل في الاستفهام التَّقريريِّ.

فنُّ بديع الجناس:

عجزُ الآلهة التي تُتَّخذ من دون الله واضحٌ لكلِّ راءٍ

جاء الجناس في الفعلين ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿أَرُونِي﴾؛ ليكون من لَبِنات المناظرة والمحاججة، فإنَّه بَنى على تحقُّق رؤيتِهم ووقوعِها الأمر بإراءَتِه؛ للإيذانِ بظهور عجز آلهتهم وأصنامِهم الَّتي يعبدونها، وكأنَّ المعنى لا أطلب منكم إلّا أن تروني ما رأيتموه؛ لأنَّ ما يرونه من عجز آلهتِهم واضح لكلِّ راءٍ.

غرضُ فعل الأمر ﴿أَرُونِي﴾ في الاستدلال:

اللهُ تعالى هو المتفرِّد بالخلقِ، وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئًا

الغرضُ من التَّعبير بفعل الأمر ﴿أَرُونِي﴾ هو تعجيز المشركين؛ إذ لا يستطيعون أن يروه شيئًا خلقته الأصنام، ففي الأمر التَّعجيزي استدلال في قوَّة نفي أن يكونوا قد خلقوا شيئًا ما، وفيه إثبات

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 77، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 163.

لعجزِهم عن الخلقِ أصلًا، بمعنى: أنَّهم لم يخلقوا شيئًا، ولا يستطيعون أن يخلقوا أصلًا.

بلاغةُ المجازِ في الفعل ﴿أَرُونِي﴾:

لمّا كان الإخبار بالشَّيء ناشئٌ عن العلم به، والعلم به ناشئٌ عن الرُّؤية له؛ كان ذلك آكد في الإخبار

عبَّر بالفعل ﴿أَرُونِي﴾ على طريق المجاز عن الإعلام والإنباء، أي: أنبئوني شيئًا مخلوقًا للَّذين تدعون من دون الله في الأرض، وسبب العدول إلى المجاز بلفظ الرُّؤية هو أنَّ الأمور تكون عن طريق الرُّؤية أوضح وأظهر، وليكون بناء الدَّليل موافقًا للمقدِّمة في قولِه: ﴿أَرَءَيْتُم﴾، أي: قد رأيتم، فأروني.

بلاغةُ المحاجة في الانتقال من الاستفهام إلى الأمر:

من أساليب المحاججة في القرآن مُطالبَةُ المُدَّعي بِالدَّليل على إثباتِ دَعواهُ

جاء الأمر ﴿أَرُونِي﴾ بعد الاستفهام ﴿أَرَءَيْتُم﴾؛ لأنَّ الاستفهام قُصِد منه تقريرُهم، وطلبُ التَّأمُّلِ منهم في حقيقة الأصنام، وكونِها جمادًا لا تضرُّ، ولا تنفعُ؛ ليكون الكلامُ تمهيدًا للإجابة عمّا يُسألون عنه في شأن معبوداتِهم، فكأنَّه بعد ما تقرَّر من رؤيتِهم وعلمِهم بحقيقة أصنامِهم؛ انتقل الكلام إلى أسلوب الطَّلب؛ ليتحقَّق عجزهم عن الجواب وإذعانِهم لبطلان شركِهم ومعتقدِهم، ولإثبات وحدانيَّة اللّه تعالى، وهَذا من رُؤوس مَسائِلِ المُناظَرَةِ، وهوَ مُطالَبَةُ المُدَّعي بِالدَّليلِ عَلى إثباتِ دَعواهُ[1].

غرضُ الاستفهامِ بأداة ﴿مَاذَا﴾:

الاستفهامُ يأتي أحيانًا مجازًا عن الإنكار والتَّعجيب

الاستفهام في قولِه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾؛ للإنكار الوقوعي المضمَّن معنى التَّوبيخ، قصد منه تحقيق تعجيزهم، وفي هذا الاستفهام كناية عن سلبِ مؤهِّلاتِ الألوهيَّة عن كلِّ ما سوى اللّه تعالى أرضيَّةً كانت بطريق الخلق، أم سماويَّةً بطريق السُّلطان والقوَّة.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿خَلَقُواْ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿خَلَقُواْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الذي يستحقُّ الدُّعاء

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 9.

أقوى دليل على استحقاق وصف الألوهيَّة هو القدرة على الخلقِ والإيجاد من العدم

والعبادة هو الخالق، وأنَّ أقوى دليل على استحقاق وصف الألوهيَّة هو القدرة على الخلقِ والإيجاد من العدم، ففي التَّعبير بقولِه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ استدلالٌ على بطلانِ ألوهيَّة الأصنامِ بطريق نفي اللّازم العقليِّ؛ لأنَّ من لوازم المعبودِ عقلًا العلم بكونه خالقًا[1]، فإذا انتفى كونه خالقًا؛ انتفى كونه معبودًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿خَلَقُواْ﴾:

اللهُ تعالى تعالى هو المستحقُّ للعبادة وحده؛ لأنَّه هو الَّذي خلق كلَّ شيءٍ

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿خَلَقُواْ﴾ الدالِّ على انتفاء وقوع خلقِهم؛ لأنَّ المقام مقام استدلال، فاقتضى التَّعبير بصيغة الماضي؛ للإيذان بتحقُّق انتفاء خلقِهم، وفيه إشارة إلى أنَّه تعالى هو المستحقُّ للعبادة وحده؛ لأنَّه هو الَّذي خلقَهم، وخلق كلَّ شيءٍ.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في فعل ﴿خَلَقُواْ﴾:

عبادةُ الجماداتِ يدعو إلى التَّهكُّم بعابديها

عبَّر بصيغة ضمير العالم أو العاقل في قولِه: ﴿خَلَقُواْ﴾ العائد إلى الاسم الموصول (ما)؛ ليفيد أنَّ المرادَ من الاسم الموصول معنى الجمع، ففيه إثباتٌ لتعدُّد آلهتِهم، وكان الظّاهر أن يقال: ماذا خلقت من الأرض، وسبب العدول إلى ضمير العقلاء تبكيت المشركين وتجهيلهم، فكأنَّ المعنى: إنِ ادَّعيتم لها الخلق، واعتقدتموه؛ فإنَّها ستكون في مصافِّ من يتَّصف بالعلم، والحال أن لا عقل لها، ولا علمَ تتَّصف به، ففي التَّعبير بضمير العقلاء تهكُّم بالمشركين في عبادتِهم للجمادات.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

تحتمل ﴿مِنَ﴾ أن تكون بيانًا لاسم الاستفهام ﴿مَاذَا﴾ بمعنى: ماذا خلقوا من أجزاء الأرض؛ ليفيد حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ بيان الجهة المراد إنكار تأثير أصنامِهم فيها بقرينة مقابلتها

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 3/ 510.

بالسَّماوات[1]، وتحتمل أن تكون ابتدائيَّة بمعنى: أروني شيئًا خلقوه ناشئًا من الأرض[2].

فائدة (ال) في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد على معنى الأرض المعروفة لديهم، والَّتي يعيشون عليها، ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، بمعنى جنس الأرض الَّتي هم عليها.

دلالةُ إبطالِ أن يكون لما سوى الله تعالى خلقٌ:

نفيُ الألوهيَّةِ عن معبوداتهم بطريق الحجَّة العقليَّة أبلغ في الرَّدِّ

جاءت المحاجَّة في نفي ألوهيَّة ما سوى اللّٰه تعالى بإبطال أن يكون لآلهتهم خلقٌ في الأرض، وذلك في قولِه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه إذا لم يكن شَيءٌ مِنَ الأرضِ مَخلوقًا لَهُم؛ بَطَلَ أن يَكونوا آلِهَةً؛ لِخُروجِ المَخلوقاتِ عَن خَلقِهِم، وإذا بَطَلَ أن يَكونَ لَها خَلْقٌ؛ بَطَلَ أن يَكونَ لَها تَصَرُّفٌ في المَخلوقاتِ، فبطلت ألوهيَّتها[3].

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها الإضرابيَّة:

قد تأتي (أم) متَّصلة أو منقطعة تفيد الإضراب

﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ منقطعة تفيد الإضراب الانتقالي، بمعنى الإضراب عن السُّؤال السّابق، بعد أن عرف الجواب عنه، وهو الصَّمت والوجوم، وإنشاء لسؤالٍ آخر، فتكون ﴿أَمۡ﴾ مؤذنةً باستفهام بعدها، وسبب مجيء ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة هو أنَّه بعد أن استفهم في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وعرف الجواب عنه، وهو الصَّمت والوجوم؛ استفهم عن أمرٍ آخر، فربَّما وجد المشركون جوابًا له، بعد أن عجزوا عن الإجابة عن السُّؤال الأوَّل، وهذا بقصد التَّعجيز عن الجواب.

غرضُ الاستفهام المقدَّر بعد ﴿أَمۡ﴾:

في مجيء ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة إيذانٌ باستفهام بعدها، وتقدير

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 432، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 77.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 10.

ثـبــوتُ عجـز الآلهة عن خلق مـا فـي الأرض يـدلُّ على عجزِه عــن خـلـق ما في الـسَّـمـاوات بطريق الأولى

الكلام: بَل أَلَهُم شِركٌ فِي السَّماواتِ، بمعنى: ليس لهم شركٌ مع اللّه في السَّماوات[1]، فهو استفهام إنكاريٌّ، وفي مجيء ﴿أَمْ﴾ ترقٍّ في التَّعجيز لقرب الأرض منهم، بمعنى: إذا ثبت أنَّهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض؛ فأَن يعجزوا عن أن يكونَ لهم شركٌ في السَّماوات أولى وأظهر، وذلك لِبُعد السَّماوات عنهم.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿شِرْكٌ﴾:

قُدِّمَ المسندُ من الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المسند إليه ﴿شِرْكٌ﴾؛ لنفي أيِّ شرك للأصنام؛ لأنَّ تقديمَ الخبرِ على المبتدأ في سياق الإنكار المقتضي للنَّفي يفيد عموم انتفاء الشِّرك في السَّماوات، كما أنَّ تقديم شبه الجملة الَّتي تحوي ضميرًا يعود عليهم، إنَّما هو لأنَّ مدار الحديث كان عنهم وعن شركهم باللّه.

دلالةُ مجيء ﴿شِرْكٌ﴾ مصدرًا:

عبَّر بصيغة المصدر في قوله: ﴿شِرْكٌ﴾؛ للإشارة إلى نفي أيِّ نوعٍ من أنواع الشِّرك، فإنَّ نفي المصدر يستتبعه نفي الأنواع جميعها.

نكتةُ ذِكر انتفاء الخلق مع الأرض وانتفاء الشِّرك مع السَّماء:

دعــوى خـلـقِ شيءٍ من عوالمِ السَّماواتِ أكبرُ من أن يَتَّسِعَ لها ادِّعاءٌ

أوثِرَ انتفاء الخلق مع الأرض، وانتفاء الشِّرك مع السَّماوات في قولِه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾ دون أن يقال: (ماذا أشركوا في الأرض، أم لهم خلق في السَّماوات)؛ لقرب الأرض من أصنام المشركين، والقرب مظنَّة أن يكون لها في الأرض تأثير ذاتيٌّ، فإنَّهم كانوا يعبدونها على اعتبار أنَّ لها تأثيرًا في الخلقِ وتدبيرًا وتصريفًا فيه بالمدِّ بأسباب الحياة، وما ينزل عليهم من مطر، أو ينبت من نبات، كما أنَّ مَخلوقاتِ الأرضِ مُشاهَدَةٌ لِلنّاس، ظاهِرٌ تَطَوُّرُها وحُدوثُها، وأنْ لَيْسَ لِما يَدعونَهُم من دونَ اللّه أدنَى عَمَلٍ في إيجادِها، وأمّا السَّماوات؛ فلبعدها عنهم، واستبعاد أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325، و26/ 10.

يكون لها تأثير ذاتيٌّ للأصنام فيها ولعظيم سلطانِها وظهوره، فالموجودات السَّماويَّة مَحجوبَةٌ عَنِ العُيونِ لا عَهْدَ لِلنّاسِ بِظُهورِ وجودِها ولا تَطَوُّرِها، فَلا يَحْسُنُ الاستِدلالُ بِعَدَمِ تَأثيرِ الأصنامِ في إيجادِ شَيءٍ مِنها، ولكن لَمّا لَم يَدَعِ المُشرِكونَ تَصَرُّفًا لِلأصنامِ إلّا في أَحوالِ النّاسِ في الأرضِ مِن جَلْبِ نفعٍ أو دفْعِ ضُرٍّ، ولم يدَّعوا أن يكون لها تأثير في موجودات السَّماوات؛ اقتَصَرَ في نَفْيِ تَصَرُّفِهِم في السَّماواتِ عَلى الاستِدلالِ بِنَفْيِ أن يَكونَ لِلأَصْنامِ شَرِكَةٌ في أُمورِ السَّماواتِ[1]، ولهذا عبَّر بانتفاء الشِّرك عنها؛ لأنَّ الشِّرك يدلُّ على قوَّة السُّلطان، فناسب اقترانه بانتفاء الشِّرك بالسَّماوات، فإنَّ دعوى خلْقِ شيء من عوالم السَّماواتِ أكبر من أن يتَّسع لها ادِّعاء، على حين يمكن أن تدعى الشَّركة الدّالَّة على السُّلطان والقوَّة، وأن ينسج لها ثوب ملفَّق من الوهم والخيال؛ إذ لا يُطالب الشَّريك بالتَّصريف في شيء، منفردًا عن شريكه[2]، فالبلاغة في مجيء الكلام على مقتضى الحالِ، واعتبار مقام المخاطَبين بإنكار أن يكون للأصنام خلق في الأرض، وإنكار أن يكون لها شرك في السَّماوات.

بلاغةُ الاحتباك في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾:

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الكلام على الاحتباك، بمعنى: أنَّه لم يذكر مع الأرض انتفاء الشِّرك اكتفاء بما ذكره مع السَّماوات، ولم يذكر مع السَّماوات انتفاء الخلق اكتفاء بما ذكره مع الأرض، أي: إنَّه حَذَفَ من الأوَّل بدلالة الثّاني عليه، وحَذَفَ من الثّاني بدلالة الأوَّل، فيكون نفي الخلق على الاستقلال مع نفي الشِّركة مع الله تعالى معتبر في الأرض والسَّماوات جميعًا، فترك في أحدهما ما ذُكِرَ في الآخر[3].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة:

أوثِرَ استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة؛ للإشعار بعموم التَّعلُّق الظَّرفي؛ ليشمل كلَّ ما يتعلَّق بالسَّماوات، والمعنى: أم لهم شرك في ملك السَّماوات، وفي خلقِها وفي تدبيرها؛ ليفيد أنَّه ليس لهم أي وجه من الوجوه فيما يتعلَّق بالسَّماوات.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 10.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 263.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 453.

فائدة (ال) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للجنس، بمعنى جنس السَّماوات، وقد يُقصد بها العالم العلويُّ المقابل للأرض.

غرضُ فعل الأمر ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

جاء فعل الأمر ﴿ٱئۡتُونِي﴾ على سبيل المجاز، والغرض من الأمر التَّعجيز، أي: تعجيزهم عن الإتيان بكتابٍ من قبل القرآن أو أثارة من علمٍ، ويتولَّد من التَّعجيز تبكيتهم وإلزامهم الحجَّة.

سببُ إيثار الفصل في جملة ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

اسـتـعـمـالُ القرآنِ لأسلوب إفحام الخصمِ في المحاججة

أوثر الفصلُ في الجملة الفعليَّة ﴿ٱئۡتُونِي﴾؛ لِلانتقال إلى الدَّليل النَّقلي بعد تبكيتِهم بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بسندٍ عقليٍّ، فهو انتقال مِن الاستِدلالِ بالمُشاهَدةِ وبالإقرارِ، إلى الاستِدلالِ بالأخبارِ الصّادِقة، وهو استِدلالٌ على إبطالِ دَعوى المُدَّعي بانعِدامِ الحُجَّةِ على دَعواه، ويُسَمَّى الإفحامَ[1]، وفي الانتقال إلى الدَّليل النَّقلي إرخاءٌ للعنان وتوسيع للمجال على الخصم؛ لأنَّ الإتيان فيه سَعة في الانتظار، أي: إن كنتم في شكٍّ ممّا قلت: فقد أمهلتكم حتّى تأتوني بعد الاستقراء بِكِتابٍ فيه شيء من ذلك أو أثارَةٍ مِن عِلْمٍ[2]، وحيثُ لَم يقُم على دعواكم شيء من الدَّليل العقليِّ والنَّقليِّ، وقد قامَتْ على خلافِها أدلَّةُ العقلِ والنَّقلِ؛ تبيَّن بطلانها[3].

بلاغةُ الاستعارة في فعل ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

جاء الفعل ﴿ٱئۡتُونِي﴾ على طريق الاستعارة لمعنى الإحضار، بجامع التَّحقُّق والتَّمكُّن من هذا المُحضر، والتَّقدير: أحضروا لي كتابًا من قبل هذا، وسبب العدول إلى الاستعارة الإيذان بعمومِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 10.

(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 117.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 78.

عجزِهم عن الإتيانِ بكتابٍ بأيِّ طريقة من طرائق الإتيان، سواء أكان بإحضار كتابٍ أو بغيرِه.

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قولِه: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ للملابسة، والمعنى: ائتوني بأيِّ كتابٍ إلهيٍّ ملابسٍ لكم، وتحتمل الباء أن تكون للمصاحبة، والمعنى: ايتوني بكتاب مصاحبٍ لكم.

نكتةُ تنكير لفظ (كِتابٍ):

موافقةُ القرآن لسائر الكتب المنزَّلة في إبطال دعوى الإشراك بالله تعالى

لمّا كانت النَّكرة في سياق الأمر تفيد العموم؛ أفاد لفظ (كِتابٍ) العموم، والمعنى: ايتوني بكتاب واحدٍ من أيِّ كتابٍ إلهيٍّ من قبل القرآن؛ ليفيد تعجيزهم عن أن يكون في أيِّ كتاب قبل القرآن ما يثبت عقيدتهم الباطلة من أنَّ للأصنام خلقًا من الأرض، أو أن يكون لها شرك في السَّماوات، فوافق القرآنُ سائر الكتب المنزَّلة في إبطال دعواهم.

نوع ﴿مِّن﴾ وفائدتها:

كلُّ الكتبِ الإلهيَّة شاهدة بوحدانيَّة الله تعالى

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِكِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ ابتدائيَّة، ونكتة مجيء حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ دون أن يقال: (ايتوني بكتابٍ قبل هذا) النَّصُّ على عموم الأزمنة لجميع الكتب المنزَّلة، بمعنى: لا يوجد أيُّ كتابٍ من قبل القرآن يثبت مدَّعاكم، وتعجيزهم في عدم وجود أيِّ كتاب من قبل القرآن النّاطق بالتَّوحيد من أعلام النُّبوَّة ودليل صدقِها؛ لأنَّه أثبت أنَّ كلَّ الكتب الإلهيَّة شاهدة بالوحدانيَّة، ولو أتى بها آتٍ؛ لشهدت عليه[1].

بلاغةُ استعمال الظَّرف ﴿قَبۡلِ﴾:

أفادت الظَّرفيَّةُ القبليَّة إظهار عجزهم وإبطال حجَّتهم

لمّا كان الكلام في سياق المناظرة والمحاجَّة؛ كان من تمام المناظرة أن يسدَّ على المبطلين المعارضة؛ ليظهر العجز، ويتمَّ التَّسليم بالدَّليل، فوصف الكتاب الَّذي طولبوا بالإتيان به بوصف

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 125.

مخصَّصٍ له، وهو كونه من قبل القرآن؛ ليسدَّ عليهم باب المعارضة بأن يأتوا بِكتابٍ يُصنَعُ لهم، كما قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31].

بلاغةُ الإدماج:

من بلاغة الكلام أن يحتمل المعاني العديدة

في التَّعبير بظرف الزَّمان ﴿قَبْلِ﴾ بلاغة الإدماج في المعنى؛ لأنَّه لمّا قال: ﴿بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ أفادَ إبطالَ أن يكون في أيِّ كتابٍ إلهيٍّ قبل القرآن ما يثبت مدَّعاهم؛ ليدمج فيه معنى آخر، وهو أنَّ آخر الكتب الإلهيَّة المنزَّلة هو القرآن الَّذي بين أيديهم، وأنَّ هذا القرآن ناطق بالتَّوحيد وإبطال الشِّرك، وأنَّه ما من كتاب أُنزل من قبله من كتب اللّه إلّا وهو ناطق بمثل ذلك[1].

غرضُ استعمالِ اسم الإشارة للقريب كناية عن القرآن:

لو نظر المبطلون في القرآن، وتدبَّروا في آياتِه؛ لكفاهم في الاستدلال على أُلوهيَّة اللّه تعالى ووحدانيَّته

عبَّر باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ كناية عن القرآن؛ للإشارة إلى أنَّه حاضرٌ في أذهانِ أصحابِ المحاجَّة، وهو بين أيديهم؛ فإنَّه يُقرَأ عليهم مُعاوَدةً[2]، ففي إيراد اسم الإشارة توبيخٌ لهم، فإنَّه لقربِ القرآن منهم لو نظروا فيه، وتدبَّروا في آياته؛ لكفاهم في الاستدلال على أُلوهيَّة اللّه تعالى ووحدانيَّته وبطلان ألوهيَّة الأصنام والإشراك بها، كما أنَّ في التَّعبير باسم الإشارة إيماءً إلى القرآن باعتبار أخصِّ وصفٍ له، وهو كونه منزَّلًا من عند اللّه العزيز الحكيم، ويشير إليه سبقه بقولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فيكون المراد: ايتوني بكتابٍ منزَّلٍ من عند اللّه من قبل هذا.

دلالةُ العطف بحرف ﴿أَوْ﴾:

توسيعُ دائرة الاحتجاج لتعجيز المشركين وتكذيب دعواهم

أفاد حرفُ العطف تخييرَ المشركين في الإتيان بكتاب من قبل القرآن أو في الإتيان بأثارة من علمٍ، ولمّا كانت العادة في استعمال

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 295.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 10.

حرف العطف ﴿أَوۡ﴾، أن يكون المعطوف عليه أقوى من المعطوف؛ أفاد التَّعبير بـ﴿أَوۡ﴾ التَّنزُّل في الدَّليل، فإنَّه ذكر الأعلى، وهو الكتاب المنزَّل، ثمَّ سهَّل عليهم في الدَّليل، فنزل إلى ما دونه، وهو الأثارة من علم[1]؛ كنايةً عن انعدام الدَّليل الَّذي يشهد لدعواهم، وللعلم بكذب المدَّعى[2]، ففي مجيء المعطوف بعد ﴿أَوۡ﴾ تَوسيعٌ عليهم في أنواعِ الحُجَّةِ؛ لِيَكونَ عَجْزُهم عن الإتيانِ بشَيءٍ مِن ذلك أقطَعَ لِدَعواهُم[3]، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ في الآية لمنع الخلوِّ، بمعنى تعجيزِهم في أن يأتوا بواحدٍ منهما، أو في أن يأتوا بالاثنين معًا، وذلك للمبالغة في تعجيزهم وتبكيتِهم.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَثَٰرَةٖ﴾:

لا مانع من حمل اللَّفظ على المعاني الثَّلاثة البقيَّة، الرِّواية، الأثر

كلام أهل اللُّغة في كلمة ﴿أَثَٰرَةٖ﴾ يدور على ثلاثة أقوال، **الأوَّل:** اشتقاقها من أثرت الشَّيء أثيره إثارة، كأنَّها بقيَّة تُستخرج، فتُثار، والمعنى: بقيَّة من علمٍ يؤثر عن الأوَّلين، **والثَّاني**: من الأثر الَّذي هو الرِّواية، أي: ما يؤثر، ومنه سُمّيت الأخبار بالآثار، **والثَّالث**: من الأثر بمعنى العلامة، ولا مانع من حمل اللَّفظ على المعاني الثَّلاثة، لا سيَّما أنَّ لفظ ﴿أَثَٰرَةٖ﴾ نكرة جاء في سياق الأمر، فيفيد العموم، وهو المناسب لمقام التَّنزُّل في الدَّليل؛ ليكون أثبت لعجزِهم، والمعنى: أو بقيَّة من علمٍ مأثور عن الأوَّلين، أو أيِّ خبرٍ يؤثر عن السّابقين، أو أيِّ علامة صحيحة واضحة، وسرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أَثَٰرَةٖ﴾ دون غيرِه هو أنَّ الأثارة فيها معنى التَّخصيص، ومنه قولهم: أثرت فلانًا بكذا، أي: خصصته به، واستأثر فلان بكذا؛ إذا اختصَّ به دون غيره، فيكون المعنى: ائتوني بعلم تنفردون به دوننا، وقد خصَّصتم به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 125.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 397.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 10.

فإنّا لا نعلم أنَّ للّه شريكًا(1)، ففي التَّعبير بالأثارة تكذيبٌ لهم وبراءة من قولِهم، وقيل: المُرادُ بالأثارةِ: الخَطُّ في التُّرابِ، وذلك شَيءٌ كانت العرَبُ تَفعَلُه، وتتكهَّنُ به، وتَزْجُرُ، وهو علم مشهور بينهم، فيَكونُ من بابِ التَّهكُّم بِهم وبأقوالِهم ودلائلِهم(2).

نكتةُ تنكير لفظ ﴿أَثَـٰرَةٍ﴾:

جاء لفظ ﴿أَثَـٰرَةٍ﴾ نكرة للتَّقليل، بمعنى: أيُّ أثارة من علم، وإن كانت الأثارة قليلة؛ ليفيد تعجيزهم عن قليل الأثارة فضلًا عن كثيرها.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿عِلْمٍ﴾:

جاء لفظ ﴿عِلْمٍ﴾ نكرة؛ لتقرير التَّقليل المفاد من لفظ ﴿أَثَـٰرَةٍ﴾، والمعنى تقليل الأثارة من أيِّ علم، وإن كان قليلًا، ووجه تقييد الأثارة بوصف كونِها ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ التَّنبيه إلى أنَّ المحاجَّة قائمة على العلم، وليس على الدَّعوى من غير بيِّنةٍ.

الاستدلالُ القرآنيُّ قائمٌ على العلم، وليس على الدَّعوى من غير بيِّنة

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عبَّر بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ للإيذان باستحالة صِدقِ المشركين في دعواهم أنَّ آلهتهم مستحقَّة أن تُعبدَ؛ لأنَّ ﴿إِن﴾ تُستعمل في الشَّرط الَّذي يستحيل وقوعه، ففي استعمال ﴿إِن﴾ إلهابٌ للمشركين وإفحامٌ لهم بأنَّهم غيرُ آتِينَ بحُجَّةٍ؛ لا مِن جانِبِ العقلِ، ولا مِن جانِبِ النَّقلِ المَسطورِ أو المأثورِ(3).

إلهابُ المشركين وإفحامُهم لعدم قدرتِهم على الإتيان بدليل عقليٍّ أو نقليٍّ على دعواهم

دلالةُ التَّعبير بتركيب ﴿كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾:

في التَّعبير بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في سياق تكذيبهم في دعواهم مبالغةٌ في نفي صدقِهم، ونفي كينونتهم في أن يكونوا صادقِين، فقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أبلغ في نفي صِدقِهم من

الصِّدق في الدَّعوى لا يثبت إلّا ببرهانٍ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 160 - 161.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 7، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 432.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 11.

أن يقال: إن صدقتم، كما أنَّ في التَّعبير القرآنيِّ رعايةً للفاصلة ورؤوس الآي.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

نفى أن يكون الصِّدق ملازمًا للمشركين

لّما جاء التَّعبير بلفظ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في سياق شرط مؤذن باستحالة صِدقِهم في دعواهم؛ دلَّ على أنَّهم كاذبون في دعواهم، فأفاد التَّعبير استحالة صِدقهم وتحقُّق كذبِهم، وعبَّر بصيغة اسم الفاعل؛ للإيماء إلى اتِّصافِهم بالضِّدِّ، وهو الكذب، حتّى صار وصفًا ملازمًا لهم، والمعنى: أنّكم كاذبون.

غرضُ حذف متعلِّق ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

من ادَّعى الآلهة مع الله تعالى، وعبدها لايستحقُّ أن يوصف بالصِّدق، وإن كان صادقًا في غير هذه الدَّعوى

حُذِفَ متعلِّق الاسم المشتق ﴿صَٰدِقِينَ﴾، وتقدير الكلام: إن كنتم صادقين في دعواكم، وسبب حذف المتعلِّق إفادة عموم النَّفي، أي: نفيُ صِدقِهم مطلقًا، فإنَّ من ادَّعى الآلهة مع اللّه تعالى، وعبدها لايستحقُّ أن يوصف بالصِّدق، وإن كان صادقًا في غير هذه الدَّعوى، كما أنَّ في حذف المتعلِّق رعاية للفاصلة ومناسبة رؤوس الآي.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

أثارة وبقيَّة:

الفرق بينهما هو أنَّ الأثارة بقيَّة من شيءٍ تقدَّم لايزال يروى، ويذكر، ففيه معنى التَّفخيم والتَّبجيل؛ لأنَّ الأثارة مأخوذة من الأثر المحفوظ، ومنه: مآثِرُ العَرَبِ: مكارِمُها ومفاخِرُها الَّتي تُؤثَر عَنها، أي: تُذْكَر، وتُرْوى، وفي الأثارة معنى البقاء والثَّبات والرُّسوخ والدَّلالة، ومنه قولهم: أَثَرْتُ البعيرَ: جعلت على خُفِّه أُثْرَةً، أي: علامة تؤثِّر في الأرض؛ ليستدلَّ بها على أثره، وكلُّ ما يُروى أو يُكتب، فيبقى له أثر؛ فهو أثارة، وأمّا البقيَّة: فهي تدلُّ على وجود الشَّيء

ودوامه من غير دلالة على رسوخ أو ثبات، ولا يدلُّ لفظ البقيَّة على روايتِه وذكرِه بين النّاس، كما لا يدلُّ على التَّبجيل، أي: يقال للشَّيء: بقيَّة سواء كان فيه معنى التَّبجيل أم لا، والبقاء ضدُّ الفناء[1].

الأثــــارةُ فيها معنى الرُّسوخ مــع روايـتـهـا وتـفـخـيـمـهـا والبقيَّة ليست كذلك

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أثر، بقي).

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عبدةُ الأصنام أضلُّ من جميع الضّالين بدعائِهم من لا يستجيب لهم أبدًا

لّما أبطل الله ﷻ قولهم في الأصنام بعدم قدرتها على إتيان شيء من ذلك؛ لأنَّها من جملة مخلوقات في الأصل؛ أتبعه إبطاله بعدم علمها؛ ليعلم قطعًا أنَّهم أضلُّ من جميع الضّالين؛ إذ ارتبطوا في أجلِّ الأشياء - وهو أصول الدين - بما لا دليل عليه أصلًا، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لّما أخبر الله تعالى أنَّ القولَ بعبادة الأصنام قول باطلٌ، من حيث إنَّها لا قدرة لها على الخلق والفعلِ والإيجاد والإعدام والنَّفع والضُّرِّ؛ أتبعه بدليل آخر يدلُّ على بطلان القول، وهي أنَّها جمادات، فلا تسمع دعاء من يدعوها، ولا تنجز حاجات المحتاجين، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا لّما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحاجَّهم بالدَّليل؛ أردفه بدليل آخر عن طريق توجيه خطابه إليهم؛ تعجيبًا من حالِهم وضلالِهم؛ ليكون ذلك أدعى إلى ترْكِ دعاء الأصنام وعبادتِها[3].

وأيضًا لّما أبطل الله تعالى استحقاق آلهتِهم العبادة، وألزمهم بدليل عقليٍّ ونقليٍّ؛ بيَّن أنَّ المشركين أضلُّ من كلِّ أحدٍ بدعائِهم مَن لا يستجيب لهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 126.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 11.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 455.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: أصل الكلمة (جوب)، ويدلُّ على خرق الشَّيء وقطْعِه، يُقالُ: جُبْتُ الأرضَ جَوبًا، أي: قطعتها سيرًا، ومن الأصل: جوابُ الكلام؛ لأنَّه يقطعُ الجوب، فيَصِلُ من فمِ القائل إلى سمع المستمع، وخُصَّ الجوابُ بما يكون في مقابلة سؤال، فإن كان السُّؤالُ طلبَ مقالٍ، فجوابُه المقال، كما في جواب السُّؤال المقالي، وإن كان طلبَ نوالٍ وعطاء؛ فجوابُه يكون بالعطاء، كما في إجابة الدُّعاء وإيتاء النَّوال، والاستجابة هي الإجابة، بمعنى: قبول طلب النَّوال وإيتاء السُّؤل إمدادًا بالمطلوب، و﴿لَّا يَسْتَجِيبُ﴾ في الآية بمعنى: لا يجيب دعاءَه، ولا يعطيه منالَهُ أبدًا؛ لأنَّه لا يملكه.

2) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: أصل الكلمة يدلُّ على خلوِّ الشَّيء ممّا يلفت، أو ينبِّه أويدلُّ[1]، والغُفْلُ: ترْكُ الشَّيء سهوًا؛ بسببِ قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ[2]، فيقال: غفلتُ عن الشَّيءِ غَفلَةً وغُفولًا، وإن كان التَّرك عن عمدٍ وعن ذكرٍ منك له، فيقال: أغفلتُهُ[3]، ويَقولونَ لِكُلِّ ما لا مَعْلَمَ لَهُ ولا سمة: غُفْلٌ، كَأنَّهُ غُفِلَ عَنهُ، ولم يلتفت إليه، ورجلٌ غُفلٌ، لَم يُجَرِّبِ الأُمورَ[4]، والمُغَفَّلُ: الَّذِي لا فِطْنة لَهُ[5]، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو من الغفلة بمعنى عدم التَّنبُّه وما إليه، و﴿غَٰفِلُونَ﴾ في الآية بمعنى: لا يَسمَعونَ، ولا يَفهَمونَ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أحَـدَ أشَـدُّ ضَـلالًا مِـمَّـن يـدعـو مِـن دونِ الـلـهِ آلِـهـةً لا تُـجيـبُ دُعـاءَه أبدًا

في هذه الآية توبيخٌ من الله للمشركين، وتسفيهٌ لِرأي عبدةِ الأصنام؛ لِقُبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئًا، ولا يفهم،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غفل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(5) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 183.

فيقول اللّه تعالى: وأيُّ عبد أضلُّ من عبد يدعو من دون اللّه آلهة، لا تستجيب له إلى يوم القيامة، أي: لا تُجيب دعاءَه أبدًا، وآلهتهم الَّتي يدعونهم غافلون عن دعائهم؛ لأنَّها لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

من أساليب القرآن تتابُع الأدلَّة على المدّعى

الواو في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ عاطفة؛ لتفيد عطف الدَّليل على الدَّليل، فإنَّه لمّا أقام الحجَّة عليهم في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من حيث إنَّها لا قدرة لها على الخلق والإيجاد؛ أتبعه بدليل آخر، فقال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيان أنَّ من يدعونهم جمادات لا تسمع، ولا تستجيب لأحدٍ؛ ليكون تتابع الأدلَّة أدعى إلى ترْكِهم دعاء الأصنام وعبادتها، فمناسبة الوصل بالواو إيراد الدَّليل بعد الدَّليل، ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة[2]؛ لتفيد الانتقال من إلزام المشركين الَّذين يعبدون الأصنام بالدَّليل العقليِّ والنَّقلي على بطلان استحقاقِ آلهتِهم العبادة، إلى تقريرِ أنَّهم أضلُّ من كلِّ أحدٍ بدعائِهم من لا يستجيب لهم.

غرضُ الاستفهام بأداة (مَنْ):

أقصى حدِّ الضَّلالة دعاء من لا يستجيب للطَّلب أبدًا

الاستفهام في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ مجازيٌّ على معنى إنكارِ أن يكون في الضُّلّالِ كلِّهم من يكون أبلغَ ضلالًا من عبدة الأصنام[3]، ويتولَّد من الاستفهام الإنكاري تعجيبٌ لحالِهم، وتوبيخٌ لفعلِهم، وتسفيهٌ لرأيهم، وتقبيحٌ لتعنُّتهم، ويتضمَّن الاستفهام الإنكاريُّ معنى النَّفي[4]، أي: لا أحد أشَدُّ ضَلالًا، وأعْجَبُ حالًا، مِمَّن يَدعونَ مِن دونِ اللّه مَن لا يَستَجِيبُ لَهُ دُعاءَهُ أبدًا، فَهوَ أقْصَى حَدٍّ مِنَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 95.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 455.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 295.
(4) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 374، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 78.

الضَّلالَةِ[1]، ففي الاستفهام إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون في الضَّلالِ من هو أبلغ ضلالًا من هؤلاء، وإنَّما جاء الإنكار بطريق الاستفهام المجازيِّ؛ لِما يلزمه من الإذعان والتَّسليم بعد بيان السَّبب، وهو كونهم يتركون دعاء اللّٰه السَّميع المجيب، ويدعون من لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدُّنيا، وإلى أن تقوم القيامة، ومن انتفت قدرته وعلمه؛ لم تصحَّ عبادته ببديهة العقل.

نكتةُ استعمالِ مفردة الضَّلال دون الكفر أو الشِّرك:

الضَّلالُ هو العدولُ عن الطَّريقِ المستقيمِ، وتضادُّهُ الهداية

لمّا كان الكلام عن تقبيح دعاء المشركين لآلهتهم، وطلبِهم منها أن تقضي حاجاتِهم، وكان هذا الأمر يدلُّ على قلَّة العقلِ وسفاهة الرَّأي؛ بسبب عدولِهم عن الطَّريق المستقيم والرَّأي السَّديد؛ عبَّر بلفظ الضَّلال دون لفظ الكفر أو الشِّرك؛ لأنَّ الضَّلال هو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّهُ الهداية[2]، كما أنَّهم لمّا تركوا دعاء اللّٰه تعالى، ولجؤوا إلى دعاء مَن لا يستجيب لهم؛ كان حالهم حال من ترك الطَّريق المستقيم، والصَّواب في الدُّعاء، وعدل إلى الضَّلال، ففي التَّعبير بلفظ الضَّلال إشارة إلى أنَّهم تركوا الهداية في دعاء اللّٰه تعالى وحده، ففي الكلام كناية إلى أنَّ الهدى والرَّشاد في دعاء اللّٰه وحده.

دلالةُ صيغة التَّفضيل في ﴿أَضَلُّ﴾:

عبدةُ الأصنام أضلُّ من كلِّ الضُّلّال؛ إذ تركوا عبادةَ خالقِهم إلى عبادةِ مصنوعِهم

لمّا قال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾، أفاد التَّعبير بصيغة اسم التَّفضيل أنَّ الكلام في مَنْ يكون أكثر ضلالًا من الكفّار، ففيه إثباتٌ لضلالِ مَن يدعو مَنْ لا يستجيب له أبدًا، ولكونِ ضلالِه أبلغَ ضلالٍ بحيث لا مزيدَ عليه، وينبني عليه أن لا أحدَ من الضُّلّالِ أضلُّ منه؛ لأنَّه اتَّصف بأعلى مراتب الضَّلالِ وأقبحِه، أي: هُم أضلُّ من كلِّ ضالٍّ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 12.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضلل).

إذ تركوا عبادةَ خالقِهم السَّميعِ القادرِ المجيبِ الخبير إلى عبادةِ مصنوعِهم العارِي عن السَّمعِ والقدرةِ والاستجابةِ[1]، ويلزم من كونِهم أضلَّ من كلِّ ضالٍّ أن يكونوا أضلَّ ممَّن عداهم، ويؤيِّده التَّعبير بالاسم الموصول (مَنْ) الَّذي يفيد العموم، والتَّعبير بأسلوب ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أبلغ من القول بأنَّهم أضلُّ سبيلًا[2]؛ لأنَّ المقام مقام خطاب من يدعو الأصنام من دون اللّه تعالى بقصد استجابة دعائِه ونيل سؤلِه.

نوع (مِنْ) ودلالتها في ﴿مِمَّن﴾:

(مِنْ) في قولِه: ﴿مِمَّن﴾ ابتدائيَّة، بمعنى أنَّ الأضلّيَّة المطلقة تبدأ من الشَّخص الَّذي يدعو من دون اللّه مَن لايستجيب له أبدًا.

نكتةُ استعمال (مَنْ) دون (الذي):

عبَّر بصيغة الموصول (مَنْ) دون (الذي)؛ لأنَّ (مَنْ) أعمُّ، فيشمل اللَّفظ كلَّ من يدعو شيئًا من دون اللّه، كما أنَّه لمّا كان (مَنْ) يُستعمل للعاقل؛ كان التَّعبير به للتَّنبيه إلى سفاهة عقولِهم وتقبيح رأيِهم.

بلاغةُ استعمال ﴿يَدۡعُواْ﴾:

أخصُّ أنواع العبادة الدُّعاء

عبَّر بلفظ ﴿يَدۡعُواْ﴾ دون أن يقال: ومن أضلُّ ممَّن يعبد من دون اللّه؛ لأنَّ الكلام في سياق بيان ضلالِ مَن يدعو من دون اللّه وسفاهة رأيه وقبحِ فعلِه، فيكون المراد من الدُّعاء المعنى الحقيقيَّ؛ ليشير إلى أنَّ أخصَّ أنواع العبادة هي الدُّعاء، أو يقال: قصد باللَّفظ المعنى الحقيقي والمجازي؛ ليشمل الدُّعاء والعبادة، وعبَّر بالدُّعاء للتَّنبيه إلى أهمّيَّته في التَّوحيد، كما أنَّه لمّا كان السّياق في بيان إقامة الدَّليل على ضلالِهم؛ عبَّر بالدُّعاء؛ لأنَّ دعاء من لا يستجيب لهم أوضح دلالةً على ضلالِهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 78.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 455.

نوعُ حرف ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة؛ لتفيد عموم الابتداء المتعلِّق بظرف المكان ﴿دُونِ﴾، ففي دخولِها على الظَّرف إشعارٌ بسفول كلِّ ما يعبَدُ من دون اللّه(1).

سببُ إيثارِ تقديم الحال على المفعول:

دعاءُ الله تعالى على سبيل التَّشريك كلا عبادة لله أصلًا

تقدَّم الحال من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿مَن﴾؛ للاهتمام بالحالِ؛ لأنَّه موضع الإنكار والتَّعجيب، وإنَّما قال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: من يدعو مع اللّه من لا يستجيب له؛ للإشارة إلى أنَّ دعاء اللّه تعالى على سبيل التَّشريك كلا عبادة، فمَن يدعو آلهةً مع اللّه تعالى؛ كان كمن دعا الآلهةَ من دون اللّه.

براعةُ استعمالِ الاسم الموصول المختصِّ بالعقلاء كناية عن الأصنام:

في التَّعبير عن الأصنام بالاسم الموصول للعقلاء مجاراة للخصم أو تهكُّمًا وتبكيتًا له

جاء استعمال الاسم الموصول بصيغة العقلاء ﴿مَن﴾، كما عبَّر بضمير العقلاء في قوله: (هُم) و﴿غَٰفِلُونَ﴾ على طريق التَّنزُّل في الاستدلال، فخوطبوا على نحو معتقد المشركين في كون الأصنام آلهةً، فأسند إليهم ما يُسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة(2)، وجاء ذلك تماشيًا في الدَّليل للوصول إلى إذعانِ الخصمِ وتسليمِه، أو يقال في إسناد (ما) للعاقل لغير العاقل؛ للتغليب على سبيل المجازاة؛ لأنَّ عابدي الأصنام كانوا يصفونها بالتَّمييز جهلًا وغباوة(3).

دلالةُ التَّعبير بالموصول وصلتِه في قوله: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾:

المشركون على علمٍ بأنَّ آلهتَهم الَّتي يدعونها من دون الله لا تستجيب لهم

عبَّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ لإحضار الموصول بوساطة صلتِه الَّتي هي معلومة الانتساب إلى مشار إليه عند المخاطَبين، بمعنى: أنَّ المخاطَبين على علمٍ بأنَّ آلهتَهم الَّتي يدعونها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 127.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 433.
(3) درويش، إعراب القرآن: 9/ 168.

من دون الله لا تستجيب لهم، ففيه تسجيل عليهم بضلالِهم وسفاهة عقلِهم ورأيِهم، كما أنَّ في التَّعبير بالصِّلةِ إيماءً إلى سبب الإنكار على مَن يدعو الآلهة من دون الله مع نفي أن يكون أحد من الضُّلّالِ أضلَّ منه، وهو كونه يدعو مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة.

نكتةُ استعمالِ الفعل ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

من أساليب الاحتجاج في القرآن فرضُ المحال على سبيل تبكيت الخصم وتعجيزه

عبَّر بلفظ الاستجابة في قولِه: ﴿لَّا يَسۡتَجِيبُ﴾ دون أن يقال: ومن أضلُّ ممَّن يدعو مَن لا يسمع دعاءه؛ لأنَّ الدَّليل على ضلالِهم جاء على سبيل التَّنزُّل مع الخصمِ، ففيه فرضٌ للمحال على سبيل التَّبكيت[1]، أي: حتَّى لو سمعوا دعاءكم - وهو محال لأنَّ الأصنام لا تسمع، ولا تعقل - فلا يقدرون على استجابة دعائِكم، كما أنَّ في التَّعبير بنفي الاستجابة تقريرًا لضلالِهم، ببيان عجز من يدعونه؛ لأنَّهم كانوا يطمعون أن يحصلوا على نوالِهم من دعائِهم للأصنام، فلمّا قال: ﴿لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أفادَ أنَّ من يدعونه من دون الله لا يجيب دعاءَهم، ولا يؤتيهم سؤالَهم، ولا يعطيهم نوالَهم أبدًا، ففيه قطْعٌ لطمعِهم وتهكُّمٌ بالأصنام وعبدتِها.

نوع اللّام ودلالتها في ﴿لَهُۥٓ﴾:

اللّام في ﴿لَهُۥٓ﴾ للتَّخصيص، ولمّا قال: ﴿لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ أفاد نفي تخصيص الاستجابة لمن يدعوه.

توجيهُ تقييدِ عدم الاستجابة بقيد ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

ما هو أشدُّ على المشركين من عدم استجابة آلهتِهم لهم في الدُّنيا عداوتهم لهم وكفرهم بهم يوم القيامة

الغاية في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ من الغايات المشعرة بأنَّ ما بعدها، وإن وافق ما قبلها إلّا أنَّه أزيد منه زيادة بيِّنة تلحقه بالمباين حتى كأنَّ الحالتين - وإن كانتا نوعًا واحدًا - لتفاوت ما بينهما كالشَّيء وضدِّه، وذلك أنَّ الحالة الأولى الَّتي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثّانية الَّتي في القيامة زادت على عدم الاستجابة

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 455.

بالعداوة، وبالكفر بعبادتهم إيّاهم، كما ينطق به قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف: 6]، ونحوه قوله سبحانه في إبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص: 78]، يعني: أنَّ عليه الطَّرد والرَّجم إلى يوم القيامة، فإذا جاء ذلك اليوم؛ لقي ما ينسى معه اللَّعن ممّا هو أشدُّ منه[1]، أو يقال في سبب مجيء الغاية: إنَّه لمّا كان أقلُّ الاستجابة مطلق الكلام، وكانوا في الآخرة يكلِّمونهم في الجملة، وإن كان بما يضرُّهم؛ غيّا هذا النَّفي بوقت لا ينفع فيه استجابة أصلًا، ولا يغني أحد عن أحد أبدًا، فقال تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2]، فالمقصود من تقييد التَّوقيت بيوم القيامة الإشارة إلى التَّخاطب الَّذي يكون بين المشركين وشركائهم يوم الحشر، كما جاء في الآية التّالية: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ [الأحقاف: 6]، ففي هذا التَّبرّي والتَّخاطُب نوع من الاستجابة، ولكن على معنى الضِّدِّ؛ لأنَّ فيها زيادةً في العذاب والعداوة بين الآلهة وعبّادِها[3]، ويُحتمل أن يكون المراد من الغاية معنى التَّأبيد، فيكون ذِكر الغاية بقصد قطع طمعِهم في الاستجابة، كما يحتمل أن تكون الغاية معتبرةً؛ للإشارة إلى أنَّ وقت الاستجابة يكون في الدُّنيا، والمعنى: لا يستجيب له مادامت الدُّنيا، أي: مدَّة بقاء الدُّنيا[4]، فإذا انقضت الدُّنيا، وقامت القيامة؛ فات وقت الاستجابة[5].

سرُّ ذكرِ اسم القيامة دون مرادفاتها:

عبَّر عن نهاية الدُّنيا بـ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون أن يقال يوم تقوم السّاعة أو مرادفاتها الأخرى؛ للإشعار بقيام الخلق كلِّهم أجمعين لربِّ العالمين، ومنها معبوداتهم الَّتي يدعونها، وفيه سبب آخر، وهو أنَّ المواجَه بالخبر

غالبًا ما يعبِّر القرآن الكريم عن اليوم الآخر بأنّه يوم القيامة للإشارة إلى قيام الخلق أجمعين

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 26، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 127.
(3) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 12.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 455.

هو الرَّسول ﷺ والمؤمنون، وهم يثبتون يوم القيامة[1]، كما أنَّ في ذكر يوم القيامة تنبيهًا للكافرين إلى أنَّه واقع - لا محالةَ - ففيه إيماء إلى الحساب والعقاب على دعائِهم وضلالِهم.

نوع الواو في ﴿وَهُمْ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ حاليَّة، فما بعدها جملة حاليَّة، ونكتة مجيء الحال تقرير التَّعجيب من ضلالِهم، وأنَّه لا أحدَ أضلُّ منهم؛ لأنَّ الأصنام عن دعائِهم غافلون.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قولِه: ﴿وَهُمْ﴾:

يعود ضمير الجمع في قولِه: ﴿وَهُمْ﴾ إلى الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ﴾، فيكون المراد معنى الجمع في الاسم الموصول.

نكتة تقديم ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ على المسند:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ على متعلِّقِه ﴿غَٰفِلُونَ﴾؛ للاهتمام بموضع التَّعجيب من فعلِهم، كما أنَّ في تقديم الجار والمجرور رعاية للفاصلة ورؤوس الآي.

دلالةُ إضافة الدُّعاء إلى الضَّمير:

المصدر قد يُضاف إلى الفاعل أو المفعول

أُضيف الدُّعاء إلى الضَّمير في قولِه: ﴿دُعَآئِهِمْ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل؛ لأنَّ المعنى: والأصنام عن دعاء المشركين غافلون، وأصل الكلام: وهم عن دعائِهم لهم غافلون، لكنَّه حذف متعلِّق المصدر (لهم)؛ للإشارة إلى عموم غفلتِهم وعدم تنبُّههم، ففيه إشعار بنفي علمِهم بأنَّ الدُّعاء لهم، فهي أصنام لا تسمع، ولا تُدرك.

تعيينُ مرجع الضَّمير في ﴿دُعَآئِهِمْ﴾:

الضَّمير في ﴿دُعَآئِهِمْ﴾ يعود إلى الاسم الموصول في قولِه: ﴿مِمَّن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 12.

﴿يَدۡعُواْ﴾، فيكون الضَّمير عائدًا إلى الاسم الموصول باعتبار معنى الجمع، وليس باعتبار اللَّفظ، والمعنى: وهم - أي: الأصنام - عن دعاءِ عابديهم غافلون.

بلاغةُ استعمال مفردة الغفلة:

في وصف الآلهة بالغفلة تهكُّم واستخفاف بها وبعابديها

التَّعبيرُ بالغفلة في قوله: ﴿غَٰفِلُونَ﴾ مجازٌ عن عدم الفائدة فيها، ففي وصف تلك الآلهة ونحوها ممّا لا يعقل بالغفلة - الَّذي هو موضوع لأن يُستعمل في العقلاء - تجوُّزٌ في الغفلة، وكان التَّعبير بما هو للعاقل؛ لإجراء العبدة إيّاها مجرى العقلاء[1]، أو يقال: التَّعبير بالغفلة من باب التَّغليب لمن يُتصوَّر منه الغفلة على غيره[2]، وعلى الوجهين ففي وصف الآلهة بالغفلة عن طريق الإخبار عنها في قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ إشارة إلى التَّهكُّم بهذه المعبودات وبعابديها والاستخفاف بهم، فهي لا تلتفت إليهم، ولا تأبه لدعائهم، حتَّى ولو كان من شأنها أن تسمع، وتعقل.

نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿غَٰفِلُونَ﴾:

عبَّر بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿غَٰفِلُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الغفلة صارت وصفًا لازمًا لهم، فيكون المراد لزوم التَّهكُّم بهم.

سببُ العدول إلى ضمير الجمع بعد ذكر ضمير المفرد:

لو اجتمعت الآلهة كلُّها؛ لَما كان منها إلّا الغفلة عن عابديها

عبَّر بصيغة ضمير المفرد في اللَّفظ في الاسم الموصول عند ذكر الأصنام وعابديها في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾، ثمَّ انتقل إلى التَّعبير بصيغة ضمير الجمع، فقال: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾، ولم يقل: وهو عن دعائِه غافل، وسبب العدول إلى ضمير الجمع: هو أنَّ الجملة الحاليَّة جاءت على سبيل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 165.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 26، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 456.

التَّعجيب من حالِ المشركين والتَّهكُّم بالأصنام وعابديها، ففيه إشارة إلى أنَّه لو اجتمعت الأصنام كلُّها؛ لَما كان منها إلّا الغفلة عن عابديها، كما أنَّ المقام مقام استخفاف وتهكُّم، فناسب التَّصريح بضمير الجمع دون الإفراد.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ٦﴾

[الأحقاف: 6]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أشَدُّ أنواع الإيلام تبرُّؤ المَعبودينَ مِن عابدِيهم يومَ القِيامة

بعدَ أن أبانَ النَّظمُ الكريمُ حالَ المُشركينَ في الدُّنيا معَ مَعبوداتِهم الباطلةِ، وأنَّهم لا يَستجيبونَ لَهُم عندَ دُعائِهم لهم، ولا يَعقِلونَ مِنهُم ما يَطلبونَهُ مِنهم؛ أبانَ النَّظمُ الكريمُ عن حالِهم في موقِفِ الآخرةِ، وعندَ الحَشْرِ للأمواتِ والنَّشرِ ليوم الحِساب أيضًا؛ إذ يَتبرَّؤونَ منهُم، ويُعلِنونَ العَداوةَ لهم، ويَجحدونَ عِبادتهُم لهُم، ويُنكِرونَها، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُشِرَ﴾: (حشر) تدور اشتقاقاتُه على مَعْنى السَّوقِ والبَعْثِ والانبِعاثِ، وكُلُّ جَمْعٍ: حَشْرٌ[2]، ويقال: حَشَرتْهُم السَّنَةُ: وذلك أنَّها تضُمُّهم من النَّواحي إلى الأمصار[3]، ولا يُثنَّى، ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه مصدرٌ في الأصل، ويُقال: حَشَرَ اللهُ الخَلْقَ حَشْرًا، أي: بعثَهم، وساقَهُم من مَضاجِعِهم[4]، ومن هذا البابِ: يومُ الحَشْرِ، ومن أسماءِ النَّبيِّ ﷺ: الحاشِرُ[5]، ومضارعُ حَشَرَ: يَحْشِر ويحشُر بكَسْرِ العينِ وضمِّها[6]، والمرادُ بِه في الآيةِ: جمعُ النّاسِ للحِساب بعدَ المَوتِ.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 21.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (حشر).
(4) ابن القوطية، كتاب الأفعال: 1/ 231.
(5) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3532)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2354).
(6) الجوهري، الصحاح: (حشر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

العَداوةُ والجُحود نتيجتان للصُّدود

يذكر اللّٰه ﷻ أنَّه إذا قامتِ القيامةُ، وحُشِرَ النّاسُ، وجُمِعوا في صعيدٍ واحدٍ، واشتدَّ كَرْبُهم؛ كانت هذه المعبوداتُ أعداءً لِمَن عَبَدوهم، وكانوا عليهِم ضِدًّا يُخالفونَهُم، ويُلحِقونَ بهِم الذُّلَّ والهَوان، بعدَ أنِ اتَّخذوهم في الدُّنيا؛ ليكونوا لهُم مَجْدًا وعِزًّا وذُخرًا، كما أنَّ العابِدينَ الضالِّينَ يُنكرونَ يومَ القيامةِ أنَّهم عبَدوا هذه المخلوقاتِ، ويزعُمونَ أنَّهم ما أشرَكوا باللّٰه شيئًا، فَيجمَعونَ بينَ الشِّركِ باللّٰهِ والكَذِبِ، وكلُّ ذلك لا يُغنيهُم مِنَ اللّٰه شَيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ عطف الجملة بالواو:

عدمُ استجابة الدُّعاء تقترنُ بحال العَداء

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ﴾ على ما تقدَّمَهُ؛ لوجودِ تناسُبٍ واقترانٍ بينَ حالِ المُشركينَ ومَعبوداتِهم في الدُّنيا، وحالِهِم معَها في الآخرة، معَ ارتباطِ عدم استجابةِ دُعائِهم في الدُّنيا وغفلتِهم عن مَقصودِه بحالِ العَداوةِ المُستشريةِ بينهما معَ الجُحودِ لتلك العبادةِ، وعدم قَبولِهم بها ورِضاهُم عنها، ووجَّه ابن عاشور العطف بقوله: "وعَطفُ جُمْلَة: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ ... الآية عَلى ما قَبْلَها؛ لِمُناسبةِ ذِكرِ يوم القيامةِ"[2].

نكتةُ استعمال (إذا) دونَ (إنْ):

تأكيدُ حال العَداوةِ والتَّبرِّي وتحقيقُ وقوعِ الحَشْرِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ الشَّرط (إذا) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً﴾ دونَ (إن) الشَّرطيَّة؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ جوابِ الشَّرط؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ عندَ الجزمِ بالوقوعِ بخلافِ (إن) الَّتي تكونُ غالبًا للشَّكِّ في وقوعِ مدخولها، ممّا يدلُّ على تأكيدِ حال العَداوةِ والجُحود بينَ المُشركينَ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 905.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.

ومَعبوداتِهم الباطلةِ، معَ تحقُّقِ الحَشْرِ الذي يُنكِرُهُ المشركونَ، وأنَّه أمرٌ واقعٌ لا محالةَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحشْرِ دونَ الجَمْعِ:

الحشرُ جَمْعٌ وسَوْقٌ معَ قَسْرٍ وإكراهٍ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ فعلِ (الحَشْرِ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ دونَ فعلِ (الجمْع)؛ إذ لم يرِد في النَّظم القرآني: (وإذا جُمِعَ النّاسُ)؛ لما يوحِي به الحشرُ من جمعٍ للنّاسِ معَ سَوْقِهم لمكانٍ يُحشَرونَ فيهِ حشْرًا[1]، ولما في لفظ الحشر مِنَ الدَّلالة على القَسْرِ والإكراه، وهو أنسبُ للتَّخويفِ من يوم القيامَة؛ ولذا قال البقاعيُّ مفسِّرًا المرادَ بـ﴿حُشِرَ﴾، أي: "جُمِعَ بِكُرْهٍ على أيسَرِ وجْهٍ وأسهلِ أمرٍ"[2].

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿حُشِرَ﴾ للمفعولِ:

التَّأكيدُ على وُقوعِ الحَشْرِ وأهَمِّيَّتِه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المبنيِّ لما لَم يُسمَّ فاعلُهُ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ للاهتمام بوقوعِ الحَشْرِ وتحقُّقِهِ وما يترتَّبُ عليهِ من عَداوةٍ بين الأصنام وعابدِيها دونَ التَّنبيه إلى فاعِلِ الحَشْرِ؛ لأنَّ محطَّ الإنكارِ هو وقوعُ الحشر، فيكونُ ذِكرُهُ ردًّا على مُنكرِيه، وأمّا الحاشِرُ؛ فمعلومٌ وهو اللّٰه ﷻ.

كما توحي صيغةُ البناء للمفعولِ بوقوعِ فعلِ الحَشْرِ على جميعِ النّاس مِن غيرِ التماسٍ مِنهم بتأخيرٍ أو قبولِ عُذرٍ لئلّا يُحشروا.

واختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ ذلك الأمرِ المُستقبليِّ، وأنَّه أمرٌ واقعٌ، بل كأنَّهُ وقعَ، وانقضَى.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دونَ (العِباد):

كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالنَّوسِ - وهو التَّحرُّكُ - مَحشورٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ المَحشورينَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ دونَ لفظِ (العِباد) مثلًا، فلم يرد في

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 128.

البيان القرآني: (وإذا حُشر العبادُ)؛ وذلك لإرادةِ العُموم الذي تُنبئُ عنه (الـ) الاستغراقيَّةُ أوِ الجنسيَّةُ، أي: "كلُّ مَن يصحُّ منهُ النّوسُ، أي: التَّحرُّكُ"[1]، بخلافِ لفظِ (العباد) الذي يُشير إلى العابدينَ دونَ غيرِهم، فيكونُ الحشرُ مُتحقِّقًا لكلِّ مَن اتَّصفَ بالحركَةِ، سواءٌ أكان ذلك من الجنِّ أم الإنسِ أم البهائم، فلا يشذُّ مِنَ الحشْرِ فردٌ، ولا يَغيبُ عنهُ إنسانٌ مَهْما عَلا قَدْرُهُ، أو عَظُمَ شأنُهُ.

دلالةُ استعمالِ فعلِ الكَونِ ﴿كَانُوا۟﴾:

تمكُّنُ العَداوةِ دليلُ عِظَمِ الغَوايَةِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الكَوْنِ ﴿كَانُوا۟﴾ جوابًا للشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾، دونَ أن يرد في البيان القرآني: (وإذا حُشر الناس عادَوهُم)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ وصفِ العَداوةِ والبغضاءِ، واستقرارِها فيما بينَهم، حتى إنَّه ثبتَ لهم هذا الحالُ بمجرَّدِ وقوعِ الحَشْرِ، واتَّصفوا به اتِّصافًا مُستقِرًّا مُتمَكِّنًا لا يزولُ عنهُم بحالٍ.

تعيينُ مرجِعِ ضميرِ فعلِ ﴿كَانُوا۟﴾:

العـداوةُ بينَ الطَّرفينِ مآلها الخُسْران، ونهايتُها الشَّرُّ

(الواوُ) في ﴿كَانُوا۟﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ راجعةٌ إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾، فيكونُ النّاسُ أعداءً؛ لما عبدوهُ، وأطاعوه من دونِ اللّه سُبحانَهُ، ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى المعبوداتِ الباطلةِ، عاقلةً كانت أو غيرَ عاقلةٍ، فالعاقلةُ تصدُرُ منها العداوةُ لعابدِيها؛ دلالةً على التَّبرِّي منهُم وعدمِ رِضاهم بعبوديَّةِ المُشركينَ لهم مِن دونِ اللّه، وغيرُ العاقلة إمّا أن يَمنحَها اللّه تعالى شُعورًا بالعَداوةِ لهم، أو أن يدُلَّ لسانُ حالِها - بسببِ عدمِ شَفاعَتِها لهُم - على أنَّها عدوٌّ لهم كارهةٌ لعَمَلِهم[2].

ولا تنافِيَ بين المَعنَيَين، فيكونُ الضَّميرُ صالحًا إعادتُهُ لكلٍّ من

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 178.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 21.

المَرجِعَين المتقدِّمين، وفي هذا إثراءٌ لِلمعنى، وتصويرٌ لِحالِ العَداوةِ والكُفرانِ مِنَ الطَّرفينِ[1].

مُحسِّنُ الجمعِ والتَّفريق:

تداخُلُ العَداوةِ والكُفرانِ مُصوَّرًا بأبْدَعِ بَيانٍ

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبٍ بديعيٍّ، وهو الجمعُ والتَّفريقُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، فقد جمعَ النَّظمُ الكريمُ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: 5] بينَ الدّاعي العابدِ وغيرِ المُستجيبِ المَعبودِ، ثمَّ أعادَ الضَّميرين (الواو) و(هم) في قوله: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ على سبيلِ التَّفريقِ، قال ابن عاشور: "وَمِن بَديع تفَنُّن القرآنِ تَوزيعُ مُعادِ الضَّمائر في هذهِ الآيةِ مَعَ تَماثلِها في اللَّفظِ، وهذا يتدرَّجُ في مُحَسِّن الجَمْعِ مَعَ التَّفْريق"[2].

نكتةُ تقديمِ المتعلِّقِ ﴿لَهُمۡ﴾:

حَصْرُ العَداوةِ بينَ المُشْرِكينَ ومَعْبوداتِهِم، وتَصْويرُ الخِذْلانِ الأعْظَمِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ وحصرِ العَداوةِ فيهم دونَ مَن سِواهُم، والإشارة إلى أنَّ حالَ العداوةِ بينَ الفريقينِ استحكَمَت، وانحصرَتْ فيهم، فلم تتجاوَزْهُم إلى غيرِهم، بأنْ يتبرَّأَ الفريقانِ بعضُهما من بعضٍ، فالعابدونَ تنحصِرُ عداوتُهم في تلك المَعبوداتِ الباطِلة، وتلك المعبوداتُ تنحصِرُ عَداوتُها في أولئك العابدينَ، وهذا أعلى درجاتِ تصويرِ الخِذلانِ والشُّعورِ بالضَّياعِ والحِرمانِ.

وحرفُ الجرِّ (اللّام) في ﴿لَهُمۡ﴾ يدلُّ على الاختصاصِ، وهو يُقَوّي معنى التَّخصيصِ والحَصْرِ المتقدِّم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 13.

دلالةُ استعمالِ لفظِ العداوةِ ﴿أَعۡدَآءٗ﴾:

العداوةُ مُستلزمةٌ للنُّفورِ المقتضي للتَّبرِّي والتَّباعُد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن حالِ التَّبرّي والتَّباعُدِ بينَ العابدينَ والمعبودينَ مِن دون اللهِ بالعَداوةِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ فإن كان الضَّمير للعابدينَ؛ فتصدُرُ منهم العداوةُ والكفرُ، وإنْ كان الضَّميرُ للأصنام؛ ففي النَّظم استعارةٌ، أو مَجاز مُرسَلٌ للضّارِّ"[1]، وإن كانَ الضَّميرُ للطَّرفينِ؛ فالتَّركيبُ إمّا على سبيلِ الكِنايَةِ، التي يُذكَرُ فيها المَلْزومُ، ويرادُ منهُ اللّازم؛ إذ يلزمُ من وقوعِ العَداوةِ بينَهما التَّبرّي، وإمّا على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة بأن شُبِّهت هيئةُ العابدينَ والمعبودينَ المَحْشورينَ بهيئةِ جَيْشَيْنِ مُتعادِيَين يقفُ كلُّ واحدٍ منهُما موقفَ المُتباعِدِ عن الآخرِ، نافرًا منه، مُستعِدًّا لمُجابهتِهِ ومواجهتِه، والغرضُ مِنَ التَّشبيه بيانُ شدَّة النُّفورِ والتَّبرِّي والتَّباعُدِ بينَهُما على أشدِّ ما يكونُ التَّباعُدُ، وعداوةُ غيرِ العاقل للعابدينَ مبنيَّةٌ على مُعتقَدِهم عقلَها؛ ليكونَ الجزاءُ من جنسِ سوءِ تقديرِهم.

وأوثِرَ لفظُ (الأعداء)؛ ليكونَ أنسبَ لِلَفْظِ (الدُّعاء)؛ لما بينهُما من سَجْعِ القَلبِ، وذلك في قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف: 5]، فيكونُ ثَمَّةَ تنافُرٌ بينَ (دُعاء) و(أعداء) على مُستوى الصِّيغةِ والمآل.

الغرضُ من التَّعبير بـ ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ دون (عدوٍّ):

التَّصرُّف في الألفاظِ جَمْعًا وإفرادًا بما يُلائِمُ سِياقاتِها

جاء التَّعبيرُ بلفظِ الجمع ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ دونَ لَفظ (عَدوٍّ) الَّذي يَستوي فيه المفردُ والجمعُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ للدَّلالةِ على طرفينِ مُتنازعين بالعَداوةِ والتَّبرّي بجميعِ أفرادِهما، وهم العابدونَ الضّالّونَ والمعبوداتُ الباطلة، فيتحقَّقُ بلفظِ الجمعِ التَّوزيعُ بينَ كلِّ فردٍ من المشركينَ وفردٍ من تلك المعبوداتِ الباطلةِ؛ لما تقرَّر في القواعدِ: من أنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجَمْعِ؛ تقتضي القسمةَ آحادًا.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 26.

نـفـورٌ وتـبـاعُـدٌ حـسّيٌّ وتـراشُـقٌ وجحودٌ لسانيٌّ

نكتةُ عطفِ الكُفر بالعبادةِ على ما قبلَها:

عُطِفَت جملةُ الكُفرانِ بالعِبادةِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ على جملةِ العَداوةِ قبلَها: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ لاشْتِراك الجملتين في الخبريَّةِ، ووجودِ تناسبٍ وتقارنٍ في الخَيالِ بينَ العَداوةِ والتَّبرّي بين العابدينَ والمَعبودينَ، وبينَ الجَحْدِ لتلك العبادةِ والإنكارِ لها؛ إذ يرتبطُ في الذِّهن تبرُّؤُ الأتباعِ مِنَ المتبوعينَ بجحود عبادتِهم إيّاهُم وخُضوعِهم لَهُم، فيكون بين الجملتين على هذا: توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ، وأفادَ العطفُ ارتباطَ الإنكارِ اللِّسانيِّ بالابتعادِ الجسمانيِّ بينَ الفريقين؛ إذ حالُ العَداوةِ والبغضاءِ تَقْتَضي التَّباعُدَ والنُّفورَ، وحالُ الجحدِ والكُفران للعبادةِ مُستلزمةٌ التَّراشقَ اللَّفظيَّ بينَ الأتباعِ والمتبوعينَ.

تَجلّياتُ العَداوةِ بـينَ المُـشْـركـينَ ومَعْبوداتِهم

سرُّ تكرارِ (كانوا) مع إغناءِ الأولى عنها:

كُرِّرَ فعل الكَونِ (كانوا) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مع تقدُّمِ ذكرِهِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ للدَّلالةِ على تَحْقيقِ حالِ التَّمكُّنِ والاستقرارِ لكلٍّ من الأمرينِ على سبيلِ الاستقلالِ، فقد استقرّوا على صفةِ العَداوةِ والبغضاءِ، وتمكَّنَتْ منهُم خاصّيَّةُ الكُفرانِ والجَحدِ لتلك العِبادة.

والضَّمير في (كانوا) مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى المُشْركينَ من النّاس الذين يَجحَدونَ، ويَكفُرونَ بتلك العبادةِ، بزعْمِهم أنَّهم إنَّما كانوا يَعبدونَ اللهَ تَعالى، وهذه المعبوداتُ وسائطُ فحسبُ، تُقرِّبُهم إليه زُلفى، ويحتمِلُ أن يكون مرجعُ الضَّمير المَعبوداتِ الباطلةَ التي تَجحَدُ عبادةَ هؤلاءِ العابدينَ لها؛ بأنَّهم كانوا يتَّبعونَ أهواءَهم وغُرورَهُم واستكبارَهم على دَعواتِ الأنبياءِ والمُرسَلين.

دلالةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾:

حَصْرُ الجَحْدِ بالعبادةِ مبالغَةٌ في البَراءَةِ مِنْها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ المتعلّقان بـ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ وحَصْرِ الجَحْدِ والكُفران بعبادتِهم دونَ ما عداها؛ إذ هي محلُّ الإنكارِ ومَقصَدُ الخِطاب؛ إذ يفِرُّ المبعودُ بالباطلِ منها خَوْفًا من عظمةِ اللّه تَعالى وجَبروتِه.

و(الباء) في ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ تَدُلُّ على الإلصاقِ، وفي ذلك بيانُ أنَّ الجَحْدَ كان للعِبادةِ وملازمًا لها لا يفارقُها.

بلاغةُ العُدولِ عَن (الدُّعاء) إلى (العبادة):

الـدُّعـاءُ هو العبادَةُ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن لفظِ (الدُّعاء) الواردِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5] إلى لفظِ العبادةِ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ دعاءَ تلك المعبوداتِ عبادةٌ لها من دونِ اللّه تَعالى؛ إذ الدُّعاء هوَ العِبادةُ[1]، فيكونُ ذكرُ الدُّعاءِ مَجازًا مُرسَلًا من قبيلِ ذكرِ الملزومِ وإرادةِ لازمِه، أوِ الجُزئيَّةِ لاشتمالِ العبادةِ على الدُّعاء، وعُدِلَ هنا عن الدُّعاءِ إلى العبادة؛ لأنَّ الدّاعيَ بالنَّفعِ والضُّرِّ من دون اللّه مُعتقِدٌ مُشاركتَها الخالقَ في ذلك، فيكونُ بدعائِه منها عابِدًا لها خاضِعًا مُطيعًا.

دلالةُ إضافةِ (العبادة) إلى الضَّمير:

زَيْـفُ عِـبـادَةِ المُشْرِكِينَ

أُضيفَ لفظُ (العبادة) إلى ضميرِ العابدينَ أو المعبودينَ على الاحتمالين في مرجعِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ

(1) جاء في حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الدُّعاءُ هو العبادة»، رواه أحمد في مسنده، برقم: (18386)، والترمذي في جامعه برقم: (3247)، وأبو داود في سننه، برقم: (1479)، وابن ماجه، برقم: (3828)، ويُروى من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «الدُّعاء مخُّ العبادةِ»، رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3371)، وقال: "هذا حديث غريب"، ويُنظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته للألباني، برقم: (3003).

﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على العَهْد، وهي العبادةُ المعروفةُ التي كانوا يتوجَّهونَ بها إلى معبوداتِهم من دونِ اللّه دُعاءً ورُكوعًا ونحوَ ذلك؛ لما تقرَّر من أنَّ الإضافة تنقسِمُ إلى ما تنقسِمُ إليه (الـ)، فكما أنَّ (الـ) ترِدُ للعهْدِ؛ فإنَّ الإضافةَ كذلك تَرِدُ لها.

وفي إضافةِ المصدرِ إلى الفاعل أوِ المفعول إشارةٌ إلى سرِّ كُفرانِ تلك العِبادة، وهي صدورُها من عابدٍ مُعتقِدٍ ألوهيَّةَ غيرِ اللّهِ تَعالى، أو توجُّهُها إلى مَعبودٍ غيرِ اللّهِ سُبحانَهُ ممّا لا يضُرُّ، ولا ينفَعُ، فكان في الإضافةِ إيماءٌ إلى أنَّها ليسَتِ العبادةَ الحقَّةَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ دون (كفارًا):

العَداوةُ مُناسِبةٌ للمعبودينَ، والكفرُ مُنسجِمٌ بالعِبادة

لفظُ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ جمعُ (كافرٍ)، وهو جمعُ تصحيحٍ وسلامَةٍ، وقد جاء التَّعبيرُ به دون جمعِ التَّكسير (كفّار)، فلم يرد في النَّظم القرآني: (وكانوا بعبادتهم كفّارًا)؛ لأنَّ جمعَ التَّصحيح هو الأصْلُ في جَمْعِ الصِّفة؛ إذِ الصِّفة (كافر) تُشْبِه الفعلَ (يَكْفُر)، ومِن ثَمَّ جُمعت على (كافرين)، وهذا يُفيد أنَّ جمعَ السَّلامة يُفيد مَعْنى الحدَثِ والوَصْف، وهو المقصودُ في الآية؛ إذِ المُراد بيانُ براءَةِ المَعبوداتِ الباطِلَةِ مِن عابِديها، بخلافِ جَمْعِ التَّكْسير (كفّار)؛ فإنَّهُ يَرِدُ غالبًا للدَّلالة على الذَّواتِ، كما أنَّ جمْعَ التَّصحيح في الآية أليَقُ بتَناسُبِ فواصِلِ الآيِ.

تنوُّعُ المجازِ بتنوُّعِ المُرادِ:

كُفْرُ المَعْبوداتِ حاصِلٌ بِلِسانِ الحالِ أوِ المَقالِ

إسنادُ الكُفر إلى المعبوداتِ الباطلة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ - وهي ممّا لا يصحُّ منها إنكارٌ أو تكذيبٌ - محمولٌ على أنَّ كُفْرَهم بعبادتِهم إنَّما هو بلسان الحالِ، فيكونُ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ استعارَةً، ويجوزُ أن يكون ذلك بلسانِ المقالِ، بِحَمْلِ المعبوداتِ على عمومِ ما توجَّه إليهِ المشركونَ بالذُّلِّ والخضوعِ، مِنَ

الأنبياء والصّالحينَ والملائكة والأوثانِ، فجاء البيانُ القرآنيُّ على إرادةِ التَّغليب[1]، والمرادُ تغليبُ المَعبوداتِ العاقلةِ على الأصنام.

نكتةُ إيثارِ اسمِ الفاعلِ على الفعلِ:

شِــدَّةُ تَــبَرّي المَعْبوداتِ دليلُ حَسْرَةِ العابِدينَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ اسم الفاعل ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ دون الفعل، فلم يرد في البيان القرآني: (وكانوا بعبادتهم يكفرون)؛ للدَّلالةِ على مُلابستِهم وصفَ الكفرِ بتلك العبادةِ والإنكارِ لها على سبيلِ الدَّوامِ والاستمرارِ، بخلاف الفعلِ المضارعِ فإنَّه يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، والدَّوام أبلغُ مِنهُ، فكان التَّعبير باسم الفاعلِ أدلَّ على شدَّة التَّبرّي.

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ:

تشبيهُ المَعبوداتِ الباطِلَةِ بالأعداءِ إظهارٌ لخَيْبَةِ عابِديها وتَبْكيتٌ لَهُم

أُسنِدَتِ العَداوةُ والكفرُ إلى المبعوداتِ الَّتي لا تعقلُ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، وهذا إمّا بمعنى: أنَّ اللّه تَعالى خاطَبَهم بذلك؛ لأنَّهم اعتقدوها عاقلةً، وإمّا أنَّ ذلك كانَ بلسانِ الحالِ أوِ المقالِ، وقد جوَّزَ ابنُ عاشور أن يكون في إسنادِ الخبرينِ لـ(كان) تشبيهٌ بليغٌ؛ وذلك لتشبيه المعبوداتِ بالأعداءِ والمنكرينَ العبادَةَ في دَلالتِها على ما يُؤدّي إلى شَقائِهم وكذبِهم[2]، والغرضُ من التَّشبيهِ بيانُ أنَّ المعبوداتِ التي عُبِدت بالباطِلِ لم تزِد عابديها إلّا خسارًا وتبارًا، كما أنَّ العدوَّ لا يزيدُ عدوَّهُ إلّا تدميرًا وهلاكًا.

بلاغةُ إيثارِ أسلوبِ الشَّرطِ:

تَصويرُ حَتميَّةِ تَبَرّي المَعْبوداتِ بالباطِلِ وخَيْبَةِ عابِديها

اختارَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾؛ لتحقيقِ التَّعلّقِ بين مضمون الشَّرطِ ومضمونِ الجزاءِ، وذلك لأنَّ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 456.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.

الشَّرطَ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الإخبارِ المحضِ، فكان في الآيةِ تأكيدٌ بليغٌ على تبرّي المعبوداتِ مِن عابديها في أعلى درجاتِ التَّبرّي.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحَشْرُ والجَمْعُ:

الحشْرُ أخصُّ مِنَ الجمعِ مُطلقًا

الحشْرُ هو الجَمْعُ معَ زيادةٍ، وتلك الزّيادةُ تكونُ بالسَّوقِ للمَجموعينَ سَوْقًا قَهْرِيًّا؛ ولذا ذكر أبو هلالٍ أنَّ الحشْرَ جمعٌ مَع سَوْقٍ، ومِنْهُ قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]؛ إذ المعنى: ابعَثْ مَن يجمع السَّحرة، ويسوقُهم إليك، ومِنهُ سمّي يوم القيامة: يومَ الحشرِ؛ لأنَّ الخلائق يُجمعون، ويُساقون إلى الموقفِ[1].

كما يشتملُ الحشرُ على دلالةِ الحَشْدِ الكثيرِ للمجموعينَ، حتى كأنَّهم يُحشَرونَ في مكانٍ ضيِّق، كما أنَّ في الحَشْرِ إخراجًا للمَجْموعينَ من مكانٍ وسَوْقِهم إلى مكانٍ آخرَ، بخلاف الجَمْعِ؛ فإنَّه لا يقتضي الإخراجَ من مكانٍ إلى آخرَ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأحقاف: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَعْدادُ ضَلالاتِ المُشْرِكِين وإبْطالُها

لمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى استخفافَهُم بألوهيَّتِهِ ومَدى حُمْقِهم؛ إذ جَعَلوا لهُ شُركاءَ لا يَسمَعونَهُم؛ إذْ يدعونهُم، وكانوا غافلينَ عن دُعائهم، ويومَ القيامةِ يَتبرَّؤونَ منهم؛ ناسَبَ أن يُبيِّنَ استهزاءَهم بمقامِ النُّبوَّة من خلالِ تكذيبِ الآياتِ واتِّهامِها بالسِّحر واتِّهامِ النَّبيِّ ﷺ بالافتراءِ على اللّه تعالى[1]، وقد ذُكِرَ هذا في سياق تَعدادِ ضلالاتِهم، فأُبْطِلَ ههنا ضلالٌ آخرُ مِنْها، وهو تكذيبُهم بالقرآنِ الكريمِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتْلَىٰ﴾: (تلو) تدور اشتقاقاتُه على مَعْنى الاتِّباعِ، ومنه: تِلاوَةُ القُرآنِ؛ لأنَّهُ يُتبعُ آيةً بعد آيةٍ[3]، وكلُّ شيءٍ تَلا شيئًا؛ فهو تِلْوُه[4]، وأتْلَيْتُ الشَّيءَ إيّاه: أتْبَعْتُه، ورَجُلٌ تَلُوٌّ على وزنِ عَدوٍّ: لا يَزالُ مُتَّبِعًا[5]، وتَلَوْتُه تُلُوًّا: تَبِعْتُه، وتلوتُ القرآنَ أو كُلَّ كَلامٍ تِلاوَةً: قَرَأْتُه، والتِّلْوُ - بالكسر - ولَدُ النّاقَةِ يُفْطَمُ، فيَتْلوها[6]، والمرادُ في الآية: تُقرَأُ الآياتُ على أسماعِهِم تِباعًا.

2) ﴿لِلْحَقِّ﴾: (حقق) تدلُّ تصريفاتُه عَلى إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ[7]، تقولُ: يَحِقُّ عليكَ أن تفعَلَ كذا،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 13.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(4) الخليل، العين: (تلو).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (تلو).
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (تلو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).

وأنتَ حقيقٌ على أن تفعلَه[1]، وحَقَّ الأَمْرُ يحِقُّ ويَحُقُّ حَقًّا وحُقوقًا: صارَ حَقًّا، وثبتَ، وأحَقَّه: صَيَّرَه حَقًّا، وحَقَّ الأَمْرَ يَحُقُّهُ حَقًّا، وأحَقَّه: كانَ مِنهُ على يَقين[2]، والمرادُ به في الآيةِ: الآياتُ المتلوَّةُ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شأنُ الضالِّين جُحودُ الحقِّ المُبين

يَذْكُرُ اللّٰهُ سُبحانَه أنَّ المُشْرِكين إذا تُتْلى عليهم آياتُه الواضحاتُ البَيِّنات؛ أَعْرَضوا عن الحقِّ، وقالوا جاحِدينَ: إنَّ هذا القرآنَ الذي جاءَهُم ما هو إلّا سحر ظاهِرٌ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) ودلالتها:

جمعُ أهل الشِّرْكِ بينَ صُنوفٍ مِنَ الضَّلالات

الواوُ في ﴿وَإِذَا﴾ من قولِ اللّٰه سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5]؛ للدَّلالةِ على الضِّلالاتِ الَّتي جَمَعوها، والأوهام صدَّقوها، فقد قَرَنوا الشِّركَ بالتَّكذيبِ، وقرنوا الاستخفافَ بمقامِ الألوهيَّةِ بالاستخفافِ بمنزلةِ النُّبوَّة، وقرنوا تصديقَ الآباء بتكذيبِ الآياتِ واتِّهامِها بالسِّحرِ المُبين.

نكتةُ اختيارِ (إذا) دونَ (إنْ):

الإعْراضُ عَنِ الحقِّ بعدَ تَبَيُّنِه، غايةُ الانحِراف والضَّلالِ

جاء التَّعبير بأداة الشَّرط (إذا) في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ دون (إنْ)؛ لِما تدلُّ عليه (إذا) من تحقُّق وقوع مدخولها، بخلافِ (إن) فإنَّها دالَّةٌ على الشَّكِّ في وقوعِه، وفي هذا دلالةٌ على تحقُّقِ تلاوة الآياتِ القرآنيَّة عليهم وبلوغِها إليهم، ممّا يقتضي التَّسجيل عليهم وتوبيخَهم على إنكارِها.

---

(1) الخليل، العين: (حقق).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حقق).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 13.

بلاغةُ اختيارِ لفظِ التِّلاوةِ مادَّةً وصيغةً:

استمرارُ التَّكذيبِ مَعَ تتابُعِ الآياتِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ (التِّلاوة) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ دون (القِراءة)؛ لما في التِّلاوةِ من قراءةٍ على سبيلِ المُتابعةِ والدَّوامِ والاستمرارِ، فلم تكُنِ التِّلاوةُ عن آذانِهم مُنقطعةً، ولا البراهينُ المُثبتةُ صدقَ الدّينِ مُنفردةً، بل يَتلو بعضُها بعضًا، ومع ذلك كانوا حريصينَ على التَّكذيبِ والجُحودِ، وجاء التَّعبيرُ بِالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لتقويةِ دوامِ طَرْقِ الآياتِ أسماعَهُم، وهذا أبلغُ في توبيخِهم على جُحودِهِم.

نُكتةُ بناءِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ للمَفْعول:

اشـتِراكُ المُشركينَ في جُحودِ الشَّرعِ المُنزَّلِ

عُبِّر بالفعلِ المبنيِّ لما لَم يُسمَّ فاعلُهُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مناطَ الاهتمامِ وقوعُ الحدثِ بغضِّ النَّظرِ عنِ التّالي لتلك الآياتِ، ولبيانِ أنَّ هذا شأنُ الضّالّينَ في كلِّ عصرٍ ومِصرٍ، لا ينفكّونَ عن سَماعِ الآياتِ تُتلى عليهم من أيِّ تالٍ كان، ولا يُعمِلونَ العقولَ والأفهامَ، فكان في بناءِ الفعلِ للمفعولِ إيماءٌ إلى العُموم، أي: وإذا تلا عليهم أيُّ تالٍ؛ فإنَّهم يقابلونَهُ بالجحودِ والنُّكرانِ[1].

معنى حرفِ الجرِّ (على) ودلالتُهُ:

علوُّ مقامِ الآياتِ ومُنْزِلها وتاليها

(على) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستِعلاءِ، والمرادُ هنا: استعلاءُ التِّلاوة عليهم استعلاءً مجازيًّا، وكأنَّ التّاليَ قدِ ارتقى مكانًا عاليًا، وهو يتلو على مَسامِعِهم الآياتِ البيِّناتِ، وفيه بيانُ أنَّ تلك الآياتِ التي يتلوها التّالي قد نزلَتْ مِن عُلوٍّ، وأنَّها عظيمةُ الشَّأنِ رفيعةُ القَدْرِ، ومُتمكِّنةٌ من السّامعينَ تمكُّنَ المُستعلي على المُستعلى عليه، ففي الحرفِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بتشبيهِ المظروفِ الدّاخلِ في الشَّيءِ بالعلوِّ عليه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 129.

حِرْصُ الدّاعي إلى اللهِ تعالى على هِدايَةِ العِبادِ

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائبِ الفاعِل:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للاهتمام بالذين يُتْلى عَلَيهم؛ لأنَّهم مَناطُ الإنقاذِ من الضَّلال، ولبيانِ أنَّ مجيءَ الآياتِ يقعُ حِرصًا عليهم؛ لأنَّهم محلُّ الوَعظِ والإرشاد، كما يفيدُ التَّقديمُ اهتمامَ التّالي بالمتلوِّ عليهم، وحرصَهُ الشَّديدَ على هِدايتِهم، ووجهُ ذلكَ: أنَّ تقديمَ الجارِّ والمَجْرورِ تقديمٌ لِما حقُّه التَّأخير، فأفادَ ذلكَ القَصْر، فكأنَّ التّالي خصَّهم بالإسماع لشِدَّة حِرْصِه على انتِفاعِهِم وهِدايَتِهِم.

جَمْعُ الآياتِ وإضافَتُها إلى اللهِ تَعالى تأكيدٌ لِعَظيمِ قَدْرِها وشَرَفِ مَنْزِلَتِها

دلالةُ جَمْع (آيات) وإضافَتِها إلى الضَّميرِ:

جُمِع لفظُ (آيات) من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لإفادَةِ كثرتِها وتنوُّعِ دلالاتِها، وأضيفَت الآيات إلى الضَّمير (نا) في ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ تعظيمًا للمضافِ، فالآياتُ الَّتي تُتْلَى عظيمَةُ القدرِ شريفةُ المنزِلَة، أي: إنَّ تلك الآيات لا أعظم مِنْها في نفسِها، وكذا بإضافتِها إلى الله سبحانَهُ[1].

فيكون جمعُ الآيات وإضافَتُها متلائمًا مع فعلِ التِّلاوةِ الدّالِّ على التَّتابُعِ في قراءةِ تلك الآيات.

الآياتُ الشَّرعيَّةُ بيِّنةٌ في نَفْسِها مُبَيِّنَةٌ لغَيْرِها

سرُّ التَّقييدِ بالحالِ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾:

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ حالٌ من ﴿ءَايَٰتُنَا﴾[2]؛ لإفادةِ وضوحِها وجلاءِ معانيها[3]، ممّا يقتضي قطْعَ العذرِ عمَّن يكذِّب بشيءٍ منْها، أو يجحدُها، ويجوزُ أن يكون ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ حالًا على معنى اللُّزوم أو التَّعدية، بمعنى: واضِحاتٍ، أو موضِّحاتٍ[4]، فعلى الأولى: هي واضحةٌ في نفسِها، وعلى الآخر: هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 129.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 171.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 275.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.

موضِّحةٌ لغيرها، والوصفُ على الأوَّلِ حقيقيٌّ، وعلى الآخر مَجازيٌّ، علاقتُه سببيَّةٌ.

وفي صيغةِ (بيِّن) مبالغةٌ، أي: إنَّها شديدةُ الوضوحِ في نفسِها أو كثيرةُ البيانِ لغيرِها، ولا مانِعَ مِن إرادَةِ المَعنيينِ مَعًا؛ لعدمِ التَّنافي بينَهُما.

دلالة مجيءِ فعل القَوْلِ ﴿قَالَ﴾ جوابًا للشَّرطِ:

الاستِعجالُ في الإنكارِ أمارَةُ العِنادِ والجُحودِ

جاء فعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ جوابًا للشَّرْطِ؛ للدَّلالَةِ على استعجالِهم في الحكم على الآياتِ قبل تأمُّلِها، وهذا لشدَّةِ عنادِهم وعظيمِ جحودِهم، فلم يكُن عِندَهُم تأنٍّ ونظرٌ في الآياتِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

الكفرُ المتأصِّلُ منعَهُم مِن الانقيادِ إلى الحقِّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظّاهرِ أن يَرِدَ في النَّظم القرآني: (قالوا للحقِّ)، ولكن عُدِلَ عن ذلك للتَّسجيلِ عليهم بكمال الكُفْرِ والضَّلالِ[1]، وفي التَّعبير بالاسم الموصولِ وصلَتِهِ إشارةٌ إلى أنَّهم معروفونَ بالكُفْرِ مشهورونَ به؛ إذ مِن شأنِ الصِّلة أن تكون ممّا اشتهرَ به مرجعُ الموصولِ.

وفي التَّعبير بالموصولِ وصلتِهِ أيضًا دلالَةٌ على علَّةِ صدورِ هذا القولِ منهم دونَ تفكيرٍ ورويَّة، فالكفرُ الذي رانَ على قلوبهم، والجحدُ الذي امتلأت به أذهانُهُم قاداهُم إلى صمِّ الآذانِ عن سَماعِ الآياتِ البيِّنات المتلوَّة، والاستكبارِ عليها والاتِّهام لها، وجاءتِ الصِّلةُ فعلًا ماضيًا؛ لتدلَّ على تحقُّقِ الكفرِ فيهم.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.

سرُّ استعمالِ الكُفرِ دونَ الشِّرك في الصِّلة:

جَمْعُ المُشْرِكينَ بينَ صُنوفِ الانحِرافِ والضَّلال

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الكفر) دونَ (الشِّرك) مع أنَّ المُتحدَّثَ عنهم هم المُشركونَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ الكُفْرَ أعمُّ، فيدخلُ فيه الشِّرْكُ وغيرُهُ، فمن الكُفْرِ ما يكون جحودًا، ومنه ما يكون شِركًا، ومنه ما يكون نفاقًا، ففي التَّعبير عن المشركين بالكُفْرِ إيماءٌ إلى أنَّهم جمَعوا بين صنوفِ الضَّلالِ والانحرافِ، فجمعوا بين الشِّركِ وجَحْدِ الآياتِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ، وإنكارِ البراهينِ الدَّالَّةِ على صِدق كلامِ الرَّسول ﷺ فيما يَنقلُهُ عن ربِّه سُبحانَهُ.

معنى اللّامِ ودلالتِها في قولِه: ﴿لِلۡحَقِّ﴾:

اتِّفاقُ الكَفَرَةِ على جَحْدِ الحقِّ وإنكارِهِ

اللّامُ في ﴿لِلۡحَقِّ﴾ مِنْ قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّعليل[1]؛ لأنَّ القولَ صدَرَ منهُم، وتوجَّه لغيرِهِم من الكافرينَ، وأُضمرَ المقولُ لهم للإيماءِ إلى اتِّفاقِ كلمتِهم على الجَحْدِ والإنكار، فمَعْنى قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ أنَّ صدورَ القولِ مِنهم بالتَّكذيبِ هوَ لأجلِ الحقِّ والتَّصدِّي له وبُغضِه، فليسَتِ اللّامُ للتَّعديةِ حتّى يكونَ القولُ مُتوجِّهًا للحقِّ - كما أفادَهُ ابن عاشور[2] - وبهذا يُعْلَمُ أنَّ التَّقدير: قالَ الذين كفروا بعضُهم لبعضٍ بسببِ الحقِّ ولأجلِ ردِّهِ وجَحْدِه.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ (الحقِّ):

وُجوبُ الإيمانِ بالآياتِ المَتلوَّةِ والانقيادِ لَها

(الحقُّ) في الأصلِ معناهُ: الثّابت[3]، واستُعيرَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ للآياتِ الواردةِ في قولِهِ: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ استعارةً تصريحيَّةً؛ إذ شبَّه الآياتِ

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 21.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 13.

(3) الفيومي، المصباح المنير: (حقق).

بالحقِّ الثّابتِ الَّذي لا يَتزحزحُ تعريضًا بباطِلهم، بجامعِ عدمِ زوالِ الأدلَّةِ البيِّنة وعدمِ انهدامِ الثّابتِ القويِّ، والغرضُ من الاستعارةِ الاستخفافُ بعقولِهم الَّتي أعرضَتْ عن الحقِّ والآيات، واتَّبعتِ الباطلَ والضَّلالات، وأنَّ اللّائقَ بحالهم لمّا جاءهم الحقُّ أن يَتْرُكوا الباطلَ، ويَعْدِلوا عَنِ الزّائل.

وفي قولهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذ مُقْتضى الظّاهر أن يَرِدَ في البيان القرآني: (قال الذين كفروا لَها)، أي: للآياتِ، ولكن عُبِّر عن الآيات المتلوَّة بالحقِّ؛ تنصيصًا على حقّيَّتها، وأنَّه يتعيَّنُ الإيمانُ بها[1].

دلالةُ (الـ) في (الحقِّ):

إنكارُ المُشْركين للحقِّ بالكُلِّيَّة

(الـ) في (الحقِّ) مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾؛ لبيانِ الجِنْسِ والحقيقةِ؛ ليكونَ قولُهم المُنكِرُ للحقِّ إنكارًا لحقيقةِ الحقِّ المُتمثِّلِ بتلكَ الآياتِ البيِّنات الَّتي خوطِبوا بها، فيكون في ذلكَ تعريضٌ شديدٌ بِرَفْضِهم الحقَّ كلَّهُ واتِّباعِهم الباطلَ عَينَهُ.

دلالةُ استعمالِ ﴿لَمَّا﴾:

تَـصـويـرُ شِـدَّةِ إنكارِهِم وعِظَمِ جُحودِهِم للحَقِّ

استعملَ النَّظمُ ﴿لَمَّا﴾ الحينيَّة الظَّرفيَّة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ لتقييدِ زمنِ القولِ بمجيءِ الآياتِ والحقِّ؛ ليكونَ إنكارُهم للحقِّ ورفْضُهم للآياتِ مُقترنًا بمجيئِها لهُم وعرضِها عليهم، فيكون ذلك الإنكارُ واقِعًا في أوَّلِ ما جاءَهم من غيرِ تأمُّلٍ ولا رويَّةٍ[2]؛ مبالغةً في تصويرِ إنكارِهم وشدَّةِ استكبارِهم على تلك الآياتِ المُخاطَبينَ بِها.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.

دلالةُ التَّعبير بالمجيءِ مادَّةً وصيغةً:

عِـظَـمُ الـحَـقِّ وجلالُهُ

جاءَ التَّعبيرُ عن المجيءِ بالفعلِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ المَجيءِ وحصولِهِ بما لا يَسوغُ إنكارُهُ.

وفي التَّعبير بفعلِ المجيءِ دونَ الإتيانِ أوِ الإقبالِ إيماءٌ إلى عِظَم الحقِّ وجلالِه، وصعوبة وُرودِهِ على قلوبِ النّاسِ بسببِ مقاومَةِ الحقِّ والتَّمادي في الباطِل.

بلاغةُ الاستعارةِ في فِعْلِ المَجيءِ:

تَكْذيبُهم بالحقِّ وكُفْرُهم بهِ مَع ظُـهـورِهِ غايةَ الظُّهور

في إسنادِ المجيءِ إلى الحقِّ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شُبِّه الحقُّ بشخص يتأتَّى منهُ المجيءُ والإقبالُ والإتيان، وإسنادُ المَجيءِ إليه تخييلٌ، والغرضُ من الاستعارةِ وتصويرِ الحقِّ بهيئةِ الجائي: الإبانةُ عن واقعِهم المليءِ بالباطلِ وأنَّ الحقَّ قدِمَ إليهم، ولم يُفتِّشوا عنه، وأنَّه عليهم الاستعداد له إيمانًا وتصديقًا وإذعانًا، لكنَّهم قابلوهُ بالكفر والتَّكذيب.

بلاغةُ التعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

فَـسـادُ عُـقـولِ المُشْركِينَ

عبَّر النَّظمُ عن مقولِ القَول بالجملة الاسميَّة: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ هذا الحُكم للمُشارِ إليه (الحقّ) وتأكيد هذه النِّسبةِ، ممّا يدلُّ على شدَّةِ انحرافِ عقولِ المشركينَ؛ إذ لم يتوهَّموا الحقَّ سِحْرًا فحسبُ، حتّى تجاوزوا ذلك إلى القطعِ والجَزْم بذلكَ.

غرضُ استعمالِ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

احتقارُ المُشْركينَ للحقِّ المُسْتَبينَ

جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ الموضوع للقريب في قولِ اللّهِ تعالى حكايةً عن المشركين: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾، وهو مشارٌ بِهِ إلى الحقِّ البيِّنِ الذي جاءَهم والنِّعمةِ الكبيرةِ التي وصَلَتْهم؛ وذلك

للدَّلالة على مَدى الاستخفافِ بهِ منَ المُكذِّبين، والحطِّ من شأنِه، فالغايةُ من تقريبِ المُشارِ إليه الاستهزاءُ والتَّهكُّمُ والتَّحقير.

تعيينُ مرجعِ اسمِ الإشارةِ:

تحقيرُ المُشرِكين لـلـحـقِّ دليـلُ فَسادِ عُقولِهم

عادَ اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ للحقِّ الذي جاءَهُم، والحقُّ هُنا إمّا (الآيات) الَّتي تُتلى عليهم، أو الرَّسول ﷺ الذي جاءَهُم بها، وعلى الأوَّلِ يكونُ استعمالُ اسمِ الإشارة معَ الحقِّ - وهو أمرٌ معنويٌّ - استعارةً تصريحيَّةً، وذلك بتنزيلِ الحقِّ منزلةَ المشارِ إليه المحسوسِ المشاهَدِ، والإشارةُ إليه باللَّفظ الموضوع لذلك يُرادُ به التَّحقيرُ، وعلى الثّاني - وهو أن يُراد بالحقِّ النَّبيُّ ﷺ - فاسمُ الإشارةِ حقيقةٌ في الاستعمال؛ إذ المشارُ إليه محسوسٌ، والغرضُ من تعبيرِهِم بالقُرْبِ التَّقليلُ والتَّحقيرُ؛ إمعانًا مِنْهُم في الباطِلِ والضَّلالِ.

نكتةُ ذكرِ لفظ (السِّحر):

العَجزُ عن المواجَهةِ دافِعٌ لإلقاءِ التُّهَم بكلِّ مُجازَفة

جاء التَّعبير بلفظِ (السِّحر) في قولِهِ: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على إقرارِهِم بِعِظَم تأثير الحقِّ في نفوسِ العبادِ، ولم يجدوا إلّا وصفَهُ بالسِّحْرِ؛ طلبًا للتَّهرُّبِ من الإذعانِ والانقيادِ لَهُ.

مناسبةُ وصفِ ﴿سِحۡرٞ﴾ بلفظِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

إجحافُ المُشْرِكين في وصْفِ الآياتِ الشَّرعيَّة

وُصِفَ السِّحرُ المُتَّهَمُ به الآياتُ بكونِهِ مُبينًا في قولِهِ تعالى: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ ادِّعاءً مِنْهم أنَّ الآياتِ بلغَت في السِّحْرِ حدًّا لا يخفى على أحدٍ، حتّى إنَّ مُنْكِرَ ذلكَ مُنْكِرٌ للحقائقِ المحسوسَةِ، وهذا إيغالٌ منهم في الباطِلِ والعنادِ، ولذا قال الزَّمخشري: "ومِن عِنادِهم وظُلْمِهِم أنَّهم سمَّوهُ سِحْرًا مُبينًا ظاهِرًا أمرُهُ في البُطلانِ لا شُبهةَ فيهِ"(1).

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 296.

بلاغةُ إيثارِ أُسلوبِ الشَّرطِ دونَ الخَبَر:

حِرمانُ لذَّةِ التأمُّلِ والمنعُ من نِعمَةِ التَّدبُّرِ

اختارَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لتحقيقِ التَّعلُّقِ بين مضمون الشَّرْطِ ومضمونِ الجزاءِ، وذلك لأنَّ الشَّرطَ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الإخبارِ المحضِ، فكان في الآيةِ تأكيدٌ بليغٌ على مبادرةِ المشركينَ إلى إنكارِ الحقِّ بمجرَّد تلقّيه، مِن غيرِ نَظَرٍ فيهِ ولا تأمُّلٍ لأدلَّتِهِ.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨﴾ [الأحقاف: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَحيُّرُ المُشْرِكين في الآيـاتِ بينَ السِّحرِ والافتراءِ

لمّا حكَى اللّهُ تعالى مَوقِفَ المشركينَ منَ الكتابِ الحكيمِ الظّاهرِ الدَّليلِ، واتِّهامَهم لهُ بالسِّحرِ المُبينِ؛ ناسَبَ أن يذكُرَ لهم مَوقِفًا آخَرَ منه، وهو اتِّهامُهم الرَّسولَ ﷺ بافترائِهِ ونِسبتِهِ إلى اللّهِ تعالى كَذِبًا وزورًا، معَ اقترانِ ذلك بما يدْحَضُ هذهِ المَقالةَ الشَّنيعةَ.

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: (فري) تدلُّ تصريفاتُها على القَطْعِ، ويتفرَّعُ منْهُ ما يُقارِبُهُ[1]، يُقال: فَرَيْتُ الشَّيءَ بالسَّيفِ وبالشَّفْرَة: قَطَعْتُهُ، وشَقَقْتُهُ، وفَرَيْتُهُ: أَصْلَحْتُهُ، والفَرْيَة: الجَلَبة، وفَرَى يَفْري فلانٌ الكَذِبَ؛ إذا اختلقَهُ، والفِريةُ: الكَذِبُ والقَذْفُ[2]، والمرادُ بالافتراءِ في الآيةِ: الاختلاقُ، أي: اختِلاقُ القرآنِ ونسبتُهُ إلى اللّهِ كَذِبًا.

2) ﴿تَمۡلِكُونَ﴾: (ملك) تدور اشتقاقاتُه على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسان الشَّيءَ يَملِكُه مَلكًا، والاسمُ: المِلك؛ لأنَّ يَدَهُ فيه قَويَّةٌ صَحيحةٌ، فالمِلك: ما مُلِكَ من مالٍ[3]، والمَلْك: ما ملَكَتِ اليدُ من مالٍ وخَوَلٍ[4]، ويُقال: مَلَكْتُ المرأةَ، أي: تزوَّجْتُها، وملَّكْتُ الشَّيءَ تمليكًا، أي: جَعَلْتُهُ مِلْكًا له[5]، والمرادُ بنفي الملك في الآيةِ: عدمُ النُّصرَةِ والإنقاذِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).
(2) الخليل، العين: (فري).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(4) الخليل، العين: (ملك).
(5) الجوهري، الصحاح: (ملك).

3) ﴿تُفِيضُونَ﴾: (فيض) تدلُّ تصريفاتُه على جرَيانِ الشَّيءِ بِسهولة، يُقال: أفاضَ إناءَه؛ إذا مَلَأَهُ حَتّى فاضَ، وأفاضَ دُموعَه، ومِنهُ: أفاض القَومُ مِن عَرَفَةَ؛ إذا دَفَعوا، وذلكَ كَجَريانِ السَّيْلِ، وأفاضَ القَوْمُ في الحَديثِ؛ إذا اندَفعوا فيهِ[1]، والفَيْضُ: الكثير، والغَيضُ: القليل[2]، والمرادُ بـ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ في الآية: هوَ أعلم بِما تَخوضونَ فيه مِن قَدْحٍ في القُرآن وطَعنٍ في آياتهِ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اتِّهامُ النَّبيِّ ﷺ بافتراءِ القرآنِ أبطلُ الباطِلِ وأشْنَعُهُ

يُنكِرُ اللّٰه تعالى على الكُفّارِ، ويوبِّخُهم على شَناعةِ قولِهم: إنَّ النَّبيَّ ﷺ - وحاشاهُ - افترى، وكذبَ على اللّٰه جلَّ شأنُهُ، ونسبَ إليه القرآنَ، قُل لهُم مُسفِّهًا: لو افتريتُهُ، ونَسبتُهُ زورًا وبُهتانًا إلى ربّي - كما تزعُمونَ - لعاجَلَني اللّٰه سُبحانَهُ بعقوبةِ هذا الكذب، وأنتم لا تَقدِرونَ على مَنْعِ ربّي وكَفِّه عن مُعاجَلتي، ولا تستطيعونَ دفْعَ شيءٍ من عقابِهِ عنّي، هو عليمٌ بالَّذي تخوضونَ فيه من القدح والطَّعْن، وتسميتِهِ سِحرًا تارةً وافتراءً تارةً أُخرى إلى غير ذلك من ضُروب النَّيلِ من كتابِ اللّٰه تَعالى، فهو يَكفيني، ويملأُ قلبي اطمئنانًا، إنَّهُ شهيدٌ بيني وبينكم، يشهدُ لي بالصِّدق فيما أُبلِّغُه لَكُم عنهُ، ويشهَدُ عليكم بالجُحودِ والنُّكران والكُفر، وهو الغفورُ الَّذي يغفِرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن السَّيِّئات، بل قد يُبدِلُها حسَنَاتٍ، وهو الرَّحيمُ بعبادِه، يفتحُ لهم أبوابَ رحمتِهِ[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).

(2) الخليل، العين: (فيض).

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 23.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 906 - 807.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى ﴿أَمۡ﴾ ودِلالَتُها:

الــكَــذِبُ على اللـهِ سُبْحانَهُ أشنَعُ وأقبَحُ مِنَ السِّحر

﴿أَمۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ منقطعةٌ بمعنى (بل) الإضرابيَّة، وجيءَ بها للتَّرقِّي في اتِّهاماتِهم والمُبالغةِ في تكذيبِهم؛ فهو إضرابٌ انتقاليٌّ مِن ذكرِ تسميتِهم القُرآنَ سِحرًا، إلى ذكر ما هو أبشَعُ أشنعُ[1]، ووجهُ كونِ الافتراءِ أشنَعَ مِنَ السِّحْرِ: أنَّ الكذبَ على اللّه سُبحانَهُ مُتَّفَقٌ على قُبْحِه، حتَّى ترى كلَّ أحدٍ ينفِرُ من نِسبتِه إليه بخلافِ السِّحر، فإنَّه وإن كان قبيحًا؛ فإنَّهُ ليسَ بهذهِ المنزِلَة[2].

وفي هذا الانتقالِ توبيخٌ وتقريعٌ للكفّارِ، والمعنى: دَعْ ما تقدَّم، واسمعَ قولَهُمُ المُنْكَرَ القبيحَ، وهو ادِّعاؤُهُم أنَّ محمَّدًا ﷺ - وحاشاهُ - اختلق القرآنَ، ونسبَهُ إلى اللّهِ سبحانَهُ[3].

بلاغةُ الاستفهامِ وغَرضُهُ:

إنـكـارُ مقـالَـةِ الـكـفّـار وتوبيخُهُم عَلَيها والتَّعجيب مِنها

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ استفهامٌ مقدَّرٌ، وهو استفهامٌ خارجٌ عن أصلِ دلالتِهِ من إرادَةِ طلب العلم بشيءٍ لم يكُنْ معلومًا مِن قبلُ، إلى إرادةِ الإنكارِ، والاستفهامُ الإنكاريُّ مُسلَّطٌ على سببِ الإنكار، وهو كون القرآن مفترًى، وليس مسَلَّطًا على نسبةِ القول إليهم؛ إذ ذلك القول صادرٌ من الكفّار قطعًا[4].

ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ للتَّوبيخِ التَّعجُّبيِّ، والمعنى: قَوْلُهُم هذا مُنكَرٌ وعجيبٌ؛ إذِ القرآنُ الكريمُ كلامٌ مُعجِزٌ خارجٌ عن قُدرةِ البَشَرِ، فكيفَ يتأتّى أن يقولَهُ النَّبيُّ ﷺ، ويَفتريه؟[5].

(1) العُلَيميّ، فتح الرحمن: 6/ 282.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 440.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 23.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 14، والزمخشري، الكشاف: 4/ 296، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 268.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.

ولا تنافيَ بين هذه المعاني؛ إذ المتقرَّر أنَّ النِّكاتِ البلاغيَّة تتوارَدُ، ولا تتزاحَمُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

إمعانُ الكفّار في الباطِل بلزومِهِ وتكرارِهِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لصدورِ هذا القولِ منهم، فهم لم يَكْتَفوا بقولِهِ قولًا عارضًا، حتّى ردَّدوهُ، ولاكوهُ بألسِنَتِهم حتّى كأنَّ لا كلامَ لَهُم إلّا هذا.

وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ أيضًا تصويرٌ للحالِ الماضيةِ في صورةِ الأمرِ الذي يقَعُ الآنَ[1]؛ تشنيعًا لهذه المقالَةِ، ومبالغةً في الإنكارِ عليهم.

دلالةُ فعلِ (الافتراء) مادَّةً وصيغةً:

إفراطُ المُشركين في اتِّهامِهم النَّبيَّ ﷺ

جاءَ التَّعبيرُ بفعل (الافتراءِ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ في الاتِّهام لصاحبِ الرِّسالة ﷺ بالكذبِ على اللّهِ تعالى ونسبةِ الرِّسالةِ إليه؛ لِما في فعل الافتراء من إفادَةِ تعمُّدِ الكذبِ والاختلاقِ.

كما تدلُّ صيغةُ الافتعالِ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على المبالغةِ في الفعلِ والكثرةِ فيه، وجيءَ بالفعلِ ماضيًا للدَّلالةِ على قَطْعِهم بصُدورِ الافتراءِ منهُ وتحقُّقِه معَ أنَّ القرآنَ كان مُتجدِّدَ النُّزولِ، ففيهِ حكمٌ على ما لم يَنزِلْ بما نزلَ منهُ قياسًا عليهِ.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

إبطالُ مقالَةِ المُشْركين وبيانُ اضْطِرابِهِم

الضَّميرُ المنصوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يَرجِعُ إلى الحقِّ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وفي رجوعِ الضَّميرِ إليهِ إبطالٌ لمقالَتِهم وإظهارٌ لتناقُضِهم؛ إذ كيفَ يكونُ الحقُّ مُفْتَرًى؟

---

(1) ابن التمجيد، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 17/ 457.

ويجوزُ أن يرجِعَ الضَّمير إلى غير مذكورٍ، وهو القرآنُ المفهومُ من المقامِ[1].

مناسبةُ الانتقالِ مِنَ الاتِّهامِ بالسِّحرِ إلى الاتِّهام بالافتراءِ:

جَمْعُ المُشْركين بينَ صُنوفِ الكُفْر والضَّلال

انتُقِل من بيانِ اتِّهام الكفّار للنَّبيِّ ﷺ بالسِّحْرِ إلى اتِّهامهم له باختلاقِ الآياتِ ونسبتِها إلى اللّه تعالى؛ ترقِّيًا في بيان ضلالاتِ المشركينَ، وإيماءً إلى أنَّ الكفّار ردّوا الآياتِ في أنفسِها بوصفِهم إيّاها بالسِّحْر، وردّوا على صاحب الرِّسالَةِ ﷺ باتِّهامهم إيّاهُ بالافتراء، والثّاني أقبحُ وأشنَعُ[2].

نكتةُ فصلِ جُملةِ ﴿قُلۡ﴾:

الرَّدُّ على ضَلالاتِ المُشْركينَ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوروده استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتينِ شبهُ كمالِ الاتِّصال؛ وذلك لأنَّ اللّه تعالى لمّا ذكر قولَ الكفرةِ الزّاعمين أنَّ النَّبيَّ ﷺ - وحاشاهُ - افترى القرآنَ، ونسبَهُ إلى اللّهِ تعالى؛ أورثَ ذلك سؤالًا حاصِلُهُ: وما الرَّدُّ على هذا؟ فجاء الجواب: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾.

دلالةُ استعمالِ حرف الشَّرطِ ﴿إِنِ﴾:

الفرضُ والاحتمال للرَّدِّ على أهلِ الضَّلال

جاء التَّعبيرُ بحرفِ الشَّرْطِ ﴿إِنِ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾، وهو دالٌّ في الأصلِ على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِها؛ للإيماءِ إلى استحالَةِ افتراءِ النَّبيِّ ﷺ، ولبيانِ أنَّ المذكورَ بعدَ ﴿إِنِ﴾ مذكورٌ على سبيلِ الفَرْضِ[3]؛ تمهيدًا للرَّدِّ على الكفّارِ، "فإنَّ المُحالَ قد يُفرَض وقوعُهُ لإسكاتِ الخَصمِ المُشاغِبِ باستلزامِ وُقوعِه المُحالَ"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 14.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 22.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 14.
(4) القونوي، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 17/ 458.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرط: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾:

العِقابُ الإلهيُّ لازِمٌ للمُفْتَري

اختار النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ لتحقيق التَّعلُّقِ بين مضمونِ الشَّرط والجزاءِ؛ لأنَّ الشَّرطَ أدلُّ على ذلك من الإخبارِ المحضِ، فكان في الآيةِ تأكيدٌ بليغٌ على أنَّ الافتراءَ إن وقعَ؛ فإنَّ اللّهَ يُعاقِبُه على ذلك - لا محالةَ - ولا تملكونَ لَهُ نُصرةً حينئذٍ، والمعنى: كيف أفْتري الكذبَ على اللّهِ تعالى، وأعرِّض نفسي لعقابِه الذي لا خلاصَ لي مِنْهُ[1]؟

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل (الافتراء) مادَّةً وصيغةً:

الـــرَّدُّ على اتِّـهـامـهـم بألفاظِهِم

جاءَ التَّعبيرُ بفعل الافتراءِ في قولِهِ: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾، وهوَ الفعلُ نفسُهُ الواقعُ المذكور قبلُ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾؛ ليقع الرَّدُّ مطابقًا لما وردَ في التُّهمةِ، واختيرَ الفعلُ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّق ذلك الفعلِ على سبيلِ الفرضِ والاحتمالِ؛ ليُرتَّب عليه ما بَعْدَهُ مِنَ الجواب.

مَعنى الفاءِ ودلالتُها:

طَيُّ اللَّفظ الذي دلَّ السِّياق عليهِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرطِ، والجوابُ محذوفٌ، وقد قام لازِمُهُ مُقامه، والتَّقدير: إن افتريتُه؛ فإن اللّهَ تعالى يُعاجلني بالعقوبَةِ، فلا تملكونَ لي دَفْعَهُ عنّي، فالفاءُ سببيَّةٌ، وأقيم المُسبَّبُ مقامَ الجوابِ، أو تُجوِّزَ به عنهُ[2]؛ وذلك لأنَّ نفيَ النُّصرةِ دليلٌ على عظمةِ المُعاقِب.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المضارعِ ﴿تَمۡلِكُونَ﴾ وإسنادِهِ إلى ضمير الجَمْع:

بـيـانُ كـمـالِ القُدْرَةِ الإلهيَّة

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارع ﴿تَمۡلِكُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ نفيِ القدرةِ عن نُصرةِ الذي يعاقبُهُ اللّهُ تَعالى على الافتراءِ؛ إذ الفعلُ المضارعُ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 23.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 27.

يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرارِ، والمرادُ هنا: استمرارُ النَّفْيِ لا نفيُ الاستمرارِ؛ إذ لا يقوى أحدٌ على دفعِ شيءٍ من عذابِ اللّهِ تَعالى الذي قضى إنزالَهُ بأحدٍ ما.

وأُسنِدَ الفعلُ إلى ضميرِ الجمع؛ ليكونَ أكثرَ دلالةً على العَجْزِ عنِ النُّصرةِ والإنقاذِ من عذابِ اللّه تعالى؛ إن وقعَ، فإن عجزَ الجَمْعُ عن ذلك؛ فأحرى أن يعجز الآحادُ.

وفي قول اللّهِ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ تعريضٌ بالمُشْرِكين؛ إذ المعنى: إن كنت مفتريًا، وأنتم المحقّون؛ فالعقوبةُ نازلةٌ حتمًا، ولا تقدرونَ على دفعها عنّي، وإن كنتُ محقًّا، وأنتم المفترونَ - وهو الواقعُ - فالعقوبةُ نازلةٌ بِكُم، ولا أَقْدِرُ على دَفْعِها عَنْكُم[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾:

التَّعريضُ بإنزالِ العُقوبَةِ على أهلِ الشِّركِ المُفْترين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ كنايةٌ عنِ العَجْزِ التّامِّ وعدمِ القُدرةِ على دفعِ العقوبةِ قبل نزولها أو رفعها بعد حلولها؛ وذلك لأنَّهُ يلزمُ من نفيِ الملكيَّةِ عن النُّصرة عدمُ الفعلِ والقُدرة، وفي هذه الكنايةِ تعريضٌ بالمُفترينَ على الرِّسالة وصاحبها بأنَّ اللّه تَعالى إذا أنزلَ العُقوبةَ بهم؛ فلا أحدَ يقدِرُ على ردِّها عَنْهم.

دلالةُ الجارِّ والمجرور ﴿لِي﴾:

لا رادَّ لِقَضاءِ اللهِ تَعالى

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ حرفَ الجرِّ (اللّام) في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾؛ للدَّلالةِ على الملكِ والاختصاص، وفيها دلالةٌ على التَّعليل، والتَّقديرُ: (لأجلي)، وعبَّر عن ذاتِهِ ﷺ بالضَّميرِ المتكلِّم المفرد؛ للإيماء إلى أنَّ جَمعَ المُشركين الكثيرَ لا يقدِرُ على ردِّ عُقوبةٍ نازلةٍ بالمفرَد، فكيفَ يقدِرُ المفردُ على ردِّ عقوبةِ الجمعِ منكُم؟

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 270.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾:

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّف بالألفاظ تقديمًا وتأخيرًا

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ لإفادةِ الحاليَّة، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ في موضِعِ الحالِ، والتَّقديرُ: (فلا تملكونَ شيئًا حالَ كونِه لي)، وهم وإن كانوا لا يملكونَ ذلك لغيرِه أيضًا، إلّا أنَّه خصَّ نفسَهُ بالذِّكر؛ لأنَّه في محلِّ الاتِّهام.

وفي تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لِي﴾ على المتعلِّق ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ على الاهتمامِ بالمتحدَّث عنه؛ لأنَّه مناطُ سلبِ الملكيَّةِ عن نُصرتِهِ وإعانتِهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمتُعلِّقِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

تعليقُ الحُكمِ بالاسمِ الأحسَنِ مفيدٌ التَّعليلَ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالمُتعلِّقِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على بيانِ مَحَلِّ صدورِ عدمِ الملكيَّة بأنَّها تبدأ من اللّه تَعالى، ولا تَنتهي إلى حدٍّ؛ لإبرازِ كمالِ العَجْزِ عن نُصرةِ المُعاقَب، والتَّقديرُ: (من عذاب اللّه أو عقابِه)، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ بالحَذف، يدلُّ عليه السِّياق، وغرضُهُ: المُبالغةُ في تصويرِ ذلك العَذاب.

وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ علَّةِ عدمِ المُلكيَّةِ للنُّصرةِ والإنقاذ؛ لأنَّ اللّه اسمٌ جامعٌ لكلِّ صفاتِ العَظَمةِ والجَلالِ والجمالِ، فكيفَ يقدِرُ أحدٌ على إنقاذِ مَن أراد اللّه تَعالى عقابَهُ وإيلامَه؟

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شَيۡـًٔاۖ﴾:

المُبالغَةُ في نَفْيِ النُّصرةِ والنَّفْعِ والإعانَةِ

جاء التَّعبيرُ عَنِ المفعولِ اسمًا عامًّا في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ لاشتمالِه على كلِّ ما يصدقُ عليه أنَّه شيءٌ مِنَ الأشياءِ، من جِهَةِ النُّصرةِ والإعانةِ والإنقاذِ والنَّفعِ أوِ الضَّررِ والإيذاءِ...الخ[1]؛ فلفظُ (شيء) اسمُ جنسٍ عامٌّ يصدُقُ على أفرادٍ كثيرةٍ، وقد وردَ منكَّرًا في سياقِ النَّفي، فيُفيدُ العمومَ والشُّمولَ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 779.

كذلك، وبذلك يتحقَّقُ العمومُ من حيثُ المعنى الأصليُّ معَ العمومِ من حيثُ التَّركيبُ ودلالتُهُ؛ لبيانِ سلبِ أيِّ نفعٍ يصلُ للمُعاقبِ ومنْعِ أيِّ عقوبةٍ تُحيطُ به.

تهديدُ المُفترين بكَمالِ علْمِ اللهِ تعالى بالخائِضين

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ لدفْعِ توهُّم اتِّصالِهِ بما قبلَهُ من قولِهِ: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾، فيُتوهَّمُ كونُه جملةً حاليَّةً، فَفَصَّلُ قوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ استئنافٌ نحويٌّ، يُرادُ به تهديدُهم لِما تكلّموا بهِ من نسبةِ السِّحر للآيات، وادّعاؤهم أنَّ الآياتِ مفتراةٌ، وأنَّ نسبتَها إلى اللّه تعالى زورٌ وكذبٌ، والجملةُ كذلك توطئةٌ لشهادةِ اللّه تَعالى بالصِّدق للنَّبيِّ ﷺ وبالافتراءِ لهم.

ويجوزُ أن يكون الفصلُ مرادًا به التَّعليلُ؛ فقد عُلِّلَ ما أفاده الكلامُ المتقدِّم من تحتُّم الانتقام مِنْهُم بقولهِ سبحانه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾[1]، فيكونُ بين الجملتين شبه كمالِ الاتِّصال؛ إذ الجملة الأولى تبعث في نفس المتلقّي سؤالًا، وهو: لِمَ يتحتَّمُ الانتقامُ منهم؟ فجاء الجواب: بأنَّه الأعلَمُ بما يَتحدَّثونَ به.

وجائزٌ كذلك أن يكونَ الفصلُ بين الجُمْلتين لكَمال الاتِّصال بينهما، فيكون قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ وذلك لأنَّ جملة: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي﴾ تشتمل على معنى أنَّ اللّه سبحانه لا يرضى أن يفتريَ أحدٌ عليه، وذلك يستلزمُ أنَّه سُبحانَهُ أعلمُ منهم بحالِ من يُخبِرُ عنه بكونه مرسلًا من عندِهِ[2].

وهذه الأوجه لا تنافِيَ بينَها، بل بعضُها يُثْري بعضًا، ويُقوِّيه.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 15.

كمالُ عِلْمِ الله تعالى يَقتضي عِلمَهُ بالصّادقِ مِن الكاذِب

دلالةُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾:

جاء التَّعبيرُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ بالجملة الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ وصفِ الأعلميَّةِ للّه تعالى على سبيلِ الدَّوام، واختيرَ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾ خبرًا للضَّميرِ العائدِ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّه أعلَمُ من كلِّ عليم، فيترتَّبُ على كمالِ علمِهِ أنَّه يعلمُ الصّادقَ في دَعواه مِنَ الكاذبِ في اتِّهامِه.

وجُمْلَةُ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ واردةٌ على سبيلِ الكنايةِ، والمرادُ تسجيلُ ذلك المعلومِ عليهم، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ مُعاقِبُهم عليه؛ إن لم يَتوبوا عنه.

تهديدُ المُشْركينَ بأشَدِّ أضْرُبِ العُقوبَةِ

دِلالةُ المتُعلِّق ﴿بِمَا﴾:

جيءَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِمَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ لبيانِ الَّذي يَعلمُهُ، فالباءُ لتعديةِ علمِهِ إلى المفعولِ به، واختيرَ الاسمُ الموصولُ (ما) لإبهامِهِ وعُمومِه، فيُفيدُ علمَهُ سبحانَهُ بكلِّ ما يفيضونَ فيه من كلامٍ واتِّهامٍ وإيلامٍ وخَدْشٍ للرِّسالةِ وصاحبِها ﷺ، فيكون في الجملة تحذيرٌ شديدٌ لهم عن أيِّ كلامٍ يُؤذي اللّهَ تعالى ورسولَهُ ﷺ، وأنَّهم مُعاقَبونَ عليه أشدَّ العقوبَةِ.

نشْرُ الاتِّهامات لِلصَّدِّ عنِ الآيات

براعةُ استعارةِ الفعلِ ﴿تُفِيضُونَ﴾:

استعارَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الإفاضةِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الإفاضةِ في الاتِّهامِ والحركةِ في نقلِ الكلامِ الشَّنيع؛ إذ أصلُ الإفاضةِ التَّحرُّكُ من مكانٍ إلى آخَرَ على سبيلِ الانتشارِ والتَّوسُّع كفيضِ الماء، يقالُ: اندَفعوا في الحديثِ، أي: خاضوا، قال الرّاغب: "ومنهُ استُعيرَ: أفاضوا في الحديث؛ إذا خاضوا فيه، وحديثٌ مُستفيضٌ: مُنتشِرٌ"[1]، فشُبِّه المُتوسِّعُ في الكلامِ

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 269.

النّاقلُ له من مكانٍ إلى آخرَ؛ بثًّا له في النُّفوسِ، وصدًّا عن السَّبيلِ بالمُتحرِّكِ المُنتشِرِ في المكانِ، فكان الفعلُ ﴿تُفِيضُونَ﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً.

واختيرَ فعلُ الإفاضةِ دونَ الخوضِ؛ لأنَّ الخوضَ يكونُ في المكانِ نفسِه، وفي الحديثِ الواحدِ نفسِه، ويكثُرُ فيه الخوضُ والجدالُ، بخلافِ الإفاضةِ الّتي تدلُّ على التَّوسُّعِ والانتشارِ والنَّشرِ له والإذاعةِ بِه.

دلالةُ الفعلِ ﴿تُفِيضُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انتشارُ أكاذيبِ الكفرةِ ومداومتُهم على تَكرارِها

جاءَ التَّعبيرِ بفعلِ الإفاضَةِ ﴿تُفِيضُونَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ لما يدلُّ عليه فعلُ الإفاضةِ من الانتشارِ والتَّوسُّعِ وعدمِ الوقوفِ عندَ حدٍّ، كما يفيضُ النَّهرُ بالماءِ، فيندفعُ في كلِّ الاتِّجاهات، ولا يَحسِرُهُ جدارٌ، ولا يقِفُ بوجهِهِ مانِعٌ، فقد كانت أحاديثُهم تمتدُّ إلى مفاصلَ كثيرةٍ ومُتنوِّعةٍ حتَّى فاضَت، وانتشرَت، واشتهرَت، على الألسنةِ وتناقَلَتْها الأفواه.

واختيرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿تُفِيضُونَ﴾؛ لإفادَةِ مَعْنى تجدُّدِ الحدثِ معَ استمرارِهِ؛ تصويرًا لحالِ حديثِهم واتِّهاماتِهم المُستمرَّةِ والمتكرِّرةِ للوَحْيِ والموحَى إليه.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفِ (في):

شدَّةُ إيغالِ المُشْرِكين في الاتِّهاماتِ الباطِلَةِ

حرفُ الجرِّ (في) من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ؛ إذ الإفاضةُ لا تكونُ في الحديثِ والكلامِ إلّا على سبيلِ التَّوسُّعِ والمجازِ، وذلك بأن شُبِّه الحديثُ بمكانٍ يَندفِعون فيه؛ لإفادَةِ شدَّةِ مُلابسةِ ذلك الكلامِ، حتَّى صارَ ظرْفًا تمكَّنوا داخلَهُ، واستقرّوا فيه.

تعيينُ مرجعِ ضميرِ ﴿فِيهِۚ﴾:

عادَ الضَّميرُ في الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِۚ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ إلى الاسمِ المَوصول (ما) المُرادِ به الكلامُ

عـمـومُ المَـرجِـع يَـقـتـضِي عـموم الرّاجع

والاتِّهامُ والافتراءُ على آياتِ اللّهِ ورسولِهِ الكريمِ ﷺ، ولمّا كان المرجِعُ عامًّا؛ كانَ الرّاجعُ عامًّا، كذلك كان مُفيدًا إفاضتَهم بأنواعٍ من الكلامِ والحديثِ الكاذبِ المُفتَرَى.

وأجازَ أبو حيّان عَوْدَ الضَّميرِ إلى (القرآن)، والمعنى: تَتَّهمونَهُ بالكذبِ والافتراءِ[1]، والأوَّلُ: أرجحُ وأظهَرُ.

دلالةُ فَصل قولِهِ تَعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ عمّا قبلَهُ:

شِدَّةُ التَّلازم بينَ العِلمِ والشَّهادَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِهِ بمنزلةِ النَّتيجةِ لما تقدَّمَه؛ إذ يلزمُ من علمِهِ المُحيطِ بما يتحدَّثونَ به، ويقولونَهُ، أنَّه وحدَهُ الكافي في الشَّهادة بالصِّدق والكذبِ بينَ المُتنازِعينَ؛ لأنَّ الأعلمَ هو الأكثرُ كفايةً عندَ الشَّهادة، قال الشِّهابُ: "وكانَ مُقتضَى الظّاهرِ اقترانَهُ بالفاءِ، فاستُؤنِفَ؛ لأنَّهُ في جوابِ سُؤالٍ مُقدَّر"[2]، فبين الجملتينِ شبهُ كمالِ الاتِّصال.

ويجوزُ أن يكون الفصلُ بينهما؛ لكمالِ الاتِّصال، وذلك لأنَّ قوله: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الجملةِ قبلَهُ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّ الإخبارَ بكونِهِ سُبحانَهُ أعلمَ منهم بحقيقة ما يُفيضون فيه يشتَمِلُ على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إليه سُبحانَهُ[3].

دِلالةُ الفعلِ ﴿كَفَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـتَّـعـريـض بحالِ المُشْرِكينَ وبـإنْـكـارِهـم الآياتِ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿كَفَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الاكتفاءِ باللّه تعالى وشهادتِهِ دونَ افتقارٍ إلى شهادةِ أحدٍ مِن خلقِهِ؛ تعريضًا بهم وبجُحودِهم وإنكارِهم للآياتِ البيِّنات؛ فالحاكمُ بينَ المُتحاوِرَين هو اللّهُ تعالى، وهو يَكفي، ويُغني في الشَّهادةِ لأحدِهما بالصِّدقِ والافتراء.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 434.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 27.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

وجاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ تلك الكفايةِ والتَّيقُّنِ بوقوعِها.

مَعنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾ ودلالتُها:

بيانُ كِفايَةِ شَهادَةِ اللهِ تَعالى

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ داخلةٌ على الضَّمير الذي هوَ في محلٍّ رفعٍ على الفاعليَّةِ[1]، وهو دالٌّ على التَّوكيدِ والتَّحقيقِ لفعلِ الكفايةِ وإسنادِها إلى اللّه تعالى بما يدفعُ الشُّكوكَ والأوهامَ والارتياب.

وجاء التَّعبيرُ عن اللّهِ تعالى بالضَّمير دونَ الاسم الظّاهر؛ ليعودَ على ما تقدَّمَ في: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾؛ إذ لو أظهرَ؛ لتوُهِّمَ إرادةُ التَّغايُرِ بين ما عُبِّرَ عنه بالضَّميرِ قبلُ، وبين المُظْهَرِ.

نكتةُ التَّمييز بلفظِ ﴿شَهِيدًۢا﴾:

شهادةُ اللهِ تَعالى لِلمحقِّ وشهادَتُه على المُبْطِلِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّمييزَ ﴿شَهِيدًۢا﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾؛ لأنَّ المقامَ يَقتضي الشَّهادةَ بينَ الطَّرفينِ المُتنازعَين، فهُم يتَّهمونَ الآياتِ بالسِّحرِ المُبين، والنَّبيَّ ﷺ باختلاقِ القرآن ونسبتِه إلى اللّه زورًا، والنَّبيُّ الكريمُ ﷺ يُكذِّبُهم، ويُعلِنُ عن صِدقِه، فاقتضى ذلك شاهدًا عليمًا يَشهَدُ لأحدِ الفريقينِ بالصِّدق أوِ الافتراءِ، ولذا كان المقامُ مُقتضِيًا الشَّهادةَ دونَ الحُكْمِ أوِ القَضاء، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: كفى به حاكِمًا أو قاضِيًا، ومال ابن عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالشَّهيدِ في الآيةِ الحاكمُ بما يعلمُهُ من حالِ المتخاصِمَين، بقرينَةِ قولِه قبلُ: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾، وذلك يقتضي حُكْمًا؛ إذ الشَّهادَةُ تكون لأحد المتنازِعَيْن لا بينَهُما[2].

والمعنيانِ المتقدِّمانِ لا تنافيَ بينَهُما؛ لأنَّ المقصودَ شهادَةُ اللّه تعالى بصدقِ النَّبيِّ ﷺ، وشهادَتُهُ بكذبِ المُشركينَ، وفي التَّعبيرِ

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 439.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

بـ ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ ضربٌ من ضروبِ الإنصافِ في الكلامِ في مقامِ المحاورَةِ.

نكتةُ تعدُّدِ الظُّروفِ: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾:

مِن طَرائقِ القُرآنِ الكريمِ في الجِدالِ الإنصافُ في الكلامِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ اختيارَ الظَّرفَينِ المُتعلِّقَينِ بـ ﴿كَفَىٰ﴾ أو ﴿شَهِيدَۢا﴾[1]، أو هُما متعلِّقانِ بهما مَعًا، ولم يَرِد في البيان القرآني: (كفى به شهيدًا بينَنا)؛ وذلك للدَّلالةِ على الافتراقِ بينَ الطَّرفينِ ووقوعِ أشدِّ الانفصالِ بينَهما وأتمِّه، وأنَّهما مختلفانِ متباينانِ في أدقِّ الأمورِ وتفاصيلِها، فلم يَشتركا في البينيَّة، والمعنى: أنَّه يشهَدُ لي بالصِّدقِ والبلاغِ، ويشهَدُ عليكم بالكذِب والجحودِ[2].

كما أفادَ العطفُ الدّالُّ على المُغايرةِ التَّسويةَ بينَ الفريقين أمامَ اللّه تعالى، وهذا ما يقتضيه أسلوبُ المُناظرةِ من مُجاراةِ الخَصْمِ والتَّسويةِ بينَهُ وبينَ صاحبِ الباطلِ إنصافًا في الكلامِ.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالةُ الخبرِ في: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا﴾:

تهديدُ الطّاعِنين في آياتِ اللهِ تَعالى

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا﴾ كفايةٌ عن وُقوعِ المُحاكَمةِ بينَ العبادِ يومَ القيامةِ؛ لأنَّ الشّاهدَ على ما تُكنُّهُ الصُّدور من صدقٍ وإخلاصٍ أو كذبٍ وتدليسٍ هو اللّهُ تعالى، ومن معاني الشَّهادة: الحُكمُ والقضاءُ بينَ المُتخاصِمين، ويكونُ الغرضُ من الإخبارِ بالجملةِ تَهديدَ المُفترينَ بوقوعِ المُحاكمةِ والقضاءِ يومَ الدِّين، ووعيدَهُم الشَّديدَ على خوضِهم في الطَّعنِ في الآياتِ[3].

مَعْنى (الواو) في ﴿وَهُوَ﴾ ودلالتُها:

الجمعُ بينَ التَّرهيبِ والتَّرغيب

الواوُ في ﴿وَهُوَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾، والجملةُ:

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 27.
(2) أنوار التنزيل، البيضاوي: 5/ 112.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 23، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 8.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ اعتراضيَّةٌ للدَّلالةِ على التَّهديدِ والزَّجْرِ، والغرضُ من العطفِ التَّشريكُ بينَ أعلميَّةِ اللّه تَعالى بما يتحدَّثونَ به مِن اتِّهامٍ وبينَ كونِهِ الغفورَ لَمن تابَ منهم، والرَّحيمَ بمَن خالفَ؛ إن تابَ، وإلى رُشْدِه ثابَ، والعطف بين الجملتين؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخبريَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه، ولِما بينَهُما من التَّناسُبِ المعنويِّ في الحديث عن الرَّبِّ ﷻ.

ويجوزُ أن تكون الواوُ للحالِ، والجملةُ بعدَها حاليَّة مِن: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾؛ تقييدًا لكفايةِ شهادتِه بحالِ المغفرةِ والرَّحمةِ بالطَّرفينِ المُتنازعَين.

بلاغةُ الجُملةِ الاسميَّة:

مِن حِلْمِه سُبْحانَهُ بالمُفْتَرِينَ تَرْكُ مُعاجَلَتِهِم بالعِقابِ

الجملةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ واردةٌ تذييلًا للآيةِ الكريمةِ؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ هذينِ الوصفينِ له تعالى، فهو الغفورُ للمُذنبينَ والرَّحيمُ بالمُخالفين.

وفي الخبرِ دلالةٌ على التَّحضيض لهُم على التَّوبةِ والرُّجوعِ عنِ التَّكذيب، وعدمِ التَّيئيسِ لهم بالعِقاب والتَّنكيل؛ لعلَّهم يَرتدِعون، وإليهِ تعالى يَرجِعون، ولذا ذكر أبو حيّان أنَّ الآيةَ وعدٌ لهم بالمغفرةِ والرَّحمةِ؛ إن هُم عدلوا عن الكُفْرِ إلى الإيمان، وإشعارٌ بحِلْمِه سُبحانَهُ عليهِم؛ إذ لم يعاجِلْهم بالعذابِ(1).

بلاغةُ اجتباء صفتي ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تعقيبُ الوعيدِ بالوَعْدِ دعوةٌ للتَّوبةِ والإنابَةِ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ وصْفَي ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مع أنَّ المقامَ للتَّهديدِ والوعيدِ والتَّخويف؛ للدَّلالةِ على كمالِ عفوِهِ وإحسانِهِ بالعبادِ، ولو كانوا مُخالفينَ مُفترين؛ إن هُم تابوا، وأقلَعوا؛ لأنَّ التَّخويفَ والتَّهديد ليس مقصودًا لذاتِه، بل غايتُهُ الحثُّ على العَوْدِ إلى حُكم اللّه الغفور

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 434.

الرَّحيم، والتَّوبةِ والإقلاعِ عن الافتراءِ المُبين، فجملةُ التَّذييلِ تعريضٌ بطلب الإقلاع عمّا هُم من الباطلِ[1].

وفي الجملةِ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ جاءَ رحمةً للعالمينَ مِن ربِّه سُبحانَهُ، وأنَّ ربَّهُ تعالى غفورٌ رحيمٌ، وأنَّ المشركين في معرِضِ المغفرة والرَّحمة؛ إن هُم طلبوا أسبابَها بالتَّوبةِ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليَة

قُدِّمَ وصفُ المغفرةِ على وصفِ الرَّحمةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المغفرةَ سببٌ لتحصيلِ الرَّحمة، فَهوَ من تقديمِ السَّببِ على المُسبَّب.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المغفرةَ تقتضي التَّوبَةَ من الذَّنبِ والإقلاعَ عنِ المعصيةِ، فيَستحِقُّ الغفرانَ أوَّلًا تخليةً لساحتِهِ من الذَّنب، والرَّحمةَ والإحسانَ ثانيًا تحليةً له بعدَ ذلك بالنِّعَمِ الوافرةِ والآلاءِ المُتظافرةِ.

والاسمانِ الجليلانِ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ واردانِ بزِنَةِ المبالغَةِ؛ للدَّلالَةِ على ثبوتِ الغُفران والرَّحمةِ له، وكمالِهِما فيه كمالًا لا مُنْتهى لَهُ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافـتراءُ أخـصُّ مـن الـكـذبِ مُطلقًا

الأصلُ في الافتراء: قَطْعُ الشَّيءِ على وجهِ الإفسادِ أو الإصلاح، وقد غلبَ استعمالُهُ في الإفساد، يُقال: فلانٌ يفري الفريَّ؛ إذا كان يأتي بالعجَبِ، كأنَّه يقطَعُ الشَّيءَ قطعًا عجبًا، وقد وردَ استعمالُهُ في البيانِ القرآنيِّ في الكذبِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 268.

وأمّا الكذِبُ؛ فهو الإخبارُ بما يخالِفُ الواقِعَ، ويَرِدُ وصفًا للمتكلِّم في نفسِه، ولذا يُقال في الرَّجُل الذي يقول: فعلتُ كذا، وهوَ لم يفعل ذلك: إنَّه كاذبٌ، ولا يُقال: هو مُفْتَرٍ[1].

فالكذبُ نقيضُ الصِّدْقِ، والافتراءُ: اختلاقُ الكذِبِ، فالافتراء على هذا أخصُّ مِنَ الكذبِ.

(1) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 154 - 159.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اختِصاصُ عِلْمِ الغَيْبِ باللهِ تَعالى

لمّا اتَّهم المشركونَ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ بافتراءِ القرآنِ ونسبَتِهِ إلى اللّه تعالى زورًا، وتضمَّن ذلك الاتِّهامُ تكذيبَ الرَّسولِ ﷺ في رِسالتِهِ؛ أمَرَه اللّه تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه كباقي الرُّسُل في الإتيانِ بالآياتِ، وليسَ أوَّلَ مَن يدَّعي ذلك، فلا يَكونُ مُفترِيًا على اللّهِ تعالى[1]، ولمّا تضمَّنَ اتِّهامُهم له بالافتراءِ أنَّه لا يعلَمُ ما يكونُ حالُه وحالُهم؛ أجابَهم أنَّه لا يعلمُ الغيبَ، وأنَّ وظيفتَهُ التَّبليغُ والإنذارُ والتَّعليم.

ومن أوجُهِ التَّناسُبِ بين الآيتينِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ بعد أن حكى طعْنَهم في القرآن الكريم؛ أمر رسولَهُ ﷺ أن يردَّ عليهم اقتراحاتِهم الغريبةَ العجيبةَ، وهي طلبُهم من النَّبيِّ ﷺ أن يأتيَ بآياتٍ حَسَبَ ما يشتهونَهُ، ويقترحونَهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِدْعًا﴾: (بدع) تدلُّ تصريفاتُه على معنَيين كُلِّيَّين، أحدهما: ابتداءُ شيءٍ وصُنْعُهُ لا عن مثالٍ سابقٍ، والآخر: انقطاعٌ وكَلالٌ، ومِن الأوَّلِ قولُكَ: أبدَعْتُ الشَّيءَ قولًا أو فعلًا؛ إذا ابتدأتَهُ لا عن مثالٍ سَبَقَ، ويُقال: فلان بِدْعٌ في هذا الأمر؛ إذا لم يُسبَقْ إليه، ومِن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: ما كُنْتُ أوَّلَ الرُّسلِ[3]، واللّهُ تَعالى بديعُ السَّموات والأرضِ، أي: ابتدَعَهُما، ولم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 24.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدع).

يَكونا قبلَ ذلك شيئًا يَتوهَّمُهما مُتوَهِّمٌ[1]، وكلُّ مَن أنشأ ما لم يُسبَق إليه؛ قيلَ لَهُ: أبدَعتَ، ولِهَذا قيلَ لِمَن خالفَ السُّنَّةَ: مُبْتَدِع؛ لأنَّهُ أحدثَ في الإسلام ما لم يسبِقْهُ إليه السَّلَفُ[2].

2) ﴿أَتَّبِعُ﴾: (تبع) تدلُّ اشتقاقاتُه على معنى التُّلوِّ والقَفْو، تقولُ: تَبِعْتُ فلانًا؛ إذا تلوتَه، واقتَفَيْتَه، وأتبَعْتُه؛ إذ لحِقْتَهُ[3]، والتّابع: التّالي، ومنه التَّتبُّعُ والمُتابعةُ والاتِّباع، ويتبَعُه: يتلوهُ، والتَّتَبُّعُ: فعلُكَ شيئًا بعدَ شيءٍ[4]، ويُقال: تَبِعْتُ الرَّجلَ، واتَّبعتُهُ بِمَعنًى[5]، وفرَّقَ بينَهُما بعضُ أهلِ العربيَّةِ بأنَّ قولَ القائل: تَبِعْتُ الرَّجلَ؛ إذا مَشِيَ مَعَه، وأمّا قولُ القائلِ: اتَّبعتُهُ؛ إذا مَشِيَ خَلفَهُ؛ ليَلحَقَهُ[6]، والمرادُ به في الآية: الاقتداءُ والعمَلُ بموجِبِ الآياتِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

شأنُ الرُّسُلِ الإنذار لا العِلْمُ بالأقدار

يُبيِّنُ اللّه تعالى آمِرًا نبيَّه ﷺ أن يقولَ للمُشْرِكين: إنَّه ليس بأوَّل رسُلِ اللّه تعالى إلى خَلْقِه، بل هو واحدٌ من سِلْسِلَة الرُّسل الذين أرسلَهُم اللّهُ تَعالى إلى عِباده؛ ليُخلِصوا العبادَةَ للّهِ وحْدَهُ، ويوَضِّح النَّبيُّ ﷺ أنَّه لا يعلَم ماذا سيُفعَل به، ولا بِمَن كفرَ من قومه في الدُّنيا؟ فهو بشرٌ لا يملك لنَفْسِه ولا للآخرين نفعًا ولا ضرًّا، وإنَّما يَتَّبع ما يوحى إليه مِن رَبِّه، وما هو إلّا نذيرٌ واضح البَيان، يُحذِّر النّاس من عذابِ اللّهِ تَعالى، ويَسْعى في إنقاذِهم بالحِكمَة والمَوعِظَة الحَسَنَة[7].

---

(1) الخليل، العين: (بدع).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (بدع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ هذهِ الآيةِ عمّا قبلَها:

التَّرقّي في الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشْرِكينَ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك لأنَّ اتِّهامهم النَّبيَّ ﷺ يقتضي تكذيبَهُم كوَنه رسولًا، أو أنَّ اللّه تعالى قد بعثَهُ إلى العبادِ، وذلك يورِثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا، وهو: فما الرَّدُّ على هذه التُّهمةِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: لستُ بأوَّلِ رسولٍ منَ البَشَر، بل أرسلَ اللّهُ تَعالى الرُّسُلَ، وقد كانوا مِن البشَرِ، فلِمَ تُنكرونَ رِسالتي؛ لأنّي منَ البشرِ، وتَستعظمونَ ذلك؟[1].

وتُرِكَ عطف ﴿قُلۡ﴾ في هذه الآيَةِ على ﴿قُلۡ﴾ الأولى في قولهِ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾؛ للدِّلالة على استقلالِ كلٍّ مِنَ القولينِ، وكونِ كلٍّ مِن البرهانَينِ محطَّ الاستقلالِ والتَّفرُّدِ بالإثباتِ لصِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وفي تَرْكِ العطفِ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ التَّرقّي في إيرادِ الرُّدودِ عليهم[2].

نكتةُ الأمرِ بفِعْلِ القول:

اتِّباعُ النَّبيِّ ﷺ لما يوحى إليهِ من ربِّهِ تَعالى

صُدِّرَت الآية الكريم بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾، فقال سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يتكلَّم في الشَّرعيّات من قِبَل نفسِه، بل هو مأمورٌ مِنَ اللّهِ تعالى، وهذا أنسبُ لسياقِ الآيةِ الَّتي فيها إثباتُ كونِه رسولًا يتَّبع ما يوحى إليه مِن ربِّه سُبحانَهُ.

نكتةُ حذفِ (لهُم) بعدَ فعلِ القَوْلِ:

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مُتعلِّقَ فعلِ القَوْلِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا﴾؛ إيجازًا وعنايَةً بالأهمِّ، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: (قُلْ لهم)؛

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 241.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 16.

تَعْميمُ الخطابِ أبلَغُ في التَّأثير وأوسَعُ في المَعْنى

لأنَّ محطَّ الاهتمامِ على المَقولِ دونَ المَقولِ لهم، وليَعُمَّ الخطابُ النّاسَ جميعًا، فيكون الحذفُ أبلغَ في التَّأثير وأوسعَ في الدَّلالَةِ.

ولو كانَ الاهتمامُ بالمقولِ لهم؛ فإنَّ عمليَّة القولِ ذاتَها تحظى بالاهتمامِ حينئذٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: 63].

غرضُ النَّفيِ بالأداةِ ﴿مَا﴾:

توكيدُ الخبَرِ للمُبالغَةِ في إبطالِ التُّهم

جاء النَّفي في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بـ ﴿مَا﴾؛ لِما تدلُّ عليه ﴿مَا﴾ من قوَّةٍ في النَّفْيِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ﴿مَا﴾ تفيدُ التَّوكيد، ولذا تقعُ جوابًا للقَسم، كقولهم: واللّهِ ما زيدٌ بحاضرٍ، وقَد نصَّ سيبويهِ أنَّ قولهم: "ما فعل" نفيٌ لقولهم: "لقَد فعل"(1)، ممّا يدلُّ على أنَّ فيها تقويةً وتوكيدًا.

والنَّفيُ بها أقوى من التَّوكيد بـ (ليس)؛ لأنَّ العربَ استَعْمَلَت (ليس) استعمالَ الأفعالِ، وعلى هذا فالجملةُ المَبْدوءَة بها جملةٌ فعليَّة، والجملةُ المَنْفيَّة بـ (ما) اسميَّة، والجملة الاسميَّة أثْبَتُ مِنَ الجُملة الفعليَّة(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كُنتُ﴾:

نـفـيُ الأعـمِّ مُـسـتـلـزِمٌ نفيَ الأخَصِّ

عُبِّر بفعلِ الكونِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الخبرِ عن المُتكلِّم على سبيلِ الثُّبوتِ والتَّمكُّنِ؛ إذ نفيُ الخبرِ عن المبتدأ المصدَّرِ بفعلِ الكونِ والإيجاد أعمقُ دلالةً على النَّفي وأكثرُ تحقيقًا لمقصودِ النَّفي؛ لأنَّ نفي خصوصِ الخبر بواسطةِ نفي الوجود طريقةٌ برهانيَّةٌ؛ إذ نفيُ الأعمِّ مستلزمٌ نفيَ الأخصِّ.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿بِدۡعٗا﴾:

تَـفْـنـيـدُ تُـهْـمَـةِ الافتِراءِ

عبَّر النَّظمُ عن الخبرِ المَنفيِّ عن اسمِ (كانَ) بقولِه:

---

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 252 - 255.

﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا﴾، وهو صفةٌ مُشبَّهةٌ، ونظيرُهُ: الخِفُّ، بمعنى الخَفيفِ[1]، فلفظ ﴿بِدۡعٗا﴾ دالٌّ على الثُّبوتِ والمُلازمةِ لموصوفِه، والمرادُ به الأوَّليَّةُ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، ومِنه: البِدعُ والبديعُ مِنَ الأشياء، وهو ما لَم يُرَ نظيرُهُ[2]، وهو محطُّ نفيٍ لازمِ قولِهم السّابق: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾؛ إذ الافتراءُ في نبوَّتِهِ نافٍ كونَهُ رَسولًا، ونفيُ كونِهِ كذلك يستلزمُ عدمَ وُجودِ رُسُلٍ قبلَهُ؛ إذ اتِّهامُهُ بالافتراء يوجِبُ اتِّهامَ جميعِ الرُّسلِ بذلك، فبيَّنَ نفيُ كونِهِ بِدۡعًا من الرُّسُلِ وجودَ الرُّسُلِ السّابقين، ووجودُهُم يَستلزِمُ إمكانيَّةَ بعْثِ الأنبياء والرُّسُل، فلِمَ يُكذِّبونَهُ، ويَعتقدونَ أنَّه يَفتري نبوَّتَهُ على اللّٰه تعالى؟ والمعنى: لستُ أوَّلَ رسولٍ؛ حتى تُنۡكِروا نبوَّتي[3].

ويحتملُ أن يكون هذا جوابًا دالًّا على اتِّهامٍ مُضمَرٍ، وهو أنَّهم لم يَسمَعوا بِهَذا في آبائِهم الأوَّلين؛ فأجابَهُم بأنَّ الرُّسُلَ قبلَه قد توالَتْ، والاصطفاءاتِ قد تعدَّدتْ.

وذهبَ الإيجي إلى أنَّ المرادَ بـ(البِدۡعِ) الأمرُ بما لم تأمُر به الأنبياءُ، منَ التَّوحيدِ ونَبۡذِ الشِّرك والأوثانِ[4]، فالبدعُ على جميعِ ما تقدَّم إمّا أنۡ يتعلَّقَ برسالتِهِ ﷺ وإمّا أن يتعلَّق بأوامرِهِ.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

بيانُ جِنۡسِ البِدۡعِيَّةِ المَنۡفيَّة

﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على البيانِ؛ لأنَّ نفيَ البِدعيَّةِ فيه ضربٌ مِنۡ ضروبِ الإبهام، فجاء بيانُهُ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.
(2) العُلَيميّ، فتح الرحمن: 6/ 283.
(3) الواحدي، الوجيز، ص: 994.
(4) الإيجي، جامع البيان: 4/ 123.

مَـدْحُ المُرْسَـلينَ والـتَّـنـويـهُ بِمَكانَتِهِم

النَّـبـيُّ أعـمُّ من الرُّسُلِ

اختِصاصُ عِلْمِ الـغَـيْـبِ باللهِ تَعالى

دلالة (الـ) في ﴿ٱلرُّسُلِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ دالَّةٌ على الجنسِ والحقيقة؛ إذِ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لم يكُنْ أوَّلَ مَن قامَتْ به هذه الحقيقةُ الكاملةُ، بل اتَّصفَ بها قبلَهُ أناسٌ كثيرونَ جاؤوا إلى أقوامِهِم مُرسَلين، وتعريفُ الحقيقةِ يرادُ منه إبرازُ صنفٍ من البَشَر اتَّصفوا باصطفاءِ اللّهِ تعالى لهُم، فكان في التَّعريفِ مدحٌ لهذا الصَّنف المُجْتبى على النّاس بمُهمَّةِ التَّبليغ والإعلامِ عن مُرادِ اللّه تعالى مِن خَلْقِه.

والجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ في محلِّ نصبٍ صفةٌ للخبَرِ ﴿بِدۡعٗا﴾، وهو مفيدٌ تخصيصَ البدعيَّةِ المنفيَّة بحقيقةِ الرِّسالة، وذلك لا يَنفي كونَه سيِّدَهُم وأعلاهُم عندَ ربِّه تَعالى مَنزلةً.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ على (النَّبيِّين):

آثرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ (الرُّسُل) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ دونَ لفظِ (الأنبياءِ أو النَّبيِّين)؛ لأنَّ الرِّسالةَ أشرَفُ من النُّبوَّةِ وأخصُّ؛ إذ كلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا؛ فلمّا لم يكُن بِدْعًا من الرُّسُل؛ فلم يكن بِدعًا منَ الأنبياءِ قطعًا.

مناسبةُ الوصلِ في: ﴿وَمَآ أَدۡرِي﴾:

وصلَ النَّظمُ القرآنيُّ نفيَ الدِّرايةِ بما يَحصُلُ لهُ ولهُم بنفي البدعيَّةِ عن رسالتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ تثبيتًا لصدقِ نبوَّتِه ومبالغةً في نفي اتِّهامِهم لهُ بالافتراءِ لنبوَّته؛ إذ قد يُفهَمُ مِن كونِهِ نبيًّا ورَسولًا أنَّه يَدري الغيبَ، ويعلمُ المُستقبلَ، ولمّا نفَى أنَّه يعلمُ ذلك؛ قالوا: إنَّه مُفترٍ، فكانَ العطفُ بيانًا لذلك اللّازمِ الغريب، ونفيًا لهُ وإثباتًا لصدقِهِ بأنَّه رسولٌ أسوةً ببقيَّةِ الرُّسُل لا يعلمونَ الغيبَ، ولا يُحيطونَ بالأمورِ المستقبلَة.

وقول اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تتميمٌ لقول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو بمنزلةِ الاعتراضِ، وذلك لأنَّ المُشْرِكينَ كانوا يسألون النَّبيَّ ﷺ عن المُغيَّباتِ تهكُّمًا واستهزاءً[1].

نكتةُ النَّفي بالأداةِ (ما):

التَّأكيدُ عَلى نَفْي عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بالغَيْبِ

جاء النَّفي في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ بـ (ما)؛ لِما تدلُّ عليه (ما) من قوَّةِ النَّفْيِ، والنَّفيُ بها آكَدُ من النَّفي بـ (ليس)[2].

فكان في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تأكيدٌ على نفيِ درايتِه بالمغيَّباتِ، وذلك لا يَستلزِمُ عدمَ درايةِ غيرِه بمآلِه ومآلِهم، وهو اللّه تعالى.

سرُّ استعمالِ ﴿أَدۡرِي﴾ مادَّةً وصيغةً:

نفيُ الإحاطَةِ بالمَعلومِ لا يَقْتَضي نفيَ أصلِ العِلْمِ

عُبِّر بفعل الدِّرايةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ لما تدلُّ عليه الدِّرايةُ من الإحاطة بالمعلوم مِن جميع جهاتِه[3]، فكان في الآيةِ نفيُ الإحاطةِ لا بمطلق العِلْم؛ إذ مِنَ المعلوم أنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلَمُ أنَّ اللّهَ تَعالى يُثيب الطّائعَ، ويعاقِبُ المسيءَ من حيث الجملةُ، ويعلَمُ ﷺ أنَّ اللّه سُبحانَهُ أعطاهُ الدَّرجاتِ العُلا من الجنَّةِ، كما أفادَ نفيُ الفعلِ المضارعِ الدَّالَّةَ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لتلك الدِّرايةِ، وهو استمرارٌ للنَّفي لا نفي للاستمرارِ.

دلالة ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا يُفۡعَلُ﴾:

تَعَدُّد الدَّلالات إثْراءٌ للمَعاني القُرآنيَّة

﴿مَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ استفهاميَّةً في محلِّ رفعٍ، أو موصوليَّة في موضعِ نصبٍ[4]، فإن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 17.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 252 - 255.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 92.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 298.

حُمِلَت على الاستفهام؛ يكونُ المعنى: ما أدري جوابَ هذا السُّؤال، فيكونُ النَّفيُ مُتسلِّطًا على محذوفٍ؛ لأنَّه يعلمُ السُّؤالَ لكنَّه لا يَدري الجوابَ، فيكون الجوابُ مَجهولًا، وحينئذٍ يكونُ هؤلاءِ المكذِّبون قد صدرَ منهم سؤالٌ مفادُهُ: ما يفعلُ بكَ وبنا؟ فأجابَ بأنَّه لا يَدري جوابَ ذلكَ، بل يتوقَّفُ علمُهُ على إخبارٍ من اللّه تعالى، وإنْ حُملت ﴿مَا﴾ على كونِها اسمًا موصولًا؛ فإنَّ المعنى: أنَّه لا يَدري الأمرَ الَّذي يُفعَلُ به ولا بهم، وهي مفيدةٌ العُمومَ، فإنَّ المَعنى: أنَّه لا يَدري عمومَ ذلك كلَّه، وهو لا يَنفي أنَّه يعلمُ بعضَه بتعليم اللّه تعالى وإطّلاعِه على مآلِ الفريقينِ، وذهبَ الهرريُّ إلى أنَّ حمْلَ ﴿مَا﴾ على الاستفهاميَّةِ أنسَبُ لمقامِ التَّبرّي من الدِّرايةِ(1).

بلاغةُ استعمالِ ﴿يُفۡعَلُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إطْلاعُ الله تَعالى نبيّه ﷺ على أحوالِ الآخِرَة

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يُفۡعَلُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ لأنَّه أعمُّ الأفعالِ معنًى ودلالةً؛ إذ كلُّ فعلٍ خاصٍّ يصحُّ أن يقال عليهِ: إنَّه فعلٌ، سواءٌ كانَ إدخالًا للجنَّة أم إنقاذًا منَ النّار، أم رِزقًا أم رحمةً...الخ، ومِنهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ [المؤمنون: 4]، فكلُّ فعلٍ متروكٌ للإرادةِ الإلهيَّة يفعلُ ما يشاء.

والفعل المذكور في الآيةِ إن أُريدَ به خصوصُ أحوالِ الدُّنيا؛ فإنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ لم يُبعَثْ للإخبار بذلك، وإنْ كان لفعلِ الآخرةِ إدخالٌ في الجنانِ أو في النِّيران؛ فإنَّ ذلك يَعلَمُهُ عن طريقِ الوَحيِ، فيُبشِّرُ المؤمنينَ، ويُخوِّفُ الكافرينَ.

وجوَّز بعضُ أهل العلم أن يكون النَّفيُ للدِّراية المفصَّلة، ومالَ أبو السُّعود إلى أنَّ المقصودَ بـ ﴿مَا﴾ عبارةٌ عمّا ليس علمُهُ من وظائف

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 25.

النُّبوَّةِ، فيدخل في ذلك المنفيِّ الحوادثُ الدُّنيوية دون ما سيقَعُ في الآخرةِ، فإنَّ العلمَ بذلكَ من وظائفِ النُّبوَّةِ، وقد جاء الوحيُ بتفاصيلِ ما يُفعلُ بأهل الإيمان وأهل الكُفْرِ(1).

نكتةُ بناءِ ﴿يُفۡعَلُ﴾ للمفعول:

تخويفُ العبادِ وحثُّهم على الاستِعْدادِ بما يَدفَعُ المَخاوِفَ

بُني الفعل ﴿يُفۡعَلُ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لأنَّ العنايةَ بِالفعلِ؛ إذ الفاعلُ معلومٌ من السِّياق، وهو اللّه تعالى.

وفي بناء الفعل للمفعولِ تخويفٌ لكلِّ النّاس مُؤمِنِهم وكافرهم بأنَّهم محلُّ خطر، وعليهم الاستعدادُ بما يدفعُ ذلكَ مِن عمَلٍ صالحٍ.

وصيغَ بالفِعْلِ مضارعًا؛ للتَّنبيه على أنَّ المرادَ الاستقبالُ، والمعنى: ما يَفعَلُ اللّهُ تعالى بي وبِكُم فِيما يستقبلُ مِنَ الزَّمن(2).

معنى (الباء) ودِلالتُها في قولِه: ﴿بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾:

سُقوطُ الفعل على الفاعل أشدُّ تأثيرًا

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على وُقوعِ تأثيرٍ من الفاعلِ على المفعولِ به، وذلك التَّأثيرُ يصلُ أثرُهُ إليه، ويقعُ تحتَ طائلتِه، بخلافِ (فعلت لك)؛ فإنَّ التَّأثير يقعُ على المفعولِ، وتكونُ فائدتُه له، ولذا عُدِّيَ في الآيةِ بالباء؛ للدَّلالةِ على سقوطِ تأثيرٍ على المفعولِ به نفسِه.

دلالةُ ذِكرِ الضَّميرين ﴿بِي﴾ و﴿بِكُمۡۖ﴾ دونَ (بنا):

الإنصافُ في المُحاورَةِ والمُجادلَةِ أدعى لالانقيادِ إلى الحقِّ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ ضميرَي المُتكلِّم والمُخاطَبِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ دون (بنا)؛ للدَّلالةِ على التَّمييز بينَ الفريقين، وأنَّهما غير متساويَين، وفي ذلك إشارةٌ إلى التَّسويةِ بينَ الخصمينِ في الكلامِ، وذلك شرطٌ للإقناعِ والحُكمِ العادِلِ وصولًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 79.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 309.

إلى المقصودِ، فيكون في الآيةِ إنصافٌ في الكلام، وذُكِرَ النَّبيُّ ﷺ بضميرِ المتكلِّم دونَ أتباعِه؛ لكونِهِ محلَّ الاتِّهام مِنَ المُكذِّبينَ.

نُكتةُ ذكر حرف النَّفي (لا):

توكيدُ الكلامِ من مقاصِدِ الإفهام

جاء التَّعبيرُ بِحرفِ النَّفي (لا) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على توكيدِ النَّفي المعلوم ضِمْنًا من الكلام؛ إذ فُهِمَ من سَلْبِ عدمِ الدِّراية عمّا يُفعَلُ به ﷺ نفيٌ لفعلِه، فسَوَّغَ ذاك عطْفَ النَّفي عليهِ[1].

دلالةُ فصلِ جُملةِ: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾:

تأكيدُ اتِّباع النَّبيِّ ﷺ للوَحي

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينَهُما من شبه كمال الاتِّصالِ، وهو المُسمّى: الاستئنافَ البيانيَّ[2]، فإنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ يبعث في نفس المتلقّي سؤالًا حاصِلُهُ: إنَّك إن كنتَ غيرَ مُحيطٍ بتفاصيلِ المآلاتِ الأُخرَوِيَّة، فَلِمَ تُخبرُ بأنَّ المُتَّبِعينَ لك في الجنَّة، والمُكذِّبينَ لك في النّار؟ فأبلغَهم بأنَّه يُتابِعُ ما يَأتيهِ مِن وحي، أو أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ مقتضيًا أنَّه لا يعلم الغَيْبَ، وذلك يستلزِمُ - بحسب زَعْمِهم - أنَّه ليس رسولًا، فكان السُّؤالُ: كيف تدَّعي الرِّسالة، وأنت لا تعلمُ ذلك؟ فجاء الجوابُ بأنَّه يَتَّبِعُ ما أوحِيَ إليه من التَّبليغ بالغَيبِ أو غيرِه.

ويجوزُ أن يكون قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لكونِه بمنزلةِ التَّأكيدِ لما قبلَهُ، فيكون الفصلُ حينئذٍ لكمال الاتِّصالِ[3]؛ إذ قَصْرُ حالِهِ على اتِّباعِ ما يوحى إليهِ توكيدٌ؛ لكونِه لا يعلَمُ ما يُفعَلُ به ﷺ ولا بِهِم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 17.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 26.

نَوْعُ ﴿إِنْ﴾ ووظيفَتُها:

اختِلافُ جِنْسِ المَنفِيِّ أوجَبَ اختِلافًا في طريقِ النَّفْيِ

﴿إِنْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ حرفٌ دالٌّ على النَّفي، والمعنى: ما أَتَّبِعُ إلّا ما يوحى إليَّ، وعُدِلَ عَن النَّفْيِ بـ (ما) إلى النَّفْيِ بـ ﴿إِنْ﴾؛ لاختلافِ المنفيِّ بها؛ إذ تلك المنفيّاتُ كانت لدفع وصفي البِدْعِيَّة والدِّرايَة، وهذه لإثباتِ الاتِّباعِ للوَحْي، فيتحقَّقُ التَّناسُبُ في اللَّفْظِ والمَعْنى معًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بِفعلِ الاتِّباعِ دونَ الطّاعَةِ:

الاتِّباعُ اقتداءٌ تامٌّ وعدمُ خروجٍ عنِ النِّظامِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ فِعلَ الاتِّباعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دونَ فعلِ الطّاعةِ مثلًا؛ لأنَّ الاتِّباعَ أعلى من طاعةِ الأمر؛ إذِ الاتِّباعُ جريانٌ على النِّظام والمَنهجِ دونَ خُروجٍ عنه، بخلافِ الطّاعة التي قد تقترنُ بالخروجِ أحيانًا، كما أفاد التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ استمرارَ هذا الاتِّباعِ وتجدُّدِهِ بتجدُّدِ الموحَى بِهِ.

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿أَتَّبِعُ﴾:

الخيرُ في الاتِّباعِ، والشَّرُّ في الابتداعِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ طباقٌ معَ قولِهِ قبلُ: ﴿بِدۡعًا﴾؛ إذ البِدعُ عدمُ المُتابعة، والإحداثُ في الشَّرْعِ بما لم يأمر به الأنبياءُ السّابقون، والاتِّباعُ السَّيرُ وراءَ نِظامٍ سابقٍ، وبينَ الابتداعِ والاتِّباعِ طباقٌ مقصودٌ يفيدُ إشارةً إلى ما ينبغي أن يكونَ عليهِ حالُ المؤمنين مع الشَّرعِ الحكيم بالاتِّباعِ دونَ الابتداعِ في الدِّين.

نوعُ الاستثناء ودلالتُهُ:

حَصْرُ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ في الوَحْيِ

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ الاستثناءِ - ﴿إِنْ﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ - في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وهو استثناءٌ مفرَّغ، يُفيدُ وقوعَ ما بعدَ ﴿إِلَّا﴾ مَعمولًا لما قبلَها، ويكونُ التَّقدير: (أتّبِعُ ما يوحى إليَّ)، ولكن على وجهِ التَّوكيدِ؛ إذ المرادُ: لا أَتَّبِعُ شيئًا من الأشياءِ، وشريعةً منَ الشَّرائع، إلّا الشريعةَ الّتي تنزلُ عليَّ، فحُذِفَ المُستثنى منه؛ للدَّلالة على عُمومِ المنفيِّ المُستثنى منه؛ لقصدِ المبالغةِ.

بلاغةُ القَصْرِ في: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا﴾:

شأنُ المُصطَفينَ التَّبليغُ عن ربِّ العالمينَ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ أسلوبَ القصرِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على حصْرِ أفعالِهِ ﷺ على اتِّباعِ الوَحْيِ، لا قصرِ اتِّباعِهِ على الوَحْيِ، كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ[1]، فليسَ شأنُه في التَّبليغِ عن ربِّهِ إلّا بما يوحى إليه ممّا فيه مصالحُ العبادِ ومَنافِعُهُم، فما بالُكُم تكذِّبوني فيما لم أُطلِعْكُم عليه من أحوالِكم الدُّنيويَّة وتفاصيلِها الَّتي لم ينزلْ فيها بلاغٌ وأمرٌ بإبلاغِها، وإنَّما بلَّغتكُم بمآلِ المؤمنينَ ومآلِ المُكذِّبين لاتِّباعي ما يوحى إليَّ من تبليغِكم التَّرغيبَ والتَّرهيبَ.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالِها:

بيانُ عُمومِ الاتِّباعِ للوَحْيِ المُنزَّلِ

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ موصولٌ اسميٌّ، والتَّقدير: إن أتَّبعُ إلّا الذي يوحى إليَّ، ويجوزُ أن تكون موصولًا حرفيًّا، وهي التي تُسْبَك مع ما بعدَها بمصدرٍ، والتَّقدير: إن أتَّبعُ إلّا الموحَى بهِ إليَّ، وعلى كلا الوَجْهَين فإنَّ فيه دلالةً على العمومِ؛ إذ الموصولُ يدلُّ على ذلكَ، والمعنى: أنَّه ﷺ متَّبعٌ لجميعِ ما أوحاه اللّهُ تعالى إليه، لا يخرج عن شيءٍ من الوحي قيدَ أنملةٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾:

تَصْويرُ المَعاني في قالَبِ المَحْسوساتِ أعْلَقُ بالذِّهْنِ

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ الإيحاءَ الواردَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ استعارةً مكنيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّه الإيحاءُ بمَن تتأتَّى مُتابعتُهُ والسَّيرُ على خُطاه، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وأُبقِيَ من خواصِّهِ الاتِّباعُ؛ إخراجًا للمعنويّاتِ في صورةِ الحسِّيّات؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنِ وأسرعَ في الفَهْمِ.

نكتةُ ذكرِ الإيحاءِ دونَ الإنزالِ:

جاء التَّعبيرُ بفعلِ (الإيحاء) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 26.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دونَ فعلِ الإنزال؛ لكونِ لفظِ الاتِّباعِ شامِلًا للمُنزَلِ عليهِ والمُلهَمِ إيّاه ومِن وراءِ حِجاب، فيكونُ أكثرَ دلالةً على عُمقِ الاتِّباعِ له لشمولِهِ جميعَ صورِ الوَحْيِ وأحوالِهِ المتعدِّدة.

شُمولُ الاتِّباعِ جميعَ صوَرِ الوَحْيِ

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ المُضارعِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الاتِّباعِ المستمرِّ للوحيِ بتجدُّدِ الإيحاءِ إليهِ وتتابُعِه عليه.

تجدُّدُ الاتِّباعِ بتجدُّدِ الوحْيِ

كما أفادَ بناءُ الفعل للمفعولِ الاهتمامَ بِالوَحْيِ وفعلِه؛ لأنَّه مَقصَدُ الخطابِ بالذّات، كما أفادَ هذا البناءُ أنَّ اتِّباعَ الوحيِ يكونُ اتِّباعًا للّهِ تَعالى وأوامرِهِ في الحقيقة؛ لأنَّه مطلوبُهُ ومُرادُهُ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ (إلى):

حرفُ الجرِّ (إلى) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دالٌّ على الانتهاءِ، والمرادُ بيانُ انتهاءِ الإيحاءِ إلى النَّبيِّ ﷺ من غير بيانٍ لمُبْتَدَئِه؛ لأنَّه معلومُ المصدرِ والمَنبع.

مَصْدَرُ الوحيِ ومَبْدَؤهُ مَعْلومٌ، وهو اللهُ تَعالى

دلالةُ الخبرِ بالجُملةِ الفعليَّة: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ الفعليَّة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على حدوثِ ذلك الاتِّباعِ وتجدُّدِه بتجدُّدِ الإيحاءِ إليه، والغرضُ من الإخبارِ النَّظرُ إلى الرَّدِّ على ما استلزمَهُ ادِّعاؤُهم افتراءَه النُّبوَّةَ واختلاقَهُ لها، بأنَّه ليس بِدْعًا من الرُّسُل، ولم يكن أوَّلَ مَن أُرسِلَ حتى يكونَ مُفتريًا لها، ولم يأمُر بما يُخالفُ النَّبيِّينَ حتى يكون مُبتدِعًا ومخالِفًا ومُفتريًا، بل هو مُتابِعٌ لما يوحَى إليه، شأنُهُ في ذلك شأنُ سائرِ النَّبيِّين والمُرسَلينَ المُتابعينَ لما يوحَى إليهم.

ردُّ الاتِّهامِ بما يُناسِبُ المَقام

معنى (الواو) ودلالتُها في قولِه: ﴿وَمَآ﴾:

الواو في ﴿وَمَآ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

بيانُ وظائِفِ النَّبيِّ ﷺ

عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتانِ مُشْتَرِكَتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما مناسبةٌ في اللَّفظ؛ لاتِّحاد الجملتين في صياغةِ أسلوب القصرِ بطريقِ النَّفي والاستثناء، وبين الجملتين تناسُبٌ في المعنى، وذلك أنَّه بعد تقرير اتِّباع النَّبيِّ ﷺ لما يوحى إليه؛ بيَّن أنَّ وظيفتَهُ الإنذارُ الظّاهرُ الواضحُ دونَ الإخبارِ عمّا في الغَيب ممّا كانوا يقترحونَ إجابتَهُ لهُم.

ويجوزُ أن تكون جملةُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ لأنَّه الغرضُ الذي سيقَ الكلامُ لَهُ، بخلافِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾[1]، فيكون ما بينَهُما اعتراضًا.

دلالةُ الإخبارِ بالجُملةِ الاسميَّة:

نَفيُ العِلْمِ بالغَيْب وإثْباتُ النِّذارة

الجملةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وهي دالَّةٌ على ثبوتِ حكمِ الخبر للمبتدأ، ودوام وصفِ النِّذارة له ﷺ، والغرضُ من الخبرِ الرَّدُّ على ما توهَّموهُ من معرفةِ النُّبوَّة للغيب، فهو ناظرٌ لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾.

وفي الآيةِ لفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ؛ إذ إثباتُ الاتِّباعِ مناسِبٌ لنَفْي بدعيَّته، وإثباتُ النِّذارةِ مُناسِبٌ لنفيِ إحاطَتِهِ بأحوالِ المكلَّفينَ، فيَعُمُّهم بالتَّخويف.

بلاغةُ القصرِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾:

قصْرُ الرَّسولِ ﷺ على الإنذار مِن عاقبةِ التَّكذيبِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقد جاء بطريق النَّفي والاستثناءِ، وهو أقوى طُرُقِ القصْرِ، وهذا القصر من قصرِ الموصوفِ على الصِّفة قصرَ قلبٍ إضافيًّا[2]؛ ليكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.

أبلغَ في الرَّدِّ عليهم في زَعْمِهم أنَّ النُّبوَّةَ تقتضي عِلْمَ الغيبِ ومعرفةَ المُستقبل؛ مُثبتًا لهم أنَّه لا يعلمُ مِنَ الغيب إلّا ما أخبرَهُ الوحيُ به، وأنَّ وظيفتَهُ الإنذارُ من عاقبةِ التَّكذيبِ وعدمِ الإيمانِ به.

توجيهُ تخصيصِ النِّذارةِ بالذِّكر:

الرَّدُّ على المُكذِّبينَ مُقتضٍ الاقتصارَ على النِّذارةِ

اقتصَرَ النَّظمُ على تحديدِ وظيفةِ النَّبيِّ ﷺ بالإنذارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ دونَ التَّبشير؛ لأنَّ السِّياقَ سياقُ إنكارٍ، فقد اتُّهِم بافتراءِ النُّبوَّة، والكذبِ في نسبةِ الآياتِ للّٰه تعالى، فأوضَحَ لهم أنَّه مُنذِرٌ لهُم من سوء عاقبةِ التَّكذيبِ والكُفران بالنُّبوَّة والآياتِ؛ ليكونَ ذلك أردعَ لهُم لعلَّهم يَهتدونَ.

دلالةُ وصفِ ﴿نَذِيرٌ﴾ بصفةِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

البيانُ الواضِح واللِّسان الفصيح أدْعى لإقامَةِ الحُجَّة على الخَلْقِ

جاءَ وصف النَّذير في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بكونِه مبينًا، أي: واضِحَ الدَّلالةِ ظاهرَ المَعنى في الكلام والعِبارة؛ للكشفِ والتَّوضيح، فلَم يكُنْ إنذارُهُ غامِضًا مُجمَلًا خفيًّا لا يُفهَمُ مَعناه، بل كان بيانُهُ واضحًا ولِسانُهُ فَصيحًا؛ ليُقيمَ الحُجَّةَ على العبادِ.

و(النّذيرُ) صيغةُ مُبالغةٍ لاسم الفاعلِ أو صفةٌ مُشبَّهَةٌ؛ للدَّلالة على المبالغةِ أوِ الدَّوام، ووصفُهُ ﷺ بالنَّذيرِ المُبين: إعلاءٌ لمَقامِهِ وتصديقٌ لنبوَّتِهِ وإثباتٌ لجَدارةِ مَنطِقِه وسموِّ الآياتِ التي أوحِيَتْ إليه، فهو مُبينٌ بالأدلَّةِ المُبيِّنةِ والآياتِ المصدِّقة[1].

سرُّ كثرةِ (ما) بمَعانٍ مُختلفةٍ:

الاشتمالُ على ألفِ المدِّ توسيعٌ للمَعنى وتكثيرٌ لَهُ

وقعَت في الآيةِ بتمامِها "ماءات" كثيرةٌ بمعانٍ مُتعدِّدةٍ، فقد قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فاشتَمَلت على ثلاثةٍ للنَّفي، واثنَتَينِ مَوصولتَيْنِ أو قد تكون واحدة منهُما استفهاميَّة،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.

وفي تعدُّدِها وكثرتِها في النَّظم القرآنيِّ إعطاءُ ألفِ المدِّ تواؤُمًا مع كمالِ النَّفي أوِ اتِّساعِ العُموم أو طولِ الاستفهامِ؛ لما احتوَتْهُ من صوتِ ألفِ المدِّ ودلالتِهِ.

بلاغةُ تكرارِ أُسلوبِ القَصْرِ:

ردُّ الاتِّهام بتوكيدٍ عالٍ للكَلام

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ أسلوبَ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناء - وهو أقوى طُرُقِ القصرِ - مرَّتينِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ أعلى قَدْرٍ مُمكنٍ مِن تَوكيدِ المعنى المُرادِ إثباتُهُ؛ إذ هو محلُّ الاتِّهامِ والشَّكِّ والإنكار، فكانَ المقامُ مُقتضِيًا القَصْرَ؛ تقويةً للمَعْنى وتوكيدًا وتحقيقًا لدِلالتِهِ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الدِّرايةُ والعِلْمُ:

الدّرايةُ أخصُّ من العلمِ مُطلقًا

تُستعمَلُ الدِّرايةُ للعِلْمِ التَّفصيليِّ، بخلافِ العِلْمِ فإنَّهُ يُطلَقُ على ما يعمُّ الإجماليَّ والتفصيليَّ، ولذا فإنَّ الدِّرايةَ إذا نُفيتْ؛ فلا يلزمُ منهُ نفيُ العلمِ مُطلقًا؛ لأنَّ نفيَ الأخصِّ لا يَستلزمُ نفيَ الأعمِّ؛ إذِ العلمُ الإجماليُّ يكونُ مُتحقِّقًا من دونِ علمٍ بالتَّفاصيلِ والجزئيّات، ومِن ثَمَّ حمَلَ البيضاويُّ عدمَ دِرايتِهِ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ على العِلْمِ التَّفصيلي؛ لأنَّ ذلك مِن علْمِ الغيب، فقال عن قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: "في الدّارينِ على التَّفصيلِ؛ إذْ لا عِلْمَ لي بالغَيبِ"[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 112.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّدرُّجُ في المُناظرةِ تقريرٌ لَهُم عَلى المُعانَدة

لمّا أبطلَ اللّه تعالى إلهيَّةَ أصنامِهم بأنَّهم عاجزونَ عن خلقِ شيءٍ من الأشياء أوَّلًا، وانتقلَ إلى إثباتِ صِدقِ نبوَّة محمَّد ﷺ، وحكى عنهم نسبتَهُ إلى الافتراءِ على اللّه تعالى بالنُّبوَّة والآيات، وأبطلَ دعواهم بما يلزمُ من الافتراءِ على اللّه تَعالى مِنَ العقوباتِ التي لا مانعَ لها، وأنَّه لم يكُن بِدْعًا من الرُّسُل؛ فما الدّاعي إلى تكذيبِه، وقد سُبق لدعوتِهِ التَّوحيديَّة بدَعوات غيرِه من الأنبياءِ؛ ناسَبَ أن يُنْتَقَلَ إلى استدلالٍ آخرَ، وهو فرضُ صِدقِهِ فيما يُخبِرُ به عن ربِّه، وذلك الفرضُ الَّذي شهِدَ أهلُ الكتاب بوقوعِهِ مُسبقًا حاكمٌ عليكم بالظُّلمِ لأنفسِكم، ولما جاءَ بِهِ مِنَ الحقِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَشَهِدَ﴾: (شهد) تدلُّ تصريفاتُه على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادةً، وهو: شاهدٌ وشهيدٌ[2]، والشَّهادة: خبرٌ قاطع، تقولُ منه: شَهِدَ الرَّجلُ على كذا، وقولُهم: أشهَدُ بكذا، أي: أحلِفُ، وشَهِدَه شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ، وقومٌ شُهودٌ؛ أي: حُضورٌ، وهو في الأصل مصدرٌ، وأشْهَدْتُهُ على كذا، فَشَهِدَ عليه، أي: صارَ شاهِدًا عليه[3]، والشّاهِد: العالم الذي يُبيِّن ما عِلمَهُ،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 12.
(2) العين، الخليل: (شهد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الجوهري، الصحاح: (شهد).

والجمعُ: شُهداءُ وشُهَّدٌ وشُهّادٌ وأشْهادٌ وشُهودٌ[1]، وشَهِدْتُ الشَّيءَ: اطَّلَعْتُ عَلَيه، وعاينتُهُ، فأنا شاهِدٌ، ويُعَدّى بِالهَمزَةِ، فَيقالُ: أشْهَدْتُهُ الشَّيءَ[2]، والمراد به في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: عَلِمَ، وأخبرَ بصِحَّتِهِ الموفَّقون من أهل الكتاب[3].

2) ﴿مِثۡلِهِۦ﴾: (مثل) تدور اشتقاقاتُه على مناظرة الشَّيء للشَّيء[4]، يقال: ما لهذا مَثيلٌ، أي: نظيرٌ، والمِثالُ: ما جُعِلَ مقدارًا لغيرِه، وجَمْعُهُ: مُثُلٌ، وثلاثةُ أمثلةٍ[5]، ومِثْل: كلمةُ تسويةٍ، والعربُ تقولُ: هو مُثَيْلُ هذا، ومَثَلُ الشَّيءِ: صفتُهُ[6]، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾: على مُشابِهِ القرآن ومُناظِرِهِ من المعاني المتضمَّنة في التَّوراةِ ممّا طابقَتْ ما في القُرآنِ من التَّوحيد والوعد والوعيدِ، ونحو ذلك[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستِكْبارُ عمّا جاءَ بِهِ القُرآن أعظَمُ الظُّلْمِ وأكبَرُ الكُفْرِ

يُبيِّن اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ رسولهُ محمَّدًا ﷺ يُخاطب مُشْرِكي قومِه بسؤالٍ تقريريٍّ يفضَحُ باطِلَهُم، فيقول لَهُم: أخبروني إن كان هذا القرآنُ من عند اللّهِ تَعالى حقًّا، فكفَرتُم به تعنُّتًا واستكبارًا، وشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيلَ - كَعَبْدِ اللّه بنِ سَلام - بِما في كتابِهِم من خبرٍ عنكَ، فصدَّق، وعَمِلَ بما جاء به القرآنُ الكريمُ، وأعرضْتُم أنْتُم عنها استكبارًا وعنادًا، فهذا أعظمُ الظُّلم، وأكبرُ الكُفْر، واللّهُ تَعالى لا يَهْدي قومًا ظَلَموا أنفسَهُم بِجُحودِهِم الحقَّ واستِكْبارِهِم عَن اتِّباعِهِ[8].

---

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (شهد).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (شهد).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 779.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الخليل، العين: (مثل).
(6) الجوهري، الصحاح: (مثل).
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.
(8) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الوعيدُ الشَّديد على التَّكْذيب والحَضُّ الأكيدُ على التَّصْديقِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ قولٍ عن الآخَرِ في المناظرةِ؛ إذ كلُّ قولٍ من الأقوالِ السّابقةِ يَنقُضُ وهْمًا، ويُقيمُ حُجَّةً، ويوضِّحُ شريعةً، ويُبيِّنُ عن غايةٍ حتّى تجتمعَ كلُّها في إثباتِ الوحدانيَّةِ وصِدقِ الرِّسالةِ وأمانةِ الرَّسولِ ﷺ.

والأمرُ بالقَولِ وارِدٌ على جِهَةِ التَّهديدِ والتَّوبيخِ معَ وعيدٍ شديدٍ مقترنٍ بحَثٍّ على تركِ التَّكذيبِ، وحضٍّ على الإيمانِ والتَّصديق.

بلاغةُ اختتامِ الأقوالِ بهذا الأمرِ:

بـيـانُ عاقبةِ المُكذِّبينَ بالحقِّ

خَتمَ البيانُ القرآنيُّ الأقوالَ المتقدِّمةَ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ بعدَ سلسلةٍ منَ الأوامرِ القوليَّة الدّالَّةِ على الاهتمامِ بتلك المقولات، وإلّا فكلُّ ما في القرآنِ أقوالٌ يَنبغي الاهتمامُ بها، وقد ابتُدِئَت بِتَعْجيزِ ما يُعبَدُ من دونِ اللّه تَعالى عن خلْقِ شيءٍ منَ الأشياء، وثنّاها ببيانِ ما يلزَمُ من الافتراءِ على اللّهِ سُبحانَهُ منَ العِقابِ لإثباتِ صِدقِ النبوَّة، وثلَّثَها بدحضِ الافتراءِ نفسِه بعدمِ كونِه بِدعًا مِنَ الرُّسُل، وخُتِمَت بفرضِ كونِه صادقًا، وما الذي يلزَمُ على هذا الفرضِ عندَ وُقوعِه منَ خسرانِه؛ إذ هُم استمرّوا في عنادِهم، وهذه عادةُ المُناظرينَ في إجابةِ المُتعنِّتين؛ بأن يُظهِروا عاقبةَ عدمِ التَّصديقِ بالحقِّ.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ وغرضُهُ:

تقريرُ المُكذِّبين على ظُلمِهم حثٌّ لهم للنَّظَرِ في مآلِهم

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ خارجٌ عن أصلِه من إرادَةِ طلبِ العِلْمِ بشيءٍ لَم يكُن معلومًا من قبلُ، إلى إرادَةِ التَّقريرِ والإلجاءِ إلى الإقرارِ بحالِهم وظُلْمِهم الشَّديدِ لأنفُسِهم وللحقِّ؛ لو ثبتَ صِدقُ القرآنِ، وصحَّ أنَّه من كلامِ اللّه تعالى، والغرضُ

من تقريرِهم على ظُلْمِهم حينئذٍ إقامةُ الحُجَّة عليهم، ودفعُهم إلى النَّظرِ في مآلِهم ووَخامةِ عاقبتِهم لعلَّهم يَرجِعونَ.

والاستفهامُ داخِلٌ على فعلِ الرُّؤيةِ لتقريرِهم على رُؤيتِهم ظُلْمَهم واقعًا منهم، فيكونُ جرًّا لهم إلى أعلى درجاتِ الإقرارِ بما يَرَونَهُ حينئذٍ من ظُلم بأنفسِهم، وفي التَّقريرِ برُؤيةِ الظُّلم الصّادرِ منهم حينئذٍ كنايةٌ عن شدَّةِ خسارتهم لما يَرونَهُ من عذابٍ نشأ عن ظُلمِهم.

دلالةُ استعمالِ مُفردة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ دونَ مُرادفاتِها:

ظـهـورُ ظُـلْـمِ المُكذِّبين غايةَ الظُّهورِ

جاء التَّعبيرُ بِفعلِ الرُّؤيةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دونَ التَّعبيرِ بالعِلْم - (أعلِمْتُم) - أو الإخبار - (أخبروني) - مَثَلًا؛ للدَّلالة على أنَّ الظُّلمَ الصّادرَ منهُم - على فَرْضِ صِدقِ القرآنِ، وهو كذلك - معتقَدٌ لهم نَظَرًا وفِكرًا؛ حتّى إنَّه يصلُ إلى درجةِ اليقينِ؛ لِما في فعلِ الرُّؤيةِ القلبيَّةِ مِن الجزمِ بالوقوعِ؛ حتّى كأنَّ القلبَ يَرى، ويُبصرُ الحقيقة، فلا يَجِدونَ فِكاكًا مِنَ الإقرارِ به حتى كأنَّ الظُّلمَ مُشاهَدٌ لهم بالبَصيرةِ.

وفي التَّعبير بفعل الرُّؤيَةِ أيضًا إيماءٌ إلى ظهورِ كُفْرِهِم غايةَ الظُّهورِ حتّى أشبَهَ المحسوساتِ التي يُدرِكُها كلُّ ذي بصَرٍ.

نكتةُ حذفِ مَفعولَي فعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

الإقـرارُ بالظُّلْمِ إقـرارٌ بالعاقِبةِ الوَخيمَةِ

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مفعولَي الفعلِ القلبيِّ (رأيت) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالةِ السِّياقِ عليهما، والتَّقدير: أرأيتُم حالَكم؛ إن كانَ القرآنُ مِن عند اللّهِ تعالى؟ ألَستُم ظالمينَ؟ فالمفعولُ الأوَّلُ: حالَكُم، والآخَرُ: ألَستُم ظالمينَ[1]؟ وفي تسليطِ فعلِ الرُّؤيةِ على حالِهم أنفسِهم إيماءٌ إلى أنَّ الفاعلَ كأنَّهُ يُعلِمُ نفسَه، ويُريها عاقبتَهُ، ويُطلِعُ ذاتَه على نتيجتِهِ الوخيمةِ، فهو

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 436.

لا يُقِرُّ للآخرينَ بظُلمِه وإنَّما يُري نفسَهُ ظلمَها وجنايتَها؛ دلالةً على شدَّةِ الإقرارِ وصِدقِ المُقِرِّ؛ إذ أصدقُ ما يكونُ الإقرارُ للنَّفس.

مَوقِعُ جُملةِ الشَّرط ﴿إِن كَانَ﴾:

التَّأكيدُ على ظُلمِ المُشركين أنفُسَهُم

الجُملةُ الشَّرطيَّةُ الواردةُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضةٌ بينَ المفعولِ الأوَّلِ المَحْذوفِ ودليلِ المفعولِ به الثّاني المحذوفِ أيضًا[1]، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفائدةُ الاعتراضِ بها تقييدُ رُؤيتِهم ظُلمَهم بذلك الشَّرطِ المقدَّرِ المفروضِ حُصولُه، وما يلزمُ على تقديرِ وقوعِهِ مِن خُسرانٍ مُبين.

مَعْنى ﴿إِن﴾ ودلالتُها:

تنزيلُ المُتحقِّقِ منزلةَ المشكوك في المحاورَة إنصافٌ في الكلامِ

جاء التَّعبيرُ بحرفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهوَ دالٌّ على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِه مع أنَّ الأمرَ المفروضَ مُتحقِّقُ الوقوع؛ وذلك جاء مجاراةً للخصمِ في اعتقادِهِ عدمَ الحصولِ أوِ الشَّكَّ فيه إنصافًا في الكلامِ[2]، فقد أُشيرَ إلى أنَّ مجرَّدَ الشَّكِّ في الوقوعِ يَجعلُهُ أمرًا مُمكِنَ الوقوع، وهذا الإمكانُ كافٍ في إعادة النَّظرِ في البراهينِ المتقدِّمة على صِدقِ النُّبوَّة والرِّسالة قبلَ الخُسرانِ الوَخيم.

غرضُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾:

التَّكذيبُ بالقُرآنِ تكذيبٌ بكلِّ صوَرِ البُرهانِ

دلَّ استعمالُ فعلِ الكَوْنِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على مُطلَقِ الحدثِ الشّاملِ للنُّزولِ والإيحاءِ والإخبارِ والإلهام، فعدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن كلِّ تلك الأفعالِ الخاصَّةِ إلى فعلِ الكَوْنِ العامِّ؛ ليَشمَلَ جميعَ الآياتِ التي يُكذِّبونَ بها على وجهٍ موجَزٍ، فإنَّ التَّكذيبَ بالقرآنِ الكريمِ تكذيبٌ بكلِّ الآياتِ والبيِّناتِ التي يأتي

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 174.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 21.

النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لهم بها، فالضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ راجعٌ إلى القرآنِ المُشتمِلِ على جميعِ الآياتِ.

مَعنى ﴿مِنْ﴾ وفائدتُها:

ربّانيَّةُ مصدرِ القرآنِ الكريمِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على الابتداءِ؛ تمييزًا له عن كونِهِ من عندِ البشر، وإخبارًا عن ربّانيَّةِ مَصدَرِهِ وعلوِّ مَنزلتِهِ وسموِّ مقامِه، وفي الاقتصارِ على ذكرِ الابتداءِ دونَ الانتهاءِ دلالةٌ على استمراريَّةِ خطابِهِ للبَشَرِ على مرِّ الأعصارِ والأقطارِ في البوادي والحَضَر.

دلالةُ ذِكرِ الظَّرف ﴿عِندِ﴾ مضافًا:

بـيـانُ عـظـمَـةِ المُـنْـزِلِ وشـرفِ المُنَزَّلِ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الظَّرفَ ﴿عِندِ﴾ مجرورًا بـ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ تأكيدًا على ربّانيَّةِ مصدرِ القرآنِ الكريمِ، وبيانًا لشرفِه وعلوِّ منزلَتِهِ؛ إذ كان نازلًا من عند الله سُبحانَهُ.

وفي التَّنصيصِ على مصدرِ القرآنِ الكريمِ التَّأكيدُ على محطِّ التُّهمةِ والاعتراض، فقد اعتقَدَ المشركونَ أنَّه مُفترًى على اللهِ تعالى، فكان في التَّنصيصِ على العنديَّةِ ردٌّ عليهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

لا يليقُ بالقرآنِ الـكـريـمِ إلّا أن يـكـونَ مِـنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه منسوبٌ للّه تعالى نازلٌ من المقامِ الرَّفيعِ؛ إذ لا يليقُ بإعجازِهِ وبلاغتِهِ وتعذُّرِ مُعارضتِهِ إلّا أن يكونَ مِنَ اللهِ تعالى، فيكونُ بمنزلةِ الاستدلالِ على صحَّةِ الفَرْض؛ إذ إنَّ عَجْزَ العربِ وغيرِهم عن مُعارضتِهِ يَجعَلُ العقلَ مُحيلًا بَشريَّتَهُ.

نكتةُ حذفِ جملةِ جوابِ الشَّرط:

طَـيُّ مـا دلَّ الـسِّـيـاقُ عليهِ إيجازًا واختِصارًا

حُذِفَتْ جملةُ جوابِ الشَّرطِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالةِ دليلِ المفعولِ الثّاني عليها[1]، والتَّقديرُ: (إن كان من

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 299.

عند اللّه، وكَفرتُم؛ فاللّه لا يَهديكُم)، ويجوزُ أن يكون التَّقدير: إن كان كذلك؛ فمَن أضلُّ مِنْكُم[1]، أو التَّقديرُ: فمَن المُحِقُّ مِنّا ومِنكُم، ومَنِ المُبطِلُ؟[2].

وحُذِفَ الجوابُ واقتُصِرَ على دليلِهِ؛ ليكونَ أمرًا ثابتًا لعدم هِدايتِهِم وتوفيقِهِم للإيمان، وليسَ مُسبَّبًا عن كونِهِ مِن عندِ اللّه تَعالى وكُفرِهِم به، بل هو سببٌ لعدمِ اهتدائِهِم، أي: لم يَهدِهم اللّه سُبحانَهُ؛ لأنَّ اللّه لا يهدي الظّالمينَ.

دَلالة الواو في ﴿وَكَفَرۡتُم﴾:

شناعَةُ كُفْرِهِم وشِدَّتُه

(الواو) في ﴿وَكَفَرۡتُم﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ حاليَّةٌ؛ والجملةُ بعده حالٌ بإضمارِ حرف التَّحقيق (قد).

وفي توسيطِ الحالِ بينَ أجزاءِ الشَّرط مُسارعةٌ إلى التَّسجيلِ عليهِم بالكُفر.

ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ عاطفةً ما بعدَها على جملةِ: ﴿كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لكن لا على أنَّ نظمَهُ في سِلْكِ الشَّرطِ المُتردِّدِ بين الوقوعِ وعدمِهِ عندَهم باعتبارِ حالِهِ في نفسِه، بل باعتبارِ حالِ المعطوفِ عليهِ عندَهم، فإنَّ كُفْرَهم بِهِ مُتحقِّقٌ عندَهم، وإنَّما تردُّدُهم في أنَّ ذلك كفرٌ بما عندَ اللّهِ تَعالى أم لا؟ وكذا الحالُ[3].

ورجَّحَ الزَّمخشريُّ كونَ الواوِ عاطفةً؛ حملًا لهذه الآيةِ على نظيرتِها في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: 52][4].

وحملُ الواوِ على الحالِ أرجحُ، ويكون التَّقييد بالحالِ تشنيعًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 8/ 19.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 300.

لكفْرِهم، فيُفيد ذلك شدَّةَ ذلك الكُفر على تقديرِ ثبوتِ كونِهِ من اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الكُفر) دونَ (التَّكذيب):

ظُـهـورُ أدلَّـةِ ربّانيَّةِ القُرآنِ الكريم ظُهورًا لا يَخْفى عَلى أحَدٍ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الكُفرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ دونَ التَّكذيبِ، فلم يَرِد في البيان القرآني: (وكذَّبتم بِهِ)؛ لأنَّ أصلَ الكفرِ تغطيةٌ وسترٌ للشَّيء، ففي التَّعبيرِ بِهِ دلالةٌ على أنَّ الكفرَ بالقُرآنِ الكريم وجحدَهُ لا يكونُ إلّا على جهةِ التَّغطيةِ للحقِّ والحقيقَةِ؛ إذ مجرَّدُ سَماعِ كلامِهِ وقوَّةِ بُرهانِهِ وسُطوعِ آياته يَكفي للإيمانِ بأنَّه من عند اللّه تَعالى، ثمَّ إنَّ عجزَ المعارضينَ عن مُقارعتِهِ لهو مِن أكبرِ الأدلَّةِ على أنّه مِن اللّه تعالى، فلا يكونُ جحدُهُ إلّا عن تغطيةٍ وإخفاءٍ للحقِّ ومكابرَةٍ.

مَعْنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

رسوخُ الكافرينَ في عداوةِ القُرآنِ الكريم

عُدِّيَ فعلُ الكفرِ بـ (الباء) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾؛ لِما في الباءِ من معْنى الإلصاقِ[1]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّهم كفروا بالوَحْيِ المُنزل، وجحدوا الحقَّ الإلهيَّ بعد صِلَتِهم به ومعرفةِ صِدْقِه، وأنَّ كفرَهُم ليس عارضًا بل لَزِموهُ، والتَصَقوا بِهِ.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ﴾:

اجتماعُ العقلِ والنَّـقْـلِ على صحَّةِ القُرآنِ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ﴾ على قولِه: ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ ظُلمِهم الَّذي صدرَ منهُم معَ كونِهِ مِن عندِ اللّه تَعالى، ومعَ كونِ الشَّهادةِ ثابتةً لصحَّتِهِ من أهل الكتاب، وبذلك يجتمِعُ الدَّليلُ النَّقليُّ مع الدَّليلِ العقليِّ على ظُلمِهم لأنفُسِهم، فقد دلَّ العقلُ على ظُلمِهم؛ إذ كفَروا معَ كونِهِ مِن عند اللّه تَعالى لتعذُّرِ مُعارضتِهم له، ودلَّ النَّقلُ على صحَّتِه بشهادةِ أهلِ الكتابِ

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137.

لهُ بالصِّدقِ لموافقتِهِ في رفضِ عبادةِ غيرِ اللّهِ تَعالى والإيمانِ باللّهِ سُبحانَهُ الواحد.

دلالةُ التَّعبيرِ بِالفعلِ الماضي (شَهِدَ):

مــن مـظـاهـرِ إعـجـازِ الـقُـرآن الكريـمِ الإخبارُ عــن الـغـيـوبِ المستقبَلَةِ

جاءَ التَّعبيرُ عن الشَّهادة بصيغَةِ الفِعْلِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الشَّهادةَ قد صدرَتْ في الماضي كما هو المُتبادِر، سواءٌ قلنا: إنَّ (الواو) فيهِ للعطفِ أو للحالِ، ولكن ذهبَ بعضُ المُفسِّرين(1) إلى أنَّ الشَّهادةَ واقعةٌ في المستقبلِ وأخبرَ عنها بلفظِ الماضي؛ تنزيلًا للمستقبلِ منزلةَ الماضي إعجازًا وبرهانًا على أنَّ القرآنَ الكريمَ حقٌّ من عند اللّه تعالى، فتكونُ الشَّهادةُ حقًّا، والإخبارُ عن وقوعِها في المستقبلِ حقًّا كذلكَ(2).

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿شَاهِدٌ﴾:

مِــن تـوثـيـقِ الـكـلامِ تشبيهُهُ بـالـشَّـهـادةِ عندَ الحُكّامِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن خبرِ المُخبِرِ بالمشتقِّ من الشَّهادةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ فقد شُبِّهَ الخبرُ بالشَّهادة بجامعِ الإخبار في كلٍّ، ولكونِ كلامِ هذا القائلِ بمَنزلةِ البيِّنةِ لأحَدِ الفريقين، فكأنَّه يُقدِّمُ شهادةً في تصحيحِ قولِ أحدِهما وبرهنَتِه، واستُعيرَ لفظُ الشّاهدِ دونَ المخبِرِ توثيقًا لِلخبرِ، وتنزيلًا له منزلةَ الخبرِ الذي لا يصدُرُ إلّا عن شُهودٍ ومُشاهدةٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَاهِدٌ﴾:

تـعـظـيـمُ شـأنِ الـشّـاهـد تأكيدٌ لِعظَمِ صدقِهِ في الشَّهادَةِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿شَاهِدٌ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ لشَأنِ ذلك الشّاهدِ، والمعنى: شهِدَ شاهدٌ عظيمُ الشَّأنِ(3)، ممّا يَستلزِمُ صِدقَهُ وأمانَتَهُ عندَ أهلِ الكتابِ وثِقَتِهِم

(1) الإيجي، جامع البيان: 4/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 21.
(2) القونوي، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 17/ 461.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.

بكلامه، ولم يُسَمَّ الشّاهدُ باسمِه العلَم أو باسم الجِنس كـ (رجل)، بل أُتِيَ به وصْفًا؛ لإثباتِ أنَّ الذي شَهِدَ إنَّما هو شاهدٌ يَستحِقُّ وصفَ الشَّهادةِ، وقد قامَ به هذا الوصفُ؛ تأكيدًا على عِظَمِ صِدقِه فيها وتأديتِه لها بوجهٍ كاملٍ.

ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ الجنسِ الصّادقِ على الواحدِ أو الكثرةِ، والتَّقدير: وشهدَ شاهدٌ واحدٌ أو أكثرُ[1].

مَعْنى ﴿مِّنۡ﴾ في ﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

عِلْمُ الشّاهد مدعاةٌ لقَبول شَهادَتِه

﴿مِّنۡ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ لبيانِ أنَّ هذا الشّاهِدَ لَهُ عِلْمٌ سابقٌ بالكُتُبِ المُنزَّلَة؛ تعظيمًا لشهادَتِه وبَيانًا لِمَوثوقيَّتِها.

غرضُ التَّعبيرِ بـ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

تعظيمُ شأنِ الشّاهِدِ تعريضٌ بحالِ المكذِّبينَ

جاءَ التَّعبير بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وهي جهةٌ نَسَبيَّةٌ ودينيَّةٌ معًا، بخلافِ التَّعبيرِ بـ (أهل الكتاب) الدّالِّ على جهةٍ دينيَّةٍ فحسبُ؛ وذلك نظَرًا لما تحتاجُهُ الشَّهادةُ من عاملٍ دينيٍّ يحملُ صاحبَها على النَّزاهة، ونسبيٍّ يَحمِلُ صاحبَها على عدمِ تنكيسِ نَسَبِهِ الشَّريفِ بشَهادةِ الزّور، ففي وصفِ الشّاهد بأنَّه من بَني إسرائيلَ تعظيمٌ للشّاهد، وتفخيمٌ لمكانتِهِ النَّسبيَّةِ والدّينيَّة معًا، وفي خطابِ المُشركينَ من أهلِ مكَّةَ بهذا العنوانِ إيماءٌ إلى الذين جرَتْ عادتُهُم أن يَستفتوهُم، ويَثِقوا بأقوالِهِم، فإنَّهم يشهدونَ على صحَّةِ القرآنِ الكريم الذي كَذَّبتُم به[2].

نكتةُ تعديةِ فعلِ الشَّهادَةِ بحرفِ الاستعلاء:

عظمَةُ الشَّهادة وكمالُ دِلالَتِها على الحقِّ

عُدِّيَ فعلُ الشَّهادةِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على استعلاءِ شَهادةِ الشّاهد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 137.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 137.

على المشهودِ له، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ يدلُّ على شهادةٍ مُتمكِّنةٍ للشّاهدِ على ما يشهَدُ به، وهذا التَّمكُّنُ والاستعلاءُ يدلُّ التزامًا على عظمةِ تلك الشَّهادةِ وصِدقِها وكمالِ دِلالتها على الحقِّ.

دِلالةُ التَّعبير بلفظِ (مثل):

التَّنبيهُ عَلى عَظَمَةِ القُرآن الكريمِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بـ (المِثل) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على عَظمةِ المَشْهودِ له؛ إذ كانتِ الشَّهادةُ على مثلِ القرآنِ بالحقِّ، فما الظَّنُّ بالقُرآن نفسِه، فكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ القرآنَ العظيمَ لا يَحتاجُ إلى شَهادةِ صِدقٍ بحقِّهِ فيما لو تعقَّلَهُ المُتأمِّلُ بصدقٍ، وهذا مثلُ قولِهم: (مثلُكَ لا يبخَلُ) في الدَّلالةِ على كمالِ المَمدوحِ بالكرم بنَفْيِ البُخلِ عن مثيلِه، فكيفَ إذا كان هو بذاتِهِ[1]؟

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في لفظِ ﴿مِثۡلِهِۦ﴾:

تَعَدُّدُ احتِمالاتِ مَرْجِعِ الضَّميرِ إثْـراءٌ للمعاني القرآنِيَّةِ

يجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ في ﴿مِثۡلِهِۦ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ إلى القُرآنِ العَظيم بقيدِ كونِهِ الحقَّ، وبقيدِ كونِهِ من عندِ اللّه تعالى، والمَعنى: شهد شاهدٌ من بني إسرائيلَ على مثلِهِ في المَعْنى، وهو ما في التَّوراة من المَعاني المُطابقةِ لمَعاني القُرآنِ منَ التَّوحيدِ والوعدِ والوعيدِ وغير ذلكِ[2]، وعلى هذا؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بلفظِ ﴿شَاهِدٞ﴾، والمَعْنى: ويشهَدُ على صحَّةِ القُرآن[3]، وفي إضافةِ المثلِ إليه دلالة على كونِ المُماثِلِ لهُ حقًّا؛ فهو من بابِ الأَوْلى، ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى كونِهِ من عندِ اللّهِ تَعالى[4]، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقين بـ (شَهِدَ)[5]، فجُعِلَت شهادتُه عَلَى أنَّه ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شهادةً على مثلِه، أي: مثل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 20.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 118.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310.

(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 118.

شَهادةِ القُرآن؛ وذلك لأنَّه بإعجازِهِ كأنَّه يشهَدُ لنفسِهِ بأنَّه مِن عندِ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

مَعْنى (الفاءِ) في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾:

وجوبُ المُبادرَةِ إلى الإيمانِ بَعْدَ بُلوغِ الحقِّ

(الفاء) في ﴿فَـَٔامَنَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ عاطِفةٌ، وهي مفيدَةٌ تعقيبَ الشَّهادةِ الحقَّةِ بسرعةٍ بالإيمانِ الصّادق، وأنَّه امتثلَ لشَهادتِهِ مُبادِرًا بالإيمانِ عقيبَها؛ ليكونَ قُدوةً لغيرِهِ حتَّى يُبادِروا إلى الإيمانِ بعدَ سَماعِ الشَّهادةِ منهُ[2]، كما أفادت الفاءُ مَعْنى السَّبَبِيَّة كذلك، فيكون الإيمانُ مسبَّبًا عن الشَّهادَةِ على مثلِهِ؛ وذلك لأنَّه لمّا علم أنَّ مثلَهُ قد أُنْزِلَ على نبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام، وأنَّه مِن جنس الوَحْيِ لا من كلامِ البشرِ، وقد أنصفَ، فشهِدَ عليه، وأقرَّ، فآمَنَ[3].

سرُّ ذكرِ الإيمانِ دون الإسلامِ:

إظهارُ شرفِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ دونَ فعلِ الإسلامِ؛ لإظهارِ شرفِ الإيمانِ وعلوِّ رُتبتِه على الإسلام، وليكونَ حافزًا للسّامعينَ على تحصيلِ ذلك الإيمانِ، واختيرَت صيغةُ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الإيمانِ منهُ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ على ﴿فَـَٔامَنَ﴾:

تبايُنُ الحَدَثَينِ مُسوِّغٌ للجمعِ بينَ الضِّدَّين

عطفَ النَّظمُ القرآنيُّ جملةَ الاستكبارِ على جملةِ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ من بابِ عطفِ المتقابلَيْن، وبين جملةِ (استَكْبَرْتُم) وجملةِ (آمَنَ) توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ، وبينهما تناسب في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسب اللَّفظيُّ؛ فاتِّحادُهما في الفعليَّةِ والماضويَّة، وأمّا التَّناسب المعنويُّ؛ فلما بينَهُما من التَّضادِّ، فإنَّ الإيمان إذعانٌ وانقيادٌ، والكُفْرَ استكبارٌ وعنادٌ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 462.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 300.

ترتيبُ المتُعاطِفات:

التَّدرُّج الدَّلالي في تراكيبِ العَطْفِ بِالواوِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ وردَ أكثرُ من عطفٍ بالواو، فالأولى عاطفةٌ جملة: (كفرتُم) على فعل الشَّرْطِ، وكذا الواوُ الأخيرة عاطفةٌ جملة: (استكبرتُم) على (آمَنَ)، وأمّا الواو في ﴿وَشَهِدَ﴾؛ فإنَّها عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جُمْلَةِ: ﴿كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾، والمعنى: أخبروني إنِ اجتمَعَ كونُ القرآنِ من عند اللّهِ تَعالى مع جَحْدِكُم لَهُ وكُفْرِكم به، وقد اجتَمَعَ شهادةُ أعلم بني إسرائيلَ على نزولِ نظيرِه، فيكون إيمانُهُ به واستكبارُكم عنه دالًّا على ضلالِكُم أعظمَ الضَّلالِ وأبعَدَهُ[1].

بلاغةُ العدولِ عن الكُفرِ إلى الاستِكْبار:

الاستِكبارُ مِن أعظَمِ أسبابِ الكُفر

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن التَّعبير بِالكفرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ إلى التَّعبيرِ بالاستكبار، وهو ملزومٌ للكفر؛ للدَّلالةِ على سببِ الكُفر وعِلَّتِهِ[2]، فَلَم يكُنْ جُحودُهم عن دليلٍ نقليٍّ أو عقليٍّ، بل الحامِلُ لهم على ذلكَ هو الكِبْرُ والتَّرفُّعُ عن الحقِّ، ممّا يدلُّ على يقينِهِم في أنفُسِهم بأنَّه حقٌّ، لكن منَعَهُم منه الكِبْرُ والاستكبار، فكانَ في ذكرِهِ ذِكرٌ للكُفر مع علَّتِهِ المانعةِ له.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مِن موانِعِ الهِدايَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ للدَّلالةِ على تعليلِ الكلامِ السّابق؛ إذ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ دلَّ على الكلامِ المَحذوفِ من جهةٍ، وعلَّتَهُ من جهةٍ أُخرى، فقد حُذِفَ مفعولا ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ وجوابُ الشَّرطِ بدلالةِ هذه الجملةِ، وقد أفادَت تعليلَ ذلك

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 6/ 119.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 138.

المحذوفِ، فَظلْمُهم لأنفُسِهم وضلالُهُم العجيب في كُفرِهم؛ لِما دلَّ عليه النَّقْلُ والعقلُ، كان سببًا في عدمِ هدايةِ اللّهِ تَعالى لَهُم.

بلاغةُ التَّوكيدِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تحقيقُ علَّةِ الكُفْرِ والضَّلالِ

صُدِّرَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ نسبةِ النَّفي معَ تعليلِ الكلامِ السّابقِ تعليلًا مُؤكَّدًا، والغرضُ من التَّوكيدِ تحقيقُ الإخبار بعلَّةِ عدمِ هِدايتِهم للحقِّ؛ إذ استكبارُهم وضلالُهم وظُلمُهم مَنَعَهم من الإيمانِ بعدَ أن أدركوه، فلم يشأ اللّهُ تَعالى هدايتَهُم.

غرضُ تقديمِ المسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ:

مَن حُرِمَ الهِداية؛ وقعَ في الغَواية

قُدِّمَ المسندُ إليه، وهو الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿يَهۡدِي﴾؛ لِتقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، وذلك لتكرارِ النِّسبةِ مرَّتينِ، فالأولى في إسنادِ الهدايَةِ المنفيَّةِ إلى الاسم الأحسنِ الواقعِ اسمًا لـ ﴿إِنَّ﴾، والأخرى في إسناد الضَّمير المستتر في ﴿يَهۡدِي﴾ إليه، وتكرارُ النِّسبةِ من ضروبِ التَّوكيدِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ:

الجزاءُ مِن جِنْسِ العمَلِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عُنوانَ الألوهيَّة - الَّتي استكبروا عليها، وكَفَروا بها - كانت مانعةً لهُم مِنَ الهداية؛ إذ الاسمُ الأحسنُ جامِعٌ لِصفاتِ الجلالِ والكَمالِ، فيكونُ ذكرُهُ مُرَهِّبًا لهم، ومعلِّلًا نفيَ هِدايتِهم.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآيةِ:

التَّصريحُ بالهِدايةِ المنفيَّة لكونِها النَّتيجةَ اللّازِمة

ذُيِّلتِ الآية الكريمة بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّتيجةِ التي استحقّوها جرّاءَ ظُلمِهم واستكبارِهم عن الحقِّ، معَ توافُرِ الدَّواعي النَّقليَّةِ والعقليَّةِ لذلك

الإيمانِ المستحقِّ، وصُرِّحَ بالهدايةِ المنفيَّةِ؛ لكونِها النَّتيجةَ اللّازمةَ، ولذا كانت هذه الجملةُ تهديدًا قائمًا مقام الجواب المحذوفِ، والتَّقدير: إن كان من عند اللّهِ تعالى، وكفرتُم به؛ فإنَّكم لستُم بمُهْتَدين، بل إنَّكُم ضالّونَ[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَهۡدِى﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاستِكبارُ والضَّلالُ مُتلازِمانِ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الهدايةِ منفيًّا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على إثباتِ ضدِّه، وهو الضَّلالُ؛ إيماءً إلى التَّلازُمِ بين الاستكبارِ عَنِ الحقِّ وبينَ الضَّلال.

واختير الفعلُ المُضارِعُ ﴿يَهۡدِى﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ، والمرادُ استمرارُ النَّفي لا نفيُ الاستمرارِ، فإنَّهم ما داموا قائمينَ على الظُّلْمِ والاستكبارِ والعنادِ؛ فإنَّ الهدايةَ عنهم بمعزِلٍ.

علَّةُ ذِكْرِ المَوصوفِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

تناصُرُ الظّالمين مِنَ الضَّلالِ المُبين

آثرَ النَّظمُ ذِكرَ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظّالمينَ المَذكورينَ قد قاموا بالأمرِ، وأخذوهُ على عاتقِهم، ودافَعوا عنه مُدافعةً قويَّةً حتى كانوا مُتناصِرينَ في طريقِ الضَّلال والظُّلْم؛ إذ لفظُ القوم مُشْعِرٌ بأنَّهم جماعةٌ، لهم قدرةٌ على القيامِ بما يُريدونَ مُحاولتَهُ[2]، ومِن ثَمَّ استحقّوا عدمَ الهدايةِ والتَّوفيقِ للخَير.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مِن موانعِ الهدايَةِ

(الـ) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ دالَّةٌ على الاستغراقِ، فيفيدُ أنَّ اللّهَ تعالى لا يَهدي كلَّ ظالم لربِّهِ ومَقامِهِ الشَّريف، ويجوزُ أن تكونَ (الـ) لِلعَهْد، والمرادُ: المُستكبِرونَ عن الحقِّ المذكورون آنِفًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 12.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 139.

ويحتملُ أن تكون (الـ) موصوليَّةً، أي: الَّذين ظَلَموا؛ ليكونَ علَّةً لعدم هِدايتهم؛ إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على عليِّيَّةِ المَأخَذِ فيه، والتَّقديرُ: (لا يهديهُمُ اللهُ لظُلْمِهم)[1].

دلالةُ الوَصْفِ بالظّالمينَ دونَ الكافرينَ أوِ المُستكبرين:

الظُّلْمُ مِن لَوازِمِ الكُفْرِ والاستِكْبارِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ المُكذِّبين بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع تقدُّم صُدورِ الكُفر والاستكبارِ منهُم؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّ الكُفرَ والاستكبارَ ظُلْمٌ للحقِّ والنَّفسِ، ولو جاء في البيان القرآني: (لا يهدي القوم الكافرينَ) أو (القومَ المُستكبرينَ)؛ لَما عُلِمَ لازمُ الكُفر والاستكبارِ، وهو الظُّلْمُ والطُّغيانُ ومُجاوزةُ الحقِّ بنُصرةِ الباطل.

براعةُ الجمعِ بينَ أوصافِ (الكفر والاستكبار والظلم) لموصوفٍ واحدٍ:

الاستِكْبارُ تعليلٌ للكُفْرِ، والظُّلْمُ نتيجَةُ ذلكَ كُلِّه

جمعَتِ الآيةُ الكريمةُ بينَ أوصافٍ ثلاثةٍ، وهي: الكُفر والاستكبار والظُّلم في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لوجودِ تلازُمٍ بينَها؛ إذِ الكفرُ والجُحودُ للحقِّ لازمٌ عن الاستكبارِ ومُسبَّبٌ عنه، وكلٌّ من الاستكبارِ والكُفر مُسبِّبانِ للظُّلم للنَّفس وللحقِّ، ومِن ثَمَّ انتفتِ الهدايةُ عنِ الظّالمينَ لصُدورِ الكِبْرِ والكُفرِ منهُم، فتكونُ الآيةُ الكريمةُ قد ذكرَتِ الاستكبارَ تعليلًا لِلكُفرِ، وذكرَتِ الظُّلمَ نتيجةً لتحقُّقِ كلٍّ من الكُفْرِ والاستكبارِ.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الاستكبارُ والطُّغيانُ:

الطُّغيانُ أعمُّ من الاستكبارِ

الاستكبارُ: طلَبُ الكِبْرِ، والتَّعالي على الحقِّ، وترْكُ التَّواضُعِ وهَضْمِ النَّفس، وحقيقتُهُ: الامتناعُ عن قبول الحقِّ تعاظُمًا،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.

فالاستكبارُ طلبُ الكِبْرِ بغير استحقاقٍ له؛ لأنَّ صاحبَهُ يُظْهِرُ من نفسِهِ ما ليس لَهُ، ولذا عُبِّر عنه بصيغة الطَّلَبِ؛ إيذانًا بأنَّ مآلَهُ الطَّلَبُ المحض من غيرِ حصولٍ للمطلوبِ[1].

وأمّا الطُّغْيانُ؛ فهو مجاوزةُ الحدِّ في كلِّ شيءٍ، وهو في الاستعمال القرآنيِّ يُراد به: الغلوُّ في الكُفْرِ ومجاوزةُ الحدِّ في المعاصي، وفيه إفراطٌ ومبالغةٌ في الشَّرِّ والكِبْرِ[2].

وبهذا التَّقرير يكون الطُّغْيانُ أعمَّ من الاستكبارِ، من جهةِ أنَّ الطُّغيانَ مجاوزةُ الحدِّ في الكفْرِ أو المعاصي.

(1) محمد ياس خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 195.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 143 - 145.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾ [الأحقاف: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مِن صورِ الاستكبارِ التَّجريحُ والاستصغار

لمّا ذكر الله تعالى أنَّ تَرْكَهُم الإيمانَ إنَّما كان ذلك مِنْهُم تعمُّدًا للظُّلم واستكبارًا، وذلك في قولِه تَعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أتبعه ببيانِ ما دلَّ على الاستكبارِ في وصْفِه القُرآنَ الكريم بأنَّه كذِبٌ مأثورٌ عن الأمَمِ السّابقة، فقال اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَقُونَآ﴾: (سبق) تدور اشتقاقاته على التَّقديم، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا، فأمّا السَّبَقُ؛ فهوَ الجُعْلُ الذي يَأْخُذُهُ السّابِقُ[2]، والسَّبْقُ: القِدمةُ، وتقولُ: لَهُ في الجَرْيِ وفي الأمْرِ سَبْقٌ، وسَبَقَهُ وسابَقَهُ، أي: سَبَقَ النّاسَ إليهِ[3]، والسِّباقُ: مصدرُ المُسابقةِ[4]، واستَبَقْنا في العَدْوِ، أي: تَسابَقْنا[5]، والمرادُ بقَولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾، أي: ما تقدَّمونا لتحصيلِهِ؛ فإنَّ معاليَ الأمورِ لا ينالُها إلّا أشرافُ النّاسِ[6]، والكُفّار يظنّونَ أنفسَهُم كذلك.

2) ﴿إِفۡكٞ﴾: (أفك) تدلُّ تصريفاتُه على قلبِ شيءٍ وصرْفِه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(3) الخليل، العين: (سبق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سبق).
(5) الجوهري، الصحاح: (سبق).
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 30.

عن جِهَتِه، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيءُ، وأفِكَ الرَّجلُ؛ إذا كَذَبَ، ومِنْهُ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22][1]، وأفَكَ النّاسَ، أي: حدَّثَهُم بالباطل[2]، ورجلٌ أفّاكٌ، أي: كذّابٌ، وائْتَفَكَتِ البلدةُ بأهلِها، أي: انقلبَتْ، والمُؤتفكاتُ: المُدُنُ الَّتي قَلَبَها اللّه تعالى على قومِ لوطٍ عليه السلام[3]، والمرادُ به في الآية: الكذبُ الشَّديدُ المقلوبُ عن وجهِهِ إلى قَفاه، وهو كِذْبٌ مُنتحَلٌ عن صاحبِه.

3) ﴿قَدِيمٌ﴾: (قدم) تدور تصاريفُه على مَعْنى السَّبْقِ، ومِنْهُ: القِدَمُ، وهو نقيضُ الحدوثِ، يُقال: هذا شيءٌ قديمٌ؛ إذا كان زمَنُهُ سابقًا سالفًا، ويُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أي: شيءٌ مُتَقَدِّمٌ من أثرٍ حَسنٍ[4]، والقُدْمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمرِ، والقِدَمُ: مصدرُ القديمِ من كلِّ شيءٍ، والقُدومُ: الرُّجوعُ من السَّفَر[5]، وقدُمَ الشَّيءُ بالضَّمِّ قِدَمًا؛ فهو قَديمٌ، وتقادَمَ مثلُهُ[6]، والإفك القديمُ في الآية؛ يُرادُ به الكذِبُ المتقدِّمُ زمانًا الموروث عَن الأُمَم السّابقة[7].

المَعنى الإجماليُّ:

شأنُ المُتكبِّرينَ التّذرُّعُ بشُبهاتٍ واهيةٍ

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى أنَّ المُكَذِّبين الجاحدينَ نبوَّةَ النَّبيِّ ﷺ قالوا: لَو كانَ هذا الدّين خيرًا حقًّا؛ ما سَبَقْتُمونا إلى الإيمانِ به، وما كنّا نحن أبعدَ عَنهُ مِنكُم، وإذْ لَم يهتدوا بالقرآنِ الكريم، ولم يَنتَفعوا بِهَدْيه؛ صاروا يقولون عنه: إنَّه كذبٌ مأخوذٌ من أساطيرِ الأوَّلين ومأثورِ السّابقين[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(2) ابن القوطية، كتاب الأفعال: 1/ 45.
(3) الجوهري، الصحاح: (أفك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(5) الخليل، العين: (قدم).
(6) الجوهري، الصحاح: (قدم).
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 30.
(8) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى (الواوِ) ودلالتُها:

حِرْصُ المُكذِّبين علـى مُـعـاداةِ الدِّين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على أقوالِهم السّابقةِ المُتضمِّنةِ اتِّهاماتِهم للقُرآن بأنَّه سِحْرٌ، وأنَّه مُفترًى على اللّه تعالى، وفائدةُ العطفِ الجمعُ بينَ أقوالٍ مَنشؤُها الاستكبارُ على الحقِّ، والتَّرفُّعُ عن الإذعانِ للإيمانِ، وبيانُ طبيعتِهم المُجادِلة التي تَبحثُ عَن أيِّ مُستمسَكٍ، ولو كان ضعيفًا واهيًا للاستنادِ إليه عندَ المحاوَرةِ، فالواوُ عاطفةٌ على مقدَّراتٍ مختلفةٍ؛ لقصد بيانِ بعض صوَرِ استكبارِهم الذي حَجَبَهُم عن الإيمان بالقرآن الكريمِ[1].

دلالةُ استعمالِ (قالَ) مادَّةً وصيغةً:

كلامُ الكافرينَ صادرٌ عن جَحْدٍ مَتين

جاء التَّعبيرُ بفعلِ (القولِ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لحكايةِ ما صدرَ عنهم من كلامٍ في الزَّمنِ الماضي على سبيلِ التَّحقُّقِ والوُقوعِ، وقد أفادَ فعلُ القَوْلِ الدَّلالةَ على أنَّهم كانوا يَعتقِدونَ ذلك الاتِّهامَ، ويُؤمِنونَ بفَحْواه، ومن ثمَّ يَترفَّعونَ عن قبولِ الحقِّ والإيمانِ بهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

المُكذِّبون بالحقِّ مَعْروفونَ بالكُفْرِ مَشْهورونَ بِهِ

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون التَّصريح بنحو: قال أهل مكَّةَ، أو نحو ذلك؛ للدَّلالةِ على علَّةِ ذلك المَقولِ الصّادرِ منهم؛ إذِ الاسم الموصولُ مع صلتِهِ يشيرُ إلى العِلّيَّة، كما يومئُ الموصولُ إلى تعريفِ المَقول بأنَّه من جنسِ الاتِّهام والتَّشكيك، وأنَّ هؤلاء الكفّار مشهورونَ بالكُفْرِ معروفونَ به؛ إذ مِن شأنِ الصِّلةِ أن تكونَ ممّا عُرِفَ بها مرجِعُ الموصولِ.

وأفادَ التَّعبيرُ بجملةِ الصِّلةِ جملةً فعليَّةً ماضويَّةَ الدَّلالةِ أنَّ الكفرَ الَّذي أحدَثوهُ مُتأصِّلٌ فيهم، مُتغلغِلٌ داخلَ عُروقِهم.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 280.

ويجوزُ أن يكونَ العدولُ عن ذِكْرِ أهلِ مكَّة إلى الاسم الموصول؛ لإرادةِ اليهود وحدَهُم[1]، فيكونَ ثَمَّة إدماجٌ في الآياتِ بينَ فريقَي المُشركينَ مِنَ العربِ معَ اليهود.

الكفرُ أعـمُّ من الشِّرْكِ وأشمَلُ

فائدةُ استعمالِ ﴿كَفَرُواْ﴾ دونَ (أشرَكوا):

جاء التَّعبيرُ عن جلمةِ الصِّلةِ بعُنوانِ (الكفر) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ الشِّرك، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: (وقال الذين أشْرَكوا)؛ لأنَّ الشِّركَ يُعبِّرُ عنِ اعتقادٍ بالشَّريكِ لخللٍ في النَّظَر، بخلافِ (الكُفر) الدّالِّ على الجَحْدِ للحقِّ والإنكارِ له، ممّا يُفيدُ أنَّ قولَهم هذا صادِرٌ عن نفسٍ أدركتِ الحقَّ، وكتمَتْهُ، وعمَدتْ إلى تغطيتِهِ وإنكارِهِ بالذَّرائعِ الفاسِدة والأقوالِ الكاذِبة، كما أنَّ التَّعبير بلفظ الكُفْرِ أعمُّ وأشمَلُ وأوعَبُ؛ إذ كلُّ شركٍ كُفْرٌ، وليس كُلُّ كُفْرٍ شركًا؛ إذ قد يقع الكفر بالنِّفاق أو بالجحود، ونحو ذلك.

اهتمامُ الكافرينَ بـالمُؤمـنـين هو اهتمامُ تنقيصٍ وتحقيرٍ

مَعنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِلَّذِينَ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّعديةِ، وأنَّ القولَ توَجَّهَ مِنَ الذين كفروا إلى الَّذين آمنوا.

ويجوزُ أن تكون اللّام للتَّعليلِ، والمعنى: قال الذين آمنوا لأجل إيمان الذين آمنوا[2].

وذكر الرّازيُّ وجهًا آخرَ، وهو أنَّ الكفّار لمّا بلغَهُم إيمانُ جماعةٍ برسولِ اللّه ﷺ؛ خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين، وقالوا لهم: لو كان هذا الدّين خيرًا؛ لَما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسْلَموا[3].

(1) العُلَيْميّ، فتح الرحمن: 6/ 285.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 300.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 12.

والأظهَرُ أنَّ اللّامَ للتَّعليلِ، والتَّقدير: قال الذين كفروا مخصِّصين أو مريدينَ[1] في شأن الذين آمنوا ولأجلهم[2]، وذلك يدلُّ على اهتمامِهم بشأنِ المُؤمنين وسَعْيِهم إلى القولِ في تنقيصِهم والتَّهوينِ من شأنِهم.

نكتةُ استعمالِ الموَصول في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لا يَنْقِمِ الكُفّارُ مِنَ المُؤمنين إلّا إيمانَهُم

جاء التَّعبير بالموصول وصلَتِهِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للإشارةِ إلى علَّةِ صُدورِ هذا المقولِ بحَقِّهم، وهو اتِّصافُهم بالإيمانِ وتَحلِّيهم بفضائلِه، وفيه أيضًا إيماءٌ إلى شُهْرَتِهم بالإيمان، وأنَّهم معروفونَ به؛ إذ مِن شأنِ الصِّلةِ أن تكون ممّا عُرِفَ بها الموصولُ.

وجاءت جملةُ الصِّلةِ جملةً فعليَّةً ماضويَّةً؛ للدَّلالة على اتِّصافهم بالإيمانِ على سبيلِ القَطْعِ والتَّحقُّقِ واليَقينِ.

وقد اشتملَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على طِباقِ إيجابٍ بين ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿ءَامَنُواْ﴾؛ والغرضُ منهُ الإشارةُ إلى تبايُنِ الطَّريقينِ وتباعُدِ المَسْلكَينِ بحيثُ لا يجتمعانِ في أمرٍ ما.

دلالةُ استعمالِ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّة:

استِدلالُ الكُفّارِ بالأقيِسَةِ الباطِلَةِ تلبيسًا وتَدْليسًا

﴿لَوۡ﴾ في قولِ اللّه تعالى حكايةً عَن قول الكفّار: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، وفي تعبيرِ الكفّار بـ "لو" الشَّرطيَّة إيماءٌ إلى انتفاءِ الخيريَّةِ عَنِ القُرآنِ الكريم بدليلِ ثبوتِ سَبْقِ الأراذلِ - في زَعْمهم - إلى الإيمانِ به؛ إذ إنَّ معاليَ الأمور لا ينالُها أراذلُ النّاسِ[3]، وفي الآيةِ أسلوبُ البَحْثِ - المُسمّى في غير القرآن بالمذهب الكلاميِّ - وذلك لأنَّهم أنشَؤوا قياسًا عقليًّا، حاصلُهُ: لو كان خيرًا؛ ما سبقونا إليه، لكنَّهم سَبَقونا إليه، فهو ليسَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 22.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 30.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 30.

بخيرٍ، وهو قياسٌ باطِلٌ لانبنائِه على مقدِّمةٍ باطلةٍ، وهي قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾؛ إذ لا علاقةَ لكَذِبِ الآياتِ بإيمانِ الفُقَراءِ والضُّعفاء، وصحَّتِها بإيمانِ الأغنياءِ والأشرافِ، فهذه المعارضةُ مِن الكفّار من أقبح المعارضات[1].

تعيينُ مَرجعِ الضَّميرِ في ﴿كَانَ﴾:

شِدَّةُ جُحودِ الكُفّار وعَظيمُ استِكبارِهم

فعلُ الكَوْنِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا﴾ فيه دلالةٌ على انتِفاءِ خيريَّةِ القرآنِ - في زَعمهم - على سبيل التَّمكُّنِ والثُّبوت، وقد اشتملَ فعلُ الكَونِ على ضميرٍ مُستترٍ عائدٍ إلى القرآنِ المفهوم مِنَ الكلام السّابق، وفي ترْكِ التَّصريحِ باسمِهِ استهجانٌ منهُم له عن الذِّكر؛ لشدَّةِ غَطْرستِهم وكمالِ جَحْدِهم، أو من صيانةِ اللّٰهِ تَعالى لكتابِهِ عن مقالةِ الكافرينَ.

بلاغةُ استعمالِ اسم التَّفضيل ﴿خَيۡرٗا﴾:

نفيُ الكُفّار الخيريَّةَ عَنِ القُرآن الكريم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿خَيۡرٗا﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا﴾ دونَ ما سِواها من الحقِّ والصِّدق؛ لما فيهِ مِن دلالةٍ على التَّفضيل؛ إذ التَّقديرُ: (لو كان أخيرَ ممّا عندنا)، فيفيدُ أنَّ ما عندَهم مِن قصصٍ وأكاذيبَ تتعلَّقُ بالأصنامِ والأوثان خيرٌ، وليس القرآنُ أخيرَ منها، ولا يبعُدُ أن يَشتركَ اليهودُ الَّذين لم يُؤمنوا بشهادةِ الشّاهد على صِدقِهِ في هذا القولِ، فيكونُ المرادُ: لو كان أخيرَ من التَّوراةِ، فهُم يرونَ فيه خيرًا، لكنَّه ليس أكثرَ خيريَّةً ممّا عندَهم.

ويجوزُ أن يكونَ الخيرُ اسمًا - لِما فيه النَّفْعُ - لا اسمَ تفضيلٍ، فيكون فيه نفْيُ الخيريَّةِ عن القرآن الكريم مُطلقًا، لا نفيُ أفضليَّتِهِ على ما عِنْدَهُم، وهذا أظهَرُ وأقوى وأنسبُ لحالِ المعاندينَ.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 275.

غرضُ استعمالِ حرفِ ﴿مَّا﴾ للنَّفي:

ادّعاء الكفّار - على وجه التّوكيد - سبْقَهُم لكلِّ خيرٍ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الحرفَ النّافيَ ﴿مَّا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على نفيِ السّبقِ الحادثِ في الزَّمنِ الماضِي إلى الإيمان بالقُرآن، وتسلُّطُ حرف الشَّرْطِ ﴿لَوۡ﴾ يَقْلِبُ النَّفيَ إلى إثباتٍ، فصارَ التَّقديرُ: (سبقونا إلى الإيمان بالقُرآن)، فيكونُ الغرضُ من الإتيانِ بالنَّفي تسلُّطَ نفيٍ آخرَ عليه ضِمْنًا بـ﴿لَوۡ﴾، فيفيدُ ذلكَ إثباتًا أقوى لسَبْقِ الضُّعفاءِ إلى القرآنِ، وفي إثباتِ سَبقِهم إلى الخيرِ على سبيلِ التَّوكيدِ والتَّقوية إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا حَريصينَ على تحصيلِ كلِّ خيرٍ، فلا يَسبِقُهُم إليه سابقٌ، فما سَبْقُ غيرِهم إليه إلّا دليلٌ على عِلْمِهم بعدَمِ خيريَّته، وإلّا لكانوا أسبقَ وُصولًا إليه، فإذا حَملنا الكفّار في الآيةِ على أنَّهم المشركون؛ كان المرادُ (نحن أعزُّ وأفضلُ)، وإذا حملنا الكفّار على خصوص اليهودِ؛ كان المرادُ (نحن أعلَمُ)[1].

دلالةُ الاستعارةِ في لفظِ (السَّبق):

زَعْمُ الكافِرين حِرْصَهُم عَلى اتِّباعِ الخَيْرِ أينَما كانَ

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (السَّبق)[2] في قولِه اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ لمعنى الأخذِ به والعملِ بأحكامه، فقد شُبِّهَ الأخذُ بأحكامِهِ والعملُ بأوامِرِهِ أوَّلًا وقبلَ كلِّ أحدٍ بالسَّبقِ والمُسابقةِ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقِيَ المشبَّهُ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والغرضُ من استعارةِ السَّبق تصويرُ حِرص العاملينَ به على المبادرةِ إلى الامتثالِ، وحرصِ الكافرين أيضًا على الامتثال لهُ؛ لو كان ذلك خيرًا في نفسِهِ أو خيرًا ممّا عندَهم.

مرجعُ ضميرِ (واو الجماعة):

الواو في ﴿سَبَقُونَآ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 106.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 22.

تَهوينُ الكافِرين مِن شأنِ عِبادِ اللهِ المُؤمنينَ

﴿ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ ضميرٌ يعودُ على غير مذكورٍ في الآيةِ، ولكنَّه مذكورٌ في كلام الكفّار المحكيِّ عَنْهم في الآية، والمرادُ: المؤمنون الأوَّلون من المستضْعَفينَ(1)، وفي عَدم ذِكْرِ مرجعِ الضَّمير صراحةً إيماءٌ إلى أنَّ الكفّار يتنقَّصونَ المؤمنين، ويُهوِّنونَ شأنَهُم.

نُكتةُ تقييدِ فِعْلِ السَّبق بالضَّميرِ (نا):

دَعْوى الكفّار استحقاقَهُم السَّبْقَ إلى كلِّ خيرٍ

قُيِّدَ فعلُ السَّبق بالضَّمير (نا) الدّالِ على الجَمْعِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾؛ لأنَّهم جمْعٌ بدليلِ قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ومقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي القِسْمَةَ آحادًا، والمعنى: أنَّ كلَّ واحدٍ من الكفّار قالَ: لو كان خيرًا ما سَبَقَني إليه المؤمنونَ، فكأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يدَّعي أنَّه حقيقٌ بالسَّبْقِ إلى كلِّ خيرٍ ومَكْرُمَةٍ.

نكتةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِۚ﴾:

غايةُ المُؤمنين السَّبقُ إلى الدّينِ القَويم

(إلى) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الانتهاءِ، والمقصودُ الدَّلالةُ على انتهاءِ السَّبقِ إلى القرآن، والوقوفِ عندَه بحيث لا يَتجاوزونَه، فهو غايةُ السِّباقِ ومُنتهاهُ.

تعيينُ مَرجعِ الضَّميرِ في ﴿إِلَيۡهِۚ﴾:

شِدَّةُ حَسد الكافرينَ لأهْلِ الإيمانِ

ضميرُ الغَيْبَةِ في ﴿إِلَيۡهِۚ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ الكريم؛ للدَّلالةِ على أنَفَتِهم عن ذِكرِه، وحَسَدِهم المُؤمنين على ما آتاهُمُ اللّهُ تَعالى مِن فَضلِه، أو أنَّ إضمارَهُ وتركَ التَّصريح بِهِ صيانةُ اللّهِ تَعالى لكتابِهِ عن المقالةِ الشَّنيعةِ لِلكافرينَ.

دلالةُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَإِذۡ لَمۡ﴾:

سِلْسلةُ اتّهاماتِ الكُفّار للقُرآن الكريمِ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ على ما قبلَهُ بالواوِ؛ للدَّلالة على إكمالِ سرْدِ اتِّهاماتهم الباطلةِ المُتلاحقةِ للقرآنِ الكريم، فإنَّ اللّهَ تَعالى لمّا أخبر عمّا قالوا حين سبقَهُم المؤمنون؛ أخبر هنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 22.

عمّا يقولونَهُ عِنْدَ تعمُّد الإعراضِ عَنْهُ[1]، فإنَّهم لم يَصِلوا إلى بَرْدِ اليقينِ، بل إنَّهم زادوا اتِّهامًا آخَرَ، وقَرَنوه باتِّهاماتٍ أُخْرى، وهو أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ وكذبٌ قديمٌ.

دلالةُ استعمالِ (إذ):

اتِّهامُ الكافرينَ للقرآن الكريمِ ناشئٌ من قلوبٍ لا تعقِلُ

(إذْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ﴾ يجوزُ أن تَكونَ ظرفًا لعدمِ الهِداية، وفائدةُ تقييدِهِ بالظَّرف أنَّ قولَهم المَأفونَ وزَعْمَهُم الباطلَ مقيَّدانِ بوقتِ عدمِ الاهتداءِ المُصاحِبِ لمجيءِ الآيات، فهو قولٌ بائسٌ؛ لكونِهِ صادرًا عن وقتِ عدمِ اهتداءٍ ورؤيةٍ للحقِّ، والظَّرفُ (إذ) حينئذٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرط، ولذا اقترنَ الجوابُ بـ (الفاء).

وَيحتمل أن تكونَ (إذ) حرفًا دالًّا على تعليلِ القَوْلِ، وحينئذٍ يكونُ قولُهم الباطلُ واتِّهامُهم الكاذبُ مُعلَّلًا بعدمِ الاهتداء، ومِن ثَمَّ يكونُ اتِّهامًا ناشئًا مِن قلوبٍ لا تعقِلُ، ولا تفهَمُ الحَقَّ، وسواءٌ أكانت (إذ) ظرفيَّةً أم تعليليَّةً؛ فإنَّها تُفيدُ تقييدَ قولِهم بزمنِ عدمِ الاهتداء أو عِلَّتِه، ولا قيمةَ للقولِ الصّادرِ عن ضلالٍ مُبين.

بلاغةُ إيثارِ النَّفي ﴿لَمۡ يَهۡتَدُواْ﴾ على الإثبات:

إصرارُ الكافرينَ على تركِ طريقِ المُهتدين

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المَنفيِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ دونَ (وإذ ضلّوا عنه) المُثبت؛ لأنَّ عدمَ الاهتداء يفيدُ أنَّهم لم يوجَد منهم اهتداءٌ، ولم يقُم بهم وصفُ الهدايةِ، ولم يسْعَوا للوصولِ إليه، بخلافِ الفعلِ المثبَت؛ فإنَّه يُفيد أنَّهم سَعَوا إلى الهِدايةِ إلّا أنَّهم ضلُّوا عنها، ولم يَصِلوا إليها.

كما أفادَ الفعلُ المنفيُّ أنَّ المتحدَّثَ عنه - وهو القرآنُ - صالحٌ للهدايةِ، لكنَّهم منعَ من حصولِها لَهُم مانعٌ مِن قِبَلِ أنفُسِهم، وهذا بخلافِ الفعلِ المُثبَتِ، فلا يَحْمِلُ إشادةً بالقُرآن الكريم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 140.

والنَّفي بـ ﴿لَمۡ﴾ دخلَ على الفعلِ المضارعِ، فجعل زمنَهُ ماضِيًا؛ إلّا أنَّ التَّعبير بالفعل المضارِعِ لفظًا يجعلَهُ دالًّا على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ في الأزمنةِ الماضيةِ، وهوَ استمرارٌ للنَّفْي لا نفيٌ للاستمرار، ممّا يفيدُ أنَّهم لم يتعلَّقوا بالهدايةِ في جميع أزمنةِ الماضي.

نكتةُ التَّعبير بالاهتداءِ مادَّةً وصيغةً:

مُبالَغتُهُم في العِنادِ والعُدولِ عَنْ طَريقِ الهِدايةِ

جاء التَّعبيرُ عن الهِداية المَنفيَّة بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ بالفعلِ المُضارعِ المَزيدِ على الثلاثيِّ المُجرَّد، والفعلُ دالٌّ بمادَّتِه على عدمِ الرُّشْدِ والتَّعقُّلِ في فهْمِ دلالةِ الآياتِ الواضِحة، وقد صيغَ بزِنَةِ الافتعالِ الدّالِّ على عدمِ مُطاوعتِهم للإرشادِ وتكلُّفِهم تركَ الهدايَةِ؛ حتَّى إنَّهم بالغوا في العدولِ عَنِ الرُّشْدِ والنَّظرِ الصَّحيح، مع أنَّ ذلك واضحٌ غايةَ الوضوحِ، وما ذلك إلّا لأنَفَةٍ مِنهم واستكبارٍ[1].

مَعنى (الباء) ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

لا اهـتـداءَ إلّا بالقُرآنِ الكريمِ

استعملَ النَّظمُ (الباءَ) في تعديةِ فعلِ الاهتداءِ المَنفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيص؛ إشارةً إلى أنَّ الاهتداءَ لا يكونُ إلّا به، ولا الإرشادَ إلّا بحُسْنِ التَّعقُّلِ في دلالاته، ومِن ثَمَّ يصدُرُ مِنْهُم كلُّ قولٍ باطلٍ لعدمِ تعلُّقِ هدايتِهم بكتابِ الهدايةِ الأوْحَد.

وفي الباءِ مَعْنى الإلصاق - وهو مَعْنًى لا يكاد يُفارقُها[2] - وذلك للإيماءِ إلى أنَّ كُفرَهُم بالكتابِ كان بعدَ ملاصَقتِه لَهُم؛ إذ كانت آياتُه تبلُغُهم، بل كان كثيرٌ مِنهم يتَحَيَّنُ فُرصًا لسماعِهِ خُفيةً.

تعيينُ مَرجعِ الضميرِ في ﴿بِهِۦ﴾:

رفـعـةُ شـأنِ القـرآنِ الكريمِ كافٍ في وضوحِهِ للأذهانِ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بضميرِ الغَيبة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾، وهوَ عائدٌ إلى القرآن الكريمِ المعلومِ من السِّياق بأنَّه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 140.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137.

الحقُّ والنّازلُ من عندِ اللهِ سُبحانَهُ؛ إعلاءً لشأنِهِ حتى إنَّه لا يحتاجُ إلى ذكرِ الاسمِ الظّاهرِ لمعرفتِهِ؛ ردًّا عليهِم في جَعْلِهِ غائبًا تنقيصًا له، ولذا عُلِّقَ بفعلِ الاهتداءِ دلالةً على أنَّه الهادي لا سِواهُ.

تقديرُ العاملِ المحذوفِ في الظَّرفِ (إذْ):

استِكبارُهُم وعِنادُهُم سبَبًا تَرْكَهُم الهِدايَةَ

لمّا احتملَ أن تكونَ (إذْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ﴾ الظّرفيَّةَ الماضيةَ؛ كانَ لا بدَّ من تأثيرِ عاملٍ للعمَلِ فيه، وذلك العاملُ إمّا ﴿يَهۡتَدُواْ﴾، وهو ممتَنِعٌ؛ لأنَّ المُضافَ إليه لا يعمَلُ في المُضافِ، وإمّا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، وهو ممتنعٌ كذلكَ؛ لأنَّ ما بعدَ فاءِ الجزاءِ لا يعملُ فيما قبلَها، كما أنَّ المستقبلَ لتصدُّرِهِ بالسِّين لا يعمَلُ في الماضي[1]، بل العاملُ مقدَّرٌ، وهو السَّببُ في ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، والتَّقديرُ: (إذ لم يهتدوا؛ ظهرَ عنادُهم، فسيقولونَ)[2].

نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ على العامِلِ:

الاستِمرارُ عَنِ الإعراضِ والمُداوَمَةُ عَلى تَرْكِ الاهتِداءِ

قُدِّمَت (إذ) الظرفيَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ﴾ على عامِلِها القوْليِّ؛ للدَّلالةِ على القصْرِ والتَّخصيصِ، فيختصُّ القولُ، ويكثُرُ تَردادُهُ عندَ عدمِ الاهتداءِ ومدَّةَ عدمِ الرَّشادِ، ففيه تصويرٌ لاستمرارِهم على هذا القولِ في تلك الحالِ ومُداومَتِهم عليها.

مَعْنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

بُطلانُ مَقالَةِ المُشرِكينَ لِتَرَتُّبِها على حالٍ فاسِدَةٍ

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الجزاءِ وترتُّبِ الجوابِ على الشَّرطِ، وذلك لأنَّه إذا قُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِهِ؛ أُشْرِبَ الظَّرفُ مَعْنى الشَّرطِ، ولذا تَدخُلُ الفاءُ في الجوابِ، كما في قولِهِ هنا: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾؛ لإشرابِ الظَّرفِ (إذْ) مَعْنى الشَّرْطِ[3]، والغرضُ من هذا التَّرتُّبِ الإشعارُ بسببيَّةِ عدمِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 665.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 282، والعُلَيميّ، فتح الرحمن: 6/ 285.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 23.

الاهتداءِ للقولِ، ومنه يُعلَمُ أنَّ القولَ باطلٌ لترتُّبِه على حالِ عدمِ رُشْدٍ وهِدايةٍ[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ (يقولون):

لُـزومُ المُشْرِكين المَقالاتِ الباطِلَةَ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ﴾ دونَ (قالوا) معَ أنَّ عدمَ الاهتداء ثابتٌ لهُم في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ استمرارِهم على هذا القولِ في الحاضِرِ والمُستقبلِ وعدمُ انفكاكِهم عنه، ويفيدُ بدلالةِ الاستلزامِ أنَّهم كانوا يقولونَهُ في الماضي كذلكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

استِخفافُ الكُفّارِ بالوَحيِ المُنَزَّلِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القُرْبِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على تقليلِهم مِن شأنِ القرآنِ الكريم، وإنَّما صدر عَنهُم هذا؛ لكونِهم فاقدينَ الاهتداءَ به؛ إذ لا يُتصوَّرُ مِنهُم إظهارُ تعظيمِه، وهم جاحِدونَ صِحَّتَهُ مُنكِرونَ مكانَتَهُ.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِفْكٌ﴾ دونَ (كذب):

شِدَّةُ فُجورِ أهلِ الشِّرْكِ وعظيمُ جُحودِهِم

آثرَ النَّظمُ الإخبارَ بلفظِ ﴿إِفْكٌ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الدّالِّ على الكَذِبِ الشَّديدِ الذي أُفِكَ، وصُرِفَ عن وجهِهِ حتّى انقلَبَ على قَفاهُ مِن شدَّتِه[2]، ففي التَّعبيرِ به دونَ الكذبِ دلالةٌ على شدَّة فجورِهم وجحودِهم للحقِّ.

فائدة وصف ﴿إِفْكٌ﴾ بلفظ ﴿قَدِيمٌ﴾:

أعظَمُ الباطِلِ وصفُ الحقِّ بالإفْكِ

وُصِفَ الإفكُ بالقِدَمِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على مَسبوقيَّةِ النَّبيِّ ﷺ - وحاشاهُ - بذلك الكَذِبِ، فيكونُ قد أفَكَهُ غيرُهُ، وهو تابعٌ[3]، ففائدةُ النَّعتِ تخصيصُ ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 140.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 140.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 141.

الإفكِ، فهو كَذِبٌ وهواجِسُ متعلِّقَةٌ بِأمورٍ مُتقادِمةٍ[1]، وحَديثٌ كحَديثِ المُتقدِّمين، وهِي كَذِبٌ وزورٌ[2].

دقَّةُ اختيارِ لفظِ ﴿قَدِيمٌ﴾:

دقَّةُ البيانِ القُرآنيِّ في اختيارِ الألفاظِ المُناسِبَةِ لسياقاتِها

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿قَدِيمٌ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾؛ ليتحقَّقَ التَّناسُبُ مع قولِه سُبحانَهُ عَنهم في الآية المتقدِّمَة: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾؛ إذ السَّبقُ يُفيدُ الذَّهابَ إلى هدفٍ لأجل التَّقدُّم والأوَّليَّة في تحصيلِه؛ ففيه إشعارٌ بالتَّقدُّم، فكان التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ القديم هنا دالًّا على أنَّ الإفكَ سابقٌ، وقد قَدِمَ من مكانٍ قد تقدَّمَنا زمنًا حتّى وصلَ إلينا.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّة: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾:

الاتِّهامُ الباطِلُ سبيلُ العاجِزِ عن الأدِلَّة

عُبِّر عن مقالةِ المشرِكينَ بالجُملةِ الاسميَّة: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على ثُبوتِ هذا الوَصفِ والحُكم ولُزومِهِ لِلقرآنِ الكريم بزعْمِهم، وسببُ هذا الإخبارِ أنَّهم عجَزوا عن إثباتِ كونِهِ سِحرًا ومُفترًى على اللّه تعالى بشَهادة الشّاهدِ الإسرائيليِّ على مثلِه، وأعياهم الدَّليلُ النَّقليُّ والعقليُّ على صحَّتِه وتعذُّرِ مُعارضتِهِ وتأليفِ كلامٍ يُماثِلُه، فلجَؤوا إلى اتِّهامِهِ بالإفك والكذِب ردًّا لشهادةِ الشّاهد، وتفنيدًا لتصديقِ التَّوراة لمضامينه.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المُسابقةُ والمُسارعةُ:

المُسابَقَةُ أخَصُّ مِنَ المُسارَعَةِ

أصلُ السَّبقِ في اللُّغة دالٌّ على التَّقدُّم في السَّير، ويُستعار لإحراز الفَضْلِ والتَّبْريز، ومنه قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المُتقدِّمون إلى الثَّواب والجنَّة بالأعمالِ الصّالحة.

(1) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 285.
(2) السمعاني، تفسيره: 5/ 153.

والسُّرعة: ضِدُّ البُطْءِ، وقد جُمِعَ بين السُّرعة والسَّبق في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61].

والمُسابقة أبلَغُ مِن المُسارعَة؛ لأنَّ المُتسابِق يجهَدُ نفسَه؛ ليكونَ في أقصى سُرعةٍ ليتقدَّم غيرَه، فالمُسابقَةُ أخصُّ مِنَ المُسارَعَة.

ثُمَّ إنَّ المُسارعة لا تَستَلزِمُ مشاركةً، بخلاف المُسابقة فإنَّها تستلزِمُ جماعةً يتَسابقونَ؛ ليُعلَم المتقدِّم مِنهُم، فتكونُ المُسابقَةُ أخصَّ كذلك بِهَذا الاعتبارِ(1).

فَتَبَيَّن أنَّ المُسارعَةَ أعمُّ مُطْلقًا مِنَ المُسابقَةِ.

الإفكُ والافتراءُ:

بين الافتراءِ والكَذِبِ عمومٌ وخُصوصٌ وجْهِيٌّ

أصلُ الافتراء دالٌّ على القطْعِ، والافتراءُ مفيدٌ قطْعَ الكذب، فهو كذِبٌ مجزومٌ بِه، وهذا في غاية الضَّلالِ؛ إذْ غالِبُ الكذب أن يُروَّج مِن غير ادِّعاءِ جزم به، أمّا اختلاقُ الأمر وكذبُه مع ادِّعاء الجزم بوقوعِه؛ فهو انحرافٌ وضَلال شَديدانِ.

وأمّا الإفكُ؛ فَهو الكَذِبُ الفاحِشُ القُبْحِ، كالكَذِب على اللّٰهِ تعالى أو على رَسولِه ﷺ، وكَقَذْفِ المُحصناتِ، ونحوِ ذلك مِمّا يفحُش قبحُه، ويعظُمُ(2).

فبَينَ الافتراء والكَذِب عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فيَشتَركان في الكَذِبِ الفاحِشِ القُبْحِ؛ إذا قُطِعَ به، وجُزِمَ، وينفردُ الافتراءُ في الكذِب المَقْطوع به؛ إذا لَم يَعظُم فحشُه، ويَنفَرِد الإفكُ في الكَذِبِ الفاحِشِ القُبْحِ؛ إذا لَم يُقْطَع به.

(1) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 599 - 601.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 45 - 47، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 154 - 155.

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

البَراهينُ القَطْعِيَّة على صِحَّةِ القُرآنِ الكريمِ

لمَّا كانَ ما ادَّعاه المُشْرِكونَ في وَصْفِ القُرآنِ الكريمِ بالإفكِ باطِلًا في نَفْسِه؛ لِما قامَ مِنَ البَراهينِ القَطعيَّة على صِدْقِ القُرآنِ الكريمِ، وكانت عِنايتُهم بالمَحْسوساتِ في الغالبِ؛ لعَدَمِ نفوذِهم في المَعْقولاتِ؛ أعقبَهُ بِبَيانِ بُطلانِ دَعواهُم في وصفِ القُرآنِ الكريمِ، وذلكَ بالاستِدلالِ بموافقَةِ القُرآنِ الكريمِ لأعظَمِ الكُتُبِ القَديمَةِ التي اشتَهر أنَّها مِن عندِ اللهِ تعالى، وهِيَ التَّوراةُ، فَقالَ سُبْحانَه: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِمَامٗا﴾: (أمم) تدلُّ تصريفاتُه على معانٍ، وهي: الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعَةُ، والدِّينُ[2]، وكلُّ شيءٍ يُضمُّ إليه سائرُ ما يليه؛ فإنَّ العربَ تُسمِّي ذلك أُمًّا، ومِن ذلك: أمُّ الرَّأس، وهو: الدِّماغ، وأمُّ القرى: مكَّة، وكلُّ مَن اقتُدِيَ به، وقُدِّمَ في الأمورِ؛ فهو إمامٌ، والنَّبيُّ ﷺ إمامُ الأُمَّة[3]، وأمَّهُ أمًّا؛ إذا قصَدَهُ، وأمَّمَهُ وتأمَّمَهُ: قصَدَهُ كذلك[4]، والإمامُ في الآيةِ: ما يُقتدى به، ويُهْتَدى، ويُسْتَرشَد[5].

2) ﴿لِّسَانًا﴾: (لسن) تدور اشتقاقاتُه على طولٍ لطيفٍ ليسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (أمم).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 780.

ببائِنٍ في عضْوٍ أو غيرِه[1]، واللِّسانُ: ما يُنطَقُ، وهوَ يُذكَّر، ويُؤنَّث، واللِّسانُ: الكلامُ[2]، واللِّسانُ: اللُّغةُ، يُقال: فلانٌ يتكلَّمُ بلسانِ قومِه، أي: بلُغَتِهم، ويُقالُ: إنَّ لسانَ النّاسِ عَلَيْك لَحَسَنَةٌ وحَسَنٌ، أي: ثَناؤهم[3]، وقول اللّهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، معناهُ: ملفوظًا به على لسانِ العرَبِ[4].

3) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: (بشر) تدُلُّ تصريفاتُه على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمال[5]، والبِشارةُ - بكَسْرِ الباء - كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهب بعض أهل العلمِ إلى أنَّ البِشارة هِيَ الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِهِ مِن بابِ التَّهَكُّم[6]، والبِشْرُ: طَلاقَةُ الوجه، يُقال: فلانٌ حَسَنُ البِشْرِ، وقول اللّهِ تَعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، معناه: إخبارٌ بما يَسُرُّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

القُرآن الكريمُ كِتابُ الحَقِّ الواضِحِ والإنذارِ الصّادقِ والبُشْرى العَظيمَةِ

يُبَيِّن اللّهُ تعالى أنَّ التَّوراة أنزلها قبلَ هذا القرآنِ إمامًا يَهْتَدي بها بنو إسرائيلَ، ورحمةً لِمَن آمن بها، وعَمِلَ صالحًا، وأنَّ هذا القرآنَ كتابٌ مصدِّقٌ لِما قبله من الكُتُبِ السَّماويَّة، وقد أُنْزِل بلِسانٍ عربيٍّ واضِحٍ؛ ليكون تَحْذيرًا شديدًا للَّذين ظلموا أنفسَهُم بالكُفْرِ والمَعاصي، وبِشارةً عُظْمى للمُحْسِنين الذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحات، فيَجِدون فيه الهُدى والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(2) الخليل، العين: (لسن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (لسن).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(6) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 78.
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواو ودِلالَتُها:

تَـتِـمَّـةُ إبـطـالِ مَقالَةِ المُشْرِكين في الـقـرآنِ الكَريم

الواوُ في ﴿وَمِن﴾ مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على ما تقدَّمها من إبطالاتٍ ورُدودٍ على ما زَعَموهُ مِن استحالةِ نبوَّةِ محمَّد ﷺ ورَمْيِ الكلماتِ والآياتِ بالسِّحْرِ والافتراء، مع التَّنويه بشأن القرآن ورِفْعَته، والنَّعْي عليهم في حرمانِهم أنفسَهُم الانتفاعَ بِهِ[1]، وهذا الإبطالُ ردٌّ لاتِّهامِهم له بأنَّه إفكٌ قديمٌ وكذبُ الأوَّلينَ نقلَهُ مدّعيه، ونَسبَهُ إلى اللّه تعالى؛ وذلك أنَّ كونَهُ مصدِّقًا للتَّوراةِ مقرِّرٌ لكونِه حقًّا على وجهِ القَطْعِ واليقينِ[2].

مَعْنى (مِن) وفائدةُ ذكرِها:

علوُّ شأنِ القُرآنِ لختمِهِ جميعَ الكُتبِ

(مِن) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أفادَتْ مَعْنَيين؛ **أحدُهُما:** تَوكيدُ المَعْنى وتَقْوِيَتُهُ، وهذا هو المَعْنى الغالِبُ على (مِن) الواقِعَةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ)، **والآخَرُ:** الإيماءُ إلى أنَّ كتاب موسى ﵇ لم يستَغْرِق الزَّمَنَ السّابقَ، فمَعْنى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: إنَّ التَّوراةَ كانت في بعض أزمنةِ الماضي[3].

دلالةُ استعمالِ ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

الـوحـيُ سـنَّـةٌ إلـهيَّةٌ ومِنحةٌ ربّانِيَّةٌ

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ (قبل) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على السَّبْقِ الزَّمنيِّ لنزولِ التَّوراةِ على القُرآنِ الكريم، ممّا يدلُّ على أنَّ الوحيَ سنَّةٌ إلهيَّةٌ ومِنحةٌ ربّانيَّةٌ، وليسَ أساطيرَ الأوَّلينَ وإفكًا قديمًا، ولا يلزمُ منَ السَّبقِ الزَّمنيِّ الأفضليَّةُ الرُّتبيَّةُ؛ إذ السَّبقُ الوجوديُّ مُشعِرٌ بالإرهاصِ والتَّقدِمة للكتابِ الخاتِم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 24.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 141.

تعيينُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

عادَ الضَّميرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إلى القُرآن الكريم بعنوانِ أنَّه الحقُّ، وأنَّه من عندِ اللّه سُبحانَه، وفيه إشارةٌ إلى نباهةِ شأنِه حتّى إنَّه يَلتفِتُ الذِّهنُ إليهِ بمجرَّدِ فَهْمِ السِّياق دونَ التَّصريحِ باسمِه.

نباهةُ الشَّأنِ والأمرِ مُغنيةٌ عن صَريحِ الذِّكر

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه:

قُدِّمَ متعلِّقُ الخبَرِ على المبتدأِ[1] في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ اهتمامًا بالخبر؛ إذ هو مَناطُ الجِدال والاختلاف، فإنَّ جَحْدَهم له قائمٌ على أنَّه إفكٌ وافتراءٌ على اللّه تعالى، وأنَّ اللّه لا يوحي كتابًا إلى البشر، ولا يَختارُ رسولًا من النّاس، وذلك مُفيدٌ أنَّه لم يأتِ قبلَهُ كتابٌ ولا رسولٌ، فكان تقديمُ الخبر الَّذي هو مناطُ الاهتمام ممّا يَستدعيه المقامُ، ويَتطلَّبُهُ الحالُ.

تقديمُ مَناطِ الاهتمامِ ممّا يَتطلَّبُهُ المَقام

ورجَّحَ الطَّيبيُّ أن يكونَ لفظُ ﴿كِتَٰبُ﴾ فاعلًا للظَّرف، فلا يكون في الجملة تقديمٌ، والتَّقدير: (حصلَ، ومَضى من قبلِهِ كتابُ موسى إمامًا)[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ دون (التَّوراة):

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن تسميةِ المُنَزَلِ على موسى عليه السلام باسمهِ العلَم (التَّوراة) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لإثباتِ أنَّ اللّه تعالى يُرسِلُ الرُّسُلَ إلى البَشر، ويُنَزِلُ عليهم الكتبَ[3].

نزولُ الكتبِ على البشَرِ أمرٌ ثابتٌ ومُقرَّر

دلالةُ الإضافةِ ونوعُها في ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الكتابَ إلى موسى في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على تعريفِ الكتابِ وتعيينِه،

تعريفُ الكتاب وتمييزُهُ أتمَّ تمييزٍ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 301.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 24.

والغرضُ من التَّعريفِ له تمييزُهُ عن سائرِ الكتبِ المُنزَّلةِ باشتمالِه على التَّوحيدِ والمعادِ ونبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، كما أنَّه ناظرٌ لشهادةِ الإسرائيليِّ على صحَّةِ القرآن الكريم بمثلِه، وكانَ الاقتصارُ عليه تنبيهًا على شهادةِ هذا العالمِ المُؤمن بصِدقِ نبوَّةِ محمَّد ﷺ.

بيانُ صاحبِ الحالَيْن ﴿إِمَامًا وَرَحۡمَةٗۚ﴾:

تعدُّد الاحتمالاتِ إثراءٌ للمعاني وتوسيعٌ لَها

لفظا ﴿إِمَامًا﴾ ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةٗۚ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، وفيهما بيانٌ لِهيئةِ صاحبِهما أنَّه إمامٌ، وأنَّه رحمةٌ، ويجوزُ أن يكونَ صاحبُ الحالِ هو المضاف (الكتاب)، أوِ المضافَ إليه، وهو (موسى)، فيكونَ الكتابُ إمامًا ورَحمةً، أو يكونَ موسى عليه السلام إمامًا ورَحمةً، ولا تنافيَ بين المعنيين، فإنَّ موسى عليه السلام وكتابَهُ كذلك، إلّا أنَّ الحالَيْنِ أُفْرِدا، ولم يُثنَّيا؛ لكونِهما مَصدرين.

كما يحتملُ أن يكون الكتابُ إمامًا وموسى رحمةً على سبيلِ التَّوزيع.

وجائزٌ أن يكونا من الأحوالِ المُتداخلةِ، فتكونَ (رحمة) حالًا من ﴿إِمَامًا﴾، والغرضُ من ذلك تنزيهُهُ عن أن يكونَ إمامًا ذا قَسوةٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحالينِ مَصدرينِ:

المدحُ بالمَصادِرِ إعلاءٌ للمَفاخِرِ

جاءَ التَّعبيرُ بالحالينِ مَصدرينِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةٗۚ﴾ مع أنَّ الأصلَ في الحال أن يكونَ وصْفًا مُشتقًّا؛ وذلك لأنَّ المصدر يدلُّ على حقيقةِ الإمامةِ والرَّحمة، فيفيدُ المُبالغةَ في الاتِّصافِ بهما، حتّى كأنَّ صاحبَ الحالِ صار عينَ الإمامِ المُتَّبع وعينَ الرَّحمة بكَمالاتِهما وشَرَفِهما.

نكتةُ تقديمِ ﴿إِمَامًا﴾ على (رَحمةً):

اتِّصافُ الإمامِ بالرَّحمة نفعٌ لجميعِ الأُمَّة

قُدِّمَ لفظُ ﴿إِمَامًا﴾ على (رحمةً) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةٗۚ﴾؛ لأنَّ الإمامَ هو المُتَّبَعُ، والرَّحمةُ صفةٌ من

صفاتِه، فيكونُ تقديمُ الإمامِ على الرَّحمة مُناسِبًا للواقعِ وملائمًا مع قبليَّةِ النُّزول، وفي هذا التَّقديم إشارةٌ إلى أنَّ الإمامَ ينبغي لَهُ الاتِّصاف بالرَّحمة؛ لأنَّه بإمامتِهِ مُتَّبَعٌ ومُقتدًى به، فتكون الرَّحمةُ رِعايةً بمَن خلفَهُ، وتَنزيهًا له عنِ القَسْوة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿إِمَامًا﴾:

حُسنُ القُدوة دالٌّ على صِدقِ الدَّعوة

استُعيرَ لفظُ ﴿إِمَامًا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾ للقُدوةِ المتَّبع والنَّموذج المُعتبَر؛ إذ أصلُ الإمام الحبلُ الَّذي يَجعلُهُ البنّاءُ مِقياسًا في العمَل[1]، فقد شُبِّهَتِ القُدوة بذلك الحبلِ الَّذي يكونُ مقياسًا ومعيارًا، والغرضُ من الاستعارةِ إخراجُ المعنويِّ في صورةِ الحسّيِّ، وأنَّ مُنزِلَ القرآن الكريم هو منزلُ كتابِ موسى الذي جعلَهُ بما تضمَّنه من عقيدةِ التَّوحيد أنموذجًا يدلُّ على أنَّهما كتابانِ مُتَتابِعانِ على منهاجٍ واحدٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (رحمة):

كمالُ النَّفع في الكتبِ المُنزَّلَة

استعارَ النَّظمُ لفظَ (رحمة) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ للكتابِ الَّذي أُنزِلَ على موسى عليه السلام في نَفْعِهِ لِلمُقْتَدينَ والعاملينَ به؛ إذ شُبِّهَ الكتابُ في نَفْعِهِ بالرَّحمةِ الَّتي مِن آثارها في حقِّ المخلوق: رِقَّةُ القلبِ المُقْتَضِيةُ النَّفعَ والإحسانَ للآخرين، وذلك بجامعِ ترتُّبِ النَّفعِ في كلٍّ، والغرضُ من الاستعارةِ الدَّلالةُ على أنَّ تعاليمَ التَّوراة تشتملُ على نفعِ المتَّبعينَ له.

مَعْنى (الواو) في قولِه: ﴿وَهَٰذَا﴾:

نَظيرُ الحقِّ حقٌّ، ونظيرُ الباطِلِ باطِلٌ

الواو في ﴿وَهَٰذَا﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على ما قبلَها عطْفَ المَقيسِ على المقيسِ عليه، فإن كان كَذِبًا؛ فالمقيسُ عليه يكونُ كذلك، وبما أنَّ المَقيسَ عليه إمامٌ

(1) العسكري، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 180.

ورحمةٌ؛ فإنَّ هذا الكتابَ كذلكَ إمامٌ ورحمةٌ، فتَجبُ مُتابعتُهُ؛ لما اشتملَ عليهِ من نفعٍ وإحسانٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في اسم الإشارة (هذا):

الحُضورُ في الذِّكر والأذهان كالحُضورِ في الأعيانِ

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإشارةِ (هذا) الموضوعَ للمُشاهَدِ المَحسوسِ المُبصَرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للإشارةِ إلى القرآنِ والكتابِ الحاضِرِ في الذِّكرِ والذِّهن؛ بجامِعِ الحُضور والتَّعيُّن في كلٍّ؛ إيماءً إلى وضوحِ القُرآن وظهورِ حضورِه حتَّى كأنَّه حاضِرٌ بذاتِه.

نكتةُ إيثارِ ذكرِ اسمِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تَساوِي الكتابَينِ في أصلِ إنزالِهما مِنَ اللهِ سُبحانَهُ

جاء التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ ليكونَ مناسبًا للفظِ ﴿كِتَٰبُ﴾ المُضافِ في قوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لبيانِ اشتراكِهما في إطلاقِ لفظ "الكتاب" عليهما، وأنَّ المُنزَلَ عليه بشرٌ، وهو موسى عليه السلام، والمُنزَلَ عليه هُنا هو بشَرٌ أيضًا، وهو محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، فلا فرقَ بين الكتابَينِ في أصلِ إنزالِهما مِنَ اللّهِ تَعالى.

وفي الإخبارِ عنِ المُشارِ إليه بأنَّه كتابٌ هوَ مِنَ الإعجاز الغيبيِّ؛ إذ يدلُّ على أنَّ هذا القرآن الكريم سيكونُ مَكتوبًا مجموعًا في كتابٍ.

فائدةُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تفخيمُ القُرآنِ الكَريمِ وبيانُ جَلالِه وجَمالِهِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ بخلافِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، فقد عُرِّفَ بالإضافَةِ؛ للدَّلالةِ على فَخامةِ هذا الكتاب وجمالِهِ وجَلالِه، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: "وهذا كتابُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم"؛ لأنَّه الكتابُ الجامِعُ لما قبلَهُ المانِعُ من أن يأتيَ كتابٌ خلفَهُ، فلم يُنسَب للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لئلّا يُتوَهَّمَ اختصاصُهُ بزمنٍ.

فائدةُ وصف الكتابِ بكونِهِ مصدِّقًا:

وُصِفَ الكتابُ بكونِهِ مُصدِّقًا لما تقدَّمه من الكتُبِ السَّماويَّةِ في

قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يخالفُها في أصولها الصَّحيحة، بل يقوّيها، ويُبيِّنها، ويُصحِّحُ ما حرَّفه النّاسُ مِنها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه الكتاب المكمِّل المهيمنُ على ما تقدَّمه.

خَتْمُ الكتُبِ السَّماويَّةِ بأعْظَمِها قَدْرًا

نكتةُ حذفِ متعلِّق التَّصديق:

حُذِفَ متعلِّق التَّصديق في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعميم والشُّمول؛ إذ إنَّ حذفَ المتعلِّق مؤذِنٌ بذلك، فليسَ هوَ مصدِّقًا لكتابِ موسى عليه السلام فحسبُ، بل هو مُصدِّقٌ لكلِّ الكُتُب والرِّسالات السّابقةِ بجميعِ إخباراتِها وأدلَّتِها ومُعجزاتِها وأصحابِها[1].

هَيمَنَةُ القُرآنِ الكريمِ عَلى جَميعِ ما تقدَّم مِنَ الكتُبِ

بلاغةُ المَجازِ المُرسَل: ﴿لِّسَانًا﴾:

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ للتَّعبيرِ عن اللُّغةِ لفظَ (اللِّسان) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، وأصلُ اللِّسانِ: العضوُ المخصوصُ داخلَ الفم، واستعماله في اللُّغةِ مجازٌ مرسَلٌ مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسم آلتِهِ؛ لأنَّ اللِّسانَ آلةُ اللُّغة، وفي العُدولِ عن التَّعبير باللُّغةِ إلى التَّعبيرِ باللِّسانِ الإشارةُ إلى أنَّ الاختلافَ في اللُّغاتِ هيَ مِن حيث عاداتُ اللِّسانِ في النُّطق وطريقتُهُ في التَّصويت، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم 22].

اللِّسانُ آلةُ النُّطْقِ والتَّعبير

براعةُ استعمالِ الحالِ ﴿لِّسَانًا﴾ دونَ (قُرآنًا):

جاء التَّعبيرُ بالحالِ ﴿لِّسَانًا﴾ من ضميرِ الكِتاب في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾[2] في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ هذا النّظمَ المُصدِّقَ يرتفع في ربوة البيان أن يكون بلسان ناطق بأفصح بيان لا يحيد عن الكتب السابقة في دعوته ومضمونه وبلاغه؛ ولذا

عِندَ القِياسِ والمُقارنَةِ تُذكَرُ الوجوهُ المُتشابِهةُ والمُتفاوِتة

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 519.

آثرَ في هذا المقامِ لفظَ اللِّسانِ على لفظِ (القُرآن)؛ لأنَّه في مَعرضِ القياسِ؛ لإثباتِ صِدقِ القرآنِ بصدقِ الكُتبِ السَّماويَّة مُؤشِّرًا على مَوطِنِ التميُّز فيها بعدَ تحديد موطن التصديق والاتِّفاق.

الموقع الإعرابي للفظ ﴿لِّسَانًا﴾:

مجيءُ لفظ (لسانًا) من مُقتضيات التّصديقِ بالتّوراة

"قوله: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ في معنى التَّعليلِ، أي: مُصدِّقٌ لكتابِ موسَى لكونِهِ لِسانًا عَرَبِيًّا، أي: لإعجازِهِ البشرَ عن مُعارضتِهِ معَ كونه كلامًا واردًا عَلَى لغتهم"[1]، وذهبَ الزَّمخشريُّ إلى أنَّه يجوزُ: "أن ينتصبَ حالًا عن ﴿كِتَٰبٌ﴾ لتخصُّصِه بالصِّفة، ويعملُ فيه معنى الإشارة، وجوِّزَ أن يكونَ مفعولًا لـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: يُصدِّقُ ذا لسانٍ عربيٍّ، وهو الرَّسولُ"[2].

وذكر الزَّجاج أنَّ لفظَ ﴿لِّسَانًا﴾ توكيدٌ، كما في قولهم: جاءني زيدٌ رجُلًا صالحًا، والمرادُ: جاءني زيدٌ صالحًا؛ إذ مِنَ المعلوم أنَّ زيدًا رجلٌ، فيكون ذِكْرُ (رجلًا) توكيدًا[3]، ويُسمِّي أبو البقاء العكبريُّ هذه الحالَ حالًا موطِّئةً[4].

فنُّ الإدماجِ في لفظِ ﴿لِّسَانًا﴾:

إقرارُ الإسلامِ للخُلُقِ الحَسَن وإبطالُه السَّيّئَ مِنْها

أدمجَ النَّظمُ لفظَ ﴿لِّسَانًا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، دون الاقتصارِ على لفظِ ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ وذلك للإيماء إلى أنَّ المرادَ عربيَّةُ ألفاظِهِ لا عربيَّةُ أخلاقِهِ وتعاليمِه؛ لأنَّ أخلاق العرب كان فيه الحسن والسَّيّئ، فلمّا جاء الإسلامُ؛ أبطلَ السَّيّئَ، وأثبت الحسنَ، وزادَ عليه[5].

---

(1) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 464.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 301، ويُنظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 113.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 441.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 464.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 25.

فائدةُ ذكرِ النَّعتِ ﴿عَرَبِيًّا﴾:

بَيانُ عَظَمةِ اللِّسانِ العَرَبِيِّ وشرفِه

وُصِفَ اللِّسانُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ بالعربيِّ، مَدْحًا لهذا اللِّسانِ الشَّريفِ، فإنَّه أفصح الألسنَةِ، وأنفذها في قلوب السّامعين، وأوسعُها إحاطةً بالمفردات والتَّراكيبِ[1].

معنى (اللّام) ودلالتُها في قولِه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

بيانُ حِكْمَةِ إنزالِ القُرآنِ الكريمِ

اللّامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على تَعليلِ إنزالِهِ بلسانٍ عربيٍّ، وهوَ تعليل غايةٍ وحكمةٍ؛ إذ تضمَّنَ كونُهُ مُصدِّقًا لسائرِ الكتب أنَّه مُنزَلٌ منَ اللّه تعالى لإنذارِ الظّالمين لعلَّهم يَرجِعون، والغرضُ من هذا التَّعليلِ بيانُ حِكمةِ الإنزالِ واختيارِ اللِّسانِ العربيِّ المُبينِ المُفصِح عن مُرادِ اللّه تعالى إفصاحًا لا يتحقَّقُ لِلُغةٍ أُخرى، فكان في هذا تنويهٌ بشأنِ اللُّغةِ العربيَّةِ وأهمّيَّتِها وفصاحتِها العالية، ويجوزُ أن يتعلَّق ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بقوله قبلُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ﴾؛ إذ إنَّ ما تقدَّمه مشتمِلٌ على النِّذارة والبِشارة، أو أن يكون متعلِّقًا بما في لفظ ﴿كِتَٰبٞ﴾ من دلالتِه على الإرشاد المتضمِّن النِّذارةَ والبِشارةَ، واستحسنَ هذا ابنُ عاشور؛ ليكون ﴿لِّيُنذِرَ﴾ علَّةً للكتابِ بالنَّظر إلى وصفِه وحالِه[2].

بلاغةُ الاحتباك والمَجازِ العقليِّ في قراءتَي: ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

النِّذارة والبِشارة متحقِّقتان في كلٍّ مِنَ الكِتابِ والرَّسولِ ﷺ

فِعلُ الإنذار (يُنذر) من قول اللّه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قرأهُ بالتّاءِ (تُنذرَ) نافعٌ وابن عامرٍ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ والبزّيُّ عن ابن كثير[3]، على أنَّه خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فيكون في هذا وصفٌ للنَّبيِّ ﷺ أنَّه مُنذرٌ، ولكتابِهِ بالبشارةِ، فيكون في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 3/ 372.

احتباكٌ[1]؛ إذ حُذِفَت البِشارةُ من الجملةِ الأولى؛ لدلالة البُشْرى في الجملة الثّانية عليه، وحُذِفَت النِّذارة من الثّانية؛ لدلالة الجملةِ الأولى عليه، فيكون التَّقدير: وهذا كتابٌ مصدِّق لسانًا عربيًّا لتُنذرَ الذين ظلموا، وتُبشِّر الذين آمنوا، ويكون الكتاب بُشْرى للمحسنينَ وإنذارًا للمسيئين، وتخصيصُ الإنذارِ بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه المُخوِّفُ من عذابِ اللّه تَعالى، وتخصيصُ البِشارةِ بالكتاب؛ لأنَّه بعدَ التَّخويفِ النَّبويِّ يلجَأ المُخوَّفُ للكتابِ ليسمعَ البِشارات.

وقرأ باقي العشرة ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء على أنَّه خبرٌ عن الكتابِ، فيكون إسنادُ النِّذارة إلى الكتاب مجازًا عقليًّا[2]، كما أنَّ إسنادَ (البشرى) للكتابِ على الأوَّلِ والثّاني مجازٌ عقليٌّ كذلكَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

ميلُ النُّفوسِ إلى الشَّهواتِ يَقْتَضي دوام التَّخويفِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّد التَّخويفِ والتَّهديد تجدُّدًا استمراريًّا؛ إذ النُّفوسُ تميلُ إلى الشَّهواتِ وزينةِ الحَياةِ الدُّنيا، فتحتاجُ إلى تخويفٍ متجدِّدٍ من عاقبةِ الانجرارِ وراءَها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتهِ:

الإنْذارُ عامٌّ، وهو للظّالِمين أظهَرُ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول دونَ اسمِ الجنس كـ (أهل مكَّة) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى علَّةِ الإنذارِ والتَّخويف، وهو الظُّلْمُ الَّذي يقومُ بالكافرينَ والجاحِدين، والإنذارُ وإنْ كان عامًّا لجميعِ النّاس، إلّا أنَّهُ خُصَّ الظّالمونَ به؛ لأنَّ الإنذارَ في حقِّهِم أدَلُّ وأوضحُ، وهُم إليه أحوجُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الظُّلْمِ في جملةِ الصِّلَةِ:

جاءَ التَّعبيرُ بـ (الظُّلم) دونَ (الكُفر) في قولِ اللّهِ تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26 - 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكُفر ظلمٌ بل أشنعُ أنواعِ الظُّلْم؛ لأنَّ جُحودَ المُنعِم الحقيقيِّ وعبادةَ غيرِه ظُلمٌ للّه ﷻ، وظُلْمٌ للنَّفْسِ، كما لا يَخلو الكُفّارُ من صُدورِ أنواعِ الفَسادِ والإفسادِ في الأرضِ بالأعمالِ المُنكَرَة.

الظُّلْمُ أعمُّ من الكُفرِ مطلقًا

وقد أفادَ التَّعبيرُ بالظُّلم شمولَ الكُفر وغيره من أفعالِ المَعاصِي وطاعةِ النَّفس والهَوى، فيكونُ الإنذارُ للكافرينَ والعُصاةِ معًا.

وفي التَّعبير بالفعلِ الماضي ﴿ظَلَمُواْ﴾ في جملة الصِّلةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إيماءٌ إلى تحقُّق الظُّلْم منْهُم، وإشارةٌ إلى أنَّ الظُّلْمَ أمرٌ حادِثٌ مخالِفٌ للفطرةِ التي فطرَ اللّهُ تعالى عليها العبادَ.

تعيينُ المعطوفِ عليه في ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾:

تـنـوُّع أوجُـهِ الإعـرابِ إثـراءٌ لـلـمـعـاني وتوسيعٌ لَها

عُطِفَ المصدرُ الصَّريحُ (بُشرى) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على المَصْدَرِ المُؤَوَّل من (أنْ) المضمرةِ والفعلِ في ﴿لِّيُنذِرَ﴾ مِن بابِ عطفِ المفعولِ لأجلِهِ على ما قبلَهُ[1]؛ تعليلًا لنزولِ القُرآن الكريم باللِّسان العربيِّ الفصيح.

وأجازَ الطَّبري في قولِه: ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ وجهَين منَ الإعراب، **أحدهما**: الرَّفعُ عطفًا على ﴿كِتَٰبٌ﴾، والتَّقدير: وهذا كتابٌ مصدِّق وبُشْرى للمحسنين، **والآخر**: النَّصبُ، والتَّقدير: ليُنذرَ الذين ظلموا، ويُبشِّرَ المؤمنينَ[2].

علَّةُ العدولِ عن الفعل (ويُبشِّرَ) إلى الاسم (بشرى):

البُشرى ثابتةٌ لـلـمُـحسنين والإنذارُ مُتجدِّدٌ للظّالمين

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبيرِ بالفعلِ (يُبشِّر) إلى الاسمِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فلم يرِد

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 111.

في النَّظم القرآني: ليُنذر الذين ظلموا، ويُبشِّر المحسنين؛ وذلكَ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوام، فإنَّ المحسنينَ لمّا كَمُلَت أعمالُهُم؛ جاءت البُشْرى وصفًا لحالهمُ الثّابتة.

دلالةُ اللّامِ الجارَّةِ في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾:

انحصارُ البُشرى في أهل الإحسانِ

اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاختصاصِ، فالبُشرى مختصَّةٌ بالمحسنينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّامُ للملك؛ وذلك بتشبيهِ ما يُتَمَلَّكُ بما لا يقبَلُ التَّملُّكَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

دلالةُ (ال) في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾:

الإحسانُ علَّةُ استحقاقِ البُشرى

عُرِّفَ لفظُ (المحسنين) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ بـ(الـ) دونَ المَوصولِ وصِلته، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: (وبُشْرى للذين أحسنوا)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الاتِّصافَ بالإحسانِ هو الأصلُ في النَّفسِ والأوفقُ للفطرةِ، فكان التَّعبيرُ بالاسم دالًّا على الثُّبوتِ.

و(الـ) في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دالَّةٌ على الاستغراقِ، وذلك أبلَغُ في مدحهم والتَّنويه بشأنِهم؛ إذ يُفيد ذلك أنَّ حقيقةَ البُشرى تشمَلُ جميعَ المتَّصفينَ بالإحسان.

وجائزٌ أن تكون (الـ) مَوصولًا، فتكون مفيدةً علَّةَ حصولِ البُشرى الكاملةِ لهُم، وهو الإحسانُ.

بلاغةُ العُدولِ عنِ الإيمانِ والعدلِ إلى الإحسانِ:

الإحسانُ إتقانٌ للأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ

جاء التَّعبيرُ بلفْظِ (الإحسان) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دون صفةِ الإيمانِ والعدلِ؛ ليكونَ الإحسانُ في مُقابلِ الظُّلم الجامعِ بينَ الكُفرِ والفَساد، وفي ذلك العدولِ إشارةٌ إلى أنَّ البُشرى الكاملةَ هِيَ للمُؤمنينَ الَّذين أحسَنوا في أعمالِهم، ولم يَظلِموا أنفُسَهم، فيكونُ الإحسانُ جامِعًا للأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ على وجهِ الكمالِ والإتقانِ.

وعُدِلَ عن لفظ "العادِلين" مع كونِهِ مقابلًا لقولِهِ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إلى التَّعبير بـ (المحسنين)؛ ليكون وسيلةً إلى البشارةِ المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لمَن قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[1].

بلاغةُ العُدولِ عنِ: (الَّذين أحسَنوا):

الاستِقامةُ الكاملةُ في العبادِ قليلٌ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ التَّعبيرِ بـ (الَّذين أحسَنوا) بعدَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه النِّذارة حاصلةٌ لمن وُجِدَ منهم ظُلْمٌ، وأمّا البِشارَةُ؛ فهي لِمَنْ ثبتَ، واستقامَ على الإحسان والإخلاص؛ إعلامًا بأنَّ العَبْدَ محتاجٌ ومفتقِرٌ إلى ما يُهذِّب به نفسَهُ؛ إذ الاستقامة على الصِّراط المستقيم لا توجَدُ إلّا في أفرادٍ[2].

فالتَّعبيرُ بالاسمِ (المحسنين) دالٌّ على تلبُّسِ الإحسانِ بهم واستقرارِهِ فيهم وثباتِهِ عندَهم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف: 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ حقيقةِ المُحسنينَ وأحوالِهم

لمّا بيَّنَ اللّه تعالى أنَّ الرَّسولَ ﷺ حَقٌّ، وأنَّ الآياتِ صِدقٌ، وأنَّ وظيفةَ الرَّسولِ ﷺ إنذارُ الظّالمينَ وتبشيرُ المُحسِنينَ؛ ناسَبَ أن يُبيِّنَ حقيقةَ المُحسِنينَ وأحوالَهُم، وما يَنالونَهُ من نعيمٍ هو حقيقةُ البشرى وخصائصُها الَّتي وُعِدوا بها في الدُّنيا والآخِرة، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(1).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: (قوم) تدلُّ اشتقاقاتُه على أصلين، أحدهما: جماعةُ ناسٍ، والآخَرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ(2)، وكلُّ مَن كان على الحقِّ؛ فهو القائمُ المُمسِكُ به، والقيِّمةُ: المِلَّةُ المُستقِيمةُ، والرَّجُلُ إذا انقادَ، واستمرَّت طَريقتُهُ، فقد استقامَ لِوَجْهِه(3)، والاستقامةُ: اعتِدالُ الشَّيءِ واستِواؤُهُ(4)، والاستقامةُ: الاعتدالُ، يقالُ: استقامَ لهُ الأمرُ، وقوَّمْتُ الشَّيءَ، فهو قَويمٌ، أي: مُستَقيمٌ(5)، وحقيقةُ الاستقامَةِ شرعًا: سلوك الصِّراطِ المستقيم، وذلك يشمَلُ فعلَ الطّاعاتِ الظّاهرة والباطنةِ(6)، وترك المنهيّات، وهذا هو المعنى المرادُ في الآيَةِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(3) الخليل، العين: (قوم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).
(5) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(6) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص: 510.

2) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: (صحب) تدُلُّ تصاريفُه على ملازمةِ الشَّيءِ بقوَّةٍ[1]، وقد يُطلَق على مُطلقِ المقارنةِ[2]، والأصحابُ: جمعُ صاحِبٍ، مثلُ: أشهادٍ جمعِ شاهدٍ[3]، وذهب بعض أهل اللُّغة إلى أنَّ: الأصحابَ جمعُ صَحْبٍ، والصَّحبَ جمعُ صاحبٍ[4]، ومِن معنى الملازَمةِ: سُمِّيت الزَّوجَةُ صاحبةً، كما في قول اللّه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢﴾ [المعارج: 11 - 12]؛ لملازمَتِها زَوْجَها.

و"أصحاب النّار" في القرآن الكريم، المرادُ: أهلُها المعذَّبونَ فِيها، إلّا في موضعٍ واحد، فيُرادُ به: خَزَنَتُها، وهو الواردُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المدثر: 31][5].

وأمّا ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ فهُم أهْلُها المنعَّمون فيها من أهل الإيمان المُلازِمونَ لها الخالِدونَ فيها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّن اللّهُ تَعالى حقيقةَ المحسنين، وهُمُ الذين آمنوا باللّه تعالى ربًّا ومعبودًا بحقٍّ، ثُمَّ استَقاموا على طاعته، وثبَّتوا إيمانَهم قولًا وعملًا واعتقادًا، فهؤلاءِ لا يصيبُهم الخوفُ مِن أهوالِ يوم القِيامَة، ولا يَحْزنون على ما فاتهم من زخارفِ الدُّنيا وزينتها، وهَؤلاء هُم أهلُ الجنَّة ماكثينَ فيها أبدًا، جزاءً منهم على ما قدَّموا من عملٍ صالحٍ في حياتهم الدُّنيا[6].

حكمةٌ سائرةٌ لا يَجمَعُ الله خَوْفَي الدُّنيا والآخِرة

(1) محمّد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صحب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صحب).
(4) الخليل بن أحمد، العين، والجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (صحب).
(5) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 158.
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

أثَرُ الاستِئنافِ البَيانيِّ في إبراز مُتابعَة المُتلقّي وشَوْقِه

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ عمّا قبلَهُ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك أنَّ قولَ اللّه تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يبعَث في نفس المتلقّي سؤالَيْن، **أحدهما**: عمَّن يتَّصفُ بالإحسان، **والآخر**: عن البِشارة الَّتي يَنالونَها جزاءَ ذلك الاتِّصاف[1]، فجاء الجواب في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾؛ لبيانِ أنَّ البُشْرى هي نفس الخوف عمّا يُستقبَل، ونفيُ الحزنِ عمّا مضى، وأنَّ لهم الجنَّةَ على وجه الخلودِ فيها، وأنَّ المحسنينَ هم الذين قالوا: ربُّنا اللّه، ثُمَّ استقاموا في أعمالِهم[2].

وصُدِّرت جملةُ الاسئتنافِ البيانيِّ بـ ﴿إِنَّ﴾ المُؤكِّدة؛ للدَّلالَةِ على تَعليلِ الاتِّصافِ بـ (المُحسنين) على سبيلِ التَّأكيدِ والتَّقويةِ للحُكم المَذكور.

بلاغةُ الاكتفاءِ:

الاقتِصارُ عَلى بَيانِ حالِ المُحْسِنين دعوَةً لِلظّالِمين إلى الرُّجوعِ عَن باطِلِهم

اكتفى النَّظْمُ الكريمُ ببيانِ أحوالِ المُحسنينَ وبِشارَتِهم دونَ التَّعرُّض لبيانِ أوصافِ الظّالمينَ ونذارتِهم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ المحسنينَ هُم أهلُ الفوزِ والنَّجاة، فَهُمُ الأشرفُ بالبَيان، كما أنَّهُ يُفهَمُ بدلالةِ المُخالفةِ أحوالُ الظّالمينَ وطبيعةِ إنذارِهم، وفيه أيضًا دعوةٌ ضمنيَّةٌ لهم للارتداعِ عن الظُّلْمِ والعَوْدِ إلى رُشدِهم، ويكون تقدير الآيةِ: (إنَّ الذين قالوا: ربُّنا اللّه، ثمَّ استقاموا، فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، أولئك أصحاب الجنَّة خالدين فيها؛ جزاءً بما كانوا يعملون، وأمّا الظّالمون؛ فهُم الَّذين أنكروا ألوهيَّةَ اللّه، وحادوا عن الطَّريق المستقيمِ، فهُم في خوفٍ ممّا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 143.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26.

يُستقبَلُ وحزْنٍ على ما مَضى، وأولئك أصحاب النّار خالدين فيها جزاءً على أعمالهم في الدُّنيا).

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموَصولِ وصلته:

تـمَـكُّـنُ الـخبَر مِنَ النَّفْس بَعدَ استِشرافِها لَهُ

جاءَ التَّعبير بالاسم المَوصولِ وصِلَتِهِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ لِما توحي به صلتُهُ من بيانِ علَّةِ نيلِ تلك البُشرى المَوعودِ بها[1]، كما أومأ الموصولُ وصلَتُهُ إلى وجهِ بِناء الخبر، وأنَّه من نوعِ النَّفعِ والخَير.

وفي التَّعريفِ بالموصوليَّة أيضًا تشويقٌ يناسِبُ تلك النُّفوسَ الَّتي تَتوقُ إلى سَماعِ جوابِ سُؤالها، فيتمكَّن الخبرُ مِنها غايةَ التَّمكُّن لورودِهِ على نفسٍ راغبةٍ مستشرِفَةٍ.

غرضُ التَّعبيرِ بفعلِ القولِ دونَ الإيمان:

إقـرارُ المُحسنينَ بِرَبِّهِم سُبحانَهُ وإذعـانُـهـم لَـهُ واستِقامَتُهُم عَلى طاعَتِهِ

اختارَ النَّظم القرآنيُّ عندَ بيانِ أحوالِ المُحسنين في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ التَّعبيرَ بفعلِ القولِ دونَ الإيمانِ مِن باب الإيجازِ؛ إذ القولُ المذكورُ يُغْني عن أن يُقال: أذْعَنوا، وأقرّوا بالرَّبِّ سُبحانَهُ إلهًا حقًّا، فكان المرادُ أنَّهم قالوا ذلك، وأعلنوهُ، واعتقدوا مَعْناهُ، وعملوا بمقتضاهُ؛ إذ الأصلُ في الكلامِ أن يكونَ صِدْقًا، ولا سيَّما أنَّه محكيٌّ عن أهل الإحسانِ[2].

دلالةُ إضافةِ (رب) إلى ضميرِ الجَمْع:

مِـن شَـرَفِ المُـحسِـنيـنَ مَربوبِيَّتُهُم للهِ تَعالى

أُضيفَ لفظُ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ الجمعِ العائدِ إلى المحسنينَ القائلينَ: "ربُّنا اللّه" في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ تشريفًا للمُضافِ إليه، وهُم المحسنونَ، فقد عَظُمَ قدرُهُم، ونَبُلَ شرَفُهم بكونِهم مَرْبوبينَ للّهِ تَعالى، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ استقامتَهُم على الطّاعةِ من إحسانِ اللّهِ تعالى بِهِم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

دلالةُ الجُملةِ الاسميَّة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾:

تَحْقيقُ المُحْسِنين لـلـتَّـوحـيـدِ الخالِصِ

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الواقعةِ مَقولَ القَولِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالَةِ على إقرارِهم الثّابتِ الدّائم بربوبيَّةِ اللّهِ وألوهيَّته.

وفي جملة مقول القول: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أسلوبُ قصرٍ بتعريف طرفي الإسناد، أي: لا ربَّ لنا إلّا اللّهُ سُبْحانَهُ، فيفيدُ ذلك التَّوحيدَ الخالصَ[1]، وقد أفادَ قصرُ الرُّبوبيَّة على اللّه تعالى التَّعريضَ والرَّدَّ على ما يقولُهُ المشركونَ من تعدُّدِ وصفِ الرُّبوبيَّة للّه تعالى وغيرِه من مَعبوداتِهم الباطِلَةِ.

بلاغةُ تقديمِ وصْفِ ﴿رَبُّنَا﴾ على الاسم الأحسن:

إبـطـالُ اعـتِـقـادِ المُشركينَ

قُدِّمَ وصفُ الرُّبوبيَّة على الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ لتحقيقِ الرَّدِّ على المُشركينَ بقَصْرِ الصِّفةِ على الموصوف، كما نقولُ: (المُنطلِقُ زيدٌ)، أي: لا غيرُهُ، بخلافِ ما لَو قُلنا: (زيدٌ المُنطلِقُ)؛ فإنَّه يفيدُ قصرَ الانطلاقِ عليه دون القعودِ والقيامِ، فلو جاءَ في النَّظم القرآني: (اللّه ربنا)؛ فإنَّ القصرَ حينئذٍ يكونُ لقصرِ اللّهِ تَعالى على وصفِ الرُّبوبيَّة دونَ سائرِ صفاته، وهو من قصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفةِ، وهو غيرُ مرادٍ في هذا المقامِ؛ إذ مقامُ الرَّدِّ على المُشركينَ الَّذين يَعتقدونَ تحقُّقَ الرُّبوبيَّة في اللّه تعالى وغيرِه يقتضي أن يتقدَّمَ الرَّبُّ على الاسمِ الأحسَنِ؛ ليكونَ القصْرُ مبطلًا لاعتقادِهِم.

بلاغةُ الجمعِ بينَ عُنوانِ الرُّبوبيَّة والألوهيَّة في: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾:

تَوحيدُ الرُّبوبيَّة مُسْتَلْزِمٌ توحيدَ الألوهيَّة

جمعَ النَّظمُ القرآنيُّ بين الرُّبوبيَّة والألوهيَّة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالة على التَّلازمِ وعدمِ الانفكاك بينَهُما، وفيه

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 465.

إشارَةٌ إلى أنَّ توجُّهَ المشركينَ لغير اللّه تعالى بالعبادةِ لا يَنفعُهُم في الإقرارِ بربوبيَّةِ اللّه تَعالى؛ إذ فَصَموا الصِّلةَ بينَهما، وفي إقرارِهم بالرُّبوبيَّةِ خللٌ؛ إذ اعتقدوا النَّفْعَ والضُّرَّ في غير اللّهِ تَعالى.

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُهُ:

جَمْعُ المُحْسنينَ بينَ عمَلِ الظّاهِرِ والباطِنِ

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ على التَّراخي والتَّفاوُتِ الرُّتبيِّ[1] بين الإقرار المستلزِم للقبولِ والإذعانِ، وبين العملِ الصّالح المعبَّر عنهُ بالاستقامةِ؛ وذلك لأنَّ باعث الاستقامَةِ - وهي لزومُ الطَّريقِ المستقيم - ما في القَلْبِ من الإقرارِ والمحبَّةِ والخوفِ، ولا يحصلُ كمالُها إلّا بتكرار مراقبَةِ النَّفسِ[2].

وفي هذا العطفِ دلالَةٌ على أنَّ هؤلاءِ قد جَمَعوا بينَ التَّوحيدِ الَّذي هو خلاصةُ العِلْمِ، والاستقامةِ في الأمورِ الَّتي هي غايةُ العمَلِ[3].

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾:

التَّصوير الحِسِّيُّ للمَعاني يوَطِّدُ أثرَها في النَّفس

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ استعارةٌ، وذلك لأنَّ أصل الاستقامَةِ عدمُ الاعوجاج، فشُبِّهَت ملازَمَةُ الطَّريقِ المستقيم مِن فِعْلِ الأوامر واجتنابِ النَّواهي - وهو معنويٌّ - بتركِ الانحرافِ والاعوجاجِ؛ إخراجًا للمعقولِ في صورةِ المحسوسِ؛ ليكون أعلقَ بالذِّهْنِ وأرسخَ في النَّفْسِ.

دلالةُ زيادةِ السِّين والتاء في: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾:

أعظَمُ الكَرامَةِ لزومُ الاستِقامَةِ

السِّين والتّاءُ في ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ لطَلَبِ الاستقامةِ والتَّمسُّكِ بالأعمالِ الصّالحة لزومًا لِلطَّريقِ القَويمِ الَّذي لا انحرافَ فيه ولا اعوجاج، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّهم كُلَّما امتَثلوا أمرًا، أو تركوا نهيًا؛ طلبوا

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 466، والإيجي، جامع البيان: 4/ 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 113.

غيرَه لِلُزومِه، سعيًا مِنْهم لتحقيقِ كمالِ الاستقامة، ولذا جُعِلت غايةَ الكرامَةِ[1].

مَعنى (الفاء) في ﴿فَلَا خَوۡفٌ﴾:

انتفاءُ الخوفِ والحُزن مُسبَّبٌ عن التَّوحيدِ والاستقامَةِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ داخلةٌ على الخبَرِ للتّأكيد؛ ولِما في الاسم الموصولِ الواردِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ من رائحةِ الشَّرْطِ[2]، وفي ذلك إيماءٌ إلى جزاءٍ مُترتِّبٍ على ذلك الشَّرط؛ وأنَّ انتفاء الخوف والحزنِ مسبَّب عن التَّوحيدِ والاستقامَةِ[3].

دلالةُ استعمالِ حرفِ (لا) في النَّفْي:

كمالُ الأمْنِ لأهْلِ الإيمانِ

(لا) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ حرفٌ دالٌّ على النَّفْيِ، وهو مفيدٌ نفيَ الجنسِ برُجْحانٍ - في الأصلِ - وقد يُفيد نفيَ الواحد بمرجوحيَّةٍ، ويتعيَّنُ حملُها في الآيةِ على نفيِ الجنسِ لثلاثة أوجهٍ: أحدها: أنَّ هذا هو الرّاجحُ فيها، والعَمَلُ بالرّاجحِ واجبٌ لا راجحٌ، ثانيها: أنَّ المقامَ مقامُ مدحٍ وثناءٍ وتنويهٍ بشأن أهل الإيمان، وذلك لا يتحقَّق البتَّةَ إذا حُمِلَ النَّفي على الواحدِ؛ إذ يكون المعنى أنَّه لا يحصُلُ لهم خوفٌ واحدٌ، ولكن قد تحصلُ لهم مخاوِفُ متعدِّدةٌ، وهذا في غايةِ الفسادِ، يُنزَّهُ كلامُ اللّهُ تعالى عن مثلِه، وثالثها: أنَّ يعقوبَ قرأ (فلا خوفَ عليهم)[4] بإعمالِ "لا" عمل "إنَّ" وهي "لا" النّافيةُ للجنسِ، وهي نصٌّ في نفيِ الجنسِ، فدلَّ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ على نفيِ مطلقِ الخوفِ؛ لأنَّ لفظ الخوف في الآية نكرةٌ واردةٌ في سياقِ النَّفي، فتَعُمُّ، ونفي الخوف عنهم يستلزِمُ ثبوتَ ضدِّه، وهو الأمن الكامِلُ التّامُّ.

---

(1) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص: 187.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 174، والهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 47.

(3) القونوي، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 17/ 466.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 211.

نُكتَةُ استِعمالِ مُفردةِ: ﴿خَوۡفٌ﴾ اسمًا:

انتِفاءُ مُطلَقِ الخَوفِ عَن أهلِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبير عن (الخوف) اسمًا في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ غيرها مِن نَحوِ: الهمِّ أو الغمِّ، لاختصاص الخوف بالمستقبَلِ، فهو غمٌّ يلحَقُ العبدَ من توقُّع المكروه[1]، بخلاف الهمِّ والغمِّ، فيكونانِ في أمورٍ مستقبلَةٍ أو ماضيةٍ، والمقصودُ في الآية وَعدُ أهل الإيمانِ المُستَقيمينَ على الطّاعةِ الملازِمين لَها، والوَعْدُ أمرٌ مستقبَلٌ.

ولم يُعبَّر عن الخوف بصيغة الفِعْلِ (يَخافون)، بل جيءَ به اسمًا؛ ليُفيدَ ثبوتَ النَّفْيِ وداومَهُ، بخلاف التَّعبير بالفعل المضارع، فإنَّه وإن دلَّ على الاستمرارِ إلّا أنَّه استمرارٌ تجدُّديٌّ، والدَّوام أبلغُ من الاستمرارِ التَّجدُّديِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾:

الـجَـزاءُ مِـن جنسِ العمَلِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ نفيِ الخَوْفِ بالجملة الفعليَّة المضارعيَّة: (فلا يخافون)؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، وقولُهُم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واردٌ بالجُملةِ الاسميَّة، وهو دالٌّ على الثُّبوت والدَّوام أيضًا، فيتحقَّقُ التَّناسُبُ بينَ إثباتِهم الرُّبوبيَّةَ للمعبودِ بحقٍّ وحدَهُ سُبحانَهُ، وبينَ نفيِ الخَوْفِ عنهُم على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام؛ ليكون الجزاءُ من جنسِ العمَلِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خَوۡفٌ﴾:

التَّأكيدُ عَلى انتِفاءِ جَميعِ صوَرِ الخَوفِ ومراتِبِهِ

نُكِّرَ لفظُ (الخَوْف) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم؛ لكونِهِ نكرةً في سياق النَّفي، وهو مِن صيغ العموم والاستغراقِ، فيكونُ الخوفُ الصّادقُ بأيِّ فردٍ من أفرادِهِ مهما قلَّ نوعُهُ وضَؤُلَ مقدارُهُ مَنفيًّا عنهم، لا يتلبَّسونَ بشيءٍ منه.

(1) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 428.

ويجوزُ أن يكون التَّنكير لإرادَةِ التَّقليل والتَّحقير، فيكون نفيًا لأقلِّ الخوفِ وأحقَرِه، وفي هذا تنبيهٌ بالأدنى عن الأعلى، فإنَّه إذا نُفِيَ الخَوْفُ اليسيرُ؛ فانتفاءُ العظيمِ مِنهُ أولى وأحرى.

مَعنى (على) ودلالتُها:

نَـفـيُ الـخَـوفِ عَـنِ المُحسنينَ وإثباتُهُ للظَّالِمِينَ

(على) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهوَ استعلاءٌ مَجازيٌّ، والغرضُ منهُ نفيُ تمكُّنِ الخوفِ منهم واستقرارُهُ عليهم، ففي الحرفِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ شُبِّهَ الخوفُ المُلامِسُ شِغافَ القلوبِ - المتعدِّي بـ (الباء) - بحملٍ ثقيلٍ يكونُ على أكتافِهم - يُتعدَّى إليه بـ(على) - ثمَّ استعارَ الثّاني للأوَّلِ؛ تَصويرًا لعلوِّ الخوف وشدَّته على الخائفينَ.

وفي نفيِ الخَوف عنِ المُحسنينَ إثباتٌ لَهُ للظّالمينَ بدلالةِ التَّعريضِ.

مَعْنى(الواو) ودلالتُها:

تناسُبُ المَعاني مُقتضٍ الرَّبطَ بينَ المَبَاني

الواوُ في ﴿وَلَا﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، فإنَّ الجملتَيْنِ متَّحدتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفظِ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظِيُّ؛ فاشتراكهما في الاسميَّةِ والنَّفْيِ، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فهوفي جمعِهما بين ما يُكدِّرُ النَّفْسَ، وهما الخوفُ والحُزْنُ، والخوف يكون مِن وقوعِ مَكروهٍ في المُستقبَل، والحُزْنُ مِن فواتِ محبوبٍ في الماضي[1].

نكتةُ العُدولِ عن الاسمِ (حزن):

تَـأكـيـدُ نَـفْـيِ الـحُـزْنِ عـنِ المُحسنينَ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عَن نَفْيِ الحُزنِ بصيغةِ الاسمِ إلى نفيهِ بالصِّيغة الفعليَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فلم يرِد في النَّظم القرآني: (فلا خوفٌ عليهِم ولا حُزنٌ)؛ وذلك لمراعاة

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 47.

التناسُبِ في الفواصلِ القرآنيَّةِ؛ إذ لو عُبِّر بالاسم؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ، وفي التَّعبير عن الحُزْنِ بالفِعْلِ أيضًا توكيدٌ لنفي الحُزْنِ عنهم، وذلك بتقديمِ المسندِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ، وهذا يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدَوامِ نفي الحُزْنِ عن المحسنينَ، فقد أُسْنِدَ الحُزْنُ إلى ضَميرِ المحسنينَ ﴿هُمۡ﴾ - وهو مِن إسنادِ الخَبَرِ إلى المبتدأِ - وأُسْنِدَ الحزنُ إلى واوِ الجَماعَةِ الرّاجعةِ إلَيهم، وهو مِن إسنادِ الفعلِ إلى فاعِلِه، فَلَمّا تكرَّر الإسنادُ؛ تأكَّدَ المَعْنى، وقَوِيَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ: ﴿يَحۡزَنُونَ﴾:

الــجــزاءُ مِن جنسِ العَمَلِ

عُبِّر عَن نفي الحُزْنِ عنِ المُحسنينَ بالفعلِ المُضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على نفيِ الحُزْنِ على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، أي: لا يتجدَّدُ لهُم شيءٌ من الحُزْنِ، وهذا أنسَبُ لمقابلَةِ الاستقامَةِ[1]، فالمرادُ استمرارُ النَّفْيِ لا نفيُ الاستمرارِ[2]؛ إذ لا يَعْرِضُ لهم حزْنٌ أصلًا، ثُمَّ إنَّ الاستقامةَ لمّا كانت تحصُلُ بمُلاحظةِ الأفعالِ والأعمالِ الصّالحةِ بطريقِ المُتابعةِ المُستمرَّةِ وُصولًا إلى أعلى درجاتِ الكمالِ فيها؛ ناسبَ أن يزولَ الحُزْنُ عنهم بصيغةِ المُضارعِ؛ ليتحقَّقَ التَّوافقُ اللَّفظيُّ مع التَّوافُقِ المعنويِّ.

دِلالةُ تقديمِ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

نـفـيُ الـحـزْنِ عـنِ المحسنينَ وإثباتُه للظّالمينَ

قُدِّمَ المُسندُ إليه ﴿هُمۡ﴾ على المُسندِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لما في ذلك مِنَ التَّأكيدِ، ولِتَخْصيصِ نفيِ الحُزْنِ بهم لا بغيرِهم، فالحزْنُ منتفٍ عَنهُم لا عن غيرهِم ممَّن لم يتَّصِفْ بالإيمانِ والاستقامَةِ على تفاوُتٍ بينَهُم[3].

وفي هذا التَّخصيصِ تعريضٌ بالظّالمين الَّذين يُنذَرونَ بالآياتِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 144.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 82.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

ولا يتّعظونَ، وبالموحِّدينَ العامِلينَ للمَعاصي من غيرِ توبةٍ عنها، فالكافرونَ في خَوفٍ دائمٍ من العذابِ وحُزنٍ مُستمرٍّ على ما جَنَوهُ، وضيَّعوهُ من خيرٍ عميم، والعُصاةُ في خوفٍ؛ خشيةَ العذابِ على ما فعَلوه، وحُزنٍ على فَرَّطوا فيه من العملِ الصّالِحِ.

علَّةُ فَصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

إثباتُ السُّرورِ بعدَ نَفْيِ المَحذورِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه بمَنزلةِ التَّوكيدِ لمضمونِ الجملةِ التي قبلَها، وقُدِّمَ نفيُ المحذورِ عنهم، وهو الخوف والحُزنُ، على إثباتِ السُّرورِ لهم، وهو دخول الجنَّة[1]، من بابِ تقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإيمانُ والاستقامةُ سببانِ لبلوغِ المَراتِبِ العاليَةِ

الإشارَةُ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ إلى المحسنينَ قَبْلُ باعتِبارِ أوصافِهم؛ مِنَ الإيمانِ والاستقامَةِ؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بُلوغِهم هذه المراتبَ العاليَةَ والجزاءَ الجليلَ[2].

وفي التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزونَ بصُحْبَةِ الجنَّةِ أكملَ تمييزٍ وأبْيَنَهُ، وهذا أبلغُ في مدحِهم والثَّناءِ عليهم، وزادَ دِلالةَ المَدْحِ والثَّناءِ ما في اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعْنى البُعْدِ المفيدِ بُعْدَ منزلتِهم في الخَيْرِ وعلوَّ رُتبتِهم في الصَّلاحِ.

دِلالةُ إضافةِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

خلودُ أهلِ الإيمانِ في الجَنَّةِ

أُضيفَ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم صاروا معَها في صُحْبةٍ، وذلك أدلُّ على الاختصاصِ بها ممّا لو جاءَ في النَّظمِ القرآني: (أولئكَ في الجنَّة، أو لهُم الجنَّة)[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 144.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

وفي قول اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ وذلك بتشبيهِ الجنَّةِ بمَن تتأتَّى صُحبتُه، ثمَّ حُذِفَ، وأُبقِيَ من خواصِّهِ ولوازمِهِ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾، وأُضيف إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ تخييلًا، وكأنَّ الجنَّةَ تحوَّلتْ إلى ذاتٍ عاقلةٍ، فصاحَبوها، ولازَموها في جميعِ الأوقات؛ إذِ الصُّحبةُ مُلازمةٌ طويلةُ الأمَد.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

مُلازمَةُ المُحْسنينَ لنَعيمِ الجنَّة

عُبِّرَ بلفظِ (الصُّحبة) دونَ لفظ (الأهل) مثلًا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ لأنَّ لفظَ الأهلِ يدلُّ على استحقاقِهم لها بقطعِ النَّظَرِ عن دخولِها، بخلافِ لفظِ الصُّحبةِ الَّتي تدلُّ على المُلازمةِ المُقتضيةِ دخولِها والتَّنعُّم بنعيمِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

تَيئيسُ الظّالِمين المُشْـركـينَ مِـن دُخولِ الجنَّةِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ هذا الحُكم ودَوامِهِ لهُم.

وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو مِن قَصْرِ الصِّفَةِ علَى المَوْصوفِ، وطَريقهُ: تعريفُ جُزْأي الإسنادِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ففيهِ قصرُ صُحبَةِ الجنَّةِ على أولئك المَذكورينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتَعريفِ طَرَفَي الإسنادِ هوَ المُعرَّفُ باللّامِ، سواءٌ أكان مقدَّمًا أم مؤخَّرًا، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ هَهُنا مُضافٌ لما فيه اللّامُ، فهو بمنزلَتِه.

وهذا القصرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ وذلك أنَّ دخولَ الجنَّةِ مقصورٌ حقيقةً على المؤمنينَ، لا يَشرَكُهُم فيها غيرُهُم، فإنَّ اللّهَ تعالى حرَّمَ الجنَّةَ عَلى الكافِرينَ، ففي جُمْلَةِ القصْرِ تَيْئيسٌ للظّالمين المُشْركينَ مِن دخولِ الجنَّةِ.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

حِرمانُ الظَّالمينَ المُشركين مِن أشرَفِ المَنازلِ

(الـ) في ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ لِلعَهدِ العلْميِّ في الجنَّة الَّتي وعَدَ اللّه تَعالى بها عبادَهُ المُحسنِين، وهي جنَّة الخُلْدِ التي هي أطهر المنازِلِ وأشرفُها.

بلاغةُ التَّعبيرِ عَنِ الحالِ اسمَ فاعلٍ جَمْعًا:

الخُلودُ لازِمٌ لـ "أصحابِ الجنَّة" بحسَبِ الوَضْعِ الشَّرعيِّ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالحالِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ للدَّلالةِ على بيانِ هَيئةِ أصحابِ الجنَّةِ المُشارِ إليهم بأنَّهم فيها خالدونَ، وهذه الحالُ أشبَهُ ما تكونُ بالحالِ المؤكِّدة؛ إذ فُهِمَ من الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أنَّهم مُلازمونَ لها بحيثُ لا تنقطِعُ صُحبتُهُم أبدًا، وإلّا لم يكونوا مِن أصحابِها، فجاءَتِ الحالُ مُؤكِّدةً لصاحبِها مُثبتةً الخلودَ؛ للتَّصريحِ بما عُلِمَ ضِمْنًا[1]، أو تكون الحال مقيِّدَةً؛ لأنَّ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ لا يقتضِي بحسبِ الوَضْعِ اللُّغَويِّ الخلودَ والدَّوامَ، وإن كانَ العُرْفُ الشَّرعيُّ يَقْتَضيه، فَصُرِّحَ بالخلودِ؛ تنبيهًا على أنَّ هذِهِ الصُّحْبَةَ تقتضِي الخُلودَ والدَّوامَ.

واختيرَ في الحال أن يكونَ اسمَ فاعلٍ؛ للدَّلالةِ على التَّلبُّسِ بهذا الوصفِ على سبيلِ الاستمرارِ.

وقد كان جَمْعًا مُذكَّرًا مِن باب التَّغليبِ، كما أنَّ لفظَ (المُحسنِينَ) فيه تغليبٌ للمذكَّر على المؤنَّث كذلك؛ إذ إنَّ الإيمانَ باللّه ربًّا والاستقامةَ ليسا ممّا يختصُّ بالذُّكور.

مَعْنى (في) ودلالتُها:

كَمالُ نَعيمِ أصحابِ الجنَّة

(في) من قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حرف جرٍّ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وفي ذلك دلالةٌ على كمالِ خُلودِهم في النَّعيمِ، حتّى إنَّ النَّعيم يُحيط بهم من كلِّ جانبٍ كإحاطة الظَّرْفِ بالمظروفِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 144.

نكتةُ إيرادِ المفعولِ المطلق: ﴿جَزَآءَۢ﴾:

الـعـنـايـةُ بـأحـوالِـهـم تَستدعِي توكيدَ مآلِهم

لفظُ ﴿جَزَآءَۢ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مفعولٌ مُطْلَقٌ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: جازَيْناهُم[1]، وفي التَّعبير بالمفعولِ المطلقِ توكيدٌ لثوابِهم المَوْعودينَ به، وهذا من تمامِ العنايةِ بالتَّنويه بهم وبشأنِهم[2].

مَعْنى (الباء) ودلالتُها في قولِهِ: ﴿بِمَا﴾:

الأعــمــالُ الصّالحة سبَبٌ في دخولِ الجنَّة لا عِوَضٌ عَنْها

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّة، لا على المُقابلَة، وهِيَ الدّاخِلَةُ على الأعْواض[3]؛ لأنَّ الأعمالَ ليست عِوَضًا عنِ الجنَّة، ولذا جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يُدْخِلَ أحَدًا عَمَلُهُ الجنَّةَ»، قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «لا، ولا أنا، إلّا أن يَتَغَمَّدَني اللّهُ بِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ»[4]، فالباءُ في الآية سببيَّةٌ، وأفاد هذا أنَّ الأعمالَ الصّالحةَ سببٌ في دُخولِ الجنَّة بفَضْلِ اللّهِ تعالى ورَحْمَتِه.

مَعْنى (ما) ودلالةُ استعمالها:

الـعُـمـومُ في الأعـمالِ مُنبِئٌ عَـن كَـمـالِ الإحاطَةِ بِها

(ما) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهوَ دالٌّ على العُمومِ والإبهام، الدّالَّينِ على أنَّهم يُجازَونَ عن كلِّ عملٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وفي هذا إشارةٌ إلى كمالِ علم اللّه تعالى بما يَعملونَهُ من خَفايا الأعمالِ الَّتي لا تظهَرُ للعيان.

كما أفادَ التَّعبيرُ بـ (ما) الموصوليَّة التَّعليلَ بجملةِ الصِّلة للجَزاء الواقِعِ نتيجةَ تلك الأعمالِ المُتَقَرَّب بها.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 47.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 28.

(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 141.

(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (5673)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2816)، وفي لفظٍ عِنْدَ أحمد في مسنده، برقم: (7479): «لا يَدخُلُ أحَدٌ مِنكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

رُسوخُهم في الأعمال الصّالحَة صَيَّرها مِن جِبِلّاتِهم

غرضُ التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

جاءَ التَّعبير في جملة الصِّلة في قولِ اللهِ تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بفعل الكَوْن ﴿كَانُواْ﴾، فلم يرِد في النَّظم القرآني: (جزاءً بما عملوا، أو يعملونَ)؛ للدَّلالة على التَّمكُّنِ مِنَ العمَل المُستقِرِّ فيهم، وذلك أنَّ فعلَ الكونِ يدلُّ على مُطلَقِ الحدَث الشّاملِ لجميعِ الأفعالِ، وعندَ ارتباطِهِ بفعلٍ خاصٍّ يُفيدُ تلبُّسَهُ بذلك العملِ على سبيلِ اللُّزوم والاستقرارِ والوُجودِ والاتِّصاف، حتّى صارَ ذلك طبيعَةً وجِبِلَّةً لَهُم(1)، فهُم لا يَنفكّونَ عن تلك الأعمالِ الحسَنة في مختلفِ أحوالِهم.

الفِعلُ أعَمُّ مِنَ العمَل؛ لِشُمولِهِ المَقْصودَ وغيرَ المقْصودِ

بلاغةُ التَّعبير بالعمَلِ دون الفِعْلِ:

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ (العمل) خبرًا لاسم الكونِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ لفظِ (يفعلونَ)؛ للدَّلالةِ على الفعلِ المَقصودِ المُرادِ إنجازُهُ، بخلافِ التَّعبير بلفظِ (الفعل)؛ فإنَّهُ شاملٌ للمقصودِ وغيرِه، فالعمَلُ - على هذا - أخصُّ مطلقًا مِنَ الفِعل، وفي ذلك أمارَةٌ على أنَّهم كانوا يقصدونَ بأعمالهم القُرَبَ إلى اللهِ تعالى وابتغاءَ مرضاتِه.

تجدُّدُ أعمالِهم مسارَعَةٌ مِنهُم إلى رِضا رَبِّهِم سُبحانَه

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ خبرِ فعل الكَونِ فِعلًا مُضارعًا في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ العمَلَ يَصدُرُ منهُم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، وما ذلك إلّا لحرصِهم على شَغْلِ زمانِهم بفعلِ الطّاعاتِ واجتِنابِ المنهيّاتِ.

غرضُ حذفِ مُتعلّقِ فِعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ الواردِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهو الضَّميرُ المنصوبُ العائدُ إلى المَوصول،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 144.

العُمومُ يتقوَّى بالحَذْفِ كما يتقوَّى بذِكْرِ اللَّفظ

والتَّقديرُ: (جزاءً بما كانوا يعملونَهُ)، وحذفُ العائد المنصوبِ بالفِعْلِ كثيرٌ في كلام العرَبِ[1].

وفي حذفِهِ إيماءٌ إلى العموم؛ لأنَّ حذْفَ المتعلّق مؤذِنٌ بذلك، فيشملُ الأعمالَ كُلَّها، عظيمها وصغيرَها، قليلَها وكثيرَها، باطنَها وظاهرَها[2].

(1) الأشموني، شرح ألفية ابن مالك: 1/ 156.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 82.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بِرُّ الوالدينِ ثاني مراتبِ الطّاعةِ وعُمدةُ طريقِ الاستقامةِ

لَمّا ذَكَرَ تعالى في الآيَةِ السّابقةِ قَولَهُ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف: 14]، قالَ هاهُنا: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذ كانَ برُّ الوالِدَين ثانيًا أفضَلَ الأعمالِ[1]، فَقَرَنَ بالوَصيَّةِ بطاعَتِه الوَصيَّةَ بالوالدَين؛ لِكَونه تَعالى جَعَلَهُما سَبَبَ الإيجاد، فَقالَ في هَذا السِّياقِ الَّذي عَدَّ فيهِ الأعمالَ - لِكونه سياقَ الإحسانِ - الَّتي أَفْضَلُها الصَّلاةُ عَلى ميقاتِها، وثانيها في الرُّتْبَةِ برُّ الوالِدَين[2]، فَجاءت عقبَ ذِكرِ أصحابِ الجَنَّة؛ لأَنَّ أقربَ الخَلْقِ إلى أبوابِ الجنَّةِ هُم أهلُ البِرِّ بالوالدين، كَما أَنَّ أقربَ أهلِ النّارِ إلى النّارِ العاقّونَ للوالِدَين، وأسوأُ الأعمالِ بَعدَ الشِّركِ باللّهِ هو عُقوقُ الوالدين[3].

وذهبَ بَعضُهُم إلى أنَّ هَذا الانتِقالَ في الآيةِ انتقالٌ إلى قَولٍ آخَرَ من أقوالِ المُشْرِكينَ، وهو كَلامُهم في إنكارِ البَعثِ وجدالِهِم فيه، فَإِنَّ ذَلكَ مِن أُصولِ كُفْرِهِم بِمَحَلِّ القَصْدِ، وصِيغَ في أُسلوبِ قِصَّةِ جِدالٍ بَينَ والِدَينِ مُؤمِنَين ووَلَدٍ كافرٍ، وقِصَّةِ جِدالٍ بَينَ وَلَدٍ مُؤمنٍ ووالِدَين كافِرَين؛ لأَنَّ لِذَلِكَ الأُسلوبِ وقعًا في أَنفُسِ السّامِعينَ، ولِذَلِكَ تَعَيَّنَ أن يَكونَ ما قَبْلَهُ تَوْطِئَةً وتَمْهيدًا لِذِكرِ هَذا الجِدالِ[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 439.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 144.

(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 408.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 28.

والجَمْعُ بين هذينِ التَّوجيهين مُتَّجهٌ، فإنَّ التَّوجيهَ الأوَّل مناسبٌ لقُربِ الآيةِ السّابقة للّاحِقةِ، والآخَر مناسبٌ للموضوعِ والاتِّساقِ بين المعاني الكلّيَّةِ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُرْهًا﴾: (كره) أصلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ، يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كَرْهًا، والكُرْهُ الاسمُ[1]، ويُقالُ: بَلِ الكُرْهُ: المَشَقَّةُ، والكَرْهُ: أن تُكَلَّفَ الشَّيءَ، فَتَعمَلَهُ كارِهًا، يُقالُ: فَعَلْتُهُ على كُرْهٍ، وفعلتُه كُرْهًا، وإذا ضمّوا، وخفَّفوا؛ قالوا: كُرْه، وإذا فتحوا؛ قالوا: كَرْه، والكَرْه: المكروهُ[2]، وقالوا: لا فَرقَ ما بَين الضَّمِّ والفتح في العَرَبيَّة ولا في سُنَّةٍ تُتَّبَعُ، إلّا الفرّاء، فإنَّهُ زعم أنَّ الكُرْه ما أكرهتَ نفسَك عَلَيه، والكَره ما أكرهكَ غيرُكَ عَلَيه[3]، وقيلَ: الكَرْهُ: المشقَّةُ الّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكْراهٍ، والكُرْهُ: ما ينالُه من ذاته، وهو يَعافُه، وذَلكَ على ضَربين، أحدُهُما: ما يُعافُ من حيثُ الطَّبعُ، والثّاني: ما يُعافُ من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، ولهذا يصحُّ أن يقولَ الإنسانُ في الشَّيءِ الواحِدِ: إنّي أُريدُه، وأكْرَهُهُ، بمعنى أنّي أريدُه من حيثُ الطَّبعُ، وأكْرَهُهُ من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، أو أريدُه من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، وأكْرَهُهُ من حيثُ الطَّبعُ[4]، والمُرادُ بـ﴿كُرْهًا﴾ هاهُنا: المَشَقَّةُ، ولَيْسَ الكُرْهُ في أوَّلِ عُلوقِ الأمِّ بَحَمْلِها، بَل بَعدَ ذَلِكَ حِينَ تَجِدُ لَهُ ثِقلًا[5].

2) ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾: (وضع) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّه، ووَضَعْتُهُ بالأرْضِ وضْعًا، ووَضَعَتِ المَرْأةُ ولَدَها[6]، ووَضعَ عَنهُ الدَّينَ والدَّمَ وجَميعَ أنواعِ الجِنايةِ يَضَعُه وضْعًا: أسقَطَه عَنهُ[7]، والوَضْعُ أعمُّ من الحطِّ، ومنه: المَوْضِعُ، ويُقالُ ذَلكَ في الحَمْلِ والحِمْلِ، ويُقالُ: وضَعَت الحملَ، فهو مَوْضوعٌ[8]، والمَعْنَى المِحوريُّ: الهويُّ بالشَّيءِ إلى مقرٍّ مُنخفضٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (كره).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كره).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (كره).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 175.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وضع).

يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فيه[1]، والمُرادُ بـ﴿وَوَضَعَتۡهُ﴾ هاهُنا: وضَعَتِ المرأةُ وضْعًا – بالفتح – أي: ولَدَتْ[2].

3) ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلى تَمْيِيزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانَتِهِ عَنهُ، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيءَ فَصْلًا[3]، والفِصالُ: الفِطامُ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾، المَعْنَى: ومَدى حَمْلِ المرأة إلى مُنْتَهَى الوَقْتِ الَّذِي يُفْصَل فِيهِ الوَلَدُ عَن رَضاعها ثَلاثونَ شَهْرًا، وفَصَلتِ المرأةُ ولَدَها، أي: فطمَتْه، وفَصَل المولودَ عَنِ الرَّضاعِ يَفْصِله فَصْلًا وفِصالًا، وافتَصَلَه: فَطَمه، والاسْمُ الفِصال[4]، وفي الحَدِيثِ: «لا رَضاع بَعدَ الفِصالِ»[5]، أي: بَعدَ أن يُفصَل الوَلَدُ عَن أُمِّه[6].

4) ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: (وزع) بِناءٌ مَوضوعٌ على غَيْرِ قِياسٍ، ووَزَعْتُهُ عَنِ الأمْرِ: كَفَفْتُهُ، قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: 17]، أي: يُحْبَسُ أوَّلُهُم على آخِرِهِم[7]، والوزعُ: كفُّ النَّفْسِ عن هَواها، وبناءٌ آخَرُ، يُقالُ: أوزَعَ اللّه فُلانًا الشُّكْرَ: أَلْهَمَهُ إيّاهُ، ويُقالُ: هوَ مَن أوزِعَ بالشَّيءِ؛ إذا أولِعَ به، كَأنَّ اللّه تعالَى يولِعُهُ بِشُكْرِه[8]، والمعنى المحوريُّ: الكفُّ عن الانتشارِ تَجاوزًا للجماعةِ أو تَخطِّيًا ومفارقةً[9]، وقولُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ﴾، أي: أَلْهِمْني، وتأويلُه في اللُّغَة: كُفَّني عَن الأشياء إلّا عَن شُكر نِعْمَتك، وكُفَّني عمّا يُباعِدُني عَنك، ويُقال: قد أوزَعْتُه بالشَّيءِ إيزاعًا؛ إذا أغريتُه، وإنَّه لموزَعٌ بكَذا وكذا، أي: مُغْرًى به، والاسم الوَزوعُ، وقد أوزَعَهُ اللّهُ؛ إذا أَلْهَمَهُ[10]، وتحقيقُه: أولعِني ذَلِكَ، واجعلني بحيثُ أزِعُ نفسي عن الكُفْرانِ[11].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وضع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وضع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(5) رواه عبد الرّزاق في مصنفه، برقم: (14825)، والحديث مختلف في وصله ووقفه، انظر: مجموعة من المؤلّفين، المسند المصنف المعلل، مسند الصّحابة، مسند علي بن أبي طالب، برقم: (9606).
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وضع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وزع).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزع).
(11) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وزع).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الــوَصــيَّــةُ بالوالدينِ مِفتاحُ السَّدادِ وسبيلُ الرَّشادِ

بَيَّنَ النَّظمُ الحكيمُ في هذه الآيةِ وصِيَّةً عظيمةً مِن وصايا القُرآنِ، وهي الأمرُ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ في الحياةِ وبعدَ الموتِ، وذلكَ بالحُنوِّ عليهما، والكلامِ اللَّطيفِ معهُما، والإنفاقِ عليهما عند الحاجةِ، والبشاشةِ عند لقائهما، وخَصَّ الذِّكْرُ الحكيمُ الأُمَّ مرَّةً في لفظِ الوالِدَينِ، ثمَّ ذُكِرَتْ في مراتبَ ثلاثٍ أُخرى، وهي حَمْلُ الأمِّ ثُمَّ وضْعُها، ثمَّ إرضاعُها الولدَ، الَّذي عبَّر عنهُ بِالفِصالِ، والحَمْلُ والوَضْعُ بِمَشَقَّةٍ، حتّى إذا بلغ الولدُ أشدَّهُ، وكمُلَ عقلُه ورأيُه، واشتدَّ ساعدُه، وبلغَ أربعينَ سنةً، قال: ربِّ ألهِمْنِي، ووَفِّقْني أن أشكرَ نعمتَك الَّتي أنعمتَ بها عليَّ، وعَلى والِدَيَّ، من نعمةِ الهدايةِ إلى الدّينِ الحقِّ والتَّوحيدِ، وغيرِ ذلكَ مِن نِعَمِ الدُّنيا، كسلامةِ العقلِ والصِّحَّةِ، ووفرةِ العيشِ، وكمالِ الخِلقَةِ، وحنانِ الأبوينِ في الصِّغَرِ، وألْهِمْني، ووَفِّقْني للعملِ الصّالِحِ الَّذي تَرضاه منّي، وأصلح لي في ذُرِّيَّتي بِجَعْلِهِم أهلَ طاعةٍ وخيريَّةٍ، إنِّي تُبْتُ من الذُّنوبِ، ورَجَعتُ إليكَ مِنَ العُيوبِ، وإنِّي من المُنْقادِينَ لطاعَتِك، المُخْلِصينَ لتوحيدِكَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَوَصَّيۡنَا﴾:

الإحـــســـانُ للـوالـدينِ ثـمرةُ الاسـتِـقـامَـةِ وأصلُ الرَّزانةِ

الواو في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ استِئنافِيَّةٌ؛ لأنَّ الَّذي بعدَها مَعْنًى مُستأنَفٌ، يُبيِّنُ وجهًا من وجوهِ الاستِقامَةِ، الَّتي صارَ إليه مَن قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [الأحقاف: 13]، والتي انتهت بهم إلى أن يَكونوا من أصحابِ الجنَّةِ، وهذهِ الوَصِيَّةُ تُمثِّلُ هذا الوجهَ؛ لأنَّها تعني أمرًا أَمَرَهُ اللهُ، فأنفذَهُ العابدُ المنقادُ لأَمرِ ربِّهِ[2]؛ إذ في الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّه ﷺ سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 3/ 2416.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف): دراسة في أسرار البيان، ص: 408.

أَحَبُّ إلَى اللّه؟ قال: «الصَّلاةُ على وقْتِها»، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوالِدَين»[1]، وكانَ عُقوقُهُما ثانيَ أكبَرِ الكَبائِرِ؛ إذ قالَ ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُم بِأكبَرِ الكَبائِرِ؟» ثلاثًا، قالوا: بَلَى يا رَسولَ اللّه، قال: «الإشراكُ بِاللّه، وعُقوقُ الوالِدَين»[2].

بلاغةُ اختيارِ مُفردَةِ (وَصَّيْنا) دونَ رَديفاتِها:

الوصيَّةُ تحملُ معنى الصِّلةِ مع الحثِّ على الفعلِ والامتثالِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالفعلِ (وَصَّيْنا) دونَ مُرادفاته، مثل: (عَهِدَ)، و(نصَحَ)، و(أرشدَ)، و(فرض)، و(أمَرَ)؛ لِما في الفعلِ (وَصَّى) مِنَ الدَّلالَةِ على وصلِ شَيءٍ بِشَيءٍ[3]؛ إذِ التَّوصِيَةُ: كالإيصاءِ، يُقالُ: أوصى ووَصّى، وهي أمرٌ بِفعلِ شَيءٍ في مَغِيبِ الآمِرِ به، ففِي الإيصاءِ مَعْنى التَّحْريضِ على المَأمورِ بِهِ[4]، فكان استِعمالُ هذِه المفردة مناسبًا تمامَ المُناسبةِ لجلالة الأمرِ الموصَى به، وهوَ برُّ الوالدَينِ، حتَّى يكونَ الإحسانُ نابعًا منَ القلبِ، بمحبَّةٍ وعِرفانٍ، لا مُجرَّدَ أداءٍ للواجب المفروض فرضًا.

دلالةُ إسنادِ فِعلِ (وَصَّيْنا) إلى ضَميرِ العَظَمةِ:

الإيـمـاءُ إلى مـكـانـةِ بـرِّ الوالدَينِ، وأنَّها وصيَّةُ العظيمِ سبحانه

أُسنِدَ فِعلُ الإيصاءِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، فلم يقل: (وصَّى اللّهُ)، أو (أوصيَ الإنسانُ)؛ لما في الإسنادِ إلى نون العَظَمةِ مِنَ الإشعارِ بخُطورة قَضيَّةِ برِّ الوالدَين، وأنَّها مِنَ المحلِّ الأرفعِ في الإسلام، فأكسبَ ضميرُ العَظَمةِ الوصيَّةَ جلالًا وتقديرًا وتعظيمًا، ممّا يدلُّ عليه ضميرُ العَظَمةِ الَّذي في أوَّلِ السّورة: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الأحقاف: 3]، فهي وصيَّةُ العزيزِ الحكيمِ، الخالقِ الرّازقِ المُحْيي المُميتِ جَلَّ، وتَقَدَّسَ، ومَن أنفَذَها؛ فقدَ وجدَ الطَّريقَ لائِحًا لاحِبًا، لهُ منارٌ يَهْتَدي

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (526).
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (2693).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.

به، يَصِلُه إلى صِراطِ اللّهِ المستقيم، ومَن زاغَ، وعانَدَ؛ فقدَ صار مِنَ الَّذِين طَمَس اللّهُ علَى أعينِهِم[1].

نَوعُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

كُــلُّ الـخَـلـقِ مـأمـورونَ بـبرِّ الـوالـدَيـنِ، والمـسـلـمـونَ مـنـهـم عـلى الخصوصِ

جاءَت مفردَةُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مُعرَّفةً بـ(الـ)، الدّالَّةِ على الجِنْسِ، أي: (وصَّيْنا النّاسَ)، فالمُرادُ بالإنسانِ - الَّذي وصّاه اللّهُ - كُلُّ إنسانٍ، مُؤمنًا كانَ أو كافرًا، وهذا يُشْعِرُ بأنَّ هذه الوصيَّةَ ورَدَت في كُلِّ كُتبِ اللّه، وأنَّها مِن شرعِنا ومِن شَرعِ مَن قبْلَنا، وقد زادَ هذا في الكتابِ العزيزِ، وفي سُنَّةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ، وزاد بذلك بِرُّ الوالدَين في هذه الأُمَّة، فكانَ البِرُّ بالوالدَين أجْلى مَظهرًا في هذهِ الأُمَّةِ منهُ في غَيرِها، وكانَ مِن بَركاتِ أهْلِها بِحَيثُ لَم يبلغْ بِرُّ الوالِدَينِ مَبلَغًا في أُمَّةٍ مَبلَغَهُ في المُسْلِمينَ، وأشارَ بَعضُهُم إلى أنَّ المُرادَ بِهِ خُصوصُ النّاسِ الَّذينَ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بوَصايا اللّه والَّذِينَ آمَنوا، وعَملوا الصّالِحاتِ، وذَلِكَ هو المُناسِبُ لِقَوْلِهِ في آخِرِها: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾[2].

بَلاغةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

بِرُّ الوالدَينِ هو جوهرُ إنسانيَّةِ الإنـسـانِ، وفي أُنسِ الوالدَينِ رضا الرَّحمنِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ دونَ لفظِ (المُؤمنِ)؛ لأنَّهُ لمّا كانَ المقامُ مقامَ حضٍّ وحثٍّ وتحريضٍ على الإحسانِ؛ كان التَّذْكيرُ بإنسانيَّةِ الإنسانِ أليقَ مِنَ التَّعبيرِ بخاصيَّةِ الإيمانِ، فإنَّ بِرَّ الوالدَينِ هوَ جوهرُ إنسانيَّةِ الإنسانِ، وثمَّةَ إشارةٌ دقيقةٌ في اختيارِ هذا اللَّفظِ، وهي خاصيَّةُ الأُنْسِ؛ إذِ المرادُ هَذا النَّوعُ الَّذِي أنِسَ بِنَفْسِهِ[3]، ومِن ثَمَّ يَنْبَغي أن يُغلِّفَ الإيناسُ - المشتقُّ من لفظِ الإنسانِ - العلاقةَ بينَ الآباءِ والأبناءِ، وأن يسودها الوئامِ والتَّراحُم، لا مجرَّد الامتثالِ.

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 144.

نوعُ الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾:

شدَّةُ الالتِصاقِ بينَ الأبناءِ والآباءِ تأكيدٌ للعنايةِ والبرِّ والإحسانِ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ للإلصاقِ المعنويِّ، فأفادتِ اتِّصالَ الفعلِ بمدخولِ الباءِ، دونَ انفصالٍ ولا مسافةٍ بَينَهُما، ولا شكَّ أنَّ الإلصاقَ في هذا المقام أبلغُ في تأكيدِ شأنِ العِنايةِ والإحسانِ بالوالدَين، وعلى هذا الأُسلوب جاءت جميع الآياتِ القرآنيَّة الَّتي توصِي بالإحسانِ بالوالدَين[1]، وكانَ مِن أثر الباءِ كذلكَ تعديةُ الفعلِ (وصَّيْنا)؛ لأنَّ فِعْلَ الوِصايَةِ يَتَعَدّى إلى الموصى عليه بالباءِ، ويَتَعَدّى إلى الفِعْلِ المأمورِ بِهِ بالباءِ أيضًا، وهو الأصلُ، فَإذا جَمَعَ بَينَ الموصى عَلَيهِ والموصى به، وغَلَبَ حَذْفُ الباءِ مِنَ البَدَلِ اكتِفاءً بِوُجودِها في المُبدَلِ منهُ، فَكَذَلِكَ قَولُهُ تَعالى هُنا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ تَقديرُهُ: (وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيهِ بِحُسْنٍ) بِنَزْعِ الخافِضِ[2].

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الوالدِيَّةِ دونَ الأبَوِيَّةِ:

تغليبُ الوالدِيَّةِ باعتبارِ ما تضمَّنه السِّياقُ من ذِكْرِ الحَمْلِ والوِلادةِ

آثَرَ البَيانُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ عُنوانِ الوالديَّةِ دونَ الأبويَّةِ، فَقال: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾؛ وذلكَ لأنَّ من دِقَّةِ النَّظم الكريم تغليبَ جِهَةِ الوالدةِ في سياقِ البرِّ والشَّفَقة، ويكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ بالوالدَين بهذا الاعتبار، ويُلْحَقُ بها الأبُ تَغْليبًا، الَّذي يُسَمَّى (والدًا)[3]، ولَمّا كانَ سياقُ الآيةِ حثًّا على البرِّ والإحسانِ، فضلًا عن استفاضَةِ الآيةِ في الحديثِ عَمّا تَحمَّلَتْهُ الأمُّ مِنَ المشاقِّ؛ فقد آثَرَ النَّظْمُ التَّعبيرَ بلفظِ (الوالِدَين) دونَ (الأبوينِ)؛ لحاجة الأمِّ للإحسانِ أكثرَ مِنَ الأبِ، لِما في جبلّتِها من الضَّعف، مُقارنَةً بالأبِ غالبًا، ولِذا فقد جاء الحديثُ الشَّريفُ بتأكيد حقِّ الإحسانِ إليها

---

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/ 163.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.

(3) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 1/ 283، و286.

وتَقَدُّمِهِ على حقِّ الأبِ، فعَن أبِي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّه ﷺ، فَقالَ: مَن أحَقُّ النّاسِ بِحُسْنِ صَحابَتِي؟ قالَ: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أبوكَ»[1].

نُكْتَةُ استعمالِ الضَّميرِ المُفْرَدِ دونَ الجمعِ:

الجمعُ بينَ الوصيَّة العامَّةِ للنّاسِ ولكلِّ إنسانٍ باعتباره الخاصِّ

جاءَ النَّظمُ الكريمُ بإفرادِ الضَّميرِ في ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ دونَ الجمعِ، فلم يقلْ: (بوالديهِم) - رغم أنَّ التَّعريفَ في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ - وذلك لبيانِ عَوْدِ الضَّميرِ على لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مفردًا؛ لِبيانِ المسؤوليَّةِ الفرديَّةِ لكلِّ ابنٍ عن والديه، فمهما تعدَّدَ الأبناءُ لِكِلا الوالدَينِ، أو لكلِّ واحدٍ منهُما؛ تبقى الوصيَّةُ فرديَّةً على كلِّ ابنٍ على حِدَةٍ، لازمَةً في عنقه تجاه والدَيه، ولا تسقطُ عنه بقيامِ أحدِ إخوتِهِ بها، ففي إفرادِ الضَّميرِ إشارةٌ إلى أنَّ البرَّ بالوالدَينِ والإحسانَ إليهما فرضُ عينٍ على كلِّ ابنٍ من أبنائِهما، فالوصيَّةُ عامَّةٌ في كلِّ إنسانٍ، لكنَّها جاءت توحِي بأنَّ كلَّ إنسانٍ مخاطَبٌ بهذه الوصيَّةِ وحدَه، ومن هنا جَزُلت هذه النُّكْتَة.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾:

كثافةُ الدَّلالاتِ في مفردَةِ الإحسانِ الَّتي تحضُّ على الحنانِ والبرِّ والرِّقَّةِ والجمالِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردَةِ الإحسانِ في قولِه تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ دونَ غيرها من المفردات الَّتي تصلح في هذا المقام، كالبِرِّ والصِّلَة، وغيرهما؛ وذلكَ لما في مفردةِ الإحسانِ منَ الدَّلالاتِ الكثيفةِ الَّتِي تحضُّ على المبالغَةِ في الإحسان والبرِّ؛ إذِ الإحسانُ ضدُّ الإساءَة[2]، ففيها معنى النَّهيِ عن الإساءةِ بما هوَ أبلغُ منها، وفيها كذلكَ معنى نَقاء الشَّيءِ ورِقَّته، بخُروجِ الخَشنِ أوِ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (6664).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).

الغَلِيظِ الَّذي يُخالِطُهُ، فَيَشوبُ رِقَّتَه[1]، فيكتسي الإحسانُ ثوبَ الرِّقَّةِ والحنان، كَما أنَّ الحُسْنَ عِبارَةٌ عَن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فِيه، وكُلِّ ما يَسُرُّ مِن نِعمَةٍ تَنالُ الإنسانَ في نَفسِهِ وبدَنِه وأحوالِه[2]، فاحتوَت لفظَةُ الإحسانِ على دلالاتٍ لا تشتَمِلُ عليها غيرها؛ لمناسَبَةِ المقامِ في بِرِّ الوالدَين.

أثرُ الإعرابِ في تنوُّعِ المَعنى في لفظِ ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾:

تنـوُّعُ المعانِي المُترتِّبَةِ على كُلِّ وجهٍ لمزيدِ العنايةِ ببرِّ الوالدَينِ وبيانِ أوجُهِ الإحسانِ

تعدَّدت أقوالُ المُعْرِبين[3]، في قوله تعالى: ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ على ستَّةِ أقوالٍ، **الأوَّلُ**: أنَّهُ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: (وَصَّينا بِأن يُحْسِنَ إليهما إحسانًا)، فهو مصدرٌ مؤكَّدٌ، ففيه إيجازٌ بالحذف، ونُكْتَتُه الاهتِمامُ بالفعلِ في حَدِّ ذاته، أي: قُلْنا له: أَحْسِنْ إحسانًا، على أنَّ معنى (وَصَّيْنا): قلنا له، أو أنَّ (وَصَّى) يجري مجرى (أَمَرَ)، معنًى وتصرُّفًا، **والثّاني**: أنَّهُ مفعولٌ بِهِ على تضمين (وَصَّيْنا) معنى (ألزمنا)، فهو على هذا مفعولٌ به ثانٍ، وعلى هذا الوَجْهِ فيه إلزامٌ وتَكليفٌ، ومِن ثَمَّ فَفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ في مخالفةِ الوَصِيَّةِ إغضابًا للّٰه تعالى، أو على أنَّهُ مفعولٌ بِهِ لمحذوفٍ على تقديرِ: (وَصَّيْنا الإنسانَ أن يفعلَ بِوالدِيهِ إحسانًا)، **والثّالثُ**: أنَّهُ منصوب على أنَّه مفعولٌ له، أي: (وصَّيْناه بهما إحسانًا مِنّا إليهما)، وعلى هذا الوجْهِ ففيه تعليل الأمر بالإحسانِ[4]، **والرّابعُ**: أنَّهُ منصوب على المصدر الصَّريح؛ لأنَّ معنى (وَصَّيْنا) أَحْسَنّا، فهو مصدر صريح، والمفعول الثّاني هو المجرور بالباء، **والخامس**: أنَّهُ منصوبٌ على نزعِ الخافضِ، أي: (وَصَّيْنا الإنسانَ بِالإحسانِ إلى والدِيه)، وعلى هذا الوجْهِ تَتَكَرَّرُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حسن).

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 667، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 38.

(4) محيي الدّين الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 176.

الباءُ، فتلتصقُ بالإحسانِ، فيكونُ ثَمَّةَ تلازُمٌ بين الوَصِيَّةِ والإحْسانِ، و**السّادسُ**: أنَّهُ منصوبٌ على الحاليَّةِ، والتَّقديرُ: وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه ذا إحسان.

في قراءةِ (حُسْنًا) إرشـادٌ إلى كُـلِّ جميلٍ رائقٍ مِنَ الـقولِ والفعلِ والسُّلوكِ

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

اختلف القُرّاءُ في كلمةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾؛ فقرأ الكوفيّونَ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ بزيادةِ همزةٍ مكسورةٍ قبل الحاءِ، وكذلك هي في مصاحفِ الكوفةِ، وقرأ الباقونَ: ﴿حُسْنًا﴾ بضَمِّ الحاءِ، وإسكانِ السّينِ من غير همزة ولا ألفٍ، وكذلك هيَ في مَصاحِفهم[1]، ورغمَ التَّقاربِ الشَّديدِ بين اللَّفظينِ، فإنَّ ثَمَّةَ مَعْنًى زائدًا في ﴿حُسْنًا﴾، فَكأنَّهُ في ذاته نَفْسُ الحُسْنِ؛ لِفَرْطِ حُسنِه، وهوَ أن يتخيَّرَ الإنسانُ من القولِ ما هوَ أجملُ وأحسنُ وأرفعُ، وأن يبتعدَ عن الكلمةِ النّابيةِ، والسُّلوكِ الخَشِنِ، وأن يُجانبَ القُبحَ في كلِّ ما يأخذُ، ويدَعُ، وأن يتخيَّرَ الأجملَ والأحسنَ والأزينَ، ولا يُتَصَوَّرُ أن يكون حُسْنًا مع الوالدَين وقُبْحًا مع النّاسِ؛ لأنَّ قُبْحَه مع النّاسِ سيسوءُ الوالدَينِ، وكأنَّ الوصيَّةَ تنتهي إلى أن يدخل في قول رسول اللّه ﷺ: «إنَّ من أحَبِّكم إليَّ وأقْرَبِكُم مِنّي مَجلِسًا يَومَ القِيامَةِ أحاسِنَكُم أخلاقًا»[2].

أعظمُ الإحسانِ الإحـسـانُ إلى الوالدَينِ

غرَضُ تَنْكِيرِ لفظِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾:

جاء النَّظمُ الكريمُ بمفردةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ نَكرَةً، وعدلَ عن تعريفها، فلم يقل: (ووصَّينا الإنسانَ بالإحسانِ إلى والديه)؛ وذَلِكَ لِما في التَّنوينِ مِنَ الإشارةِ لِلتَّفخِيمِ والتَّعظِيمِ، أي: إحْسانًا عَظِيمًا، فَفي الآيَةِ إشعارٌ بِأنَّ الإحسانَ بِهِما أمرٌ مُعتَنًى بِهِ[3].

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 373.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 412، والحديث أخرجه التّرمذي في سننه، برقم: (2150).

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 175.

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾:

أوَّلُ ما يوجِبُ الإحسانَ للأُمِّ ما تحَمَّلَتهُ من مشاقِّ الحَمْلِ

فصلَ النَّظْمُ الجليلُ جملةَ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ عَن جملةِ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾؛ لما بينهما من شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، أو ما يُسمَّى بالاستِئناف البيانيِّ، فأثارت الجملةُ الأولى في نفسِ المُتلقِّي سؤالًا، مُفادُه: لماذا هذه الوَصِيَّةُ العظيمةُ المُؤَكَّدَةُ بالإحسانِ إلى الوالدَينِ؟ فجاءَتِ الجملةُ الثّانيةُ جوابًا عن هذا السُّؤالِ، فَبيَّنَتْ سببَ الإيصاءِ وعِلَّتَهُ بما لاقتهُ الأمُّ مِنَ المشاقِّ، وكانَ أوَّلُ هذه المشاقِّ مَشاقَّ الحَمْلِ.

دلالةُ اختيارِ صيغَةِ الماضي ﴿حَمَلَتۡهُ﴾:

تحقُّقُ مشقَّةِ الحَمْلِ يوجِبُ الإحسانَ على كلِّ إنسانٍ

عبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ عن أوَّلِ مشاقِّ الأُمِّ الموجِبَةِ للإحسانِ إليها بالفعلِ ﴿حَمَلَتۡهُ﴾ بصيغةِ المُضيِّ؛ لِبيانِ تحَقُّقِ الحملِ لكلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بهذه الآيةِ، فكلُّ حيٍّ خوطِب بالآيةِ فقد حملتْه أمُّه، وبيانِ مشقَّةِ الحَمْلِ لكلِّ أمٍّ إلى يوم القيامَةِ، فما من إنسانٍ حَملتهُ أمُّهُ إلّا وقد تحقَّقَ في حَمْلِهِ نوعٌ مِنَ المشقَّةِ، وبِهَذا التَّحقُّقِ واليقينِ ثبتتِ التَّوصيةُ لكلِّ أمٍّ على بنيها، وثبتَ وجوبُ الإحسانِ على كلِّ إنسانٍ إلى يوم القيامةِ.

نُكْتَةُ اختيارِ صِفَةِ الأُمومةِ دونَ الوالِدِيَّةِ:

لفظُ الأُمِّ عنوانُ الرَّحمةِ، وفيه مَعنى الضَّمِّ والاحتواءِ والاشتمالِ

عَبَّرَ النَّظمُ بمفرَدَةِ (الأُمِّ)، وعدلَ عن مفردَةِ (الوالِدَةِ)، فلم يقل: (حملتْهُ والدتُه)؛ وذلك لتحاشي التَّكرارِ اللَّفظيِّ بذِكْرِ الوالديَّةِ مرَّتين بغيرِ نُكْتةٍ، ولأنَّ الحملَ سابقٌ للولادة، فلا يُقالُ: حملتهُ والدتُه باعتبارِ أنَّ الولادةَ مآلُ الحملِ، ولأنَّ لفظَ (الأُمِّ) هو عنوانُ الرَّحمةِ، فيقالُ لكلِّ ما كانَ أَصْلًا لِوجودِ شيءٍ أو تَربيَتِهِ أو إصلاحِه أو مبدَئِه، كَما أنَّ فيها معنى الضَّمِّ والاحتواءِ عليه[1]، وهوَ الحاصلُ في حالِ الحملِ، مِنِ اشتِمالِ الرَّحمِ على الجنينِ وضَمِّهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أمم).

واحتوائِه، وابتدَأ بِحَقِّ الأمِّ، وخصَّه بالذِّكرِ؛ لظهورِ حَقِّ الأبِ بِما لَهُ مِنَ الكَسْبِ والإنفاقِ والذَّبِّ والتَّأديبِ، فلَم يَذْكُرْهُ، وذَكَرَ ما لِلأُمِّ؛ لأنَّ أمَدَهُ يَسِيرٌ، فرُبَّما استُهِينَ بِهِ[1].

تَوجيهُ إشكالِ اختيارِ لَفْظِ ﴿كُرۡهٗا﴾:

الـكُـرْهُ طريـقُ تحقيقِ الغايةِ المـحـبـوبـةِ وتحصيلِ المطلبِ العزيز

عَبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن مشقَّةِ الأمِّ في الحَمْلِ بلفظ ﴿كُرۡهٗا﴾، والكُرْهُ هو الامتعاضُ مِن شَيءٍ، أي: كانَ حَمْلُهُ مَكْروهًا لَهُ، أي: حالَةَ حَمْلِهِ وولادَتِه لِذَلِكَ، والمَعْنى: أنَّها حَمَلَتْهُ في بَطْنِها مُتْعَبَةً مِن حَمْلِهِ تَعَبًا يَجْعَلُها كارِهَةً لِأحوالِ ذَلِكَ الحَمْلِ[2]؛ لِما فيه مِن مَشَقَّةٍ وتَعَبٍ، من وحَم وغَشَيانٍ وثِقَلٍ وكَرْبٍ[3]، وهذا قد يبدو متعارضًا مع ما تمرُّ به بعضُ الأمَّهات من الفرحِ والسُّرورِ والشَّوق أثناء الحَمْلِ وعند الوضعِ، واللّهُ وصفَ الحملَ والوضع بكونه كرهًا، وتوجيه ذلك: أنَّ الأُمَّ يمتزجُ عندها الفرحُ بالقادم، مع كراهيَة الحملِ والوضعِ، وهذا كمَن يعمل، وهو متعبٌ، ومضطرٌّ إلى ذلك لما ينتهي إليه العملُ من سدِّ الحاجةِ، وتحقيقِ الغاية؛ ففيه بيانُ مجاهدةِ الأمِّ التي تواجهُ المكارِهَ، لتحقيقِ ما تُحبُّه من وضعِ الولد، ففيه بيانُ منَّةِ الأُمِّ، وتصويرُ تعبِها لإنجابِ ولدِها.

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ ﴿كُرۡهٗا﴾:

التَّنوُّعُ اللَّفظيُّ ثـراءٌ في النُّطقِ وتوافقٌ في المعنى

وَرِدَت في كلمةِ ﴿كُرۡهٗا﴾ قراءتانِ متواترتان، فقَرَأَ الجُمهورُ ﴿كَرۡهٗا﴾ في المَوضِعَينِ بِفَتحِ الكافِ، وقَرَأَهُ عاصمٌ وحَمزَةُ والكِسائيُّ ويعقوب وخَلَف بِضَمِّ الكافِ في المَوضِعَين على خلافٍ بينهم[4]، وذهب الجمهورُ إلى أنَّهُ لا فَرقَ ما بَينَ الضَّمِّ والفتحِ في العربيَّة، ولا في سُنَّةٍ تُتَّبَعُ، إلّا الفرّاء، فَإنَّهُ زعم أنَّ الكُرْهَ ما أكرهتَ نفسَك عَلَيه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 29.
(3) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 32.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 248.

والكَرْه ما أكرهك غيرُكَ عَلَيه[1]، وقيلَ: الكَرْهُ: المشقَّةُ الَّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكراهٍ، والكُرْهُ: ما ينالُهُ من ذاتِه، وهو يَعافُه[2]، وأشارَ بعضُهم إلى أنَّ المَلمَحَ الدَّلاليَّ الفارقَ بين الكَرهِ والكُره: أنَّهما يشتركانِ في الشِّدَّةِ والمشقَّةِ، ويتميَّزُ المضمومُ بمَلْمَحِ الرِّضا، بينما يتميَّزُ المفتوحُ بعدمِ الرِّضا[3]، وما عليه الاستعمالُ في الآيةِ هو أنَّ اللَّفظين من بابِ التَّنوُّعِ، فلا يخرجان عن كونهما لُغتين متوافقتَين في المعنى.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَوَضَعَتۡهُ﴾:

العطفُ لمزيدِ الحضِّ على برِّ الأُمِّ والإحسانِ إليها

جاءَتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ عاطفةً، فعطفت على ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾؛ لبيانِ مَشقَّةٍ أخرى من المَشاقِّ الَّتي توجبُ الإحسانَ للأُمِّ على وجهِ الخصوصِ، فجاءَ العطفُ لمزيدِ الحضِّ والحثِّ على برِّها.

نُكتةُ اختيارِ لَفظِ (وَضَعَتْهُ):

الأُمُّ هي الأعلى مقامًا من أولادِها مهما ارتفعتْ بهمُ المناصبُ والأقدارُ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردةِ (وَضَعَتْهُ) دونَ (ولدَتْهُ)؛ لما في مفردةِ (الوضعِ) مِنَ الدَّلالةِ على الهويِّ بالشَّيءِ إلى مقرٍّ مُنخفضٍ، يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فيه[4]، فدلالةُ الأصلِ اللُّغويِّ تُشيرُ إلى رِفعَةِ مقامِ الأُمِّ، وسقوطِ مقامِ الابنِ والابنةِ إزاءَ مقامِها مهما عَلَتْ بِهِمِ المناصبُ والأقدارُ، ففي لفظِ (الوضعِ) تذكيرٌ دائمٌ ونُصحٌ مقيمٌ بأنَّ للأُمِّ منزلةً عُليا، وفضلًا كبيرًا على أبنائِها وبناتِها، يوجبُ عليهِمِ الإحسانَ إليها، وخفضَ الجَناحِ لها، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: 24].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كره).
(2) الرّاغب، المفردات: (كره).
(3) محمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن، ص: 434، و435.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وضع).

نُكْتَةُ تَكرار لفظِ ﴿كُرۡهٗا﴾:

كَرَّرَ النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿كُرۡهٗا﴾ مرَّتينِ، في قولِه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾، وعدلَ عنِ الإتيانِ بها مرَّةً واحدَةً، فلم يقل: (حملتْهُ، ووضعتهُ كُرْهًا)، ولو جاءَ النَّظْمُ على ذلك؛ لكانَ كافيًا، ولَكِنَّ تكرُّرَها مرَّةً مع كلِّ فِعْلٍ أفادَ تحقيقَ مَعناها وتوكيدَهُ؛ لأنَّه المقصود؛ إذ أرادت الآيةُ بيانَ أنَّ هذه الأُمَّ الَّتي توصِي الآيةُ بها عانت كُرْهَينِ، لا كُرْهًا واحدًا[1]: كُرْهَ الحَمْلِ وكُرْهَ الوَضعِ، ففيه دلالةٌ على أنَّ كلَّ كُرْهٍ له خصوصيَّتُه وصفاتُه؛ ليكونَ ذلكَ أدْعَى لتحريك عاطفَةِ المحبَّةِ والشَّفقَةِ والحُنوِّ على هذه الأُمِّ المُتْعَبَةِ المتألِّمَةِ.

الإيماءُ إلى اختلافِ طبيعةِ كُرْهِ الحَمْلِ عن كُرْهِ الوَضعِ، فهما كُرْهانِ لا كُرْهٌ واحد

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَحَمۡلُهُۥ﴾:

جاءَتِ الواوُ عاطِفَةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ فالجملةُ معطوفةٌ على جملة: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ وما عُطِفَ عليها؛ لأنَّ الجملةَ الثَّالثة تُبيِّنُ معنًى مُترتِّبًا على الجملةِ الأولى وما عُطِفَ عليها، وليسَ مُترتِّبًا على الجملةِ قبلَها: ﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾، وهذا بابٌ من فقهِ البيان، فيه منَ الخفاءِ واللُّطفِ ما يوجبُ العنايةَ به، وهذه الجملُ الثَّلاثُ تُشَكِّلُ معنًى واحدًا؛ إذ هِيَ علَّةٌ لهذه الوصيَّةِ، وحَثٌّ على الوفاءِ بها، وبيانٌ لِحقِّ الوالدَةِ على الولدِ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ صاحبَ المروءةِ لا يضيعُ عندَه معروفٌ[2].

ترتُّبُ الفصالِ على الحملِ لبيانِ المَشقَّةِ تلوَ المَشقَّة

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ الفِصالِ دونَ الفِطامِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالفِصالِ لإرادةِ النِّهايَةِ؛ لأنَّ الفِطامَ قد يكونُ قَبْلَ النِّهايَةِ لِغَرَضٍ، ثُمَّ تَظْهَرُ الحاجَةُ، فَتُعادُ الرَّضاعَةُ[3]، والفِصالُ كالفَطْمِ والفِطامِ بِناءً ومَعْنًى، وقِيلَ: الفِصالُ بِمَعْنى وقْتِ الفَصْلِ،

الإيماءُ إلى مرحلةِ الالتصاقِ الَّتي يتغذَّى فيها الولدُ على بَدَنِ أُمِّه

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 415.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 416.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.

أي: الفطْم، فهو معْطوفٌ على مُدَّةِ الحمْل، والمُرادُ بالفِصالِ الرَّضاعُ التّامُّ المُنْتَهي بالفِطام؛ ولِذَلِكَ عَبَّرَ بالفِصالِ عَنهُ أو عَن وقتِهِ دونَ الرَّضاعِ المُطلَقِ، فَإنَّهُ لا يُفيدُ ذَلِكَ[1]، وفي الوَصفِ تَطويلٌ، والآيَةُ بَيانٌ لِما تُكابِدُهُ الأُمُّ، وتُقاسيهِ في تَربيَةِ الوَلَدِ مُبالغةً في التَّوصيَةِ لَها، وقَد أُشيرَ في الآيَةِ إلى ما يَقتَضي البِرَّ بِها على الخُصوصِ في ثَلاثِ مَراتِبَ، فَتَكونُ الأوامِرُ في الخَبَرِ كالمَأخوذَةِ مِن ذَلِكَ[2]، وقيل: بل عبَّرَ عن الفِطامِ بالفِصالِ؛ لأنَّ بينَهُما مُجاورةً شديدةً، فجاز التَّعبيرُ عن أحدِهما بالآخرِ لأجلِ هذه المُجاورةِ، والقيمةُ المعنويَّةُ المرادةُ هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا هو الأصلُ في الحَملِ والرَّضاعِ، وأنَّهُ إذا انتهتِ الثَّلاثونَ؛ فالأصلُ الفِصالُ[3]، وفي اللَّفظِ إشارةٌ إلى مرحلةِ الالتصاقِ، فإنَّ الولدَ ينفصلُ عن أُمِّه بعد هذه المُدَّةِ في الطَّعامِ والشَّرابِ، ففي حالِ الحَملِ والرَّضاعِ يكون متغذّيًا على بدنِ أُمِّه، وبعد الرَّضاعِ يتغذّى على المُعتادِ من طعامِ النّاسِ، فهو تنبيهٌ على أحوالِ الأولادِ مع أمَّهاتهم، وتحذيرٌ إشاريٌّ من فصالٍ آخر عند بلوغِ الكِبَرِ.

نُكتَةُ العَدِّ بالشُّهورِ دونَ الأعوامِ:

ذِكْرُ الشُّهورِ دون العامِ أدلُّ على طول النَّصَب والتَّعب

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن مدَّةِ الحَملِ إلى الفصالِ بالشُّهورِ دونَ الأعوامِ، في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، فَلم يقل: (وحَمْلُهُ وفصالُهُ عامانِ ونصفٌ)؛ وذلك لأنَّ في ذِكرِ الثَّلاثينَ شَهْرًا بيانًا أَوْفَى وأدقَّ لطولِ المُدَّةِ الَّتي تكابِدُ الأمُّ فيها الآلامَ الجسميَّةَ والنَّفسيَّةَ، فتسهرُ اللَّيالي ذواتِ العددِ؛ إذا مَرِضَ، وتقومُ بغذائه وتنظِيفه وكُلِّ شؤونِه بلا ضَجَرٍ ولا مَللٍ، وتحزنُ إذا اعتلَّ جسمُه، أو

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 287.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 176.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.

نالَهُ مكروهٌ يؤثِّرُ في نُموِّه وحُسْنِ صحَّتِه[1]، فالتَّعبيرُ بالشُّهورِ أقوى في الحَثِّ على البرِّ والإحسانِ، وذلك أنَّ المُدَد الزَّمانيَّة يُعبَّر بها عن مضمونِها من التَّعب والنَّصَب، أو الفرح والسّرور، فقالوا: يومٌ بسَنة، وقيل: سَنَةُ الوصالِ سِنَةٌ، وسِنةُ الفراقِ سَنَةٌ، فلمّا كان أمْرُ الحمْل والرَّضاعِ شديدًا؛ ناسبَه ذِكرُ الشَّهر لكثرة عدده، دونَ العام لقِلَّة عدده، فهو تعبير عن الحالةِ النَّفسيَّة والإرهاق البدنيِّ الَّذي تمرُّ به الأُمُّ في حالِ حملِها ورضاعِها، وبه يظهرُ الامتنانُ على الإنسانِ، بما يحمله اللَّفظُ من معنى النَّصبِ والشِّدَّة.

بلاغة المجاز ودلالتُه:

تحديدُ حقِّ الطِّفلِ في الرَّضاعِ عندَ الصِّغرِ إلزامٌ لهُ بالإحسانِ عندَ الكِبَرِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ إمّا أن يكونَ مجازًا مُرْسَلًا علاقَتُه المُجاورَةُ؛ لأنَّ الفِصالَ هوَ الفِطامُ، وأُريدَ بِهِ هُنا مُدَّته الَّتي يعقُبُها الفِطامُ[2]، فذُكِر الفِصالُ، وهو بعدَ الفطام ومجاورٌ له، وإمّا أن نوجِّهَهُ على المجازِ بحَذْفِ مُضافٍ، تَقْديرُهُ: ومُدَّةُ حَمْلِه وفِصالِه، وهَذا لا يَكونُ إلّا بأن يَكونَ أحدُ الطَّرفَينِ ناقِصًا، وذَلِكَ إمّا أن تَلِدَ المَرأةُ لِستَّةِ أشْهُرٍ، وتُرْضِعَ عامَيْنِ، وإمّا أن تَلِدَ لِتِسْعَةِ أشهُرٍ عَلى العُرْفِ، وتُرْضِعَ عامَيْنِ غَيْرَ رُبْعِ العام، فَإن زادَتْ مُدَّةُ الحَمْلِ؛ نَقَصَتْ مُدَّةُ الرَّضاعِ، وبِالعكْسِ، فيترتَّبُ من هذا أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَمْلِ سِتَّةُ أشهُرٍ، وأقلُّ ما تُرضِعُ الأمُّ الطِّفلَ عامٌ وتسعةُ أشْهُرٍ، وإكْمالُ العامَيْنِ هو لِمَن أرادَ أن يُتِمَّ الرَّضاعَ[3].

نوعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالةُ استِعمالِها:

مِـن بلاغةِ القرآنِ الاهتمامُ بموضعِ العِبرَةِ دونَ غيرِها؛ لابتنائِهِ على الإيجازِ البليغِ

يحتمل حرفُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أن يكونَ حرفَ غايةٍ وجرٍّ[4]، ولا بُدَّ من جملةٍ محذوفةٍ تكونُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 17.
(2) محيي الدّين الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 178.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 97.
(4) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 39.

غايةً لها[1]، أي: فَعاشَ، أو استَمَرَّت حَياتُه، حَتّى إذا اكتَهَلَ، واستَحْكَمَ قوَّتُه وعَقْلُه[2]، وقد أفادَتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنا أنَّ ثمَّةَ مراحلَ مطويَّةً بين الفصالِ وبلوغِ الأشُدِّ، فدلَّتْ على ضربٍ من البلاغةِ القُرآنيَّةِ العاليةِ في الإيجازِ، بذِكرِ مواطِنِ العِظَةِ والاعتبارِ دونَ سواها، وقيل: إنَّما طوَتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ما بَعدَ الفصالِ؛ لأنَّهُ تارَةً يَشترِكُ في مُؤنَتِهِ الأبَوانِ، وتارَةً يَنفَرِدُ أحَدُهُما[3]، ويحتملُ أن يكونَ حرفُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتِدائيًّا، ومَعناه مَعْنى فاءِ التَّفريعِ عَلى الكَلامِ المُتَقَدِّمِ، وإذا كانَتْ (حَتّى) لا يُفارِقُها مَعْنى الغايَةِ؛ كانَت مُؤذِنَةً هُنا بِأنَّ الإنسانَ تَدَرَّجَ في أطوارِهِ مِن وقْتِ فِصالِهِ إلى أن بَلَغَ أشُدَّهُ، أي: هو موصًى بوالِدَيهِ حُسْنًا في الأطوارِ المواليَةِ لِفصالِه، أي: يوصيهِ وليُّهُ في أطوارِ طُفولَتِه، ثُمَّ عليهِ مُراعاةُ وصيَّةِ اللّه في وقْتِ تَكْليفِهِ[4].

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ بَعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

جاء استعمالُ ﴿إِذَا﴾ بَعْدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ لِيُرَتِّبَ عَلَيْها تَوْقِيتَ ما بَعدَ الغايَةِ مِنَ الخَبَرِ، أيَ: كانَتِ الغايَةُ وقْتَ بُلوغِهِ الأشُدَّ، ففيه العِبرةُ العظمى، والغايةُ الكبرى.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

الحكمةُ الإلهيَّةُ قاضيةٌ بإعمارِ الأرضِ ببلوغِ مجموعِ النّاسِ الأشدَّ لا جميعهم

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ الظَّرف ﴿إِذَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك البُلوغَ كائنٌ - لا محالةَ - وهذا في مجموعِ الخَلقِ لا في جميعِه، وأنَّهُ إذا بلغ الأشدَّ؛ قال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، وهذا الكلامُ وإن كانَ وصفًا وإخبارًا لما سيكونُ منه، هو في الحقيقةِ توجيهٌ لَهُ بفعلِه، وأنَّ اللّهَ تعالى يدعوه إلى أن يقولَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾؛

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 669.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 176.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 31.

إذا بَلَغَ الأشُدَّ، وبلغَ الأربَعينَ[1]، وعَدَلَ عنِ استعمالِ (إن)؛ لأنَّها تأتي لما هو غير متحقّق الوقوع، ولمّا كانَت الحِكمَةُ الإلهيَّةُ قاضيَةً بإعمارِ الأرضِ بالبشَرِ؛ كان لا بدَّ مِن بلوغِ كثيرٍ مِنَ النّاسِ الأشُدَّ والأربعينَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿بَلَغَ﴾ وصيغتِها:

تشبيهُ المستقبلِ بالماضي لبيانِ سرعةِ التَّحقُّق وتأكيده

لَمّا كانَ (إذا) ظَرْفًا لِزَمَنٍ مُستَقبَلٍ؛ كانَ الفِعْلُ الماضي بَعْدَها مُنقَلِبًا إلى الاستِقبالِ، وإنَّما صِيغَ بِصيغَةِ الماضِي تَشبيهًا لِلمُؤَكَّدِ تَحصيلُهُ بالواقِعِ، فَهو استِعارَةٌ، و(إذا) تَجريدٌ لِلاستِعارَة، والمَعنى: حَتّى يَبلُغَ أشُدَّهُ، أي: يَستَمِرَّ على الإحسانِ إلَيهِما إلى أن يَبلُغَ أشُدَّهُ[2]، ففي لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ معنًى مجازيٌّ آخر؛ إذِ الأصلُ في معنى البلوغِ وصولُ الشَّيءِ إلى غايةٍ لهُ[3]، وأمّا المُرادُ هُنا؛ فهوَ التَّدرُّجُ في مراحلِ القوَّةِ الَّتي تُخرِجُ من ضَعْفِ الصِّبا إلى فُتوَّةِ الرُّجولَةِ، والتَّدرُّجُ في مراحلِ القوَّةِ مُؤذِنٌ بحقِّ الوالدَينِ في إحسانِهم؛ جزاءَ رعايتِهِم في مرحلة الصِّبا.

براعةُ التَّعبيرِ بمفردَةِ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾:

جميعُ مراحلِ العُمُرِ مشدودةٌ إلى مرحلةِ الأشُدِّ؛ تطلُّعًا إليها في البداياتِ، وتحسُّرًا عليها في النِّهايات

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بمفردَةِ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنَّ الأشُدَّ يدلُّ على قوَّةِ الإنسانِ[4]، وهو مشتقٌّ من الشَّدِّ، وهو التَّوثُّق، وهوَ مبلغُ الحُنْكَةِ والمعرفةِ[5]، وقد آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالأشُدِّ؛ لما فيه من الدَّلالاتِ المتكاثفَة، والاتِّساعِ الزَّمَنيِّ في بلوغِ القوَّةِ بما هو معهودٌ في الاختلافِ بين النّاسِ في زمنِ بلوغِها، فالأشُدُّ هو أن يكونَ الإنسانُ في مرحلةٍ شُدَّت إليها جميعُ المراحل، فمَراحلُ بداياتِ العُمُرِ مشدودةٌ إلى مرحلةِ الأشُدِّ،

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 424.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 31.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بلغ).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

وما بعدها في حنينٍ لها، فهي كقِمَّة جبلٍ، مَن بلغها؛ فعليه أن ينزل عنها، والإنسانُ في صُعودِه ناظرٌ إليها، وفي نزولِه مستحْضِرٌ جمالَها، وهذا حالُ الدُّنيا مع الإنسانِ، فعليه أن يُدرِكَ أنَّه ما بين مرحلة الصُّعودِ ومرحلةِ الهبوطِ ومرحلةِ القِمَّة بارقةٌ سريعةٌ، وفيها يقع الشُّكرُ، ويحسُن التَّطلُّع إلى ما هو خيرٌ منها، وهو عمل الصّالحات، والإصلاحُ في الذُّرّيّات.

دلالةُ عَطفِ ﴿وَبَلَغَ﴾ على ﴿بَلَغَ﴾:

مرحلةُ الأربعين هي قِمَّة مرحلة الأشُدِّ

في قولهِ تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عطفَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ (بلغَ) الثّاني، على الفعلِ الأوَّلِ في جملةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، وقد ذهبَ فريقٌ: إلى أنَّ المرادَ بذِكْرِ الفعلِ (بَلَغَ) مَرَّةً أخرى تأكيدُ الفعلِ الأوَّلِ، وذهبَ فريقٌ: إلى أنَّ بلوغَ الأربعينَ غيرُ بلوغِ الأشُدِّ، والظّاهِرُ ضَعفُ قَوْلِ مَن قالَ: بُلوغُ الأشُدِّ أربعونَ؛ لِعَطفِ ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، والعَطفُ يَقتَضي التَّغايُرَ، والتَّأسيسُ أولى مِنَ التَّأكيدِ، وبُلوغُ الأربَعينَ اكتمالُ العَقلِ لِظهورِ الفَلاحِ[1]، ومرحلةُ الأشُدِّ أوسع دائرةً من مرحلة الأربعين، أي: إنَّه في حالِ بلوغِه الأشُدَّ، وهي الَّتي تبدأُ قبل الأربعين، وتنتهي بعد الأربعين بحسب طبيعةِ الإنسان واكتمالِه العقليِّ، والعِلميِّ، والبَدَنيِّ، ومرحلة الأربعين واضحةٌ ظاهرةٌ، وهي الَّتي يشتركُ فيها معظمُ النّاس، فإذا بلغ الأشُدَّ الذي يكون قبلَ الأربعين بقليلٍ أو كثيرٍ، قال ما قال، وكذلك إذا بلغ الأربعين؛ قال ما قال، فالقولُ ممتدٌّ في زمن مرحلةِ الأشُدِّ، وعند بلوغ الأربعين، وتظهرُ بلاغةُ العطفِ في كونِه عطفَ الأضيق دائرةً على الأوسع دائرةً، فدلَّ ذلك على أنَّ الأربعين هي أبلغُ مراحلِ الأشُدِّ عند النّاس.

توجيهُ تخصيصِ سِنِّ الأربعينَ بالذِّكرِ:

خصَّ النَّظمُ الحكيمُ سِنَّ الأربعينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهُ لَمّا كانَت أيّامُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 440.

الصِّبا والشَّبابِ، وإن كانَت صَفوَةَ عُمرِ الإنسانِ، وأوقاتَ لَذاذَته، ومُجتَمَعَ شَملِهِ وراحاتِه، فيها يَظهَرُ لَهُ سِرُّ عُمرِهِ في الغالِبِ؛ لِغَلَبَةِ الأنفُسِ الخَبيثَةِ عليه البَهيميَّةِ والسَّبُعيَّةِ لما يَحمِلانِه عليه من نَتائِجِ الشَّهَواتِ ونَوازِعِ الغَضَبِ والبطالاتِ؛ عَبَّرَ بما يَدُلُّ على القَحْطِ والشُّؤمِ والضِّيقِ؛ تَنْبيهًا عَلى ذَلِكَ، فَقالَ شارِحًا للاستِواءِ، ومُعَبِّرًا عَنْهُ: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، فاجتَمَعَ أشُدُّهُ، وتَمَّ حَزْمُهُ وجِدُّهُ، وزالَت عَنهُ شِرَّةُ الشَّبابِ وطَيْشُ الصِّبا ورُعونَةُ الجَهْلِ، ولِذَلِكَ كانَ هَذا السِّنُّ وقْتَ بِعْثَةِ الأنبياءِ في الغالِبِ الأعَمِّ، وهو يُشْعِرُ بِأنَّ أوْقاتَ الصِّبا أخَفُّ في المُؤاخَذَةِ مِمّا بَعْدَها، وكَذا ما بَيْنَ أوَّلِ الأشُدِّ والأربَعِينَ[1].

سِنُّ الأربعينَ سِنُّ التَّمامِ والحِكْمَةِ ورصانَةِ الفكرِ والاعتبارِ بما مضى من العُمرِ

نُكتَةُ استعمالِ ﴿سَنَةً﴾ دونَ (عام):

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ استعملَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ ﴿سَنَةً﴾ دونَ مفردةِ (عام)، والأصلُ أنَّ العامَ والسَّنَةَ يُطلقانِ على زمنٍ واحدٍ من حيثُ عددُ الشُّهورِ، غيرَ أنَّ العربَ تَستعملُ كلمة (العام)؛ إذا كانَ عامَ رخاءٍ في العيشِ والحياة، وتطلقُه كذلكَ على الزَّمنِ المُستقبلِ المجهولِ على سبيلِ التَّفاؤلِ بأن يكونَ أيضًا عامَ رَخاءٍ، وأمّا السَّنَةُ؛ فإنَّهُم يَستعملونَها في زمنِ القَحْطِ والمَجاعَة، بل توسَّعوا في ذلكَ حتَّى سَمَّوا القَحْطَ سَنَةً، من بابِ إطلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحالِ[2]، وعلى هذا فإنَّ استعمالَ البيانِ القرآنيِّ الحكيم لِلَفظِ ﴿سَنَةً﴾ تُرادُ بِهِ الإشارةُ إلى ما لقيَه الإنسانُ في عُمرِه من المصائبِ والآلامِ ما جعله يُشعِرُ بما قاسَتْهُ أُمُّهُ، وما لاقاهُ أبوهُ في سبيلِه، حين بلغوا ما بلغوا من سنواتِ الحياة، ولا تخلو الحياة من كَدَرٍ ومشقَّةٍ ونَصَب.

الإشارةُ إلى ما يُلاقيه الإنسانُ في حياتِهِ مِنَ المشاقِّ والمصاعِبِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (سنة).

الإشعارُ بقُرْبِ المُنادَى مِنَ المُنادِي والأُنسِ بِهِ

دلالةُ حذفِ أداةِ النِّداءِ في قولِه: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾:

حُذِفت أداةُ النِّداء في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، فلم يقل: (قال: يا ربِّ)، وقد كَثُرَ حَذْفُ (يا) في نداءِ الرَّبِّ في القُرآنِ، وعلَّة ذَلك أنَّ في حذف (يا) من نِداء الرَّبِّ تعالى معنى التَّعظيمِ لَهُ والتَّنزيه، وذَلِك أنَّ النِّداءَ فيهِ طرفٌ من معنى الأمرِ؛ لأنَّك إذا قلت: (يا زيد)؛ فَمَعْناه: (أدْعوك يا زيد)؛ فحُذِفتَ (يا) من نداء الرَّبِّ؛ ليزولَ معنى الأمرِ، وينْقُصَ؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّده، وتُظْهِر مَعْناهُ، فَكَثُرَ حذفُها في القُرآن لذَلك المَعْنى[1]، مع ما فيه من الإشعارِ بالقُرب، وأُنسِ المُنادِي بالمُنادَى تعالى؛ إذ هو يتضرَّعُ لَهُ بالإنعام بالقَبولِ والبَركةِ.

الوَزْعُ سؤالُ اللهِ أن يُلهِمَ الإنسانَ الشُّكرَ، وأن يَكفَّهُ عَن نَوازِعِ الكُفرِ

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بمفردة ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾؛ لما فيها من الدَّلالَة على معنى الإلهام والحضِّ، تقولُ: أوزَعَ اللّه فُلانًا الشُّكرَ: ألهَمَهُ إيّاهُ، ويُقالُ هوَ مَن أوزِعَ بالشَّيء؛ إذا أولِعَ به، كَأنَّ اللّه يولِعُهُ بشُكْرِه[2]، فأفادَ التَّعبيرُ بِهِ شِدَّةَ التَّضرُّعِ للّهِ تعالى، فكأنَّهُ قالَ: يا ربِّ كُفَّني عنِ الأشياء إلّا عَن شُكرِ نِعْمَتك، وكُفَّني عمّا يُباعِدُني عَنْك[3]، وأولعِني ذَلِكَ، واجعلني بحيثُ أزِعُ نفسي عن الكُفْرانِ[4]، فدلَّ التَّعبيرُ بِهِ على طَلَبِ العَوْنِ مِنَ اللّه عَلى زِيادَةِ الإحْسانِ إلَيهما، بأن يُلْهِمَهُ الشُّكْرَ عَلى نِعَمِهِ عليه وعلى والِدَيْه، ومِن جُمْلَةِ النِّعَمِ عَلَيه أن ألهَمَهُ الإحسانَ لِوالِدَيه، ومِن جُمْلَةِ نِعَمِه على والِدَيْهِ أن سَخَّرَ لَهُما هذا الوَلَدَ لِيُحْسِنَ إلَيْهما، فَهاتانِ النِّعْمَتانِ أوَّلُ ما يَتَبادَرُ عَن عُمومِ نِعمَةِ اللّه عَلَيهِ وعلى والِدَيهِ[5].

(1) مكّي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 1/ 285.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزع).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وزع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 32.

غَرَضُ التَّعبيرِ بصيغَةِ الدُّعاء:

تجدُّدُ الشُّكرِ مِنْ علاماتِ صدقِ الالتجاءِ إلى اللهِ

جاءَ الفعلُ ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ بصيغة الدُّعاء؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ الطَّلبِ منَ اللّه، والحرصِ على استمرارِ الإلهامِ بالشُّكرِ، فكأنَّهُ يقولُ: يا ربِّ ألهِمْني المرَّةَ تلوَ المَرَّةِ أن أشكر نِعْمَتَكَ، فلا أفترُ أبدًا، بل تكونُ حياتي كلُّها مَعلَمًا منْ معالمِ شكركَ وحمدكَ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنۡ﴾ والفعلِ دونَ المَصْدَرِ الصريح:

إظهارُ تجدُّدِ الامتنانِ والعِرفانِ سبيلُ ذوي الفضلِ والإحسانِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باستعمالِ المصدَرِ المؤوَّل دونَ المصدرِ الصَّريح؛ وذلِكَ لما في التَّعبيرِ بالمَصدَرِ المُؤَوَّلِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستِقبالِ والزَّمَنِ، وعَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ، فلَم يقلْ: (ربِّ أوزِعني شُكْرَ نِعْمَتكَ)؛ لِدلالَتِه على الحَدَثِ فحسب دونَ الزَّمَنِ[1]، فأفادَ تجدُّدَ الشُّكرِ وإظهارَ الامتنانِ للّهِ ﷻ على ما أولاه من نِعَم.

بلاغَةُ استعمالِ مُفْرَدَةِ الشُّكرِ دونَ رَديفاتِها:

إذا شُكِرَتِ النِّعمةُ؛ قَرَّتْ، وإن كُفِرَتْ؛ فَرَّتْ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفرَدَةِ الشُّكْرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ دونَ رَديفاتِها كالمدحِ والحمد والإطراءِ وغيرِها؛ وذلكَ أنَّ الشُّكرَ فيهِ تَصَوُّرُ النِّعمَةِ وإظهارُها، ويُضادُّهُ الكُفْرُ، وهوَ: نِسيانُ النِّعمَةِ وسَتْرُها، فالشُّكْرُ على هذا هوَ الامتِلاءُ مِن ذِكْرِ المُنْعِم عليه[2]، والشُّكْرُ يدخُلُ فيه شُكرُ اللِّسانِ والجَنانِ والأبدان، ففي استعمالِ مفردةِ الشُّكرِ دلالَةٌ على ما ينبغي أن تفيض بِهِ نفسُ المؤمنِ من عرفانٍ للّه تعالى على ما أنعم به من نِعَمٍ جليلَةٍ، ويُترجمُ ذلك بلسانه وبجوارحه، وعليه فيتضمَّن الدُّعاءُ أن ينطقَ المسلمُ بالشُّكرِ، ويُتبعَه العملَ والاعتراف القلبيَّ، ولا يكون الشُّكر بأحدِهما دون بقِيَّتِها، وهو ترجمان الإيمان الشَّرعيِّ.

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 147.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).

فائِدَةُ إفرادِ النِّعمةِ دونَ جَمْعِها:

النِّعمةُ الواحدةُ تحوي في طيّاتِها نِعَمًا كثيرةً

جاءَ النَّظمُ الجليلُ بِكلمةِ ﴿نِعۡمَتَكَ﴾ بِصيغَةِ الإفرادِ دونَ الجمعِ، رغم صلاحيَّةِ السِّياقِ للجمعِ، فكان من الممكنِ أن يكونَ النَّظْمُ: (ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أشكرَ نِعَمَكَ الَّتي أنعمتَ عليَّ)، وإنَّما عدَلَ عنَ الجمعِ؛ لأنَّ النِّعمةَ هنا اسمٌ أُقيمَ مقامَ المَصدرِ، يُقالُ: (أنعَمَ اللّٰهُ عليه، يُنعِمُ إنعامًا ونِعمَةً)، فأُقيمَ الاسمُ مقامَ الإنعامِ، كقولهم: أَنْفقتُ عليه إنفاقًا ونَفَقةً بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك جاءَتْ ﴿نِعۡمَتَكَ﴾ بالإفرادِ دون الجمعِ؛ لأنَّه في معنى المصدر، وفي الإفرادِ كذلكَ إشارةٌ إلى احتواءِ كُلِّ نعمةٍ عددًا لا حصرَ له منَ النِّعمِ، وفيه دعوةٌ إلى كثرة الشُّكرِ والتَّأمُّلِ فيما أنعم اللّٰهُ به علينا مِن نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، ومِن هذهِ النِّعَمِ التَّوفيقُ للإحسانِ إلى الوالدَينِ قولًا وفعلًا، وقيل: إنَّ الإفرادَ هاهُنا جاءَ تَعْظيمًا لِلأمرِ، بالإشارَةِ إلى أنَّ النِّعْمَةَ الواحِدَةَ لا يُبْلَغُ شُكْرُها إلّا بِمَعونَةِ اللّٰه، مَعَ أنَّ ذِكْرَ الأَبَوَيْنِ يُعَرِّفُ أنَّ المُرادَ بها الجِنْسُ[1].

نُكْتةُ إضافةِ النِّعمةِ لِضميرِ العَظَمَة:

نـعـمـةُ الـلـهِ كريمةٌ في ذاتِها عـظـيـمـةٌ في مآلاتِها

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ النِّعمَةِ إلى ضميرِ الكافِ العائِدِ على اسمِ الجلالَةِ، في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾؛ للتَّنبيه على إقرارِ الابنِ الصّالِحِ وإذعانِه بأنَّ الَّذي خلقَ النِّعمَ الَّتي يتقلَّب فيها ليلَ نهارَ، هو اللّٰهُ لا أحدَ سواه، وفي الإضافةِ كذلكَ بيانُ أنَّ حقَّ اللّٰهِ تعالى المُنعِمِ عليهِ بهذه النِّعمِ، هو شكرُه، لا شكرَ أحدٍ سواه[2]، هذا فضلًا عمّا في الإضافَةِ من تشريفِ النِّعمة وتكريمها، بما يوجبُ الاعترافَ بفضلِه تعالى، وأنَّ من أبرِّ شُكرِ اللّٰهِ سبحانه الشُّكْرَ بِالتَّوحِيدِ في العِبادَةِ، كَما أَنَّهُ يوَحَّدُ بِنِعْمَةِ الإيجادِ والتَّرْزِيق[3]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 340.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.

والمرادُ بالنِّعمةِ التي استوزعَ الشُّكرَ عليها هي نعمةُ الإيمانِ ومعرفةُ اللّهِ وتوحيدُه وطاعتُه، وقالوا: هي كلُّ ما أنعمَ اللّهُ به عليهِ وعلَى والدَيهِ من نِعمِ الدُّنيا والدِّينِ، وهذا هوَ الظّاهرُ من إطلاقِ كَلمةِ (النِّعمةِ) وشُمولِها[1].

بلاغَةُ الوصفِ بِالاسمِ الموصولِ:

عظَمةُ النِّعمةِ وشهرتُها، توجبُ مزيدَ الشُّكرِ والعِرفانِ

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ النِّعمَةَ بالاسمِ الموصولِ والفعلِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾؛ وذلِكَ لما في الوصفِ بالاسمِ الموصولِ منَ دلالَةٍ على الشُّهْرَةِ والثَّباتِ؛ إذ لَمّا كانَ رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ المُرادَ بِنِعْمَتِه قُدرَتُهُ على الإنعامِ؛ لِيَكونَ المَعْنى: أن أَشْكُرَ لَكَ؛ لِكَوْنِكَ قادِرًا على الإنعامِ[2]؛ جاءَ بالاسمِ الموصولِ والفعلِ الماضي لإفادَةِ الثَّباتِ والاشتِهارِ، فهي نِعمةٌ عظيمَةٌ معروفةٌ عند العامِّ والخاصِّ.

دلالةُ التَّقييدِ بالوصفِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ﴾:

تطويلُ المناجاةِ والدُّعاءِ كاشفٌ لِلَذَّةِ الابنِ الصّالحِ ومسرَّتِهِ بنِعَمِ اللهِ

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ النِّعمَةَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ﴾، وهو وصفٌ زائدٌ على مقتَضَى الظّاهِرِ، وكان منَ المكنِ أن يأتي النَّظمُ بدونها، فيكونُ: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ)، ولكِنَّ النَّظمَ الحكيمَ أتَى بِها؛ لما فيها مِن بيانِ الغبطةِ بالنِّعمةِ، والنَّشوةِ بتطويلِ الكلامِ، فالعبدُ الصّالحُ والابنُ البارُّ يجدُ لذَّةً في خطابِ ربِّه؛ لأنَّ هذا المقامَ من أعلى المقاماتِ، فلا تجدُ نفسُ المؤمنِ نَشوةً أو غِبطةً ورِضًا ومَسرَّةً أعلَى مِمّا تجدُه عندَ الإحساسِ بأنَّ اللّهَ تعالى خصَّها بنِعمةٍ لا يُنْعَمُ بها إلّا على مَن تَقرَّبوا إليه، فقرَّبَهُم[3]، وعبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعلِ الماضي ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾؛ لإفادةِ التَّحَقُّقِ والثَّباتِ، فهي نعمةٌ عظيمةٌ متحقِّقَةٌ.

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 423.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 424 - 425.

معنى حرف الاستعلاءِ ودلالَتُهُ:

استعلاءُ النِّعمة استعلاءً يوجب الشُّكرَ والعرفان للمُنْعِم

استعملَ النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجَرِّ ﴿عَلَيَّ﴾ في أصلِ معناهُ، وهوَ الاستعلاءُ، فأفادَ استعلاءَ النِّعْمَةِ على العبدِ الصّالحِ استعلاءً أوجبَ عليهِ الشُّكرَ والعرفانَ والامتنان لخالقِهِ تعالى.

دلالةُ تقييدِ الفعل بالجارِّ والمجرورِ:

استشعارُ الاختصاصِ بالنِّعمَةِ أدعَى للحثِّ على الشُّكرِ

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ الإنعامِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ وذلكَ لإفادَةِ الاختصاصِ به دونَ غيره[1]، أي: اختصاصُ الابنِ الصّالِحِ بهذهِ النِّعَم، وفي استشعارِ هذا الابن بذلك الاختصاصِ حثٌّ لنفسهِ على مداومَةِ الشُّكرِ.

دلالةُ العطفِ وبلاغتُه:

عطفُ الأصلِ على الفرعِ استحضارٌ لأصلِ الهدايةِ والتَّوفيق

عطفَ النَّظْمُ الجليلُ بذكرِ دُعاءِ الابنِ الصّالحِ اللّهَ ﷻ أن يلهمَهُ شكْرَ النِّعْمَةِ الَّتِي أنعمَ بها على والديه، بعدَ أن دعاهُ أن يلهمَهُ شُكرَ النِّعمَةِ الَّتي أنعمَ بها عليه؛ وذلكَ لأنَّ اللّهَ تعالى جعل إنعامَهُ على والدَيْه بالإيمانِ والتَّقْوى سببًا في الإنعامِ عليه بهما، وجعلَ هدايتَهُما من أسبابِ هدايَتِه، فإنَّ صلاحَ الوالدَينِ بالعِلْمِ والعملِ من أعظمِ الأسبابِ لصلاحِ أولادهم[2]، وفي هذا العطفِ تَرَقٍّ بذِكْرِ الفرعِ وعطفِ الأصلِ عليه.

نُكْتَةُ إعادةِ حرفِ الاستعلاءِ:

توكيدُ استعلاءِ النِّعمَةِ على العبدِ الصّالحِ وعلى والِديهِ ممّا يوجب الشُّكرَ والعرفانَ

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ لتوكيدِ استعلاءِ النِّعمَةِ على العبدِ الصّالحِ وعلى والِديهِ من قبلِه، استعلاءً أوجبَ عليهِ الشُّكرَ والعرفانَ، فالنِّعمة نازلةٌ على الفرعِ والأصلِ على حدٍّ سواء.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 781.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالوالِدِيَّةِ في سياقِ الدُّعاءِ:

تغليبُ جانبِ الوالدَةِ تأكيدٌ لتقدُّمِ أهمّيَّةِ بِرِّها

آثرَ البَيانُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ عُنوانِ الوالدِيَّةِ دونَ الأبويَّةِ، فقال: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ من دِقَّةِ النَّظمِ الكريمِ تغليبَ جِهَةِ الأمِّ - الَّتي تَلِدُ حقيقةً - في المواضعِ الَّتي تستدعي البِرَّ والشَّفقةَ أكثرَ من غيرِها، ويكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ للأمِّ أكثرَ من الأبِ، ويُلْحَقُ بها الأبُ تَغْليبًا، الَّذي يُسَمَّى (والِدًا) مجازًا لا حقيقةً، ومِن عادتِه كذلكَ أن يستعملَ لفظَ (الأبوين) في المواضعِ الَّتي يكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ للأبِ أكثرَ مِنَ الأمِّ الّتي تُسمَّى (أبًا) مجازًا، وتُلحقُ بالأبِ تَغْليبًا[1]، وفي هذا الموضعِ دعاءٌ بإلهامِ الوفاءِ والشُّكرِ، واستعطافٌ بأضعفِ الطَّرَفينِ، وهي الوالدةُ، لبالغِ حقِّها على الأبناءِ.

غَرضُ تقديمِ ﴿عَلَيَّ﴾ علَى ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾:

الشُّكرُ للوالدَين طريقُه شكرُ الابنِ لنفسِه

قَدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ قيدَ ﴿عَلَيَّ﴾ على ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ لتضمُّنِ شُكرِ الابنِ شكْرَ الوالدَينِ؛ لجوازِ نيابَةِ الابنِ عن أبويهِ في هذا الشُّكرِ؛ إذْ حاصِلُ المَعْنى: أنَّ اللّه أمَرَ بالإحْسانِ إلى الوالِدَيْنِ في المُشاهَدَةِ والغَيْبَةِ، وبِجَميعِ وسائِلِ الإحسانِ الَّذي غايَتُهُ حُصولُ النَّفعِ لَهُما، وأنَّ اللّه لَمّا أمرَ بالدُّعاءِ لِلأبَوينِ وعَدَ بِإجابَتِهِ عَلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ، لِقَوْلِه: «إذا ماتَ الإنسانُ؛ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إلّا من ثلاثةٍ، إلّا من صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه، أو ولَدٍ صالِحٍ يَدعو لَهُ»[2]، وما شُكْرُ الوَلَدِ رَبَّهُ على النِّعْمَةِ الَّتي أنْعَمَها اللّه عَلى والِدَيهِ إلّا من بابِ نيابَتِهِ عَنْهُما في هَذا الشُّكْرِ، وهو من جُمْلَةِ العَمَلِ الَّذي يُؤَدِّيهِ الوَلَدُ عن والِدَيْه، فشُكرُ الولدِ الصّالحِ يلحقُه، ويَلحقُ والِدَيه، فهو هنا شَكَرَ نعمةَ الهدايةِ لوالديه مرَّةً بالجملةِ، وهي الأولى، ومرَّةً بالتَّفصيلِ،

---

(1) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 1/ 283، و286.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (4310).

وهي الثّانية، وقدَّم نفسَه؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، فلولا أنَّه قدِ اهتَدى؛ لما شكَرَ لوالدَيْه.

بَلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ علَى ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾:

الشُّكرُ باللِّسانِ مستلْزِمٌ لِلشُّكرِ بالجَنانِ، والعَمَلُ الصّالِحُ شُكْرٌ بالأركانِ

عَطَفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ على قولِه تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالواوِ؛ لما بينَهُما مِنَ التَّوَسُّطِ بينَ الكمالينِ: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ، وذلكَ أنَّ حديثَ الابنِ الصّالِحِ ما زالَ موصولًا، فَهو مسترسِلٌ في مناجاتهِ لربِّهِ بالدُّعاءِ، ومن ناحيةٍ أُخرى، فهناكَ مغايرةٌ بينَ هذهِ الجملةِ وسابقتِها في العمومِ والخصوصِ، فَيَكونُ قَد طَلبَ جَعْلَهُ مُداومًا على العَمَلِ الصّالِحِ أيضًا، وكَأنَّهُ أرادَ بالشُّكْرِ الشُّكْرَ باللِّسانِ المُستَلْزِمَ لِلشُّكرِ بالجَنانِ، وأرْدَفَهُ بما ذُكِرَ تتميمًا لَهُ؛ لأنَّ العَمَلَ الصّالحَ شُكْرٌ بِالأركانِ، وقيل: الأوَّلُ خاصٌّ، وهو شُكْرُ النِّعْمَةِ، والثّاني عامٌّ، وهو عَمَلُ الصّالحات[1]، وقد أفادَ العطفُ الدُّعاءَ بأنْ يكونَ شديدَ الحبِّ للعملِ الصّالحِ والولَعِ به، فكما أنَّ كلمةَ: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ معناها: ألهِمْني شُكرَك، واجعلني مولَعًا بِهِ مُحبًّا لَه مُقبلًا عليه، كذلك صارَ الحالُ مع العملِ الصّالحِ الَّذي يرضاه ربُّه، فهو لَم يطلب أنْ يعملَ عَملًا صالحًا فقط، وإنَّما أن يكونَ محبًّا للعمل الصّالح مولَعًا به، مُنَفِّذًا أمرَ اللّه فيه، ليسَ على وجهِ التَّكليفِ الَّذي يتطلَّب منّا الصَّبرَ، وإنَّما يدعو الابنُ الصّالِحُ أن يُنَفِّذَ أمرَ اللّه فيه بموفورِ رَغْبَةٍ، وموفورِ حُبٍّ، وموفورِ نشاطٍ[2].

دلالةُ الإسنادِ إلى مفردٍ دون الجَمْعِ:

عـمـلُ الابـنِ الصّالِحِ في ميزانِ أعمالِ والِدَيهِ

أفردَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ ﴿أَعْمَلَ﴾ بإسناده إلى المُتكلِّم المفردِ دونَ الجمْعِ، فلم يقلْ: (وأنْ نَعْملَ)؛ وذلكَ لأنَّ هذا هو مقتضى الظّاهر،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 425 - 426.

فسبَقَ ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، و﴿أَشۡكُرَ﴾، كما أنَّ عَمَلَهُ داخلٌ في عملِ والديهِ كليهما، فالولَدُ من كسبِ أبيه وأُمِّه، فعملُ الأبناءِ يصلُ الآباءَ، فضُمِّن عملُ الابنِ ما يعودُ على الوالدَينِ بالأجرِ؛ فكأنَّما دعا بالتَّوفيقِ لأن يعملَ صالحًا ينالُ به الأجر، ويصلُ إلى والدَيه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ﴿أَعۡمَلَ﴾ دونَ (أفعلَ):

في التَّعبيرِ بالعَمَلِ قَصديَّةٌ ومُثابَرَةٌ، وامتِدادُ زَمانٍ

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِـ(العَمَلِ) دونَ (الفِعْلِ)، وسِرُّ ذَلِكَ: أنَّ العملَ أخصُّ مِنَ الفعلِ، فَكُلُّ عملٍ فِعلٌ، ولا يَنْعَكِسُ[1]، وهَذا يَحْمِلُ قَصْديَّةَ العملِ والتَّوجُّهَ إلَيه؛ لأنَّ فِيهِ امتِدادَ زمانٍ؛ إذ كانَ المَقصودُ المُثابَرَةَ عليه لا الإتيانَ بِهِ مَرَّةً أو بِسُرْعَةٍ[2]، ومِن ثَمَّ ينبغِي على المؤمنِ البارِّ أن يكونَ هذا حالَهُ مع ربِّهِ؛ بأنْ يسألَ اللّهَ أن يجعلَ عَمَلَ الصّالِحاتِ بقصدٍ، وأن يكونَ عملُهُ للّه تعالى.

عِلَّةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

العنايةُ بتحصيلِ الصّالحاتِ باعتبارِها صالحاتٍ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الجَليلُ المَوصوفَ، وتقديرُهُ: (وأنْ أعملَ عَملًا)، وأبْقَى الصِّفَةَ، وهِي: ﴿صَٰلِحٗا﴾ للإيجازِ، إذِ الفِعْلُ دالٌّ على تَقديرِ مَصْدَرِهِ[3]، ثُمَّ إنَّ إقامَةَ الصِّفَةِ ﴿صَٰلِحٗا﴾ مَقامَ الموصوفِ تُشعِرُ بأنَّ الموصوفَ، وهو (العملُ)، حاضِرٌ لا غائِبٌ، فالصّالحاتُ هي همُّ الابنِ الصّالِحِ الَّذي لا يَتحوَّلُ، ولا يَتَغَيَّرُ، كَما أنَّ الاهتمامَ يَنصَبُّ في المَقامِ الأوَّلِ على صِفةِ الصَّلاحِ في العملِ، فليسَ كُلُّ عَمَلٍ يُدْخِلُ الجَنَّةَ، فاكتَفَى البَيانُ القُرآنيُّ بالصِّفَةِ لبالِغِ أهَمِّيَّتِها، وأنَّ التَّجرُّدَ في الدُّعاءِ كان لَها.

سِرُّ اختِيارِ ﴿صَٰلِحٗا﴾ دونَ مُرادِفاتِها:

العملُ الصّالحُ خَيرٌ مُتمحِّضٌ للآخرةِ

آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِلَفْظِ ﴿صَٰلِحٗا﴾ دونَ صِفة (خَيّرًا)؛

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/ 58.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 487.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 317.

وذلكَ لأنَّ الأعمالَ الصّالِحاتِ تَضُمُّ في ثَناياها الأعمالَ الخَيِّراتِ، وتَختَصُّ بِالأفعالِ، أمّا الخَيْراتُ؛ فَقد يَشوبُها طلبُ خيرِ الدُّنيا، بخلاف العملِ الصّالح، فهو مُتمحِّضٌ للآخرة، ولذلك كانَ الأنسبُ والأبينُ عن المرادِ هو وصف الصّالح.

نُكْتَةُ الوصفِ بُجملةِ ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾:

تـلـقّي الـعـمـلِ الصّالِحِ بالقَبولِ بتَجدُّدِ الإقبالِ عليه

وَصَفَ النَّظمُ الحكيمُ العملَ الصّالِحَ الَّذي دعا بِهِ الابنُ البارُّ بالجملةِ الفعليَّة ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾، فلم يقل: (صالحًا مرضيًّا)، وهي صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ أو مُخَصِّصَةٌ؛ إن أُريدَ بِهِ كَمالُ الرِّضا، واختيرَ كَوْنُهُ صِفَةً مُخَصِّصَةً، والمُرادُ بِالرِّضا القَبولُ، وهو لَيسَ مِن لَوازِمِ العَمَلِ الصّالِحِ أصلًا، لا عَقْلًا ولا شَرْعًا[1]، ونُكْتَةُ التَّعبير بالفعليَّة: الدَّلالةُ على تجدُّدِ العملِ الصّالحِ من العبدِ الصّالح، وهو على الدَّوام يرتضيه اللّهُ تعالى.

دلالةُ عطفِ ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ على ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾:

بـعـدَ الـدُّعـاءِ للأصولِ جاءَتِ التَّتِمَّةُ بالدُّعاءِ للفروعِ

عَطَفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالواوِ؛ لما بينهما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ؛ إذ ما زال الحديثُ موصولًا للابنِ الصّالح، وهو مسترسِلٌ في مناجاةِ ربِّهِ بالدُّعاءِ، ومن ناحيةٍ أخرى، فثَمَّةَ مغايرةٌ بينَ هذِهِ الجملةِ وسابقتِها، ذلكَ أنَّهُ لَمّا دَعا لِنَفسِه بَعْدَ أن أوصى بِرِعايَةِ حَقِّ أُمِّهِ وأبيه؛ لَقَّنَهُ سُبْحانَهُ الدُّعاءَ لِمَن يَتَفرَّعُ منهُ؛ حَثًّا عَلى رِعايَةِ حُقوقِهِم لِئَلّا يُسَلِّطَهم على عُقوقِهِ[2]، وأشارَ بعضُهم إلى أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الدُّعاءِ لِذُرِّيَّتِهِ استطرادٌ في أثناءِ الوصايَةِ بِالدُّعاءِ لِلوالِدَين بِألّا يَغفُلَ الإنسانُ عَنِ التَّفَكُّرِ في مُستَقبَلِه، بِأن يَصرِفَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.

عِنايَتَهُ إلى ذُرِّيَّته، كَما صَرَفَها إلى أبوَيه؛ لِيَكونَ لَهُ مِن إحسانِ ذُرِّيَّتِهِ إلَيهِ مِثلُ ما كانَ مِنهُ لأبَويه، وإصلاحُ الذُّرِّيَّةِ يَشمَلُ إلهامَهُمُ الدُّعاءَ إلى الوالِدِ[1].

نوعُ الجِناسِ وبلاغتُه:

تمامُ التَّناغُمِ بينَ العملِ الصالِحِ والذُّرِّيَّةِ الصّالحَةِ

بين كلمتي ﴿صَٰلِحٗا﴾ و﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ جناسٌ مغايرٌ[2]؛ لأنَّ إحدى الكلمتين اسمٌ، والأُخرى فِعلٌ[3]، فأشارَ هذا الجناسُ إلى تمام التَّناغُم بين العملِ الصّالِحِ والذُّرِّيَّةِ الَّتي يُصلحُها اللّهُ تعالى؛ إذ هي ثمرةٌ لهذا الدُّعاءِ المباركِ بعدَ إرادَةِ اللّهِ ومشيئَته تعالى، وكلاهما مشتقٌّ من (صلح)، فهو جناس اشتقاق.

بلاغةُ الكنايةِ بذِكرِ قيدِ ﴿لِي﴾:

التَّعرُّضُ لنفحاتِ اللهِ من دَيدَنِ الألِبّاءِ الأذكياءِ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بتقييد فعل (أصْلِحْ) بالجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾، ونُكتَتُه: أنَّهُ بعدَ أن أشارَ إلى نِعمِ اللّهِ عليه وعلى والدَيه، تعرَّضَ إلى نفحاتِ اللّه، فسألَهُ إصلاحَ ذُرّيَّته، وعرَّض بأنَّ إصلاحَهم لفائدتِه، وهذا تمهيدٌ لبساطِ الإجابةِ، كأنَّه يقولُ: كما ابتدأتَني بنعمتِك، وابتدأتَ والِدَيَّ بنعمتِك، ومتَّعتَهُما بتوفيقي إلى برِّهِما؛ كَمِّلْ إنعامَكَ بإصلاحِ ذُرِّيَّتي، فإنَّ إصلاحَهم لي، وهذِه ترقياتٌ بديعةٌ في درجات القُرْبِ[4]، كما أنَّ في ذكرِ ﴿لِي﴾ إشعارًا بطلبِ الخصوصيَّة، والتَّقرُّب إلى اللّه تعالى بحُسْنِ أدبٍ، فهي إيماءٌ كنائيٌّ عن جَعْلِ الذُّرّيَّة صالحةً لأجله.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ (في):

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ جاء ذِكْرُ حرفِ الظَّرفيَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 32.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 90.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 4/ 428.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.

الدُّعاءُ بتمكُّنِ الصَّلاحِ في الذُّرّيَّةِ استمرارٌ فيها، لا متوقِّفٌ على الذُّرّيَّة المباشرة

(في)، والأصلُ أنَّ الفعلَ (أصلح) يتعدَّى بنفسه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، فالأصلُ أن تكونَ الجملَةُ: (وأصلحْ لي ذُرِّيتي)، ولكنَّ النَّظْمَ الحكيمَ أرادَ أن يَجعلَ ذُرِّيَّتَهُ مَوْقِعًا للصَّلاح ومَظِنَّةً لَهُ، فكَأنَّهُ قالَ: هَبْ لِيَ الصَّلاحَ في ذُرِّيَّتِي، فَأوقِعهُ فِيهِم[1]، أو ضَمَّنَ قولَهُ: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾ مَعْنى: (والطُفْ بِي في ذُرِّيَّتِي)[2]، فيكون الإصلاحُ ساريًا وراسخًا فيهم، بحيثُ يتمكَّن فيهم تمكُّنَ المظروفِ في الظَّرفِ[3]، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (وأصلح لي ذُرّيَّتي)؛ ذلك أنَّه طلبَ أن يُصلح في ذُرّيَّته؛ ليكونَ الصَّلاحُ مستمرًّا فيها، ولو قال: (أصلح لي ذُرّيَّتي)؛ لَلَزمَ الذُّرّيَّة المباشرة.

بلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ الذُّرِّيَّةِ:

الذُّرّيَّةُ تشملُ كلَّ أبناءِ الأبناءِ وبناتِهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ آثرَ النَّظمُ الجليلُ استعمالَ مفردَةِ الذُّرِّيَّة، دونَ مفردَةِ (الأبناءِ)؛ وذلكَ لأنَّ مفردةَ (الذُّرِّيَّة) يُرادُ بها كلُّ أولادِ الرَّجلِ الذُّكورِ والإناثِ، وكلُّ أولادِ بنيه وبناته من الذُّكورِ والإناثِ، وما نزلَ من أبناء الأبناء والبنات، بدليل أنَّ اللّه تعالى قال عن إبراهيمَ ﷺ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84]، ثمّ عَدَّ عيسى ﷺ مَع المَذكورينَ، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردَةَ الذُّرِّيَّةِ لعموم ما تدلُّ عليه من أبناءِ الذُّكورِ والإناثِ وما نَزَل منهما، فكما كان الابنُ الصّالِحُ بارًّا بوالديه في دعائِه، كان بارًّا بأبنائِه وبناتِه جميعًا، وهكذا ينبغِي أن يكونَ دعاءُ الصّالحينَ عامًّا؛ ليصلَ إلى أبعد ما يكون في الذُّرّيَّة، كما كان لإبراهيمَ ﷺ، وهذا من فقه الدُّعاءِ، والحرص على الأجر العظيمِ والخيرِ العميم.

بَديعُ فَنِّ الإدماجِ بذِكْرِ الدُّعاءِ للذُّرِّيَّة:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ دعا العبدُ الصّالحُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 441.

(3) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 7/ 560.

كما يُحسِنُ الابنُ إلى أُمِّهِ وأبيه، يُحسِنُ أبناؤُه إليهِ

البارُّ بوالدَيْهِ لذُرِّيّتهِ من بعدِه أثناءَ دُعائِه لنفسهِ ولوالديه، وفي إدماجِ تَلْقِينِ الدُّعاءِ بإصْلاحِ ذُرِّيَّتِهِ - مَعَ أنَّ سِياقَ الكَلامِ في الإحسانِ إلى الوالدَيْنِ - إيماءٌ إلى أنَّ المَرءَ يَلْقى من إحسانِ أبنائِه إليه مثلَ ما لَقِيَ أبواهُ من إحسانِه إلَيهما، ولأنَّ دَعوَةَ الأبِ لابنِه مَرْجوَّةُ الإجابَةِ[1]، ففي حَديثِ أبي هُريرَةَ ﵁ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهِنَّ: دَعوَةُ الوالِدِ، ودَعوَةُ المُسافِرِ، ودَعوَةُ المَظلومِ»[2].

عِلَّةُ فصلِ جُملةِ: ﴿إِنِّي تُبۡتُ﴾:

تحقيقُ التَّوبةِ من شروطِ الاستجابةِ للدُّعاءِ

فصلَ البيانُ القرآنيُّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عن الجُمَلِ السّابِقَةِ عليه؛ لما بينها من شِبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلكَ أنَّ التَّوْبَةَ من شروطِ قَبولِ الدُّعاءِ، فكأنَّ ثمَّةَ سؤالًا مقدَّرًا، فحواه: إن كنتَ ترجو قبولَ دعائِكَ؛ فإنَّ التَّوبَةَ من شروطِ القَبولِ، فهل تبتَ إلى اللهِ؟ فجاءتْ جملةُ: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾؛ للتَّعليلِ لِلمَطلوبِ بالدُّعاءِ تَعليلَ تَوَسُّلٍ بِصِلَةِ الإيمانِ والإقرارِ بالنِّعْمَةِ والعُبوديَّةِ[3]، وفي فصلِ هذه الجملةِ عن سابقتِها بيانٌ للعنايةِ بهذا المعنى والاهتمامِ بهِ[4]، وتحتمل أن تكونَ الجملةُ داخلةً في حيِّزِ القولِ على الاستئنافِ[5]، وقد أكَّد النَّظْمُ الجليلُ جملةَ: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ باستعمالِ (إنَّ)؛ لِلاهتمامِ بِالخَبَرِ، كَما هو ظاهِرٌ، وبِذَلِكَ يُستَعمَلُ حَرفُ (إنَّ) في مَقامِ التَّعليلِ، ويُغني غَناءَ الفاءِ[6].

غَرضُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿تُبۡتُ﴾:

المبالغةُ في تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وصِدْقِ وقوعِها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿تُبۡتُ﴾ في قَوْلِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.
(2) أخرجه أبو داوود في سننه، برقم: (1538)، والحديث حسنٌ لغيره.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.
(4) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 431.
(5) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 431.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 180.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، ولم يأتِ بالمضارِع (أتوبُ)؛ للمبالغة في إثباتِ تحقُّق التَّوْبَة، وبيانِ صِدقِ صاحبِها، حتَّى وإن كانَ زَمَنُ وقوعِها لم يمضِ بَعْدُ، فالماضي هنا مستعملٌ في إنشاءِ التَّوبة، وصيغةُ الماضي قد تُستعملُ في الإنشاءِ، فهي مستعملةٌ في زمنِ الحالِ، مثلَ صِيَغِ العقود في قولهم: (بعتُ) و(زَوَّجتُ).

وَجْهُ حذفِ متعلّق التَّوْبَة:

عموم التَّوبة من كلِّ أنواعِ التَّقصيرِ والذُّنوب

خصَّصَ البيانُ القرآنيُّ التَّوْبَةَ باللّهِ تعالى في قولِه: ﴿إِلَيْكَ﴾؛ لبيانِ شِدَّةِ الخضوعِ، ومقدارِ التَّذلُّلِ لجنابه العظيم؛ تأكيدًا لصِدقِ التَّوبَةِ، ولذلك أضمر متعلّق التَّوْبَة؛ لتَعُمَّ، وتستغرقَ صنوفها، فلَفْظُ التَّوْبَة يحتمل الإطلاقَ، وهو أنسبُ في مقامِ الاستغفار، وطلبِ الصَّفحِ والرِّضا.

دلالَةُ عطفِ ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

الدُّخولُ في جماعَةِ المسلمينَ هو أساسُ البرِّ والتَّوبَةِ وكلِّ خيرٍ

عطفَ النَّظْمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على قولِه: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، فتكون داخلةً في الاستئناف البيانيِّ، على أحد التَّوجيهين لجملة: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، أو تكون داخلةً في حيِّزِ القولِ على الاستئنافِ الدّالِّ على أنَّ الكلامَ الَّذي بُنِيَ على القَطْعِ والاستئنافِ لهُ شأنٌ أيُّ شأنٍ في الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ، يعني: أنَّ جملة: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وما عُطِفَ عليها، لها شأن أيُّ شأن في قصَّة ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ لأنَّ هذه الوصيَّةَ هي الغَرضُ المسوقُ له الكلامُ، والتَّوبةُ إلى اللّه والإنابةُ إليهِ والدُّخولُ في جماعةِ المسلمينَ، كلُّ ذلكَ هو القاعدةُ الَّتي دارَ عليها كلامُ الابنِ الصّالحِ البارِّ، من يوم أن بلغ أشُدَّهُ، وبلغ أربعينَ سنةً؛ لأنَّ كلَّ ضراعاته مُؤسَّسَةٌ على ذلك ومُستَشْفِعَةٌ به(1).

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 434.

نوعُ حرفِ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ للتَّبعيض؛ فأفادَتِ انضمامَ هذا الابنِ البارِّ والعبدِ الصّالحِ لجماعةِ المسلمين، فهو بعضُ أفرادِها، يتشرَّفُ بالانتماءِ إليها، ويفخرُ بها، ولم يقُل: (إنِّي تبتُ إليكَ، وأنا مسلمٌ)؛ لأنَّ إثباتَ كونِهِ جُزءًا من جماعة المسلمينَ أبلغُ في الدَّلالة من إسلامِهِ وحدَهُ، فهو يُشيرُ إلى وجودِ جماعةٍ متميِّزة بهذا الوصف، وهو جُزءٌ منها، حريصٌ على صالحِها، بدليل بِرِّهِ بوالديْه، ودعائِهِ لذُرِّيَّتِه.

الانتسابُ للمسلمين شرفٌ عظيمٌ يوجِبُ الاهتمامَ بِأمرِهم

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِصالُ والفِطامُ:

الفِصالُ: الفِطامُ، وفَصَلتِ المرأةُ ولَدَها، أي: فطمَتْه، وفَصَلَ المولودَ عَنِ الرَّضاعِ يَفْصِله فَصْلًا وفِصالًا وافتَصَلَه: فَطَمه، والاسْمُ الفِصالُ[1]، وفي الحَديث: «لا رَضاعَ بَعْدَ الفِصالِ»[2]، أي: بَعدَ أن يُفصَلَ الوَلَدُ عَن أُمِّه[3]، فالفِصالُ كالفَطْم والفِطام بناءً ومَعْنًى، وقِيلَ: الفِصالُ بمَعنى وقْتِ الفَصْلِ، أي: الفَطْم، والمُرادُ بالفِصالِ الرَّضاعُ التّامُّ المُنْتَهِي بالفِطام؛ ولِذَلِكَ عَبَّرَ بالفِصالِ عَنهُ أو عَن وقتِهِ دونَ الرَّضاعِ المُطلَقِ، فَإنَّهُ لا يُفيدُ ذَلِكَ[4]، وقيل: بل عبَّرَ عن الفِطام بِالفِصالِ؛ لأنَّ بينَهُما مُجاورةً شديدةً، فجاز التَّعبيرُ عن أحدِهِما بالآخرِ لأجلِ هذه المُجاورة، والقيمةُ المعنويَّةُ المُرادةُ: هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا هوَ الأصلُ في الحَملِ والرَّضاعِ، وأنَّهُ إذا انتهتِ الثَّلاثونَ؛ فالأصلُ الفِصالُ[5].

الفِطامُ هو الانتهاءُ من الرَّضاعة باختيارٍ، والفِصالُ هو ما بعد الفطامِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(2) أخرجه عبد الرّزاق في مصنفه، برقم: (11450).
(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وضع).
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 287.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾

[الأحقاف: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هل جزاءُ الإحسانِ إلى الوالدَينِ إلّا الوعدُ الصّادِقُ بالجزاءِ والإنعامِ

لَمّا وصَفَ النَّظمُ الجليلُ في الآيةِ السّابِقَةِ هذا المُؤمِنَ بادِئًا بِهِ؛ لِكَونِهِ في سِياقِ الإحسانِ؛ نبَّهَ عَلى أنَّ قَبولَ الطّاعاتِ مَشْروطٌ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ؛ لأنَّ ما ظَهَرَ دَليلُ ما بَطَنَ، ومَن لا يَشْكُرُ مَن كانَ مِن جِنْسِهِ - لا سِيَّما وهو أقْرَبُ النّاسِ إلَيْه، وهو السَّبَبُ في إيجادِهِ - لَم يَشكُرِ اللّه، ولَمّا كانَ الإنسانُ مَحَلَّ النُّقْصانِ، وإن كانَ مُحْسِنًا؛ نَبَّهَ عَلى ذَلِكَ بالإشارَةِ إلى التَّجاوُزِ عنهم، على أنَّ شَرْطَ تَكْفِيرِ السَّيِّئاتِ التَّوْبَةُ، ولَمّا كانَ هَذا مُفْهِمًا؛ لأنَّهم مِن أهْلِ الجَنَّة؛ صَرَّحَ بِهِ زِيادَةً في مَدْحِهِم بأنَّهُم في أصحابِ الجَنَّة؛ لأنَّهم لَم يَزالوا فِيهِ؛ لأنَّهم ما بَرِحوا بِعَيْنِ الرِّضا[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ حالِ الإنسانِ البارِّ مع والديه، وأثرِ ذلك في الطّاعاتِ، وعمل الصّالحات، إلى بيانِ الجزاءِ وتقبُّل أحسن الأعمال، والتَّجاوز عن السَّيِّئات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَقَبَّلُ﴾: (قبل) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، تَدلُّ كَلِمُهُ كُلُّها على مواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2]، والمعنى المحوريُّ: مُقدَّمُ الشَّيءِ الَّذي يُتَّجَهُ إليهِ منهُ لمُلاقاتِه أوِ النَّفاذِ فيه، ومِنهُ: قَبِلَ الهَدِيَّةَ قَبولًا، أي: أدخلها في حَوزَتِه، ومِن هَذا القَبول كُلُّ ما في القُرآنِ مِنَ الفِعْلِ: (يَقبلُ) لِلفاعِلِ ولِلمفعولِ، وكُلُّ (تَقَبَّلَ) ماضِيًا ومُضارِعًا لِلفاعِلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).

ولِلمَفْعولِ[1]، وقَبِلَ اللّهُ توبَةَ عَبدِهِ وعُذرَهُ، وتَقَبَّلَهُ، بِمَعنَى: أَنَّهُ اعتَدَّ لَهُ بما أتَى بِه، وبِما اعتَذرَ به، والتَّقَبُّلُ: قَبولُ الشَّيءِ على وجْهٍ يَقتَضِي ثَوابًا كالهَدِيَّةِ[2]، والمُرادُ بـ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ هنا: أنَّ اللّهَ تعالى يُجازِيهم بأعمالِهم الصّالِحةِ، ويرضاها منهم، ويُثِيبُهم عليها.

2) ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: (جوز) أصلانِ: أحَدُهما: قَطعُ الشَّيءِ، والآخَرُ: وسَطُ الشَّيءِ، فأمّا الوَسَطُ؛ فَجَوزُ كُلِّ شَيءٍ وسَطُهُ، والأصلُ الآخَرُ: جُزتُ الموضِعَ سِرتُ فيه، وأجَزتُهُ: خَلَفتُهُ، وقَطَعتُهُ، وأجَزتُهُ: نَفَذتُهُ[3]، والمعنَى المحوريُّ: عُبورٌ أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ[4]، والتَّجاوُزُ: ألّا تأخذه بالذَّنب، أي: تتركه، والتَّجوُّز: خِفَّةٌ في الصَّلاة والعمل وسُرعةٌ[5]، وتَجاوَزَ عَنِ الشَّيءِ: أغضى، وتَجاوَزَ اللّه عَنهُ، أي: عَفا، وقَولُهُم: (اللّهُمَّ تَجَوَّز عَنِّي، وتَجاوَز عَنِّي) بِمَعْنًى[6]، وهو المرادُ في الآيةِ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

عظيمُ النَّعيمِ والغُفرانِ لأهلِ الإحسانِ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ جزاءَ أصحابِ الأعمالِ الجليلةِ في الآيةِ السّابقةِ، الَّذينَ أحسنوا إلى آبائِهم، وتابوا من سيِّئاتِهم، فبيَّنَتْ أنَّ اللّهَ تعالى يَتقَبَّلُ عنهُم أحسنَ ما عملوا في الدُّنيا من صالحِ الأعمال، فيُجازيهم بها، ويُثِيبُهُم عليها، ويصفحُ عن سيِّئاتِ أعمالِهم الَّتي فَرَطَتْ منهُم في الدُّنيا لِمامًا، ولم تكنْ عادةً لهم، بل جاءتْ بحافزٍ من القوَّةِ الشَّهوانيَّة، أوِ القوَّةِ الغَضَبيَّةِ، فلا يُعاقِبُهم عليها، وهم منتظمونَ في سِلْكِ أصحابِ الجنَّةِ، داخلونَ في عِدادِهم، ثُمَّ أكَّد تعالى الوعدَ السّابقَ بأنَّهُ الوعدُ الحَقُّ الصّادِقُ الَّذي لا يتخلَّفُ، وأنَّه تعالى موفٍ به[7].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قبل).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوز).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (جوز).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (جوز).
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 20.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ هذِهِ الجُملةِ عن سابِقَتِها:

استشرافُ السّامِعِ لمعرفَةِ ما أعدَّ اللهُ للمحسنينَ من عظيمِ الجزاءِ

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ عنِ الجملةِ السّابقةِ؛ وذلكَ لأنَّ هذِهِ الجملةَ مستأنفةٌ، فهي استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما قبلها مِن الوصفِ والحثِّ يُحْدِثُ ترقُّبَ السّامعِ لمعرفةِ فائدةِ ذلك الإحسانِ إلى الوالدَين، فيسألُ في نفسه عمّا أعدَّ اللّهُ لهم، فكانَ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ إلى آخره جَوابًا لترقيةِ[1].

نُكْتَةُ الانتقالِ من صيغةِ المُفردِ إلى الجمعِ:

مقامُ الإحسانِ للوالدَينِ مقامٌ عزيزٌ لا تقومُ به إلّا الثُّلَّةُ المؤمنةُ

انتقلَ البيانُ القرآنيُّ مِن ضميرِ المُفردِ في الآيةِ السّابقةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إلى اسم الإشارةِ الجمعِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ وذلكَ لأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في الآيةِ السّابقةِ غيرُ معيَّنٍ، فهوَ شاملٌ للجنسِ على قولٍ، أو نوعُ المؤمنين على قولٍ آخر، كما سبق بيانه؛ فجاءَ الجَمْعُ هاهنا؛ لأنَّ المُرادَ بِهِ الجِنْسُ المُتَّصِفُ بالمَعْنى المَحْكِيِّ عَنهُ[2]، وربَّما كان في هذا الإفرادِ إشارةٌ إلى أنَّ للعملِ المذكورِ في صيغةِ المُفردِ شأوًا بعيدًا، لا يُصيبُهُ على وجهه إلّا الواحدُ من الجماعةِ[3].

فائدَةُ الإخبارِ باسمِ الإشارَةِ للبعيدِ:

عُلوُّ المكانةِ دليلُ رِفعةِ الأعمالِ وشَرفِ العاملِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لِما فِيهِ مِنَ الإيذانِ بِعُلوِّ مكانتهم، وعُلوِّ دَرَجَتِهِم في الفضلِ والشَّرَفِ، أي: أولَئِكَ المَنعوتونَ بما ذُكِرَ مِنَ النُّعوتِ الجَليلَةِ[4]، وكذلكَ فإنَّ في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ عمومًا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 35.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 177.
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 440.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 177.

يشملُ جميعَ المحسنين على هذِه الأرضِ، منذُ أن بعثَ اللّهُ فيها أوَّلَ نبيٍّ، وأنزلَ فيها أوَّلَ كتابٍ، ودعا عبادَه إليه، وأمَرَهُم، ونَهاهُم[1]، وللدَّلالَةِ على ثباتِ هذِهِ الأعمالِ الصّالِحَةِ لهم، وأنَّهُم مستديمونَ لها لا ينقطعونَ عنها، حتّى أصبحوا معروفينَ بكونِهم محسنينَ، فيُشار إليهم باعتبارِ رسوخِهم في أعمالِ البرِّ، وكذلك فإنَّ في الإشارةِ لهم بيانًا لزيادةِ الاعتناءِ بتمييزِهِم، وإخطارًا لعملهم الطَّيِّبِ في الأذهان، وقد آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ.

بلاغةُ القَصرِ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ:

المحسنونَ إلى آبائِهِم جديرونَ بالتَّشريفِ والتَّكريمِ

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ جاءَ طرفا الإسنادِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ مَعْرِفَتَينِ للقَصْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذينَ تخلَّقوا بهذِهِ الأخلاقِ العاليةِ الحسنة، هم المذكورونَ المشارُ إليهم دونَ سِواهُم، والغايةُ من ذلكَ بيانُ فَضيلَتِهِم، وبيانُ اختصاصِهِم وعُلوِّ مكانتهم، وهوَ مِن قَصْرِ صفةٍ على موصوفٍ، فقصرت تلك الصِّفاتُ عليهِم، وفي التَّخصيص تشريفٌ وتكريمٌ.

دلالَةُ استعمالِ الاسمِ المَوصولِ:

المُحسنونَ معروفونَ بصفاتِهِم الجليلةِ، فهُم غنيّونَ عن التَّعريفِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ مَن أحسنوا إلى آبائِهِم حَقَّ الإحسانِ إنَّما هم نفرٌ جديرونَ بالذِّكرِ، فهم ليسوا مساوينَ لغيرهم من عموم المسلمين، فلم يُعبَّر عنهم بـ (مَنْ)؛ لتدلَّ على العموم، فآثَرَ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لما فيها من الدَّلالةِ على التَّعيين والعهد، وعدلَ كذلك عن التَّعبير بالاسم الظّاهر، فلم يقل: (المحسنونَ)؛ وذلكَ لشهرتهم بالإحسانِ والإسلام وبكثير من الصِّفاتِ الجليلةِ، فالتَّعبير بالاسم الموصولِ المخصوص ملائمٌ للتَّخصيص الَّذي تجري عليه العبارةُ.

---

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 441.

قبولُ المحسنين إثابةٌ عظيمةٌ، وإيواءٌ في كنفِ الرَّحمنِ

دلالَةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ مادةً وصيغةً:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ عبَّرَ النَّظمُ عن إثابَةِ اللّهِ ﷻ للمحسنينَ بمفردَةِ (القَبولِ)؛ وذلكَ لما فيها من الدَّلالَةِ على دخولِهم في كنفِ الرَّحمنِ بدخولِهم في حوزَةِ كرمِهِ ورضوانِه، واعتدادِهِ ﷻ بما أتَوا بِهِ من الإحسانِ والبرِّ، وإثابتِهم على أعمالِهم الصّالحَةِ[1]، وقد جاءَ الفعلُ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ في صيغَةِ التَّفَعُّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ تعالى عَمِلَ في قَبولِهِ عمَلَ المُعتَنِي زيادَةً في إكرامهم[2]، والتَّقَبُّلُ: تَرَتُّبُ آثارِ العَمَلِ مِن ثَوابٍ على العَملِ واستِجابَةِ الدُّعاءِ، وفي هَذا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مَرجوُّ الإجابَةِ؛ لأنَّ اللّهَ تَوَلَّى تَلْقِينَهُ، مِثل الدُّعاءِ الَّذِي في سورَةِ الفاتِحَةِ وآخِرِ سورَةِ البَقَرَةِ[3].

المحسنونَ أحِقّاءُ بالتَّكريمِ والتَّشريفِ وزيادَةِ القدرِ

غرضُ إسنادِ الفعل إلى نونِ العَظَمةِ:

جاءَ إسنادُ فعل ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ إلى ضميرِ العظمة؛ زيادةً في قدرِ التَّشريفِ والتَّكريم، فهوَ الَّذي يتقبَّلُ أعمالَهم، وليس أحد ملائكتهِ؛ جزاءً بما كانوا يُكرمونَ آباءَهم في حياتِهم الدُّنيا، ولقاءَ ما حرصوا على العملِ الصّالحِ وصلاحِ ذرّيَّتِهم، فإنَّ اللّهَ يتقبَّلُ عنهم أحسنَ أعمالِهم؛ جزاءً من ربِّك عطاءً حسابًا.

الجمعُ بين تشريفِ المُحسنين، والامتنانِ بالقَبولِ في حَدِّ ذاتِهِ

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّة:

وَرَدَت في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ وَنَتَجَاوَزُ﴾ قراءاتانِ متواترتانِ، فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ وحَفصٌ بنونٍ مفتوحةٍ في الفعلين ﴿ نَتَقَبَّلُ ﴾، و ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾، ونصبوا كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ على المفعوليَّةِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ مَضمومةً في الفعلين،

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قبل)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 20.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 150.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 35.

ورفعوا ﴿أَحۡسَنُ﴾[1] على أنَّهُ نائبٌ عن الفاعلِ في ﴿ نَتقَبَّلُ ﴾، أمّا القراءَةُ الأولى؛ ففيها زيادَةٌ في التَّشريفِ والتَّكريم من اللّهِ بقَبولِ أحسنِ أعمالِهم، وفي القراءةِ الثّانِيَة: ﴿أَحۡسَنُ﴾ اهتمامٌ بالقَبولِ في حَدِّ ذاتِه؛ للعِلْم بأنَّ اللّهَ وحدَهُ، ولا أحَدَ غيرُهُ، هو الَّذي يقبلُ عن المحسنين أحسنَ أعمالِهم، فجَمَعتِ القراءتانِ تشريفَ المُحسنين، والعنايةَ بقَبولِ أعمالِهم.

بلاغَةُ الإيجازِ في استعمالِ حرفِ (عَنْ) دونَ (مِن):

عُدِّيَ فِعْلُ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بِحَرْفِ (عَنْ) في قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ﴾، وحَقُّهُ أن يُعَدَّى بِحَرْفِ (مِن)؛ تَغْلِيبًا لِجانِبِ المَدعوِّ لَهم، وهُمُ الوالِدانِ والذُّرِّيَّةُ؛ لأنَّ دُعاءَ الوَلَدِ والوالِدِ لأولَئِكَ بِمَنزِلَةِ النِّيابَةِ عَنهم في عِبادَةِ الدُّعاءِ، وإذا كانَ العَمَلُ بالنِّيابَةِ مُتَقبَّلًا؛ عُلِمَ أنَّ عَمَلَ المَرْءِ لِنَفْسِهِ مُتَقَبَّلٌ أيضًا، فَفي الكَلامِ اختِصارٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أولَئِكَ يُتَقَبَّلُ مِنهم، ويُتَقَبَّلُ عَن والِدَيهِم وذُرِّيَّتِهِم أحسَنُ ما عَمِلوا[2]، ويجوزُ أن تكونَ التَّعْدِيَةُ بِـ(عَنْ) إشارَةً إلى أنَّ جِبِلّاتِهِم مَبْنِيَّةٌ عَلى التَّرَقّي في مَعارِجِ الكَمالِ في كُلِّ وقْتٍ إلى غَيْرِ نِهايَةٍ، فتكونَ هذِهِ المَحاسِنُ لَيْسَت مِنهُم بِمَعْنى أنَّهم مَجْبولونَ على أعلى مِنها في نِهاياتِهِم، والعِبْرَةُ بالنِّهاياتِ[3]، فإذا تقبَّلَ اللّهُ عنهم؛ فقد تقبَّلَ منهم، فجمعَ ذِكْرُ (عن) المعنيين.

شُمولُ القَبولِ للأبناءِ البَرَرَةِ والآباءِ المُكَرَّمينَ

دلالةُ صِيغَةِ ﴿أَحۡسَنَ﴾:

استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ صيغَةَ أفعل التَّفضيلِ ﴿أَحۡسَنَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، ولهذا الاستعمال توجيهان: إمّا أن نقولَ: إنَّها للمبالغةِ في بيانِ المقبولِ من أعمال

الطّاعاتُ هي أحسنُ الأعمالِ، وما دونَها فهي المُباحاتُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 35.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 150.

الطّاعات، فهذه الصِّيغة منزوعةُ المفاضلةِ، ولا يُراد منها التَّفضيلُ، فاللّه يتقبَّل عن أولئك أعمالَهم الصّالحة، والأعمالُ الصّالحة هي كلُّها طاعاتٌ يُتقرَّب بها إلى اللّه تعالى، فهي داخلةٌ في دائرة أحسن الأعمال، وإمّا أن نقولَ: إنَّها على بابِها في المفاضلةِ، وبيانُ ذلك أنَّ الأعمالَ المشروعةَ نوعان: أعمالٌ صالحة، وهي الطّاعات، وأعمالٌ دنيويَّة من المباحات، وهذه كلُّها أعمالٌ مشروعةٌ، واللّه تعالى يتقبَّلُ عنهم أحسنَ الأعمال، إذًا يتقبَّل جميعَ الطّاعات الَّتي كانت للّه تعالى، ففيها حضٌّ على الأعمالِ الصّالحةِ، وحثٌّ على أن تكون المباحاتُ مَنويَّةً للّه تعالى، وذهب بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ المرادَ باسم التَّفضيلِ هنا الدَّلالَةُ على أفضليَّةِ برِّ الوالدَين، أي: الإحسانُ بالوالِدَين والدُّعاءُ لَهُما، ولِلذُّرِّيَّةِ من أفْضَلِ الأعمالِ، فَهو من أحْسَنِ ما عَمِلوا[1]، ويُعكِّر عليه الإشعارُ بالعموم في قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، وذِكْرُ: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالَةُ استعمالِها في قوله: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾:

كـثرةُ الأعمالِ الصّالِحَةِ من أسبابِ حُسْنِ القَبولِ عندَ اللهِ

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أن تكونَ اسمًا موصولًا في محلِّ جرٍّ بالإضافةِ، أو حرفًا مصدريًّا، والمصدرُ المؤوَّلُ مجرورٌ بالإضافة، أي: أحسنَ عَمَلِهِم، وفي استعمالِ ﴿مَا﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ أعمالِهِم الصّالحةِ الحسنَةِ، الَّتي يتقرَّبون بها إلى اللّهِ تعالى؛ لما في ﴿مَا﴾ من الإطلاقِ والاتِّساعِ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿عَمِلُواْ﴾ دونَ (قدَّموا):

المحسنون قاصدونَ للعمل الصّالِح مستَدِيمونَ عليهِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ استعمالَ الفعلِ ﴿عَمِلُواْ﴾ دونَ الفعلِ (قدَّموا)؛ لأنَّ مفردَةَ العملِ تحملُ قَصديَّةَ الفِعلِ والتَّوجُّهَ إليه، وفيها كذلك الدَّلالةُ على امتِدادِ زمانٍ؛ إذ كانَ المَقصودُ المُثابَرَةَ علَيه، لا الإتيانَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 35.

بِهِ مَرَّةً أو بِسُرْعَةٍ[1]؛ إذ يصيرُ عَمَلُ الصّالِحاتِ طَبيعَةً ودَيْدَنًا لعبادِ اللّهِ المحسنينَ، وأمّا الفعلُ (قَدَّموا)؛ ففيه إشارَةٌ إلى انتهاءِ وقتِ العملِ وسبق وقتِه، كما أنَّ الغالبَ عليه الإشارةُ إلى عملِ السَّيِّئاتِ والمجازاةِ عليها في الآخرة، ولَمّا كانَ المقامُ مقامَ إحسانٍ وبِرٍّ؛ فقد عدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن (قَدَّموا) إلى ﴿عَمِلُواْ﴾.

بلاغةُ عَطفِ قولِهِ: ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾:

تمامُ نعمةِ قَبولِ أحسنِ الأعمالِ التَّجاوُزُ عن السَّيِّئاتِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ قولَهُ تعالى: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ بالواوِ؛ لما بين الجُملتينِ من التَّقابلِ، فهو توسُّطٌ بين الكَمالين، فبعدَ الحديثِ عَن تقبُّلِ اللّهِ تعالى لأحسنِ ما عَمِلَ أولئكَ المحسنونَ، عطَفَ بالحديثِ عن تجاوزِ ما وقع منهم من السَّيِّئاتِ، وسِرُّ عطفِ هذا المعنى بعدَ المعنَى السّابقِ، أنَّه لَمّا كانَ الإنسانُ مَحَلَّ النُّقصانِ، وإن كانَ مُحسنًا؛ نَبَّهَ عَلى ذَلِكَ، وعلى أنَّ من حُسنِ إنعامِ اللّهِ على هؤلاءِ المحسنينَ أنَّهُ تعالى يتجاوزُ عمّا اقترفوهُ.

فائِدةُ ذِكْرِ (نَتَجاوَزُ) دونَ رديفاتِها:

تجاوزُ اللهِ عن سَيِّئاتِ المحسنينَ محضُ تفضُّلٍ وعطاءٍ

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ عن عَدَمِ العقوبَةِ بمفردَةِ التَّجاوُزِ في قولِهِ: ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ دونَ غيرِها، فلم يَقُلْ: (نغفرُ) أو (نَعْفو)؛ وذلك لما في (نتجاوزُ) مِن معنَى التَّركِ وعَدَمِ المُؤاخذةِ والتَّجوُّزِ والإغضاءِ والعَفوِ[2]، وكذلكَ فإنَّ المغفرةَ تتطلَّبُ استغفارًا وتوبَةً، أمّا التَّجاوزُ؛ فلا يُشتَرَطُ فيهِ التَّوبَةُ والاستغفارُ، بل هوَ محضُ تفضُّلٍ من اللّهِ الكريمِ، وذلك جزاءُ بِرِّهِم وعطفِهم على آبائِهِم وأمَّهاتِهِم.

دلالةُ تقديمِ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ علَى ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾:

قُدِّمَ ذِكْرُ تقبُّلِ الأعمالِ الحَسَنَةِ على تجاوُزِ السَّيِّئاتِ، رغمَ أنَّ

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 487.
(2) الخليل بن أحمد، العين، وابن منظور، لسان العرب: (جوز).

تقديمُ حُسنِ الجزاءِ والتَّقبُّلِ مبالغَةٌ في ردِّ الإحسانِ، وطمأنَةٌ لنفوسِ المحسنين

الأصلَ أن يكونَ التَّقديمُ لتخليةِ السَّيِّئاتِ على تقبُّلِ الحسناتِ، كما جاء في مواضع كثيرةٍ، ومنها قولُه تعالى عن المجاهدين في سبيلِه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: 195]، وكقولِه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النّساء: 31]، وذلك أنَّ تقبُّلَ الأعمال الحسنةِ هي عِلَّةُ التَّجاوز عن السَّيِّئات، ولمّا كان ذِكْرُ مكانَةِ برِّ الوالِدَين، بدأ النَّظْمُ بإبرازِ حُسنِ الجزاءِ والتَّقبُّلِ؛ مبالغَةً في ردِّ إحسانِهم لآبائِهم بإحسانِ اللّهِ لهم، وطمأنَةً لنفوسِ المحسنينَ بقَبولِ أعمالِهِمُ الحسنَةِ، ثُمَّ ترقَّتِ الآيةُ، فذكرت ما يزيدُ من طمأنَةِ نفوسِهِم، وهو التَّجاوزُ عن السَّيِّئاتِ دونَ اشتراطِ توبَةٍ، لِعِظَمِ إحسانِهِم لآبائِهِم وأمَّهاتِهِم.

دلالةُ استعمالِ حرفِ (عنْ) في قوله: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾:

برُّ الوالدَين يُبعدُ الصّالحَ عن سيِّئاتِه

عَدَّى النَّظمُ الحَكيمُ فِعلَ (نَتَجاوَزُ) بحرفِ الجرِّ (عنْ)؛ وذلك لأنَّ (عنْ) تُفيدُ البُعدَ، وهوَ أصلُ معانيها، وفيها كَذَلكَ معنى انفصالِ الشَّيءِ عَن مُعْطِيهِ وباذِله، فَهو أشَدُّ مُبالَغَةً في مَعْنى الفِعْلِ؛ لأنَّ فيهِ كِنايَةً عَن احتِباسِ الشَّيءِ المَبْذولِ عِندَ المَبذولِ إلَيه، بِحَيثُ لا يُرَدُّ على باذِلِهِ[1]، فأفادَ استعمالُ (عنْ) شِدَّةَ بُعْدِ العفوِ والإغضاءِ عن سَيِّئاتِ المُحسنين.

نُكْتَةُ ذِكْرِ السَّيِّئاتِ دونَ رديفاتها:

جزاءُ البارِّ بوالدَيْه السَّتْرُ عن سيِّئاته والصَّفحُ عن قبائِحِه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظِ السَّيِّئاتِ دونَ الذُّنوبِ أوِ الخَطايا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، فإنَّ الخطيئةَ هِيَ الذَّنبُ الصَّغيرُ الَّذي ليسَ فيه عَمْدٌ، وأمّا الذَّنبُ؛ فيشملُ كلَّ جُرْمٍ تُستوخَم عاقبتُه في الدُّنيا والآخرةِ[2]، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ) و(ذنب) و(سوأ)، ومحمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 46.

﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ لأنَّ السَّيِّئَةَ هيَ الذَّنبُ القبيحُ الَّذي يَسوءُ صاحبَه، ويراهُ النّاسُ سَيِّئًا، ففيه معنى المجاهرةِ، فامتنَّ اللّهُ عليهم بالتَّجاوزِ عنِ السَّيِّئاتِ المستقبَحَةِ، وسترهَم عن الفضيحَةِ أمامَ الخلْقِ.

دلالةُ إضافةِ السَّيِّئاتِ للضَّميرِ (هم):

مغفرةُ الله تعالى وكرمُه أوسعُ من سيِّئاتِ المحسنينَ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ السَّيِّئاتِ للضَّمير (هُمُ) العائِدِ على المحسنينَ المَذكورينَ في صدْرِ الآيةِ، والإضافةُ للاختصاص، فهي سيِّئاتٌ لهم؛ وذلك لبيانِ عظيمِ امتنانِ اللّهِ ﷻ عليهم بمغفرةِ السَّيِّئاتِ التي اقترفوها، وثبتَتْ في حقِّهم، فهُم في هذا الجانبِ قدْ تأكَّدَ ذنْبُهم وعصيانُهُم، بدلالَةِ إضافةِ السَّيِّئاتِ للضَّميرِ العائِدِ عليهم، ومع ذلك فقد امتنَّ اللّهُ بالعفوِ عنهُم.

بلاغةُ اختلافِ التَّعبيرِ بينَ جملتَيِ العَطْفِ:

رحمةُ الله اقتضتْ قبولَ أحسنِ الأعمالِ، والتَّجاوزَ عن جميعِ السَّيِّئات

في هذه الآيةِ غايَرَ النَّظْمُ الجليلُ بينَ جملتَيِ العَطْفِ، ففي جانبِ القَبولِ عَبَّر بقَبولِ الأحسنِ باستعمالِ صيغةِ التَّفضيل، فقال: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: (نَتَقَبَّلُ عنهم حَسَناتِهم)، وأمّا في جانبِ العَفوِ والتَّجاوُز؛ فعبَّرَ بصيغةٍ تُفيدُ العمومَ، فقال: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، وعدَلَ عنِ استعمالِ أفعلِ التَّفْضيل، فلم يقلْ: (ونَتَجاوَزُ أسوأَ ما عملوا)، أو كما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الزمر: 35]، ويرجِعُ إلى إرادَةِ بيانِ سعَةِ رحمةِ اللّهِ بهؤلاءِ المُحسنينَ، فهوَ سبحانه يعفو عَن كلِّ سَيِّئاتِهم، سواء أكانتْ مِنَ الصَّغائرِ أم مِنَ الكبائِرِ، فضلًا منهُ ورحْمَةً، وأمّا في جانبِ التَّقَبُّلِ، فنصَّتِ الآيةُ على قَبولِ الأحسنِ، وقد سبق بيانُه، بأنَّه جميعُ الطّاعات، وعلى رأسِها برُّ الوالدَين حسبَ السِّياقِ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ ﴿فِيٓ﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾:

دَلَّ استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَتَجَاوَزُ

المحسنونَ إلى آبائِهم وأُمَّهاتِهم واسطَةُ العقدِ في الجنَّةِ

﴿عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ على كونِ المحسنينَ إلى آبائِهم وأمَّهاتِهم ضمنَ أصحابِ الجنَّةِ، وذلكَ نحو: أكرَمَني الأميرُ في ناسٍ من أصحابِه، تريدُ: أكرَمنِي في جملةِ مَن أكرمَ مِنهُم، ونَظَمَنِي في عِدادِهِم، ومحلُّه النَّصبُ على الحال[1]، على معنى أنَّهُم صاروا كائِنِينَ في عِدادِهِم أو مُثابِينَ معهم أو مَعْدودِينَ فيهم[2]، ففي هذا التَّعبيرِ دلالَةٌ على أنَّ المُحسنينَ إلى آبائِهم وأُمَّهاتِهم في وسَطِ أصحابِ الجَنَّةِ، وقد أحاطوا بِهِم من كلِّ جانبٍ، فهُم واسطَةُ العقدِ، فقد صاروا بهذا الخُلُقِ الكريم أهلًا لمصاحَبَةِ النَّبيِّينَ والصِّديقينَ والشُّهداءِ والصّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رفيقًا، وشتّانَ بينَ مَن يكونُ في معيَّةِ هؤلاءِ الصَّحبِ الكرامِ، ومن يكونُ في معيَّةِ الأشقياءِ المُعَذَّبينَ[3].

توجيهُ إعرابِ ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾:

زيادَةُ إكرامِ المحسنينَ وحُسنُ العنايَةِ بهم، وشرفُ صحبَتِهم ومعيَّتهم

ذهبَ المُعربونَ إلى أنَّ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُه[4]، أحدُها: - وهو الظّاهر - أنَّه في محلِّ حالٍ، أي: كائنينَ في جملةِ أصحابِ الجنَّة، كقولِك: أكرَمَني الأميرُ في أصحابِه، أي: في جملتهم، وهو ما يُشيرُ إلى زيادَةِ الإكرامِ والعنايةِ بهؤلاءِ المحسنينَ إلى آبائِهم وأمَّهاتِهم، فمعنى الظَّرفيَّةِ أنَّهُم معدودونَ من زُمرَتِهم، وعَدُّهُم فيهم يَقتَضِي ثوابَهم الجَزيلَ مع المغفرةِ، فدَلَّت على المبالغةِ في عُلوِّ مَنْزِلَتِهم في الجَنَّةِ؛ إذ إنَّ قولَكَ: فلانٌ مِنَ العلماءِ أبلغُ من قولك: فلانٌ عالمٌ[5]، والثّاني: أنَّ ﴿فِيٓ﴾ بمعنى (مع)، وفيه دلالةٌ على شرفِ المَعِيَّةِ والصُّحبَةِ، والثّالثُ: أنَّها خبرُ مبتدأ مُضمَر، أي: هم في أصحاب الجنَّة، فجاءَ الحَذْفُ للإيجاز؛ استعجالًا للوصولِ إلى كونهم في ربوعِ الجَنَّة.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 303.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 114.
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 447.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 670.
(5) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 31.

نُكْتَةُ استعمالِ ﴿أَصۡحَٰبِ﴾ دونَ (أهلِ):

ملازمةُ المحسنين للجنَّة، فهُم أصحابُها المُقيمون فيها

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ (الأصحابِ) في قولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ دون غيره مِنَ الألفاظِ المرادفةِ لَهُ، مثل لفظِ (أهلِ) الَّذِي يدلُّ على السُّكْنَى طالتْ أم قَصُرَتْ؛ لِما لمفرَدَةِ (الأصحابِ) مِن دلالاتٍ تُميِّزُها عَن غيرها؛ إذِ الصُّحبةُ تدلُّ على المُلازمةِ[1]، فدلَّت على أنَّ المحسنين الفائزينَ بدخولِ الجَنَّةِ مُلازموها ومُلابسوها، بحيثُ لا يفارقونها، فسُكناهم فيها ومُقامُهم فيها، وفي الصُّحبةِ معنى الوَصْلَة، فَسُمّوا أصحابَها لاتِّصالهم بها، ولكونهم فيها، ولدَوام بقائهم فيها، كأنَّهم مَلكوها، فصاروا أصحابها، وفي وصفهم بأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ إشارةٌ إلى التَّمكِين لهم مِن كلِّ ما فيها من نعيم، بوصْفهم أصحابُها المالكون لها، يَتصرَّفون فيها تَصَرُّف المالك فيما ملك من غير مراجعةٍ أو حسابٍ، كما قالَ اللّٰه تعالى لهم: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43].

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿أَصۡحَٰبِ﴾:

المحسنونَ جميعًا هم أصحابُ الجنَّةِ

جاءَ لفظُ ﴿أَصۡحَٰبِ﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ بصيغة جمعِ التَّكسير؛ إشارةً إلى أنَّ جميعَ المُحسنينَ هُم أصحابُ الجنَّة، وكذلك للإشارة إلى جمالِ الصُّحْبَةِ والأنسِ بِأصحابِهم وأهليهم الَّذينَ أحسنوا إلى بعضهم بعضًا، جيلًا بعدَ جيلٍ، وهوَ ما يبعثُ على المزيدِ مِنَ السُّرور، فمِن أحد أسباب السَّعادة للإنسانِ وجودُ من يشاركُه سعادَتَهُ، ويَأنسُ به، فهذا الوصفُ، وهذا الاختصاصُ، وهذا الجمعُ في قولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ فضلٌ مِنَ اللّٰه وإحسانٌ وتكريمٌ، ومزيدُ تشريفٍ، وسعادةٌ لهم.

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 447.

معنى (ال) ودلالتُها في لفظِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

الجنَّةُ هي المعهودةُ لدى المُحسنين

جاءَ لفظُ الجنَّة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ معرَّفًا بـ (الـ) العهديَّةِ؛ للدَّلالةِ على الجنَّة المعهودة المعروفة الَّتي أعدَّها اللّهُ للمحسنينَ، الَّذينَ آمنوا بها وبخالقِها، فَأحسنوا إلى آبائِهم وأُمَّهاتِهم؛ ابتغاءَ الوصولِ إليها والخلودِ فيها، فهي دارُ الجزاءِ والنَّعيم، وهي جنَّة الخُلد، والعهدُ فيها ذِكْريٌّ يعود إلى قولِه جلَّ شأنُهُ في صدرِ الحديثِ عَنِ المحسنين المفلحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف: 13 - 14].

دلالةُ التَّركيبِ الإضافيّ ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾:

مَدْحُ أهلِ الجنَّة وتشريفُهم وتعظيمُهم، مع الإشارة إلى تمكُّن إقامتِهم فيها

أضاف النَّظْمُ الجليلُ لفظَ ﴿أَصۡحَٰبِ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ على جهةِ المدحِ والتَّعظيم والتَّشريفِ لهُم، وإشارةً إلى أنَّهم مُسْتَحِقّوها حقًّا بفضلِ اللّهِ وإحسانِهِ جزاءَ إحسانِهم، وإلى تمكُّنِهم وإقامَتِهم فيها إقامةَ المالكِ المُتَصرِّف بمُلْكِه.

فائدةُ إضافةِ الوعدِ إلى الصِّدق:

وَعْدُ اللهِ تعالى لا يكونُ إلّا صِدْقًا؛ لأنَّه تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ توكيدًا لِمَضمون الجملةِ قبلَه، وهي قولُه تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ لأنَّ فيها معنى الوعدِ، ولا مُحْتَمَلَ لها غيرُه كقولك: (لَهُ عَليَّ كذا عُرْفًا)، فهوَ منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ لفعلٍ مقدَّر[1]، أي: (أولئِكَ الَّذينَ وعَدْناهُم وعْدَ الصِّدْقِ)، وهذا التَّركيبُ إضافةٌ عَلى مَعْنى (مِن)، أي: وعْدٌ مِنَ الصِّدْقِ؛ إذْ لا يَتَخَلَّفُ[2]، وكأنَّ الصِّدقَ صار من ماهيَّةِ الوعدِ، كما تقولُ: كَلمةُ

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 36.

الحَقِّ، ورجلُ العدلِ[1]، وفي تلك الإضافةِ دلالةٌ على أنَّ وعدَ اللّه تعالى لا يكون إلّا حَقًّا وصِدْقًا، وفيه أيضًا مبالغةٌ في الاتّصاف، أي: الوعد الصّادِق الَّذي لا كَذِبَ فيه، فهو وعْدٌ مِنهُ ﷻ بالتَّقَبُّلِ والتَّجاوُزِ[2].

دلالةُ استعمالِ مفرَدَةِ ﴿ٱلصِّدۡقِ﴾ دونَ (الحَقِّ):

الصِّدقُ وصفٌ قائمٌ بتَحقُّقِ الوعدِ

آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بمفردَةِ ﴿ٱلصِّدۡقِ﴾ دونَ مفردَةِ (الحَقِّ)؛ وذلكَ لأنَّ الصِّدقَ الإخبارُ عن الشَّيءِ على ما هو به، فهو سبحانَه يعِدُهُم وعْدًا لا تغيُّرَ فيه، وأمّا الحقُّ؛ فهوَ أعمُّ مِنَ الصِّدْق؛ لأنَّهُ وقوعُ الشَّيءِ في مَوقعِه الَّذي هو أولى به، كما أنَّ الحقَّ يكونُ إخبارًا وغيرَ إخبارٍ[3]، والمَقصودُ: بَيانُ أنَّهُ تَعالى يُعامِلُ المحسنِينَ بِهَذا الجَزاءِ، وذَلِكَ وعْدٌ مِنَ اللّه تعالى، فَبَيَّنَ أنَّهُ صِدْقٌ، ولا شَكَّ فِيه، وذلكَ لِكَونِه مُطابِقًا للواقِعِ[4]، فمَدارُ الأمر على صِدق تحقُّق الوعدِ، لا كونه حقًّا أو باطلًا، فإذا ثبَتَ صِدقُه؛ فهو حقٌّ؛ لأنَّه صادرٌ عن الحقِّ سبحانه.

نُكْتَةُ الوَصفِ بِالاسمِ المُوصول:

شهرةُ الوعدِ وثباتُه ورسوخُه في عِلْمِ الله

وصفَ النَّظْمُ الكريمُ ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ بالموصولِ: ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ﴾؛ وجاء ذلك توكيدًا للوعدِ السّابقِ، وقد آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾؛ إشارةً لشُهرَةِ هذا الوعدِ وثباتِهِ[5] ورسوخه في عِلْمِ اللّهِ ﷻ.

دلالةُ ذِكرِ ﴿كَانُواْ﴾ دونَ الاكتفاءِ بالفعلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾:

في توكيدِ الوعدِ وترسيخِهِ طمأنَةٌ لقلوبِ المحسنِينَ

أفادَ ذِكْرُ فعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في جملَةِ الصِّلَةِ تقريرَ معنَى الوعدِ وتحقيقَه وتوكيدَه؛ لأنَّ الكلامَ إذا مُدَّ، ومُطِلَ جزءٌ منه؛ دلَّ على

---

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 447.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 177.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 21.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 151.

أنَّ من مقاصدِ الكلامِ تحقيقَ المعنى وترسيخَه؛ لأنَّ هذا الوعدَ هو البشارةُ، وهو الإنذارُ أيضًا، والبشارة والإنذار لهما شأن في سياق هذا الكلام، ثمَّ إنَّ صيغةَ الماضي في قوله: ﴿كَانُواْ﴾ تُفيد أنَّ هذا الوعد كان يطرقُ أسماعَهم منذ الزَّمنِ البعيدِ، وأنَّه شأنٌ من شؤونِ اللّه مع خَلْقه من أوَّل النُّبوّات؛ لأنَّ بشارةَ المحسنينَ كانتْ ولا تزالُ قائمةً، وهي في الصُّحف الأولى منذ أوَّل النُّبوّات(1).

نُكْتَةُ بناءِ فعلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمَفْعول:

إبـــرازُ الـوعـدِ الـصّـادِقِ دليلٌ عــلى عـظـيـمِ الجَزاءِ

بَنَى النَّظمُ الجليلُ الفعلَ ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعولِ دونَ الفاعلِ، وذلكَ لأمرينِ، **الأوَّل:** للعِلْم بالفاعلِ صاحبِ الوعدِ الصّادقِ، وهو المولى تعالى، على لسانِ رُسُلِه الصّادقينَ صلواتُ اللّهِ عليهم أجمعينَ، **والآخر:** للاهتمامِ بإبرازِ الوعدِ في ذاتِه، وهو الأمرُ المقصودُ في الآية.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارَعَةِ:

الوعْدُ الصّادق يتكرَّرُ ويتجدَّدُ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ لإفادَةِ أنَّ هذا الوعدَ الصّادقَ يتكرَّرُ، ويتجدَّدُ، ويطرقُ أسماعَهم الوقتَ بعد الوقت، بشِقَّيه الَّذي هو الإنذارُ والبشارةُ، وقد آذن له، وأصغى إليه المحسنون، وأعرضَ عنه المُعرضون(2).

فائدةُ حذفِ مفعولِ فعلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾:

تسليطُ الضَّوءِ على قيمةِ الوعد

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يُوعَدُونَ﴾ للاختصارِ والإيجازِ، الَّذي هوَ سمةٌ أصيلةٌ في النَّظمِ القرآنيِّ، وكذلك جاء رعايةً للفاصِلَةِ، حتّى يسيرَ نسقُ الآي على وتيرةٍ مُحبَّبَةٍ تأسِرُ نفس المُتلقّي، وتستميلُهُ للعملِ بما في الآيةِ منَ الهدي الكريم في برِّ الوالدَين، وحثًّا على المبالغَةِ في الإحسانِ إليهم، ولتسليطِ الضَّوءِ على قيمةِ الوعد الَّذي كانوا يوعدون، دون الموعودِ، فإنَّ الوعدَ إذا ثبت؛ جاء ما بعدَه.

---

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 447.
(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 447.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ [الأحقاف: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعدَ بيانِ مرتبةِ البِرِّ والإحسانِ جاءَ بيانُ دَرَكَةِ العُقوقِ والكُفرانِ

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الوَلَدِ البارِّ بوالِدَيْه، ولمّا كان بيانُ حُسْنِ مَسْلكِه، وشريفِ سبيلِه لا يتَّضحُ إلّا بذِكْرِ المقابلِ؛ ناسبَ أن ينتقِلَ إلى وصفِ الوَلَدِ العاقِّ لوالدَيْه، وذَكَرَ من صفاتِ ذَلكَ الوَلَدِ أنَّهُ بَلَغَ في العُقوقِ إلى حَيْثُ لَمّا دَعاهُ أبَواهُ إلى الدِّينِ الحَقِّ، وهو الإقْرارُ بالبَعْثِ والقِيامَةِ؛ أصَرَّ عَلى الإنْكارِ، وأبى، واستَكبَرَ، وعَوَّلَ في ذَلِكَ الإنكارِ عَلى شُبُهاتٍ خَسيسَةٍ وكَلِماتٍ واهِيَةٍ[1]، ولذا فقد أخبرَتِ الآيةُ الثّانيةُ بالمصيرِ الَّذي أعدَّهُ اللهُ لهؤلاءِ المكذِّبينَ، بعدَ أن حقَّ عليهمُ الوعيدُ المذكورُ الَّذي حاقَ بكثيرٍ من الجنِّ والإنسِ من قبلِهم، فكانَ مصيرُهم خِزْيَ الدُّنْيا وعذابَ الآخِرَةِ؛ أخْبَرَ عَنْهم بما أنْتَجَهُ تَكْذِيبُهم بِمَوْعودِ ربِّهِم وعُقوقِهِم لِوالِدَيهِم حَقيقَةً أو تَعليمًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُفّٖ﴾: (أفف) في المُضاعَفِ مَعنيانِ، أحدهُما: تَكَرُّهُ الشَّيءِ، ومنه: أفَّ يَؤُفُّ أفًّا؛ إذا تَأفَّفَ من كَربٍ أو ضَجَرٍ، ورجُلٌ أفّافٌ: كَثيرُ التَّأفُّفِ[3]، و﴿أُفّٖ﴾: كلمةُ تَضَجُّرٍ تُقالُ ضيقًا وكَراهةً واستثقالًا لشيءٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أف).

ما، ورغبةً في إبعاده[1]، وفيها عَشَرَةُ أوجه، منها: أُفَّ لَهُ، وأُفِّ، وأُفُّ، وأُفًّا، وأُفٍ، وأُفٍّ، وأُفّ، ونَحوُهُ من أسماء الفعلِ كَهَيهاتَ محمولٌ على أفعال الأمر، وأصلُ الأُفِّ: كُلُّ مستقذرٍ من وسخٍ وقُلامةِ ظُفْرٍ وما يَجري مَجراها، ويقالُ ذلكَ لِكُلِّ مستخَفٍّ به استقذارًا لَهُ، نحو: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: 67]، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيز: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، وقد أفَّفْتُ لكذا؛ إذا قُلْت ذَلِك استِقْذارًا لَهُ، ومنهُ قيلَ للضَّجَرِ من استقذارِ شيءٍ: أفَّفَ فلانٌ[2].

2) ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾: (وعد) كلمةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وَعَدْتُهُ أعِدُهُ وَعْدًا ومَوْعِدًا ومِيعادًا، ويَكونُ ذَلِك بِخَيْرٍ وشَرٍّ[3]، والمَوْعِدُ والمِيعادُ يَكونانِ مَصْدَرًا واسْمًا، والوعدُ يكونُ بخيرٍ وشَرٍّ، وأمّا الوَعِيدُ؛ فَلا يَكونُ إلّا بشَرٍّ، يَقولونَ: أوعَدْتُهُ بكذا، وكَذَلِكَ الإيعادُ يَكونُ في الشَّرِّ وحْدَهُ، ومِمّا تَضمَّنَ الأمْرَينِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، فَهَذا وَعْدٌ بالقِيامَةِ، وجَزاءُ العِبادِ إن خَيْرًا؛ فَخَيْرٌ، وإن شَرًّا؛ فَشَرٌّ[4]، وقولُهُ: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ مُضارِعُ (وعَدَ)، وحَذْفُ واوِهِ في المُضارِعِ مُطَّرِدٌ، والنّونُ الأولى نونُ الرَّفْعِ، والثّانِيَةُ نونُ الوِقايَةِ[5]، والمُرادُ هاهُنا: أتَتَوَعَّداني بالبعثِ والنُّشورِ، مِنَ الإيعادِ أو من الوعدِ.

3) ﴿أُخْرَجَ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[6]، فَقَولُنا: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا ومَخْرَجًا، فَهوَ خارِجٌ وخَروجٌ وخَرّاجٌ، وقَد أخْرَجَهُ، وخَرَجَ به، وقَد يَكونُ المَخْرَجُ موضعَ الخُروجِ، والخُروج: نَقِيضُ الدُّخولِ، وقولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: 42]، أي: يَوْمَ يَخْرُجُ النّاسُ مِنَ الأجداث، وهوَ من أسماءِ يَومِ القِيامَةِ[7]، والإخراجُ أكثر ما يقال في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: 35]، والمُرادُ بـ﴿أُخْرَجَ﴾ هاهُنا: أُبعَثُ للنُّشورِ والحِسابِ.

4) ﴿خَلَتِ﴾: (خلو) أصلٌ واحِدٌ يَدلُّ على تَعَرّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: هوَ خِلْوٌ من كَذا، إذا كانَ عِرْوًا مِنهُ، وخَلَتِ الدّارُ وغَيرُها تَخلو، والخَلِيُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ، والقُرونُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أفف).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (أف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (وعد).
(5) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 414.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

الخاليَةُ: المَواضِي[1]، والخُلُوُّ يُستعملُ في الزَّمانِ والمكانِ، فخَلا الزَّمانُ، أي: مَضَى الزَّمان، وذَهَبَ[2]، وهوَ المرادُ هاهُنا.

5) ﴿وَيْلَكَ﴾: أصلُ (الوَيل) في اللُّغَة: الهَلاكُ والعَذابُ[3]، يُقالُ: ويْلَهُ ووَيْلَكَ ووَيْلي، وفي النُّدْبَةِ: ويلاهُ، والوَيْل: حُلولُ الشَّرِّ، والوَيْلَةُ: الفَضِيحَةُ والبَلِيَّة، وقِيلَ: هوَ تَفَجُّع، وإذا قال القائل: وا ويلَتاه، فإنَّما يعني: وافَضِيحَتاه[4]، ووَيَّلَه ووَيَّلَ له: أكثرَ لَهُ من ذِكْرِ الوَيل[5]، وأصلُ (ويْلٍ) دُعاءٌ بِالثُّبورِ يُقامُ مَقامَ الحَثِّ على الفِعْلِ أو تَرْكِه، والمُرادُ هُنا: الحَثُّ والتَّحْرِيضُ على الإيمانِ، لا حَقيقَةُ الدُّعاءِ بِالهَلاكِ[6].

6) ﴿أَسَـٰطِيرُ﴾: (سطر) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلَى اصطِفافِ الشَّيءِ، كالكِتاب والشَّجَر[7]، وكُلِّ شَيءٍ اصطَفَّ، فَأمّا الأساطِيرُ؛ فهي جمع إسطارٍ وأُسطورَةٍ[8]، فَكَأنَّها أشياءُ كُتِبَتْ مِنَ الباطِلِ، فَصارَ ذَلِكَ اسمًا مَخصوصًا بِها[9]، والمَعنَى: الكتابةُ المسطورَةُ، ثمَّ لمّا كانت أخبارًا عن الأقدَمِينَ؛ غابتْ شَواهِدُها الواقعةُ، فخَفِيتْ حقائقُها، فلَصِقَ بمعنى اللَّفظِ معنَى الارتياب[10]، والمرادُ بالأساطيرِ هاهُنا: أباطِيلُهُمُ الَّتِي سَطَّروها في الكُتُبِ مِن غَيرِ أن يَكونَ لَها حَقِيقَةٌ[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عرضتِ الآيتانِ الصّورَةَ المقابلَةَ للصّورةِ الَّتي وردَتْ في الآيتينِ السّابِقَتين، وهُي صورةُ الابنِ العاقِّ الكافِرِ في مقابل الابنِ الصّالِحِ الطّائِعِ المُحسنِ، فذكرت الآيةُ الأولَى بيانًا للصِّنفِ الثّاني من الأبناءِ، وهمُ الذينَ مَضَوا في عقوقِهم لأبويهم إلى آخرِ أيّامِ حياتِهم، فلم يكن لهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (خلو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ويل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ويل).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 178.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سطر).
(9) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سطر).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سطر).
(11) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 178.

العقوقُ والكفرُ وإنكارُ البعثِ أكبرُ الكبائرِ المُفضيَةِ إلى الخسرانِ والخلودِ في النّارِ

عند بلوغِهم غايةَ ما يبلغُه الإنسانُ من كمال عقليٍّ، وتوازنٍ شُعوريٍّ، ولم يكُنِ العقوقُ هُنا مجرَّدَ التَّقصيرِ في حقِّ الأبَوين، بل تجاوزَ هذا إلى العُدوانِ عليهما؛ إذ يدعوانه إلى الخير، ويُمدّانِ إليه أيديَهما بالإحسانِ، حينَ يطلبانِ إليه أن يؤمنَ باللّه، وأن يخرجَ من هذا الضَّلالِ الَّذي اشتملَ عليه، وقادَه إلى عذابِ جهنَّمَ، فيلقاهُما بهذا الرَّدعِ والزَّجرِ، ويَرمي في وجهيهما بهذه القَوْلة الآثمة: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الَّتي تكشفُ عَمّا يعتمِلُ في نفسِهِ من ضجَرٍ وضيقٍ وبلادَةٍ، ثمَّ ينكرُ هذا الابنُ الضّالُّ العاقُّ على والديه أن يدعواه إلى الإيمانِ باللّه، وأن يُحَدِّثاه عن البَعثِ والحياةِ بعدَ الموت، مُتعلِّلًا بأنَّهُ أمرٌ لا يُصَدِّقُه عقلٌ، واحتَجَّ بشُبُهاتٍ خَسيسَةٍ وكَلِماتٍ واهيَةٍ، بأنَّ القرونَ الخاليَةَ قد مَضَتْ، ولم يُبعث الموتَى من قُبورِهم، فكيفَ يكونُ هُناكَ بعثٌ؟ ثُمَّ صَوَّرتِ الآيةُ حسرَةَ الوالدَين وهُما يَستَغيثانِ اللّه أن يَرُدَّهُ من هذا الطَّريقِ الَّذي يسلكه؛ وذلكَ لما في قلبَيْهما من حرصٍ على نجاةِ هذا الولدِ العاقِّ، وإن رَماهُما بما يسوءُ من مُنْكَرِ القولِ[1]، فيقولانِ له حثًّا وتَحريضًا: هَلاكًا لَكَ، صَدِّقْ بوعدِ اللّه، وأنَّك مبعوثٌ بعدَ وفاتِكَ، إنَّ وعْدَ اللّهِ - الَّذي وعَدَهُ خَلْقَه أنَّه باعِثُهم من قبورِهم ومُخرِجُهُم منها إلى موقفِ الحِسابِ لِمُجازاتِهم - حَقٌّ لا شَكَّ فيه، فيقولُ مُجيبًا: ما هذا الَّذي تقولانِ لي، وتدعوانني إليه، إلّا ما سَطَّرَهُ الأوَّلونَ منَ الأباطيل، فأصبَتُماه أنْتُما وصدَّقْتُما به، ولا ظِلَّ لهُ من الحقيقة[2]، وقد بيَّنَتِ الآيةُ التّاليَةُ مصيرَ هذا الصِّنْفِ منَ الَّذينَ عَقّوا آباءَهم، فوجَبَ عليهمُ الوعيدُ، ووقعوا تحتَ حُكمِ اللّه، وهو العقابُ الشَّديدُ، الَّذي تحقَّقَ في أهلِ الضَّلالِ والكفرِ منَ الأُمَمِ السّابقَةِ منَ الجِنِّ والإنسِ، فأصبحوا هم الخاسرينَ، الَّذينَ خَسروا أنفسهم، فكانوا من أصحابِ الجَحيم[3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 278.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 24.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 279.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ عِلَّةِ الوصْلِ ودلالتِه:

التَّقابلُ بين صورتين مُتناقضتين في الحالِ والمآلِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ بالواوِ؛ وذلكَ لبيانِ صورَةٍ أُخرى مغايِرَةٍ لصورَةِ الابنِ الصّالحِ المؤمنِ، وقد تعدَّدَت الأقوالُ في بيانِ المعطوفِ عليه، فذهب بعضُهم إلى أنَّ جُمْلَةَ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الأحْسَنُ أن تَكونَ مَعطوفَةً عَلى جُمْلَة: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [الأحقاف: 7]، فهي انتقالٌ إلى مَقالَةٍ أُخرى مِن أصولِ شِركِهم، وهي مَقالَةُ إنكارِ البَعْثِ[1]، وذهب بعضهم إلى أنَّ هذه الواوَ تعطفُ ما بعدها على: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أو على: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [الأحقاف: 7] أو على: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ [الأحقاف: 3]، وكلُّ ذلكَ سواءٌ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ مُتَوَلِّدٌ بعضُه من بَعْضٍ[2]، وإذا جعلنا الواوَ عاطفةً على أقرب مذكورٍ، فهو منَ التَّوَسُّطِ بينَ الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ، فالجملتانِ كلتاهما خبريَّةٌ، وقد وُجِدت بينهما المناسَبَةُ المُسَوِّغَةُ للعطفِ، وهو ذِكرُ الصّورَةِ المقابلةِ للإحسانِ، وهي صورةُ العقوقِ والكُفرانِ.

نُكْتَةُ استعمالِ الاسمِ المَوصولِ المُفْردِ دون الجمع:

كلُّ عاقٍّ هو مثالٌ للجُحودِ والكُفرانِ

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عنِ الفريقِ المقابل لفريقِ المحسنينَ المؤمنينَ الطّائعينَ، وهمُ العاقّونَ المُكذِّبونَ بالاسمِ الموصولِ: (الَّذي)؛ وذلكَ لانطباقِ هذا الوصفِ عليهم وشُهْرَتِهم به، فهُم معروفونَ بهذا السُّلوكِ الشّائنِ، وقد ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ (الَّذي) هاهُنا بمَعْنى (الَّذين)، وأنَّ الآيَةَ عامَّةٌ في كُلِّ عاقٍّ لوالِدَيه، مُكَذِّبٍ بِالبَعْثِ[3]، وهَذا وصفٌ لِفِئَةٍ أسلمَ آباؤُهم، ودَعَوهم إلى الإسلامِ، فلَم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 36.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 449 - 450.

(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 412.

يَستَجيبوا لَهم، وأغلظوا لَهمُ القولَ، فَضمّوا إلى الكفرِ شَنيعَ عُقوقِ الوالِدَيْن، وهو قَبيحٌ لِمُنافاتِهِ الفِطرَةَ الَّتي فَطَرَ اللّه النّاسَ عَلَيها؛ لأنَّ حالَ الوالدَينِ مَعَ أبنائِهِم يَقتَضِي مُعامَلَتَهُما بالحُسْنى[1]، وهذا الكلامُ في الجملةِ صحيحٌ، لكنَّ التَّعبيرَ عن المجموعِ بالاسم الموصولِ المُفردِ (الذي) دون (الذين) يحتاجُ إلى توجيهٍ بلاغيٍّ، ونُكتَتُه أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يستحقُّ وعيدًا بمفردِه جزاءَ كُفرِه وجُحوده، وأنَّ سرْدَ قصَّةِ العاقِّ المنكرِ مع والديه لا تكونُ إلّا بالمفردِ، فهو مثالٌ مفردٌ يصدُقُ على متعدِّدٍ، ولذلك قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: الذين صدَرَ عنهُم ما صدَر عن هذا العاقِّ من إنكارِ البعثِ، وجحودِ الحقِّ.

تَقديرُ العاملِ في الاسمِ المَوصولِ وأثرُهُ في المعنَى:

بلاغةُ القرآنِ ودِقَّةُ إيجازِه من أهمِّ معالمِ إعجازِه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ وجْهانِ إعرابيّانِ؛ **الوجهُ الأوَّلُ**: أن يكونَ الاسمُ الموصولُ (الَّذي) مفعولًا بِهِ لفعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: (واذكُرِ الَّذي قالَ لِوالِدَيْه)[2]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ النَّظمُ الحكيمُ قد شرعَ في ذِكْرِ قِصَّةِ هذا العاقِّ وأضرابه، بعدَ أن ذكرَ جانبَ الإحسانِ إلى الوالدَينِ، **ويجوزُ** أن يكونَ (الَّذي) مبتدَأً، وجملةُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ في الآيةِ التّاليَةِ خبرًا عنه[3]، وعلى هذا الوجه الثّاني تكونُ الآيةُ قدِ اشتملَتْ على كلِّ شناعاتِ هذا الفريقِ العاقِّ الكافرِ، وتتابعَتْ أوصافُهُ، وتلاحقَتْ سماتُهُ في جُزءٍ من جملةٍ، فيكونُ هذا الوجهُ إشارَةً إلى بلاغةِ القرآنِ وحُسْنِ إيجازِهِ ودِقَّةِ اختصارِهِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 36.
(3) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 44، ومحيي الدّين الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 177.
(4) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 449، و450.

دلالةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ الماضِي:

تصميمُ الابنِ العاقِّ على الكفرِ وإنكارِ البعثِ كاشفٌ عن مدى عقوقِهِ وكبرِهِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليلُ باستعمالِ فعلِ القولِ ﴿قَالَ﴾ ماضيًا؛ وذلك للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذا القولِ وثباتِه في حقِّ هذا الابنِ العاقِّ، وفي التَّعبيرِ بصيغةِ المُضيِّ كذلكَ إشارةٌ إلى نوعٍ من العزْمِ والتَّصميمِ والإصرارِ على الكفرِ وإنكارِ البعث.

نَوعُ اللّامِ ودلالَتُها:

القولُ الذي قاله العاقُّ موجَّهٌ لوالدَيه وقد بلغَهُما

جاءَتِ اللّامُ في كلمةِ ﴿لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ للتَّبليغ، فالقولُ الَّذي قاله العاقُّ موجَّهٌ لهما، فقد بلغهما الحديثُ الصّادر عنه.

تَعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في قوله: ﴿لِوَٰلِدَيۡهِ﴾:

الآيةُ عامَّةٌ، ولم تنزلْ في شأنِ أحَدٍ بخُصوصِه

وردَت في تحديدِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ رواياتٌ تُشيرُ إلى أنَّ المرادَ بالضَّميرِ في الآيةِ ابنٌ لأبي بكرٍ ﷺ، إمّا عبدُ الرَّحمنِ بن أبي بكرٍ، أو أخوه عبدُ اللّهِ[1]، والَّذي عليه جمهورُ المفسِّرين أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، ويُشْبِهُ أنَّ لها سببًا من رجلٍ قال ذلكَ لأبويه، فيرجعُ الضَّميرُ على الاسم الموصولِ، ويبقى على إبهامِه، وقد ردَّتْ عائِشَةُ ﵂ فِرْيَةَ نزولِ الآيةِ في أخيها، ففي الحديثِ الَّذي رواه البخاريُّ عن يوسُفَ بنِ ماهَك، قال: كان مَرْوانُ على الحِجازِ، استَعمَلَهُ مُعاوِيَةُ، فَخَطَبَ، فَجَعَلَ يَذكُرُ يَزيدَ بنَ مُعاوِيَةَ؛ لكي يُبايَعَ له بَعْدَ أبيه، فَقالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ أبي بَكْرٍ شَيْئًا، فقال: خُذوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عائشَةَ، فَلَم يَقدِروا عليه، فقال مَروانُ: إنَّ هَذا الَّذي أنْزَلَ اللّه فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾، فَقالَتْ عائِشَةُ ﵂ من وراءِ الحِجابِ: ما أنْزَلَ اللّه فينا شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ، إلّا أنَّ اللّه أنْزَلَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 144.

عُذْرِي[1]، والصَّحيحُ براءةُ عبد الرَّحمن ﷺ من هذه النِّسبةِ براءةَ الذِّئبِ من ولدِ يعقوب، فَهي عامَّةٌ في أهلِ هذه الصِّفاتِ، ولم يُقصَدْ بها عبدُ الرَّحمنِ ولا غيرُه من المؤمنينَ، والدَّليلُ القاطعُ على ذلكَ قولُه تعالى في الآيةِ الَّتي تليها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾، وكان عبدُ الرَّحمن ﷺ من أفضلِ الصَّحابَة، ومِنَ الأبطالِ، ومِمَّن لَهُ في الإسلامِ غناءٌ[2].

دلالةُ التَّثنِيَةِ فِي ﴿لِوَٰلِدَيۡهِ﴾:

عقوقُ الوالدَين كليهما دليلٌ على شِـدَّةِ الغِلْظَةِ وظُلمَةِ القلبِ

جاءَ النَّظمُ الجليلُ بتثنِيَةِ كلمَةِ (والدٍ)، وهي جاريَةٌ على الأصلِ في أنَّ لكلِّ إنسانٍ بالضَّرورَةِ والِدَين، وللمماثلَةِ بينَ هذه الآيَةِ وسابِقَتِها، ولها في هذا السِّياقِ معنًى دقيق، وهو أنَّ هذا الابنَ العاقَّ كان - مع اجتماعِهما - كافرًا لِنِعَمِهما، نابذًا لِوصيَّةِ اللهِ بِهما، فكانَ كافرًا بنعمةِ أعظم مُنْعِم مَحسوس، بعدَ الكفرِ بنِعَم أعظم مُنعِم مُطلَقًا، فالتَّثنيةُ مشيرةٌ إلى أنَّه أغلظُ النّاسِ كَبِدًا؛ لأَنَّ العادةَ جرَتْ بقَبولِ الإنسانِ كلامَ أصلِه، ولو كانَ واحدًا، وأنَّ الاجتماعَ مطلقًا لَهُ تأثيرٌ، فكيفَ إذا كانَ والدًا؟![3].

دلالةُ بَدْءِ القولِ بِقولِه: ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾:

التّأفُّفُ من الوالِدَينِ من أفظعِ الآثامِ عندَ اللهِ

بدأ النَّظمُ بكلامِ الابنِ الكافرِ بقولِه: ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ بوصفِه خلاصَةً لموقِفِه المستنكِرِ لدعوةِ أبوَيْه، فهو إجمالٌ لما سيأتي من جحودِه وعقوقِه، فهي كلمةٌ جامعةٌ لعقوقِ الوالدَين، ولإنكارِ البعثِ كليهما، فقدَّمتِ الآيةُ هذه الكلمةَ قبلَ إنكارِ البعثِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العقوقَ والإساءةَ إلى الوالدَينِ وقَصْدَهُما بالإساءةِ، والرَّميَ بها في وجهيهما، كلُّ ذلك عندَ اللهِ من أفظعِ الآثامِ[4].

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، كتاب التفسير، سورة حم الأحقاف، برقم: (4876).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 99.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 157.

(4) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 453.

دلالةُ استعمالِ اسمِ الفِعلِ ﴿أُفِّ﴾:

التَّأفُّفُ دليلٌ على مَدَى عقوقِ الابنِ الكافِرِ واستكبارِهِ وحُمْقِهِ

استعملَ النَّظمُ الجليلُ اسمَ الفعلِ ﴿أُفِّ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ عقوقِ الابنِ الكافرِ لوالدَيْهِ؛ إذِ المُرادُ منها هاهُنا الدَّلالةُ على كراهيةِ هذا الابنِ لوالدَيه، وضيقِهِ بكلامِهما، واستثقالِه لما يدعوانِه إليه، كأنَّهُ شيءٌ قَذِرٌ تستنكِفُ النَّفْسُ عنهُ[1]، وفي ذلك إشارَةٌ إلى مدى حُمْقِهِ وغبائِهِ واستكبارِهِ على الحقِّ، وليسَ اسمُ الفعلِ ﴿أُفِّ﴾ مستعمَلًا في الضَّجرِ فحسب، بل فيه زيادةٌ على ذلك، وهو التَّحقيرُ والاستهزاءُ والكفران، فهو أشدُّ ما يكون عليه العقوقُ، فهو ليس مجرَّدَ اسم فعلٍ يقولُه العاقُّ، بل هو قولٌ مليءٌ بالنُّكران، لاسيَّما اقترانُه بالجارِّ والمجرورِ ﴿لَّكُمَآ﴾، وما بعدهما من الاستفهامِ الإنكاريِّ، والقرائنِ الدّالَّة على شنيعِ سلوكِه.

نوعُ اللّامِ ودلالَتُها في ﴿لَّكُمَآ﴾:

تخصيصُ الوالدَينِ بالتَّأفيفِ من بالغِ العقوقِ

جاءتِ اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى على لسانِ الابنِ العاقِّ الكافرِ: ﴿أُفِّ لَّكُمَآ﴾ لِلبَيانِ، أي: هَذا التَّأفِيفُ لَكُما خاصَّةً، ولِأجلِكُما دونَ غَيْرِكُما[2]، وهذا هو موضع العقوقِ الشَّديدِ، ففي زيادَةِ هذا القيدِ ﴿لَّكُمَآ﴾ على أصلِ النَّظمِ تخصيصٌ للوالدَينِ كاشفٌ عن بالغِ العقوقِ والإساءَةِ، وقد كان من الممكن أن يأتيَ النَّظمُ من دونه، فيكونَ: (والَّذِي قالَ لِوالِدَيهِ: أُفٍّ، أتَعِدانِنِي)، ولكنَّ النَّظمَ زادَهُ؛ لبيانِ مدى عقوقِ الابنِ الكافِرِ وسوءِ أدبِه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في لفظِ: ﴿أُفِّ﴾:

التّأفُّفُ ما بينَ سفولٍ ثابتٍ أو عظيمٍ، أو وصمَةٍ دائمَةٍ وسوءِ مآلٍ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿أُفِّ﴾ عددٌ من القراءاتِ، المتواترُ منها عن القُرّاءِ ثلاثٌ[3]: الكسرُ بغيرِ تَنوينٍ: ﴿أُفِّ﴾، وهي قراءةُ الجمهورِ، والمرادُ بِه: أنَّ المعنى الَّذي قصدَهُ مقترنٌ بسُفولٍ ثابتٍ، ومع التَّنوين:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أفف).

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 313.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 306، و307.

﴿أُفِّ﴾ وهي قراءةُ المَدَنِيَّيْنِ وحفصٍ، والمرادُ به: أنَّهُ سفولٌ عظيمٌ سائرٌ مع الدَّهرِ بالغَلبةِ والقَهرِ، والفتحُ من غيرِ تنوينٍ: ﴿أُفَّ﴾ وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وابن عامرٍ ويعقوب، والمرادُ بهِ: اقترانُ المعنَى المقصودِ بالاشتهارِ بالعُلوِّ والانتشارِ معَ الدَّوامِ[1].

غرضُ الاستفهامِ ودلالَتُه:

الإنكارُ على الوالدَينِ وتوبيخُهُما إيغالٌ في العقوقِ والجُحودِ

جاءَتِ الهمزةُ في قولِه: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ للإنكارِ التَّوبيخِيِّ؛ لأنَّها إنكارٌ لفعلٍ لا يكونُ، ولا ينبغي أن يكون من جهةِ قائلِه، وهذا الإنكارُ أكثرُ إيلامًا، فإنَّ الابنَ العاقَّ إلى جانبِ رفضِه لدعوتِهما للإيمانِ، تمادَى، فوَبَّخَهُما على توجيهِ هذه الدَّعوةِ له، وفي هذا إيغالٌ في العقوقِ والجُحودِ والنُّكرانِ، وفي هذا الاستنكارِ تعليلٌ للتَّأفُّفِ وبيانٌ لسببِه.

بلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾:

الألفاظُ القرآنيَّةُ تكشفُ ما يَتضمَّنُه الكلامُ من الوعدِ بالخيرِ والشَّرِّ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفردَةِ الوعدِ في قولِه: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ دونَ رَديفاتِها، نحو: أتُلْزِماني، أو أتُخبراني؛ وذلكَ لأنَّ المفردةَ تحتملُ أمرين، وهما الوعدُ بخَيرٍ وشَرٍّ[2]، فيُحتملُ أن يكونَ المُرادُ هاهُنا: أتتوَعَّداني بالبعثِ والنُّشورِ، منَ الإيعادِ، أي: من التَّخويفِ بعذابِ الآخِرَةِ في حالِ أصرَّ على الكفرِ والجُحودِ، ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّ المرادَ الوعدُ بالجَنَّةِ في حال آمنَ باللّٰهِ تعالى، وإن كانَ سياقُ النَّظم يميلُ إلى الإيعادِ أكثرَ من الوعدِ، وهذا الموضعُ شبيهٌ بموضعٍ آخرَ تَضمَّنَ الأمْرَينِ، وهو قَولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يونس: 55]، فَهَذا وعدٌ بالقِيامَةِ، وجزاءُ العِبادِ إن خَيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فَشَرٌّ[3]، والأَوْلى هو حملُ الكلامِ على المعنَيَيْنِ؛ لأنَّ المُتَصوَّر من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (وعد).

واقعِ الوالدَيْن المؤمنين أن يكونا قد سَلَكا معه التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، أي: التَّخويفَ من النّار، والتَّرجية بالجنَّة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ المُضارِعِ:

استمرارُ دعوةِ الأبوينِ دليلُ الإحسانِ واستمرارُ جُحودِه دليلُ النُّكران

عبَّرَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ بصيغةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ دعوَةِ الوالدَينِ لهذا الابنِ العاقِّ، وعلى أنَّهُما حدَّثاه في الإيمانِ باللّهِ تعالى وبالآخرةِ والبعثِ مرارًا، وعلى أنَّهُما يُحَدِّثانه، وأنَّهُما سوفَ يُحَدِّثانِه حتَّى مماتِهِما؛ شفقةً عليه من يوم البعث، وفي صيغَةِ المضارَعَةِ كذلك دلالةٌ على استمرارِ رفضِ الابنِ العاقِّ وشِدَّةِ جحودِهِ وكفرِه، فهو يُقابِلُ تجدُّدَ دعوتِهما بتجديدِ رفضِه.

نُكْتَةُ العدولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المصدرِ المُؤَوَّلِ:

استحضارُ صورةِ الخروجِ باديةٌ للعيانِ للمبالغةِ في الاستنكارِ

استعملَ النَّظمُ المصدرَ المؤَوَّلَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ؛ وذلِكَ لما في التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستِقبالِ والزَّمَنِ، وعَدَلَ عنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ، فَلَم يقل: (أتعِدانِني الخروجَ)؛ لِدلالَتِه على الحَدَثِ فحسب، دونَ الزَّمَنِ[1]، فأفادَ استحضارَ صورةِ الخروجِ مُتَجَدِّدَةً باديةً للعيانِ؛ للمبالغةِ في الاستنكارِ والتَّوبيخِ.

نُكْتَةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُخۡرَجَ﴾ للمفعولِ:

توكيدُ إنكارِ البعثِ بتجاهلِ ذِكْرِ الخالقِ

في قولِه: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ بنى البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿أُخۡرَجَ﴾ للمفعولِ، وعدلَ عن بنائِه للفاعلِ، فلم يقل: (أتعدانِنِي أنْ يُخْرِجَنِي اللّهُ)؛ وذلك لتوكيد كفْرِه، وبيانِ شِدَّةِ إنكارِه للأُلوهيَّةِ والبعثِ؛ ركونًا إلى الكفرِ والظُّلم، ومبالغَةً في عصيانِ أبوَيْه، ورفض دعوتِهما للإيمانِ باللّهِ تعالى.

بلاغَةُ استعمالِ مُفردَةِ ﴿أُخۡرَجَ﴾ دونَ (أُبْعثَ):

آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بمفردَةِ ﴿أُخۡرَجَ﴾ دونَ مفردَةِ

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 147.

(أُبْعَثَ)، ولم يقل: (أُبْعَثَ) أو (أُنْشَرَ)؛ وذلِكَ لتَمَكُّنِ الأوهامِ من عقلِه، فهو يُنكِر الإخراجَ من القبورِ، لما فيه من عجيبِ عَودِ الأبدانِ إلى حالتِها ببثِّ الرّوحِ فيها، وهو موضعُ الإنكار، فكان لفظُ الإخراجِ دائرًا حولَ علَّة التَّكذيب.

لفظُ الإخراجِ عليه مدارُ الإنكار

نَوعُ الواوِ ودلالَتُها في قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ﴾:

جاءتِ الواوُ في قولِه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ حاليَّةً، أي: والحالُ أنَّهُ قد مضتِ القُرونُ من قبلي، فماتوا، ولم يُبْعَثْ مِنْهم أحدٌ[1]، وقد أفادت هذِه الواوُ أنَّ معنَى هذِه الجملةِ أوشكَ أن يكونَ خبرًا مستقِلًّا؛ لأنَّ الواوَ وإن كانت واوَ حالٍ، فإنَّ معنَى العطفِ لا يبرَحُها، فأفادَ الحالُ والعطفُ توكيدَ كلامِ الابنِ العاقِّ الضّالِّ، فهي إشارَةٌ لإصرارِهِ وعنادِهِ[2]، فقد كانَ الواحِدُ مِن هؤلاءِ المُكَذِّبينَ الضّالِّينَ من كفّارِ قريشٍ يتبجَّحُ، فيقولُ: أينَ عبدُ اللّهِ بنُ جُدعانَ؟ وأينَ عثمانُ بنُ عمروٍ؟ وأينَ عامرُ بنُ كعبٍ ومشايخُ قريشٍ حتَّى أسألَهُم عمّا يَقولونَ[3]؟ يقولُ ذلك مماراةً وجَدلًا.

الاسـتـدلالُ بالحالِ المشاهدِ عـلى الـيـقـينِ الـقـادمِ من أوهامِ الضُّلّال

فائدةُ اقترانِ (قد) معَ الماضِي ﴿خَلَتِ﴾:

دَلَّ اقترانُ حرفِ التَّحقيقِ (قَدْ) بالفعلِ الماضي ﴿خَلَتِ﴾ على سَعْيِ الابنِ العاقِّ لتوكيدِ مزاعِمه باستحالةِ حدوثِ البعثِ، بدليلِ أنَّ الأجيالَ قَدْ خلَتْ، وهلكَتْ، ولم يَعُدْ منها فردٌ واحدٌ.

تـوكـيـدُ الابـنِ الـعـاقِّ مزاعِمَه بـاسـتـحـالـةِ حدوثِ البعثِ

بلاغةُ استعمالِ ﴿خَلَتِ﴾ دونَ (مَضَتْ):

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفرَدَةِ الخُلوِّ ﴿خَلَتِ﴾، في قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾، دونَ مفرَدَةِ المُضِيِّ (مضَتْ)؛ وذلكَ لأنَّ مفرَدَةَ (الخُلوِّ) تدورُ معانيها حولَ الفَراغِ والتَّعَرِّي وفراغِ الحَيِّزِ

احـتـجـاجُ الضّالّينَ بخُلوِّ القرونِ وفراغِها وانقراضِ أهلِها إمعانٌ في الوهمِ

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 45.
(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 453.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 198.

من الشَّيءِ الَّذي كان يملؤه، بينما تدورُ معاني المُضِيِّ حولَ النَّفاذ والمرورِ[1]، كما أنَّ في الفعل ﴿خَلَتِ﴾ إشارةً إلى بُعدٍ وانقراضٍ، والانقراضُ طولُ عهدٍ، وهذا معنًى أصيلٌ في ﴿خَلَتِ﴾، وهو غير موجود في (مَضَتْ)، وهذه المعاني أدلُّ على مُرادِ الابنِ العاصِي الَّذي يجادِلُ، ويُحاجِجُ في إنكارِ البَعْث، فلا يزدادُ إلّا وهْمًا فوقَ وهْمٍ.

توجيهُ الحقيقةِ والمجازِ في إسنادِ الخُلوِّ إلى القرون:

المبالغةُ في إثباتِ الانقراضِ لتوكيدِ الزَّعْمِ الباطلِ

آثَر النَّظمُ الكريمُ إسنادَ فعلِ ﴿خَلَتِ﴾ إلى ﴿ٱلْقُرُونُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، وهو إمّا أن نوجِّهَه على أنَّه مجازٌ عقليٌّ؛ وذلك بإطلاقِ الزَّمان وإرادة من عاش فيه، وإمّا على المجاز بحذف المضافِ على تقدير: (وقد خلا أهلُ القرونِ)؛ لأنَّ التَّعبيرَ القُرآنيَّ أسندَ الخُلوَّ إلى القرونِ، والمقصودُ أهلُها، والنُّكتَةُ هُنا في العُدولِ عن ذِكرِ الأهلِ وذِكرِ القرونِ، هو المبالغةُ في إثباتِ الانقراضِ؛ توكيدًا لزَعْمِهِ ووهْمِه، فالقرونُ قد خلت، فكيف أهلُها؟ وهذا أبلغُ من القولِ بالمجازِ، وفيه كنايةٌ تعريضيَّةٌ عن الانقراضِ، وإلّا فكونُها قَدْ خَلَتْ ممّا لا يحتاجُ إلى الإخبارِ بِهِ.

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ في لفظِ ﴿ٱلْقُرُونُ﴾:

شمولُ لفظِ القرونِ للسّابقينَ جميعًا

جاءَتْ لفظَةُ ﴿ٱلْقُرُونُ﴾ معرَّفَةً باللّامِ، وهي لامُ العهدِ الذِّهنِي؛ إذ لم يَرِدْ للقرونِ ذِكْرٌ فيما مضَى من الكلامِ، ولكنَّ المفهومَ من السِّياقِ أنَّها القرونُ السّابِقَةُ على هذا الابنِ العاقِّ الكافِرِ، وجاء لفظُ ﴿ٱلْقُرُونُ﴾ كذلكَ جمعًا؛ ليَشْمَلَ القُرونَ السّابقَةَ كلَّها، وفي ذلك دلالَةٌ على إرادَةِ توكيدِ مزاعِمِهِ بما يستطيعُ من دلالاتٍ لُغَويَّةٍ.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿ٱلْقُرُونُ﴾ دونَ (الأُمَم):

القرونُ المتعاقبَةُ المتَضادَّةُ أقوى في إرادَةِ توكيدِ الجَدَلِ بالباطِلِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفرَدَةِ ﴿ٱلْقُرُونُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، دونَ مفرَدَةِ (الأُمَم)؛ لأنَّ الأصلَ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلو) و(مضي).

في القرنِ الزَّمَنُ المُمَتدُّ الطَّويلُ، والقَرْنُ كذلكَ القومُ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ[1]، وكثُرَ إطلاقُه على الأُمَّةِ الَّتي دامَتْ طويلًا، وعُمِّرَتْ في الأرضِ أزمانًا مُتطاولةً[2]، ولا تُعمَّرُ الأممُ إلّا بقوَّتها وسَيْطَرَتِها، ولمّا كانَ سياقُ الجُملَةِ إرادَةَ الجِدالِ بالباطِلِ إيهامًا باستحالَةِ البعثِ؛ كان لفظُ القُرونِ أنْسَبَ للمحاجَجةِ بقوَّةِ هذه القرونِ وكثرَتِها.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالَتُها في ﴿مِن قَبۡلِي﴾:

كـلامُ الابـنِ الـعـاقِّ أصـلٌ لكلامِ المادّيِّين

جاءَتْ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾؛ لابتداءِ الغايَةِ الزَّمانيَّة، الَّذي هوَ أصلُ معانيها، وتأتي كذلكَ لابتداءِ الغايةِ وانتهائِها[3]، أي: إنَّ زوالَ القرونِ قد حدثَ، وانتهى، قبلَ أن يأتيَ الابنُ العاقُّ الضّالُّ، ومَن هُم على شاكلَتِه، فظَنَّ الابنُ أنَّ مُضيَّ القرونِ دونَ رجوعِ أحدٍ بعدما ماتَ حُجَّةٌ دامِغَةٌ داعِمَةٌ لقولِه، أي: هو يستشهد بما يراهُ، وقولُه أصلٌ لكلامِ المادّيِّين المعاصرين، الَّذين يحتكمونَ لما تراهُ أعيُنُهم، لا ما تعيه عقولُهم، وهي حُجَّةٌ باطلَةٌ في حقيقةِ الأمرِ؛ إذ لم يزعم أحدٌ أنَّ البعثَ سيكونُ في هذه الدُّنْيا، بل هو شأنٌ من شؤونِ الآخرةِ.

نكتةُ ذِكرِ قيدِ ﴿مِن قَبۡلِي﴾:

جـدالُ الابـنِ الـعـاصِي مرتَكِزٌ حـولَ ذاتِـه، لا حـولَ الـحـقِّ المنشودِ

جاء ذِكرُ قيد ﴿مِن قَبۡلِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾؛ وكانَ من الممكنِ أن يأتِيَ بدونه، فيقولَ: (وقدْ خلَتِ القُرونُ، وهُما يَستَغيثانِ)؛ وذلكَ لأنَّ مُرادَ الابنِ العاصِي الكافرِ ليس خُلوَّ القُرونِ وأهليها في حدِّ ذاته، وإنَّما هو يجادلُ أبويْهِ بشأنِ عدمِ شُهودِهِ هو لبعثِ أيِّ واحدٍ من هذه القرونِ الخاليَةِ.

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (قرن).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 137.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 533.

نوعُ الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَهُمَا﴾:

حـالُ المـؤمـنِ الاستغاثةُ باللهِ عند وقوعِ الكَرْبِ

جاءَتِ الواوُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ حاليَّةً، فالجملةُ حالٌ من الوالدَينِ، والمعنى: أنَّهُما كانا يستغيثانِ اللهَ حالَ قولِه وجدالِه وإنكاره، ولم يُصغيا إليه، بل كانا مُعْرِضَين عنه؛ لأنَّهُما يَعلمانِ أنَّه يقولُ زورًا، وفي ذلكَ بيانٌ لمدى سُخْفِ قولِه من ناحيةٍ، ومدى ما أصابَهُما من هلَعٍ وفزعٍ من ناحيَةٍ أخرى؛ خوفًا عليهِ من الهلاكِ في الآخرة، وحذرًا أن يصيبَهما شُؤمُ قولِه وضلالِه، وفيه بيانُ أنَّ حالَ المؤمنِ الاستغاثةُ باللّه تعالى عند وقوعِ الكَرْب، وعند وقوعِ ما يُسيئُه من حالِ ابنِه.

بَلاغةُ استعمالِ ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾:

الاستغاثَةُ كنايةٌ عن شِدَّةِ الكَرْبِ وطَلَبِ رَفْعِه

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ الاستغاثَةِ في قولِهِ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرِها من مرادفاتِها، نحو: (يدعوانِ اللّهِ)؛ وذلكَ لأنَّ المعنَى المحوريَّ في الاستغاثَةِ الصِّياحُ؛ طلبًا لِتفريجِ شِدَّةِ نازِلَةٍ، وليس كذلك الدُّعاءُ، فالمستغيثُ هو الَّذي يَصْرخُ طالبًا الغَوثَ من كَرْبٍ يُحيطُ به، وهو كنايَةٌ عمّا هُم فيه من شقاءٍ بهذا الولدِ العاقِّ، ومرادُهُما بالاستغاثَةِ إنكارُ قولِه، فهما يستعيذانِ اللّهَ مِن كفرِه، أو يطلبانِ من اللّه ﷻ أن يُغيثَه بالتَّوفيقِ، حتَّى يَرجِعَ عَمّا هوَ عليه من إنكارِ البعثِ والنُّشورِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾:

استحضارُ صورةِ الوالدَيـنِ وهما يبتهلانِ إلى اللهِ بأن يَهديَ ابنَهما

جاءَ فعلُ ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾ في صيغَةِ المضارعَةِ؛ لاستحضارِ الصّورةِ، فكأنَّ المُتَلَقِّي يرى بعينيه هَذَينِ الوالدَينِ، وقد لهجا بالابتِهالِ إلى اللّهِ في كلِّ ساعَةٍ، بأن يهدِيَ ابنَهُما إلى طريقِ الفلاحِ، لا سيَّما مع مجيئه في جملةِ الحالِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 179، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غوث).

غرضُ حذفِ مُتَعَلِّقِ فِعلِ ﴿يَسۡتَغِيثَانِ﴾:

الجمعُ بين الاستغاثَةِ من الابنِ العاقِّ والاستغاثة له

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مُتَعَلِّقَ الفعلِ ﴿يَسۡتَغِيثَانِ﴾، فَلم يقل: (وهُما يَسۡتَغيثانِ اللّه له)؛ وذلكَ لإفادَةِ الإطلاقِ في الاستغاثَةِ باللّهِ تعالى للابنِ العاقِّ، والاستغاثة مِن كفرِه وعصيانِه؛ حتّى يُقۡلِعَ عَمّا هو فيهِ من ضلالٍ، ويستغيثانِ اللّهَ من شؤمِ كفرِهِ أن يَحِلَّ بهما، أو يطلبانِ من اللّه ﷻ أن يُغيثَه بالتَّوفيقِ للإيمانِ[1]، حتَّى يَرجِعَ عَمّا هوَ عليه من إنكار البعثِ والنُّشورِ، فهي استغاثةٌ له ومنه، ولو قيَّد أحدَهما؛ لانتفى الآخرُ.

نُكْتَةُ حذفِ (يَقولانِ) أو (قائِلِينَ):

كلمةُ المُشفِقِ ليس بالضَّرورة أن تدخلَ قلبَ المُشفَقِ عليه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ حذفَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ القولِ: (يَقولانِ)، أو اسمَ الفاعلِ: (قائلينِ)، فلم يقل: (وهما يَستغيثانِ اللّهَ قائلين: ويلك آمن)؛ وذلك للإيجازِ والاختصارِ، وسوَّغ الحذفُ وجودَ ما يدُلُّ على المحذوفِ، وهو فعلُ ﴿يَسۡتَغِيثَانِ﴾، ونُكْتَةُ الحَذْفِ تسليطُ الأمرِ على ما يَصۡدُرُ عنهما من قول: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾، فهي كلمةٌ يَتَردَّد صداها في كلِّ وقتٍ وحين، على لسانِ المُشْفِقِ، لكنَّها لا تدخلُ قلبَ السّامعِ.

غرضُ استعمالِ كلمةِ ﴿وَيۡلَكَ﴾:

الحثُّ على الإيمانِ والزَّجرُ عن الكفرِ

كلمةُ الويلِ تُقالُ لمَن تُحِبُّ ولمَن تَكرَهُ، أمّا مَن تَكۡرَهُ؛ فهي دعاءٌ عليه، وتُقالُ لمن تُحِبُّ لِتَخويفِه وزَجۡرِه عن أمرٍ تَكۡرَهُ أن يقعَ فيه[2]، وأصۡلُ ﴿وَيۡلَكَ﴾: (ويلٌ لَكَ) كَما في قَوۡلِهِ تَعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: 79]، فَلَمّا كَثُرَ استِعمالُهُ، وأرادوا اختِصارَهُ؛ حَذَفوا اللّامَ، ووَصَلوا كافَ الخِطابِ بِكَلِمَةِ (ويۡلٍ)، ونَصَبوهُ على نَزۡعِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 114.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 456.

الخافِضِ[1]، والمُرادُ بِهِ هُنا الحَثُّ والتَّحْرِيضُ على الإيمانِ، والتَّهديدُ من الكفرِ، لا حَقِيقَةُ الدُّعاءِ بالهَلاكِ[2].

بلاغةُ التَّوطئةِ للأمرِ بذِكْرِ ﴿وَيۡلَكَ﴾:

تقديمُ خطابِ العاطفةِ يُصوِّرُ الحالَ الَّتي كان عليها الوالدانِ

جاءَ لفظُ ﴿وَيۡلَكَ﴾ قبلَ ذِكْرِ فعلِ الأمْرِ ﴿ءَامِنۡ﴾؛ حثًّا من الوالِدَيْنِ على الإيمانِ، وزَجْرًا لهُ عن الكفْرِ؛ إذِ الويلُ دُعاءٌ بالثُّبورِ يُقامُ مَقامَ الحَثِّ على الفِعلِ أو تَركِه؛ إشعارًا بأنَّ ما هو مُرْتَكبٌ حقيقٌ بأن يُهْلَكَ مُرتكِبُه، وأنْ يُطْلَب له الهلاكُ، فإذا سمعَ المخاطَبُ ذلكَ؛ كان سماعُه باعِثًا على تَرْك ما هو فيه، والأخذِ بما يُنْجِيه، وهو هُنا الإيمانُ باللّهِ تعالى وبالبعثِ[3]، فجاءَ لفظُ ﴿وَيۡلَكَ﴾ بمقامِ تحريكِ مشاعرِ الابنِ العاقِّ؛ توطئةً للأمرِ بالإيمانِ، فإنَّ خطابَ العاطفةِ الصّادرِ عن الوالدَيْن يُترجِم حرصَهما على ابنيهما وخوفِهما عليه من الهلاك.

غَرضُ الأمرِ في فعلِ ﴿ءَامِنۡ﴾:

النُّصْحُ والإرْشاد المحفوفُ باللَّهفةِ والرَّشاد

جاءَ فِعْلُ الأمرِ ﴿ءَامِنۡ﴾ للنُّصْحِ والإرشادِ، المحفوفِ باللَّهفةِ والرَّشادِ، فهو أمرٌ بالإيمانِ باللّهِ تعالى وبالبعثِ والحسابِ والنُّشورِ، ولكنْ فيهِ مِنَ الإلزامِ والشِّدَّةِ ما يتناسبُ ومِقدارُ شفقةِ الوالدَينِ وخوفِهما.

علَّةُ الأمرِ بالإيمانِ دونَ الإسلامِ:

الأصــــلُ في الإيمانِ أن يكونَ بغيبٍ، والبعثُ من أمورِ الغيبِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ وجَّهَ الوالدانِ للابنِ العاقِّ الأمرَ بالإيمانِ دونَ الأمرِ بالإسلامِ، وعِلَّةُ ذلكَ أنَّ هذا الابنَ قد أنكَرَ البعثَ، الَّذي هو أحد أهمِّ معالم الغيبِ، بحيثُ يكونُ مُنكِرُهُ على خطرٍ عظيمٍ، بل يوشكُ أنْ يكونَ إنكارُ البعثِ إنكارًا للخالقِ سبحانه؛ لذا كان من المناسبِ أن يكونَ الأمرُ هاهُنا بالإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ في الأصلِ إيمانٌ بغيبٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 39.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 178.

(3) محيي الدّين زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 7/ 565.

الجملةُ تعليلٌ وتقريرٌ لِتَحقُّقِ وعْدِ الله بالبعثِ

علَّةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ﴾ عَمّا قَبْلَها:

فصلَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَهُ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ﴾ عن قولِه: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾؛ وذلكَ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذ جاءت الجملةُ الأولى إنشائيَّةً، وكانتِ الأُخرَى خبريَّةً؛ ولأنَّ الجملةَ تَعليلٌ لِلأمرِ بالإيمانِ، وهو تقريرٌ بِتَحقيقِ وعْدِ اللّه في الانتِقامِ مِنَ المُكَذِّبينَ وبرفعِ الدَّرَجاتِ للمؤمنينَ الطّائِعينَ المحسنينَ.

بيانُ علَّةِ صِدقِ تحقُّقِ الوعدِ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿حَقٞ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ﴾ وصفَ النَّظْمُ الحكيمُ الوعدَ بأنَّه وعدٌ حقٌّ، والمرادُ به الوعدُ الثّابتُ؛ إذ (الحَقُّ) مَصْدَرُ حَقَّ يُحِقُّ، بِمَعْنَى ثَبَتَ، فالحَقُّ: هو الثّابتُ الَّذي لا رَيْبَ فِيه ولا مُبالَغَةَ[1]، فهو وعدٌ حقٌّ ثابتٌ يُطابِقُهُ الواقِعُ، كَما يَكْشِفُ عَنْهُ الزَّمانُ، وتَأتي بِهِ مَطايا الحَدَثانِ؛ لأنَّهُ لَو لَم يَكُن حقًّا؛ لكانَ نَقصًا مِن جِهةِ الإخلافِ، فَكَيفَ وهو يلزَمُ منهُ مُنافاةُ الحِكمةِ بِكَونِ الخَلقِ حِينَئِذٍ على وجهِ العبثِ؛ لأنَّهم عِبادٌ ورَعايا لا يُعرِضونَ على مِلكِهِمُ الَّذي أبدعَهم مع عِلمِهِ بِما هم عَلَيهِ مِن ظُلمِ بَعضِهِم لِبَعضٍ، وبَغيِ بَعضِهم على بعضٍ[2].

سُرعةُ ردِّ الابنِ العاقِّ على أبوَيْهِ من غيرِ فاصلٍ

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في ﴿فَيَقُولُ﴾:

جاءَتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَيَقُولُ﴾ عاطفةً للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ والسَّببيَّةِ[3]، فَدَلَّت على سُرعةِ ردِّ الابنِ العاقِّ على أبوَيه، من غيرِ فاصلٍ، فلم يُراجِع، ولم يَتَدَبَّر، ولم يَتَرَيَّث، فهو مُصِرٌّ على الرَّفْضِ بِصَرْفِ النَّظرِ عن الدَّليلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارعِ ﴿فَيَقُولُ﴾:

دَلَّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعَةِ في قولِه: ﴿فَيَقُولُ﴾ على تكرارِ قولِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 136.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 154.

(3) قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 1779.

الابنِ العاقِّ، واستمرارِه في ترديدِ تُرَّهاتِه، كلَّما قيل له: ﴿ءَامِنْ﴾، ودلَّت كذلكَ على استحضارِ صورَتِه، وهو يَلْهَجُ بالقولِ الكاذبِ دونَ دليلٍ أو حُجَّةٍ.

تـكـرارُ قـولِ الابـنِ الـعـاقِّ، واسـتـمـرارُه في ترديدِ تُرَّهاتِهِ

دلالةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للقَريبِ:

جاءَ استخدامُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾ في قولِه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دالًّا على مبالغةِ الابنِ في التَّقليلِ من شأنِ البعثِ، وعدِّه إيّاهُ مجرَّدَ خُرافاتٍ وأساطيرَ، وفي ذَلِكَ تأكيدٌ لإنكارِه البعثَ والنُّشورَ الَّذي أَخْبَرَهُ بهِ والداهُ، وبالغا في دعوتِهِ إليه، كما أنَّ في استعمالِ اسمِ الإشارَةِ على هذا النَّحوِ دلالَةً على تهكُّمِ هذا الابنِ واستهزائِه بقضيَّةِ البعثِ، فَلم يقل: (ما البعثُ إلّا أساطيرُ الأوَّلينَ)، بل آثَر النَّظمُ التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ تَجنُّبًا لذِكرِ القضيَّةِ المِحْوَريَّةِ، وهيَ البعثُ والنُّشورُ والحسابُ، وكذلك فإنَّ في استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾ هاهنا إشارةً إلى رغبةِ الابنِ في تنزيلِ الأشياءِ المعقولةِ منزلةَ الأشياءِ المحسوسةِ المُشاهدةِ[1]؛ لغلبَةِ النَّزعةِ المادِّيَّةِ عليه، لغِلَظِ حِسِّهِ وفسادِ طَبْعِه.

بيانُ تَهَكُّمِ الابنِ الـعـاقِّ الـضّـالِّ واسـتـهـزائـه بقضيَّةِ البعثِ

دلالةُ القَصْرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ:

جاء القَصْرُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالنَّفيِ والاستثناءِ؛ لتأكيدِ أوهامِ هذا الابنِ العاقِّ في نفيِ البعثِ، فيُصَوِّرُ البعثَ بوصفِهِ قَضِيَّةً لا يمكنُ الاستدلالُ عليها، وكذلك فإنَّ في استعمالِ أسلوبِ القَصْرِ إثباتًا لعنادِه واستمرارِهِ في غَيِّه وضلالِه، وقد آثَر النَّظمُ الحكيمُ استعمالَ القَصْرِ بـ﴿مَا﴾ النّافيةِ، و﴿إِلَّآ﴾ الَّتي تُفيدُ تقويةَ التَّوكيدِ وتَرسيخَه؛ لبيانِ تَمَسُّكِه برأيِهِ الباطلِ، فهو ينفي ابتداءً بـ﴿مَا﴾ عمومَ أن يكونَ البعثُ شيئًا إلّا أساطيرَ الأوَّلين.

استعمالُ القَصْرِ يُؤَكِّدُ عنادَ الابنِ الـكـافـرِ وكِـبـرَه في إنـكـارِ قضيَّةِ البعثِ

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 88.

سِرُّ التَّعبيرِ بكلمة ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وصفُ البَعثِ بالأساطيرِ مُبالغةٌ تنشأ عن الكذبِ المستطير

آثَر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن موقفِ الابنِ العاقِّ بكلمةِ الأساطير في قولِهِ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهو وصفٌ كان الكفّارُ المُعاندونَ يُطلِقونَهُ على ما وصَلَهم من أخبارِ البَعثِ وأُمورِ الآخِرَةِ، ومُرادُهم ما سَطَّرُه الأوَّلون كَذِبًا لِأمْرٍ لا يعرِفون مُرادَهم مِنهُ، ولا حَقيقَةَ مَعناهُ، والتَّعبيرُ بهذه المُفردة يدلُّ على استهزاءِ هذا الابن المستكبِرِ، وتهكُّمِهِ وإنكارِهِ لقضيَّةِ البعثِ، وقد عَمَدَ الابنُ الضّالُّ إلى استعمالِ مفردَةِ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمعًا؛ للإيهامِ بأنَّهُ على عِلْمٍ بفحوى الأساطيرِ القديمَةِ، وذلك للتَّدليسِ على والديه، وللاستمرارِ في الغَيِّ والضَّلالِ والكُفرانِ.

غرضُ إضافةِ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

تزاحُمُ مبالغاتِ الأكاذيبِ، دليلُ تزاحمِ أفكارِ التّفاهاتِ

أضافَ النَّظمُ الحكيمُ على لسانِ الابنِ الضّالِّ: ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لبيانِ مدَى ضلالِ هذا الابنِ وافترائِهِ؛ إذ لم يكتفِ هذا الابنُ العاقُّ بإنكارِ قضيَّةِ البَعثِ، بل زادَ على ذلك بوصفِها بأنَّها محضُ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، أي: حِكايةٌ خُرافيَّةٌ مَكذوبةٌ لا سبيلَ إلى التَّحقُّقِ منها، تَرتابُ نفسُهُ في تصديقِها والإقرارِ بها، ثمَّ أضافَ الأساطيرَ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لِيُبَيِّنَ مدى إيغالِ هذِه الأساطيرِ في القِدَمِ؛ تأكيدًا لِزَعْمِهِ الباطِلِ أنَّهُ لا يمكنُهُ الجَزْمُ بِصِحَّتِها أو الإيقانُ بها، فَسَوَّلَ لَهُ عقلُهُ الفاسِدُ أنَّ تقادُمَ الزَّمانِ من شأنِه أن يُلغيَ حقائقَ القُدرةِ الإلَهيَّةِ المُطلقة، وركائزَ الإيمانِ الثّابتةَ.

عِلَّةُ فصلِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾:

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ لأحدِ وجهين: **الأوَّلُ:** أنَّ قولَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ وقع في محلِّ رفع خبر

بيانُ مصيرِ الكافرينَ العاقِّينَ المُكذِّبينَ بعد بيانِ حالِهم

المبتدأ لِقولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾، والأصل ألّا يُفصَلَ بينَ رُكني الجملةِ بفاصل، وهذا على وجهِ هذا الإعراب، **والتَّوجيه الآخرُ**: أنَّهُ إذا كانَ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأً لجملة جديدة، فإنَّ بينَ الجُملتَين من شِبهِ كمالِ الاتِّصالِ ما يمنعُ الوصلَ بينهُما، فهو استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّ المُتَلَقِّي لمّا عَلِم سوءَ فعالِ الابن الضّالِّ؛ سأل عن مصيره، فكانَ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ بيانًا لا لمصير الابن فحسب، بل لمصيرِ الفريقِ المُكَذِّبِ كلِّه.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ عنِ المُسْندِ بالاسمِ المَوصولِ:

شُهرَةُ منكِري البَعثِ لا تترُكُ لهُم خافيةً

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةً إلى شُهْرَةِ هؤلاءِ المُكَذِّبينَ بالبعثِ وعَدَمِ خَفائِهم، فمَصيرُهُم في الآخرَةِ يقصِدُهُم قصدًا، وجَهَنَّمُ تَحْصِدُهُم حصدًا، فلا مجالَ للتَّخَفّي أو الفرارِ، بل الخسرانُ لاحِقٌ بهِم، جزاءَ إنكارِهِم وتكذيبِهم؛ إذ هُم معرفونَ بإجرامِهِم وسوءِ أفعالِهِم.

دلالةُ الحَصرِ بِالمُسنَدِ والمسنَدِ إليه:

تأكيدُ المعنى وتقريرُه مبالغةٌ في ذَمِّهم، وتقبيحٌ لأعمالِهم

جاءَ المسندُ والمسندُ إليهِ مَعْرِفَتَينِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾، فأفادَ الإسنادُ القَصْرَ؛ للمبالغةِ في ذَمِّهم، وتَقبيحِ أعمالهم، ولتأكيدِ المعنى وتقريرِه، فهو من قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا إضافيًّا.

دلالةُ استعمالِ مُفردَةِ ﴿حَقَّ﴾:

العذابُ استحقاقٌ نالَه منكرو البعثِ بكفرِهِم

جاءَ استعمالُ مفردَةِ ﴿حَقَّ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ دالًّا على مآلِ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، وقد آثَر النَّظمُ هذه المادَّةَ للدَّلالةِ على إحْكامِ مصيرِ هؤلاءِ المعاندينَ المُكذِّبينَ بالبَعْثِ، ووجوبِ العذابِ والخسرانِ عليهِم[1]، فهوَ مصيرٌ ثابتٌ على وجْهٍ لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).

يُمْكِنُ زَوالُهُ أو تغيُّره[1]، وحقَّ عليهم العذابُ استحقاقًا؛ لما صدر عنهم من الإنكار والجحود.

استعلاءُ القولِ الحقِّ على المُنكِرين وقَهْرِهم

بلاغةُ استعمالِ حَرفِ الاستعلاءِ:

أفادَ التَّعبيرُ باستعمالِ حرف الاستعلاءِ (على) في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ استعلاءَ القولِ الحَقِّ الَّذِي سبقَ من اللّٰهِ - تباركت آلاؤهُ - في حقِّ هؤلاءِ المُنكِرينَ، فهُم مقهورونَ بقَهْرِه، فلا فكاكَ لهم منه.

الكلام مسوقٌ فيمن أنكر البعثَ

تعيينُ مرجع الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

يرجع الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ إلى المُنْكِرين للبَعثِ، ولم يسبق لهم ذِكرٌ تعيينيٌّ، بل هو مفهومٌ من سياقِ الكلامِ كلِّه، فهو مسوقٌ فيمن أنكر البعثَ، فيصدُق عليهم جميعًا.

بيانُ أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ مخرجٌ للَّذينَ أنكروا البعث

دلالةُ تَقديمِ القَيدِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المُسنَدِ إليهِ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾:

قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ القيدَ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ للاهتمامِ ببيانِ أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ مخرجٌ لهؤلاءِ الَّذينَ أنكروا البعثَ، فهُم محصورنَ مقهورنَ لا سبيلَ لهم إلى الخروج من القولِ الَّذي حدَّدَ جزاءَهم ومصيرَهُم.

وعيدُ اللهِ لا يُرَدُّ، وحُكمُهُ العادِلُ لا يُنازِعُه أحدٌ

معنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ معرَّفًا باللّامِ، الَّتي هي لامُ العهدِ، وفيه تعريفٌ بأنَّ حُكمَ الأزلِ لا يُردُّ، والحقُّ سبحانه لا يُنازَعُ، والجَبّارُ لا يُخاصَمُ؛ إذ هو الحَكَمُ المُطْلَقُ، والقادرُ على تحقيق وعدِه ووعيدِه بلا نُقصانٍ، والمرادُ بالقول هاهُنا: الجزاءُ المعروفُ بالخُلودِ في النّارِ، الَّذي تَكَرَّرَ في القُرآنِ مِنَ التَّعْبيرِ عَنْهُ بِالقولِ، في نَحوِ قوله: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 84 - 85]، وقَوْلِه: ﴿أَفَمَن

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 303.

﴿حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الزمر: 19](1)، فهو القولُ الكامِلُ في بابِهِ بِأنَّهم أسْفَلُ السّافِلِينَ(2).

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرْفِيّةِ ﴿فِيٓ﴾:

كـلُّ مـن كـذَّبَ بالبعثِ محشورٌ في وسطِ النّارِ

دلَّ استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ على شمولِ الوعيدِ لأمَم كثيرةٍ قدِ احتشدت في النّارِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، كذَّبوا بالبعث والنُّشورِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى كثرة هذه الأُمَمِ، فهُم كائنون معهم، لا تنالهم رحمةٌ، فهذه الآيةُ نظيرةٌ لقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: 38].

بلاغةُ استعمالِ ﴿أُمَمٖ﴾ دونَ (قُرونٍ):

المـقـصـودُ هـو خـصـوصُ الأمـمِ لا عمومُ القرونِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفرَدَةِ ﴿أُمَمٖ﴾ دونَ مفرَدَةِ (القرونِ) في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾، على خلاف ما جاء على لسانِ الابنِ العاقِّ في الآيةِ السّابِقَةِ: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾؛ وذلك لأنَّ الَّذي يجتمعُ في النّار هم خصوصُ الأُممِ لا عمومُ القرونِ، فالأُممُ هم الأقوامُ المُكذِّبون، سيكون مصيرُهم البعثَ فالحشرَ فالحسابَ فالنّار.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالةُ ذِكرِها في ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾:

تـوكـيـدُ المُـضِيِّ ووجوبُ العذابِ لـشِـدَّةِ إنـكـارِ البعثِ

جاءت ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ لابتداءِ الغايةِ ونهايتها(3)، وقد دلَّ دخولُها على الظَّرف (قبل) على توكيدِ وجوبِ العذابِ على هذه الأمَمِ الَّتي أنكرتِ البعثَ، وقد تآزر مع المؤيِّداتِ الَّتي شُحِنت بها الآيةُ الكريمة متمثِّلةً في حرف التَّحقيق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 40.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 156.
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 533.

﴿قَدْ﴾، والفعل الماضي ﴿خَلَتْ﴾، وهذا الحشدُ من المُؤكِّدات في جملة قليلة المبنى، يشي بضراوة الإنكارِ، وقد زادَ النَّظمُ حرفَ ﴿مِن﴾، ولم يقل: (خَلَتْ قَبْلَهُم) لتقويةِ المعنَى، فقد ذهب المحقِّقونَ إلى أنَّ الظُّروفَ مثل: (قبل، وبعد) ليست بمتمكِّنة، وحكمُها ألّا يَدخُلَ عليها شيءٌ من حروفِ الجَرِّ، لعدم تَمَكُّنِها وقِلَّةِ استعمالِها استعمالَ الأسماءِ، وإنَّما أجازوا دخول (مِنْ) عليها توكيدًا لمعناها وتقويةً له(1).

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾:

شمولُ استحقاقِ الوعيدِ بالعذابِ لكلِّ منكري البعثِ جنًّا وإنسًا

جاءت ﴿مِّنَ﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾ بيانيَّةً؛ وذلكَ لبيانِ شمولِ الوعيدِ بالعذابِ منكري البعثِ والحسابِ كلِّهم، سواء أكانوا جنًّا أم إنسًا، ذلك أنَّ عِلَّةَ الوعيدِ بالعذابِ هي إنكارُ البعثِ، وهذا الإنكارُ والضَّلالُ والتَّكذيبُ، كما هو موجودٌ في الإنسِ، موجودٌ في الجِنِّ، كما قالَ اللّهُ تعالى عَنِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ﴾ [الجن: 14]، فهذا خبرٌ إيمائيٌّ إلى واقعِ الجنِّ، وأنَّ منهم المنكرين للبعثِ والمؤمنينَ به.

دلالةُ عَطفِ ﴿وَٱلْإِنسِۖ﴾ على ﴿ٱلْجِنِّ﴾:

شمولُ الوعيدِ بالعذابِ لكلِّ من أنكرَ البعث

عُطِفَ الإنسُ على الجِنِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾؛ لبيانِ شمولِ الوعيدِ بالعذابِ لكلِّ مَن أنكرَ البعثَ، سواءٌ أكانَ من الجنِّ أم مِنَ الإنسِ، الَّذين كذَّبوا رُسلَ اللّه، وعتَوا عن أمرِ ربِّهم.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿ٱلْجِنِّ﴾ علَى ﴿وَٱلْإِنسِۖ﴾:

قَدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الجنَّ على الإنسِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾؛ لكونهم أعْرَقَ في الكفر، فالجنُّ هم الأصلُ في الإنكارِ والتَّكذيبِ منذُ إبليسَ، وهُم السّابقون

(1) السّخاويّ، سفر السّعادة وسفير الإفادة: 2/ 844.

في الخَلْقِ والتَّكليفِ، وقيل: بَدَأ بِهِم؛ لأنَّ العربَ كانَتْ تستعظِمُهم، وتَستجيرُ بِهم؛ وذَلِك لأنَّهم يَتَظاهَرونَ لهم، ويؤذونَهُم، ولم يَقطع أذاهُم لهم، وتَسَلُّطَهُم عليهم ظاهرًا وباطنًا إلّا القرآنُ؛ فإنَّهُ أحرقَهُم بأنوارِه، وجلّاهم عن تلك البلادِ بِجليِّ آثارِهِ[1]، ولا مانعَ من اجتماعِ هذه الأوجه، فالنِّكاتُ لا تتزاحم.

خَلْقُ الجِنِّ وتكليفُهم بالإيمانِ أسبقُ من الإنسِ

عِلَّةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

فصلَ البيانُ القرآنيُّ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ عن قَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءَتْ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ ولأنَّ الكلامَ قبلَها مَطويٌّ على ما يثير تساؤلًا: لماذا وجَبَتْ عليهم كلمةُ العذابِ؟ وما ذنبُهُم الَّذي أفضَى بهم إلى هذا الهول الَّذي لا يُرْفَعُ؟ فجاءت جملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ لتكشفَ لماذا حقَّت عليهم كلمةُ العذابِ[2]؟

وجوبُ العذابِ نتيجةٌ للتَّكذيبِ وسببٌ للخسرانِ

دلالةُ تعدُّدِ المؤكِّداتِ في ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

حَفَلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بعددٍ من المُؤكِّدات، منها: التَّعبيرُ بالجملَةِ الاسميَّةِ الدّالَّة على ثبوتِ الوصفِ، وتأكيدُ الكلامِ بحرفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم يَظنّونَ أنَّ ما حصلَ لهم في الدُّنيا مِنَ التَّمتُّعِ بالطَّيِّباتِ فوزٌ ليس بعدَه نَكَدٌ؛ لأنَّهُم لا يؤمنونَ بالبعثِ والجَزاءِ، فَشُبِّهَتْ حالةُ ظنِّهم هذا بحالِ التّاجرِ الَّذي قلَّ رِبْحُه من تجارتِه، فكان أمرُه خُسْرًا[3].

خسارةُ الآخرةِ عظيمةٌ، لا تنفعُ معها اللَّذّاتُ الدُّنيويَّةُ

نُكْتةُ ذِكْرِ فعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

ذكر النَّظمُ الجليلُ الفعلَ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم خاسرونَ)، كما يقتضيه الظّاهِرُ؛ وذلكَ

تمكُّنُ خسارةِ منكري البعثِ وشُؤْمُ مصيرِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 157.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 465.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 40.

للدَّلالةِ على ثبوتِ خَسارَتِهم وعِظَمِها وتَمَكُّنِها من مصيرِهِم المشؤوم في الآخرةِ، جزاءَ تكذيبِهم وإنكارِهِم للبَعثِ والنُّشورِ، فتكذيبُهم في الدُّنيا كان مُؤدِّيًا للخسارةِ، وموصِلًا للوبالِ، فلمّا كان التَّكذيبُ بالآخرةِ ديدَنَهم، وكانوا بذلك التَّكذيبِ محكومًا عليهم بالخسارةِ - إذا أصرّوا، وماتوا عليه - كان ذِكْرُ ﴿كَانُوٓاْ﴾ إيماءً لواقعِهم الَّذي هم عليه.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

خَلا ومَضَى:

الخُلوُّ الفراغُ والتَّعرِّي، والمُضِيُّ الذَّهابُ والمرورُ

تدورُ مفرَدَةُ (الخُلُوِّ) حولَ الفَراغِ والتَّعَرِّي وفراغِ الحَيِّزِ من الشَّيءِ الَّذي كان يَمْلَؤُهُ، بينما تدورُ معاني المُضِيِّ حولَ النَّفاذِ والمرورِ[1]، كما أنَّ الخُلُوَّ يَقتَضِي خُلُوَّ المكانِ مِنَ الشَّيءِ، سَواءٌ خلا مِنهُ بالغَيبةِ، أم العَدَمِ، ومنه: لا يَخْلو الجِسْم من حَرَكَةٍ أو سُكونٍ لامتِناعِ خُلوِّ المَكان مِنهُما، وأمّا لا يَخْلو الشَّيءُ من أن يكون مَوْجودًا أو مَعْدومًا، فَمَعْناه: أنَّه لا يَخْلو من أن يَصِحَّ لَهُ معنى إحْدَى الصِّفتَين[2]، كما أنَّ في الفعل ﴿خَلَتْ﴾ إشارةً إلى بُعْدٍ وانقراضٍ، والانقراضُ طوْلُ عَهْدٍ، وهذا معنًى أصيلٌ في ﴿خَلَتْ﴾، وهو غيرُ موجود في (مَضَتْ).

الأُمَمُ والقُرونُ:

القرونُ أزمنةٌ مُمتَدَّةٌ، والأممُ أفرادٌ كثيرون يجمعُهم عقدٌ واحدٌ

الأصلُ في القرنِ أنَّهُ الزَّمَنُ المُمتَدُّ الطَّويل، والقَرْنُ كذلكَ القومُ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ[3]، وأمّا الأُمَّةُ: فالجماعةُ من النّاس يجمعُهم أمرٌ ما: دينٌ أو زمانٌ أو مكانٌ واحدٌ، سواءَ كانَ ذلكَ الجامعُ اختياريًّا أم قهريًّا، والجمع أمم، كَقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، وكثُرَ إطلاقُه على الأُمَّةِ الَّتي دامَتْ طويلًا، وعُمِّرَتْ في الأرضِ أزمانًا مُتَطاولةً[4]، ولا تُعَمَّرُ الأممُ إلّا بِقوَّتِها وسَيْطَرَتِها.

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلو) و(مضي).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 310.
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (قرن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 137.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: 19]

بعدَ بيانِ الحالِ يَحْسُنُ إجمالُ المآلِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ أحوالَ المُحسنينَ الطّائعينَ والعاقِّينَ المُكذِّبينَ في الأعمالِ؛ ناسبَ أن يَذْكرَهم على سبيل الإجمالِ لبيان المآلِ، فجمعهم في هذه الآيةِ في العدلِ والإفضالِ، فبَيَّنَ أنَّ لكلٍّ فريقٍ من الفريقينِ منازلَ ومراتبَ متفاضِلينَ فيها حسبَ أعمالِهم، فيوفَّى كلُّ فريقٍ جزاءَ أعمالِه جزاءً وفاقًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٞ﴾: (درج) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمُضِيِّ في الشَّيءِ، مِن ذلك قَولُهم: دَرَجَ الشَّيءُ؛ إذا مَضَى لِسَبيلِهِ[2]، والمعنَى المِحوَرِيُّ: ضَمٌّ أو احتواءٌ في مَضَمٍّ للنَّقلِ أو معهُ برفقٍ، أي: شيئًا بعدَ شيءٍ[3]، ومن المجاز: لفلانٍ درجةٌ رفيعةٌ، وامشِ في مدارجِ الحَقِّ[4]، والدَّرَجَةُ في الرِّفعةِ والمنزلةِ، وتُجمعُ على دَرج ودَرجاتٍ، ودَرَجاتُ الجِنانِ: منازِلُ أرفعُ من منازلَ[5]، وهِيَ الطَّبَقاتُ مِنَ المَراتِبِ، الَّتي يتفاضَلونَ فيها[6].

2) ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾: (وفى) كَلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ، ومِنهُ الوفاءُ، أي: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ووَفَى: أوفَى، فَهوَ وفيٌّ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 157.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درج).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درج).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (درج).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (درج).
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 157.

وأوفيتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضيتهُ إيّاهُ وافيًا، وتوَفَّيتُ الشَّيءَ واستوفيتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَترُكْ مِنْهُ شَيئًا، ومِنهُ يُقالُ لِلمَيِّت: تَوَفّاهُ اللّه[1]، ووَفَى لنا فلانٌ، أي: تَمَّ لنا قولُه، ولم يَغْدُرْ، وكلُّ شَيءٍ بَلَغَ تَمامَ الكَمال فقد وفى، وتَمَّ[2]، وتوفِيَةُ الشَّيءِ: بذْلُه وافيًا، واستِيفاؤُهُ: تناولُه وافيًا[3]، والمعنَى المِحوَرِيُّ: نموٌّ أو زِيادةٌ يبلغُ بها الشَّيءُ - أو يتأكَّدُ - تمامُ قوامِه[4]، والمرادُ بـ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ نُجازِيهِم جزاءً تامًّا وافيًا لا غَبْنَ فيهِ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّرجاتُ ميزانُ أعمالِ الإنسِ والجِنِّ يومَ القيامَةِ، فاللّهُ لا يظلم النّاسَ شيئًا

بيَّنَتِ الآيةُ الكريمَةُ أنَّ لكلٍّ من الأبرارِ والفُجّارِ منَ الإنسِ والجِنِّ مراتبَ عندَ اللّهِ تعالى يوم القيامةِ، بحسبِ أعمالِهم من خيرٍ أو شَرٍّ في الدُّنيا، وهو تعالى يوفّيهم أجورَ أعمالِهم، المحسنُ منهُم بإحسانِه، والمُسيءُ منهُم بإساءَتِه، وهم لا يُظلمونَ شَيئًا، فلا يُعاقَبُ المُسيءَ إلّا بعقوبةِ ذَنْبِه، ولا يَحملُ عليهِ ذَنبَ غَيرِه، ولا يَبْخسُ المحسنَ منهُم ثوابَ إحسانِه[6]، بل يُعطي سبحانهُ كُلًّا منهم على استحقاقه، فيُنْصَبُ يومَ القيامةِ ميزانٌ، وتكون درجاتٌ، ولكلٍّ منهم درجةٌ تُناسِبُ أعمالَه في الدُّنيا[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

عطْفُ الجملةِ على الكلامِ المفهومِ من مجموعِ جُمَلٍ سابقة

عطفتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ الآيةَ على ما قبلَها، فلمّا ذَكَر اللّهُ تعالى كلامَ المُحسنينَ الصّالحِينَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (وفى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 41.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 25.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 196.

ودعاءَهم، وما وعَدَهُم بِهِ من الوعدِ الحقِّ، وبيَّنَ أحوالَ أهلِ العُقوقِ المُكذِّبينَ، وما حَقَّ عليهم من الوعيدِ الشَّديدِ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ معطوفةً على قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾، وقَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾، وإن شئتَ؛ فقل: في الَّذينَ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الأحقاف: 13] و﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ﴾[1]، وهذا من عطفِ الجملة على الجملِ، أي: الكلامُ المفهومُ من مجموعِ جُمَلٍ سابقة.

نوعُ اللّامِ ودلالَتُها في قوله: ﴿وَلِكُلّٖ﴾:

اختصاصُ كلِّ فريقٍ بما يُناسِبُ عملَهُ الَّذي عَمِلَهُ في الدُّنيا

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾؛ للاختصاصِ والاستحقاقِ، وقد دَلَّتْ على أنَّ لكلِّ فريقٍ من أهلِ الخيرِ وأهلِ الشَّرِّ مكانَهُ الَّذي استحقَّهُ، ووجبَ عليه، كُلٌّ على حسبِ مَرتَبَتِه، ومنازلُهم في الدّارِ الآخرةِ على قَدْرِ أعمالِهم[2].

دلالةُ استعمالِ لفظِ العموم (كلّ):

شمولُ الوعدِ والوعيدِ للإنسِ والجِنِّ جميعًا

جاءَ لفظُ (كلّ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾؛ لبيانِ شمولِ الوعدِ والوعيدِ للإنسِ والجنِّ جميعًا، فليسَ ثمَّةَ من مفرٍّ، بل كلُّ إنسانٍ أو جانٍّ سيُلاقي حتمًا جزاءَ ما عَمِلَهُ من عملٍ في الدُّنيا.

نوعُ التَّنوينِ في قولِه: ﴿وَلِكُلّٖ﴾:

جعلَ اللهُ لكلِّ جِنّيٍّ وإنسيٍّ ما يستحقُّه يومَ الحسابِ

جاءَت كلَمَةُ (كلّ) مُنَوَّنَةً، والتَّنوينُ فيها هو تنوينُ عِوَضٍ عَمّا تُضافُ إلَيهِ (كُلّ)، وهو مُقَدَّرٌ يُعلَمُ مِنَ السِّياقِ، أي: ولِكُلِّ فريقٍ من الفَريقَيْنِ، المُؤمِنِ البارِّ بوالِدَيْه، والكافِرِ الجامِعِ بَينَ الكُفْرِ والعُقوقِ دَرَجاتٌ، أي: مَراتِبُ مِنَ التَّفاوُتِ في الخَبَرِ بالنِّسبَةِ لِأهلِ جَزاءِ الخَيرِ، وهُمُ المُؤمِنونَ، ودَرَكاتٌ في الشَّرِّ لأهلِ الكُفرِ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 40.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 781.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 41.

تشريف الدَّرَجاتِ العُلا بالتَّغليبِ، فهُم أهلُ الرِّعايَةِ الإلَهيَّةِ والعنايَةِ الرَّبّانيَّةِ

بلاغةُ التَّغليبِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ عن جزاءِ الفريقينِ بالدَّرَجاتِ، رغمَ أنَّ الأصلَ أنَّ الدَّرجاتِ لأهلِ الجَنَّةِ، والدَّركاتِ لأهل النّارِ، فقد جاء أنَّ للنّارِ دركاتٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء: 145]، ولكنَّهُ عدَلَ عن ذلكَ لوجْهِ التَّغْليبِ؛ لاشتِمالِ (كلّ) على الفَريقَيْنِ، أي: لِكُلٍّ مَنازِلُ ومَراتِبُ، سَواءٌ كانَت دَرَجاتٍ أم دَرَكاتٍ، وإنَّما غَلَّبَ أَصْحابَ الدَّرَجاتِ؛ لأَنَّهُمُ الأحِقّاءُ بِهِ لا سِيَّما، وقَد ذُكِرَ جَزاؤُهم مِرارًا، وجَزاءُ المُقابِلِ مَرَّةً[1]، وإن كانَ أهلُ النّارِ - وهم أصحابُ الدَّركات - أكثَرَ من أصحابِ الدَّرجات، لكنَّ النَّظم غلَّب الدَّرجات على الدَّركات؛ لشَرَفِ المؤمنين، وأتى بلفظ الدَّرَجات؛ إيماءً إلى تغليب حال المؤمنين؛ لِتَطمئنَّ نفوسُ الطّائِعينَ، بأنَّهم لا بأسَ عليهم من عذابِ المُكذِّبينَ[2]، وقد عُلِم من الدَّرجات أنَّ أسافلها دركاتٌ، فغَلَّبَ درجاتٍ؛ لنُكْتَةِ الإشعار ببشارة المؤمنين، بعد نذارة المشركين[3]، ولعلَّها من قبيل كونها أعظمَ شأنًا وعَدَدًا، ولذلك غُلِّبَت.

الدَّرجاتُ استعارَةٌ لمنازلِ الآخرَةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾:

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظِ الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ الدَّرجاتِ عمومًا هي المستوياتُ، صعودًا أو هبوطًا، إيجابًا أو سلبًا، واستُعيرَت هنا للمنازل، فهي لمنازلِ الأعمالِ، بقرينة قولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾، فشُبِّهت المنازلُ بدرجاتِ السُّلَّم على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، أو أنَّها قد سُمِّيَتْ دَرَجاتٍ لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط، كتفاضلِ الدَّرَج[4]، فصَوَّرت منازلَ النّاسِ، وهم يقفون على درجات متواليةٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 179.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 23.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 84.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 79.

عاليةٍ، بعضُهم أرقى من بعض، أو درجاتٍ نازلةٍ، بعضُهم أدنى من بعض، كلٌّ بحسب عمله، والمنازلُ أعمُّ من الدَّرجاتِ؛ لأنَّ لفظَ الكلِّ يُفيدُ الشُّمول للقَبيلَين المُحْسِنينَ والمُكذِّبينَ، فاقتضى المقامُ أن تُفَسَّرَ الدَّرجاتُ بالمنازلِ لتَعُمَّ المطيعَ والعاصي؛ ليجتهدَ الطّائعونَ في مقاماتِ الحسنات، ويَحْذرَ المُكذِّبونَ مِنَ التَّهاوِي في الدَّركاتِ.

نُكْتَةُ تقديمِ المُسندِ على المُسندِ إلَيهِ:

العنايةُ بمصيرِ المُكلَّفين تنبيهٌ بـارعٌ وتحـذيرٌ رادعٌ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ على المسندِ إليه ﴿دَرَجَٰتٞ﴾، وكانَ الأصلُ حسب مقتضى الظّاهرِ أن يكون الكلام: (درجاتٌ لكلٍّ ممّا عملوا)، ولكنَّ النَّظمَ الجليلَ قدَّمَ المسندَ للاهتمام ببيانِ المصير الفَرْديِّ لكلِّ واحدٍ من الفريقين؛ إذ هو المقصودُ بالبيانِ في المقامِ الأوَّلِ؛ لتَحْدُثَ الخشيةُ والإنابةُ في نفسِ كلِّ سامعٍ لهذا القولِ، فيزدادَ خشيةً وخوفًا، وارتداعًا وانزجارًا.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾:

توفيةُ الأعمالِ معنًى قائمٌ برأسه، دالٌّ على العدلِ الإلهيِّ المُطلقِ

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ على قولِهِ: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾، مع أنَّها في المعنى علَّةٌ لها؛ لأنَّ درجاتِ الأعمالِ هي الأمرُ المساعِدُ والمُعينُ على توفيةِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، وكانَ يمكنُ أن يُقالَ: (ولكلٍّ درجاتٌ مِمّا عَمِلوا ليوَفِّيَهُم أعمالَهم) بدون الواو، وحينَئذٍ ستكونُ التَّوفيَةُ عِلَّةً للدَّرجاتِ فحسب، ولكنَّ الواوَ جعلتها تفيدُ فائدةً جليلةً أخرَى، وهي أنَّها من مقاصدِ الكلامِ، وليسَتْ مِمّا يُذكَرُ تابعًا لغيره، ولو حُذفَتِ الواوُ سيكونُ القصدُ من الجُملتينِ أنَّ لكلٍّ درجاتٍ، وما بَعدَه تابعٌ لَهُ، وأمّا مجيءُ الواوِ؛ فقد جعل للجملةِ الثّانيةِ الَّتي هي التَّوفيَةُ شأنًا آخَر يُضافُ إلى الشَّأنِ الأوَّلِ، وهو في منزلتِه، وإن تَضَمَّنَ معنَى العِلَّةِ، وهذا من خفيِّ النَّظمِ وجَليله[1].

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 466.

التَّوفيةُ تعليلٌ للجزاءِ على حسب الدَّرجاتِ

نوعُ اللّامِ في قولِه: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ للتَّعليل، فقدَ أشارَ إلى أنَّ جَزاءَ تِلكَ الدَّرَجاتِ كُلِّها بِقَدْرٍ يَعْلَمُهُ اللّه، وهذا المعنى عِلَّة لِمَحْذوفٍ، وتَقْديرُهُ: قَدَّرْنا جَزاءَهم على مَقاديرِ دَرَجاتِهم؛ لِنوَفِّيَهم جَزاءَ أَعْمالِهِم، أي: نُجازِيهِم جزاءً تامًّا وافيًا لا غَبْنَ فيه[1].

استحضارُ توفيةِ الأعمالِ حثٌّ للمحسنين وتخويفٌ للعاصين

بَلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بصيغةِ المضارَعَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، دون أن يقولَ: (ولِتَوْفِيَة)؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الحسابَ التّامَّ، والعدلَ المطلقَ للمحسنينَ والمُكَذّبينَ كليهما، سيكون لهم شيئًا فشيئًا، حتَّى توفّى الأعمالُ كلُّها، وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ استحضارٌ لِمَوقفِ الحسابِ، وهو ما من شأنهِ أن يزيدَ المحسنينَ شوقًا، وأن يزيدَ المُكَذِّبينَ خوفًا.

قابليَّةُ اللَّفظِ القرآنيِّ للقراءاتِ سَعةٌ في الدَّلالة مرادة

غرضُ عدمِ إظهارِ الفاعلِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جاءَ الفاعِلُ ضميرًا مستَتِرًا عائِدًا على اللّهِ سبحانه، وذلك للعِلْم به، فهو وحدَهُ - تباركَتْ آلاؤُه - القادرُ على توفيةِ كلِّ فردٍ من الجنِّ والإنسِ بعمله، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شَرًّا؛ فشَرٌّ، فكانَ عودُ الفعلِ عليهِ من المعلوم من السِّياقِ بالضَّرورَةِ، فاختصرَ النَّظمُ، وأوجَزَ التَّصريحَ باسم الجلالةِ؛ وذلك ليكونَ فيها قراءتانِ، كما سيأتي.

توفيةُ الدَّرجات أمرٌ عظيمٌ خطيرٌ يقتضي أن يصدرَ من العظيم

توجيهُ القراءاتِ القُرآنِيَّةِ:

وردَت في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قراءتانِ متواترتانِ، فَقَرَأ ابنُ كَثِيرٍ، والبَصرِيّانِ، وعاصِمٌ بِالياءِ، وهشام بخلف عنه بالياء، وقرَأ الباقونَ بالنون[2]، وفي قراءةِ النّونِ إظهارٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 40.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 373.

لعَظَمَةِ القائمِ بالتَّوفية سبحانه؛ إشارةً إلى عظَمَةِ هذه الدَّرجاتِ الرَّفيعةِ للمحسنينَ الطّائعينَ، وخطورةِ دركاتِ العاقّينَ المُكذِّبينَ، فلا يَقْدِرُ عليها إلّا اللّهُ القادرُ على كلِّ شيءٍ، وهي كذلك مناسبةٌ لمَطْلَعِ السّورَةِ، ولِما يُشيرُ إلَيه مِن كَشْفِ حُجُبِ الكِبرياءِ في يَومِ الفَصلِ(1).

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ التَّوْفِيةِ:

التَّذكيرُ بتمامِ التَّوفيةِ حثٌّ على التَّفكُّرِ في العواقبِ والمآلات

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ التَّوفِيَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ لما فيها من معنى إتمامِ العَهدِ وإكمالِ الشَّرطِ، وبلوغِ كلِّ شَيءٍ تمامَهُ(2)، فدلَّ التَّعبيرُ بها على تنزُّهِه ﷻ عن الظُّلم، فهو تعالى يُجازِيهم جزاءً تامًّا وافِيًا لا غَبْنَ فيهِ(3)، ومن شأنِ الإيقانِ بهذه الحقيقةِ أن يُطمئِنَ قلوبَ المحسنينَ، فيزدادوا إحسانًا، ويتفكَّرَ العاصونَ في مغبَّةِ فِعلِهم وسوءِ أعمالِهم.

بلاغةُ المجازِ وتوجيهُه في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

إقامةُ السَّببِ مقامَ المُسبَّبِ، أو حذفُ المسبَّبِ لتوجيه الأنظارِ لخطورة الأعمالِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن جزاءِ العملِ بقولِه: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فذكرَ الأعمالَ وحذفَ الجزاءَ على سبيلِ المجازِ بحذفِ المضافِ، أو أنَّه ذَكرَ الأعمالَ، وأرادَ الجزاء، باعتبارِها سببَ الجزاءِ، فأقامَ السَّببَ مقامَ المُسبَّبِ على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ، الَّذي علاقتُه السَّببيَّة؛ لبيانِ خطورةِ دورِ الأعمالِ ومحوريَّتِها في الارتقاء في الدَّرجاتِ، أو السُّفولِ في الدَّركاتِ، وكذلك لأنَّ اللّهَ ﷻ يَعلمُ مَثاقيلَ الذَّرِّ وما دونَها وما فوقَها، ويجعَلُ الجَزاءَ على حَسَبِها في المِقدارِ والشَّبَهِ والجنسِ والنَّوعِ والشَّخصِ، حَتّى يَكادَ يَظُنُّ العامِلُ أنَّ الجَزاءَ هو العَمَلُ(4).

نُكْتَةُ جمعِ الأعمالِ دونَ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ:

اللّهُ تعالى هوَ المحيطُ بكلِّ الأعمالِ مهما تنوَّعَتْ وكثرتْ

جاءتْ كلمةُ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جمعًا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 157.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 41.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 158.

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وعدَلَ النَّظمُ عن التَّعبير بالمصدرِ، فلم يقل: (وليوفيهم عَمَلَهم)؛ لأمرينِ اثنينِ: **الأوَّل:** للإشارَةِ إلى عظَمَةِ قدرَةِ اللّهِ تعالى، فمهما تعدَّدَتْ أعمالُهم، وتنوَّعتْ نشاطاتُهم من خيرٍ أو شَرٍّ؛ فهو سبحانه محيطٌ بها، فلا يُعجِزُهُ شيءٌ عن إحصائها ومجازاةِ كلِّ مخلوقٍ بما عملَ، **والثّاني:** لبيانِ تعدُّدِ الأعمالِ الَّتي توجب رِفْعةَ الدَّرجات أو السُّفولِ في الدَّركاتِ؛ كي يحرص المُحسنونَ الطّائعونَ على كلِّ أبوابِ الخير، فيَطرقوها، ويحذروا من كلِّ أبوابِ الشَّرِّ، فيمتنعوا عنها.

دلالةُ إضافةِ الأعمالِ إلى الضَّميرِ:

إثباتُ الأعمالِ على أصحابِها دليلٌ على عدلِ اللهِ المُطلقِ

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الأعمالَ إلى أصحابها في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، والإضافةُ لبيانِ الاختصاصِ، أي: ليوفِّيَهم الأعمالَ الَّتي لهم، ففيها بيانُ إحصاءِ اللّهِ تعالى؛ لما عمله الصّالحونَ المحسنونَ، فيُجازيهم به أضعافًا مضاعفةً، ولبيانِ استحقاقِ المُكذِّبينَ للعقوبةِ بما اقترفوه من الآثام الثّابتَةِ في حقِّهم، مصداقًا لقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6]، ففي الإضافة دلالةٌ على أنَّهُ تعالى لا يظلمُ النّاسَ مثقالَ ذَرَّةٍ.

نَوعُ الواوِ ودَلالَتُها في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ حاليَّةٌ من الجملةِ قبلَها، وهي جُزءٌ من معناها، وفائدةُ الحاليَّة دفْعُ تصوُّرِ الظُّلم في شأنِ الفريقين، وإثباتُ العَدلِ المُطلقِ للعصاةِ، والفضل الرَّبّانيِّ للمحسنين.

بَلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ (الظُّلمِ) دونَ (البَخْسِ):

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردَةِ (الظُّلم) دون (البخسِ)؛ لأنَّ الظُّلمَ يُقالُ في عموم مجاوزةِ الحقِّ، ويقالُ فيما يكثرُ، وفيما يقلُّ

مفهومُ الظُّلمِ أوسعُ من مفهومِ البَخْسِ، فناسبَ نفيُه العدلَ الإلهيَّ

من التَّجاوزِ، ولهذا يُستعملُ في الذَّنبِ الكبيرِ، وفي الذَّنبِ الصَّغيرِ، وأمّا البَخْسُ؛ فيُرادُ به انتقاصُ الحقِّ على وجهِ الخصوصِ[1]، ولمّا كانت ضروبُ المخاوفِ الَّتي يخشاها الخَلْقُ في الحياةِ الدُّنيا كثيرةً متنوِّعةً، لا تقتصرُ على مجرَّدِ انتقاصِ الحقِّ وحدَهُ؛ كان التَّعبيرُ بالظُّلمِ أوقعَ وأدقَّ.

نُكْتَةُ بناءِ فِعلِ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ للمَفْعولِ:

الإشعارُ بِسُرعة قضاء الله مع كامِلِ عَدلِه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بُنِي فعلُ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ لِلمفعولِ؛ للإشعارِ بِسُرعة القضاء مع كامِل عَدلِه؛ فاللّه سُبحانَه لَم يَظلِمهُم، ولَم تَظلِمهُمُ الملائِكَةُ الموكَّلةُ بكتابة صحائِفِ أعمالِهِم.

بلاغةُ بديعِ الاحتراسِ:

جُمْلَةُ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ احتراسٌ مَنظورٌ فِيه إلى تَوْفِيَةِ أحَدِ الفَرِيقَينِ، وهو الفَرِيقُ المُستَحِقُّ لِلعُقوبَةِ؛ لِئَلّا يُحْسَبَ أَنَّ التَّوفِيَةَ بِالنِّسبَةِ إِلَيهِم أن يَكونَ الجَزاءُ أشَدَّ مِمّا تَقتَضِيهِ أعمالُهم[2].

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بخس) و(ظلم).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 41.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

[الأحقاف: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الإخبارِ عمّا يكونُ لعمومِ المكلَّفين، إلى وعيدِ خصوصِ الكافرين

بعدَ أن بيَّنَتِ الآيةُ السّابقةُ جزاءَ المُكلَّفين جميعًا، وكان في الآياتِ الَّتي سبقتْ إظهارٌ لجزاءِ المحسنين؛ ناسبَ أن يُخصَّصَ الكلامُ في هذه الآيةِ عن الوعيدِ الَّذي للكافرين؛ وذلكَ لأنَّ الظّاهِرَ في هذهِ السّورةِ الإنذارُ؛ فانتقلتْ إلى بيانِ بعضِ ما يُبكَّتُ بِهِ المُجرمونَ يَومَ البَعْثِ الَّذي كانوا بِهِ يُكَذِّبونَ، على سَبيلِ التَّنديمِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ؛ لأنَّهم لَم يَذكُروا اللّه حَقَّ ذِكرِهِ عِندَ شَهَواتِهِم، بَل نالوها مَعَ مُخالَفَةِ أمرِه، واستكبروا في الأرضِ بغيرِ حقٍّ، وفَسَقوا عن طريقِ الصَّوابِ(1)، وهو انتقالٌ من الإخبارِ عمّا يكونُ لعمومِ المُكلَّفين، إلى وعيدِ خصوصِ الكافرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾: ذَهبَ يَذهَبُ ذَهابًا وذُهوبًا، فهوَ ذاهبٌ وذَهوبٌ، والذَّهابُ: السَّيرُ والمرورُ، والمَذهَبُ: مصدرٌ، كالذَّهابِ، وذَهَبَ به، وأذهبَه غيرُهُ: أزالَه(2)، فهو مزيدٌ بالهمزَةِ، يُقال: ذَهَبَ بالشَّيءِ وأذْهَبَهُ، ويُستعملُ في الأعيانِ والمعاني(3)، وسائرُ ما في القرآنِ مِن (ذَهَبَ)، و(ذَهَبَ بكذا)، و(أَذْهَبَ)، ومضارعاتِها، واسم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 159.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (ذهب).

الفاعلِ مِنْها، يدورُ حولَ معاني الانتقالِ والزَّوالِ أوِ الإزالةِ[1]، والمرادُ بإذهابِ الطَّيِّباتِ: إفناؤُها وإزالَتُها في الحياةِ الدُّنيا على وجهٍ لا ينفعُ في الآخرَة، باتِّباعِ الشَّهواتِ واللَّذّاتِ واقترافِ المعاصي[2].

2) ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾: (طيب) أصلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الخَبِيث، والطَّيِّبُ: الحَلالُ[3]، وقَد تَكَرَّرَ في الحَديثِ ذِكْرُ الطَّيِّبِ والطَّيِّبات، وأكثرُ ما يَرِدُ بِمَعْنَى الحَلالِ[4]، كَما أنَّ الخَبِيثَ كِنايَةٌ عَنِ الحَرام، وقَد يَرِدُ الطَّيِّبُ بِمَعْنَى الطّاهِرِ[5]، والمعنَى المِحوريُّ: لطفُ وقعِ الشَّيءِ على الحِسِّ وصُلوحُه في بابِ ما يُرادُ منه، مع خُلوِّه من الغِلَظ والحِدَّة، وكلُّ ما في القرآنِ من التَّركيبِ فهو الطَّيّبُ من كلِّ شيءٍ بحسبه، ففي الطَّعامِ والرِّزق: هو الحلالُ الَّذي تستطيبُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وفي النِّساءِ: الحلائلُ العفيفاتُ، وفي الرّيح: اللَّيِّنَةُ النَّقيَّةُ، وفي المساكنِ: الواسعُ المُريحُ، وفي الشَّجر: المُظِلَّةُ المُثْمِرةُ، وهكذا[6]، والمرادُ بالطَّيِّباتِ هاهُنا: ما كانوا فِيهِ مِنَ اللَّذّاتِ، مُشتغِلينَ بِها عنِ الآخِرَةِ، مُعرِضينَ عَن شُكرِها[7].

3) ﴿ٱلۡهُونِ﴾: (هون) أصلٌ يَدُلُّ على سكونٍ أو سَكِينَةٍ أو ذُلٍّ، مِن ذَلِكَ: الهَوْنُ: السَّكِينَةُ والوَقارُ، والهونُ: الهَوانُ[8]، وهانَ يَهونُ هونًا وهَوانًا ومَهانَةً: ذَلَّ[9]، فهو هَيِّنٌ وهَيْنٌ، وأهْوَنُ[10]، والمعنَى المِحوريُّ: لِينُ الشَّيءِ أو نُعومتُه ورَخاوتُه وضَعفُه[11]، والهَوانُ على وجهينِ: أحدهما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسه؛ لما لا يُلحِقُ به غضاضةً، والثّاني: أن يكونَ من جهة متسلِّطٍ مُستَخِفٍّ به، فيُذَمَّ بِهِ[12]، والمرادُ بعذابِ الهونِ هاهُنا: الهَوانُ العَظيمُ المُجتمِعُ الشَّديدُ الَّذي فِيهِ ذُلٌّ وخِزْيٌ[13].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذهب).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 200.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(4) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (طيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طيب).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 109.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (هون).
(10) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (هون).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هون).
(12) الرّاغب، مفردات القرآن: (هون).
(13) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

مَـنْ تَـمَـتَّـعَ في الدُّنيا باللَّذّاتِ والـشَّـهـواتِ، فقد ضاعَتْ عنه طيِّباتُ الآخرةِ

المَعنى الإجْماليُّ:

في هذِهِ الآيةِ الكريمَةِ عرضٌ لمشهدٍ من مشاهدِ القِيامةِ، يُرَى فيه الكافِرونَ، وقد وقفوا موقفَ الحسابِ والمُساءَلَة، على ما كانَ مِنهُم في حياتِهم الدُّنيا، من بَغْيٍ واستكبارٍ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وعندما يُعرَضونَ على النّارِ في هذا اليوم، ويُساقونَ إلى العذابِ الأليمِ فِيها، يُقالُ لَهُم - وهم على شَفيرِها -: هذا جزاؤُكم، فلقد أذهبْتُم طيِّباتِكم في حياتِكم الدُّنيا، واستَمْتَعتُم بها، ولم تَدَّخِروا مِنها شيئًا لهذا اليوم، لقَد كانَتْ معَكُم عقولٌ تَعقلونَ بِها، وآذانٌ تَسمعونَ بِها، وأعينٌ تُبصرونَ بِها، فما استعمَلْتُم شيئًا منها في سبيلِ التَّعرُّفِ على اللّهِ والاهتداءِ إليه، بل صرفتُم هذا كلَّه إلى مواقعِ الكُفرِ والضَّلالِ، فاستحقَقْتُم في هذا اليومِ الشَّديدِ الهَولِ أن تُهدَرَ آدِميَّتُكم، وتَذهبَ كرامَتُكُم، فَلا يكونُ لكم إلّا الهوانُ والإذلالُ، جزاءً وفاقًا لإعراضِكُم واستكبارِكم وفسقِكم، وصرفِكُم الطَّيِّباتِ في وجوهِ الفَسادِ، وفي اصطيادِ اللَّذّاتِ وجَلْبِ الشَّهواتِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوعُ الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ﴾:

احـتـمـالُ الاسـتـئـنـافِ وعطفِ القصَّةِ على القصَّة

الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تحتملُ أن تكونَ استئنافِيَّةً، فاستأنفَ بها النَّظمُ معنًى جديدًا، وهوَ الانتقالُ من التَّهديدِ على إنكارِ البعثِ خاصَّةً، إلى الوعيدِ على مطلقِ الكفرِ عامَّةً، وتحتمل أن تكونَ الآيةُ معطوفةً على جُملَةِ: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ وما بعدها[2]، فتكون من باب عطفِ القصَّةِ على القصَّة.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 280.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 42.

غرضُ حذْفِ فِعلِ القولِ المُتَعَلِّقِ بالظَّرفِ:

بـعـدَ تقرير عـدَمِ الظُّـلـمِ؛ وبَّـخـهـم، وقرَّعَهم بإضاعةِ الطَّيِّباتِ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ القولِ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ إذِ الكَلامُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُهُ: (ويُقالُ لِلَّذِينَ كَفروا يَومَ يُعْرَضونَ عَلى النّارِ أَذْهَبْتُم طَيِّباتِكم)، وقد آثرَ البيانُ حذْفَ فعلِ القولِ للإيجازِ، ووصولًا لموطنِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ الَّذي هو مقصودُ الآيةِ الكريمةِ، ومُناسبَةُ ذِكرِهِ هُنا أنَّهُ تَقريرٌ لِمَعنى ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾، أي: لا يُظْلَمونَ في جَزاءِ الآخِرَةِ، مَعَ أنَّنا أنْعَمْنا عَلَيهِم في الدُّنيا، ولو شِئنا؛ لَعَجَّلنا لَهُمُ الجَزاءَ عَلى كُفرِهِم مِنَ الحَياةِ الدُّنيا، ولَكِنَّ اللّه لَم يَحرِمهم مِنَ النِّعمةِ في الحَياةِ الدُّنْيا؛ فَإنَّ نِعْمَةَ الكافِرِ في الدُّنيا نِعْمَةٌ للاستدراجِ، باعتِبارِ أنَّ عاقِبَتَها سَيِّئَةٌ، ونِعْمَةُ اللّهِ في الدُّنيا مُعامَلَةٌ بِفَضلِ الرُّبوبِيَّةِ، وجَزاؤُهم على أعمالِهِم في الآخِرَةِ مُعامَلَةٌ بِعَدلِ الأُلوهيَّةِ والحِكمَةِ[1].

نُكتَةُ تقديمِ (يَوْمَ):

تَـقَـدُّمُ الـظَّـرفِ (يـومَ) للتَّهويلِ والـتَّـرهـيـبِ والتَّخويفِ

جاءَ لفظُ (يومَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبًا، وقد ذهبَ المُعربونَ إلى أنَّهُ إمّا ظرفٌ منصوبٌ بقولٍ مقدَّرٍ، أي: يُقال لهم: أذهبتم في يوم عرْضِكم، أو هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ على تقدير: اذكر يا محمَّدُ يومَ يُعْرَضون على النّارِ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ تقدُّمُ (يومَ) في صدرِ الجملَةِ للتَّهويلِ والتَّرهيب والتَّخويفِ، فهو يومٌ تقعُ فيه أحداثٌ جِسامٌ.

توجيهُ تَخصيصِ العَرضِ بالذِّكرِ:

في العَرضِ قَصدٌ لاسـتـشـعـارِ الحسْرَةِ والخزيِ والنَّدامةِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تخصيصَ العرضِ بالذِّكرِ، دونَ الحشرِ أو الحسابِ؛ وذلك لأنَّهُ لما كانَ اللّه تعالى عالمًا بالمفترينَ وبأعمالِهم، وكان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 42.

العرضُ يوم القيامة لكلِّ النّاسِ؛ كانَ تخصيصُ عرْضِهم للتَّشهير بخزيهم، ولتأكيد حالِهم بالانتقام منهُم، فشَبَّه حالَهُم بحالِ مَن يُعرَضون على الملك؛ للإشعارِ بأنَّ إحضارَهُم إحضارٌ بإراءَةٍ؛ لما يَدُلُّ عليه العَرضُ مِن أنَّه إظهارُ الشَّيء بحيثُ يُرى للتَّوقيف على حالةٍ، ولِما تدلُّ عليه تعديةُ الفعل بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ ليكون العرضُ المُضَمَّنُ معنى الحبسِ والإراءةِ وعرضِ الأعمال أكثرَ حسرةً عليهم، وأظهرَ لكذبِهم وافترائِهم.

بلاغةُ التَّعبير بمفردةِ العَرضِ:

العَرضُ كنايةٌ عن حصولِ التَّعذيبِ أو رؤيةِ النّارِ

المرادُ بالعَرضِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم يُعَذَّبونَ بها، من قَولِهِم: عَرَضَ بَنو فُلانٍ عَلى السَّيْفِ؛ إذا قُتِلوا به، وهو مَجازٌ شائعٌ، وذَهَبَ غَيْرُ واحِدٍ إلى أنَّهُ مِن بابِ القَلْبِ المَعنَويِّ، والمعنى: يَومَ تُعرَضُ النّارُ عَلى الَّذينَ كَفَروا، نحوَ: عَرضتُ النّاقةَ عَلى الحَوْضِ، فَإنَّ مَعْناهُ أيضًا كَما قالوا: عَرَضَ الحَوْضَ على النّاقَةِ[1]، وقالَ بَعْضُهم: مَعْنى عَرْضِهِم على النّارِ هو تَقريبُهم منها، والكَشْفُ لَهم عَنْها حَتّى يَرَوها، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: 53][2].

نُكْتَةُ بِناءِ فِعْلِ ﴿يُعۡرَضُ﴾ لِلمَفعولِ:

سرعةُ العرضِ على النّارِ والتَّرهيبُ منه ممّا توعَّدَ اللهُ بِهِ الكافرينَ

أشارَ مجيءُ فعلِ ﴿يُعۡرَضُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ للإشعارِ بسُرعة العَرضِ على النّارِ، بدلالةِ الإيجازِ في حذفِ الفاعلِ، وإرادَة تعميم الفاعلِ، فالفاعِلُ الحقيقيُّ في كلِّ شيءٍ هوَ اللّهُ سبحانه، ولكنَّهُ سبحانه قد أوكلَ الملائكةَ بالعرضِ والتَّعذيبِ، كما جاء في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 179.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 416.

﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93]، وللتَّرهيبِ والتَّخويف بالعَرضِ في حدِّ ذاتِه، فهو أمرٌ مُخيفٌ شديدُ الهولِ.

دلالةُ التَّعديةِ بـ﴿عَلَى﴾ دونَ اللّامِ في ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

في بروزِ النّارِ للكافرينَ وظُهورِها تخويفٌ وترهيبٌ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عَدَّى النَّظمُ الجليلُ الفعل ﴿يُعۡرَضُ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ دون اللّام، والعرضُ يتعدَّى باللّام وبـ(على)، يُقالُ: عَرَضْتُ له أمرَ كذا، وعَرضْتُ عليه الشَّيءَ، أي: أظهَرْتُه له، وأبرَزْتُه، قال تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ [الكهف: 100]، أي: أبرزْناها حتَّى نَظَرَ إليها الكُفّارُ، فالمعروضُ عليهِ أو لَهُ يجبُ أن يكونَ من أهلِ الشُّعورِ والاطِّلاعِ، والنّارُ ليستْ منهُ، فَلا بدَّ أن يُحملَ العَرضُ على التَّعذيبِ مجازًا بطريقِ التَّعبيرِ عن الشَّيءِ باسمِ ما يُؤَدِّي إليه، كما يُقالُ: عُرِضَ بَنو فلانٍ على السَّيفِ؛ إذا قُتِلوا بِهِ.

القلبُ المعنويُّ يجعلُ النّارَ ذاتَ تمييزٍ

قد يُجعَلُ العَرضُ باقيًا على أصلِ معناه، ويكونُ الكلامُ محمولًا على القلبِ المعنويِّ، والأصلُ: (ويومَ تُعرضُ النّارُ على الَّذين كفروا)، أي: تَظْهَرُ، وتَبْرُزُ عليهم، بحيثُ ينظرونَ إليها ظاهرةً، ويُحضَرون عندَها قبلَ أن يُلقَوا فيها، فيقال لهُم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾، أي: استوفَيتُم، فأفنَيْتُم، والنُّكْتَةُ في اعتبارِ القَلبِ المبالغةُ بادِّعاءِ أنَّ النّارَ ذاتُ تَمييزٍ وقَهْرٍ وغَلَبةٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾:

تشبيهُ مفارقةِ الطَّيِّباتِ بإذهابِها

إذهابُ الطَّيِّباتِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مُستَعارٌ لِمُفارَقَتِها، كما أنَّ إذْهابَ المَرْءِ إبعادٌ لَهُ عَن مَكانٍ لَهُ، فشَبَّهَ مفارقةَ الطَّيِّباتِ بإذهابِها على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

---

(1) محي الدّين شيخ زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 7/ 564.

نُكْتَةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾:

الإيماءُ إلى ما يراهُ الكافر من طيّباتِ المؤمنين

استعملَ النَّظمُ الجليلُ مفرَدَةَ ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالطَّيِّباتِ كلُّ شيءٍ تستطيبهُ النَّفْسُ، ففي الطَّعامِ والرِّزقِ: هو الحلالُ الَّذي تستطيبُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وفي النِّساءِ: الحلائلُ العفيفاتُ، وفي الرّيحِ: اللّيِّنةُ النَّقيَّةُ، وفي المساكنِ: الواسعُ المُريحُ، وفي الشَّجرِ: المُظِلَّةُ المُثمرةُ وهكذا[1]، واختير لفظُ (الطَّيِّبات)؛ لبيانِ إجماعِ النُّفوسِ على طيبِها، وبه تفوتُ في الآخرةِ، فلا يبقى طيِّبٌ أو مستطابٌ لأولئك الأوباش؛ ذلك أنَّهم أضاعوها في الحياةِ الدُّنيا، وركنوا إلى عقولِهم السَّخيفةِ الَّتي أوردَتْهم المهالِك، وفيه إيماءٌ إلى ما سيُشاهدُه الكافرُ من طَيِّبات المؤمنين في الآخرةِ، فيُقال لهم بقصد التَّحسير والتَّحزين: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

غَرضُ جمعِ لفظِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾:

زيـادَةُ توبيخ الـكُـفّـارِ ببيانِ عظيمِ امتنان الله عليهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بكلمةِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ جَمْعًا؛ زيادَةً في توبيخ الكُفّارِ ببيانِ عظيم امتنانه عليهم، بما منحهم من الطَّيِّباتِ الكثيرةِ المتعدِّدَة، ورغم ذلك فقد كفروا به تعالى، ولم يؤدّوا شُكرَ ما أنعم عليهم به من نِعَمٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الغرقُ في الدُّنيا سببُ الهلاكِ في الآخِرَة

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ الكافرينَ قد غرقوا في الدُّنيا في إذهابِ ما منحهم اللّٰهُ من طَيِّباتٍ، فهُم لا يتوانَونَ عن النَّهلِ من اللَّذّاتِ صباحَ مساءَ، فكانوا غافلينَ عن التَّنَبُّهِ ليومِ المعادِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنين لا يغفلون عن الآخرةِ، فلا يُضيِّعون طيّباتِهم في الحياةِ الدُّنيا، بل يدَّخرونها في الآخرة، فيُجازيهم اللّٰهُ تعالى عنها في الدُّنيا والآخرة.

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طيب).

مُـدَّةُ حياةِ المَرءِ هي مُدَّةُ تكليفهِ وامتحانِه

دلالةُ إضافَةِ الحياةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ:

أضافَ البيانُ القُرآنيُّ لفظَ الحياةِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾، وعدلَ عن عدمِ الإضافَةِ، فلم يقل: (في الحَياةِ الدُّنيا)؛ لبيانِ مسؤوليَّتِهم عمّا آلَ إليهِ أمرُهم بإضاعَتِهم لدنياهم، فإنَّ اللّهَ سبحانه قد جعلَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا لكلِّ إنسانٍ مكلَّفٍ اختبارًا وامتحانًا، فلم يلتفتوا إلى ذلك الامتحانِ والابتلاءِ، فغفلوا عن حياتِهم الدُّنيا الَّتي هي دارُ التَّكليفِ، فتركوها غافلين، وأقبلوا على لذّاتِها مُنتبهين، فلفظُ ﴿حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ليس هو (الحياة الدُّنيا)؛ إذ المقصودُ أعمارُ الكافرين المخاطَبين الَّتي كانت لهم في الدُّنيا.

الانـشـغـالُ بالحاضرِ القريبِ مُغْرٍ لأصحابِ القلوبِ الضَّعيفةِ

نُكْتَةُ استعمالِ صفةِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الحياةَ بأنَّها (دُنْيا) في قولِهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلكَ للدَّلالَةِ على أنَّ هناك حياةً مقابلةً توصَفُ بأنَّها الآجِلة، وهي الَّتي فيها الجزاءُ، وهي الحياةُ الآخرَةُ، وقد وُصِفَتِ الحياةُ بالدُّنيا؛ للدَّلالةِ على قُربِها مقارَنَةً بالآخرة، فأومأ الوصفُ إلى معنى التَّحذيرِ منَ الاغترارِ بسببِ قُربِها، عن الآجلةِ الَّتي فيها النَّعيمُ المُقيم.

مَـن جَـعـلَ الاستـهـلاكَ والاستـمـتاعَ بـلـذّاتِ الدُّنيا غايتَهُ عنهُ الآخرَةُ والسَّعيُ لها

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ علَى ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾:

عطفَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ الاستمتاعِ على فعلِ الإذهابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾، وهاتانِ الجُملتانِ لا تقفان عند معنى الإذهابِ والاستمتاعِ؛ لأنَّ الاستمتاعَ ليسَ ذنبًا يُفضِي إلى العرضِ علَى النّارِ، وإنَّما المقصودُ هو أنَّكم جعلتُم هذهِ الدُّنيا مبدأً ونهايةً، وجعلتُم وُكدَكُم وكَدَّكُم لها، معَ تظاهرِ الأدِلَّةِ على الحَياةِ الثّانيةِ، وأنَّ اللّهَ ما خلقَ هذا الوجودَ بكُلِّ طَيِّباته الَّتي لم يُحرَم منها مؤمنٌ ولا كافرٌ إلّا بالحَقِّ وأجلٍ مُسَمًّى[1].

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 477.

نَوعُ الباءِ ودلالتُها في ﴿بِهَا﴾:

التَّمَسُّكُ بلذائذِ الدُّنيا والالتصاقُ بها يُفضي إلى الخسرانِ المبين

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ للإلصاقِ؛ لأنَّ ما يَستمتعونَ به مُلاصِقٌ لهُم لا ينفكُّ عنهُم، والمعنى: أنَّكمُ أذهبتُم الطَّيِّباتِ، واستمتعتم بملذّاتِ الدُّنيا، ورضيتُم بِشَهَواتِها وألهتْكُم طَيِّباتُها عن السَّعي لآخرتِكم، وتمتَّعتم تمتُّعَ الأنعامِ السّارِحَةِ، فهي حظُّكم من آخرتكم، فجاءتِ الباءُ؛ للدَّلالة على حرصِهم التّامِّ وعدمِ انفكاكِهم عن لَذائذِ الدُّنيا، وانصرافهم بها عن طلب الآخرة والعملِ لها، دون توظيف لها في طاعة اللّٰه تعالى، واتِّباع رسله في الإيمان بشرع اللّٰه تعالى.

دلالة الظَّرف في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾:

يومُ القيامةِ يومٌ شديدُ الوقْعِ، لهُ رهْبَةٌ في النُّفوس

نُصِبَ (اليومَ) على أنَّه ظرفٌ، لكنَّ المرادَ به مطلقُ الزَّمانِ لا المتعارفُ، وهو يشملُ القبضَ والإماتَةَ والنَّشرَ والعرضَ وما بعدَهُ، فهو يَحتَمِلُ أن يكون ظرفًا للعذاب يومَ القيامة، أو حالَ القبضِ في الدُّنيا، وهوَ يومٌ شديدُ الوقْعِ، لهُ رهْبَةٌ في النُّفوسِ.

دلالةُ تقديمِ الظَّرفِ على الفِعلِ:

مدارُ السّورَةِ على التَّحذيرِ من الإعراضِ عن يومِ القيامَةِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الظَّرفَ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ على فعلِه ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾؛ للاهتمام بهذا اليوم الشَّديدِ، الَّذي ينبغي أن ترهبَهُ الخلائقُ أجمعينَ؛ إذ مَدارُ السّورَةِ الكريمَةِ على التَّرهيبِ منَ الإعراضِ عنهُ، وقد بدأتِ السّورَةُ بتحذيرِ الكافرينَ منهُ، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف: 3].

نُكتَةُ استعمالِ مُفردَةِ الجَزاءِ دونَ رَديفاتِها:

آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بمفرَدَة الجزاءِ دونَ رَديفاتِها في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾، فلم يقل: تذوقونَ ونَحوَه؛

لأنَّ الجزاءَ يدلُّ على قيامِ الشَّيءِ مقامَ غيرِه، ومكافأته إيّاه[1]، فهوَ المكافأةُ على الشَّيءِ عامَّةً في الخيرِ والشَّرِّ، ويصدقُ في الثَّواب والعقاب فيما يَخصُّ الحسابَ في يوم القيامَةِ[2]، والمعنى: يُعطونَ جَزاءَ عملِهم، وهو عِوضُ العملِ، وما يقابَلُ به من أجرٍ أو عقوبةٍ، وكذلك فإنَّ كلمةَ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ كلمةٌ واقعةٌ موقعًا حسنًا جدًّا؛ لأنَّها جاءت في سياق الغضبِ الشَّديدِ على هؤلاءِ الذين فتنتهم طيّباتُ الحياة الدُّنيا، وصاروا أعداءً لرسول اللّه ﷺ وأعداءً للّه ولدينه، فأقامت كلمةُ الجزاءِ الحقَّ والعدلَ، وأنَّ الغضبَ بالغًا ما بلغَ، ومهما كانت أسبابُه؛ لا يُجيز لأحدٍ أن يعاقبَ المُذنبَ الظّالمَ المعاندَ للّهِ بأكثرَ ممّا يستحِقُّ[3].

الـجـزاءُ من جنسِ العملِ وبمقداره، ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحدًا

نُكْتَةُ بِناءِ فِعلِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ للمَفْعول:

بَنى النَّظمُ فِعْلَ الجزاءِ للمفعول في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾؛ اهتمامًا بالجزاءِ ذاته، لا بالنَّظر لكونه من معيَّنٍ، وفي إيجاز العبارة بحذف الفاعل تعجيلٌ بإبلاغهم بسوءِ مآلهم، فلا يَفصِلُ بين لفظِ الجزاءِ ولفظِ عذابِ الهون فاصلٌ، وهذا فيه غايةُ التَّرهيبِ، وعظيمُ التَّخويف.

التَّعجيلُ بذِكْرِ العذابِ فيه غايةُ التَّرهيبِ وعظيمُ التَّخويف

دلالةُ التَّعبيرِ بمفرَدَةِ ﴿عَذَابَ﴾:

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمادَّةِ العذابِ؛ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ لما فيها من الدَّلالاتِ الكثيفةِ المتراكِبَةِ على الإهلاكِ والإفناءِ للقوَّةِ والغلَظِ والحَيَويَّةِ المنبثَّةِ في البَدَنِ، بإيقاعِ الآلامِ المُؤَدِّيَةِ إلى ذلكَ، كالضَّربِ المُبَرِّحِ بصوَرِه، والجَلْدِ والكيِّ بالنّارِ، وقَطْعِ الأعضاءِ، وبالإجاعةِ والإعطاشِ، ويصدقُ

إضافةُ العذابِ إلى الهونِ أليقُ بـالـمـقـامِ من العقابِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزى).

(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 481.

بإيقاعِ الإهانةِ والإذلالِ لذوي الكِبرِ والاعتزازِ، فهو يتفاوت في الأنواعِ والشِّدَّةِ والأثرِ[1]، فناسَبَ لفظُ ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ شدَّةَ جُرْمِهم وكفرِهم واستكبارِهِم، ولمّا أُضيف العذابُ إلى لفظ ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ كان هو الأليق في الكلام.

دلالةُ إضافةِ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْهُونِ﴾:

مَنِ استكبرَ على الحقِّ، فقالَ غيرَ الحقِّ؛ خانَ، فهانَ

أضافَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْهُونِ﴾ في قولِ اللّهِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ تأكيدًا للهَوانِ؛ إذِ الهونُ هوَ الهَوانُ الشَّديدُ، وإضافةُ العذابِ إليهِ كقولِك: (رجلُ سوءٍ)، فدلَّ على العَراقةِ في الهَوانِ والتَّمكُّنِ فيه، وبهذه الإضافةِ تحقَّقَ معنيانِ: العذابُ الجامعُ بينَ الإيلامِ العَظيمِ، والهَوانِ الشَّديدِ، والخزيِ المديدِ، كما دلَّت الإضافة على أنَّ الهوان ملازمٌ للعذاب، فقدِ استكبروا على الحقِّ، وقالوا غيرَ الحقِّ، فكانت العقوبةُ من جنسِ الجريمة[2].

إيثارُ إضافةِ العذابِ إلى الهونِ دون الوصفِ به:

عذابُ الهونِ أشدُّ قسوةً وإهانةً من العذابِ المهينِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ آثَر البيانُ إضافةَ العذابِ إلى الهونِ، دونَ أن يصفَه به، فلم يقل: (فاليومَ تُجزونَ العذابَ المهينَ)؛ لأنَّ نسبةَ الإضافةِ ألصقُ من نسبة الصِّفة بالموصوف[3]، فالإضافةُ إمّا أن تكون بمعنى (من)، فيكون العذابُ من الهونِ نفسه؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّ الاسمَ صار مع المضافِ شيئًا واحدًا، فعذابُ الهونِ ليس عذابًا متَّصفًا بأنَّهُ مهينٌ، بل هوَ الهونُ ذاتُه، أو بمعنى اللّام، فيكون العذابُ لأجل الهونِ الَّذي يقع عليهم، وهذا بمعنى المآلِ، أو بمعنى (في)، فيكون المعنى: (عذابًا في الهونِ)، ولا مانعَ مِن اجتماعِ هذه المعاني، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (العذاب الهون).

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزى).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2094.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 6/ 167.

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

الاستكبارُ والفسقُ سببا عذابِ الهونِ

الباءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سببيَّةٌ، أي: تجزونَ عَذابَ الهونِ بِسَبَبِ كَونِكم مُستكبِرين في الأرض، وكَونِكم فاسِقينَ، وما دَلَّت عليهِ هَذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ من كَونِ الاستِكبارِ في الأرض والفِسقِ من أسبابِ عَذابِ الهونِ، وهو عَذابُ النّارِ، جاءَ موَضَّحًا في غَيرِ هذا المَوْضِع، كَقَولِه تَعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزّمر: 60]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السّجدة: 20][1].

نوعُ (ما) ودلالةُ استعمالِها في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

تهويلُ استكبارِهم وفِسقِهم للتَّحذيرِ من مغبَّةِ مصيرِهم

جاءت (ما) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مصدريَّةً؛ للدَّلالة على تهويل استكبارِهم وفِسقِهم وبشاعَتِه؛ وذلك لما في (ما) من الإبهامِ، ويتضمَّنُ معنى التَّهويلِ والتَّفخيم، كما يُشير إلى تمكُّن الاستكبارِ والفسقِ منهم، فالاستكبارُ والفسقُ مُتَعَلِّقانِ بكِيانِهم، والمعنى: أنَّهم بسبب كيانهم على صفة الاستكبارِ والفسقِ استحقّوا عذابَ الهون، ولو كانت (ما) موصولةً[2]؛ لكان المعنى: أنَّ ذاتَ الاستكبارِ والفِسقِ هما سببُ ذلك الجزاء.

بلاغةُ ذِكر ﴿كُنتُمْ﴾:

إصرارُ الكفّارِ على الاستكبارِ والفِسقِ أورَدَهُم مورِدَ التَّهْلُكَةِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ ذكر النَّظمُ الشَّريفُ فعلَ ﴿كُنتُمْ﴾، فلم يقل: (تجزون عذاب الهون باستكبارِكم)؛ وذلك للدَّلالةِ على تَعَمُّدِهم الاستكبارَ والفِسقَ، وإصرارِهم عليه، فهُم فعلوا ذلك عامدينَ مُتَعمِّدينَ، واستمرّوا على ذلك طيلَةَ حياتِهم دونَ حياءٍ أو خجلٍ، وأُتي بفعلِ الكينونَةِ لتوكيدِ اتِّصافِهم بهاتينِ الصِّفَتينِ الذَّميمَتَينِ، فهما لهما جِبلَّةٌ وطَبعٌ[3].

---

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 421.

(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 54.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

توجيهُ تَخصيصِ الاستِكبارِ بالذِّكر:

الاستكبارُ أصلُ الكُفرِ، وهو ذنبٌ قلبيٌّ أعظمُ من ذنبِ الجوارحِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ الاستكبارَ بالذِّكرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ دونَ الكفرِ، وقدَّمَهُ على الفِسقِ؛ وذلك لأنَّ الاستكبارَ هو التَّعالي عن قَبولِ الحقِّ[1]، فهوَ الأصلُ في الكُفرِ، وهو التَّغاضي عن وجودِ اللّهِ وإنكارِ البعثِ، وبه كانَ كفرُ أوَّلِ كافرٍ، وهو إبليسُ، والاستكبارُ فعلٌ قلبيٌّ، فقدَّم العِلَّة على النَّتيجة تحذيرًا منها.

لطيفةُ التَّعْبيرِ عنِ الاستكبارِ بصيغة الاستفعالِ:

الاستكبارُ على الحقِّ دليلُ الصَّغارِ والحقارِ

الاستكبارُ هو الاتِّصافُ بالكِبْرِ، وهو الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ من التَّرفُّعِ والتَّعالي على الآخرين واحتقارِهم والتَّمنُّع عن قَبولِ الحقِّ معاندةً وجحودًا وإنكارًا[2]، وقد صِيغَت لَهُ الصِّيغَةُ الدّالَّةُ عَلَى التَّكَلُّفِ والتَّعمُّلِ والتَّكثُّرِ مِنَ الكِبرِ، والمعنى: أَنَّهُم يُعجَبونَ بِأنفُسِهم، ويَعُدّونَ أنفُسَهُم عُظماء، ويجتهدونَ في التَّكبُّرِ عِنادًا وكُفْرًا؛ فلا يَأتَمِرونَ لأمرٍ، ولا يَنتَصِحونَ لناصحٍ، وذَلِكَ شأنُ مَن يَرى أنَّهُ أكبَرُ مِن أن يخضع لحقٍّ، أو يُساوي نفسَهُ بشخصٍ، فالاستكبارُ غَمْطُ الحقِّ بعدمِ الخضوعِ له، واحتقارُ النّاسِ[3]، ومن لطائفِ اللُّغةِ العربيَّة: أنَّ مادَّة الاتِّصاف بالكِبرِ لم يجئ منها إلّا بصيغة الاستفعال أو التَّفعُّل؛ إشارةً إلى أنَّ صاحبَ صفةِ الكِبرِ لا يكون إلّا مُتطلِّبًا الكِبرَ، أو مُتكلِّفًا له، وما هو بكبير حقًّا[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ المُضارعِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

تجدُّدُ الاستكبارِ موجِبٌ لعذابِ الهونِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغَةِ المضارَعة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتصويرِ تجدُّدِ استكبارِهم في الحياةِ

(1) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 23/ 14223.
(2) مجموعة من المؤلّفين، موسوعة التّفسير الموضوعيّ: (الاستكبار).
(3) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 9/ 170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 104.

الدُّنيا، واستمرارِهم عليه طيلةَ حياتِهم، فاستحقّوا عذابَ الهونِ، والُمرادُ بِالاستِكبارِ الاستِكبارُ على الرَّسولِ ﷺ وعلى قَبولِ التَّوحِيدِ(1).

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ إشارةٌ لانتشارِ استكبارِهم وظهورِ عُتوِّهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ استكبارَهم قد تغلغلَ في الأرضِ، وشملَ أقطارَها، ولم يقتصرْ على جانبٍ من جَوانبها، فهُم حريصونَ على نشرِ فسادِهم واستكبارِهم في الأرض كلِّها؛ لأنَّ الكُفرَ يخشى انتشارَ الإسلامِ، وفي الظَّرفيَّة كذلك بيانٌ لتمكُّن هذا الاستكبار والفسوقِ في الأرض، الَّتي هي لِكَونِها تُرابًا ومَوضوعَةً على الزَّوالِ والخَرابِ، أحَقُّ شَيءٍ بِالتَّواضُعِ والذُّلِّ والهَوانِ(2)، فالكبيرُ والُمتَكبِّرُ واحدٌ لا نظيرَ لهُ، وهو اللّٰهُ الواحدُ القهّارُ.

غَرضُ ذِكْرِ قيدِ ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾:

زيادةُ التَّوبيخِ بانتشارِ فسوقِهم واستكبارِهم

أطنب الذِّكرُ الحكيمُ بزيادَةِ قيد ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: ليسَ هوَ خفيًّا مُقتَصِرًا على أنفسهم، بل هوَ مبثوث في الأرضِ، أي: مبثوثٌ أثَرُهُ، فهو تَكبُّرٌ شائع في بقاعِ الأرض، كقولِه تعالى: ﴿يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 23]، وقولِه تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [الإسراء: 37].

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

الالتصاقُ بالباطلِ والاستعانَةُ بهِ من شِيمِ المستكبرينَ

الباء في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ تحملُ معنيينِ من أشهرِ معانيها، هُما: الإلصاقُ والاستعانَةُ، أي: إنَّهم يستكبرونَ في الأرض مُلتصقين بالباطلِ والكُفْرِ والفسوق، لا ينفكّونَ عنها ومُستعينين بها، وقد تكونُ الباءُ هاهُنا بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 43.

(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 13.

الملابَسَةِ، أي: إنَّهم متلبِّسونَ بالباطِلِ منغمسونَ فيه، غيرَ مستحقّين للحقِّ.

توجيهُ ذِكرِ قيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

التَّشنيعُ على المستكبرينَ بصفاتِهم اللّازِمَةِ المتأصِّلَةِ

قيَّدَ النَّظمُ الحكيمُ الاستكبارَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ الاستِكْبارَ قد يَكونُ بالحَقِّ؛ لِكَوْنِه على الظّالِمِينَ كالتَّرفُّعِ عن المبطلينَ، وإهانةِ الجبّارينَ، واحتقارِ المُحاربين، فَيَكونُ مَمْدوحًا[1]، كما أنَّ فيه زيادةً في التَّشنيعِ على الكافرينَ المستكبرينَ الفاسقينَ، بِذِكرِ ما هو صفةٌ لازمةٌ لَهُ، وهو مُغايَرَةُ الحقِّ، أي: دِينُهُم الباطلُ وظلمُهُم المُفرِطُ، وهي حالٌ لازمةٌ للاستكبارِ، كاشِفَةٌ لوصفِه.

دلالةُ واوِ العَطفِ في قوله: ﴿وَبِمَا﴾:

اجتماعُ الكِبرِ القلبيِّ والفسوقِ السُّلوكيِّ في الذين كفروا

عَطَف النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ لإضافَةِ سببٍ آخرَ من أسبابِ استحقاقِهم العذابَ، وهو الفسوقُ، فجمع عليهم كِبرَهمُ القلبيَّ، وفسوقَهم السُّلوكيَّ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها ﴿وَبِمَا﴾:

الفسقُ من أسبابِ العذابِ المهينِ

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ سببِيَّةٌ، أي: تجزونَ عَذابَ الهونِ؛ بِسَبَبِ كَونكم فاسِقِينَ، وما دَلَّت علَيهِ هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مِن كَونِ الفسقِ في الأرضِ مِن أسبابِ عَذابِ الهونِ، جاءَ مَوَضَّحًا في غَيرِ هَذا المَوضِعِ، في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السّجدة: 20][2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ التَّكذيبِ مضارِعًا:

تجدُّدُ الفِسقِ والاستمرارُ عليه موجِبٌ لعذابِ الهونِ

آثَر القرآنُ التَّعبيرَ بالفِسقِ دونَ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الفِسقَ معناه الخروج، فهو أعمُّ مِنَ التَّكذيبِ؛ لأنَّه نوعٌ من أنواعِه، فالفِسقُ يشمل

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 13.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 421.

الكفرَ والشِّركَ والتَّكذيبَ؛ لذلك كان التَّعبيرُ مُشيرًا إلى أنَّهم جمعوا كلَّ هذه الأنواع، وعبَّرَ بصيغَةِ المضارِعة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا يُجَدِّدونَ الخُروجَ عَن مُحيطِ الطّاعَةِ التي تَدعو إليها الفِطرَةُ الأولى والعَقلُ إلى نَوازِعِ المَعاصِي[1].

بلاغةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ ﴿تَفْسُقُونَ﴾:

عمومُ ما ارتكبَه الكفّارُ من الدّنايا موجِبٌ لعذابِهم

حذفَ النَّظمُ الجليلُ مُتَعَلِّقَ الفعلِ ﴿تَفْسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على عموم فسقهم، فقد كانوا يقترفونَ كلَّ أنواعِ المعاصي والدَّنايا دونَ خَجلٍ أو استحياءٍ، فاستحَقّوا بذلك عذابَ الهونِ؛ جزاءً وِفاقًا لخروجهم على الفِطَرِ السَّليمَةِ، ولتوجيه الأنظارِ إلى فِسْقهم، الذي داعيه هو الكفرُ باللّه تعالى، بل هو أخصُّ خصائصه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ [الأحقاف: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإعـــراضُ عن الإيـمـانِ سببُ إذهابِ النِّعم في الدُّنيا والآخرة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حال الَّذين كفروا يومَ القيامةِ، وما يُقال لهم من إذهاب الطَّيّبات في الحياة الدُّنيا والاستمتاع بها؛ بسبب إعراضِهم عن ذكرِ اللّه تعالى؛ إذ اغترّوا بما لهم من المال والقوَّة؛ ناسب أن يُتبعَ ذلك قصَّة قوم عاد، فإنَّهم كانوا أكثر أموالًا وقوَّة وجاهًا منهم، فلم يمنعهم ذلك من عذاب اللّه تعالى، فسيقت القصَّة موعظة للمشركين؛ ليتركوا الاغترار بما وجدوه من متاع الدُّنيا، ويقبلوا على طلب الدّين(1).

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾: (حقف) أصلٌ يَدُلُّ عَلى مَيلِ الشَّيءِ وعِوَجِه، احقوقَفَ الشَّيءُ؛ إذا مالَ(2)، والحِقْفُ: الرَّمْل، ويُجْمَع على أحقاف وحُقوف، واحقوقَفَ الرَّمْلُ، وظَهْرُ البَعير: طالَ واعوَجَّ(3)، ولهذا قيل للرَّمل؛ إذا كان منحنيًا: حِقْفٌ، قال: وكانت مَنازِلُ قوم عاد بالرِّمال(4)، وهو الرَّمل المستطيل، وما عظم، واستدار منه، وكانت ديار عادٍ بالشَّحر في كثبان رمل(5)، والمراد به في الآية الكريمة الكثيب الَّذي فيه اعوجاج، وهو وادٍ بين عمان ومهرة، وهي ديار قوم عاد(6).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 24، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 28.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقف).
(3) الخليل، العين: (حقف).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (حقف).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حقف).
(6) الجوهري، الصّحاح: (حقف)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 24.

2) ﴿خَلَتِ﴾: (خلو) أصلٌ يدلُّ على تَعَرِّي الشَّيء من الشَّيء[1]، خلا المكانُ والشَّيءُ يخْلو خُلوًّا وخَلاءً وأخْلَى؛ إذا لم يكنْ فيه أحدٌ، ولا شيءَ فيه، وهو خالٍ[2]، والخلاء: المكان لا ساتر فيه، ويقابله الملاء، وذلك أنَّ الخلوَّ يستعمل في الزَّمان والمكان، لكن ما تُصوِّر في الزَّمان المضيُّ، ففسَّر أهل اللُّغة قولهم: خلا الزَّمان، بقولهم: مضى، وذهب[3]، فخلا منه المكانُ والزَّمانُ الَّذي كان يشغله، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب، فهو من (خلا) بمعنى مضى، عدا ما نُصَّ فيه على خلاف ذلك[4]، والمراد به في الآية الكريمة: مرَّت، ومضت[5].

3) ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تَخْويفٍ، والإنذار: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ، وتَناذروا: خَوَّفَ بَعضُهُم بَعضًا[6]، يقال: أنذَرْتُ القومَ مَسِيرَ عدوِّهم إليهم، فَنَذِروا، أي: أعْلَمتُهم ذلك، فنَذِروا، أي: عَلِموا، فَتَحَرَّزوا، والتَّناذُر أن يُنذِرَ القومُ بعضُهم بعضًا، شرًّا مخوِّفًا[7]، فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويف، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل: 14]، والنَّذيرُ: المنذر، ويقع على كلِّ شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره، وجمعه: النُّذُر[8]، والمراد به في الآية الكريمة: جمع النَّذير[9].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التَّذكيرُ بقصَّة هود عليه السلام بغرضِ الاعتبارِ

يقول الله تعالى مسلّيًا النَّبيَّ ﷺ وواعظًا للمشركين: اذكر أيُّها الرَّسول الكريم الَّذين كذَّبوك قصَّة هود مع قومه عاد الَّذين سكنوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلو).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلا).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلو).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلو/ خلى).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 164.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (نذر).
(8) الراغب، المفردات: (نذر).
(9) الخليل، العين: (نذر)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 24.

الأحقاف، فقد كذَّبوه حين أنذرهم، وخوَّفهم من عذاب اللّه الشَّديد، وقد جاءت الرُّسل من قبله ومن بعده منذرين أقوامهم داعين إيّاهم إلى التَّوحيد؛ إذ كانوا يعبدون الأصنام من دون اللّه، فقال لهم ناصحًا: إنّي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة العظيم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتها البيانيَّة:

استئنافُ الإنذارِ بقصَّة هود عليه السلام للاعتبار

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، وهي هنا استئنافيَّة[2]، سيقت للشُّروع بقصَّة هود عليه السلام موعظة للمشركين الَّذين كفروا، وأعرضوا عن الإسلام، وسيقت للتَّسلية للرَّسول ﷺ على تكذيب قومه له[3].

غرضُ الأمرِ بالذِّكر مادَّة وصيغة:

الذِّكر يدلُّ على الذِّكر اللِّسانيِّ والتَّذكُّر القلبيِّ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الذِّكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾؛ لأنَّه أنسبُ لمقصود الآية، فلمّا سيقت للموعظة والتَّسلية لم يكن أجمع لهذين المعنيين من لفظ التَّذكير؛ لأنَّها صالحة لمعنى الذِّكر باللِّسان، وذلك بأن يذكر تلك القصَّة لقومه، ولمعنى التَّذكُّر بأن يستحضر تلك القصَّة في نفسه[4].

نكتةُ استعمالِ (اذكر) دون (اتلُ):

الذِّكرُ إيماء للتَّسلية، والتِّلاوة إشارة للإنذار

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بالذِّكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ دون أن يقول: (اتلُ)، كما قال تعالى: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]؛ لأنَّ عُرْفَ القرآن الكريم أنَّ ما كان فيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ يكون بالفعل (اذكر)، وما كان فيه إنذارٌ لأمَّته؛ يكون بالفعل

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 29، والهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 67.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 188.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 44.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 44.

(اتل)[1]، كقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175].

غرضُ استعمال مفردة الأخوَّة:

تسليةُ المخاطَبِ بما كان من السّابقين مع إخوانِهم من المرسَلين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأخوَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ ما يلقاه المرء من قومه مع علمهم بمناقبه وفضله أنكأ وأشدُّ على النَّفس[2]؛ لأنَّه لمّا كان أخوهم ومع ذلك كفروا به مع معرفتهم به وبفضله، فقد بيَّن ذلك شدَّة ما لاقاه هود عليه السلام منهم، وهذا تصبير وتسلية للنَّبيِّ ﷺ، فهو أخوهم كما أنَّك أخو قريش، ومع ذلك، فلم تثنِهم هذه الأخوَّة عن الاتِّباع، وترك الكفر والارتداع، فغرض هذا التَّعبير تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، وبه تتضافر أسباب التَّسلية في مقامِ التَّنبيه والتَّحذير بطريق الإيماءِ والتَّنبيه.

دلالةُ استعمالِ الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ ووظيفته في الجملة:

مقصودُ قصصِ السّابقين الموعظة والإنذار المبين

عبَّر النَّظم الجليل بالظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾؛ للدَّلالة على الوقت الَّذي وقعت فيه قصَّة هود عليه السلام مع قومه، أي: اذكر حين قال لهم ما قال، وجاء موقعه الإعرابيُّ مؤدّيًا وظيفة البدل، فلمّا ذكر النَّظم الجليل هودًا لمقصد تسلية النَّبيِّ ﷺ؛ أبدل منه قصَّته؛ وذلك لبيان أنَّ المقصود من الرِّسالة هو الإنذار[3].

نكتةُ استعمالِ لفظِ القوم دون العشيرة:

لفظُ القوم دليلٌ على مُكنةِ القومِ من القيامِ بما يؤمنون به

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بلفظ القوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ دون العشيرة، فلم يقل: (إذ أنذر

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 3/ 522.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 162.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 162.

عشيرته)؛ للدَّلالة على أنَّهم ذوو قوَّة زائدة، تمكِّنهم من القيام بما يدعون إليه وما يحاولون القيام به[1]، فبينهم جهة جامعةٌ تُمكِّنهم من القيامِ بما يريدون، ومن ذلك الإيمان والامتثال لما أُمروا به.

دلالةُ إضافةِ قوم إلى الضَّمير العائد على نبيِّهم:

من لطفِ الله بالعباد إرسال من يعرفون شأنه وحاله

أضاف النَّظم الجليل لفظَ القوم إلى الضَّمير العائد على نبيِّهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد أمحضهم النُّصح[2]، فالمرء لا يأتي بما يضرُّ أهله وقومه، كما أنَّ فيه إشارة إلى اللُّطف بهم بأن يبعث الله تعالى إليهم رجلًا منهم، وأنَّهم يعرفونه، وأنَّه ليس أجنبيًّا عنهم، وأنَّه حريصٌ عليهم، وهذا أدعى لتصديقه واتِّباعه.

نوعُ الباء ودلالتها:

صلح المكان للعيش حتّى التصقوا به، واستقرّوا فيه

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، وهي هنا للظَّرفيَّة، فكانت منازلهم بهذا الوادي الَّذي هو في الأحقاف[3]، وإنَّما آثر الباء على (في)؛ لما في الباء من دلالة على الإلصاق، فكأنَّهم كانوا ملاصقين لبلدتهم؛ تعبيرًا عن وفرة النِّعم فيها ودوام صلاحها، فجمع حرف الباء دلالةَ الظَّرفيَّة والإلصاق، وشأنُ الَّذي يعيش بين كثبان الرِّمال أن يلتصق بها، لكثرةِ تحرُّكها وقوَّة أثرها، ويمكن أن تكون الباء قد أفادت معنى إنذاره لهم بالأحقاف، على اعتبار أنَّه هدَّدهم بزوال مملكتهم ونكوصها بعد قوَّة، فكأنَّه هدَّدهم بما كانوا يعدّونه رمزًا لقوَّتهم.

سرُّ التَّقييدِ بشبه الجملة ودلالتها:

قيَّد النَّظم الجليل القومَ بشبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾؛ لبيان حالهم، أي: حال

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 162.

(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 65.

التَّنبيهُ على موطن السُّكنى استدعاء لما علق في الأذهان من سوء المآل

كونهم نازلين بالأحقاف، أو لبيان صفة القوم، أي: أخا عاد الكائنين بالأحقاف، أي: بالوادي المعلوم، وشبه الجملة على هذا المعنى ليست متعلِّقة بالإنذار كما قد يتبادر[1]، وفائدة بيان الحال والصِّفة بأنَّهم كائنون في ذلك المكان زيادة في البيان، واستدعاء لما علق في أذهان المشركين من معرفتهم بما حلَّ بهؤلاء القوم موعظة لهم، ويمكن أن تتعلَّق شبه الجملة بالإنذار على معنى أنَّه أنذرهم زوال الأحقاف.

نوعُ الواو ودلالتها المقاصديَّة:

تحذيرُ قريشٍ أن يُصيبها ما أصابَ السّابقين

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، وهي صالحة أن تكون للحال أو الاعتراض[2]، فذهب بعضٌ من أئمَّة التَّفسير إلى أنَّها حاليَّة، والمعنى أنَّه أنذرهم، وهم عالمون بإنذار الرُّسل من قبل هود عليه السلام ومن بعده[3]، فلم يكن بدعًا من الرُّسل، وأجاز بعض الأئمَّة أن تكون الجملة اعتراضيَّة، اعترضت بين المفسِّر والمفسَّر، أي: بين قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، جيء بها لتقرير ما قبلها، ولبيان اشتراك الرُّسل بالدَّعوة إلى العبادة[4]، وعلى الحاليَّة يكون المعنى أنَّهم عالمون بما كان من مضي النُّذُر وما سيأتي، وعلى القول بالاعتراضِ، فهو إخبارٌ عمّا كان من الإنذارِ في السّابق واللّاحق، والَّذي يظهر أنَّ القولَ بالاعتراضِ أقوى، وذلك للإخبارِ عمّا كان من بعد عاد، والمقصود الإيماء بقصد تحذيرِ قريشٍ ممّا كان منهم قريبًا، أن يُصيبهم ما أصابَ جميعَ من سبقهم ممَّن كانوا قبل عادٍ أو بعدها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 65 - 66، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 39.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 115.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 66، وينظر: ابن جزي، التسهيل: 2/ 277، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 45.

فائدة استعمال (قَدْ):

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف التَّحقيق (قَدۡ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، وهي هنا دالَّة على تقريب الفعل الماضي من الحال[1] على القول بالحاليَّة، فتقدَّم النَّذر عليه لم يكن قد مضى عليه فسحة من الزَّمان بحيث يجهل أمر الرِّسالات، كما أنَّ (قَدۡ) تفيد تحقيق الفعل وتأكيده، فكونُ هود عليه السلام مسبوقًا برسلٍ قبله أمرٌ مؤكَّد، ومجيءُ رسلٍ بعده مثلُه في التَّأكيد، لاسيَّما أنَّه يدخل في المقصود بمن خلفه أقوامٌ وصلت أخبارُها قريشًا.

بعثُ الرُّسلِ من قبل هود وبعده على وجه القطع والتَّأكيد

نكتةُ تعريف ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ وجمعها:

عرَّف النَّظم الجليل النُّذُر بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على جنس النُّذر، فليس المرادُ تعيينهم، وجاء التَّعبير عنها بصيغة الجمع؛ للدَّلالة على أنَّهم كثيرون[2]، وفائدة الكثرة إظهار أنَّ كفر قريش بالنَّبيِّ ﷺ ليس بعدًا من الأقوام، وهذا موطن التَّسلية له ﷺ.

من لطائف الله بخلقه تتابع الرُّسل وكثرتهم

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالتها:

استعمل النَّظم الكريم حرفَ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على ابتداءِ الغايةِ، أي: ابتداءً من الزَّمن السّابق لهودٍ عليه السلام وما علا، وابتداءً من الزَّمن اللّاحق وما بعده، فما أرسل الله تعالى أحدًا من المرسلين، إلّا ورسول الله هودٌ عليه السلام على نهجهم في الإنذار المبين، فما كان بدعًا منهم.

الرُّسل على نهجٍ واحدٍ في الإنذارِ والرِّسالةِ

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾:

جاء التَّعبيرُ بقولِه جلَّ شأنه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ للدَّلالة على مَن سبقه من المرسلين، كنوح وشيث عليهما السلام[3]، فلم يكن هودًا عليه السلام بدعًا من

الكنايةُ عن قربِ عهدِ الأقوامِ بالرِّسالات

---

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 39.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 164.

(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 13.

المُرسَلين ولا غريبًا عنهم شأن الرِّسالات، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ زمان سبق أولئك الرُّسل كان قريبًا منه، فالتَّعبير بـ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ كنايةٌ عن القرب، فما يكون بين يدي الشَّيءِ يكون قريبًا لا بعيدًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: 46]، أي: قبل العذاب القريب(1).

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾:

الكنايةُ عن بعدِ عـهـد الأقــوام بالرِّسالات

جاء التَّعبيرُ بقولِه جلَّ شأنه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على الرُّسل الَّذين أتوا من بعده، فهي دالَّةٌ على البُعد، فكما كان التَّعبير بـ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ كنايةً عن القرب في الزَّمان، فإنَّ التَّعبير بـ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ كنايةٌ عن البُعد في الزَّمان، أي: رسلًا سابقين عليه بزمان طويل(2)، وفي التَّعبير بهذه الظَّرفيَّة دلالة على استمرار إرسال الرُّسل واستمرار التَّكذيب بها، وفي هذا تسريةٌ للنَّبيِّ ﷺ أنَّ قومك ليسوا بدعًا من النّاس في تكذيبهم.

نوع (أنْ) ودلالتها:

الغايةُ الأسمى من الإنـذار كفُّ الـعـبـاد عـن الشِّرك

عبَّر النَّظم الجليل بـ (أنْ) التَّفسيريَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لكونها مسبوقة بما فيه معنى القول دون حروفه، وهو الإنذار، فجيء بها لتفسير إنذار الرُّسل بأيِّ شيء كان(3)، فبيَّن أنَّ الإنذار كان بالنَّهي عن الشِّرك.

غرضُ النَّهي ودلالتُه:

كلُّ معبودٍ من دون الله فباطلٌ في ذاتِه ومآله

عبَّر النَّظم الجليل بأسلوب النَّهي في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بإدخال لا النّاهية على المضارع(4)، وذلك لحصر العبادة في عبادة الله تعالى وحدَه، فدخلت أداة الاستثناء؛ لتجعل العبادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46.
(3) الخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 33.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 40.

محرَّمةً على كلِّ أحدٍ إلّا المذكور بعدها، فلم يبعث اللّه تعالى رسولًا من هود ﷺ ولا من بعده إلّا وقد أمر بعبادة اللّه وحده[1].

براعةُ إيثارِ أسلوبِ القصْرِ على الأمر:

التَّوحيدُ أصلُ كلِّ الرِّسالات وغايةُ جميعِ الدَّعوات

آثر النَّظمُ الكريم أسلوبَ القصر على أسلوب الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ فلم يقل: (أن اعبدوا اللّه)؛ وذلك لأنَّ الأمر بالعبادة ليس نصًّا في التَّوحيد، أمّا النَّهي عن العبادة مطلقًا، ثمَّ قصْرُها بالاستثناء على اللّه وحدَه؛ فنصٌّ في التَّوحيد.

علَّة فصل جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

الخوفُ على النّاس رحمةٌ تكتنزُها قلوب الدُّعاة

فصل النَّظم الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ؛ لأنَّها تعليلٌ لجملة النَّهي، سيقت لبيان علَّة النَّهي عن الشِّرك، والدَّعوة إلى التَّوحيد[2]، والتَّعليلُ بيانٌ لنتيجةِ عبادةِ غير اللّه تعالى، وهو عذاب يوم القيامة، ويُبيِّن التَّعليل رحمةَ هود ﷺ بقومِه؛ إذ الخوف ترجمان الحرص على نجاتِهم من النّار.

غرضُ توكيد جملة الفاصلة:

التَّوكيدُ برهانٌ على وجودِ اختلافٍ بين طرفي الخطاب

أكَّد النَّظم الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ بحرف التَّأكيد (إنّ)؛ ردًّا على إنكارهم وكفرهم به، وللدَّلالة على شدَّة التَّحذير[3]، كما أنَّ في التَّأكيد إيماءً إلى شديد حرص هود ﷺ على قومه المُكذِّبين، فلولا تكذيبُهم وكفرُهم بعذاب يوم البعث؛ لما احتاج خطابُهم إلى التَّأكيد.

دلالةُ استعمال مفردة الخوف مادَّة وصيغة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بمفردةِ الخوف في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ

(1) الواحدي، البسيط: 20/ 191.
(2) الخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 33.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 164.

﴿عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ لدلالته على "توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة"[1]، وهو هنا واقع عن دراية معلومة، فحذَّرهم من العذاب مُبديًا خوفه وشفقته عليهم، فلمّا كفروا بالاعتماد على قوَّتهم وعظمة شأنهم؛ بيَّن لهم أنَّهم في حال بحيث يخاف عليهم، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد الخوف واستمراره.

العلمُ بمآل الكفر يظهر الخوف والشَّفقة على الغافلين

نكتةُ تقديم ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول به:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المفعول به في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، فلم يقل: (أخاف عذاب يوم عظيم عليكم)؛ وذلك للاهتمام بالمقدَّم وتفخيم المؤخَّر وتهويل شأنه، وهو ما يُؤكِّد كبيرَ حرصه عليهم، وبليغ تحنُّنه عليهم في الخطابِ، فإشعارُ المخاطَب بحرص المتكلِّم يُقربُ الفجوةَ بينهما، ويُبعد الغربة عنهما، فشأنُ التَّقديم الإشعارُ بشديد الحرص، وبالغ الرَّحمة.

تقديمُ الألفاظِ دليلٌ على مكنوناتِ النَّفس

نوعُ إضافةِ ﴿عَذَابَ﴾ إلى الظَّرف ودلالتها:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿يَوۡمٍ﴾ - المراد به يوم القيامة - في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ لأنَّ العذاب في ذلك اليوم متَّصف بالعظمة، وليس بوسع أحد النَّجاة منه[2]، والإضافة بمعنى (في)، أي: أخاف عليكم عذابًا في يوم عظيم، فهو في ذلك اليوم مشهودٌ، لا يغيبُ حالُه عن أحدٍ، ولا يجهله النّاس؛ لما يرونه من عظيم المشهد.

عذابُ يوم القيامة لا فرار منه ولا نجاة

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿يَوۡمٍ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن ﴿يَوۡمٍ﴾ بصيغة التَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ تهويلًا لشأنه وتعظيمًا له، فهو يوم عظيم الهول، يجب أن يحذر منه ومن العذاب الَّذي يقع فيه.

---

(1) الراغب، المفردات: (خوف).

(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 26/ 26.

دلالةُ وصف اليوم بالعظمة:

شأنُ يوم الحساب عظيم الخطر جليل الخطب

وصف النَّظمُ الجليل اليوم بأنَّه ﴿عَظِيمٍ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ لدلالته على الزِّيادة في الخطر، و"أصل العظم الكبر والزِّيادة في الأجزاء المحسوسة، هذا أصله، ثمَّ يتجوَّز به في المعاني نحو قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران: 176]"[1]، فوصف اليوم بالعظم ينسحب على العذاب الَّذي يقع فيه، فهو عذابٌ لا يدع جهة إلّا ملأها لعظمه وشدَّته، وهو العذابُ المناسب لإصرارهم على الشِّرك[2]، فعِظَمُ اليوم لما فيه من أهوال عظام جسام، جزاءَ الأعمال العظيمة الَّتي قام بها المكذِّبون في الدُّنيا، وعلى رأسها الشِّرك والعناد على الكفر.

المجازُ العقليُّ في وصف العذاب بالعظيم:

هولُ الأحداث يوم القيامة أحالته إلى العظمة وخطورة الشَّأن

وصف النَّظم الجليل اليوم بصفة العظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، وهي صفة خاصَّة بالمحسوسات، وتُستَعمل لوصف المعاني مجازًا[3]، وإنَّما صحَّ وصفه بالعظم بالنَّظر؛ لما يقع فيه من أحداث عظيمة، فهو مجاز عقليٌّ علاقته الزَّمانيَّة[4].

الفروق المعجميَّة:

القوم والعشيرة:

العشيرة أخصُّ من القوم، فهُم الأقارب والأهل، والقوم عامٌّ في جماعة النّاس

القوم يدلُّ على جماعَةِ ناسٍ[5]، وهم الرِّجال دون النِّساء[6]، فيشمل جميع الرِّجال من قومه عامَّة، أمّا العَشِيرَةُ؛ فهُم أهل الرَّجل الَّذين يتكثَّر بهم، أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وذلك أنَّ العَشَرَةَ هو العدد الكامل، قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عظم).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 164.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عظم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46، وينظر: القنوجي، فتح البيان: 13/ 30.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(6) الجوهري، الصحاح: (قوم).

[التوبة: 24]، فصار العَشِيرَةُ اسمًا لكلِّ جماعة من أقارب الرَّجل الذين يتكثَّر بهم[1]، وأصل العشيرة (عشر) يدلُّ على المُخالَطَةِ والمُداخَلَةِ فالعِشرَةُ والمُعاشَرَةُ، وعَشيرُكُ: الَّذِي يُعاشِرُكَ، وإنَّما سُمِّيَتْ عَشِيرَةُ الرَّجُلِ لِمُعاشَرَةِ بَعضِهم بَعضًا[2]، فالعشيرة أقلُّ من القوم، وأقربُ للمرء من قومه، وجاء التَّعبير في الآية بلفظ القوم؛ لأنَّ رسالة هود عليه السلام لا تختصُّ بعشيرته بل بكلِّ قومه.

(1) الراغب، المفردات: (عشر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشر).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ [الأحقاف: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد التَّبليغ والإنـذار بيان جواب القوم

لمّا أوردتِ الآية السّابقة دعوة هود ﷺ لقومه بالأحقاف، وما نصحه لهم، وما أظهره لهم من الخوفِ عليهم، بغرض عبادةِ اللّٰه وحده دون سواه؛ ناسب بيان موقف قومِه منه، وما قالوه له بعد سماعِ دعوته، وموقفهم من الدَّعوة إلى التَّوحيد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾: (أفك) أصلٌ يدلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ وصَرفِهِ عَن جِهَتِه، أَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيءِ؛ إذا صَرَفْتُهُ عَنهُ[2]، أفَك يأفِك أفْكًا، وأفَكْته عن الأمر: صرفته عنه بالكذب والباطل[3]، والأَفْكُ بالفتح: مصدر قولك: أفكه يأفكه أفكًا، أي: قلبه وصرفه عن الشَّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾، وائتَفَكَتِ البلدة بأهلها، أي: انقلبت[4]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقُّ أن يكون عليه، كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30]، أي: يُصرفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، والمراد به في الآية الكريمة: "تصرفنا عن وجه أمرنا إلى قفاه"[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 165، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 29.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(3) الخليل، العين: (أفك).
(4) الجوهري، الصحاح: (أفك).
(5) الراغب، المفردات: (أفك).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 165.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يحكي النَّظم الجليل ما قاله قوم هود عليه السلام له؛ ردًّا على دعوته إيّاهم؛ إذ قالوا: أجئتنا؛ لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتّباعك فيما تقول؟ إنّا لا نفعل ذلك، فهلمَّ هات، عجِّل لنا ما تعدنا به من العذاب؛ إن كنت صادقًا فيما زعمت، وبما وعدتنا به(1).

عـادةُ المشركين الـعـنـاد والسُّخرية من الدَّعوة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل الآية:

فُصِلت الآيةُ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ ؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ فلمّا ذكر إنذارَ القوم؛ تشوَّف السّامعُ إلى معرفةِ جوابهم عن ذلك، فأُجيب بحكاية قولهم(2).

بلاغةُ الإسناد المجازيِّ في فعل: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بفعل القول، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾؛ وذلك لبيان جوابهم وحكاية لما قالوا في محاورتهم(3)، وإسنادُ القولِ إلى القوم كلِّهم، العائد ضمير الفاعل على قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، والَّذين قالوا هم بعض القومِ، من باب المجاز العقليِّ بإسناد القول إلى الكلِّ وإرادةِ الجزء، ونكتته رضا الكلِّ عن قيل الجزء، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل الماضي؛ تحقيقًا لقولهم وتأكيدًا لوقوعه.

إسـنـادُ الـقـولِ للكلِّ مع صدوره عـن بعضِهم باعتبارِ القبول والرِّضا

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

جاء التَّعبيرُ بأسلوب الاستفهام المقترن بالتَّقرير والتَّوبيخ(4)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾؛ لبيان إنكارهم

المـنـكـرُ المُعـانـد مـكـذِّبٌ للحقِّ مـتـعـالٍ على التَّوحيد

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 165.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 445.

دعوته إيّاهم إلى التَّوحيد، فأنكروا مجيئه لهم بذلك؛ تكذيبًا له[1]، فقرَّروه على مجيئِه على تلك الصّورة، الَّتي تستدعي التَّوبيخ في ظنِّهم.

نكتةُ استعمالِ مفردة المجيء دون الإتيان:

منازعةُ القومِ اعتقادَهم الباطل حقٌّ قائم

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة المجيء في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ دون لفظ الإتيان؛ لأنَّ الإتيانَ ما كان سهل المجيء[2]، فلمّا أنكروا التَّوحيد، واشمأزّوا منه؛ عبَّروا بلفظِ المجيء؛ لبيان ثقله عليهم وانتفاء سهولته، ولبيانِ أنَّ ما جاء به هو أمرٌ لا يُستهان به، وليس بالسَّهل أن يأتي به كلُّ أحدٍ، لما فيه من مجابهتهم، ومنازلتهم العداء.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ المجيء:

إنكارُ المعاندين باعتبارِ مقاصدِ الدَّعوة ومآلِها

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ آثر البيان القرآني التعبير بـ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ وذلك باعتبارِ أنَّ المجيء "مستعارٌ للقصد بطلبِ أمرٍ عظيم؛ إذ شبَّه طروَّ الدَّعوة وحدوثها بعد أن لم يكن يدعو بها، بمجيء جاءٍ لم يكن في ذلك المكان"[3] بجامع الظُّهور والحدوث، أي: أقصدتنا بدعوتك؛ لتصرفنا عن آلهتنا؟

نوع اللّام ودلالتها:

(اللّام) في ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ بغرضِ التَّعليل[4]، أي: علَّة مجيئك وغرضك منه صَرۡفُنا عن آلهتنا.

بلاغةُ استعمال مفردة الإفك:

الإفكُ أخصُّ من الصَّرف فهو صرف وردٌّ وقلب

استعمل النَّظم الجليل مفردة الإفك في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾؛ لدلالة الإفك على الصَّرف مع الرَّدِّ والقلب،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 46.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 26/ 27.

فقولهم: أفكَهُ، أي: قلبه وصرفه عن الشَّيء[1]، فاستعمل لدلالته على الصَّرف إلى النَّقيض، فهو يدلُّ على الصَّرف عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، فاستعملوا الإفك في قولهم: ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾؛ وذلك لأنَّهم اعتقدوا أنَّ دعوته إيّاهم إنَّما هي صرفٌ لهم من الحقِّ إلى الباطل[2]، أي: "لتصرفنا عن وجه أمرنا إلى قفاه"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالآلهة بصيغة الجمع:

كـثرةُ الآلـهـة اعـترافٌ بضعفِ العقل في اتِّباع الباطل

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الآلهة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ بصيغة الجمع؛ للدَّلالة على كثرتها، كما أنَّهم يشيرون بذلك إلى أنَّه لا ينبغي الانصراف عنها؛ استغناء بها، واعترافا بكثرتها، غير أن هذا دليلُ بطلان الَّذي يعبدونه، وأمارة الكذب الَّذي ينتمون إليه، فآلهتهم المتكاثرة دليلُ عقولهم الفارغة.

بلاغةُ المجاز بالحذف:

الآلـهـةُ رمـزُ الانتماء للباطل والعبادةُ تسويغٌ فارغ

في التَّعبير بقوله: ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ مجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: عن عبادةِ آلهتنا؛ لبيانِ أنَّ الآلهةَ هي المقصودة لذاتِها، فهي رمزٌ للارتباطِ بتقاليدِ الآباء والأجداد، وليس لأحدٍ أن يحولَ بينهم وبين ما ينتمون إليه، فكان تقديمُ الباطلِ عندهم أولى من الالتفات إلى الحقِّ المبين.

نوعُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأۡتِنَا﴾:

التَّـعـجـيـلُ بـالـعـذاب بعد الإنكار على الفور

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾، فكلتاهما طلبيَّتان، وكلتاهما من مقول القول الَّذي قالوه[4]، فلمّا أنكروا عليه الدَّعوة إلى التَّوحيد؛ طلبوا منه الإيتاء

(1) الجوهري، الصحاح: (أفك).
(2) الراغب، المفردات: (أفك).
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 13.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 82.

بما يحذِّرهم منه تكذيبًا له، وجيء بالفاء؛ لبيان أنَّ الطَّلب مراد به الفور، أي: استعجلوا العذاب من فورهم.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَأۡتِنَا﴾:

استعمل فعل الأمر للتَّعجيز

المرادُ من صيغة الأمر الإتيانُ بالعذاب في الحال، أي: ائتِنا به الآن؛ وذلك لأنَّهم لمّا كذَّبوه؛ طلبوا منه تحقيق ما وعدهم به[1]، والمراد منه بيانُ عجزه وانتفاء قدرته، فاستعمل فعل الأمر للتَّعجيز، كما أنَّه يدلُّ على الاستعجال بإيقاع ما وعدهم به من العذاب؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

بلاغةُ الإسناد المجازي:

نسبةُ الإيتاءِ للدّاعي تكذيب لدعوته ووعيده

أورد النَّظمُ الجليل فعل الإيتاء مسندًا إلى ضمير الفرد المراد به هودًا عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّ القوم لم يصدِّقوا بأنَّ اللّه تعالى ينزِّل العذاب، بل اتَّهموه بأنَّه يدَّعي ذلك، فنسبوا فعل الإيتاء إليه، فإسنادُ الإتيان إليه "مجازٌ؛ لأنَّه الواسطة في إتيان العذاب أن يدعو اللّه أن يعجِّله"[3].

نوع الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وهي هنا للتَّعدية[4]، أي: أحضر العذاب الموعود.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

تقليل الألفاظِ وتكثيرُ المعاني من مزايا نظمِ القرآنِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وهي صالحة أن تكون موصولة ومصدريَّة[5]، فعلى تقدير الموصولة، أي: بالَّذي تعدنا به من العذاب، وهذا يدلُّ على أنَّهم يعلمون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 47.
(2) البحر المحيط في التفسير: 9/ 445.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 47.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 68.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 26/ 27.

الموعودين به من العذاب، وعلى تقدير المصدريَّة، أي: بوعدك إيّانا، فشمل التَّعبير الوعدَ والموعودَ به، وهذا من دقائق التَّعبير البليغ المشتمل على كثرة المعاني بأقلِّ الألفاظ.

بلاغةُ استعمال مفردة الوعد مادَّة وصيغة:

ردُّ المكذِّبين جاهرٌ جائر

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الوعد في قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على ما خوَّفهم به من الإصرار على الشِّرك ومنابذة التَّوحيد[1]، وجاء التَّعبير بالمضارع؛ لبيان أنَّ هودًا عليه السلام كان يكرِّر لهم الدَّعوة والوعيد والتَّخويف حتّى يقلعوا عن الشِّرك، ويظهر أنَّهم قالوا ما قالوه ردًّا عليه ساعةَ إيعادهم العذاب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وهو ما يُقوِّي استعمال حرف الفاء.

دلالةُ استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا):

التَّشكيكُ بصدق الدّاعي ديدن المكذِّبين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بحرف الشَّرط ﴿إِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لدلالتها على الاحتمال والشَّكِّ لديهم، وذلك لأنَّ صِدقَهُ غير وارد عندهم، بل هو فرَضٌ محال[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل الكون مادَّة وصيغة:

التَّحدّي الصَّريح برهانُ العنادِ القبيح

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بفعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنت كونًا ثابتًا من الصّادقين كما يُقال عنك[3]، فدلَّ ذلك على أنَّهم جعلوا وقوع ما وعد به يقتضي أن يكون صادقًا غاية الصِّدق، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق صفة الوجود والاتِّصاف بالصِّفة على

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 165.

(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 13.

وجه الرُّسوخ، ويكون تصدير ذلك بحرف الشَّرط الدّالِّ على الشَّكِّ دالًّا على أنَّ وصفه بالصِّدق محلُّ شكٍّ وتهمة على وجه المبالغة.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهي هنا دالَّة على التَّبعيض، أي: إن كنت واحدًا منهم.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل الصّادقين بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهي هنا لتعريف الجنس، أي: إن كنت من جنس الصّادقين.

غرضُ التَّعبير بصفة الصِّدق بالجمع دون الإفراد:

الإيفاءُ بالوعد من صفات الرّاسخين بالصِّدق

عبَّر النَّظم الجليل عن صفة الصِّدق بصيغة اسم الفاعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخ الوصف، أي: إن كنت من الرّاسخين في الصِّدق، وجاء التَّعبير بالجمع دون المفرد، فلم يقل: (إن كنت صادقًا)؛ لأنَّ الوصف بأن يكون من زمرة الصّادقين أبلغ من الوصف بالصّدق[1]، فهو دالٌّ على أنَّه قد اشتهر بالصِّدق، وعُرف به حتّى استحقَّ أن يكون من زمرة الصّالحين؛ اعترافًا بصِدقه وتوثيقًا له.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة لامتناع العوائق دونه

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيءُ؛ ففيه شدَّة وصعوبة، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[2]، فآثر في الآية التَّعبير بالمجيء؛ لأنَّهم لمّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 47.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جاء، جيأ) (أتى).

أنكروا التَّوحيد، واشمأزّوا منه؛ عبَّروا بالمجيء؛ لبيان ثقله عليهم وانتفاء سهولته.

الإفك والصَّرف:

الصَّرف تحويل وردٌّ، والإفك انصراف عمّا ينبغي أن يكون عليه

الصَّرف: يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة[1]، صَرَفْتُ القَومَ صَرْفًا وانصَرَفوا؛ إذا رَجَعْتَهُم، فَرَجَعوا، قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146]، أي: سأنحّي، وأَعْدلُ بهم عنها، يقال: صرفه عن كذا؛ إذا عَدَلَ به عنه، ونحّاه[2]، أمّا الإفك؛ فهو صرف الشَّيء عن جهته[3]، قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]، أي: يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَن صُرِفَ[4]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقُّ أن يكون عليه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30]، أي: يُصرفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، فالصَّرف تحوُّل عامٌّ، بمعنى الرَّدِّ والإرجاع، يُستعمل للرَّدِّ العامِّ لا يتعلَّق بالتَّوجُّه، أمّا الإفك؛ فهو صرفٌ عن الوجه الَّذي ينبغي أن يكونوا عليه، وعبَّر في الآية بالإفك؛ لأنَّهم زعموا أنَّ دعوته إيّاهم إلى التَّوحيد هي صرْفٌ لهم عن الحقِّ الَّذي هم عليه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(5) الراغب، المفردات: (أفك).

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ [الأحقاف: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفويضُ العلمِ لله تعالى دليل الصِّدق وبرهان الرَّحمة

لمّا ذكر النَّظم الجليل استعجالهم العذاب بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وكان طلبهم ذلك المقترن بالتَّحدِّي الجائر مقتضيًا الإتيان به على الفور؛ ناسب أن يُتبعه بجواب هود ﵇ بأنَّ العلم بوقت نزوله عند اللّه تعالى وحده، وأنّي لا أستطيع تعجيله[1]، فإنَّ تفويض الأمرِ للّه تعالى أرسخُ في الجوابِ من الإيعاد المعيَّن؛ لأنَّه دليل الصِّدقِ، وبرهان الرَّحمة.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَجۡهَلُونَ﴾: (جهل) أصله خلاف العِلم[2]، فالجهلُ نقيض العِلم، تقول: جَهِلَ فلانٌ حقَّه، وجَهِلَ عليَّ، وجهل بهذا الأمر، والجَهالةُ: أن تفعلَ فِعلًا بغير عِلْم[3]، والعلم: تصوُّر الشَّيء بما هو عليه، أو تصديق لذلك، والجهل يقابله، والجهل ضربان: بسيط ومركب، وأقبحهما الثّاني؛ لأنَّ صاحبه يجهل، ويجهل أنَّه يجهل[4]، وهو على ثلاثة أقسام: الأوَّل خلوُّ النفس من العلم، هذا هو الأصل، والثّاني: اعتقاد الشَّيء بخلاف ما هو عليه، والثّالث: فعل الشَّيء بخلاف ما حقُّه أن يفعل[5]، والمراد به في الآية الكريمة: لا تعلمون[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 29، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهل).
(3) الخليل، العين: (جهل).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جهل).
(5) الراغب، المفردات: (جهل).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 115.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

العلمُ بآجال العذاب لله تعالى، ووظيفة الأنبياء الإنباء

يقول الله تعالى حاكيًا جواب هود عليه السلام لقومه؛ إذ قال لهم: إنَّما العلم بوقت مجيء العذاب الَّذي أنذرتكم به لله تعالى وحده، ولا علم لي به، وإنَّما أنا رسول الله إليكم، ما عليَّ إلّا أن أبلِّغكم عنه ما أرسلني به، ولكنَّكم قومٌ تجهلون، فتستعجلون العذاب، وتغفلون عمّا يراد بكم، وتجهلون أنَّ أمر العذاب هو من شأن الله تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل الآية عن السّابق:

فصل النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّه قيل: فبِمَ أجابهم على استعجالهم العذاب؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وموقعه البياني:

العلمُ بآجال الغيب لله تعالى وحده

عبَّر النَّظم الجليل بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهو قصر حقيقيٌّ[3]، جيء به للدَّلالة على نفي العلم بوقت العذاب عن نفسه، أي: لا علم لي بذلك[4]، فالله تعالى وحده يعلم متى ينزل ما توعدون به، ولا علم لأحد سوى الله[5]، وإيراد الرَّدِّ على طلبهم الإتيان بالعذاب من هود عليه السلام بأسلوب القصر يدلُّ على تأكيد مضمونه، فانتفاءُ العلم بوقته عنه مؤكَّد، فبيَّن لهم أنَّ إتيان العذاب ليس من شأنه، وأنَّ ما عليه هو التَّبليغ[6].

(1) الواحدي، البسيط: 20/ 192، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 505.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 165 - 166.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 47.
(4) الخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 34.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 166.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 300.

نوع (ال) في لفظ ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾:

العلمُ يحتمل المعهود والاستغراق

عرَّف النَّظم الجليل العلم بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهي دالَّة هنا على العهد؛ إذ المرادُ به العلم بوقت العذاب الَّذي استعجلوه[1]، ويجوز أن يُراد به الاستغراق، أي: "العلمُ بجميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُمَلتِها ذلكَ"[2]، أي: إذا كان علمُ كلِّ شيءٍ عند اللّه تعالى؛ فإنَّ العلمَ بمجيءِ العذاب عنده كذلك.

دلالةُ استعمالِ ﴿عِندَ﴾ المجازيَّة:

العلمُ بالغيب قدرة مِن ملكِ الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف ﴿عِندَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهي هنا عنديَّة مجازيَّة، والمراد الدَّلالة على الانفراد بالعلم، فاللّه تعالى وحده العالم بوقت حلول العذاب[3]، فكأنَّ العلمَ محوز في مكان لا يطَّلع عليه أحدٌ.

نكتةُ التَّعبير بعنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة:

الإلهُ الخالق مطَّلع على الغيوب وحده

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ من صفات الألوهيَّة معرفة الغيب، فاللّه تعالى هو المنفرد وحده بعلم الغيوب[4]، وهو المحيط بصفات الكمال، فالعلم بوقت حلول العذاب ونزوله للّه تعالى وحده[5].

غرضُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة الخبريَّة:

إنزالُ العلمِ مفوَّضٌ لله تعالى

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّهم لمّا قالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وهو طلب التَّعجيل بالعذاب، فأجابهم بأنَّه لا علم له بوقت حصول العذاب، إنَّما علم ذلك عند اللّه تعالى[6]، فهو تفويض بالعلم، وتأكيد للمضمون.

(1) الخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 34.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 85.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 166.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 24.

نوع الواو ودلالتها في صدر الجملة:

وظيفة الدّاعي التّبليغ، وآجال الغيب لله

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، وهي هنا اعتراضيَّة بين الجملتين، بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقوله عزَّ ذكره: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾[1]، جيء بها لبيان وظيفته المنحصرة بالتَّبليغ، أي: "وأمّا أنا؛ فإنَّما وظيفتي التَّبليغ"[2].

دلالةُ استعمال مفردة التَّبليغ:

التَّبليغُ إنذار وتعليم ودعوة

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة التَّبليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ دون الإنذار؛ لأنَّ الإنذار جزءٌ من التَّبليغ، والتَّبليغ أعمُّ، فوظيفته التَّبليغ عن اللّه تعالى، ومن ضمن ذلك التَّخويف من العذاب، فهو يبلِّغ بجميع ما أمره تعالى أن يخبر به قومه من الشَّريعة والتَّوحيد والإنذار[3]، ففيه إيماءٌ إلى رحمتِه بقومِه وحرصِه الشَّديد على إنقاذِهم ممّا هم فيه، أي: أنَّه "بُعِث مبلِّغًا أمرَ اللّه وإنذاره، ولم يبعث للإعلام بوقت حلول العذاب"[4]، وآثر التَّعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد التَّبليغ ودوامه[5].

نوع ﴿مَّآ﴾ ودلالتها:

﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ اسم موصول[6]؛ جيء بها لتفخيم شأن الرِّسالة؛ وذلك لما في ﴿مَّآ﴾ من إبهام، فناسبت مقام التَّفخيم.

غرضُ التَّعبيرِ بالإرسال مادَّة وصيغة:

وظيفةُ الرّسول التّبليغ والإنذار لا تقرير الآجال

عبَّر النَّظم الجليل بالإرسال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.
(2) القنوجي، فتح البيان: 13/ 31.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 166.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 191.

﴿أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه محمَّل رسالة، وجاءت صيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق الإرسال ووقوعه، وبني الفعل للمفعول؛ لأنَّه من المعلوم أنَّه لا مرسل غير اللّه تعالى[1]، وإنَّما آثر البناء للمفعول هنا؛ لأنَّ السّياق في بيان وظيفته، فيكون الأهمُّ بيان أنَّه مرسل، لا أنَّه مرسل من معيَّن.

نوعُ الباء ودلالتُها:

استعمل النَّظم الكريم حرفَ الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، وهي في أصلها دالَّة على معاني الملابسة والإلصاق؛ لأنَّ النَّبيَّ لا ينفكُّ عن دعوته، ويمكن أن تكون هنا دالَّة على السَّببيَّة، أي: أبلِّغكم ما أُرسِلت لأجلِه من الإنذار والتَّوحيد.

نكتةُ حذف حرف الغاية:

بـيـانُ وظـيـفـةِ الرِّسالة مقدَّمٌ على بيانِ المرسلِ إليهم

حذف النَّظم الجليل حرف الغاية (إلى) من فعل الإرسال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، فلم يقل: (ما أرسلت به إليكم)؛ وذلك لأنَّ ما أرسل به ﷺ صالحٌ لكلِّ أحد[2]، كما أنَّه يُراد بيان وظيفته بأنَّه مرسل لا علم له بأجل العذاب، فيكون مطلق الإرسال هو المراد لا بيان من أرسل إليهم.

معنى الواو ودلالتها:

العلمُ ثابتٌ لله وحده والجهلُ واقعُ المشركين

لمّا حصر العلم على اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ عطف عليه نسبة الجهل للمخاطَبين: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ تقريعًا لهم وتوبيخًا، فلمّا آثروا العناد على الاستماعِ؛ استحقّوا مزيدًا من التَّقريع والتَّبكيت، ببيانِ واقعِهم الَّذي هم عليه.

فائدةُ (لكن) ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الاستدراك في قوله جلَّ شأنه:

---

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 14.
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 14.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾؛ ردًّا على ظنِّهم بقدرة الرُّسل على إيقاع الموعود، فلمّا نسب العلم إلى اللّه تعالى على وجه الحصر؛ استدرك عليهم جهلهم بصفات اللّه تعالى وحكمة إرسال الرُّسل[1]، الَّذي أوقعهم بإنكار ما هو قريبُ الوقوع، وأفاد الاستدراكُ بيانَ حالهم من الجهل، بعد أن لم يصرِّح به؛ فنزَّل نفسَه منزلةَ من هو غير متأكِّد من واقعهم، ثم لمّا تأكَّد؛ أثبته استدراكًا؛ لقطع مطامع الرَّجاء فيهم.

عند انقطاعِ سُبُل الرَّجاء تظهرُ حقائق البلاء

نوعُ الرؤيةِ ونكتة استعمالها دون العلم:

ظهورُ الجهلِ بيِّنٌ لكلِّ باصر

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّؤية؛ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، إشعارا لهم بأنَّ جهلهم ظهر ظهورًا تامًّا بحيث يكون محلًّا للرُّؤية[2]، بحيث إنَّ ظهورَ جهلِهم بيِّنٌ لكلِّ باصر.

غرضُ ذكرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

من قامَ بالجهل؛ عوقِب به

آثر النَّظمُ الكريم ذِكرَ لفظ القوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ ؛ لإظهار تمكُّن الجهالة منهم حتّى صارت من مقوِّمات قوميَّتهم، حيث إنَّها عمَّت جميع القبيلة[3]، وأنَّهم قاموا على الجهلِ باللّه تعالى وبرسالاته وبرسله، وهذا من أفظع التَّشنيع على القوم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجهل مادَّة وصيغة:

الإصرارُ على الكفر في معرض الحجَّة والبيان غاية الجهل والخذلان

عبَّر النَّظم الجليل بمفردة الجهل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾؛ ليصفهم بالجهل لإصرارهم على الكفر وامتناعهم عن الهداية بما جاءهم به عليه السلام من بيِّنات، ولأنَّهم طلبوا من الرَّسول ما ليس من شأنه، وهو الإتيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 481.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.

بالعذاب، كما أنَّ استعجال العذاب دون الإيمان والاتِّباع غاية الجهل[1]، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّهم يوقعون الجهل على سبيل التَّجدُّد والاستمرار[2].

نكتةُ حذف متعلّق فعل ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

الجهل سلوكٌ لازمٌ للمعاندين وآثاره تعمُّ المكذِّبين

حذف النَّظم الجليل متعلِّق فعل (جهل) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾؛ ليكون تقديره مفعولًا عامًّا لكلِّ شيء[3]، أي: تجهلون عظمة اللّه تعالى وصفاته، وتجهلون ما يراد بكم من العذاب، وتجهلون أنَّ أمر العذاب هو من شأن اللّه تعالى[4]، فهو مبالغة في جهلهم؛ إذ إطلاقُ الجهل أبلغُ في إثبات شدَّته من تقييده بمجهول واحد، أو لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللازم، أي: أنتم قومٌ جاهلون.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البعث والإرسال:

الإرسال أخصُّ من البعث، فهو مخصوص بالرِّسالة

البعث أعمُّ من الإرسال؛ لأنَّه يجوز أن يبعث الرَّجل إلى الآخر لحاجة تخصُّه دون المبعوث إليه، كالصَّبي يُبعث إلى المكتب، فتقول: بعثته، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها[5]، وفي الآية آثر التَّعبير بالإرسال؛ لأنَّه بُعِثَ برسالة، فمعنى "الإرسال أنَّه تعالى حمَّله رسالة يؤدّيها"[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 24، والنيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 167.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 481.
(4) الواحدي، البسيط: 20/ 192.
(5) العسكري، الفروق، ص: 289.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/ 82.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 24 - 25]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعد العنادِ في الاستعجال بالجزاء يأتي الإيفاء بالوعيد وإنفاذ التَّهديد

لمّا ذكر النَّظم الجليل في الآيات السّابقة استعجالَ قومِ هودٍ عليه السلام العذابَ وما أتبعه من جواب هودٍ لهم وإخبارهم بأنَّ العلم بوقته إنَّما هو للّه تعالى، وإنَّما هو مبلِّغ بما أرسل اللّه به، ناسب أن يذكر بعد ذلك مجيء العذاب وإقباله عليهم، وانتقامه منهم واستئصالهم[1]؛ فليس بعد العنادِ والإصرار على المناداة على العذابِ إلّا نزولُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَارِضٗا﴾: (عرض) أصله العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[2]، والعارض من كلِّ شيء ما استقبلك كالسَّحاب العارض ونحوه، والعَرْضُ: السَّحاب[3]، والعارِضُ: البادي عَرْضُهُ، فتارةً يُخَصُّ بالسَّحاب نحو: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾، وبما يَعْرِضُ من السَّقَم، فيُقال: به عارِضٌ من سُقْمٍ، وتارة بالخدِّ نحو: أخَذَ من عارِضَيه، وتارة بالسِّنِّ، ومنه قيل: العَوارِضُ للثَّنايا الَّتي تظهر عند الضَّحك[4]، والمراد به في الآية الكريمة: السَّحاب الَّذي يُرى في ناحية السَّماء[5].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 30، وينظر: البقاعي، نظم الدرر: 18/ 167 - 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(3) الخليل، العين: (عرض).
(4) الراغب، المفردات: (عرض).
(5) الواحدي، البسيط: 20/ 193.

2) ﴿مُّسْتَقْبِلَ﴾: (قبل) أصل يدلُّ على مواجهة الشَّيء للشَّيء[1]، والقُبْل: من إقبالك على الشَّيء، ومُقابَلة وقُبالةٌ: ما كان مستقبل شيء[2]، والقَبْل والإقبال والاستقبال: التَّوجُّه[3]، والاستِقبالُ: ضدُّ الاستِدبارِ، واستَقبَلَ الشَّيءَ، وقابَلَهُ: حاذاهُ بِوَجْهِهِ[4]، ومن الاتِّجاه إلى الشَّيء: قَبَلَتِ الماشيةُ أفواهَ الوادي: استَقْبَلته، أي: سلكت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾[5]، والمراد به في الآية الكريمة: مقابِلَ أوديتهم متوجِّهًا إليها[6].

3) ﴿تُدَمِّرُ﴾: (دمر) أصل واحد يدلُّ على الدُّخول في البيت وغيره[7]، ودَمَرْتُ الدّارَ: دَخَلْتُها، والدُّمورُ: الدُّخولُ على القَوم بلا إذنٍ[8]، والدَّمار: استئصال الهلاك، دَمَرَ القَومُ يَدمُرون دمارًا: هلكوا[9]، وأصل التَّدمير إدخال الهلاك على المُهلَك، يقال: دمر، أي: دخل، ودَمَروا، أي: هلكوا بدخول الهلاك عليهم، والتَّضعيف فيه للتَّعدية[10]، والمراد به في الآية الكريمة: الإهلاك والاستئصال[11].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تفجيعُ الجاهلين بأنَّ السَّحاب عذاب نقمةٍ، لا غيثُ رحمة

يخبر النَّظم الكريم أنَّ عادًا لمّا رأوا السَّحاب عارضًا في أفق السَّماء؛ استبشروا به، وظنّوه مطرًا يسقي أرضهم قد توجَّه إلى أوديتهم، فقالوا: هذا سحاب ممطر لنا، فقال مُضربًا عن قولهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(2) الخليل، العين: (قبل).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (قبل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قبل).
(6) الخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 34.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (دمر).
(9) الخليل، العين: (دمر).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمر).
(11) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.

هذا مبطلًا له: هذا ليس سحابَ مطرٍ ولا غيثَ رحمةٍ - كما ظننتم - بل هو العذاب الَّذي استعجلتموه، فهو ريح تحمل العذاب الأليم، وإنَّها تهلك كلَّ شيء تمرُّ به من نفوس وأموال بإذن ربِّها الَّذي أرسلها، فصاروا بعد ذلك في حالة لا يرى المارُّ بديارهم إلّا آثار مساكنهم؛ إذ جعلت الأنفس والأموال أثرًا بعد عين، ومثل ذلك الجزاء العظيم نجزي كلَّ مجرمٍ بسبب كفره وإجرامه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء ودلالتها:

مـجـيءُ العـذابِ بعد التَّكذيب تحقُّقٌ واستحقاق

افتتح النَّظم الجليل الجملة بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾، وهي تحتمل أن تكون الفصيحة، تفصح عن محذوف مقدَّر، أي: أتاهم ما استعجلوه، فلمّا رأوه[2]، فطوى النَّظم ذكر ما حدث بين تكذيبهم هودًا عليه السلام، وبين نزول العذاب بهم، وتحتمل أن تكون للتَّفريع والتَّعقيب السَّريع؛ للدَّلالة على أنَّ ما استعجلوه قد لحقهم، ولم يتأخَّر عنهم، فقد فرَّعت بقيَّة القصَّة على ما سبق ذكره منها[3].

دلالةُ استعمال (لمّا) الحينيَّة المتضمِّنة معنى الشَّرط:

المبادرةُ بالاستبشار والغفلة عن الوعيد دليلُ الجهلِ الأكيد

عبَّر النَّظم الجليل بـ (لمّا) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾، وهي هنا ظرف زمان بمعنى (حين)، وهي تربط بين جملتين ربط الشَّرط بجوابه[4]، "أي: فلمّا رَأوا السَّحاب الَّذي نشأت منه الرّيح الَّتي عُذِّبوا بها قد عَرَضت في السَّماء؛ قالوا الَّذي وعَدّتَنا به سحابٌ فيه الغيث والحياة

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 30 - 32، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 505.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 481.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 49.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 44.

والمطر"[1]، فدلَّ ذلك على أنَّهم بادروا بقول ذلك وقت رؤيتهم السَّحاب دون تروٍّ منهم؛ إظهارًا لسخريتهم بما وعدهم به.

نوع الرُّؤية ونكتة استعمالها في قوله: ﴿رَأَوۡهُ﴾:

رؤيةُ العذابِ بالعين إدراكٌ للمرئيِّ لكن هيهات مع مطموسِ البصيرة

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الرُّؤية في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾، وهي هنا رؤية بصريَّة، أي: أبصروه[2]؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ العذاب الَّذي احتواه السَّحاب الأسود الَّذي قصدهم قد ظهر في الأفق بحيث يراه كلُّ مبصر[3]، وعبَّر بالرُّؤية دون البصر؛ لأنَّ البصر يُقال للجارحة النّاظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: 77][4]، أمّا الرُّؤية؛ فهي إدراك المَرئِيِّ بحاسَّة البصر[5]، فالرُّؤية إدراك ما يُبصَر، وفائدة التَّعبير عن كونهم رأوه؛ "للإشعار بأنَّ جهلكم ظهر ظهورًا تامًّا بحيث يكون محلًّا للرُّؤية"[6]، فمن أبصر العذاب؛ كان حريًّا به أن يستجيب لأسباب دفعه، ولكن لجهلهم تمادوا حتّى في ساعة حلوله عليهم؛ إيغالًا منهم في الجهل والتَّمادي.

بيانُ مرجع الضَّمير:

إبهامُ ذِكرِ العذابِ أشدُّ وقعًا في البيان

أجاز أئمَّة التَّفسير في الضَّمير المنصوب في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ أن يكون عائدًا على ما بعده وهو السَّحاب، أي: على قوله: ﴿عَارِضٗا﴾، أي: فلمّا رأوا السَّحاب عارضًا؛ فهو مبهم، يفسِّره ما بعده[7]، وهذا الوجه مقبولٌ؛ لأنَّ تقديمَ الإبهام، ثمَّ تعقيبه بالتَّوضيح أوقع في النُّفوس[8]، ويجوز أن يكون عائدًا

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 445.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 69.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 168.
(4) الراغب، المفردات: (بصر).
(5) الراغب، المفردات: (رأى).
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 481.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 25، والإيجي، جامع البيان: 4/ 130.
(8) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 481.

على ما قبله، وهو (ما) في قوله: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: فلمّا رأوا ما يعدهم به عارضًا[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالعارض دون السَّحاب:

العارضُ أخصُّ من السَّحاب، فهو يملأ عرض السَّماء وأفقها

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العارض دون السَّحاب في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾؛ وذلك لبيان هيئته حال رؤيتهم له، فقد عَرَض لهم في أفق السَّماء[2]، فسُمّي السَّحاب بذلك؛ لأنَّه يظهر، ويبدو في عرض السَّماء[3]، فأتى بالصِّفةِ دون الموصوف، ونزَّلها منزلةَ الموصوف؛ لبيان شدَّة انخداعِهم بأنفسِهم، وقوَّة عذاب اللّه تعالى المباغت.

بلاغةُ الإسناد المجازيِّ:

إسنادُ العروض للسَّحاب دليلُ قوَّته وقصديَّته

التَّعبير بالاستقبالِ هو من بيانِ الواقع الصّادق الَّذي أخبر عنه القرآن، فدلَّ ذلك على المجاز في لفظ: ﴿عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾؛ لما فيه من القصد الإسناديِّ، أي: عرض السَّحاب مستقبلًا أوديتهم، فهو إسنادٌ مجازيٌّ، قصد به النَّظمُ بيانَ قوَّة السَّحاب القادم في استقبالِ الأودية؛ لإيقاع ما استعجلوا به من العذاب المبين، وأنَّه قصدٌ صادرٌ عن أمرٍ إلهيٍّ؛ فإسنادُ الأفعالِ لغير العقلاءِ إسنادٌ مجازيٌّ عقليٌّ.

نكتةُ استعمال ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ﴾ مادَّة وصيغة:

بيانُ شدَّةِ الاقترابِ المقابلِ لشدَّة الغفلةِ

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الاستقبال في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه كان متوجِّهًا إليهم، فهو يقصُدُهم مستقبلَ أوديتهم؛ ليوقع بهم أمرَ اللّه تعالى، وقد كانوا ذلك الوقت - فيما يُروى - مجدبين، حبس عنهم المطر، فلمّا توجَّه إليهم؛ استبشروا، وحسبوه سحابًا مثقلًا بالغيث؛ توجَّه إلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 25.
(2) الإيجي، جامع البيان: 4/ 130.
(3) القنوجي، فتح البيان: 13/ 32.

بلادهم[1]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الاستفعال؛ للدَّلالة على الطَّلب، أي: قصدهم، وطلبهم متوجِّهًا إليهم[2].

توجيهُ تخصيص الأودية بالذِّكر:

الأوديـةُ منزل النّاس وموئل المياه

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكرَ الأودية في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾؛ لأنَّهم كانوا ينزلون الوادي، وهو يطلق على منزل القوم ومحلِّ سكناهم، فهُم ينزلون فيه؛ لأنَّه مقرُّ المياه[3]، ولأنَّ ما تمنَّوه، وأرادوه أن يكون المطر نازلًا على الأودية الَّتي هي موطن زراعتهم وموئل مائهم، وفي اختيار لفظ الأودية إيماءٌ إلى أنَّ السَّحاب جاءَ من جهتِها ثم باغتهم العذاب، وهذا من بديع تصويرِ القرآنِ؛ لما وقع لهم من طمأنينة الأمر، ثم نزول العذاب.

نكتةُ جمعِ الأودية:

جاء ذِكر الأودية جمعًا مضافًا إلى الضَّمير العائد على عادٍ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾؛ لبيانِ كثرتِها، المشيرة إلى وفرةِ الخير فيها، وأنَّهم ملكوها بالانتفاع.

الموقعُ البيانيُّ لجملة جواب (لمّا):

التَّعجُّل بالاستبشار في مقامِ الوعيدِ إطباق غفلة

جاء قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾؛ جوابًا لـ (لمّا)، فهي جملة جواب الشَّرط[4]؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم قالوا ذلك حال رؤيتهم السَّحاب في عرض السَّماء، فلم يتأخَّر قولُهم عن رؤيتهم، وهو ما يومئ إلى العجلةِ في القولِ، دون تنبُّهٍ لما بعد العارضِ من ممّا سيكون من نزولِ الأمر الموعودين به، وهو ما يُصوِّر إطباقَ الغفلةِ الَّتي وقعوا فيها، وتمام السَّكرة الَّتي أُشربوها.

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 168.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 49.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 192.

تصويرُ حالةِ الاستبشارِ بالخيرِ والفرحِ بالمجهولِ

نكتةُ ذِكر المسند إليه ﴿هَٰذَا﴾:

ذكر النَّظمُ الجليل اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ إشارة إلى ظهور السَّحاب أمام أعينهم، وأنَّهم قالوا ذلك بعد أن رأوه بأمِّ أعينهم، وعبَّر بصيغة القرب؛ للدَّلالة "على أنَّهم في غاية الجهل؛ لأنَّ جهلهم به استمرَّ حتى كاد أن يواقعهم"[1]، ولم يأتِ النَّظمُ بهذا الأسلوبِ: (قالوا عارض ممطرنا)؛ وذلك لتصويرِ حالهم، وهم يُشيرون إلى السَّحاب في جوِّ السَّماء من مبدأ رؤيته؛ استبشارًا به، وبما يكون معه من الخيرِ العميم، فاسم الإشارةِ لاستحضارِ صورة حالتِهم الَّتي تُنبئُ عن احتياجهم، وأمّا اختيارُ اسم الإشارة القريب دون البعيد؛ لبيان استقرابهم لخيره.

لا يغيث شدَّة قحطهم إلّا مطر شديد

نكتةُ استعمالِ لفظ المطر، ودلالة إضافته:

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ المطر في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ دون الغيث؛ لأنَّه لمّا سيق مساق العذاب، وكان شديد السَّواد حتّى ظنّوه ممتلئًا ماءً، يُغاثون به بعد القحط[2]، وقد ذكر أئمَّة التَّفسير أنَّ القرآن دأب على استعمال (أمطرْنا)؛ لمّا كان عذابًا، وأنَّ (مُطِرنا) تُستعمَل لمّا كان رحمة، أمّا في لغة العرب؛ فهما سيّان[3]، والَّذي جاء في الآيةِ بناءً على استبشارِهم، فهُم رأوه ممطرًا بمعنى يأتي بالماءِ من السَّماءِ، والإضافة فيه ليست حقيقيَّة؛ لأنَّه مضاف إلى معموله، والتَّقدير: ممطر إيّانا، ولذا صحَّ أن يأتي صفة لـ (عارض)، وهو نكرة[4].

سرعةُ الاستئصال بلا ذكر فعل المقال

نكتةُ حذف فعل القول قبل حرف الإضراب:

حذف النَّظم الجليل فعلَ القولِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 168.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مطر).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 25، والخفاجي، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 8/ 34.

﴿مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فلم يقل: (قال بل هو)؛ للدَّلالة على أنَّ الحال لم يكن فيه قول، لسرعة الاستئصال، وتحقُّق الدَّمار[1]، فالحدث وقع سريعًا مباغتًا، وهو ما يُناسب الاستعجال، ويجوز أن يكون القولُ من قول هود عليه السلام؛ إن كان بين ظهرانيهم، ولم يكن خرج قبل ذلك إلى مكَّة، أو هو من قول بعض رجالهم، رأى مخائل الشَّرِّ في ذلك السَّحاب، وإنَّما حذف فعل القول لتمثيل قائل القول كالحاضر وقت نزول هذه الآية، وقد سمع كلامَهم، وعلم غرورهم، فنطق بهذا الكلام ترويعًا لهم، وهذا من استحضار الحالة العجيبة[2].

بلاغةُ استعمال حرف الإضراب:

إبطالُ الاستبشار والتَّعجيل بخبر التَّنكيل

عبَّر النَّظم الجليل بحرفِ الإضراب في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وذلك لنقض قولهم؛ إبطالًا لاستبشارهم، وتعجيلًا لهم بالمساءة[3].

نكتةُ التَّعبير بالضَّمير دون اسم الإشارة:

ما استعجلوه هو السَّحاب الماثل لهم عينه

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ دون اسم الإشارة، فلم يقل: (هذا ما استعجلتم به)؛ للدَّلالة على أنَّ العذاب هو عين ما استعجلوه، ولاستحضار ما شاهدوه بذاته لا بالإشارة إليه؛ فإنَّ التَّعريف بالضَّمير أقوى من تعريف الإشارة.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتها:

المُستعجلُ من العذابِ هو المُستبشَرُ من السَّحاب

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾، أي: العارض الَّذي ترونه[4]، وجيء

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 301.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 50.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 14.

بالموصول؛ لما في حيِّز الصِّلة من تعريف المذكور، فما استبشروا به هو ذاته ما استعجلوه من العذاب، كما أنَّه يدلُّ على تفخيم شأن المذكور وتهويله، لما في ﴿مَا﴾ من الإبهام.

براعةُ استعمال فعل ﴿ٱسۡتَعۡجَلۡتُم﴾ مادَّة وصيغة:

سؤالُ العذاب تعجيل له وطلب لإنفاذه

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظِ العجلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لدلالة العجلة على طلب الشَّيء وتحرّيه قبل أوانه[1]، وجاء التَّعبير بصيغة الاستفعال؛ للدَّلالة على أنَّهم بالغوا، وتكلَّفوا في طلبهم تعجيل العذاب[2]، واستعجالهم العذاب إشارة إلى قولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

نوع الباء ودلالة استعمالها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾، وهي هنا للتَّعدية، أي: ما طلبتم العجلة في إتيانه من العذاب[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رِيحٞ﴾، ودلالة تنكيره:

الرّيحُ سببُ العذاب الحاملة له

عدل النَّظم الجليل عن العارضِ إلى ذكر لفظ الرّيح في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لأنَّ الرّيح هي السَّبب بجمع ذلك السَّحاب وركمه[5]، وجاء التَّعبير بصيغة التَّنكير؛ تعظيمًا لشأن الرّيح وتهويلًا لها، أي: إنَّها ريح عظيمة ركمت السَّحابَ الَّذي ترونه، فقد جاءتكم بالعذاب، لا بالغيث الَّذي تظنّون.

بلاغةُ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة:

الرّيحُ العاصفة اشتدَّت حتّى كأنَّها العذاب نفسه

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّة في

(1) الرّاغب، المفردات: (عجل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 169.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 30.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 14.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 169.

قوله جلَّ شأنه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والمرادُ من الظَّرفيَّة هنا بيان شدَّة الملابسة بين العذاب والرّيح، وذلك للمبالغة في تسبيب الرّيح للتَّعذيب[1]، فصار العذابُ مظروفًا في الرّيح، وهي حاوية له.

نكتةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على ﴿عَذَابٌ﴾:

تأخيرُ العذاب تهويل له واهتمام بشدَّة الرّيح

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فلم يقل: (عذابٌ أليم فيها)؛ اهتمامًا بشأن الرّيح؛ لأنَّها هي آلة العذاب وظرفه وسببه، وأخَّر العذاب تهويلًا له.

نكتةُ استعمالِ ﴿عَذَابٌ﴾ دون (عقاب) وتنكيره:

التَّصريح بالإيجاع الشَّديد أبلغُ في بيان التَّنكيل

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالعذاب دون العقاب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لدلالة العَذابِ على الإيجاع الشَّديد[2]، أمّا العقاب؛ فهو ما يكون عقب الذَّنب ومتأخِّرًا عنه[3]، فعبَّر النَّظم الجليل بالعذاب؛ لأنَّ المرادَ بيانُ ألم العذاب وشدَّته لا أنَّه وقع عقب ذنوبهم وكفرهم، وأمّا الغرضُ من تنكيره؛ فهو تعظيمه.

بلاغةُ الوصف بلفظ ﴿أَلِيمٌ﴾:

وصفُ العذابِ بالألم أخصُّ من وصفه بالشِّدَّة

آثر النَّظمُ الكريم وصف العذاب بالألم دون الشِّدَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دون أن يقول: (عذاب شديد)؛ لأنَّ لفظَ الشِّدَّة يدلُّ على قوَّة في الشَّيء[4]، فهو يدلُّ على شدَّة مطلقة، أمّا التَّعبير بأليم؛ فإنَّه يبيِّن أنَّ الشِّدَّة كائنة في الألم، فهو شديد الإيلام[5]، فهو تصريح بنوع الشِّدَّة، وهو الإيلام، ثمَّ إنَّ الأليمَ وصفٌ للعذابِ، والرّيح هي الشَّديدة، فدلَّ النَّظم على اجتماع شدَّة الرّيح، وألم العذابِ الَّذي فيها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 50.
(2) الراغب، المفردات: (عذب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شد).
(5) الخطيب، السراج المنير: 4/ 14.

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿تُدَمِّرُ﴾ دون (تهلك) مادَّة وصيغة:

إدخالُ الهلاك أفظع من مطلق الهلاك

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّدمير دون الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ وذلك لدلالة أصله على الدُّخول في الشَّيء[1]، ومنه التَّدمير: وهو إدخال الهلاك على الشَّيء[2]، فكأنَّ الهلاك ذاتٌ أُدخِلت عليهم، فهو أبلغ من التَّعبير بالإهلاك؛ إذ دلَّ على حلول الهلاك ونزوله بدل المطر؛ لذلك فسَّرَه البقاعيُّ بالشِّدَّة، وفسَّر معنى الدُّخول فيه بالهجوم، "أي: تهلك إهلاكًا عظيمًا شديدًا سريعًا، تأتي بغتة على طريق الهجوم"[3].

دلالةُ لفظِ العموم ﴿كُلَّ﴾ وإضافته إلى شيء:

عمومُ كلِّ مخصوص بأنفسهم وأموالهم

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ العموم ﴿كُلَّ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، والمراد به الخصوص[4]، فالمراد به نفوسهم وأموالهم[5]، كما أنَّه يدلُّ على الكثرة هنا، فهو مستعمل في كلام العرب بمعنى الكثرة، أي: تدمِّر ما من شأنه أن يهلك بالرِّيح العاتية من الإنسان والحيوان والديار[6]، وفي إضافة ﴿كُلَّ﴾ إلى لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ دليل العمومِ الاستغراقيِّ، فهو يعمُّ كلَّ ما من شأنِه أن يقع عليه التَّدمير، فلا تنجو منهم نفسٌ، ولا يُنقذ منهم أحد، ولا يبقى لهم أثرٌ فاعل في الحياةِ.

نوع الباء ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، وهي هنا دالَّة على السَّببيَّة، أي: بسبب أمر ربِّها[7]، وفائدة ذلك الرَّدُّ على من توهَّم أنَّها مؤثِّرة بنفسها[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(2) الراغب، المفردات: (دمر).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 169.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 278.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 86.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 50.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 50.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 169.

العذابُ بأمر الله لا من شأن الطَّبيعة

معنى لفظِ الأمر ودلالته:

عبَّر النَّظم الجليل بلفظِ الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ ما وقع من هلاك ودمار إنَّما هو بقدرة اللّه تعالى، وأنَّها تفعل ما تفعل؛ لأنَّها مأمورة من اللّه تعالى[1]، فإهلاكها ليس من الطَّبيعة والأنواء، بل هو أمر حدث ابتداءً من اللّه تعالى لأجل تعذيبهم[2].

حركةُ الرّيح إرادةٌ ربّانيَّة وحكمةٌ سنيَّة

دلالةُ إضافة لفظِ الأمر إلى عنوان الرُّبوبيَّة:

أضاف النَّظم الجليل لفظَ الأمرِ إلى عنوان الرُّبوبيَّة في قولِه جلَّ شأنه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الرّيح إنَّما تتحرَّك بمشيئته تعالى، فلا توجد نابضة ولا قابضة ولا حركة ولا سكون إلّا بمشيئته، وللدَّلالة على انتفاء معارضته، فهو أمرٌ نافذ على الحتم[3]، والإضافة بمعنى (من)، أي: بأمرٍ من ربِّها، وأُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الرّيح؛ للدَّلالة على عظمة شأنها، وبيان أنَّها جنديٌّ من جنوده تعالى، كما أنَّه يشير إلى عظمة بارئها، فإنَّ مثل هذه الرّيح العظيمة مملوكة له، منقادة لأمره[4].

التَّدميرُ بالرّيح من آثارِ رعايةِ الرُّبوبيَّة للخلقِ

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه هو المبدع والمربّي لها، والمحسن بتكوينها للانتقام ممَّن يستحقُّ العقاب من عباده[5]، فإيجاد الرّيح وجعلها آلة من آلات العقاب محسن إلى النّاس باستئصال من يعارض الفطرة الَّتي رضيها اللّه تعالى لهم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 301.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 25.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 115، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 449.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 304.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 170.

نوع الفاء في قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ ودلالتها:

قبل الهلاك عاينوا شدّة الرّيح وذاقوا ويل العذاب

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ بالفاء، وهي هنا الفاء الفصيحة؛ إذ دلَّت على محذوفٍ دلَّ عليه السّياقُ، "أي: قال لهم هود ذلك، ثمَّ أدركتهم الريح، فأبادتهم، فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنهم"[(1)].

براعةُ التَّشبيهِ في استعمال مفردة ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

تشبيهُ أيّام العذابِ ولياليه بليلةٍ مظلمةٍ واحدةٍ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالإصباح في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾، والمراد به معنى مطلق الكون، أي: (صاروا)، وهو ليس متعلِّقًا بالإصباح، وإنَّما عبَّر بالإصباح؛ لأنَّ المصيبة فيه أعظم[(2)]، فـ (أصبحوا) بمعنى صاروا؛ لأنَّه ليس المراد أنَّ تدميرَهم وقع ليلًا، فقد دُمِّروا أيامًا وليالي، فهلك بعضهم في الصَّباح، وبعضهم في المساء[(3)]، كما أنَّ التَّعبير بالإصباح يشير إلى شدَّة هلاكهم، فهُم فَنوا فناءً تامًّا بحيث انتفت رؤيتهم حتّى وقت الإصباح، الَّذي تتَّضح فيه الأشياء، فذكر الإصباح باعتبارِ آخر يومٍ مرَّ بعد تدميرِ الرّيح، ففيه تصويرُ مشهدِ الإصباحِ بعد مرور ظلمة أيّام العذاب والهلاك، كما أنَّ فيه تشبيهًا لأيّام العذاب ولياليه بليلةٍ واحدةٍ، ثمَّ أصبح النَّهار بعد ذلك بانعدام رؤيةِ شيءٍ إلّا مساكنهم.

براعةُ التَّعبير بأسلوب القصر:

هذه الدّيارُ، فأين الكفّار الَّذين جحدوا ربَّهم؟

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستثناء في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾؛ لنفي رؤية كلِّ شيء وإثباتها للمساكن، فحصر الرُّؤية بالمنازل؛ تعبيرًا عن شدَّة الهلاك، أي: لو حَضَرَ مَن حَضر، فإنّ تحقّق المعاينة لن تقع إلا على أطلال منازلهم البائدة فقط[(4)].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 302.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 170.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 115.

كنايةٌ عن تمامِ الاستئصالِ وكمالِ الاجتثاث

دلالةُ بناء المضارع ﴿يُرَىٰٓ﴾ للمفعول:

في قوله تعالى ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ قراءتان، إحداهما ببناء فعل الرؤية للمفعول مُذكّرًا، وهي قراءة عاصم وحمزة ويعقوب وخلف[1]، ودلَّ التَّعبيرَ عن الرُّؤية بالفعل المبنيِّ للمفعول هنا على انتفاء مطلق الرُّؤية، لا عن راءٍ ما، وجاء ذلك تأكيدًا؛ لنفي رؤية أيِّ شيء غير المساكن، والتقدير: (لا يُرَى النّاسُ لِأَنَّهُم كانوا تَحْتَ الرَّمْلِ، وإنَّما تُرَى مَساكِنُهُم لِأنَّها قائِمَةٌ)[2]، وتعبيرًا عن شدَّة الإهلاك والاستئصال، فمهما استمرَّ نظرُ الرّائي؛ فلن يرى إلّا المساكن؛ فهي كنايةٌ عن تمام الاستئصال، وكامل الاجتثاث.

الفرعُ المستثنى لا يحكم على الأصل في الاستعمال

علَّةُ تذكيرِ فعل ﴿يُرَىٰٓ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الرُّؤية بصيغة المذكَّر الغائب على قراءة عاصم وحمزة ويعقوب وخلف[3] في قوله تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾؛ والمساكن مؤنّث، وتوجيه ذلك أنَّه تأنيث غير حقيقيٍّ، وفصل بينه وبين الفاعل بـ ﴿إِلَّآ﴾[4]، ونكتة ذلك بيانيًّا، أنَّ الغالب في الاستعمالِ هو المذكَّر، والمنفي هو ما يتوقَّع أن يراه الإنسانُ، فيدخل فيه المذكَّر الغالب والمؤنَّث، فلمّا نفى أن يُرى شيءٌ؛ كان على الأصلِ؛ لأنَّ المنفيَّ مذكَّرٌ، ولم يُعلم أنَّ الذي سيُذكر مؤنَّث، فجاء على الأصلِ على هذا الوجه، والاستثناء له حكم الفرعِ، ولا يحكم الفرع على الأصل.

بلاغة القراءة بالخطاب والبناء للمعلوم في فعل الرؤية:

وثاني القراءتين هي: ﴿ لَا تَرىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنَهُمۡۚ ﴾ ببناء فعل الرؤية للفاعل المخاطَب، ونصب لفظ ﴿ مَسَٰكِنَهُمۡۚ ﴾ وبها قرأ الحرميان والبصريان وابن عامر والكسائي، ووجهه أنه خطاب للنبي ﷺ، فهو

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 373.

(2) نقله القرطبي عن الفراء، يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 208.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 373.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.

فاعل ﴿تَرىٰٓ﴾، وانتصب (المساكن) بوقوع الفعل عليها، لأنّ الرؤية هنا من رؤية العين، فتتعدّى إلى مفعول واحد، والتقدير: (لا ترى شيئًا إلا مساكنَهم، لا أحد فيها)[1].

ويجوز أن يكون الخِطابُ "لِكُلِّ أحَدٍ تَتَأتّى مِنهُ الرُّؤْيَةُ تَنْبِيهًا عَلى أنَّ حالَهم بِحَيْثُ لَوْ حَضَرَ كُلُّ أحَدٍ بِلادَهم لا يَرى إلّا مَساكِنَهم"[2]، وفيه التفات.

التَّـلـويـحُ بـغـفـلـةِ عـادٍ في مساكنِهم وإيـثـارهـم طمأنينة العيش

فائدةُ استعمال مفردة المساكن دون البيوت:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظِ المساكن دون البيوت في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ البيت هو المَأوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّملِ[3]، أمّا المسكن؛ فهو يدلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ والحَرَكَةِ[4]، سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ؛ إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ، وهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أي: القَرارِ[5]، فالمسكن يتضمَّن السَّكينة والطُّمأنينة والاستقرار والرّاحة، فلمّا كان المسكن يتضمَّن الرّاحة والاستقرار؛ عبَّر به؛ لبيان أنَّ هذه المساكن كانت وفيرة الخير والبركة، ولكنَّ أهلها آثروا العمى على الإيمان، فنالوا سوء المصير.

كـلُّ مستمتعٍ زائـلٌ وإن بقيتْ مساكنه

بلاغةُ التَّعريفِ بالإضافة:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظ المساكن إلى الضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على المساكن الَّتي بقيت آثارًا هي مساكن من جاءهم الوحي، وكفروا به، لا مساكن أقوام جاءت بعدهم، والإضافة بمعنى اللام، أي: مساكن لهم ملكوها، واستمتعوا بها، فبقيت آثار الاستمتاع، وذهب المستمتعون بلا باقية.

(1) مكي، الكشف: 2/ 274.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 183.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(4) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.

القصصُ عِبرةُ السّامعين وموعظةُ المتعقّلين

دلالةُ فصل الجملة:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّها مستأنفة معترضة سيقت؛ لبيان المقصود من الخطاب وغايته[1]، فإنَّ هذا الجزاء ليس مخصوصًا بهم ولا مقصورًا عليهم، بل ينتظر من كان على شاكلتهم من أهل مكَّة وغيرها[2]، فهو مساق لتهديد قريش والمشركين[3].

تماثلُ الجزاء بتماثل الجرم سنَّة من سنن الله

معنى الكاف ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بكاف التَّشبيه في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على تماثل الجزاء عند تماثل الجرم، أي: نجزيهم مثل هذا الجزاء "الهائل في أصله أو جنسه أو نوعه أو شخصه من الإهلاك"[4].

وضوحُ سننِ العذاب تلويحٌ بالهلاكِ

نكتةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على فظاعة الجزاء الَّذي حكم به الله تعالى عليهم[5]، فهو عذاب في غاية البعد في الإهلاك، فهو من باب إنزال البعد المعنويِّ منزلة البعد الحسّيِّ لاشتراكهما في التَّفاوت والتَّباين، وللإيماءِ إلى وضوح الإهلاك في نظر العقلاءِ، فهو بعيدٌ باعتبارِ كبير شأنه وبيان أمره في ذهن المخاطَبين.

الجزاء ما يُقابل الجرمَ بالعدلِ والاعتبارِ

سرُّ إيثار التَّعبير بالجزاء دون العذاب، مادَّة وصيغة:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجزاء دون العذاب في قوله جلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 450.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 86.

شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، فلم يقل: (كذلك نعذّب المجرمين)؛ وذلك لدلالة الجزاء على المقابلة والكفاية، فالجزاء "ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ"[1]، فدلَّ على أنَّ ما وقع لهم من العذاب إنَّما كان للمجازاة والمقابلة على سوء أفعالهم وإجرامهم، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ الله تعالى يجزيهم بذلك على وجه الدَّوام[2]، فهو سنَّة من سنن الله الجارية في خلقه، فالتَّجدُّد ليس لخصوص عادٍ، بل لمن سار على دربهم، فهي سنَّةٌ ماضيةٌ لا تنحصر بقومٍ دون آخرين.

نكتةُ إسنادِ فعل الجزاء إلى ضمير العظمة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الجزاء المسند إلى نون التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الجزاء يقع بعظمة الله تعالى[3]، فهو عظيمٌ باعتبارِ مصدره وذاته.

نكتةُ ذكرِ لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

وربَّ قـومٍ يقومونَ بالإجرامِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ القوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دون أن يقول: (كذلك نجزي المجرمين)؛ فزيد لفظ القوم؛ للدَّلالة على تمكُّن الإجرام منهم، حتّى صار صفة من مقوِّمات قوميَّتهم، وإشارة إلى أنَّ الجزاء يشمل عموم القوم[4].

براعةُ الوصفِ بلفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

اكتسابُ الآثامِ صفة راسخة في الكافر

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإجرام في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لدلالة الجرم على قطع الثَّمرة عن الشَّجر، واستعمل لكلِّ اكتساب مكروه[5]، وذلك أنَّهم يقطعون ما أمر الله

(1) الراغب، المفردات: (جزا).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 48.
(5) الراغب، المفردات: (جرم).

تعالى بوصله، وجاء التَّعبير بصيغة اسم الفاعل؛ للدَّلالة على أنَّهم عريقون بصفة الإجرام[1].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّدمير والإهلاك:

الهلاك هو الفساد وإعدام الشَّيء، والتَّدمير دخول الهلاك لمكان ما

الهلاك يَدُلُّ عَلى كَسْرٍ وسُقوطٍ، ولذَلِكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ[2]، والهلاك بطلان الشَّيء من العالم وعدمه رأسًا، وذلك المُسمّى فناء المشار إليه بقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]، ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ [مريم: 74]، وهَلاك الشَّيء باستحالة وفساد، كقوله: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205][3]، أمّا التَّدمير؛ فهو يَدُلُّ عَلَى الدُّخولِ في البَيتِ وغَيرِه[4]، أي: إدخال الهلاك على الشَّيء[5]، وعبَّر في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّه أراد إزالة تلك القرية وإفناء وجودها بإدخال الهلاك عليها.

المسكن والبيت:

البيت هو المأوى الَّذي يَأوي النّاس، والمسكن ما فيه راحة واستقرار

البيت هو المَأوى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّملِ[6]، وهو مَأوى الإنسانِ باللَّيلِ، وهو كُلُّ ما لَهُ جِدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ[7]، والبيت: مكانٌ يُجعَلُ لهُ بناءٌ وفُسطاطٌ يُحيطُ به، يُعَيِّنُ مكانَهُ؛ لِيَتَّخِذَهُ جاعِلُهُ مَقرًّا يأوِي إليه، ويَستَكِنُّ به من الحَرِّ والقَرِّ[8]، أمّا المسكن؛ فأصله من (سكن)، وهو يَدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ والحَرَكَةِ[9]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الراغب، المفردات: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(5) الراغب، المفردات: (دمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(7) الخليل، العين: (بيت).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237.
(9) الرّاغب، المفردات: (سكن).

فالسُّكونُ ضدُّ الحركة[1]، والسَّكَنُ: اسمٌ بِمَعنَى المَسكونِ، والسُّكنَى: مَصدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيتَ؛ إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ، وهوَ مُشتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أيِ: القَرارِ[2]، فالمسكن يتضمَّن السَّكينة والطُّمأنينة والاستقرار والرّاحة، فلمّا كان المسكن يتضمَّن الرّاحة والاستقرار؛ عبَّر به في الآية؛ لبيان أنَّ هذه المساكن كانت وفيرة الخير والبركة، ولكنَّ أهلها آثروا العمى على الإيمان، فنالوا سوء المصير.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ [الأحقاف: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استخلاص الموعظة من أحداث القصَّة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة ما وقع لعاد من سوءِ المصير؛ أتبع ذلك بتخويف أهلِ مكَّة ممّا حصل لهم بأنَّه يجري عليهم ما جرى لهم[1]، فهو "استخلاصٌ لموعظة المشركين بمثل عاد؛ ليعلموا أنَّ الَّذي قدر على إهلاك عاد قادر على إهلاك من هم دونهم في القوَّة والعدد"[2]، ثمَّ أتبع ذلك ببيان علَّة عدم إغناء ما أنعم به عليهم من القوَّة والحواس، فقال: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فنالوا الجزاء بتكذيبهم رسل اللّه، وإنكار آياته[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾: (مكن) أصلٌ يدلُّ على رسوخ الشَّيء، ومنه المَكِنَة والتَّمكُّن، يُقال: مكَّنه من الشَّيء، ومكَّن له: جعل له عليه سلطانًا، وقدَّره، والتَّمكين من الشَّيء هو: إنالة ما يصحُّ به الفعل من الآلات والقوى[4]، والمكِنَةُ: التَّمكُّنُ، تقول العربُ: إنَّ بَنِي فُلانٍ لَذو مَكِنَةٍ مِنَ السُّلطانِ، أي: ذو تمكُّنٍ، وأمكنني الأمرُ يُمْكِنُني، فهو أمْرٌ مُمكِنٌ، ويقالُ: لا يُمكِنُكَ الصُّعودُ إلى هذا الجبل[5]، وأَمْكَنَ

(1) الواحدي، البسيط: 20/ 195.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 33.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (مكن).

الشَّيءُ، فهو مُمْكِنٌ ومَكِينٌ، ومنه الإمكانُ والتَّمكِينُ، وفلانٌ ذو مَكِنَةٍ من هذا الأمرِ، أي: ذو مَكانَةٍ واستِمكانٍ[1]، وقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 6]، أي: ملَّكناهم، وجعلناهم متمكِّنين من المكان الَّذي وليَّناهم إيّاه، أي: قوَّيناهم، من تمكُّن فلان من كذا؛ إذا قدر عليه، وأطاقه، والمراد به في الآية الكريمة: إعطاء القدرة والقوَّة[2].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: (جحد) أصل يدلُّ على قلَّة الخير، يُقال: عامٌ جحْدٌ: قليلُ المطر، ومن هذا الباب الجحود، وهو ضدُّ الإقرار، ولا يكون إلّا مع علم الجاحد به أنَّه صحيح[3]، فالجحود ضدُّ الإقرار، كما أنَّ الإنكار ضدُّ المعرفة[4]، وهو إنكار مع العِلم[5]، وذلك بأن ينفي ما في القلب إثباته، وثبت ما في القلب نفيه، قال ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: 14][6]، ومنه جُحود النِّعمة، أي: كُفرانها، ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٧١﴾ [النحل: 71][7]، والمراد به في الآية الكريمة: إنكار آياتِ الله تعالى[8].

3) ﴿وَحَاقَ﴾: (حيق) أصلٌ يدلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[9]، والحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسان من مَكْرٍ أو سوءٍ، قد أحاقَ اللهُ بهم مَكْرَهم[10]، وحاقَ بِهِ الشَّيءُ يَحِيق حَيْقًا: نزَل بِهِ، وأحاطَ به، وهو أن يَشتَمِلَ عَلى الإنسان عاقبةُ مَكروهٍ فَعَلَهُ، وفي التَّنزيل: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: 10]، أي: أحاط بِهِمُ العَذابُ الَّذي هو جَزاءُ ما كانوا يستهزئون، (حاقَ بِهِمُ العذابُ)، أي: أحاط بهِم، ونَزَلَ كأنَّه وجبَ عَلَيهم[11]، والأصل: يحقِّق، فأبدل أحد المضعَّفين حرف علَّةٍ، وحاق به الأمر، أي: لزمه، ووجب عليه[12]، والمراد به في الآية الكريمة: نزل العذاب، وأحاط بهم[13].

---

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (مكن).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).
(4) الخليل، العين: (جحد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جحد).
(6) الراغب، المفردات: (جحد).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جحد).
(8) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (مكن).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (حيق).
(12) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيق).
(13) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 161، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 34.

المَعنى الإجماليُّ:

عند الجحدِ بالآياتِ الشَّرعيَّة يقع التَّدمير بالآياتِ الكونيَّة

يقول الله تعالى: لأنّا قد مكّنّا لعاد؛ فقد فتحنا عليهم أبواب النِّعم، فأعطيناهم سمعًا، فما استعملوه في سماع الأدلَّة؛ ليعتبروا، ويتذكَّروا، وقد أعطيناهم أبصارًا؛ ليروا بدائع خلق الله، فيتأمَّلوا ما فيها من العِبَر، وأعطيناهم قلوبًا؛ ليفقهوا حكمة الله في خَلْقِه، فلم ينتفعوا بها لطلب معرفة ربِّهم وما يقرِّبهم منه، بل صرفوا ذلك في طلب الدُّنيا ولذّاتها، فلا جرم أنَّهم لم تغنِ تلك الحواسُّ عنهم شيئًا من عذاب الله تعالى[1]، وذلك لأنَّهم كانوا يكذِّبون بحجج الله، وينكرون آياته، فنزل بهم العذاب الَّذي استعجلوه، وأحاط بهم، ووجب لهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

مقصدُ قصصِ الهالكين عظةُ السّامعين

افتتح النَّظم الجليل الجملة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾، وهي هنا استئنافيَّة[3]، فالجملة مستأنفة سيقت لاستخلاص الموعظة من قصَّة عاد، فهو إعلام للمشركين من العرب بأنَّ الَّذي أهلك عادًا قادر على إهلاك من هم دونهم في القوَّة والعدد[4]، وتحتمل أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والتَّقدير: أصبحوا لا يُرى منهم أحد، والحال أنّا وعزَّتنا قد مكَّناهم في الأرض[5].

بلاغةُ القسم وتقدير المحذوف:

هلاك القوم مع مكنتهم شأنٌ عجيب

عبَّر النَّظم الجليل بأسلوب القسم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾، أي: والله يا أهل مكَّة لقد مكَّناهم،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 26، والهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 72.
(2) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 505.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 84.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 171، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 51.

وأقدرناهم في أمور لم نمكِّنكم فيها، والمراد من القسم تأكيد الخبر والمبالغة فيه[1]، وإنَّما دلَّ على المبالغة في الخبر للتَّعجيب منه؛ إذ إنَّه لا شكَّ في وقوع إهلاك عاد[2].

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾:

التَّمكينُ إعطاء القـدرة، فهو أبلغ من مطلق الاستخلاف

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالتَّمكين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ دون الاستخلاف؛ لأنَّ المراد من التَّمكين بيان قدرتهم وتوفُّر أسباب القوَّة، فهو يدلُّ على إعطاء المَكِنة، وهي القدرة والقوَّة، أي: جعلنا لهم القدرة في الَّذي لم نمكِّنكم فيه[3]، فالتَّمكين دليل على القوَّة والقدرة بالفعل، بخلاف الاستخلاف فإنَّ الأممَ فيها قابليَّة الاستخلاف، لكن ليس كلُّ مستخلَفٍ في الأرضِ مقتدرًا ومتمكِّنًا.

بلاغةُ حرف الظَّرفيَّة:

قـدرةُ عـادٍ مستقرَّة في كلِّ ما يلزم الحياة

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (في) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾، وهو دالٌّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة؛ لبيان موضع قدرتهم وتمكُّنهم، أي: كثرة المال وقوَّة والأبدان وطول العمر وغيرها[4]، فبيَّن ذلك أنَّ قدرتهم قد شملت كلَّ سبب من أسباب العمار وازدهار الحياة.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾، أي: في الَّذي لم نمكِّنكم فيه[5]، وإنَّما آثره على غيره؛ لدلالته على العموم، فيشمل كلَّ سبب من أسباب التَّمكين والقوَّة.

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 323.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 52.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 52.
(4) القنوجي، فتح البيان: 13/ 33.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.

نوع ﴿إِن﴾ وعلّة استعمالها:

تحسينُ الألفاظ بترك ما فيه تكرار من سمات البلاغة

عبَّر النَّظم الجليل بـ ﴿إِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، وهي هنا نافية، أي: في الَّذي ما مكّناكم فيه، وإنَّما آثرها النَّظم الجليل دون (ما)؛ لأنَّها أحسن لفظًا في هذا الموضع، وذلك لكراهة تكرار (ما)، فلم يقل: (فيما ما مكّناكم)[1]، ومثل هذا التَّكرار يستبشع في لغة العرب، ومن ذلك أنَّهم عمدوا إلى قلب الألف إلى هاء في (مهما)؛ إذ إنَّ أصلها (ماما)[2]، مركَّبة من (ما) الظَّرفيَّة و(ما) الزّائدة لإفادة الشَّرط، مثل (أينما)[3].

بلاغةُ الطِّباق في لفظ التَّمكين:

لا يغترُّ أحد بما مكّنه الله فيه، والأمثال حاضرة

جمع النَّظم الجليل بين لفظين دالّين على التَّمكين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ على طريقة محسِّن طباق السَّلب؛ وذلك لتأكيد ذكر التَّمكين، وأنَّه لم ينفعهم لردِّ العذاب عنهم؛ إذ كفروا بآيات الله تعالى، وجحدوا بها.

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيّة ﴿فِيهِ﴾:

تفصيلُ التَّمكين بالموجودات أدلُّ على المماثلة بين الهالكين والمستمعين

استعمل النَّظم الجليلُ حرفَ الجرِّ (في) الدّالَّ على الظَّرفيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ للدَّلالة على تعدية فعل التَّمكين إلى ما تمكَّنت منه عاد، أي: "مكّناكم في مثله أو في نوعه، فإنَّ الأجناس والأنواع من الذَّوات حقائق معنويَّة لا تتغيَّر مواهبها، وإنَّما تختلف بوجودها في الجزئيّات، فلذلك حسن تعدية فعل مكّناكم بحرف الظَّرفيَّة إلى ضمير اسم الموصول الصّادق على الأمور، الَّتي مُكِّنت منها عادٌ"[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 308.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 304.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 53.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 52.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾:

أعاد النَّظمُ الجليل الضَّميرَ في شبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ على الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ﴾، أي: من كلِّ خير ومن أسباب التَّمكين في الأرض(1).

بلاغةُ التَّعريضِ بعطف ﴿وَجَعَلْنَا﴾ على ﴿مَكَّنَّٰهُمْ﴾:

لم ينتفع الهالكون بحواسِّهم، فليحذر السّامعون مصيرهم

عطف النَّظمُ الجليل الجعل على التَّمكين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه لم ينقصهم شيء يحول دون إدراكهم الحقَّ، فبيَّن أنَّهم معاندون مستكبرون، والمراد به التَّعريض بمشركي قريش، أي: إنَّكم لم تنتفعوا بسمعكم وأبصاركم وعقولكم مثلهم، فأنتم وهم سواء، فيوشك أن يكون الجزاء كذلك(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالجعل مادَّة وصيغة:

إذا سقط الانتفاعُ بالخيرِ؛ فقد وقع الاحتجاج بالإهلاكِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الجعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ للدَّلالة على الإيجاد، فالفعل (جعل) متعدٍّ إلى مفعول واحد(3)، فمن نِعَم اللّٰه تعالى عليهم بعد التَّمكين أن جعلهم تامّي الخِلقة، فأوجد فيهم القدرة على السَّمع والبصر والتَّفكير، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق الجعل ووقوعه، فالمرادُ من ذكرِ جعل السَّمع والأبصار والأفئدة الامتنان بما كان للسّابقين، والتَّعريض بما سيكون للّاحقين، فإنَّ جعْلَ هذه الحواسِّ للبشرِ، له مقصودٌ ظاهر، ومرادٌ بيِّنٌ، فإن لم يقع الانتفاعُ؛ فقد بان الاحتجاجُ.

---

(1) الواحدي، البسيط: 20/ 195.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 53.

(3) الراغب، المفردات: (جعل).

غرضُ إسناد فعل (جعل) لضمير العظمة:

لا يغفل شكرَ الواهب إلّا الجاحد اللّئيم

أسند النَّظم الجليل فعلَ الجعل إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ للدَّلالة على تعظيم الجعل والامتنان به، أي: "جعلًا يليق بما زدناهم عليكم من المكنة على ما اقتضته عظمتنا"[1]، ونكتةُ الإسناد زيادة الامتنان، فالجعل الصّادر عن العظيم عظيم، ولا يُهمِل شكرَه إلّا الجاحدُ اللَّئيم.

نوع اللّام ودلالتها:

استعمل النَّظم الجليل حرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ لبيان العلّة والغاية، أي: جعل تلك النِّعم لأجلهم، ففيه مزيد امتنانٍ، بجعْلٍ مقصودٍ.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول:

تقديمُ المقصود بالجعل أبلغُ في بيان الامتنان

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً﴾، فلم يقل: (وجعلنا سمعًا وأبصارًا وأفئدةً لهم) اهتمامًا بالمقدَّم؛ إذ المقصودون بتلك النِّعمة النّاس، كما أنَّ تأخير المفعول به تشويق للسّامع بانتظار بيان ما جُعِل لهم من النِّعم.

نكتةُ ترتيب ذِكر السَّمع فالأبصار فالأفئدة:

تقديمُ الأدوات على الغايات

قدَّم النَّظمُ الجليل السَّمع على الأبصار والأفئدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ لأنَّه في سياق الإنذار، والإنذار إنَّما يكون بحاسَّة السَّمع، وهو ينبِّه السّامع على الآيات الَّتي يراها بعينه، ويذكِّره بها؛ ليتفكَّر في قلبه وفؤاده[2]، فبدأ بالسَّمع؛ لأنَّه الحاسَّة الأولى الَّتي تكون في إنذارِ النّاس بالآيات الشَّرعيَّة والسَّمعيَّة والنَّقليَّة والعقليَّة، ثمَّ البصر باعتباره الأداة الثّانية في هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 172.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 172.

المقام، وهاتان الحاسّتان خادمتان للغاية الكبرى، وهي الأفئدة، فإنَّ الأفئدةَ هي موضع الاعتبارِ، فإنَّ السَّمع والأبصار تغذّيان الفؤاد؛ ليسلك سبيله في الخير أو الشَّرِّ.

نكتةُ تنكير السَّمع والأبصار والأفئدة:

أفاد تنكير هذه النِّعم هنا تفخيمها وتعظيمها؛ لأنَّها تشكِّل نوافذ المعرفة بالنِّسبة إلى الإنسان، وبها يدرك الإنسان معنى الوجود، ويستطيع أن يقوم بنفسه.

نكتةُ إفرادِ السَّمع وجمع الأبصار والأفئدة:

المبصراتُ والمدركاتُ كثيرةٌ بخلافِ المسموعِ، فمصدره واحد

آثر النَّظم الكريم إفراد السَّمع دون ما بعده من الأبصار والأفئدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ وذلك لأنَّه "لا يدرك به إلّا الصَّوت، وما يتبعه بخلاف البصر؛ حيث يدرك به أشياء كثيرة، بعضها بالذّات، وبعضها بالواسطة، والفؤاد يعمُّ إدراكه كلَّ شيء"[1]، فالمبصرات والمدركات كثيرةٌ، بخلاف السَّمع، فإنَّه يُسمع ضمن مصدر واحد، وقد أُلمِح إلى توجيهٍ لفظيٍّ، وهو أنَّ "إفراد السَّمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفَّة أحد اللَّفظين مفردًا، والآخر مجموعًا عند اقترانهما، فإنَّ في انتظام الحروف والحركات والسَّكنات في تنقُّل اللِّسان سرًّا عجيبًا من فصاحة كلام القرآن المعبِّر عنها بالنَّظم"[2]، فتجاورُ لفظٍ مفرد مع آخر مجموع أخفُّ لفظًا من اقترانهما مجموعين.

فائدةُ استعمال الأفئدة دون القلوب:

القلبُ الاسمُ العَلَم، والفؤاد آلـةُ الإدراكِ المتوقِّدة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفؤاد دون القلب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ وذلك أنَّ القلب هو الاسم العلم على أداة الإدراك، والفؤاد يدلُّ على القلب مع زيادة، وذلك أنَّه يقال

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 47.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 234.

للقلب: فؤاد؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد، يقال: فَأَدْتُ اللَّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ[1]، فذكره هنا؛ لأنَّه في سياق إقامة الحجَّة والتَّمكين على الفهم وإدراك الحقِّ، فهو أنسب أن يكون المذكور ممّا يتحقَّق فيه الفهم لتوقُّده، فقد جعل لهم أفئدةً ينطلقون منها لفهم المدركات، لا مجرَّد قلوبٍ باردة هامدة.

نوع الفاء ودلالتها:

إنَّـمـا وُجِـدت الـحـواسُّ للاهتداء والعلم والاستدلال الحقِّ

افتتح النَّظم الجليل الجملة بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾، وهي هنا عاطفة، عطفت الجملة على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾[2]، فلمّا ذكر وسائل العلم والمعرفة والإدراك؛ أتبعه بذكر عدم انتفاعهم بها.

نكتةُ استعمال (ما) النافية:

عـدمُ الانـتـفـاع مـن الـحـواسِّ صفة مؤكَّدة في الضّالّين

آثر النَّظمُ الكريم نفي الماضي بـ (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾، فلم يقل: (فلم يغنِ عنهم سمعهم)؛ لأنَّ نفي الماضي بـ (ما) يدلُّ على التَّأكيد، قال سيبويه: "وإذا قال: لقد فعل؛ فإنَّ نفيه (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قال: واللّٰه لقد فعل، فقال: واللّٰه ما فعل"[3]، فلمّا جعلها جوابًا لـ (قد)، و(قد) فيها معنى التَّأكيد، فكذلك ما كان جوابًا لها[4]، فنفى الإغناء عنهم نفيًا مؤكَّدًا؛ لأنَّ مطلق وجود الحاسَّة لا يكفي في الانتفاع بها.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿أَغۡنَىٰ﴾:

لم يكفِ الكافر سمعه وبصره بتحقيق الإيمان والنَّجاة من العذاب

استعمل النَّظم الجليل مفردة الإغناء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ

(1) الراغب، المفردات: (فأد).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 84.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، وأي: إنَّها تأتي في جواب القسم المفيد للتوكيد، وبه اكتسبت معنى التوكيد.
(4) السّيوطي، الإتقان: 2/ 289.

﴿أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ للدَّلالة على انتفاء الكفاية[1]، فلمّا لم ينتفعوا بحواسِّهم؛ فقد انتفت كفايتها عنهم، فلم تدفع عنهم العذاب؛ إذ لم يستعملوها في استماع الوحي، ومواعظ الرُّسل، فكانت كأنَّها لم تكن[2].

دلالةُ حرف (عن):

ما جاوزوا الجهل مع حوزهم أسباب العلم من الحواسّ

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (عن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾، وهو دالٌّ على المجاوزة، وإنَّما جيء به هنا؛ لأنَّ تعدية الإغناء بـ (عن) يدلُّ على الكفاية، فيقال: أَغْنَى عنه كذا؛ إذا كفاه[3]، فالحواسُّ لم تدفع عنهم الجهل، فلم يبتعدوا عنه إلى العلم والإدراك الَّذي يقود إلى الهدى.

نكتةُ تقديم ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المسند إليه:

تقديمُ المقصود بالسّياق؛ للتَّنبيه عليه والاهتمام به

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة على المسند إليه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾؛ اهتمامًا بالمتحدَّثِ عنه، وهو الضَّمير العائد على عاد، فإنَّ السّياق في الحديث عنهم، والحواسُّ المذكورة تبعٌ لهم.

نكتةُ إضافةِ السَّمع والأبصار والأفئدة إلى ضمير الجمع:

انتفاءُ الانتفاعِ عن الضّالّين تبكيتٌ للمخاطَبين المعرضين

أضاف النَّظمُ الجليل السَّمع وما بعده إلى ضمير الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جميعًا لم ينتفعوا بذلك، فالنَّفي يتناول أفرادهم فردًا فردًا، وقد جاءت الإضافة بمعنى اللّام، أي: سمْعٌ لهم أوتوه؛ لينتفعوا به في النَّجاةِ من العذاب، فما أغنى عنهم شيئًا، ففي الإضافةِ مزيد تبكيتٍ وتقريعٍ لهم.

---

(1) الراغب، المفردات: (غنى).

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 72.

(3) الراغب، المفردات: (غنى).

تأكيدُ نفي الإغناءِ عن جميعِ الحواسِّ

غرضُ تكرار (لا) النافية:

كرَّر النَّظمُ الجليل حرف النَّفي في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تأكيد النَّفي[1]، وذلك أنَّه يسلِّط النَّفي على كلِّ واحد من المذكورات على وجه الاستقلال.

التَّعريضُ بمن غفلَ عن الاعتبارِ بــأدواتِ بلوغِ الاهتداء

بلاغةُ الإطنابِ بإظهارِ ما حقُّه الإضمار:

كرَّر النَّظمُ الجليل ذِكرَ لفظ السَّمع والأبصار والأفئدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾ دون إضمارها؛ لتعود على السّابق: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾، فلم يقل: (فما أغنت عنهم)؛ لتأكيدِ انتفاء الانتفاع بها، بتكرارِ سبب الإيصال إلى النَّجاة، فلمّا ذكرها ابتداءً على وجه الإنعام بها؛ أعاد ذكرها لنفي كفايتها عنهم، وإشارة إلى أنَّها جديرة بإحداث الاتِّعاظ والاهتداء، ومع ذلك لم تدفع عنهم العذاب، ففيه تعريضٌ بمَن لم يُعملوا أدوات اهتدائهم؛ للوصولِ إلى حقيقةِ نجاتهم.

نوع ﴿مِّن﴾ وفائدتها:

استعمل النَّظم الكريم حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لتأكيد النَّفي وللتَّنصيص على الاستغراق، أي: لم تغنِ عنهم شيئًا من الإغناء[2].

عند غياب الإيمانِ يغيبُ معه الانتفاع

نكتةُ تنكير لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ للدَّلالة على الشُّمول والعموم؛ لكونه نكرة في سياق النَّفي، أي: لم تغنِ عنهم أيَّ شيء من الإغناء[3]، فتشملُ الأشياءَ المعهودة في هذا المقام، وغير المعهودة.

---

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 48.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 87.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 87.

دلالةُ التَّعليل في الظَّرف ﴿إِذۡ﴾:

الـجـحـودُ بـالآيـات علّة إبطال الانتفاع بالحواس

استعمل النَّظم الكريم الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل، فإنَّ ظرفَ ﴿إِذۡ﴾ يُستعمل للتَّعليل، وجرى الظَّرف مجرى التَّعليل؛ "لاستواء مؤدّى التَّعليل والظَّرف في قولك: ضربتُه لإساءته، وضربتُه؛ إذا أساء؛ لأنَّك إذا ضربته في وقت إساءته؛ فإنَّما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إلّا أنَّ (إذ، وحيث)، غُلِّبتا دون سائر الظُّروف في ذلك"[1]، فالحكم مترتِّب على ما أُضيف إليه الظَّرف، فإنَّما لم تغنِ عنهم تلك الحواس؛ لأنَّهم كانوا يجحدون بآيات اللّه[2].

نكتةُ ذِكر فعل ﴿كَانُوٓاْ﴾:

الجحودُ دَيدَن المُكذِّبين ومهيع المعرضين

آثر النَّظم الكريم ذِكرَ فعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (إذ جحدوا بآيات اللّه)؛ وذلك للدَّلالة على رسوخ الكفر بهم، وإصرارهم عليه، حتّى كأنَّهم خُلقوا متَّصفين به، فصار موجودًا فيهم منذُ زمان وجودهم، ولبيان أنَّ الجحودَ ديدنهم الَّذي استمرّوا عليه في حياتِهم.

بلاغةُ استعمالِ الجحود مادَّة وصيغة:

الجحودُ إنكارُ ما هو معلوم عنادًا وكفرًا

آثر النَّظمُ الجليل استعمال مفردة الجحود في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أنكروا ما يجب الاعتراف به، فالجحود هو إنكارٌ مع علمٍ لحقيقةِ الأمر، فالجحود هو "نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه"[3]، وجاء التَّعبير بصيغة المضارع؛ لأنَّهم كانوا يكرِّرون جحودهم على مرِّ الزَّمان[4]، وهو ما يتلاءم، ويتناسب مع ذكر ﴿كَانُواْ﴾ من الدَّلالة على الاستمراريَّة في العنادِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 309.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 26، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 116.
(3) الراغب، المفردات: (جحد).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174.

نوعُ الباء ودلالتها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لتوكيد الجحد، أي: أنكروا الحجج والبراهين الدّالَّة على توحيد الملك الأعظم[1]، وتحتمل السَّببية، أي: جحدوا، فكفروا بسبب الحقِّ.

دلالةُ استعمال (آيات) وإضافتها لاسم الجلالة:

الحججُ الظّاهرة شاهدة على الصِّدق ناطقةٌ بالحقِّ

جاء استعمالُ مفردة الآيات في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها علامات بيِّنة ظاهرة[2]، والتَّعبير عنها بصيغة الجمع؛ للدَّلالة على كثرتها، فالآيات الدّالَّة على التَّوحيد وصِدق النُّبوَّة متضافرة ظاهرة، وإضافتها إلى الاسم الجليل تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنها، ولبيان ظهورها وكفايتها في إيقاع الفهم لكلِّ أحد، فآيات اللّه تعالى: هي "دلائل إرادته من معجزات رسولهم ومن البراهين الدّالَّة على صِدق ما دعاهم إليه"[3]، ففيه غناء وكفايةٌ لمن طلب الحقَّ، وأراد الصَّواب.

نوع الواو ودلالتها:

إيـاءُ الانتفاع بالحواسِّ نداءٌ على تحقُّق العذاب

عطف النَّظمُ الجليل جملة: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على جملة (ما أغنى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[4]، فلمّا نفى الإغناء عنهم لنفي انتفاعهم بالآيات؛ أتبعه ببيان إحاطة العذاب بهم[5]، وهو ما تسبَّب به جحودهم وعدم استعمالهم حواسَّهم؛ لتفهُّم الآيات.

فائدةُ استعمال مفردة (حاق):

تحقُّق الإصابة، وشمولُ الإحاطة

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ فعل (حاق) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَحَاقَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.
(4) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2229.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.

﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للدَّلالة على نزول العذاب وتحقُّق إصابته، ولزومه لهم ووجوبه عليهم[1]، وإحاطة العذاب بهم، وحلوله عليهم[2]، فاجتمع في هذا اللَّفظِ، تحقُّق الإصابة، وشمول الإحاطة.

نوعُ الباء ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وهي هنا دالَّة على السَّببيَّة، أي: ما كانوا بسببه يستهزئون؛ إذ إنكارهم العذاب جعلهم مستهزئين.

نكتةُ تقديم ﴿بِهِم﴾ على المسند إليه:

العـنـايـةُ باخـتـصـاصِ الـحدث بأهلِه مـزيـدُ اعـتـنـاءٍ بـالـمـعـاني المقصودة

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة ﴿بِهِم﴾ على المسند إليه، وهو الاسم الموصول ﴿مَّا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّ التَّقديم هنا في غاية البلاغة وحسن البيان، فلو جاء على الأصل؛ لقال: (حاق ما كانوا يستهزئون به بهم)، ولا يخفى ما فيها من عسر لفظيٍّ بتجاور المجرورات، كما أنَّ التَّقديم يدلُّ على التَّخصيص، فالعذاب حاق بهم وحدهم على وجه الخصوص.

دلالةُ استعمال ﴿مَّا﴾ الموصوليَّة:

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للدَّلالة على تهويل ما حلَّ بهم وتعظيم العذاب، وذلك لما في (ما) من إبهام يدلُّ على التَّفخيم، كما أنَّ التَّعبير بالموصول ينبِّه على ما في حيِّز صلته من سبب استحقاقهم العذاب، فنبَّه به على ضلالهم وسوء نظرهم[3].

نكتةُ ذِكر ﴿كَانُواْ﴾ وتكرارها:

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيق).
(2) القنوجي، فتح البيان: 13/ 34.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخ الاستهزاء بهم، وأنَّهم دائمون عليه، لا ينفكّون عنه، كأنَّه صفة خلقيَّة راسخة فيهم[1].

المبالغةُ في الرَّصف تحصر المعنى في بعضِ الوصف

غرضُ تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على فعل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة على الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دون أن يقول على الأصل: (يستهزئون به)؛ للدَّلالة على تخصيص استهزائهم؛ تأكيدًا له ومبالغة فيه، فكأنَّهم قصدوه بالاستهزاء، وحصروا فعلهم القبيح ذلك به، كما أنَّه تقديم يحافظ على وحدة الفاصلة القرآنيَّة وانتظام نسقها.

الاستخفافُ بالوعيد دأبٌ قصدوه، وطلبوه

نكتةُ استعمالِ الاستهزاء مادَّة وصيغة:

عبَّر النَّظم الجليل بالهزْءِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لدلالته على الاستخفاف، فالاستهزاء بالشَّيء استخفاف به[2]، فدلَّ على أنَّهم لم يأخذوا وعيد هود وإنذاره على محمل الجدِّ، فاستخفّوا به، وجاء التَّعبير بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّهم يوجدون الاستهزاء على سبيل الاستمرار، ودلَّت صيغة الاستفعال على الطَّلب، فهم يطلبون الهزْءَ به، ويتقصَّدونه[3].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفؤاد والقلب:

القلب الاسم العَلَم، والفؤاد أشدُّ حالات القلب حركةً واشتعالًا

أصل الفؤاد يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حَرارَةٍ، والفؤاد سُمِّيَ بذلك لِحَرارَتِهِ[4]، فهو كالقلب لكن يقال له: فُؤَادٌ إذا اعتبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد، يقال: فَأَدْتُ اللَّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ[5]، والقلب أصله يدلُّ على خالص شيء وشريفه، وقلب الإنسان وغيره،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هزأ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(5) الراغب، المفردات: (فأد).

سمّي لأنَّه أخلص شيء فيه وأرفعه[1]، وسُمّي به لكثرة تَقَلُّبِه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني، الَّتي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك، وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي: علم وفهم، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10]، أي: تثبت به شجاعتكم، ويزول خوفكم، وعلى عكسه: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: 2][2]، فسُمّي القلب فؤادًا من أجل إنضاج الرَّأي، كما سُمّي قلبًا من أجل تقلُّبه، والفؤاد يشير إلى وظيفة إنضاج الرَّأي أو الفكرة أو الاتِّجاه، فقد نُسِبت إليه البصيرة في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]، وعُدَّ من روافد العلم، كما في آية التَّركيب: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: 36]، وطولب بالميل في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، ولذلك عندما ولِهَتْ أمُّ موسى على ولدها، ففقدت القدرة على حسن الرَّأي في أمره؛ عبَّر القرآن عن ذلك بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، أمّا ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: 43]؛ فهي تصوير للعجز عن الفقه، ويعبِّر بمثل هذا أيضًا عن الجبن، كما قال: فأنت مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هواء[3].

فالفؤاد أرقُّ، وهو بالعلم والرَّأي أعلق، والقلب أشرف ما في الإنسان سُمّي قلبًا؛ لتقلُّبه بالمعاني والأحوال، وقد آثر النَّظم الكريم التَّعبير في الآية بالأفئدة؛ لأنَّه في سياق ذِكر ما جعل اللّٰه تعالى في النّاس من وسائل الإدراك والعلم والمعرفة.

(حاق) و(أحاط):

(حيق) أصلٌ يدلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بِالشَّيءِ[4]، والحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسان من مَكْرٍ أو سوءٍ، قد أحاقَ اللّٰهُ بهم مَكْرَهم[5]، وحاقَ بِهِ الشَّيءُ يَحيق حَيقًا: نزل به، وأحاطَ به، وهو أن يَشْتَمِلَ عَلى الإنسان عاقبةُ مَكْروهٍ فَعَلَهُ، وفي التَّنزيل: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: 10]، أي: أحاط بِهِمُ العَذابُ الَّذي هو جَزاءُ ما كانوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(2) الراغب، المفردات: (قلب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فأد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (مكن).

حـاق يـدلُّ على نـزول الـعـذاب بـسـبـب جـرمٍ، والإحـاطـة تـدلُّ عـلـى الإهــلاك بالقدرة

يستهزِئون[1]، والمراد به في الآية الكريمة: نزل العذاب، وأحاط بهم[2]، أمّا الإحاطةُ؛ فأصلها الشَّيء يطيف بالشَّيء، يقال: حوّطتُ حائطًا[3]، والحائط: الجدار الَّذي يَحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، أو تُستعمل في الحفظ نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته[4]، ويُستعمل للدَّلالة على القدرة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]، ويُعبَّر به عن الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42]، وأصله من إحاطة العدوِّ[5]، فعبَّر في الآية بـ (حاق)؛ للدَّلالة على نزول العذاب وحلوله بهم، فهُم كانوا قد استعجلوه، فأخبر عن نزوله، ولم يعبِّر السّياق عن نكرانهم القدرة عليه الَّذي يناسبه التَّعبير بالإحاطة.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حيق).
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 161، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 34.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(4) الراغب، المفردات: (حيط).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حوط).

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ [الأحقاف: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استكمالُ الاعتبارِ، بما جرى للمكذِّبين من هلاك الدّار

لمّا أخبرتِ الآيات السّابقة بقصَّة عاد، وما وقع لهم من الهلاك على ما كانوا عليه من المكنة والقوَّة؛ أتبع ذلك ببيان أنَّ مَن كان مشاركًا لهم في التَّكذيب؛ فقد شاركهم في الهلاك، فإنَّ مثل قوم عاد ليس وحيدًا في بابه، فقد أهلك اللّه ما جاور مكَّة من القرى الَّتي يعرفونها، وسمعوا عنها، وهي قرى ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تبَّع[1]، فناسب ذكر بقيَّة المكذِّبين من باب استكمال الاعتبارِ، بما جرى للمكذِّبين من هلاك الدّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَرَّفۡنَا﴾: (صرف) أصلٌ يدلُّ على رَجْعِ الشَّيء[2]، والصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، والتَّصريفُ صرف الشَّيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر[3]، وتصريف الرِّياح: تَصَرُّفُها من وجْهٍ إلى وجهٍ، وحالٍ إلى حال، وكذلك تصريف الخُيول والسُّيول والأمور[4]، وتصريفُ الآيات تَبْيينُها[5]، وهو الإتيانُ بها من جهات: من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك[6]، والمرادُ به في الآية الكريمة تكريرُ الآيات وتبيينها[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(3) الراغب، المفردات: (صرف).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (صرف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرف).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).
(7) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحذيرُ المشركين من مصير أهل القرى

يقول الله تعالى منبِّهًا أهلَ مكَّة أنَّنا قد أهلكنا ما حولكم من القرى الَّتي تعرفون أخبارها، كعاد وثمود لوط وتبَّع وأصحاب الأيكة وغيرهم، فجعلنا ديارهم خاوية على عروشها، وقد بيَّنّا لهم الحقَّ بأنواع الحجج والدَّلالات؛ لكي يرجعوا عن الشِّرك والكفر بالله إلى توحيده وعبادته[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

العطفُ ناطقٌ بالسُّنَّيَّة العادلة في الأمم

عطف النَّظم الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، فلمّا حكى النَّظم قصَّة هود مع قومه وتكذيبهم له وما نالوه من الجزاء؛ أتبعه بأنَّ ذلك قد جرى في كثير من الأقوام، ومنهم أقوامٌ مجاورونَ لأهل مكَّة، كثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تُبَّع[2].

دلالةُ التَّعبير بـ (لقد):

تحقُّقُ الإهلاك لعظيم القدرة وكمال الإحاطة

عبَّر النَّظم الجليل بـ(اللّام وقد) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد الخبر، والمراد منه الإشارة إلى عظيم القدرة، وتمام الإحاطة بالكافرين، وذلك ليتَّعظ بهم من يسمع خبرهم المؤكَّد[3]، وليكون العطفُ بالتَّوكيد من باب توكيد ذِكر الكلِّ بعد توكيد ذِكر أحد أفراده؛ إمعانًا في بيان الحقِّ، وتثبيت الواقع.

---

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 505.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174.

بلاغةُ استعمالِ لفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ دون (دمرنا):

عطفُ عموم الإهلاك بعد ذكر خصوصِ التّدمير

عبَّر النَّظم الجليل بمفردةِ الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ دون التَّدمير - كما تقدَّم ذكره - وذلك للدَّلالة على العذاب، وأصله السُّقوطُ، ولِذلكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ[1]، ويُقال للعذاب: الهَلاكُ[2]، فعبَّر به؛ للدَّلالة على تعذيبهم، أمّا التَّدمير؛ فهو إدخال الهلاك على الشَّيء[3]، فالتَّعبيرُ بالهلاك تصريح باستئصالهم[4]، فكان ذِكر الإهلاك للقرى بعد التَّدمير لخصوص قوم عادٍ، من باب ذِكر العامِّ بعد الخاصِّ، أي: ذكر عموم الإهلاك للقرى، بعد ذكر خصوص تدمير قوم عاد.

نكتةُ إسنادِ فعل ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

صدرُ الإهلاك عن عظيم القدرة الإلهيَّة

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ الإهلاك إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على قوَّة الإهلاك، أي: أهلكناهم بما لنا من كمال القدرة وشمول الإحاطة[5]، ففيه مزيد تبكيتٍ لهؤلاء القرى، أن يتولّى إهلاكهم العظيم سبحانه، مع ما فيه من التَّعريض بمن يغترُّ برحمة الله تعالى.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالة استعمالها:

عمَّ الهلاك كلَّ مكان ظهر فيه الكفر والإشراك

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لدلالته على العموم والشُّمول، فهو مفعول به لفعل الإهلاك[6]، وعبَّر عنه بذلك لما في ﴿مَا﴾ من الإبهام الَّذي يدلُّ على تعظيم قصص تلك القرى وما وقع لأهلها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(2) الراغب، المفردات: (هلك).
(3) الراغب، المفردات: (دمر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 54.
(5) الخطيب، السراج المنير: 4/ 16.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 85.

قربُ المكانِ أدعى للاتّعاظ

دلالةُ الظَّرف (حول) وإضافته:

استعمل النَّظم الجليل الظَّرف (حول) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على الإحاطة، فهو ظرف مكان يعبِّر عن المنطقة المحيطة بجوانب الشَّيء واتِّجاهاته[1]، وأضافه إلى ضمير المخاطَب، والمراد به أهل مكَّة، أي: ما حولكم وبجانبكم من القرى يا أهل مكَّة، كحِجر ثمود وعاد وغيرهم ممَّن فيهم معتبر[2]، واستعمالُ الظَّرف (حول) يومئ إلى قربِ موقع إهلاك المتقدِّمين، ففيه تلويحٌ بقربِه لمن بعدهم.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ومعناها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وهي هنا بيانيَّة، فهي تبيِّن جنس ما حولهم، وهو القرى.

نكتةُ تعريف ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل القرى بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وهي هنا للعهد الذِّهنيِّ؛ إذ المراد بها القرى الَّتي أهلكها اللّه تعالى، وهم يعرفون أحاديثها، وهي عاد وثمود ولوط وغيرهم بالشّام والحجاز واليمن[3].

العـذابُ يـأتي أهـلَ القـرى، وهم في أماكنهم جاثمون

بلاغةُ ذِكر ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ دون (الأمم):

وقد ذكرهم بصفةِ القرى دون الأمم لبيانِ اجتماعهم في مكانٍ واحد، فإنَّ القرية هي الَّتي تجمع سكّانها في بقعة واحدة، ففيه بيانٌ بأنَّ مجيءَ العذاب يكون لمكان الظّالمين.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حول).
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 16.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.

دلالةُ عطفِ فعل التَّصريف على الإهلاك:

حكمُ الله في عبادِه قاهرٌ لعبادِه، باهرٌ في آثاره

عطف النَّظمُ الجليل فعل ﴿وَصَرَّفۡنَا﴾ على فعل الإهلاك في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، فلمّا أخبر عن إهلاكهم مقدَّمًا، عطف عليه ما يقيم الحجَّة عليهم، وأنَّ إهلاكهم وقع بعد ظهور الآيات وتنويعها وتكريرها[1]، وذلك ليعلم النّاس أنَّ اللّه أقام الحجَّة على عبادِه قبل الإهلاك.

نكتةُ إسنادِ فعل التَّصريف إلى ضمير العظمة:

نعمةُ تنويع الآيات جليلة عظيمة

أسند النَّظم الجليل فعل التَّصريف إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك وقع بما للّه تعالى من عظمة، فهو تصريف شريف جليل، يراد منه البيان والتَّكرير، فيُفهم من التَّعظيم أنَّ تلك نعمة جليلة، حفَّتها عظمة اللّه تعالى.

نكتةُ جمعِ لفظ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، ومعنى التعريف فيها:

كثرةُ الآياتِ قوَّةٌ في الاحتجاجِ وبراعةٌ في الإقناع

عبَّر النَّظم الجليل عن الآيات بصيغة الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ للدَّلالة على كثرتها، والتَّصريف يقتضي الكثرة؛ لأنَّ التَّكرير مظنَّة التَّكثير، أي: "ولقد كرَّرنا، وبيَّنا لهم قبل إهلاكهم الآيات الَّتي يعتبر بها بتكرير ذكرها، وإعادة أقاصيص الأمم الخالية بتكذيبها وشركها"[2]، والإخبارُ عن كثرة الآيات يُراد منه قيامُ الحجَّة على المهلَكين، فإنَّ مَن لم يفهم مدلولَ آيةٍ؛ فَهِمَ أخرى، ومن فاتته العِبرة من إحداهنَّ؛ أصابته أختها، وبذا أفاد تعريف لفظ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بـ(أل) الجنسيَّة الاستغراقيَّة؛ لتشمل آيات اللّه المسطورة والمنظورة؛ فهذا التَّنوُّع دليل قوَّة البسطِ، وبراعة العطاء.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 174 - 175.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 73.

بلاغةُ استعمال أداة (لعلّ):

عبَّر النَّظم الجليل بأداة التَّرجّي (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وهي هنا مستعملة للتَّعليل، أي: "لكي يرجعوا عمّا هُم فيه من الكفر والمعاصي"[1].

بلاغةُ التَّعبير بفعل الرُّجوع مضارعًا:

الإقلاع عن الشِّرك ونبذ الكفر غاية لتصريف الآيات

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الرُّجوع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المراد من تصريف الآيات للأمم إقلاعهم عن الشِّرك والعناد[2]، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ من إقلاعهم أن يكون دائمًا مستمرًّا.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإهلاك والتَّدمير:

الهلاكُ هو الفساد وإعدام الشَّيء، والتَّدمير دخول الهلاك لمكان ما

الهلاك يَدلُّ عَلى كَسْرٍ وسُقوطٍ، ولِذَلِكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ[3]، والهلاك بطلان الشَّيء من العالم وعدمه رأسًا، ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وهَلاك الشَّيء باستحالة وفساد كقوله: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205][4]، أمّا التَّدمير؛ فهو يَدُلُّ عَلى الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[5]، أي: إدخال الهلاك على الشَّيء[6]، وعبَّر في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّه أراد إزالة تلك القرى وإفناء وجودها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 55.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(4) الراغب، المفردات: (هلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(6) الراغب، المفردات: (دمر).

﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾ [الأحقاف: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نـزولُ العـذابِ كـاشـفٌ سـوءةَ الآلهةِ الزّائفة

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل قصَّة عادٍ على وجه التَّفصيل، وألحقه بالتَّنويه على عذاب أهل القرى على الإجمال؛ أتبعه بتوبيخهم على عبادة من لا يدفع عنهم العذاب، ولا يملك لهم نفعًا ولا ضرًّا[1]، فوبَّخهم بأنَّ أصنامهم لم تقدر على نصرتهم وقت حاجتهم إليها، ولم تشفع لهم وقت حلول العذاب عليهم[2]، فهو انتقالٌ من ذكرِ حال المعذَّبين، إلى ذِكر آلهتهم الَّتي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى؛ لبيانِ مآل الظُّلم في العبادةِ، واتِّخاذ الأنداد من دون الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَهُمُ﴾: (نصر) أصلٌ يدلُّ على إتيانِ خَيرٍ وإيتائِه، ونصر الله المسلمين: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عدوِّهم[3]، وأصله: الإمداد بما فيه زيادةٌ ومناسبةٌ وقوَّة[4]، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[5]، ونَصَرَ الغيثُ الأرضَ: غاثَها[6]، وانتصَر الرَّجُل؛ إذا امتَنَع مِنَ ظالِمِه[7]، والنَّصرُ والنُّصرَةُ: العَونُ، ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[8]، وسائر ما في القرآن من التَّركيب ومنه (نصر)، (ناصر)، (نصير)؛ فهو بمعنى المعونة حالًا أو مآلًا، ومن الإمداد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 55.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(5) الخليل، العين، الأزهري، تهذيب اللغة: (نصر).
(6) الجوهري، الصحاح: (نصر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(8) الراغب، المفردات: (نصر).

المذكور استُعمِل النَّصر بمعنى الإنقاذ أو الخلوص من العذاب، فهو من جنس المعونة الَّتي هي تقوية، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ [هود: 30][1]، والمراد به في الآية الكريمة: المنع من الهلاك[2].

2) ﴿قُرۡبَانًا﴾: (قرب) أصلٌ يدلُّ على خلاف البُعد[3]، والتَّقرُّب: التَّدنّي إلى شيء، والتَّوصُّل إلى إنسانٍ بقُرْبةٍ أو بحقٍّ، والاقتراب: الدُّنوُّ[4]، والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى الله تبتغي به قُرْبًا ووسيلة[5]، وصار في العُرف اسمًا للنَّسيكة الَّتي هي الذَّبيحة، وجمعه: قَرابِينُ، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا﴾ [المائدة: 27][6]، والقُرْبان مصدرُ قَرُبَ يَقْرُب، أي: يَتَقَرَّبون إلى الله، وكانَ قُرْبان الأُمَم السّالفةِ ذَبْحَ البَقَرِ، والغَنَم، والإبل[7]، والمراد به في الآية الكريمة: التَّقرُّب إلى الله[8].

3) ﴿إِفۡكُهُمۡ﴾: (أفك) أصلٌ يدلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ وصَرفِهِ عَن جِهَتِه، أَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيءِ: إذا صَرَفْتَهُ عَنهُ[9]، أفك يأفك أفكًا، وأفَكْته عن الأمر: صرفته عنه بالكذب والباطل[10]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقُّ أن يكون عليه، كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30]، أي: يُصرفون عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[11]، والمراد به في الآية الكريمة: كَذِبُهم[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ الكريمة توبيخَ الله تعالى الَّذين كفروا، مخاطبًا إيّاهم: هلّا منعت تلك

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 324.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرب).
(5) الخليل، العين: (قرب).
(6) الراغب، المفردات: (قرب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(8) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(10) الخليل، العين: (أفك).
(11) الراغب، المفردات: (أفك).
(12) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 162.

الأصنامُ أصحابَها من الهلاك، وهلّا نصر هؤلاء الَّذين أهلكناهم من تلك القرى أصنامهم، الَّتي اتَّخذوا عبادتها قربانًا يتقرَّبون بها إلى اللّه جهلًا منهم، بل إنَّ هذه الأصنام قد ضلَّت عنهم، وغابت عن الحضور لنصرتهم، فلم يجيبوهم، ولا دافعوا عنهم، وذلك كَذِبُهم الَّذي افترَوْهُ بجَعْلِهم آلهةً من دون اللّه ﷻ[1].

توبيخُ الكافرين ببيانِ حال معبوداتهم

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

تفريعُ حالِ الآلهةِ بعد حال عابديها

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ بالفاء، وهي هنا للتَّفريع، فلمّا ذكر عذاب عاد، وعذاب أهل القرى للموعظة؛ فرَّع عليه توبيخ آلهتهم الَّتي قعدت عن نصرهم وإنقاذهم من العذاب، والمقصود توبيخُ الهالكين على شركهم[2].

نكتةُ استعمال (لولا):

توبيخُ الكافرين على اتِّخاذ آلهة عاجزة عن نصرهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ (لولا) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ للدَّلالة على التَّحضيض، أي: فهلّا منعت الأصنام العذاب عنهم[3]، والمراد من هذا التَّحضيض التَّوبيخ؛ وذلك أنَّ لولا عند دخوله على جملة فعليَّة يكون دالًّا على التَّحضيض، فهو تحضيض للفاعل على تحصيل الفعل المذكور، وإذا كان الفاعل المذكور غير مقصود بالخطاب - كما في الآية - فإنَّ (لولا) تكون للتَّوبيخ؛ إذ لا يتَّجه تحضيض المخاطَب على فعل غيره[4]، فهو توبيخٌ للكافرين؛ لاتِّخاذهم آلهةً عاجزة عن نصرهم.

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 505.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 55.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.

فائدةُ استعمال فعل ﴿نَصَرَهُمُ﴾ مادَّة وصيغة:

التَّعريضُ بزعم المشركين وإبطال معتقدهم

عبَّر النَّظم الجليل بفعل النَّصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ للدَّلالة على المنع، أي: فهلّا منعتهم آلهتهم من نزول العذاب والإهلاك[1]، وجاء التَّعبير بصيغة الفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق انتفائه، واختيار هذا الفعل للتَّعريض بما كانوا يقولونه من أنَّ الآلهة ستنصرهم؛ إن نزل بهم عذاب الله الماحق.

نكتةُ تقديم المفعول به على الفاعل:

الأهمُّ في السّياق أولى بالتَّقديم

قدَّم النَّظم الجليل المفعول به على الفاعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، فقدَّم الضَّمير المتَّصل في ﴿نَصَرَهُمُ﴾ على الفاعل الَّذي هو الاسم الموصول[2]، وذلك للإيجاز في التَّعبير، وللاهتمام بالمقدَّم؛ إذ هو المتحدَّث عنه في السّياق، فالمقصود من النَّصر أن يقع عليهم، وهو أهمُّ في السّياق من النّاصر.

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّهكُّم بالمشركين بتنزيلِ آلهتهم منزلة العقلاء

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ وذلك لما تضمَّنته صلته من الإشارة إلى خطَئِهم وغلطهم الَّذي أودى بهم، وهو عبادتهم من دون الله تعالى، فلم تغنِ عنهم شيئًا، وإنَّما جاء بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهو دالٌّ على العقلاء، فعامل الأصنام معاملة العقلاء؛ جريًا على الغالب في استعمال العرب[3]، وهو هنا من باب التَّهكُّم بهم؛ جريًا على ما آثروه في الاستعمالِ، فلمّا جعلوا الآلهة

(1) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 28.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 50.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.

قادرةً؛ كان التَّعبير بما يوحي بذلك؛ للتَّبكيت والتَّهكُّم بأصحاب المعتقدات الفاسدة.

دلالةُ استعمالِ فعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ مادَّة وصيغة:

افتعالُ الجهد الكبيرِ بريدُ الكذبِ المبير

آثر النَّظمُ الجليل استعمالَ مفردة فعل الاتِّخاذ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، وهو مشتقٌّ من الأخذ الدّالِّ على حوز الشَّيء وتحصيله، والاتِّخاذ افتعال منه[1]، فقد عملوا على تحصيل آلهة من دون اللّه تعالى، وجاء التَّعبير بصيغة الافتعال؛ للدَّلالة على اجتهادهم في ذلك[2]، كما أنَّه يشير إلى أنَّ تلك المعبودات إنَّما هي باصطناعهم لها، وهم يعرفون زيفها، فما اتَّخذوها إلّا بعد طول تعبٍ ونصبٍ وإقناعٍ للعقولِ الضَّعيفة بقدرة الآلهةِ على النُّصرة، ثم لم يكن لهم إلّا همُّها وغمُّها، وآثار خيبتها وبطلان هيبتها.

نكتةُ تقديم القيد على المفعول:

تهويلُ الشِّرك بتهوين شأن كلِّ آلهةٍ غير الله تعالى

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة على المفعول به في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، فلم يقل: (الَّذين اتَّخذوا قربانًا آلهة من دون اللّه)؛ للتَّعجيل بتهويل جريمة الشِّرك واتِّخاذ آلهة من دون اللّه تعالى.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾، وهي هنا ابتدائيَّة؛ للدَّلالة على سفول رتبة هذه الآلهة؛ إذ إنَّ شأنها ابتدأ من مرتبة سُفلى[3].

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 16.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 176.

كلُّ معبودٍ من دون الله في الدّون

فائدة استعمال ﴿دُونِ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بالظَّرف ﴿دُونِ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ﴾؛ للدَّلالة على سفول رتبة الآلهةِ، وقلَّة عقول من اتَّخذهم[1]، كما أنَّه يدلُّ على المباعدة والتَّجاوز، أي: قد تجاوزوا اللّه في اتِّخاذ تلك الأصنام آلهة من دونه، والمراد من ذلك تشويه حالهم وتبشيع شركهم[2]، كما أنَّ ذِكْرَ الظَّرف يومئ إلى أنَّ كلَّ ما اتَّخذه النّاس هو دون اللّه تعالى.

اللهُ الجليلُ هو الإله الحقُّ وكلُّ ما سواه باطل

نكتةُ التَّعبيرِ بعنوان الألوهيَّة:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالاسم الجليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه الملك الأعظم، الَّذي هو أعظم من كلِّ معبوداتهم، وهو المستحقُّ للعبادة[3]، فذِكرُ اسم الجلالة يقتضي بتلاشي كلِّ ما في أذهانهم من معبودات زائفة صنعوها بأيديهم.

نكتةُ حذف المفعول الأوَّل:

حذف النَّظم الجليل المفعولَ الأوَّل لفعل الاتِّخاذ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ﴾ والتَّقدير: (فلولا نصرهم الَّذين اتَّخذوهم آلهة من دون اللّه قربانًا)[4]، والغرضُ من ذلك الإيجاز بحذف المعلوم من السّياق.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

قدَّمت الآية الكريمة قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على مفعول (اتَّخذ)؛ لأنَّ مناطَ الأمر، وسرَّ البشاعة فيه، هو أنَّهم اتَّخذوها آلهة من دون اللّه، فالتَّقديم هو لما تتحقَّق به الأهمّيَّة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 176.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 16.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.

دلالةُ لفظ ﴿قُرۡبَانًا﴾:

القربةُ لله تعالى بالتَّوحيد لا بالأصنام

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة القربان في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ للدَّلالة على حالهم أو لبيان غايتهم، فهو صالح لأن يكون حالًا، أي: متقرِّبين إلى اللّه، ويصلح أن يكون مفعولًا لأجله، أي: لأجل القربة بزعمهم[1]، وجاء التَّعبير بصيغة المصدر للمبالغة فيه، وبيان كونه تقرُّبًا عظيمًا[2]، والمراد بذلك الإنكار عليهم في طريقة التَّقرُّب إلى اللّه باتِّخاذ تلك الأصنام وسيلة للقربة، فإنَّما قال ذلك؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ عبادتنا لهم إنَّما نبغي أن تقرِّبنا إلى اللّه[3].

نكتةُ تنكير ﴿قُرۡبَانًا﴾:

أفاد تنكيرها هنا تحقير هذه القرابين من آلهتهم المزعومة، والنَّعي عليهم اتِّخاذها من دون اللّه.

فائدةُ حرفِ الإضراب ونوعه:

التَّهكُّمُ بالكافرين بضياع آلهتهم وقت عوزهم

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهي هنا للعطف والإضراب والاستدراك؛ لأنَّ لولا فيه معنى النَّفي، أي: ما نصروهم، ولا قرَّبوهم إلى اللّه، بل غابوا عنهم وقت حلول العذاب[4]، فهو مساق للتَّهكُّم بهم، فلم ينصروهم؛ لغيابهم عنهم وضياعهم بالكلّيَّة[5].

نكتةُ عطف ﴿ضَلُّواْ﴾ على ﴿نَصَرَهُمُ﴾:

لم يقع النَّصر، ولم يقع الحضور تهكُّمًا بالضّالّين

عطف النَّظمُ الجليل الضَّلال على النَّصر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، بـ ﴿بَلۡ﴾ فلمّا نفى

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 161.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 74.

النُّصرة؛ انتقل إلى نفي ما هو أخصُّ منها؛ لأنَّ نفي النُّصرة لا يقتضي نفي حضور الآلهة، فأفاد أنَّهم لم يحضروا بالكلّيَّة، فضلًا عن أن ينصروهم(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّلال:

ضلالُ المعبودِ كضياع العابد

عبَّر النَّظم الجليل بالضَّلال في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على عدم الاهتداء، والمراد به هنا الغيبة عن الحضور وعن تحقيق النُّصرة والانتفاع المرجوِّ منهم، أي: قد غابوا عنهم(2)، وفيه إشعارٌ باتِّصافهم بالضَّلال المبين، كاتِّصاف معبوداتهم الَّتي يعبدونها من دون اللّٰه تعالى، فالضّالُّ لا يعبد إلّا ضالًّا مثله.

بلاغةُ التَّضمينِ باستعمال حرف (عن):

استعمل النَّظم الجليل حرف (عن) في قوله تعالى: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لتضمينه معنى الغيبةِ، أي: غابوا عنهم، وابتعدوا، فلم يظهروا وقت الحاجة إليهم.

نوعُ الواو ودلالتها:

الشُّروعُ في بيان الكذب بعد ذكرِ دعواهم

افتتح النَّظم الجليل الجملة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهي هنا للاستئناف(3)، سيقت للتَّصريح بأنَّ القصَّة المذكورة وما جرى لهم من العذاب يظهر "خلاف ما كانوا يقولون: إنَّ أوثانهم آلهة، وإنَّها تضرُّ، وتنفع، وتقرِّبهم إلى اللّٰه، وتشفع لهم عنده"(4)، فهو لبيان التَّهكُّم بهم وإظهار كذبهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

الضّالُّ بعيد عن جادَّة الحقِّ وسبيل الهداية

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد، في

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 85.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 86.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 176.

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّخاذهم تلك الآلهة كان في غاية البُعد عن الصَّواب، وأنَّ ضلالهم بعيد عن السَّداد والحقِّ[1].

بلاغةُ عطفِ الافتراء على الإفك ونوعه:

الافتراءُ نوعٌ من الكذب، وهو اختلاق الكذب وقصده

عطف النَّظمُ الجليل الافتراء على الإفك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهو من باب عطف العامِّ على الخاصِّ[2]، فالافتراء: نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة، فإنَّ زَعْمَهم الأصنام شركاء لله كذبٌ مرويٌّ قبلهم، فهو إفكٌ، وأمّا زعْمُهم أنَّها تقرِّبهم إلى الله؛ فذلك افتراء هم اخترعوه[3].

فائدةُ استعمال مفردة ﴿إِفۡكُهُمۡ﴾ دون (ضلالهم):

حقيقةُ الأفعالِ معذوقةٌ بعللها

عبَّر النَّظم الجليل بالإفك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على كذبهم الَّذي اخترعوه، أمّا الضَّلال؛ فهو عدم الاهتداء، فالإفك هنا أخصُّ من الضَّلال، وإضافته من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: الإفك الَّذي فعلوه[4]، فقد تحصَّل لهم الضَّلال؛ بسبب الإفك والافتراء الَّذي جنوه، فحقيقةُ الأفعال معذوقة بعللها.

نوع (ما) ودلالتها:

عبَّر النَّظم الجليل بـ (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهي صالحة أن تكون مصدريَّة، والمصدر معطوف على الإفك، وذلك إفكهم وافتراؤهم، وصالحة أن تكون موصولة، أي: والَّذي افتروه[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 176.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 309.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56 - 57.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 50.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 51.

نكتة ذكر ﴿كَانُواْ﴾:

ذكر النَّظمُ الجليل فعلَ الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فلم يقل: (وما يفترون)؛ للدَّلالة على أنَّ الافتراء دائمٌ فيهم وطبْعٌ راسخ فيهم[1].

بلاغةُ التَّعبير عن الإفك بالاسم وعن الافتراء بالفعل:

الإفـك كـذبٌ مرويٌّ متناقل، والافتراء كذبٌ اخترعوه، وأوجدوه متجدِّدًا

عبَّر النَّظم الجليل عن الإفك بالاسم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد ثبوت إفكهم، وأنَّها حقيقة تتناقلها الأخبار، وعبَّر عن الافتراء بالفعل؛ للدَّلالة على أنَّهم اخترعوه، وجاء بصيغة الفعل المضارع أنَّهم يكرِّرونه، ويجدِّدونه حالًا بعد حال، فجيء به مضارعًا؛ لبيان إصرارهم عليه، وأنَّهم دائمون مستمرّون فيه[2]، كما أنَّ صياغته فعلًا مسندًا إلى واو الجماعة يحافظ على نسق الفاصلة.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الافتراء والكذب:

الكذب مخالفة الحقيقة، والافتراء مخالفتها بما لا يرتضيه المكذوب عنه

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبر لهما على خلاف في ذلك، والافتراء: افتعال من الفري، وهو أقبح الكذب، وهو الكذب المتعمَّد[3]، فهو أخصُّ من الكذب، وهو كذب المرء في حقِّ غيره بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا، ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿أَفۡتَرَىٰ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 56 - 57.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فري).

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: 38]؛ لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه مع نسبته إليه، وأيضًا قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، وعدَّة الزَّوجة، كما وردت به الرِّواية، بخلاف الافتراء[1]، فعبَّر عنهم بكونهم مفترين؛ لأنَّهم كذبوا على اللّه تعالى بما لا يرتضيه، بأن جعلوا له شركاء في العبادة.

(1) العسكري، الفروق، ص: 449 - 450.

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

بعد ذكرِ الأخبار الغيبيَّة لما مضى؛ ناسب ذِكرُ الأخبار الغيبيّة للحاضر

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة قصَّة هود عليه السلام مع قومِه، وأخذ العِبرة فيما يعود على المخاطَبين بخيرٍ؛ ناسب الانتقال إلى أمرٍ عجيب في مضمونه، وهو أنَّ اللّه تعالى صرف نفرًا من الجنِّ؛ ليستمعوا القرآن، فإذا أعرض المشركون من قومِه ﷺ كما أعرض من سبقهم، فإنَّ هناك من يُقبل على القرآن استماعًا وإيمانًا من غير قومِه، بل من غير الجنس البشري عمومًا، وهم الجنُّ، ففيه تأييدٌ للنَّبيِّ ﷺ بأمرٍ غيبيٍّ، وتسلية عمّا يختلج صدره من الشُّعور بالحزن على قومِه؛ لعدم استجابتهم لدعوة الحقِّ المنجية من عذاب النّار.

كما يُقال: إنَّه لما بيَّن أنَّ الإنسيَّ مؤمنٌ وكافر، وذكر أنَّ الجنَّ فيهم مؤمن وكافر، وكان ذلك بعقب قصَّة هود وقومه؛ لما كان عليه قومه من الشِّدَّة والقوَّة، والجنُّ توصف أيضًا بذلك، وإنَّ ما أُهلك به قومُ هود هو الرّيح، وهو من العالم الَّذي لا يُشاهد، وإنَّما يُحسُّ بهبوبه، والجنُّ أيضًا من العالم الَّذي لا يُشاهد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَفۡنَآ﴾: (صرف) معظم أبوابه في ردّ الشيء ورجوعه[2]، فالصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبدالُه بغيره، يقال:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (صرف).

صَرفْتُ الرَّجُلَ عَنّي فانْصَرَفَ، والمُنْصَرَفُ: قَدْ يَكونُ مَكانًا وقَدْ يَكونُ مَصْدَرًا، والصَّرْفُ: أن تَصْرِفَ إنْسانًا عَنْ وجْهٍ يُريدُهُ إلَى مَصْرِفٍ غَيْرِ ذَلِكَ[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: قلَبْنا وجهتَهم إليك وأرجعنا سمعهم إليك، ليستمعوا منك القرآن[2].

2) ﴿نَفَرًا﴾: النَّفر والنَّفْرة - بالفتح - والنَّفيرُ: القومُ ينفِرون معك، يَخْرُجون لقتال، نَفَرَت الدّابة نِفارًا ونُفورًا، ونَفَر الظَّبيُ: شَرَد، والإبلُ: تَفَرَّقت، نفر الجُرْحُ: ورِمَ، والعَيْنُ وغيرُها: هاجت، وورمت، ونَفَرُ القومِ - محركةً -: جماعتُهم الَّذين ينفرون في الأمر، قال تعالى: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: 34]، وقال: ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: 1][3]، فمعنى قوله تعالى: ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: جماعة منهم نفروا إلى سماع القرآن من الرَّسول ﷺ.

3) ﴿حَضَرُوهُ﴾: (حضر): إيراد الشَّيء، وورده ومشاهدته، وقد يجيء ما يَبعُد عن هذا، وإن كان الأصل واحدًا، فالحَضَر خلاف البَدْو، وسكون الحَضَر الحضارة، قال:

فَمَنْ تَكُنِ الحَضارَةُ أعْجَبَتْهُ *** فَأيَّ رِجالِ باديَةٍ تَرانا

وتأوَّل ناس قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: 98]، أي: أن يصيبوني بسوء، والباب كلُّه واحد، وذلك أنَّهم يَحْضُرونه بِسوء، ويقال للحاضر، وهي الحي العظيم.

4) ﴿أَنصِتُواْ﴾: (نصت) يدلُّ على السُّكوت، و(أنصتَ) يكون لاستماع الحديث، ونَصَتَ يَنْصِتُ[4]، والإنصاتُ على هذا أقوى من الاستماع، وفيه من الاستعدادِ للقبول، أو من الخشوعِ - ما ليس في الاستماع الذي يتحقَّقُ بمجرَّدِ الاستعداد لوصول الصَّوت إلى الأذن[5]، ويُقالُ: أنْصَتَ إذا سَكَتَ؛ وأنْصَتَ غيرَه إذا أسْكَتَه[6].

5) ﴿قُضِيَ﴾: القضاء في اللُّغة: إحكام الشَّيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس: 71]، أي: افرُغوا مِن أمركم، وأمضوا ما في أنفسكم.

و(قضى) في القرآن واللُّغة يأتي على وجوهٍ تتقارب معانيها، ومرجعها كلُّها إلى

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (صرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/ 434.
(5) الخليل، العين، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصت).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نصت).

انقطاع الشَّيء وتمامِه، والفراغِ منه، منها: قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: 12]، أراد: قطعهنَّ، وأحكم خلقهنَّ، وفرغ منهنَّ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾، أي: فرغ من تلاوته[1].

6) ﴿وَلَّوْاْ﴾: الوَليُ: القُربُ والدُّنوُّ، يقال: تباعد بعد ولْيٍ، وأوليته الشَّيءَ فوَلِيَهُ، وكذلك وليَ الوالي البلد، ووَليَ الرَّجلُ البَيْعَ، وِلايَةً فيهما، وأولَيتُهُ معروفًا، وتَوَلَّى العملَ، أي: تقلَّد، وتَوَلَّى عنه: أعرض، وولَّى هاربًا: أدبَرَ، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]، أي: مستقبِلُها بوجهه[2].

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: أسرعوا إلى قومهم مخوِّفين إيّاهم من الاستمرار على الكفر الَّذي هم عليه، مرغِّبين في اتِّباع الرَّسول ﷺ، والإيمان بالقرآن الكريم وما فيه من تفاصيل الدّين.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استـمـاعُ الـجـنِّ لـلـقرآنِ وإيـمـانُـهـم به حجَّةٌ على سائر الـبـشـرِ ممَّن يعبدُ الحجر

يخاطب اللّه تعالى محمَّدًا ﷺ بواقعة سَوْقِ نَفر من جنس الجِنِّ إليه، وهو يتلو القرآن الكريم، فلمّا وصلوا إليه، وسمعوه يتلو، وحضرت نفوسُهم، وانفعلت للقرآن الكريم؛ استنصَتَ بعضهُم بعضًا؛ ليستمعوا إلى عظمة الكتاب العزيز، ويستمتعوا به.

فلمّا انتهى النَّبيُّ ﷺ من تلاوته؛ هرولوا مولّين وجوههم قِبَلَ قومهم من الجنِّ؛ ليُخوِّفوهم خطرَ ما هم عليه من الكفر، ويبشِّروهم بما أنزل على محمَّد ﷺ، أنزله اللّه تعالى من بعد الكتاب الَّذي أنزله على موسى عليه السلام - وهو التَّوراة - وأنَّ الكتاب الجديد يَنبثق من نفس مشكاة التَّوراة، فهو يُرشِد إلى الهُدى، ويَدُلُّ على التَّشريع الحكيم.

(1) ابن بطال، النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب: (قضي).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (ولي).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

التَّعريضُ بالمشركين وتوبيخُهم على شديدِ عنادهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تحتمل أن تكونَ استئنافيَّة؛ يستأنف بها النَّظم الكريم امتنانًا على الرَّسول ﷺ، بتذكيره بتوحيد نفر من الجنِّ الصالح؛ إذ أسلموا حين سمعوا القرآن الكريم منه ﷺ.

وتحتمل أن تكونَ عاطفة على جملة: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: 21] من عطف القصَّة على القصَّة[1]؛ تعريضًا بكُفر قريش ككفر قوم عاد، "أي: واذكر لِقومك وقت صرفنا إليك نفرًا من الجنِّ مقدَّرًا استماعُهم القرآنَ؛ لعلَّهم يتنبَّهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه؛ إذ إنَّهم كفروا به، وجهلوا أنَّه من عند اللّه تعالى، وهم أهل اللِّسان الَّذي نزل به، ومن جنس الرَّسول الَّذي جاء به، وأولئك استمعوه، وعلموا أنَّه من عنده تعالى، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله، ففي ذِكر هذه القصَّة توبيخ لكفّار قريش والعرب"[2].

نكتةُ حذفِ العامل في (إذ):

الحدثُ العجيبُ يطوي التَّنبيه البليغ

(إذ) كلمةٌ تدلُّ على ما مضى من الزَّمان، وهي اسمٌ مبنيٌّ على السُّكون، وحقُّه أن يكون مضافًا إلى جملة، تقول: جئتك إذ قام زيد، وإذ زيد قائم، فإذا لم تضف؛ نوِّنت[3]، فيقال: (حينئذٍ)، فهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بِفِعْلٍ محذوف، والتَّقدير: واذكُر يا محمَّد إذ صرفنا؛ وحذف هذا الناصب يوَفِّرُ عناية المتلقّي على الحدَث نفسه، وما فيه من عجَبٍ وكرامةٍ للرَّسول ﷺ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 57.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 187.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (أذذ).

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿صَرَفۡنَآ﴾:

صرفُ الجنِّ إلى استماعِ القرآن إنباءٌ عن كريم رعايةِ الرَّحمن

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (صرف) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فمعنى صرْفِ الشَّيء إلى الشَّيء: توجيهه إليه، ومنه تصريف الرياح، أي: إطلاقها من مهابِّها الَّتي تهبُّ منها إلى الجهات الموجَّهة إليها، وهذا يعني أنَّ الله ﷻ قد وجَّه هؤلاء النَّفر من الجنِّ، إلى حيثُ كان النَّبيُّ ﷺ يتلو القرآن[1]، كما أنَّه قد دلَّ هذا الفعلُ على تطويعِ القلوب، وتوجيهها إلى حيث كان الرَّسول ﷺ، والإتيان بهم إليه بلا أدنى كُلْفَةٍ تَكَفَّلها ﷺ بخصوص دعوتهم؛ ليسمعوا منه، فيتأثَّروا به، وذلك محضُ فضلٍ وتوفيق من الله تعالى له وعليه ﷺ، فمعنى ﴿صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، أي: ألْقينا في قلوبهم مَيْلًا وداعيةً إلى استماع القرآن[2]، وأقبلنا بهم نحوك[3].

نكتةُ إسناد فعل (صرف) إلى نون العظمة:

تــطــويــعُ قـلـوب الـعـبـادِ وتصريفها بيدِ العظيم ﷻ

أُسنِدَ فعل (صرف) إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ وذلك للإشعار بعظمة الحدثِ، وأنَّ الله ﷻ هو من تكفَّل به، فهو القادر على تطويع القلوب، قلوبِ الإنس والجنِّ والإتيان بهم باقتدار، ولا يقدر على ذلك إلّا العظيم ﷻ.

كما أنَّ في إسناد فعل الصِّرف إلى نون العظمة تعظيمًا لهذه المنَّة الرَّحمانيَّة عليه ﷺ؛ إذ فيها البشارة بأنَّ دعوته بدأت تُؤتي ثمارَها في النَّوع الثّاني من المكلَّفين، وهم أحد الثَّقلينِ المخاطَبين بالدّين الحنيف، حيث عموميَّةُ رسالته الخاتمة ﷺ.

دلالةُ تعدية الفعل بحرف (إلى):

عُدّي فعلُ (صرف) بحرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿صَرَفۡنَآ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 296.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 28.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 311.

صرفُ الجنِّ كان لغاية الإقبال على الرَّسول والاستماع للرسالة

﴿إِلَيۡكَ﴾ لبيان انتهاء الغاية؛ إذ كان ﷺ غايةَ صرف الجنِّ ومنتهاه، ففي (إلى) إذًا بيانُ تكريمه ﷻ رسولَه ﷺ؛ إذ جعله منتهى طلبِ المصروفين إليه من الجنِّ، كما أنَّ من وراء ذلك غايةً أخرى، وهي الغاية العظمى، وهي استماع القرآنِ.

فالغاية هنا معنويَّة وحسّيَّة: حسّيَّة؛ إذ أقبلوا إلى الرَّسول ﷺ بهيئتهم حتّى أتوا إليه، ومثلوا بين يديه، ومعنويَّة؛ إذ أولَوه الانتباه، واستنصت بعضُهم بعضًا، واستمعوا منه القرآن الكريم بعناية ووقار، و"هكذا شأن أهل الخير، وطلاب الكمال الإنساني، ينشدون الهدى، ويرتادون مواقعه، ويستنبِئون أنباءه، حتّى إذا لا حت لهم بشائره، ولمعت بروق غيومه؛ أقبلوا عليه مسرعين، في لهفة وشوق، لا يثنيهم عن وجهتهم إليه بُعد الشُّقَّة، ولا قلَّة الزّاد، ولا تربُّص الأعداء، وكما يسعى الكائن الحيُّ إلى رزقه، ويطرق من أجله كلَّ باب يُخيَّل إليه أنَّ وراءه شيئًا يشبع جوعه، أو يطفئ ظمأه، كذلك يفعل الرّاشدون والعقلاء من النّاس؛ إذ يسعون في طلب غذائهم الرّوحي والعقليّ"[1].

دلالةُ ضمير الخطاب:

تشريفُ الرَّسولِ وتكريمُه سلوى عن كلِّ حزنٍ وحسرة

كثُر في السّورة الكريمة خطاب الرَّسول ﷺ، من مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾ [الأحقاف: 4]، وقوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 10]، وقوله: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: 21]، وفي هذه الآية: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطاب موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي هذا الخطاب الإلهيِّ تشريفٌ وتكريمٌ وتسليةٌ لدفعِ حزنِ إدبار المشركين عن الاستجابة لدعوته ﷺ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 296.

بيانُ قصدِ فعل الصَّرفِ لتقويةِ الغاية

غرضُ تقديمِ قيدِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول:

قُدِّم قيد ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا﴾؛ لتقويةِ دلالةِ القصد بالفعلِ، فالصَّرف ابتداءً وانتهاءً كان لرسول ﷺ؛ لاستماع القرآنِ والاهتداء به؛ إذ تتآزر دلالة القصر الكامنة وراء تقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ إذ اختُصَّ الرَّسول ﷺ بذلك الخطاب، مع دلالة (إلى)، ومادَّة الصَّرف على الاحتفاء والتَّكريم له ﷺ، والإشعار بكرامته صلّى الله تعالى عليه وسلَّم.

إقـبـالُ الـجـنِّ امتزجَ بالسُّرعةِ والاحـتـفـاءِ بالمنفورِ إليه

دلالةُ استعمال مفردة ﴿نَفَرٗا﴾:

آثر النَّظم الكريم إطلاقُ مفردة ﴿نَفَرٗا﴾ على الجنِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، "والنفر: عدد من النّاس دون العشرين، وإطلاقه على الجنِّ؛ لتنزيلهم منزلةَ الإنس وبيانه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾"[1]، وذلك لبيانِ سرعة نفير هؤلاء الجنِّ، وفرط نشاطهم في إتيانهم رسولَ ﷺ، فمفردة (نفر) مأخوذة من النَّفير؛ لأنَّ الرجلَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ؛ نَفَر بَعضُ النّاس الَّذين يهتمّون بأمره لإغاثته[2]، كما أنَّ فيه دعمًا لدلالة تكريمه والاحتفاء به ﷺ؛ إذ الإقبال ممزوجٌ برغبةٍ يحدوها شغف لسماعِ القرآن، وتلك دلالات تفوح من مادَّة (نفر)، ولمّا كان استعطافُ مَن جُبِل على النُّفْرة، وإظهارُ مَن بُنِي على الاجتنان أعظمَ في النِّعمة؛ عَبَّر بما يدلُّ على ذلك، فقال: ﴿نَفَرٗا﴾، وحَسَّن التَّعبيرَ به أنَّ هؤلاء لَمّا خُصّوا بشرف السَّبْق وحُسْن المتابعة؛ كانوا كأنَّهم هم النَّفر لا غيرهم، مع أنَّه ليس لهؤلاءِ النَّفر من جبلّاتهم إلّا النُّفرة والاجتنان[3]، كما أنَّ فيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 205.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

إشارةً إلى أنَّ المصروفين رجالًا لا أنثى فيهم[1]؛ لأنَّ الرِّجال هم الَّذين إذا حَزَبَهُم أمرٌ؛ نفروا لكفايته[2].

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أفادَ البيانَ، فهُم من الجنِّ لا من الإنس، وهم بعضُ الجنِّ لا كلُّهم، فهُم نفرٌ كائنٌ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

موقع جملة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾:

استجابةُ القلوبِ لله تعالى على الفور لا التَّراخي

جملة: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ صفةٌ أخرى لـ ﴿نَفَرًا﴾، أو حالٌ مقدَّرةٌ مِنه، وكأنَّ صرْفَهم كان مزامنًا للاستماع، وإنَّما استمعوا حين انتهوا إليه ﷺ، وفي ذلك إيحاءٌ بارتباط السَّبب بالمسبَّب، أي: الصَّرف بغايته، وهو الاستماع؛ إيحاءً بسرعة النَّفير إليه ﷺ، وسرعة الحضور والجلوس للاستماع.

دلالةُ التَّعبير (بالاستماع) دون (السماع):

الاستماعُ يكونُ بقصدٍ وحرصٍ والسَّماعُ يأتي اتِّفاقًا

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة (الاستماع) لا (السَّماع)؛ لِما في زيادة السّين والتّاء من معنى الطَّلب، ولِما في الافتعال مِن التَّصرُّف والسَّعي والاعتمال في ذلك الفِعل، وقد فرَّقوا بين (المستمع) و(السامع) "بأنَّ المستمع مَن كان قاصِدًا للسَّماع، مصغيًا إليه، والسّامعُ مَن اتَّفقَ سماعُه مِن غيرِ قصْدٍ إليه، فكلُّ مستمِعٍ سامعٌ مِن غير عكس"[3]، فقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: "يطلبون سماع الذِّكر الجامع لكلِّ خير، الفارق بين كل ملبس"[4]، ففي الاستماع حرصٌ منهم على الإنصات، وتركيز على تلقُّف ما ينطق به الرَّسول ﷺ من الذِّكر الحكيم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 105.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 186.
(3) حقي، روح البيان: 3/ 303.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

بلاغةُ تضمينِ فعلِ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ علَّةَ الصَّرفِ:

صَرْفُ الجنِّ مسبَّبٌ عن استماعِ القرآنِ

قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في موضع الحال من الجنِّ، ولمّا كانت الحالُ قيدًا لعاملها، وهو ﴿صَرَفْنَآ﴾؛ كان التَّقدير: يستمعون منك إذا حضروا لديك؛ فصار ذلك مؤدّيًا مؤدَّى المفعول لأجله، فالمعنى: صرفناهم إليك؛ ليستمعوا القرآن[1]، وعليه ففي فعل ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ علَّة الصَّرفِ.

نكتةُ اختيارِ اسمِ القرآن دون الكتاب:

سياقُ الآيةِ يَصطَفي ما يَفي بمُقتَضَياتِ المعاني

في اصطفاء اسم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ اتِّساقٌ تامٌّ مع عناصر التَّركيب في هذا السياق؛ إذ الفعل ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ يقتضي سماعَ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لا (الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُقرأُ باللِّسانِ، فيُسمَع بالآذان، أمّا (الكتاب)؛ فيُكتَبُ بالأيدي، فالمقروء مسموعٌ، والمكتوبُ منظورٌ، كما أنَّ القرآن هو الاسم العَلَم على الكتابِ المنزَل على النَّبيِّ ﷺ، والأصل استعمالُ الاسم الأشهر، إلّا إن كان هناك نكتةٌ تقتضي العدول إلى التَّعبير باسمٍ آخر من أسماءِ القرآنِ.

بلاغةُ التَّعريضِ بالمشركين في الآيةِ:

الإخبارُ باستماعِ الجنِّ للقرآنِ توبيخٌ للإنسِ أصحاب البيان

في الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تعريضٌ بالمشركين الرافضين قبولَ الإيمان بوحدانيَّة اللّه تعالى، والتَّصديق بأنَّ القرآن الكريم كلامه ﷻ، وهم العربُ الخُلَّص، الفاقهون بلاغته، العارفون بدقائق لطائف عربيَّته؛ ففي هذه القصَّة توبيخ لهم؛ إذ إنَّ الجنَّ سمعوا القرآن؛ فآمنوا به، وعلموا أنَّه من عند اللّه تعالى، وهؤلاء مُعرِضون عنه، مُصِرّون على الكفر به، مع أنَّهم من أهل اللِّسان الَّذي نزل به، ومن جنس الرَّسول الَّذي جاء به، والجنُّ ليسوا كذلك[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 934.

وقد أمر اللّه رسولَه ﷺ بذكر هذا للمشركين، وإن كانوا لا يُصدِّقونه لِتسجيل بلوغِ ذلك إليهم؛ لينتفع به من يهتدي، ولِتُكتَب تبعته على الَّذين لا يهتدون(1).

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

سلطانُ القرآنِ عظيمٌ في قلوبِ الصّالحين

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ تفريعيَّة، تفرَّع حضورهم القرآن الكريم على صرفه تعالى إيّاهم إلى الرَّسول ﷺ، وكذلك هي ترتيبيَّة؛ تُرَتِّب حضورهم تلاوته على صرف اللّه تعالى إيّاهم إليه، وهي تُؤذِن بفوريَّة حضورهم إيّاه؛ تأثُّرًا بفعل سلطان صرفه ﷻ، وتوجيه قلوبهم إلى هنالك، و"قُرب زمن الصَّرف من زمن الحضور"(2).

دلالةُ استعمالِ (لما) وفائدتها:

بمجرَّد الحضور تـهـيَّـأ الـقـلـب للإنصاتِ

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ هي (لمّا) الحينيَّة، وفائدتها ترتيبُ زمنِ طلبِ الإنصات على لحظةِ حضورِهم إيّاه بلا فاصل زمنيٍّ، فهي تُفيد تقليص الزَّمن بين جزائها وشرطها، ودخول (الفاء) عليها دون (الواو) تقويةٌ لهذه الفائدة، وفي ذلك إيحاء بشدَّة تأثُّر النَّفر من الجنِّ بالقرآن الكريم، وشدَّة تعلُّقهم به واستحسانهم له، وحرصهم على تصفية اللَّحظة من أيِّ تشويش قد يشغل عن تدبُّر القرآن الكريم.

دلالةُ استعمال مفردة الحضور:

الـحـضـورُ في أصـلِـه لـلـخير الأصيل المقصود أصالةً

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الحضور في جملة: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾؛ وذلك لدلالةِ مفردة الحضورِ على التِماس الخير الدّائم، فإنَّ الحاضرة هم الَّذين يأتون الماء العذب، الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 57.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 178.

لا ينقطع بخلاف البادية[1]، فلفظ الحضور يُشير إلى أنَّهم حضروا أصلَ الخير والحقِّ، فيكون الحضور فيه معنى القصد، وهذا أحد المعاني الأصيلة المصاحبة لهذه اللَّفظة، بخلاف المجيء والإتيان؛ فقد يكون عرضًا.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿حَضَرُوهُ﴾:

تدلُّ صيغة المضيِّ في جملة ﴿حَضَرُوهُ﴾ على تحقُّق وقوعه فعلًا، وكذلك هي الأشكل بدلالتي (الفاء)، و(لمّا)، فتتَّسق الدَّلالات، ويوفَّى المقام حقه.

تعيين مرجع الضَّمير:

الظّاهرُ عودةُ الضَّمير إلى القرآن، ويحتمل أنَّه يعود إلى النَّبيِّ، فيكون التفاتًا

ضمير المفعول في جملة ﴿حَضَرُوهُ﴾ يرجع إلى القرآن المذكور في جملة الصِّفة أو الحال ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، وتعدية فِعل الحضور إلى ضمير القرآن بنفسه يقرِّر أنَّ الحضور المقصود حضور معانيه، وفهْمُ مراميه، والتَّأثُّر به، ويأتي حضور أبدانهم في المقام الثّاني، و"تعدية فعل (حضروا) إلى ضمير القرآن تعديةٌ مجازيَّة؛ لأنَّهم إنَّما حضروا قارئَ القرآن، وهو الرَّسول ﷺ"[2].

وهذا هو الَّذي يقتضيه الظاهر، ويحتمل أن يرجع الضَّمير إلى الرَّسول ﷺ، "وحينئذٍ يكونُ في الكلام التفاتٌ مِن قولِه: ﴿إِلَيۡكَ﴾ إلى الغَيْبَةِ في قولِه: ﴿حَضَرُوهُ﴾"[3]، وهو التفاتٌ من خطاب الرَّسول ﷺ إلى الإخبارِ عنه.

موقعُ جملة ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾:

وقعت جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ جوابًا لـ (لمّا) الحينيَّة في جملة: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي: إنَّ قول النَّفر من الجنِّ: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ قد حصل، وتحقَّق فورَ حضورهم.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حضر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 58.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 679.

صـدورُ الفعلِ عن الجزءِ دليلُ رضا الكلِّ

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

في إسناد فعل القول إلى ضمير الجماعة في جملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ وصدور مثل ذلك يكون عادةً عن بعض النَّفر لا عن كلِّه؛ لبيانِ ارتضاء الجميع هذا الأمر، فكأنَّ كلًّا منهم قال: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، وهذا الإسناد من باب المجاز العقليِّ بإسناد ما هو لبعض النَّفر إلى جميعهم لعلاقة الكلّيَّة.

الإنـــصـــاتُ الخاشع اليقِظ يفتح المدركات إلى استقبال الآيات

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ دون (استمعوا):

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإنصات دون الاستماع في قوله تعالى: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، والإنصات هو الاستماعُ مع العنايةِ بالمسموع بتدبُّرٍ وتأمُّل[1]، أمّا الاستماع؛ فهو دونه، ودونهما السَّماع، وهو ما يدلُّ على شديدِ حرصهم على تهدئة الجوِّ وتصفيته من الضَّوضاء؛ بحيث يمكنهم الاستماع منصتين للقرآن الكريم؛ لهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]، فإنَّ الإنصات لا يكون إلّا بعد الاستماع، وإلى ذلك ففي طلبِ الإنصات "تأدُّبٌ مع العلم في تَعلُّمه وأيضًا مع مُعلِّمه"[2]، قال القشيريُّ: "فأهلُ الحضور صفتُهم الذُّبول والسُّكون، والهيبة والوقار"[3].

ما جـاء عليه النَّظم الكريم خـبرٌ وفـائـدته الغيبيَّة

سرُّ ذكر ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ مقولًا للقولِ لا خبرًا:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾، فجاء فعل ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ مقولًا لقولِ الجنِّ عمّا قاله بعضهم لبعضِهم الآخر، دون أن يكون خبرًا عن فعل الإنصات الَّذي كان منهم، فلم يقل: (فلما حضروه أنْصَتوا)؛ وذلك لبيانِ أنَّ العناية وشدَّة حرص النَّفر من الجنِّ على سماع القرآنِ، وعلى المبادرةِ في أمرِ بعضهم

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 179.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 400.

بعضًا بالإنصاتِ، وتصوير المشهد الغيبيِّ بتفاصيله، ولو قال: (فلمّا حضروه؛ أنصتوا)؛ لكان مجرَّد خبرٍ، بينما ما جاء عليه النَّظم الكريمُ يفيد معنى الخبر، ويزيد عليه تصوير المشهد، وبيان حرص الجنِّ على الإنصات بقصد الاستماع.

نوعُ (الفاء) ودلالتها:

تأثيرُ القولِ الحقِّ في المؤمنين لا يتأخَّر

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ فاء التَّرتيب والتَّعقيب، أي: إنَّ تَوَلِّيَهم إلى قومهم منذرين حصل بعقب انتهائه ﷺ من قراءة القرآن الكريم، وفي ذلك دليل انبهارهم وشدَّة تأثير القرآن الكريم في أحاسيسهم، حتّى إنَّهم لَيُسْرِعون إلى قومهم منذرين، وفي (الفاء) دليل على "أنَّ ما استمعوه كان يسيرًا، وزمنُه قصيرًا"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿قُضِيَ﴾:

على القارئ أن ينوي خيرًا بقراءته ولو كان وحده

آثر النَّظم الكريم استعمال فعل ﴿قُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فلمّا فرغ رسول اللّه ﷺ من القراءة وتلاوة القرآن[2]، وفي التَّعبير بفعل ﴿قُضِيَ﴾ بدلًا من مقارباتها كـ(فرغ)، و(انتهى) ونحوهما، "ممّا يدلُّ على بلوغ الغاية، إشارة إلى أنَّ حقًّا يُقْضَى، ومطلوبًا يُطْلَب، فالنَّبيُّ ﷺ كان يَقصد بتلاوة القرآن في ليلته تلك ذِكرَ ربِّه، وإرواء قلبه بكلمات اللّه تعالى، والجنُّ الذين استمعوا قد كان مجلسهم للاستماع إنَّما هو لالتماس خير، وطلب هدًى، وقد قَضى النَّبيُّ الكريم مأربه بتلاوة ما تيسَّر له من القرآن، كما قَضى الجنُّ طلبَتَهم فيما جاؤوا له من التماس الخير والهدى"[3]، كما أنَّ في استعمال هذا الفعل دليلًا على أنَّ الجنَّ لم يتحرَّكوا قبل قضاء قراءة القرآن الكريم، فلمّا قضى قراءته؛ ذهبوا إلى أقوامهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 179.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 170.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 297.

كما أنَّ التَّعبيرَ بهذا الفعل يومئ إلى تصوير قصديَّة قراءة القرآن، وأنَّ على القارئ أن ينويَ خيرًا في قراءته، فإنَّ قراءة القرآنِ تأتي بالخيرِ، ولو جهلناه، ومن فوائد هذه الآيةِ سنّيَّة رفع الصّوت عند قراءة القرآن، فلا يعلم أحدٌ من ينتفع بقراءته.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾:

من آمن بالقرآنِ أسـرعَ في إنقاذ من يحبُّ ولهجَ بدعاءِ من أحبَّ

آثر النَّظم الكريم استعمال فعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، دون فعل (انصرفوا)، ووجه الاعتناء بالألفاظِ أن يأتي بـ(انصرفوا) دون (ولوا)؛ لقرب العهد مع فعل ﴿صَرَفۡنَآ﴾، وهو ما يدلُّ على أنَّ القرآنَ يعتني بالمعاني، ويأتي بما يُبيِّن المطلوب دون غيره، فدلَّ فعلُ ﴿وَلَّوۡاْ﴾ على التَّوجُّه إلى قومهم، والإسراع نحوهم بهذا الخبر الكبير، والإنذار المهيب، فمعنى ﴿وَلَّوۡاْ﴾، أي: "انصرفوا من مكان الاستماع، ورجعوا إلى حيث يكون جنسهم"[1]، فقد "كمُل تأثُّرهم به، فأرادوا التَّأثير به، لذلك ﴿وَلَّوۡاْ﴾"[2]، وفي فعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾ تصويرٌ لغويٌّ مجرَّد، وكأنَّهم لسرعتهم يهربون من محذور إلى مأمون، فهُم قد فزعوا إلى قومهم خوفًا عليهم؛ لأنَّهم وجدوا الهُدى، وآمنوا بالكتاب، فأمِنوا الضَّلال.

دلالةُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

غـايـةُ المؤمنين إنــذارُ الـنّـاسِ بقصد هدايتهم

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ تُنْبِئُ عن غاية النَّفر المؤمن من الجنِّ بعد استماعهم القرآنَ الكريم من النَّبيِّ ﷺ، فغايتهم هي تَدارُك قومهم لاستنقاذهم من الضَّلال والكفر ﴿إِلَىٰ﴾ الإيمان بالدّين القويم، الَّذي وفَّقهم اللّٰه تعالى إليه، فآمنوا به، وبيانُ هذه الغاية يُشيرُ إلى حرصِ الصّالحين على هداية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

الناس وبخاصَّةٍ أقوامهم، وأنَّ على المؤمنِ أن يبدأ بالأقربِ فالأقرب، فيُنذر عشيرته الأقربين.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (قوم):

القومُ مَن يقوم لهم أمرٌ يجمعهم

جاء استعمال مفردة (قوم) في قوله تعالى: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾؛ للإيذان بأنَّه من مقوِّمات قوميَّتهم، والمقصودُ جنسُهم على طريقة المجاز، فقد نُزِّل منزلة الإنس لأجل هذه الحالة الشَّبيهة بحالة النّاس، فإطلاق القوم على أُمَّة الجنِّ نظيرُ إطلاق النَّفر على الفريق من الجنِّ المصروف إلى سماع القرآن[1]، وقومُ الرَّجلِ: شيعتُه وعشيرته[2].

دلالةُ إضافةِ القوم إلى الضَّمير:

الإحساسُ بالانتماء يَبعث على الاهتمام

أُضيف لفظ (قوم) إلى ضمير جماعةِ نفر الجنِّ المؤمن، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ للإيحاءِ بشفقتهم عليهم، واهتمامهم لشأنهم، وحرصهم على تدارُك إنجائهم واستنقاذهم ممّا يلفُّهم من ضلال، وإخراجهم إلى نور الإيمان بهذا القرآن الكريم؛ لأنَّهم منهم وبهم.

نكتةُ تقديم ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ على ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

ولاءُ الأصلاء لأقوامهم أولويَّةٌ في الدّيانةِ والمروءة

قُدِّم قيد ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ على الحال ﴿مُّنذِرِينَ﴾ في جملة: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، فلم يقل: (ولَّوا منذرين إلى قومهم)؛ لبيانِ شديدِ حرصهم على استنقاذ ﴿قَوۡمِهِم﴾، ممّا هم فيه من كفر وضلال، وأنَّ وِجهتهم وغايتهم لم تكن إلّا ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾؛ ففي هذا التَّقديم دلالة القصر الحقيقي التَّحقيقي الكاشف عن شدَّة ارتباطهم النَّفسيِّ بقومهم، وأنَّهم لم يُعنوا بشيء حينئذٍ إلّا تدارك قومهم، وإخبارهم خبر القرآن العظيم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.

(2) رضا، أحمد، معجم متن اللغة: (قوم).

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ دون (مبشرين):

الإنـــذارُ يكـون لـلـكـافـرِ أو الغافل والتَّبشير للمؤمنِ المطيع

دلَّ ذِكرُ الإنذار دون التَّبشير في قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: مخوفين إيّاهم عاقبة الصُّدود عن الإيمان، والبقاء على الكفر، فالمنذر هو المُخبر بخبرٍ مخيف(1)، وقد آثر نفرُ الجنِّ المؤمنين إنذارَ قومِهم دون تبشيرهم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تخليتهم عن الكفر، وتداركهم وإخراجهم من ظلماته إلى نور الإيمان، أمّا البشارة؛ فلها مقام آخر غير هذا؛ لأنَّها تقدِّم للمؤمنين تحليةً، وهؤلاء ما آمن قومهم بعد، وفي إنذارهم قومهم كناية عن أنَّ نفر الجنِّ الَّذين استمعوا القرآن آمنوا بالنَّبيِّ ﷺ فورًا.

لطيفةُ صوغ الحال اسم فاعل ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

المـؤمـنُ صـادقُ الـنـّيَّـةِ راسـخ العزيمة

جاء وصف ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حالًا، أي: "مقدِّرين إنذارَهم عند وصولهم إليهم"(2)، وفي صوغهِ اسمَ فاعلٍ إشارةٌ إلى صِدق نيَّتهم في اهتداء قومهم، ورسوخ رغبتهم وقوَّة عزيمتهم في الأخذ بأيديهم إلى ساحة الإيمان؛ "نُصحًا منهم لهم، وإقامة لِحُجَّة اللّه تعالى عليهم، وقد قيَّضَهم اللّه تعالى معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجنِّ"(3).

نكتةُ حذف متعلِّق ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

الإيجازُ بالحذفِ من بليغِ التَّعبير وجميل البيان

آثر النَّظمُ الكريم حذف متعلِّق ﴿مُّنذِرِينَ﴾؛ وذلك لبيانِ قوَّة الفعلِ، وأنَّه المقصودُ دون ذكر متعلَّقه، فعملهم الإنذار، ويحتمل أن يكون الحذفُ لِوضوح المقصود، فهُم يُنذرون قومَهم "عذابَ اللّه؛ إن لَم يؤمنوا"(4)، ولا مانع من اجتماع النُّكتتين، فهُم يقومون بالإنذارِ لشديدِ العنايةِ به، والمقصود بالإنذارِ معلومٌ من السّياق، فيكون الحذف إيجازًا بديعًا، مع الاعتناء بالفاصلةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 187.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.
(4) الواحدي التفسير، الوسيط: 4/ 115.

التَّراكيب القرآنيَّة متعانقة الدَّلالات متَّسقة العطاءات

علّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾:

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، عن جملة: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال المعنويِّ؛ إذ جاءت جملة: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾ تفسيرية، مُبَيِّنَةٌ لِلحال ﴿مُّنذِرِينَ﴾[1]، شارحة له، ويحتمل أن يكون الفصلُ من باب شبه كمال الاتِّصال، أي: الاستئناف البيانيُّ، فلمّا كان كأنَّه قيل: ما قالوا لهم في إنذارهم؟ قيل: ﴿قَالُواْ﴾، أي: لقومهم حين أقبلوا عليهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ مترفِّقين لهم ومشفقين بهم بذكر ما يدلُّ على أنَّهم منهم يهمُّهم ما يهمُّهم، ويكربهم ما يكربهم[2].

القرآنُ يَنقُل معانيَ ما أراده المخلوقون بنظم جامع ولفظٍ صادق

براعةُ ذِكر فعل ﴿قَالُواْ﴾ ودلالة التَّعبير به عن المعاني لا الألفاظ:

فِعل القول في جملة ﴿قَالُواْ﴾ مجازٌ عبَّر به النَّظم الكريم عن (الإفادة)، أي: أفادوا جنسهم - بما فهِموا منه بطُرق الاستفادة عندهم - معانيَ ما حُكي بالقول في هذه الآية، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: 18][3]، فقد أفهمت النَّملةُ بني جنسها بلغتها والقرآن الكريم ترجم ذلك بالفعل ﴿قَالَتۡ﴾ [النمل: 18]، فإنَّ اللّٰه تعالى ضمَّن معانيَ أقوال الإنس والجان والحيوان في القرآن، دون ألفاظِهم ونظوم كلامهم الحرفي، فأتى بأبدع ممّا قالوا، وأدقَّ ممّا أرادوا من كلامِهم المنظوم، ففيه بيانٌ لما أرادوه، وتخيَّلوه، مع تصويرِ الحالِ وبيانِ المشهد والكشف عمّا تختلجه النُّفوس، وهذا لا يكون لأحدٍ من البشرِ، فهو أحد أوجه الإعجاز.

الدّاعيةُ رفيقٌ لطيفٌ بمن يدعوهم

دلالةُ النِّداء بأداة البعيد:

دلَّ استعمال أداة النِّداء للبعيد في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 59.

على تَحنينٍ واستمالةٍ وتَلطُّف النَّفر المؤمن من الجنِّ لقومهم إلى قبول الدَّعوة إلى الإسلام، وفي ذلك دلالةٌ على رحمتهم وشفقتهم بقومهم، وحرصهم على اهتدائهم، ففيه عبرةٌ للبشرِ أن يتعلَّموا هذا اللُّطفَ بالمدعوِّين.

فائدةُ ذكرِ لفظِ (قوم) مع تقدُّمِ ذكره:

إظهارُ قيمةِ الرَّحمةِ والمودَّة في دعوةِ القريبِ

آثر النَّظم الكريم ذِكر لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾، مع أنَّه تقدَّم ذِكرُ هذا اللَّفظِ في جملة: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾، فلو قيل: (ولَّوا إلى قومهم منذرين، قالوا: إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا)؛ لفُهم أنَّ المقصودَ هم القوم، ولكنَّ النَّظم الكريم ذكر لفظ (قومنا)؛ لبيانِ عنصر الحكمةِ في الخطاب، المتضمِّن معاني اللُّطف والرِّقَّة والتَّودُّد في التَّوطئة للدَّعوةِ، وهذا المعنى لا يتحقَّق بحذف اللفظ.

دلالةُ الإضافة في قوله: (قومنا):

اتِّخاذُ الدُّعاةِ وسائلَ الاستمالةِ أنشطُ في قبولِ الحقِّ

في إضافة (قوم) إلى ضمير النَّفر المتكلِّمين في قولهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ مزيد تلطُّف بقومهم، وإشعار لهم بمنزلتهم منهم؛ استمالةً لهم، ورحمةً بهم، وضمانًا لقبولهم دعوتهم، وأنَّهم منهم، يُهمُّهم ما يُهمُّهم، ويَكرُبهم ما يَكرُبهم كما قيل:

إنَّ أخاك الحقَّ مَن كان معك *** ومن يَضُرُّ نفسَه لينفعك(1)

فكأنَّهم قالوا لهم: أنتم قومنا، ففيها معنى اللّام على معنى: قوم لنا، أو (من) على معنى: قوم منا، وفي ذلك توجيهٌ للدُّعاة إلى اللّٰه تعالى أن يتَّخذوا وسائل الاستمالة إلى قبول الدَّعوة.

غرضُ توكيد الخبر ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، مشتملًا على التَّوكيدِ، وهو يقتضي علمَهم بأنَّ قومَهم لا يتحوَّلون عن دينِهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.

خطابُ أصحابِ المعتقداتِ يحتاجُ إلى مزيدِ إقناعٍ وكبيرِ إمتاعٍ

ولا يتخلَّون عنه إلى دينٍ جديد بمجرَّد خبرٍ خالٍ من التَّوكيد، فعملوا على انتزاع ذلك التَّمنُّع من نفوسهم بمجموع التَّهيئة من النِّداء، وإضافة (قوم) إليهم، وتوكيد الخبر.

"ولمّا كانوا بنزول ما في أسفار الأنبياء من بني إسرائيل والزَّبور والإنجيل خالية من الأحكام والحدود - إلّا يسيرًا من ذلك في الإنجيل - قاطعين أو كالقاطعين بأنَّه لا ينزل كتاب يناظر التَّوراة في الأحكام والحدود وغيرها، فكان قومهم ربَّما توقَّفوا في الإخبار بإنزال ما هو أشرف من ذلك؛ أكَّدوا قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾"[1].

سرُّ استعمالِ مفردة السَّماع دون الاستماع:

الاستماعُ وصفٌ لكامل المشهد والسَّماع لأبرز جوانبه

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ السَّماع دون الاستماع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، مع أنَّه تقدَّم استعمال لفظ الاستماع في قوله: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ وذلك لما في فعل ﴿سَمِعۡنَا﴾ من ذكر مجرَّد السَّماع دون بيانِ الحالة النَّفسيَّة الَّتي مرّوا بها، بخلاف ما وصف به القرآن حالَهم من الاستماع؛ لأنَّ القرآنَ يصفُ حالَهم الكاملةَ، وأمّا هم؛ فذكروا جانبًا من جوانبِ تلك الحالةِ، وهي الأجدر بالذِّكر، وهو كونهم سمعوا قرآنًا، ففرَّق بين وصفِ القرآن للمشهد بكاملِه، وبين وصف المتكلِّمين للجانب الأهم.

دلالةُ إسناد فعل السَّماع إلى الضَّمير:

تأكيدُ نسبةِ سماعِ الخبرِ يطمئنُ المخاطَبَ، ويهيِّئه لقبوله

في إسناد فعل السَّماع إلى ضمير نفر الجنِّ المؤمن في قولهم: ﴿سَمِعۡنَا﴾ تقريرٌ؛ لنسبة ذلك السَّماع إليهم جميعًا، وأنَّهم سمعوه كلُّهم بآذانهم، وعقلوه كلُّهم بعقولهم، وتشرَّبوه كلُّهم بقلوبهم، ولم يُخبَروا به دون حضوره، وذلك التَّأكيد لنسبة السَّماع إلى ضميرهم يدعم تصديق قومهم لهم، وقبولهم ذلك الإنذار، وإيلائه العنايةَ والاهتمام المرجوَّ منهم، فيقبلونه، ويؤمنون به، وهذا مأمولُ النَّفر المؤمن.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 180.

فائدةُ وصف القرآن بالكتاب بعد ذكره بأنَّه ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

القرآنُ والتَّوراةُ كلاهما كتابٌ من مشكاةٍ واحدة

وصف نفر الجنِّ المؤمن القرآن الكريم بلفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قولهم لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، وهو القرآن، بينما أسماه النَّظم الكريم بـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ وذلك أنَّه لمّا استمعوه بآذانهم عُبِّر عنه بـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لمناسبة المقروء للاستماعِ، أمّا في إخبارهم قومهم خَبَرَهُ؛ فعبَّروا عنه بلفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾؛ وجاء ذلك توطئةً لذكر كتاب موسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، فالتَّوراة معهودةٌ عندهم بأنَّها كتاب، فجاء وصفُ القرآن بأنَّه كتابٌ؛ ليوافق وصفَ التَّوراةِ عندهم بأنَّها كتاب؛ للإعلام بأنَّهما من مشكاة واحدة، كما قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآن في نفوس الجنِّ وتفخيمُ مكانته

نُكِّر لفظُ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قول نفر الجن المؤمن: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾؛ ليُضفي عليه الفخامة والجلال، وأنَّه كتاب "عظيم القدر رفيع الشَّأن"[1]، كما كان الأمرُ المعهودُ لكتابِ موسى عليه السلام، فلا يُقادَر قدرُه، ولا يُحاط بفضله، فما أعظمه! وما أفخمه من كتاب! وقد أصاب نفر الجنِّ الحقيقة في هذا التَّعظيم.

نكتةُ وصف القرآن بجملة ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾:

ارتقابُ أوصافِ النَّكرةِ يجعلها في النُّفوس أمكنَ

حين نكَّر النَّفر من الجنِّ ﴿كِتَٰبًا﴾؛ زادوا شوق مخاطَبيهم إلى معرفة أوصافه، فجاءت جملة: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ مفعَمةً بالدَّلالات والإشارات الَّتي تَروي ذلك الشَّوق، ذلك أنَّ وصف الكتابِ بأنَّه أُنزل من بعد التَّوراة، دليلٌ على إيمانِ الجنِّ بالتَّوراة، وأنَّهم يُسلمون ما فيه من كونه سيأتي نبيٌّ آخر الزَّمان، ومعه كتابٌ ناسخٌ ومهيمنٌ على التَّوراة.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 935.

بلاغة المجاز في الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

القـرآنُ الكريم مـكـتـمـل الظُّهور، متمايز الـخـصـائـص، مُعَلَّى الشَّرَف

أصل المعنى في مادة (نزل) الانحطاط من علوٍّ[1]، وذلك يكون للمحسوسات، وعلى ذلك ففي الإنزال هنا استعارة مكنيَّة، بتشبيه القرآن الكريم بشيء مجسَّدٍ محسوس أنزل من علوٍّ.

وتلك الصّورة تُضْفي على الـ(كتاب) صفةَ التَّجسيد، والتَّميُّز، واكتمال الخصائص، وعلوِّ المكانة والشَّرف، والصّيغةُ الماضيةُ تُفصِح عن تحقُّق نزوله مِن عُلوٍّ، من جهة السَّماء على رسول الله ﷺ.

دلالةُ بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول:

حـذْفُ الفاعلِ لتوفير العناية على تدبُّر المذكور

في بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لغير فاعله في جملة الصِّفة: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دلالةٌ على علم الجميع بفاعل الإنزال وتَعيُّنه واشتهاره، وأنَّه ليس إلّا الواحد الأحد، الَّذي لا يُنزِل غيرُه، وما دام الأمر على ذلك؛ فليكن التَّركيز على بقيَّة التَّفاصيل في بيان أوصاف الكتاب.

وقد استدلَّ النَّفر المؤمن من الجنِّ على إنزاله من عند الله تعالى بـ "أنَّ عليه من رونق الكتب الإلهيَّة ما يوجب القطعَ لسامعه بأنَّه منها، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك الإعجازُ؟ وقد علموا قطعًا بعربيَّته أنَّه عربيٌّ، وبأنَّهم كانوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، ويسمعون قراءة النّاس؛ لِما يُحَدِّثونه من الحكم والخطب والكهانة والرَّسائل والأشعار، وبأنَّه مباين لجميع ذلك أنَّه قريب العهد بالنُّزول من محلِّ العظمة"[2].

نوعُ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

اعـتـقـادُ الجـنِّ بـالـتَّـوراةِ بـاعـتـبـارِهـا شاملةً للعقيدة والشَّريعة

دلَّ حرفُ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ على ابتداءِ الإنزال، وذلك أنَّ الجنَّ آمنوا بموسى عليه السلام، ويحتمل أنَّهم لم يعلموا بشأن عيسى عليه السلام، ولذلك قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، أو أنَّهم آمنوا

(1) رضا، معجم متن اللغة: (نزل).

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 181.

بعيسى عليه السلام، لكنَّهم لا يعدّون كتابًا مكتملَ الأركان في العقيدة والشَّريعة والأحكام والأخلاق إلّا التَّوراة، والَّذي يوازيها هو القرآن، فبهذا الاعتبارِ كان ذكرُ كتابِ موسى عليه السلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

هيمنةُ القرآنِ على التَّوراةِ قد تُظهِرُ عداوةَ المتعصِّبين

في ذكر القيد ﴿بَعۡدِ﴾ في جملة الوصف: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دليل على أنَّ القوم المنذَرين كانوا مؤمنين بموسى وكتابه (التَّوراة)، وأنَّ نفر الجنِّ المؤمن يحاول جهده انتزاع ذلك الاعتقاد، ومحو ذلك اليقين بإثبات كون القرآن الَّذي سمعوه ﴿كِتَٰبًا﴾ جديدًا مهيمنًا على كتاب موسى عليه السلام؛ إذ قد أُنزل ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ التَّوراة، والعرف والعادة يجريان على أنَّ الجديد من كلِّ شيء هو الَّذي يهيمن على القديم بتفاصيل وزيادات وإضافات.

دلالةُ ذِكر ﴿مُوسَىٰ﴾ مجرَّدًا من الوصف:

المعتادُ سابقٌ على اللِّسان

في ذكر نفر الجنِّ المؤمن ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام مجرَّدًا من الوصف بالرَّسول أو النَّبيِّ، وذلك على عادةِ اليهود في ذكر نبيِّ اللّٰه موسى عليه السلام باسمه المجرَّد عن اللَّقب العظيم، وقد جرت عادةُ القوم بذلك، كما هو بيِّن في آيات القرآن الكريم في الحوارات الكثيرة بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

نكتةُ تخصيص ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام بالذِّكر:

التَّوراةُ أجلُّ الكتب قبلَ القرآن، والإنجيل مُتمِّمٌ لها

خصَّ نفر الجن المؤمن ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام بالذِّكر في قولهم: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، أي: الرَّسول المتَّفق على تعظيم كتابه[1]؛ إذ كان ذلك النَّفر وقومهم يهودًا تابعين لموسى عليه السلام وديانته، وقد لا تكون دعوة عيسى عليه السلام قد بلغتهم، أو بلغتهم لكنَّهم ظلّوا على اليهوديَّة؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ كان يُبعث في قومه خاصَّة إلّا الرَّسول ﷺ[2]، أو "لأنَّه متَّفق

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

(2) ففي الحديث الشريف: «وَكانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النّاسِ عامَّةً»، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، برقم: (328).

عليه عند أهل الكتابين، ولأنَّ الكتاب المنزل عليه أجلُّ الكتب قبْلَ القرآن، وكان عيسى ﷺ مأمورًا بالعمل بمُعظم ما فيه أو بكُلِّه"[1]، أو "لأنَّ (التَّوراة) آخر كتاب من كتب الشَّرائع نزل قبل القرآن، وأمّا ما جاء بعده؛ فكتب مكمِّلة للتوراة ومبيِّنة لها مثل (زبور داود) و (إنجيل عيسى)[2] ﷺ فكأنَّه لم ينزل شيء جديد بعد (التوراة)، فلمّا نزل القرآن جاء بِهَدي مستقلٍّ غيرِ مقصود منه بيان التَّوراة، ولكنَّه مصدِّقٌ للتَّوراة، وهادٍ إلى أزيدِ ممّا هَدَت إليه (التَّوراة)"[3].

أو أنَّهم "لم يَعتدّوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التَّوراة من الإنجيل وما قبله؛ لأنَّه لا يساوي التَّوراة في الجمع، ولا يَعْشِرُ[4] هذا الكتاب - أي: القرآن الكريم - في الأحكام والحكم واللَّطائف والمواعظ مع ما زاد به من الإعجاز وغيره"[5]، أو "لأنَّ كتاب موسى ﷺ أصلٌ للإنجيل، وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشَّرع، وإنَّما الإنجيل مُتَمِّمٌ ومكمِّل ومغيِّر لبعض الأحكام"[6]، أو ذكروا موسى ﷺ؛ "تنبيهًا لقومهم على اتِّباع الرَّسول؛ إذ كان ﷺ قد بَشَّر به موسى ﷺ، فقالوا ذلك من حيث إنَّ هذا الأمر مذكور في التَّوراة، مصدِّقًا لما بين يديه من التَّوراة والإنجيل والكتب الإلهيَّة؛ إذ كانت كلُّها مشتملة على التَّوحيد والنُّبوَّة والمَعاد، والأمر بتطهير الأخلاق"[7]، وجميعُ هذه الاحتمالات ممكنةٌ.

بلاغةُ الاحتراسِ في وصف ﴿كِتَٰبًا﴾ بصفة ﴿مُصَدِّقًا﴾:

في وصف نفر الجنِّ المؤمن ﴿كِتَٰبًا﴾ بوصف آخر، وهو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا

القـرآنُ جاء مصدِّقًا لما سبقَ، فالمصدر واحد والغاية واحدة، وهي هداية النَّاس

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 188.
(4) "عشر يعشِرُ: أخذ واحدًا من عشرة، أو زاد واحدًا على تِسعة"، ينظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عشر).
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 181.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.
(7) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 9/ 450.

﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، أي: "وقد علمنا صِدقه؛ لِكونه مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ من هذه الكتب كلِّها"[1]، ففي هذا الوصف احتراسٌ من سَبْق ظنٍّ قومهم إلى أنَّ ذلك الكتاب يناقض ما بين أيديهم، فجاء الوصف الثاني ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ متمِّمًا للوصف الأوَّل ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، ومبيِّنًا أنَّه امتداد لكتاب موسى، ومؤسَّسٌ عليه وملائمٌ له، وأنَّ مصدرهما واحد، وغايتهما واحدة، هي هداية النّاس إلى الله تعالى.

لطيفةُ تقديم وصف ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ على وصف ﴿مُصَدِّقٗا﴾:

من دلائل تصديق القرآن للتَّوراةِ أن يكون امتدادًا ومكمِّلًا لها

رتَّب النَّظمُ الكريم ذِكرَ تصديق الكتاب العزيز (القرآن الكريم) على ذِكر إنزاله من بعد موسى في قول نفر الجنِّ: ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ وذلك لتوقُّف الوصف الثّاني: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ على تَحقُّق الوصف الأوَّل ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّه إن لم يكن مُنزَلًا من بعده؛ لم يكن مصدِّقًا له أن يكون منزلًا ومكَمِّلًا وامتدادًا له، فمقتضى تصديقه له أن يكون منزَّلًا من عند الله تعالى، وأن تكون مشكاتُهُما واحدةً، وأنوارُهما متكامِلةً.

نوعُ (اللام) ودلالتُها:

الكتبُ السَّماويَّة متَّفقة في عقيدة التَّوحيد، مختلفة الشَّرائع

(اللام) في القيد ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لام الاختصاص، أي: إنَّ إنزال القرآن الكريم يختصُّ بتصديق الكتب السَّماوية السّابقة، والاتِّحاد في بيان عقائدها من حيث التَّوحيد الخالص، والإيمان بالأسماء والصِّفات، وما إلى ذلك من ثوابت الدّين الحقِّ، ثم يَبقى لكلِّ كتابٍ ولكلِّ أمَّةٍ تفاصيلُ شريعتها، المناسبة لأهلها وأزمانهم وما يصلح لترتيب أحوالهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ موصولة، أي:

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 452.

من فضائل الموصول الإيجازُ والعموم الشُّمولي

ومصدِّقًا لجميع الكتب الَّتي سبقته نزولًا من عند الله تعالى، كـ "التَّوراة والإنجيل والزَّبور وصحف إبراهيم وغيرها"[1]، واستفادةُ العموم بكلمةٍ من حرفين هي (ما) يَدلُّ على فضيلة اسم الموصول.

والتَّعبيرُ بالاسم الموصول (ما) يُغني عن تَعداد أسماء الكتب السَّماوية كلِّها، فوجْهُ إيثار (ما) أنَّها عنصرُ إيجازٍ وجمع لأسماء الكتب المقصودة، واستيعابها كلها فيها؛ ممّا يَخرج تفصيله عن حدود الإيجاز المطلوب.

وكذلك من فضائل الموصول (ما) إتاحةُ التَّركيب؛ لبيان تفاصيل وحيثيات تتعلَّق بالمعبَّر به عنه ممّا تَتَضَمَّنُه الصِّلة، وهي مقدَّرة، ومتعلِّقُها هنا الظَّرف ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، والتَّقديرُ: (مصدِّقًا لما سَبَق إنزالُه بين يديه).

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

تصويرُ المعاني الكلّيَّة سبيلُ القرآن في استجلابِ المعاني

في التَّعبير بالظَّرف ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ تصوير للرِّسالات السابقة ورسالة القرآن الكريم بأشخاص قائمين بين يدي شخص ما، وهو قائم بِعَقَبهم ويسير على إثرهم؛ يتمِّم أعمالهم، ففي الظَّرف ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ استعارة تمثيليَّة، كاشفة عن مكانة القرآن الكريم، ومنزلة رسالة الإسلام مِن الكتب والرِّسالات السّابقة.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿يَدَيۡهِ﴾:

الضَّمير المضاف إليه في ﴿يَدَيۡهِ﴾ يرجع إلى ﴿كِتَٰبًا﴾ المتقدِّم ذكره في قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، فالَّذي بين يديه الكتب السّابقة، وهو اللّاحق لَها.

بلاغةُ ترتيب الأوصاف للكتاب:

رُتِّب ذِكر الوصف الثّالث: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

(1) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 38.

ترتيب المعاني القرآنيَّة يراعي أحوال المخاطَبين، ويعالج أحوالهم

على الوصف الثاني السّابق ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ترتُّبًا تصاعديًّا؛ لتطمين القوم المدعوّين، فقدَّم النَّفرُ المتكلِّم لقومهم ما يُهيِّئ لِما بعده، فبدَؤوا بالوصف الأوَّل لـ ﴿كِتَٰبًا﴾، وهو جملة ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا مكمنُ توقُّف قومهم في القبول ابتداءً، ثم أزاحوا التَّحفُّظ التّالي بالوصف الثّاني ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، ثم زادوا عليه ما يُثبِّت الطُّمأنينة إليه بجملة: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾.

ثلاث صفات متلاحقة للكتاب العزيز، تتلاحق بلا عاطف يَعطف بعضها على بعض، وفي ذلك تمييز لكلٍّ منها وصفًا مستقلًّا كافيًا وحده في إقناع المخاطَبين بالإيمان بهذا الكتاب، والاستمساك به وبِهُداه.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الهدى:

القرآن الكريم يُرشد إلى الهدى، ويدلُّ على ما فيه الرِّضا

ختم نفر الجنِّ المؤمن أوصاف القرآن الكريم بوصف ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾، ومعلوم أنَّ الهدايةَ هدايتان: هداية إرشاد ودلالة وتوجيه، وهداية معونة وتوفيق وتسديد، والكتاب العزيز يهدي هداية إرشاد ودلالة وتوجيه، فـ "يرشد إلى الصَّواب، ويدلُّ على ما فيه للّه رضا"[(1)]، وقد فطن النَّفر لذلك، فعن "قتادة أنَّه قرأ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فقال: ما أسرعَ ما عَقَلَ القومُ!"[(2)].

دلالةُ المضارع في فعل ﴿يَهۡدِيٓ﴾:

القرآنُ الكريم ينبوع إرشاد متجدِّد، ونبراس هداية لا ينطفئ

في صَوْغ فعلِ الهداية مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استحضارٌ لأثر القرآن الكريم في متلقّيه، كما أنَّ المضارعة توحي بأنَّه كتابٌ غضُّ العطاء، وأنَّه سيظلُّ ينبوع إرشاد متجدِّدًا، ونبراس هداية لا ينطفئ إلى يوم الدين.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 171.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.

دلالةُ حرف ﴿إِلَى﴾:

الـهُـدى سبب سعادة المهتدي

دلَّ حرفُ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ على كون القرآنِ غايته الهداية الموصلة إلى الحقِّ، وهي في حاقِّ موضعها؛ إذ إنَّ غاية كلِّ هُدًى توصيلُ المهتدي إلى ﴿ٱلْحَقِّ﴾، فإذا وصل، وانتهى، وبلغ تلك الغاية؛ فقد بلغ السَّعادةَ، وحصَّل سببَها.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

صوَرُ الاستقامةِ تَستمدُّ أنوارها مِـن مـشـكـاة القرآن الكريم

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ تدلُّ على الاستغراق، وتُقرِّر انضواء كلِّ صور الاستقامة - قولًا وعملًا - تحت هدايات القرآن الكريم، وأنَّ كلَّ فتائل الهُدى تَستمدُّ أنوارها، وتستقي بركاتها من مشكاة واحدة هي ذلك الكتاب ﴿ٱلْحَقِّ﴾، "الثّابتُ الَّذي يطابقه الواقع، فلا يَقدر أحدٌ على إزالة شيء ممّا يُخبِر به، الكاملُ في جميع ذلك"[1]، ومن ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العقائدُ الصَّحيحة[2]، و"القرآنُ مشتمِلٌ على شيئَين: خبرٍ وطَلَب، فخبرُه صِدْقٌ وطَلَبُه عَدْل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]"[3].

نوعُ (الواو) ودلالتُها الرّابطة:

عطفُ المبيِّن على المبَيَّن إيجازٌ في العبارةِ وشمولٌ للمعنى

(الواو) في جملة: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عاطفة، تُشرِكُ معطوفَها (إلى طريق مستقيم) مع المعطوف عليه ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في هداية الكتاب العزيز، من باب عطف المبيِّن على المبَيَّن؛ لأنَّ الحقَّ هو الطَّريق المستقيم، وهما معًا يُمثِّلان الدّينَ الحنيف بِشُعبتيه العقديَّة والتَّشريعيَّة، وذلك هو الإيجازُ البليغ.

و﴿ٱلْحَقِّ﴾ والطريق المستقيم هنا بمعنًى يتقارب، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ أعمُّ، فهُما من "ذِكر العامِّ بعد الخاصّ"[4]، وكأنَّ أحدَهما قد يقع في

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 182.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 88.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 645.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 936.

مواضعَ لا يقع فيها الآخر؛ لذلك حسُن التَّكرار[1]؛ لبيانِ أنَّ الحقَّ هو المقصودُ بالهدايةِ، والطَّريق المستقيم؛ لبيانِ أنَّه الموصل، ولم يكن بدعًا من الرِّسالات السّابقة.

نكتةُ تكرار (إلى) في قوله: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

اتِّباعُ الحقِّ وسلوكُ الطريقِ المستقيم سبيلُ السَّعادة في الدّارَيْن

كُرِّر ذكرُ حرف انتهاء الغاية (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بعد سبْق ذكره في المعطوف عليه ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾؛ للتَّأكيد على أنَّ غاية هذا الكتاب العزيز هي الأخْذ بأيدي الناس إلى غاية الغايات بالنسبة له؛ إذ تتحقَّق السَّعادة الروحيَّة والراحة البدنيَّة في الدُّنيا والآخرة، وأسباب ذلك سلوك الطَّريق المستقيم واتِّباع الحقِّ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿طَرِيقٖ﴾:

الإسلامُ دينُ جميع السّابقين وهو مطروقٌ معلومٌ

آثر النَّظم الكريم ذكرَ لفظ الطَّريق وهو "كلُّ ما يَطرقه طارقٌ معتادًا كان أو غيرَ معتاد"[2]، فاستعمالُ لفظ الطَّريق؛ لبيانِ أنَّه يهدي لأمرٍ فطريٍّ طرقَه النّاسُ المؤمنون من قبل، من أتباع الدين الحقِّ، وليس هو بدعًا من الطُّرق، وهو الإسلام، وما يُسلَك من الأعمال والمعاملة، وما يترتَّب على ذلك من الجزاء.

وقد شُبِّه الإسلامُ بالطَّريق المستقيم، الَّذي لا يَضِلُّ سالِكُه عن القصد مِن سَيْرِه[3]، ففي ﴿طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، غرضها المبالغة في بيان توصيل الدّين -مَن اعتَنَقَه، والتَزَم حُدوده- إلى سعادة الدّارين بيُسر، كما يوصِّل الطَّريقُ المستقيمُ إلى الغاية من سلوكه عبرَ أقصر مسافة.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿طَرِيقٖ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿طَرِيقٖ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم رأوه عظيمًا، وأنزلوه منزلته

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.

(2) حقي، روح البيان: 5/ 13.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

اللّائقة به، وفي ذلك دليلُ وعيهم، وبصَرهم بما فيه من خيرات دنيويَّة وأخرويَّة.

نكتةُ وصف ﴿طَرِيقٍ﴾ بلفظ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

الطَّريقُ المستقيم أخصر الطُّرق الموصِّلة إلى الغاية

تدلُّ الاستقامة في الوصف ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ على أنَّه "يوَصِّل بغايةِ ما يُمكن مِن السُّرعة، ولا يمكن أن يكون فيه عِوج، فيَقْدِر السّالكُ فيه على أن يختصر طريقًا يكون وترًا لِما تقوَّس منه"[1]، فهو "شديد التَّقوُّمِ؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُقَوِّم نفسه، فهو بعد وجود تقوُّمه حافظٌ لها مِن أدنى خلل، وهو كلُّ ما دعا إليه مِن خصال هذا الدين الحنيف الذي هو مِلَّة إبراهيم عليه السلام"[2]، والمقصود بالـ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ هنا "الشَّرائعُ والأعمال الصالحة"[3] التي كلَّفَ بها الدين الحنيف، وفي التَّعبيرُ عنها بالطَّريق المستقيم دلالةٌ على أنَّ من اتَّخذها طريقًا وصل بأقل جهدٍ، وأخصر وقت.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفر والجماعة:

النَّفرُ جماعةٌ ملحوظٌ فيها النَّفر في أمرٍ، والجماعةُ مطلقُ الاجتماع

النَّفَر، والنَّفيرُ: القومُ ينفِرون معك، ونَفَرُ القوم: جماعتُهم الذين ينفرون في الأمر[4]، والجماعة: عدد كبير من النّاس[5]، والجَماعَة، والجَميع، والمَجْمَع، والمَجْمَعَة: كالجمع، وقد استعملوا ذَلِك في غير النّاس، حَتَّى قالوا: جماعة الشَّجر، وجماعة النَّبات[6].

الاستماع والإنصات:

الاستماع بالقلوبِ والآذان، والإنصات إسكات اللِّسان

الاستماع: أنْ يُلقي سمعه، ويُحضر قلبَه، ويَتَدَبَّرَ ما يَسْتمع[7]،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 182.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 373.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 88.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفر).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جمع).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جمع).
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 314.

والإنصات: السُّكوت مع الاستماع، أنْصَتَ، أي: كَفَّ لِسانه عن الكلام، واستَمَعَ، أي: أشْغَل سمعه بسماع الخطبة، قال النَّووي: هما شيئان متمايزان، وقد يجتمعان، فالاستماع الإصغاء، والإنصات السُّكوت، ولهذا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: 204]، فظهر أنَّ الاستماع بالأذن، والإنصات باللِّسان[1].

(1) الهرري، شرح سنن ابن ماجه: 7/ 107.

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [الأحقاف: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من التَّوطئة إلى الغاية تدرُّجٌ في الخطابِ بديعٌ

لمّا جاءَ الخطاب من النَّفر المؤمن من الجنِّ في الآية السّابقة لقومهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وكان ذلك توطئةً وتعريفًا وبيانًا لما سَمِعوه؛ ناسب أن يذكر بعد ذلك الغايةَ الَّتي لأجلها كانت التَّوطئة في الآيةِ السّابقة، وهي التَّرغيب في إجابة الدّاعي إلى دينِ اللّه تعالى، والتَّرهيب من عدم الإجابة، فهو انتقالٌ من التَّوطئة والتَّمهيد إلى ذكر الغاية الجامعةِ بين التَّرغيب والتَّرهيب، أو من الإخبارِ المجرَّد إلى الطَّلب المفرد؛ توسُّلًا بالخبر المجرَّد إلى الطَّلب المكلِّف، ففي تقديم الأخبار بين يدي الطَّلب توطئةٌ مؤثِّرة وفاعلة في قبول المخاطَبين إيّاه، وبخاصَّة حين تُبَيِّن الأخبار جوانبَ الخير في المخبَر عنه، وقد بَيَّن الخبر هنا مزايا الكتاب بين يدي الدَّعوة إلى الإيمان به، وذلك الأسلوب يُعطي المنهجَ الأمثل ببيان الخير وجوانب النَّفع فيه، ثمَّ بناء الطَّلب والدَّعوة إليه، وهذا من بديع الانتقال القائم على التَّدرُّج في الخطاب.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجِيبُواْ﴾: الجَوْبُ: قَطْعُ الجَوْبَة - وهي كالغائط من الأرض - ثمَّ يُستعمل في قطع كلِّ أرض، قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: 9]، والجواب يقال في مقابَلة السُّؤال، والسُّؤال

على ضربين: طلب مقال، وجوابُه المقال، وطلب نَوال، وجوابه النَّوال، فعلى الأول: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وعلى الثاني قوله: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]، أي: أُعطيتما ما سألتما.

والاستجابة هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عُبِّر به عن الإجابة لِقِلَّة انفكاكها منها، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][(1)].

فإجابةُ داعي الله تعالى: تلبية دعوته إلى الإيمان، وتصديق ما جاء به من عند الله تعالى.

2) ﴿دَاعِيَ﴾: (دعو) أصل واحد، وهو أن تُميل الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك، تقول: دعوتُ أدعو دعاء[(2)]، والدُّعاءُ: الرَّغْبَة إلى الله ﷻ، دَعاهُ دُعاءً ودَعوى، ومِن كَلامهم اللّهمَّ أشركنا في دَعوَى المُسلمين، دَعوتُ له بِخَير، وعَليهِ بشر[(3)]، والنَّبيُّ ﷺ داعي الأمَّة إلَى تَوحيد اللّه تَعالَى وطاعته، قالَ اللّه تَعالى مخبرًا عَن الجنِّ، الَّذين استَمعوا القُرآن، وولَّوا إلَى قَومهم منذرين: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾[(4)]، فداعي الله في الآية الكريمة يحتمل أن يكون القرآن، ويحتمل أن يكون الرَّسول ﷺ، والأولى حمله على المجموعِ، وهو أن يكون الرَّسول والرِّسالة، فإنَّ الوحي عبارةٌ عنهما جميعًا.

3) ﴿وَيُجِرۡكُم﴾: أجارَ يُجير أجِرْ إجارةً، فهو مُجير، والمفعول مُجارٍ، أجاره الله من العذاب: حماه منه، وأنقذه، جعله في جواره وحمايته: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ [الجن: 22]، واستجار فلانًا: سأله أن يؤمِّنه، ويحفظه، أو أن يوفِّر له الأمنَ والحماية: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ﴾ [التوبة: 6]، واستجار بالله: استغاث به، والتجأ إليه[(5)].

فمعنى قول الجنِّ: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، أي: ينقذكم، ويؤمِّنكم، ويُغِثكم، ويحفظكم من عذاب وجيع، ويمنحكم حقوق الجوار من الحماية والذَّود والدِّفاع عنكم.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (جوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (دعو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (دعو).
(5) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جور).

4) ﴿بِمُعۡجِزٖ﴾: (عجز) أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على الضَّعْفِ، والآخَرُ على مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ. فالأوَّلُ: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أَيْ: ضَعيفٌ[1]، ويُقالُ: أَعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتَ عَنْ طَلَبِه وإِدْراكِه[2]، والمَعْنَى المِحوريُّ: رَخاوَةُ المُجْتَمِعِ في أَسْفَلِ الشَّيْءِ وطَراءَتُهُ لِذَهابِ الشِّدَّةِ والقوَّةِ مِنْ أَثْنائه[3]، وعَجَّزَ الرَّجُلُ وعاجَزَ: ذَهَبَ، فلَم يوصَل إليه[4]، فالمُعْجِزُ: الغالِبُ غَيْرَهُ بانْفِلاتِه من قَبْضَتِه[5]، وقَوْلُهُ: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: لَنْ تَخْرُجوا، أو تَنفلتوا من قَبْضَةِ اللّه وعقابه لعدم الإجابة، فلا يُعجِز اللّه تعالى شيءٌ[6].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

إجابةُ داعي الله نجاةٌ في الآخرة، والنُّكوصُ عنه مهلكةٌ في الدّارين

تُبيِّن الآيتان الكريمتان ما قاله النَّفَرُ المؤمنُ من الجنِّ لِقومهم: يا قومنا تَدارَكوا أنفسكم بتلبية هذا الدّاعي، الَّذي أتانا من عند اللّه تعالى، وآمنوا بهذا الكتاب الهادي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، فتفوزوا بمغفرةِ ما بينكم وبينه ﷻ من ذنوب وسيِّئات، فينقذكم من عذابه الأليم.

ولتعلموا أنَّ مَن لا يُلَبّي هذا الداعي الكريم، ولا يجيبُه إلى الإيمان، فلا فَوْتَ له من عذاب اللّه تعالى، ولا مهرب له، ولو دخل في باطن الأرض، ولن يجد له ناصرين ينصرونه من عذاب اللّه ﷻ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة النِّداء:

بيانُ ما يجب من الاستجابة لكتاب الله تعالى

فُصِل قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله لِوَثاقة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 103.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عجز)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

اتِّصالهما المعنويِّ، وعدم حاجتهما إلى رابط لفظيٍّ؛ ذلك أنَّ جملة: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾ مقول قولهم في الجملة الأولى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، والجملة هنا: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ﴾ من مقول هذا القول، "أي: وقالوا لقومهم أيضًا: يا قومنا أجيبوا داعي اللّٰه"[1]، فهذه الجملة من باب البيان لما تقدَّم، فإنَّ الجملة الأولى الَّتي هي توطئة نُزِّلت منزلة الجملة المبيَّنة، والجملة الثّانية هي المبيِّنة، فإنَّ الإخبارَ بسماع كتاب من بعد موسى ﷺ، يحتاج إلى مزيد بيانٍ في ذكر الغرض، وعلى هذا تكون الجملة من باب كمال الاتِّصال، وتحتمل أن تكون من الاستئناف البياني، أي: فماذا قالوا لهم بعد أن أخبروهم ما أخبروهم به، فجاءت الجملة الأخرى بمنزلة شبه كمال الاتِّصال.

بلاغةُ تكرار النِّداء:

اختلافُ الأغراضِ وتجدُّدها يقتضي الإعادةَ والتَّكرار

أُعيد ذكر النِّداء ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ في الجملة الثانية، مع تقدُّم ذكره في الأولى، فلم يقل مباشرة: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ "للاهتمام بما بعد النِّداء، وهو أجيبوا داعي اللّٰه إلى آخره؛ لأنَّه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم، وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث، وإنَّما كان ذلك توطئة لهذا، ولأنَّ اختلاف الأغراض وتجدُّد الغرض ممّا يقتضي إعادة مثل هذا النِّداء، كما يُعيد الخطيب قوله: (أيُّها النّاس)، كما وقع في خطبة حجَّة الوداع"[2].

ولِما للنِّداء من تأثير في المنادَى، وبخاصَّة إذا كان بأداة البُعد المشعِرة بِبُعد منزلة المنادَى في الكرامة على المنادي، وإذا كان المنادَى مضافًا إلى ضمير المنادي مثل قولهم: (قومنا)؛ فإنَّه أفعل في النَّفس، وأنفى للشَّكِّ والارتياب فيما يعرضونه عليهم، وأكثرُ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 206.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

استمالةً وتَعَطُّفًا وتلطُّفًا بالمنادَى، ممّا يَضمن قبول الأمر الآتي بعدُ بدرجة كبيرة؛ لذلك "نجح هذا الأُسلوب في كثير منهم، فجاؤوا إلى رسول اللّه يبتغون سبيل الهدى والرَّشاد"[1].

غرضُ الأمر ودلالته:

أمرُ الدُّعاةِ ملزِمٌ باعتبارِ مصدره الإلهيّ

الأمر في قوله تعالى على لسانِ الجنِّ المؤمن لقومهم: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ محمولٌ على الإلزام؛ لأنَّ المخاطَبين مؤمنون، وهم مؤمنون بما أُنزِل على موسى عليه السلام، فإنَّهم يأمرونهم بما يُؤمنون به، والإيمان وموجباته ملزِمةٌ لصدورها عن اللّه تعالى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الإجابة دون الاستجابة:

زياداتُ الحروفِ يجب أن تكونَ حاويةً للمعاني بحسب السّياق

جاء التَّعبير بصيغة الإجابة دون الاستجابة في قوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لما في الحثِّ على الإجابةِ من السُّرعة والمبادرة، بخلاف الاستجابة ففيها السّينُ والتّاء الدّالَّتان على المبالغة والتَّوكيد أو الطَّلب، والسّياق الَّذي تكلَّم فيه النَّفرُ المؤمن من الجنِّ ليس بحاجةٍ إلى مثل هذه المعاني المُضافة على أصل فعل الإجابة، فجاءت على بابها، فإنَّ زيادات الحروف يجب أن تكون حاويةً للمعاني البلاغيَّة بحسب السّياق الواردة فيه، كما أنَّه في يُسر لفظ الإجابة إلماح إلى يُسر تنفيذها في اعتناق الدّين.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿أَجِيبُواْ﴾:

الإجـابـةُ دليـلُ العملِ

استُعير فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾ لمعنى "اعملوا، وتقلَّدوا؛ تشبيهًا للعمل بما في كلام المتكلِّم بإجابةِ نداءِ المُنادي، كما في آية: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، أي: إلّا أن أمرتكم، فأطعتموني؛ لأنَّ قومَهم لم يَدعُهم داعٍ إلى شيء، أي: أطيعوا ما طلب منكم أن تعملوه"[2].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

دلالةُ الأمر بالإجابة قبل الأمر بالإيمان:

التَّرتيبُ باعتبار الوجودِ الفعليِّ

قُدِّمَ ذكرُ طلبِ الإجابة على طلب الإيمان في قول نفر الجن المؤمن: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ باعتبارِ التَّرتيب الفعليِّ، فإنَّ الإيمانَ لا يكون إلّا بعد الإجابة بمعنى قبولِ الدَّعوةِ والعمل بمقتضاها من الإيمانِ وغيره من الأحكام، فإنَّ قبولَ الدَّعوةِ يكون أوَّلًا، ثمَّ الإيمانُ باللّه تعالى، فالإنسانُ يُجيب الدَّعوة، ثمَّ يؤمن بها، وقبولُ الدَّعوةِ في الغالب ينشأ عنه إيمانٌ بها، فمعنى ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: "أجيبوا رسول اللّه محمَّدًا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة اللّه"[1]، ومعنى ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: آمنوا باللّه تعالى، فإنَّ الإجابة لرسولِ اللّه ﷺ، والإيمان باللّه تعالى، ومن أجاب رسول اللّه؛ فإنَّما استجاب للّه، ومن آمن باللّه؛ فإنَّما آمن برسول اللّه.

نكتةُ حذف متعلِّق فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾:

حُذِف متعلِّقُ فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾ بغرضِ الاتِّصاف بصفة الإجابة، أي: كونوا مجيبين لداعي اللّه، أو للعمومِ، أي: أجيبوه في كلِّ ما يأمركم به.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ دون (رسول الله):

رســـولُ الـلـه رســولٌ لـلإنسِ بـشـكـلٍ مباشر ولـلـجـنِّ بشكلٍ غيرِ مباشر

في إيثار النَّظم الكريم التَّعبير بـ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ - على القولِ بأنَّ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو (رسول اللّه) - دون التَّعبير بـ (رسول اللّه) استثارةٌ لأحاسيس النَّخوة في قومهم، ومناغاةٌ لعواطفهم، وتنبيهٌ لهم إلى فرصة اقتناص ذلك الشَّرف ونيل مكرُمة الإجابة، وبخاصَّة أنَّ الداعي هو ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ، أمّا التَّعبير بإجابة (رسول اللّه)؛ ففيه تكليفٌ خالٍ من مُناغاة الأرواح بما في ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ من تلك الإشارة، كما أنَّ ذِكرَ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يُشير إلى أنَّ رسول اللّه ﷺ ليس رسولًا مباشرًا للجنِّ، فهو داعٍ إلى اللّه تعالى، وعلى الجنِّ أن يمتثلوا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 141.

له، فدلَّ لفظ الدّاعي على العمومِ، بينما يوحي لفظ (رسول) بالخصوصِ، فهو رسولٌ مباشر للإنسِ وغير مباشرٍ للجنِّ، ولو كانت رسالتُه للجنِّ مباشرةً، وهو مكلَّفٌ بدعوتِهم دعوة مباشرة، كما هي للإنس؛ لكان رسولًا لهم، ولقيل: (أجيبوا رسول اللّه)، فأتى النَّظم باللَّفظ الأنسب بالمقام.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾:

القـرآنُ الكريم داعٍ إلــى الله تعالى

على القولِ بأنَّ معنى: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ القرآن الكريم؛ بناءً على المذكور في السِّباقِ: ﴿سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، فهو استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة في اسم الفاعل ﴿دَاعِيَ﴾؛ وذلك لأنَّه "يشتمل على طلب الاهتداء بِهَدْيِ اللّه تعالى، فشُبِّه ذلك بِدُعاء داعٍ إلى اللّه تعالى، واشتُقَّ منه وصفٌ للقرآن بأنَّه ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾"(1).

دلالةُ إضافة ﴿دَاعِيَ﴾ لاسم الجلالة:

الإضافةُ تحمل معنى الغاية والتَّعليل

إضافة ﴿دَاعِيَ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ تُفيض على المضاف ﴿دَاعِيَ﴾ من جلال المضاف إليه ﴿ٱللَّهِ﴾ ما يوجب توقير هذا المضاف، وما يقتضي إجابتَه إلى دعوته واعتناق دينه؛ لأنَّه داعي الحقِّ، وداعي الخير، وداعي التَّوفيق إلى ما فيه أسبابُ السَّعادة كلِّها في الدُّنيا والآخرة، فالإضافةُ أتت بمعنى اللّام على معنى: داعي للّه، وبمعنى (من) على معنى: داعي من اللّه، فأفادت أنَّ غايته هي اللّه تعالى؛ لأنَّ مصدريَّته من اللّه تعالى.

نوعُ (الواو) ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ؛ إذ تَجمع بين طلبهم إجابةَ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وبين طلبهم الإيمانَ به ﷺ، والإجابةُ والإيمان بعضُهما من بعض، ويقتضي بعضُهما بعضًا؛

الإجابةُ مقدِّمةُ الإيمانِ والإيمان يُـحـافـظ عـلى الإجابة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

فالإجابة مقدِّمة الإيمان، والإيمانُ هو الَّذي يحافظ على استمرار الإجابة والإقبال على الله تعالى.

نوعُ (الباء) ودلالتُها:

الإيمانُ بالله استعصامٌ وتحصُّنٌ ولِواذ وعياذ من كلِّ سوء

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ باء التعدية، وتعدية فعل الأمر بالإيمان بها يضمِّنه معانيَ عدَّة أفعال أخرى، منها (استمسكوا به)، و(اعتزّوا به)، و(تحصَّنوا به)، و(لوذوا به)، و(اكتفوا به) وغيرها من الأفعال الَّتي تتعدّى بالباء، ممّا يربط العبد بذلك الكتاب المجيد وبذلك الرَّسول ﷺ.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾:

ترجيحُ عودةِ الضَّمير إلى الله تعالى الأوفق بالسّياقِ سباقًا ولحاقًا

يرجعُ الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ إلى المضاف ﴿دَاعِىَ﴾ على الاحتمالين المذكورين، وهما القرآن الكريم، والرَّسول ﷺ، أو يرجع إلى المضاف إليه، وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، وهو الأولى، على قاعدة عودة الضَّمير لأقرب مذكور، وهو ما يستسيغه المقام، وهو ما جرت عليه عادة القرآن، فمَن آمن بالله تعالى؛ آمن بالرِّسالة والرَّسول، وهو "المناسِب لِتناسُق الضَّمائر مع ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ و﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"[1]، فهو المتَّسق سباقًا ولحاقًا.

فائدةُ اختيار فعل ﴿يَغْفِرْ﴾ جوابًا للطَّلب:

المغفرةُ سترٌ وقبولٌ ووعدٌ بالمزيدِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الغَفْر في جواب الطَّلب ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾؛ لأنَّ الغفْر في اللُّغة هو "السَّترُ والتَّغطية"[2]، فغفَر الذُّنوب يستلزم "سَلْب عقوبةِ الذَّنب"[3]، فـ "يستر، ويسامح"[4]، والمعنى: "يتغمَّد لكم ربُّكم مِن ذنوبكم، فيسترها عليكم، ولا يفضحكم بها في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 61.
(2) الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 3/ 166.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11932.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 183.

الآخرة بعقوبته إيّاكم عليها"[1]، فالغفرُ جامعٌ لمعنى السَّتر والتَّجاوز، ووعدٌ بالقبولِ، وترغيبٌ بالمزيد.

نكتةُ بناءِ فعل ﴿يَغۡفِرۡ﴾ للفاعل:

الكريم إذا مَنَحَ بنفسه؛ منح على قدره

جاء فعل جواب الأمر ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مبنيًّا للفاعلِ إكرامًا لِمن أجاب ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وآمن به، ودليلًا على تهيُّؤ هذا العبد المؤمن لفضل اللّه تعالى عليه مباشرة، ففي إسناد فعلِ ﴿يَغۡفِرۡ﴾ لضميرِ اسم الجلالة بشارةُ خيرٍ، وسعادة بالنَّجاة من الغضب الإلهيِّ والنّيران، ونيل ما يتَّبع ذلك من التَّحلية بالرِّضوان والجنان؛ لأنَّ الكريم إذا منح بنفسه؛ منح على قدْرِه.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

من أجاب داعي اللّه تعالى؛ اختصَّه سبحانه بمغفرته

(اللام) في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ هي (لام) الاستحقاق، أي: إنَّكم بإيمانكم وإجابتكم تستحقّون المغفرة بإذن اللّه تعالى، أي: تصلُحون، وتتهيَّؤون لمغفرة بعض ذنوبكم، أو هي (لام) الاختصاص، أي: إن تجيبوا داعي اللّه تعالى، وتؤمنوا به؛ تظفروا بمغفرة منه ﷻ مباشرة.

نكتة تقديم ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾:

اختصاصُ النُّفوس ببعض المزايا يستميلها

قُدِّم ذِكرُ الجار والمجرور ﴿لَكُم﴾ على القيد ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ وفاءً بمقام التَّرغيب، ودعْمًا للاستمالة، وتنبيهًا بهذا التَّقديم إلى مدى الإفادة الَّتي يُفيدونها من إجابة داعي اللّه والإيمان به، ففي هذا التَّقديم معالجةٌ لنفوس المخاطَبين المهمومين بذنوبهم، ففي التَّقديم عنايةٌ واهتمامٌ بشأنِهم.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ للتَّبعيض، أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وإن كان التَّبعيض لا يناسب

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.

مقام التَّرغيب غير أنَّ نفر الجنِّ لا يملكون قرار المغفرة التّامَّة، ولا يضمنونه؛ لأنَّ هذا القرار للّه وحده لا شريك له، فاحترسوا بذلك التَّبعيض من الجُرأة في الوعد بالمغفرة، وأظهروا حُسْن أدبهم بتفويض المغفرة إلى ربِّهم، فهو سبحانه إن شاء؛ غفرها جميعًا، وإن شاء؛ غفر بعضها[1]، فجاءت ﴿مِّن﴾ هنا؛ "دفعًا لتوهُّمِهم أنَّهم إذا أجابوا داعيَ اللّه تعالى، وآمنوا به؛ يغفر لهم ما تقدَّم من ذنوبهم وما تأخَّر"[2]، ولا يتوهَّموا جواز فعل كلِّ الذُّنوب بعد إجابتهم داعي اللّه تعالى وإيمانهم به، ويشمل التَّبعيض مغفرة "ما كانَ في خالصِ حقِّ اللّه تعالى؛ فإنَّ حقوقَ العبادِ لا تُغفرُ بالإيمانِ"[3]، أو أن تكون ﴿مِّن﴾ هنا "لابتداء الغاية، والمعنى: أنَّه يقع ابتداءُ الغُفران من الذُّنوب، ثمَّ ينتهي إلى غُفران ترك ما هو الأولى"[4].

ليس لأحدٍ أن يحكم لأحدٍ بمغفرة مطلقة أو عقوبة مطلقة

بلاغةُ استعمالِ مفردة الذُّنوب دون السَّيِّئات:

آثر النَّظم الكريم على لسانِ الجنِّ ذِكر الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ دون السَّيِّئات، والذَّنبُ - على أحد المعاني - هو ما يتعلَّق بالمعصية الَّتي تكون بين العبد وبين ربِّه، والسَّيِّئة ما يخالف منهج اللّه تعالى مع عباد اللّه سبحانه، فيسوؤهم، وعليه جاء الدُّعاء: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: 193][5]، فجاء الوعد بمغفرة الذُّنوب، وهو ما يتعلَّق بحقِّ اللّه تعالى، دون ما يتعلَّق بحقوقِ العباد من السَّيِّئات.

المعصيةُ بحقِّ اللّه تعالى ذَنْبٌ، وبحقِّ العباد سيِّئةٌ

نوعُ واو العطفِ ودلالتها:

(الواو) في جملة: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ عاطفة على جملة: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ عطْف مسبَّبٍ على سببه؛ لأنَّ

عطفُ المسبَّب على السَّبب مرغِّبٌ في الإجابةِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 206.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 31.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/ 1964.

الإجارة مِن العذاب الأليم مسبَّبة ومتوقَّفة على غفرانِ الذُّنوب، وبمجموعهما يكتمل جواب الطَّلب ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، فهذا العطف من باب عطف المسبَّب على سببِه، والجمعُ بينهما فاعلٌ في سياقه ترغيبًا كان أو ترهيبًا.

بلاغةُ استعمال مفردة (يُجِرْكُم):

مَن حَظيَ بجوارِ اللـه؛ حَظيَ بالسَّعادة الدّائمة

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة الإجارة في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾؛ لما فيها من معاني الإنقاذ من العذاب الأليم والحفظ، وفيها كذلك إيحاءٌ بإسعادهم بكرامات الجوار، فللجوار حقوقُه في أعراف النّاس جميعًا، فكأنَّ اللّٰه تعالى يتَّخذهم جيرانًا، ويمنحهم حقوقَ الجوارِ من الحماية والدِّفاع، ومن التَّكريم والإكرام؛ لذلك فسَّرها ابن عطية بأنَّه سبحانه "يمنعكم، ويجعل دونكم جوار حفْظهِ؛ حتّى لا ينالكم عذاب"[1]، فـ "يمنعكم إذا أجبتم مَنْعَ الجار لجاره؛ لكونكم بالتَّحيُّز إلى داعيه صِرْتُم مِن حزبه"[2].

نوعُ ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ "لتعدية فعل (يُجِرْكُم)؛ لأنَّه يُقال: أجاره من ظلم فلان، بمعنى: مَنَعَه، وأبعده"[3].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿عَذَابٍ﴾:

العذابُ يُذهِبُ عذبَ الحياةِ، ويمحقُ سعادتها

أتى النَّظم القرآنيُّ بمفردة ﴿عَذَابٍ﴾، وهو الإيجاعُ الشَّديد، وأصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي: طرفها، وقال بعض أهل اللُّغة: التَّعْذيبُ هو الضَّربُ[4]، فقول نفر الجنِّ لقومهم: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، أي: ينقذكم، ويحفظكم من إيلام النّار

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 183.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 61.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عذب).

والزَّمهرير وغيرهما يوم ألا يكون أمام العبد من خيارات إلّا الجنَّة أو النّار.

وإذا كان معنى أُعذِب الحوضُ، أي: نُزِع ما فيه من العذَب، أي: الكَدَر، وعذُب الحوض: صار مستساغًا، والعذْب من الشَّراب والطَّعام: كلُّ مستساغ، ومنه: عَذْبٌ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: 53]، أي: حُلوٌ شديد العذوبة، ففي التَّعذيب معنى الإزالة في التَّفعيل، فيكون معنى عذَّبه: أزال عَذْب حياته، كمرَّضه: أزال مرضه[1].

وعلى ذلك فوَعْد نفر الجنِّ قومَهم بالإجارة من العذاب الأليم؛ إن أجابوا داعي الله، وآمنوا به، وعدٌ بحياة عذْبة هنيَّة مستساغة، لا كدر فيها ولا مشاقّ، فالمعاني اللُّغويَّة أصول تُستمدُّ منها المعاني القرآنيَّة، وتُبنَى عليها.

عذابُ الكافرين فظيعٌ منكورٌ نَكارةَ كفرهم

دلالةُ تنكير لفظِ ﴿عَذَابٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ تهويلًا لخطورته، وإيحاءً بأنَّه ﴿عَذَابٍ﴾ لا قِبَل لقومهم بهوله ثقلًا وشِدَّةً وإيجاعًا؛ لأنَّه من الفظاعة بحيث لا يُقادر قدرُه، فتنكيره ناسب نكارةَ الكفر من جهةٍ، كما ناسب الجهل بِكُنْهِه وفظاعته من الجهة الأخرى.

تنوُّعُ أوصافِ العذاب في الذِّكر الحكيم بِحسب تنوُّعِ المعاصي

علَّةُ وصف العذاب بالأليم:

وُصِف العذاب بصفةِ ﴿أَلِيمٍ﴾، وهو الوجيع، الَّذي يَخْلُص وجَعُه، وينتهي إلى قلوبهم[2]، والسّياقات القرآنيَّة تستدعي لنفسها أوصافًا تناسبها للعذاب، والَّذي اقتَضى وصفَ العذاب بصفة ﴿أَلِيمٍ﴾ هنا أنَّ الوعيد هو لمضمرات القلوب من الكفر بالله ﷻ، والعناد لداعي الله تعالى، فالتَّهيئة لوصف ﴿عَذَابٍ﴾ بالإجارة تلائم جانب الإحساس، فناسب ذلك ﴿أَلِيمٍ﴾، بخلاف وصْف (مهين) مثلًا، فسياقاته تهيِّئ لوصف الإهانة.

---

(1) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).

(2) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 3/ 106.

عذابُ الكافرِ قطعةٌ من الألمِ والإيلامِ

بلاغةُ المجازِ في صيغةِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

صيغَ وصْفُ ﴿عَذَابٍ﴾ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، وإنَّما هو (مؤلم)، أي: "موجع"[1]، غير أنَّ وصف (الأليم) أدخلُ في الإيلام، وأدلُّ على شدَّتِه بحيث لا يُتصوَّر احتماله، أمّا (مؤلم)؛ فيُطلق على كلِّ ألم قد يُحتمَل وقد لا يحتمل، ولن تبلغ صيغة اسم الفاعل (مؤلم) مبلغ صيغة المبالغة ﴿أَلِيمٍ﴾ في الدَّلالة عن هول العذاب وفظاعته، ولِشدَّة ذلك العذاب المؤلم، الَّذي يؤلم المعذَّبَ به إيلامًا لا يُطاق، وصفوه بأنَّه في ذاته ﴿أَلِيمٍ﴾، وكأنَّه صار في ذاته قطعة من الألم والإيلام.

وإلى ذلك ففي وصف ﴿أَلِيمٍ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بتطاوُل إيلامه على الكافر، وأنَّه يمتدُّ، ولا ينقطع عنه، أمّا (مؤلم)؛ فاللَّفظ مقطوع قطعًا يوحي بانتهاء إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهكذا تتآزرُ الصّيغةُ الصَّرفيَّة مع الإشارة الصَّوتيَّة على بيان ما سيلقاه الكافر من عذاب ﴿أَلِيمٍ﴾ موجِع في الآخرة.

مغفرةُ الذُّنوب تَخليةٌ مقدَّمةٌ على تحليةِ الإجارةِ من العذاب الأليم

نكتةُ تقديمِ غَفرِ الذُّنوب على الإجارة من العذاب:

قُدِّمَ غَفْرُ الذُّنوب على الإجارة من العذاب في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ طبيعة التَّرتيب بين هذين الحدثين يقتضي تقديم المغفرة - الَّتي هي تخليةٌ من الكفر، وتطهير من آثاره - ثمَّ تأتي الرَّحمة الرَّبّانيَّة بالإجارة من العذاب الأليم.

إثرُ التَّرغيبِ يكمُل التَّرهيب لاكتمال عناصر الدَّعوة

نوعُ الواو ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عاطفةٌ[2]، فعطفت هذه الجملة على الجملة السّابقة؛ لبيانِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 192.

نتيجة حالين مختلفتين، حال المجيب وما يكون له، وحال المعرض وما يكون له، وفي هذه الجملة "إيجابٌ للإجابة بطريق التَّرهيب إثر إيجابها بطريق التَّرغيب وتحقيق لكونهم منذرين"[1]، وتحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة على جعل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ليست من كلام الجنِّ، بل هي من كلام اللّه تعالى، فتكون كالتَّعقيب على ما قالوه.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

حكمةُ الدَّعوةِ تقتضي تحاشي مجابهة المدعوّين

التفت النَّظم الكريم من خطاب القوم في جملة: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، إلى الإخبار عن حُكْم غائب في جملة: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾، وكان الظّاهر يقتضي أن يطَّرد خطابُهم إيّاهم فيقولوا: (وإن لم تجيبوا داعي اللّه؛ فلستُم بمعجزين في الأرض).

ومن لطائف ذلك الالتفات تَحاشي مجابهةِ قومِهم المدعوّين بما ظاهره تهديدٌ مباشر لهم، وتجنُّب استفزاز قومهم بما قد يحول بينهم وبين الإيمان، والدّاعون نفرٌ منهم، حريصون أشدَّ الحرص على أن يتخلَّص قومهم من الكفر، ويظفروا بالإيمان.

علَّةُ التَّعبيرِ باسم الشَّرط موصولًا (مَن):

الموصولُ الشَّرطيُّ يهيِّئ التَّركيب اللَّفظي

آثر النَّظمُ الكريم استعمال اسم الشَّرط موصولًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الموصولَ يُهيِّئُ التَّركيب لِذكر جملة تفاصيل لا يُهيِّئُه لها الاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: (والمعرضُ ليس بمعجز في الأرض)، فالموصولُ الشَّرطيُّ (مَن) هيَّأ هنا لجملة الشَّرط ﴿لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وفيها صُبَّ النَّفيُ بـ ﴿لَّا﴾ على الإجابة ﴿يُجِبْ﴾.

براعةُ إيثار النَّفي على الإثبات:

من براعة النَّظم الكريم إيثارُه التَّعبير بأسلوب النَّفي في جملة:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 189.

العنايةُ بالألفاظِ الخادمة للمعاني الظاهرة والإيمائيَّة

﴿لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ على الإثبات، فلم يقل: (ومن يعرض عن داعي الله)؛ وذلك لأنَّ النَّفي هيَّأ لتكرار التَّصريح بالإجابة منفيَّةً بعد ذِكرها مثبتة في جملة ﴿أَجِيبُواْ﴾؛ فيطَّرد الأسلوب على مهيع طباق السَّلبِ بين ﴿أَجِيبُواْ﴾، و﴿لَّا يُجِبۡ﴾، وللإيماءِ إلى مدحِ المُجيب لداعي الله تعالى.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

من أساليبِ الوفاءِ بالمعاني إظهارُ ما حقُّه الإضمار

آثر النَّظم الكريم إظهار تركيب ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، في قولهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ مقتضى الظاهر إضماره: (ومن لا يجبه)؛ وذلك لذِكره في الآيةِ السّابقة: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك الإظهار إلحاحٌ على التَّذكير بدلالات ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ من جهةٍ، والوفاء بحقِّ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ في الجهة الأخرى؛ إذ ليست دلالاتُه المفصَّلة تحت عناوينه سلفًا ممّا شأنه أن يُضمر، ويُختصر، ويُطوى في ضمير، وفي الإظهار كذلك "مبالغة في الإيجابِ بزيادةِ التَّقريرِ، وتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ"(1).

نوعُ (الفاء) ودلالتها:

دلالةُ الفوريَّة تصاحب الفاء

(الفاء) في جملة: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ رابطة للجواب بالشَّرط، وهي هنا قائلة بِتَرَتُّبِ الجزاءِ على الشَّرط مع دلالة الفورية العاجلة منها، ممّا يستثير الخوف في نفوس القوم من سرعة المصير إلى العقوبة.

نكتةُ إيثارِ النَّفي بـ (ليس):

تهيئةُ التَّركيب لاسميَّة الجملة

آثر النَّظم الكريمُ نفيَ إعجاز من لا يجيب داعيَ الله تعالى في الأرض بـ (ليس) دون (لا)، وفي ذلك تهيئةٌ لاسميَّة الجملة بعدها، واسميَّة الجملة هنا تشتمل على جملة لطائف وإشارات لا تُطيقها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.

الجملة الفعليَّة - كما سيأتي تفصيله - فضلًا عمّا لا يخدم السّياق هنا من دلالة الجملة الفعليَّة من مثل دلالة التَّجدُّد وغيرها.

نوع (الباء) ودلالته:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ﴾ للتَّوكيدِ، ولِلَفْت الأنظار إلى مضمون الخبر، وهو نفي قدرة مَن لا يجيب داعي اللّه على التَّأثير في الكون بشيء.

بلاغةُ استعمال مفردة (معجز):

الإيمـاءُ إلى ما يجـولُ في الصُّـدور من القـدرةِ على الهرب

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (معجز) في قولِه تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالة على نفي أن يُفلت منه أحدٌ بحال مُطلقًا، وتدلُّ مفردة (عجز) على التَّأخُّر والضَّعف، والمعنى: أنَّه ليس بمعجزٍ اللّه تعالى، فيسبقه، ويُفلت من عقوبته، فالكافر ليس بسابقٍ أو هاربٍ من عذابه تعالى، وللإيماءِ إلى ما قد يظنُّه بعضُ المخاطَبين من القدرةِ على السَّبقِ والإفلات من العقوبة، لا سيَّما أنَّ للجنِّ قدراتٍ فائقةً أودعها اللّه تعالى فيهم، وهم يرون لأنفسِهم تلك القدرات الَّتي تفوقُ قدرات الإنسِ، ففي هذه المفردة كشْفٌ عمّا يجولُ في بعض الصُّدور.

نكتةُ حذف متعلّق (معجز):

حُذِف متعلِّق اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمقصود "فليس بمعجزٍ اللّه تعالى"[1]؛ للتَّأدُّبِ مع اللّه تعالى، وتربية المهابة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بحرف الظَّرفيَّة:

قـدرتـه تعالى محيطةٌ بالعبادِ بالغةٌ جميعَ الكون

جاء استعمال حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بغرض "تعميم الجهات، فجرى على أسلوب استعمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

الكلام العربي، وإلّا فإنَّ مكان الجنِّ غيرُ معيَّن"[1]، "وإن هرَب كلَّ مهرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها"[2]، فلا مهرَب له، "فهو في مُلكه ومِلكه، وقدرتُه محيطةٌ به"[3].

المقصودُ بالأرضِ الحياةُ الدُّنيا

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، للعهدِ الذِّهني، فهي ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ الَّتي تعيشون فيها، وتتقلَّبون في أرجائها، وأطلق الأرض المعهودة، وأراد الحياة الدُّنيا، فمِن معاني ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن تُطلَق على الدُّنيا[4]، فيدخل فيها الأقطار والأعماق، ذلك أنَّ الجنَّ تنتقلُ من مكانٍ لآخر بقدراتٍ تفوق قدرات البشر المعهودةِ، وقد تخرج من الأرضِ الَّتي نعرفها، فإرادة الحياة الدُّنيا هو الأولى بالمقامِ.

النَّجاةُ منفيَّةٌ عن المعرضِ في الدُّنيا والآخرة

نوعُ (الواو) ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ عاطفة، تُعدِّد على مَن لا يجيب داعي اللّه تعالى أنواع الخُسران، الَّتي تناله جرّاء كُفره باللّه تعالى وعدم إجابته داعيه، وتُبَيِّن " استحالةَ نجاتِه بواسطةِ الغيرِ إثرَ بيانِ استحالةِ نجاتِه بنفسِه"[5].

نفيُ النَّصير عن نـوعٍ تعريضٌ بغيره

بلاغةُ التَّعريض بالمشركين:

دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ على نفي النَّصير للمعرضِ عن إجابة داعي اللّه، أي: "لا نصير يَنصره على اللّه، ويحميه منه، فهو نفيُ أن يكون له سبيل إلى النَّجاة بالاستعصامِ بمكانٍ لا تبلغُ إليه قدرةُ اللّه تعالى، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب اللّه ﷻ، وذِكر هذا تعريضٌ للمشركين"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 184.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 206.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على اسم (ليس):

من بلغه تقريعُ التَّخصيص؛ فقد أصابه سوطُ التَّرهيب

قُدِّم ذكر ﴿لَهُۥ﴾ على اسم (ليس) في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾؛ تنبيهًا إلى خطورة عدم إجابتهم ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وكأنَّهم هم الأخسرون الوحيدون مِن بين الأنام جميعًا، على القصر الادِّعائي؛ فهُم ليسوا الوحيدين في خسارةِ النَّصير، وإنَّما يُقَرِّعُهم تقديم ﴿لَهُۥ﴾، فإنَّ الاعتناءَ بالتَّرهيب والتَّقريعِ كالعنايةِ بالتَّرغيبِ والتَّقريب من حيث الأثرُ في المخاطَب.

نوع (اللام) ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّ مَن لا يجيب داعي اللّه لا يختصُّ بوليٍّ يَدفع عنه، ويهتمُّ لأمره.

نكتةُ مرجع الضَّمير مفردًا على الجمع:

الضَّمير المفرد في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ﴾ عاد على ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، باعتبار لفظ (مَن)، والمراد به الجمع؛ لبيانِ أنَّ الكثرةَ الكاثرة كالمفرد.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾:

كلُّ الخلقِ دون اللّه تعالى في النُّصرةِ والمكانة

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ لبيانِ أنَّ كلَّ الخلقِ هم دون اللّه تعالى، وأنَّه ليس لأحدٍ أن ينصرَ المعرضَ عن دينِ اللّه تعالى، لكن أتى بـ(دون)؛ لبيانِ أنَّ الخلق هم في حال الدون من الخالقِ في القدرةِ والعلم والنُّصرة والعظمة، فكيف لهم أن ينصروا أنفسهم فضلًا عن نصرةِ غيرِهم ممَّن أعرض عن دينِ اللّه تعالى، فهؤلاء لهم حال العدم في النُّصرةِ والمعونة.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿دُونِهِۦ﴾:

الضَّميرُ المضاف إليه الظَّرف في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ يرجع إلى اسم الجلالةِ في قوله: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس له "من دون ربِّه نُصَراء ينصرونه من الله تعالى؛ إذا عاقَبَه ربُّه على كُفره به وتكذيبه داعيه"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالولاية دون النُّصْرة:

كلُّ ولايةٍ غيرُ نافعةٍ للمعرضِ عن دين الله

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾ دون (نصراء)؛ لما في لفظ الولاية من معاني الاتِّصال والقُرب؛ فالنُّصرةُ عن قُرب، مع المناداة على لفظِ المحبَّة الَّذي يكون من معاني الولاية، فنفي الولاية النّافعة عن كلِّ أحدٍ في حقِّ ذلك المعرِض عن إجابةِ الدّاعي إلى الله تعالى، أبلغ من ذكر النُّصرةِ، لعمومِ معانيها، وبليغ دلالاتها الظاهرة والإيحائيَّة.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ لإفادةِ العموم؛ لوقوعه في سياق النَّفي ولقيدِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ فلا أولياء نافعين لهم ألبتة.

فائدةُ جمع ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾:

زيادةُ التَّيئيس أن يكون هناك وليٌّ من دون الله

جاء لفظ ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾ مجموعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾؛ لمراعاة مَعْنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، "فيكون من باب مقابلةِ الجمع بالجمعِ؛ لانقسام الآحادِ إلى الآحادِ"[2]، فمهما تعدَّد المعرضون عن إجابة الدّاعي، وتعدَّد معهم الأولياء؛ فالنَّتيجة واحدة، وفائدة الجمع المبالغةُ في كثرة الأولياء المنفي نفعهم؛ زيادةً في التَّيئيس وقطع الرَّجاء أن يكون هناك وليٌّ من دون الله تعالى.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 173.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.

علَّةُ فصل جملة الفاصلة:

فُصلت جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ عن جملة: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستئناف البيانيِّ؛ إذ جاءت الثّانية وافية بجواب سؤال تثيره الأولى: وما وصف هؤلاء؟ أو: ولِمَ لا يُجيبون داعي اللّه تعالى؟ فجاء الجواب ببيان سبب ذلك، وأنَّه غَرَّقُهم ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، فالجملة تعليليَّة.

تعليلُ الأحكام أقوى في البيانِ وأبلغُ في المقاصد

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للبعيد:

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ اسمِ الإشارة للبعيد، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ استحضارًا لمن لا يجيبون داعي اللّه تعالى، ولم يؤمنوا به سبحانه؛ استحضارًا مميِّزًا موجَزًا؛ ليُصبَّ عليهم الحكمُ الفاضح بكونهم ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، فالبُعد في الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُبعدهم عن ساحة الطُّهر والكرامة إلى تيه الكفر والضَّلال، ويُبيِّن أنَّهم "بعيدون من كلِّ خير"[1]، فالبُعد مناسبٌ لِظُلمة الضَّلال وتيهه، مُنَبِّهٌ إلى أنَّ "مَن هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة مِن الحكم؛ لِتَسبُّب ما قبل اسم الإشارة فيه"[2].

الكافرُ بعيدٌ عن كلِّ خير، مبعَدٌ عن ساحات العطايا والكرامة

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

أفاد حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ غرق المعرضِ في الضَّلال المبين، بحيث يلفُّه الضَّلال، ويطويه، ويَغمُره، ويحيط به إحاطة الظَّرف بالمظروف، إحاطةً وطَيًّا يلائمان عالم الرّوح، فالظَّرفيَّة هنا مجازيةٌ؛ لإفادة قوَّة تلبُّسهم بالضَّلال حتَّى كأنَّهم في وعاء هو الضَّلال[3].

الكافر مغمور في تيه الكفر وظلمات الضَّلال

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

في كلمة ﴿ضَلَٰلٖ﴾ استعارة مكنيَّة، فقد شُبِّه الضَّلال الَّذي يَغمر

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 185.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

ظلمةُ الكُفر كثيفة؛ تَحجب عن الكافر كلَّ قَبس منير

روح الكافر بِوعاء أو ظرفٍ يلفُّ مظروفَه، ويحيط به، وحذف المشبَّه به، ودُلَّ عليه بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، وهي استعارة مخيفة لكلِّ عاقل مِن أن تغرق روحه في ظلمات الضَّلال، أو تسقط في مستنقع الكفر الآسن، فتحجُب عنه أنوار الهُدى، والعياذ باللّه.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الضَّلال دون الكفر:

الـضَّـلالُ علَّة الكفرِ ونتيجته المستمرَّة

في إيثار التَّعبير بالضَّلال دون الكفر، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ﴾، تنبيهٌ على اختلال عقول مَن لا يجيبون داعي اللّه تعالى، ولا يؤمنون به ﷺ، فإنَّ مَن آثر الكفر على إجابة داعي اللّه تعالى وعلى الإيمان به سبحانه مطموس الروح، مظلم النَّفس، مختلُّ الفكر، ضالُّ الذِّهن، أعمى البصيرة، فذكر الضَّلال؛ لبيانِ أنَّه العلَّة الأولى والنَّتيجة النِّهائيَّة للكافر، فإنَّه يبدأ بضلالٍ، وينتهي بضلال العناد والإصرار على الباطلِ.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿ضَلَـٰلٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿ضَلَـٰلٍ﴾؛ لبيانِ الإبهامِ والغموض، فالضَّلال في ذاته غامضٌ خفيٌّ، وتنكيرُه زادَه غموضًا ونكارةً.

لطيفةُ وصف ﴿ضَلَـٰلٍ﴾ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

الـضَّـلال مبينٌ في كـونه يحرف عن طريق الحقِّ والهدى

وُصِفَ لفظُ ﴿ضَلَـٰلٍ﴾ بصفةِ ﴿مُّبِينٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الضَّلال خفيٌّ غير ظاهر في ذاتِه، لكنَّه مبينٌ في كونه يوصل إلى كلِّ الطُّرقِ إلّا طريق الخير والهدى والحقِّ، فهذا وجه كونه مبينًا، فهو بيِّنٌ في وظيفته الَّتي تحرف عن طريق الحقِّ، كما أنَّه "ضلال قامت الحُجَج والأدلَّة على أنَّه باطل"(1)، "ظاهر في نفسه أنَّه ضلال"(2)، فمن طُمست بصيرته عن رؤيته وتمييزه؛ كان من الشُّؤم بمكان بعيد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 185.

بلاغةُ المجازِ في الوصف ﴿مُّبِينٍ﴾:

المـعـرضُ عن الحقِّ مع إبانة الضَّلالِ في ضياعٍ طامسٍ

الضَّلال يكون بيِّنًا في نفسه، واضحًا مكشوفًا لذوي البصائر النّافذة والعقول القويمة والأنفس المستقيمة، غير أنَّه يوصف في الذِّكر الحكيم بأنَّه ﴿مُّبِينٍ﴾، وذلك أنَّه هو الَّذي يُبين عن نفسِه، ويُخبر الضّالّين بأنَّ اختيارهم للكفرِ وإيثارهم له على الإيمان واضحُ الاختلال، فالمجاز في إسناد معنى الإبانة للضَّلال؛ إذ هو الَّذي يقوم بفعل الإبانةِ، وفي ذلك كناية عن سَفَهِ عقولهم؛ لأنَّه ﴿ضَلَٰلٍ﴾ لا يحتاج إلى مُبينٍ يُبين عنه، فما بالهم يأتيهم داعي اللّٰه تعالى، ويكشفه لهم كشْفًا إلى كشْفه، ولا يهتدون!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

البعثُ خبرٌ يُحفُّ بـه الاستدلال ويُحيطُ به البرهان

في هذه الآية الكريمة عَوْدٌ إلى الاستدلال على إمكان البعث، فهو متصل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: 17]، إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 18]، فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم، وهو الضَّلال الَّذي جرَّأهم على إحالة البعث[1].

وفيها مواجهةُ المشركين بالدَّليل المنطقيِّ على إمكان البعث، بعد أن ساق إليهم استماع الجنِّ لهذا القرآن الَّذي كذَّبوا به، وسخروا من الرَّسول الَّذي يتلوه عليهم، مع أنَّ الكتاب كتابهم، واللِّسان الَّذي ينطق به لسانهم[2]، فهو انتقالٌ من خبرٍ غيبيٍّ حاضرٍ وقت نزول القرآن، إلى ذكر خبرٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ، الأوَّل خبرٌ محضٌ، والثّاني خبرٌ يحفُّ به الاستدلالُ، ويُحيط به البرهان، ويقوّيه كثرةُ البيان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعْىَ﴾: مُضارِعُ (عَيِيَ) مِنْ بابِ رَضِيَ، ومَصْدَرُهُ العيُّ بِكَسْرِ العَيْنِ وهوَ العَجْزُ عَنِ العَمَلِ أو عَنِ الكَلامِ، ومنه العيُّ في الكَلامِ، أيْ عُسْرُ الإبانَةِ، وعَنِ الكِسائيِّ والأَصْمَعيِّ: العيُّ خاصٌّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 63.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 297.

بالعَجْزِ في الحيلَةِ والرَّأيِ. وأمّا الإعْياءُ فَهوَ التَّعَبُ مِنَ المَشْيِ ونَحْوِه، وفِعْلُهُ أعْيا[1].

وعيَّ بالأمر عيًّا وعييَ وتعايا واستعيا، وهو عَيّ وعَييَ: عجز عنه، ولم يُطِقْ إحكامه، والعيُّ خلاف البيان، وقد عيَّ في منطقه، ويُقال أيضًا: عيَّ بأمره، وعَييَ؛ إذا لم يهتدِ لوجهه[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أي: لم يلحقه تعالى مشقَّةٌ في خلق السَّماوات والأرض، ولا تعبٌ، ولا إرهاق، فضلًا عن أنَّه سبحانه لم يلحقه عَجْز.

المَعْنى الإجْماليُّ:

سَوْقُ الأدلَّة العقليَّة لإثبات الحقائق العقديَّة

تُبيِّن الآية الكريمة عن طريقِ الاستفهام الإنكاري من جَهل الكفّار منكري البعث في أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي خلق ما يرون من الأجرام الكبرى حولهم ممّا يرون من السَّماوات الَّتي تُظِلُّهم، والأرض الَّتي تُقِلُّهم؟ وأنَّه تعالى لم يعجز عن خلقهنَّ وإبداعهنَّ، ولم يتعَب فيه؟ أفغاب عنهم أنَّ مَن قدر على خلقها وإيجادها بهذا الإبداع والإتقان؛ يقدر على إعادة الأرواح إلى أجسادها، وبعْثِ النّاس للحساب يوم الدين؟ إنَّه القادرُ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه يمتلكُ القدرةَ المطلقةَ، الَّتي تُخضع كلَّ شيءٍ لإرادته ومشيئته؛ إذا شاء.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

إغفالُ البراهين الظّاهرة مستنكَرٌ في العقل مستقبَحٌ في الذَّوق

الاستفهامُ بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، فإنَّ من رأى صنيعَ اللّه في السَّماوات والأرض، ولم يدعه ذلك إلى الإيمان بالبعثِ؛ فحقُّه أن يُنكر عليه؛ لفقدِه أصلَ العقلِ في الاستدلال بالبراهين الظّاهرة، والأدلَّة السّافرة عن القدرة على الإحياءِ بعد الإيجاد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عيي).

ومعنى الآية على ذلك "أنَّ مَن قدر على إنشاء ما ذُكِر من السَّماوات والأرض وما فيهما، بلا احتذاء تَقَدُّم ولا استعانة بغيرٍ، ثمَّ الإمساك والقوام على التَّدبير الَّذي دبَّر إلى آخر الدَّهر لا يُحتَمل أن يُعجِزَه شيء"[1].

والإنكار في هذا الاستفهام إنكارُ "توبيخ المشركين على جهلهم وانطماس بصائرهم؛ إذ لم يَعرفوا أنَّ الله تعالى - الَّذي أوجد الكون - قادر على أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم، وأورد القرآن ذلك في أسلوب الاستفهام الإنكاريِّ؛ ليكون تأنيبُهم على جهلهم أشدَّ"[2].

تعيينُ المعطوفِ بالواو:

التَّفكُّرُ يؤدّي إلى العلم، والعلمُ يهيِّئُ للاستدلال

(الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ للعطفِ على مقدَّرٍ يستدعيهِ المقامُ، والرؤيةُ قلبيَّةٌ، أي: ألم يتفكَّروا، ولم يعلموا علمًا جازمًا مُتاخِمًا للمشاهدةِ والعيانِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ابتداءً بقادر على أن يحيي الموتى؟[3].

دلالةُ استعمال (لم) في جملة الاستفهام:

إعمالُ العقلِ ضرورةٌ في استقامةِ الفِكرِ وسلامة النَّتيجة

(لم) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ نافية جازمة، تدلُّ على رؤية المشركين - عن طريق العِلم الَّذي بلغَهم - أنَّ الله تعالى خلق السَّماوات والأرض، ولم يعيَ بخلقهن، وتلك المقدِّمة تُيَسِّر عليهم - إن تفكَّروا بِعَقل موزون - أنَّه تعالى قادرٌ على الإحياء والبعث في الآخرة، وآثر النَّظمُ الكريم النَّفي بـ (لم) دون (لا)؛ لما في الأولى من معنى الجزم والقطع والتَّحقيق ما ليس في (لا).

دلالةُ استعمالِ فعلِ الرُّؤيةِ دون العلم:

اختصَّ فعلُ الرُّؤيةِ بالحُجَّةِ البَيِّنَةِ المُشاهَدة

الرُّؤيةُ في فعلِ ﴿يَرَوۡاْ﴾ هي "الرُّؤية القلبيَّة الَّتي بمعنى العلم"[4]،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 259.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 89.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.

والمعنى: أفلم يَبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا، ويعلموا أنَّ اللّه الَّذي خلق السَّماوات السَّبع والأرض، فابتدعهُنَّ من غير شيء، بقادر؟[1] وخُصَّ فِعلُ الرُّؤية من بين أفعال العِلم بالاستعمالِ هنا؛ لأنَّ هذا العلم عليه "حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ مُشاهَدة، وهي دلالة خلق السَّماوات والأرض مِن عَدَمٍ، وذلك مِن شأنه أن يَفرض بالعقل إلى أنَّ اللّه تعالى كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات"[2].

وقد ذكروا أنَّ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ إشكالًا؛ إذ إنَّهم "لم يشاهدوا خلقهما، ولم يروا، فقالَ بَعْضُ العلماء: إنَّ المعنى: أولم يُخَبَروا؟ وقال بعضهم: أولم يعلموا؟ أي: قد أُخبِروا، وعلِموا؛ فذكر هذا؛ لأنَّهم كانوا مُقرّين جميعًا أنَّ اللّه هو الَّذي خلق السَّماوات والأرض"[3].

وعلى ذلك ففي التَّعبير بفعل الرُّؤية هنا "إيكالُ أمرِ قدرته تعالى - على خلق السَّماوات والأرض - إلى عِلم المخاطَبين؛ لأنَّهم لم يُنكِروا ذلك، وإنَّما قَصَد تنبيهَهم إلى ما في نظام خلقهما مِن الدَّقائق والحِكم، ومن جملتها لُزومُ الجزاء على عمل الصّالحات والسَّيّئات"[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَرَوۡاْ﴾:

اليقينُ بالمعنويّات يُصيِّرها كالمبصَرات

دلَّ استعمالُ فعلِ المضارعِ المنفي في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، على إنكار عدم تجديد التَّفكُّر وإدامة النَّظر في الأمور المعنويَّة، الَّتي لا سبيل إلى إدراكها أو الإيمان بها إلّا بالأخبارِ الموثوقة؛ حتّى يصير العِلمُ بها مثل الأشياء الَّتي تُبصَر بالعين، فلا يكون إلى الشَّكِّ فيها سبيل.

تعيينُ مرجع ضمير فعل ﴿يَرَوۡاْ﴾:

قوّةُ الاتّساق يُعيد الضَّمائرَ إلى أنسب مساق

يعودُ ضمير فاعل فِعْل الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 63.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 258.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ إلى المشركين المخاطَبين فيما سبق من الآيات في السورة.

دلالةُ ﴿أَنَّ﴾ ووظيفتها:

﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ ناسخة، وهي وما بعدها سدَّت مسدَّ مفعولَي ﴿يَرَوْا۟﴾ وأنَّ واسمها"[1]، وهي تحمل دلالة التَّوكيد.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الألوهيَّة ﴿ٱللَّهَ﴾:

الأنسبُ في مقامِ الاستفهام الإنكاري لإثباتِ البعثِ هو اسم الجلالة

جاء التَّعبير باسم الجلالة في موضوعِ إثبات خلق السَّماوات والأرض؛ لأنَّه الأنسبُ في المقامِ، وهو العَلَم الدّالُّ على الذات المقدَّسة، المتضمِّن جميع الأسماء الحسنَى والصِّفات العلا، فذِكرُ اسم الجلالةِ يورِّث المهابة في صدور المخاطَبين في سياق الاستفهام الإنكاري، فهو العَلَمُ الدّالُّ على القدرة الكاملةِ لخلقِ السَّماوات والأرض، والاستدلال بذلك على قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة للحساب.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

الإشعارُ بخصوصيَّة الخالقيَّة لله تعالى وحده

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هو الذي هيَّأ، وأفسح لِذِكر جملة الصِّلة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بعناصرها الدالَّة على طلاقة القدرة، وذلك لا يتيحه الاسم الصَّريح، كما لو قيل: (أن الله الخالق بقادر)، بالإضافةِ إلى أنَّ الاسم الموصول يوحي بأنَّ سبحانه المعلوم لدى المخاطَبين بأنَّه هو دون سواه خالق السَّماوات والأرض، ففيها إيماءٌ لمعنى الاختصاص، ثم هيَّأتِ الصِّلةُ للعطف عليها ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، فتمَّ للتَّركيب التَّواثُقُ والتَّرابُط، وللدَّلالات الثَّراء والتَّغازُر.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الخلق:

استعمل النَّظمُ الكريم مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 193.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، باعتبارِ ما يتضمَّنه هذا اللَّفظ من معنًى معلوم معهودٍ يطرق ذهنَ كلِّ سامعٍ، أي: "أحدثهنَّ، وأنشأهنَّ؟"[1]، ويُستعمل الخلق في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، فـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أبدعهما بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، والاستدلالُ بالواضحاتِ مهيعُ القرآنِ لإقامة الحجج على المعاني المُنكرات، ومعلوم أنَّ "خَلْقهما أعظم وأفخم مِن إعادة هذا الشَّخص حيًّا بعد أن صار ميْتًا، والقادرُ على الأقوى الأكملِ لا بُدَّ وأن يكون قادرًا على الأقلِّ والأضعف"[2].

الاستدلالُ بالواضحاتِ مهيعُ القرآنِ في إقامة الحجج البيِّنات

بديعُ الطِّباقِ بقرن (الأرض) بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قَرَن النَّظمُ الكريم ذِكر (الأرض) بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في نسبة خلقهما إلى الله تعالى، وإن كان خلْقُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أعظمَ، فيُغني عن ذكر خلْق (الأرض)، غير أنَّ احتكاك الكافر بمخلوقات الله تعالى في (الأرض) ونظره في تفاصيلها أدلُّ عنده لقُرْبه ممّا في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإن كان في الواقع أعظم؛ فكان استدلاله بـ (الأرض) وما فيها أقربَ عنده من استدلاله بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها؛ فلذلك ذُكِرت (الأرض) معها، وهذا ما جاء عليها غالبُ الاستعمالِ القرآنيِّ، ففيه بديعُ الطِّباق، الشّامل لكلِّ ما يراه الإنسان من القريب المحيط، والمستعلي من بعيد.

شمولُ كلِّ ما يراه الإنسانُ من قريبٍ محيطٍ ومستعلٍ بعيد

نوع (الواو) ودلالتها:

(الواو) في جملة: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ عاطفةٌ هذه الجملة على جملة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]، وبمجموعهما تتكوَّن صلة ﴿ٱلَّذِى﴾.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 554.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.

دلالةُ النَّفي بأداةِ (لم):

(لم) في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ نافيةٌ للحوق التَّعب والمشقَّة بالخالقِ ﷻ، مع الجزمِ الأكيد لهذه المعاني.

دلالةُ التَّعبير بمفردة ﴿يَعۡيَ﴾:

قدرةُ الله تعالى واجبةٌ لا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿يَعۡيَ﴾؛ لنفي التَّعب والمشقَّة عنه ﷻ في خلق السَّماوات والأرض وإيجادها، ونفي الإرهاق أنفَى للعجز من باب أولى، فلو نفى النَّظم الكريم العجز لم يَنفِ عنه التَّعب والإرهاق؛ إذ التَّعبُ والإرهاق دون العجز بمراحل، فقد يُرهق العاملَ عملٌ ما، وإنْ لم يعجز عنه، فهو تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، وعدَم العَيِّ مجازٌ عن عدم الانقطاع والنَّقص، يعني: أنَّ قدرته واجبة لا تَنقُص أصلًا، ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد[1]، ولم يتحيَّر ﷻ في خلقهنَّ[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿يَعۡيَ﴾:

تدلُّ المضارعة في فعل ﴿يَعۡيَ﴾ على دخول تجدُّد القدرةِ الواجبة للّه تعالى والاستمرار على الدَّوام، فنفي تجدُّد العَيِّ هو إثبات للقدرةِ المطلقة.

نوعُ (الباء) ودلالتها:

لا ينالُ الله تعالى عيٌّ بسبب شيءٍ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ سببيَّة، أي: ولم يعي بسبب خلقهن، أو باء الملابسة، وذلك "يفيد انتفاء عجزه عن صنعها، وانتفاءَ عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها، فكانت باء الملابسة صالحة لتعليق الخلق بالعَيِّ بمعنييه"[3]، وقد دخلت الباء في خبر ﴿أَنَّ﴾ لدخول النَّفي في قوله: ﴿أَوَلَمۡ﴾ في أوَّل الكلام[4].

(1) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 40.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 14/ 316.

وإذا كان هذا السُّؤال ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ "قَصَد تنبيهَهم إلى ما في نظام خلقهما من الدقائق والحكم - ومن جملتها لزوم الجزاء على عمل الصّالحات والسَّيِّئات - تكون تعدية فعل ﴿يَعۡيَ﴾ بالباء متعيِّنة"[1].

لطيفة إظهار لفظ (خلقهنّ):

مقامُ ذِكر الخَلق كبير، وممّا يوفّي حقَّه الإظهارُ والتَّكرارُ

آثر النَّظم الكريم إظهار مفردة الخلق وتكرارها في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾، وإن كان يمكن طيّه في ضميره، كأن يقال: (أولم يروا أن اللّه خلق السماوات والأرض ولم يعي بهنَّ)، غير أنَّ مقام إثبات القدرة ونفْي العَي اقتضى تكرار مادَّة الخلق مرَّة بعد مرَّة؛ تأكيدًا وتقريرًا لنفي العَيِّ برغم عظمة الخلق.

نوعُ (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾:

توكيدُ المعاني توثيقٌ للحقائق

دخلت (الباء) في الخبر ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ لِدخولها "في حيِّز (لم)؛ لأنَّها في معنى (ما) و(ليس)"[2]، وذكرت لتحقيق حُسن العبارة؛ ولِدَعْم ثُبوت القدرة وتأكيدِ نَفْي العَيِّ، و"العرب تدخل الباء مع الجحد - أي: النَّفي - مثل قولك: ما أظنُّك بقائم"[3]؟.

دلالةُ التَّعبير بالقدرة في الخبر ﴿بِقَٰدِرٍ﴾:

إثباتُ القدرة إثباتٌ لباقي الصِّفات الدّالَّة على كمال الفعل

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة القدرة في قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾؛ لشمولِ لفظ القدرة جميع معاني الاستطاعة والقوَّة ومقارباتها، فالقادرُ قويٌّ مستطيعٌ فاعلٌ لما يريد، كما أنَّها تحوي على دلالة "نفي العجزِ عنه، ومُحال أن يوصف غير اللّه بالقدرة المطلقة معنًى، وإن أُطلِق عليه لفظًا، بل حقُّه أن يُقال: قادِرٌ على كذا، ومتى قيل: هو قادر فَعَلى سبيل معنى التَّقييد؛ ولهذا لا أحد غير اللّه يوصف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (با).
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 116.

بالقدرة مِن وجهٍ إلّا، ويَصحُّ أن يوصف بالعجز من وجهٍ، والله تعالى هو الَّذي يَنتفي عنه العجز مِن كلِّ وجه"[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

اجتماعُ الاسميَّة والفعليَّة في صفة القدرة

قُرِئ الخبر ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ بقراءتين؛ إذ "قرأ يعقوب وحده ﴿يَقۡدِرُ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ بالياء بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بالباء والألف، قال أبو منصورٍ الأزهري: "مَن قَرَأ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾، فـ (الباء) دخلت في خَبَر ﴿أَنَّ﴾ بدخول ﴿أَوَلَمۡ﴾ في أوَّل الكلام، ولو قلت: ظننت أنَّ زيدًا بقائم، لم يجز، ولو قلت: ما ظننت أنَّ زيدًا بقائم جاز؛ لدخول حرف النَّفي في أوَّله، ودخول ﴿أَنَّ﴾ إنَّما هو توكيد الكلام، فكأنَّه في تقدير: (أليس الله بقادر على أن يحيي الموتى)"[2].

وعلى قراءة الجمهور بالباء وصيغة اسم الفاعل: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، فالباء للتَّوكيد، وتدلُّ صيغة اسم الفاعل على الماضي والحاضر والمستقبل، أي: إنَّ قدرته ﷻ دائمة مستمرَّة على المدى، وعلى قراءة يعقوب: (يَقۡدِرُ) يكون خبر ﴿أَنَّ﴾ فعلًا مضارعًا من القدرة على أنَّه فعل مستقبل[3]، والقراءتان اجتمعتا على إثبات القدرة اسمًا ثابتًا، وفعلًا متجدِّدًا، وهذا من بديع الاجتماع.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

المتشابهُ اللَّفظيُّ في القرآن الكريم يوفّق السّياقات مقتضياتها

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ﴾ [يس: 81] وفي الأحۡقاف ﴿بِقَٰدِرٍ﴾؛ لأنَّ ما في هَذِه السّورَة خبرُ ﴿أَنَّ﴾، وما في (يس) خبر (لَيۡسَ)، فَدخل (الباء) الخَبَرَ، وكانَ القياس

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (قدر).

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 382، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 355.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.

ألّا يدخل في الأحقاف، ولكنَّه شابَهَ (لَيْسَ)؛ لما ترادف النَّفْي، وهوَ قَوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾، وفي سورة (يس) نفيٌ واحِد، وأكثر أحكام المُتَشابه في العَرَبيَّة ثَبت من وجهَين قياسًا على باب ما لا ينصَرف وغَيره[1].

بلاغةُ حرفِ الاستعلاء:

القـدرةُ المطلقة مختـصَّةٌ بالله تـعـالى، فـهي تَعلو، ولا يُعلى عليها

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ استعلائيَّة استعلاءً معنويًّا، وفي استعمالها هنا اتِّساق جليٌّ مع الخبر المعدَّى بها وهو ﴿بِقَٰدِرٍ﴾؛ إذ القدرة المطلقة المختصة بالله تعالى تعلو، ولا يُعلى عليها، فناسبتها ﴿عَلَىٰٓ﴾ مناسبة دقيقة.

معنى ﴿أَن﴾ في جملة: ﴿أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾:

الحرفُ المصدريُّ أنشطُ في الدَّلالة مــن المـصـدر الصَّريح

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ مصدريَّة، أي: قادر على إحياء الموتى، ولطيفة إيثارها على المصدر الصَّريح (إحياء الموتى) إتاحتُها صيغة المضارعة في منصوبها ﴿يُحۡـِۧيَ﴾، وللمضارعة عطاؤها الغزير.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإحياء:

إحـيـاءُ المـوتى دليلٌ عظيم على القدرة المطلقة

الإحياء المقصود في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ هو "إعادةُ الرّوح إلى الجسد بعد مفارقتها إيّاه، وإخراجُهم من قبورهم كهيئتهم قَبل وفاتهم"[2]، وفي التَّعبير بالإحياء في جملة: ﴿يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ دليل على القدرة المطلقة، وسَوْق هذا الخبر في سياق الإنشاء تذكير للكفّار بيوم الحساب، الَّذي يقتضيهم إجابةَ داعي اللّه تعالى، والإيمان به ﷻ، وبكتابه المجيد، وبرسوله ﷺ.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ ودلالة الجمع:

(أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ استغراقيَّةٌ، أي: إنَّه تعالى القادر على إحياء

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 167.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.

الوعيدُ الإلهيُّ بإحياءِ الجميعِ لحسابِهم دون إفلات أحد

من يشاء من الموتى، وقادر على أن يحيي كلَّ الموتى، وذلك بِرَدِّ أرواحهم في أبدانهم، وإنشارهم للحساب، ويتآزر جمع (موتى) مع (أل) الاستغراقيَّة على بيان طلاقة القدرة الإلهية، مع ما فيه من الوعيدِ بأنَّ جميعَ الموتى سيبعثهم الله تعالى، ويُحاسبهم، ولن يُفلت من ذلك أحد.

دلالةُ ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ وبلاغةُ استعمالِها:

حـذْفُ حكاية كلام الكفّار بيانٌ لِتهافُته

حرف ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ في الآية الكريمة يقوم مقام جملة جواب كاملة، سيقت بِعَقِب السُّؤال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾، والجواب بـ ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ من الاستئناف البيانيِّ المرتَقَب لهذا السُّؤال الصَّريح.

هذا في ظاهر السّياق، أمّا في باطنه؛ فـ ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ "جوابٌ لِمحذوفٍ دلَّ عليه التَّعجيبُ مِن ظنِّهم أنَّ الله تعالى غير قادر على أن يُحيي الموتى، فإنَّ ذلك يتضمَّن حكايةً عنهم: أنَّ الله تعالى لا يُحيي الموتى، فأجيب بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ﴾؛ تعليمًا للمسلمين، وتلقينًا لِما يُجيبونهم به، وحرف ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ لَمّا كان جوابًا؛ كان قائمًا مقامَ جملةٍ تقديرها، هو قادر على أن يحيي الموتى"[1].

وفي السُّكوت عن حكاية دعواهم بأنَّ الله تعالى لا يحيي الموتى، والاكتفاء بتضمينها في الجواب ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ إهمالٌ لِدعواهم، وبيان لِتَهافُتها، وتعريض بضحالة فكرهم، وعدم جدارة دعواهم بذكرها، فقفز السياق مباشرة إلى الرَّدِّ عليهم بكلمة واحدة: ﴿بَلَىٰٓۚ﴾.

و﴿بَلَىٰٓۚ﴾ مقرِّرةٌ للقدرة، لا لرؤيتهم، على وجه عام؛ ليكون كالبرهان على المقصود، كأنَّه تعالى لمّا صدَّر السورة بتحقيق المبدأ؛ أراد ختمها بإثبات المعاد[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 64.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 14/ 316.

علَّةُ فصلِ جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ "تذييل لجملة ﴿بَلَىٰٓۚ﴾؛ لأنَّ هذه تُفيد القدرة على خلق السَّماوات والأرض، وإحياء الموتى، وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السَّماوات والأرض"[1].

التَّراكيبُ القرآنيَّة متآخية متواثقة في تقرير المعاني وتوكيدها

وقد فُصِلت عن جملة ﴿بَلَىٰٓۚ﴾؛ لكمال الاتِّصال بينهما؛ لنزولها منها منزلة التَّوكيد من المؤكَّد؛ لأنَّها "تقريرٌ وتأكيد لقدرته تعالى على إحياء الموتى؛ لأنَّ لفظ ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ يُؤتى به في الجواب لإبطال النَّفي السّابق، وتقريرِ نقيضه، أي: بلى إنَّه سبحانه قادر على إحياء الموتى؛ لأنَّه تعالى على كلِّ شيء قدير[2]، وفي جملة الفاصلة أيضًا "تعليلٌ لِما أفادته ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ مِن تعليل الخاصِّ بالعامِّ"[3].

دلالةُ التَّوكيد في جملة الفاصلة:

أفادت (إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ التَّوكيدَ، اقتضاه إنكارُهم قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى، وفي هذا التَّوكيد توجيهٌ للدُّعاة إلى إبراء الذِّمَّة في الدَّعوة بسوق كلِّ العناصر الَّتي من شأنها انتزاع الشَّكِّ من أنفس المخاطَبين، فهاهو القرآن الحكيم يعالج عقائد الكافرين، مستخدمًا لذلك أساليبهم في التَّوكيد، مع غناه ﷻ عنهم وعن العالمين جميعًا.

التَّوكيد أسلوب دعـويٌّ يعالج الشَّكَّ

فائدةُ إضافة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾:

أفادَ إضافة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾، وهو نكرةٌ مبهم الاستغراق والشُّمول؛ تقريرًا لعموم قدرته ، وقيّوميَّته على فِعل ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قدرةً وقيّوميَّة تامَّة، فلا يندُّ عنها شيءٌ.

توكيدُ العموم الشُّمولي الَّذي لا تخصيص له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 208.
(3) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 40.

كلُّ شيءٍ خاضع لقدرة الله تعالى المطلقة

دلالةُ تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

كلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ نكرةٌ لفظًا؛ إذ هي غير مُعرَّفةٍ بأي أداةِ تعريفٍ، وهي إلى ذلك نكرة مبهمة معنًى، فاجتمع عليها التَّنكيران من جهتيها: اللَّفظيَّة والمعنويَّة، وفي ذلك إيغال في إفادة العموم، وإفادة التَّناهي في استغراق ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عِظَمًا وضآلة وما بينهما على استواء، ممّا يقرِّر بَسْط قدرته تعالى بسطًا لا حدود له، وأنَّ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ خاضع لها.

قـرْعُ العقولِ وتنبيهُ الأذهان إلى تدبُّر المعنى المذكور

نكتةُ تقديم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر:

في تقديم القيد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ قَرْعُ العقول، وتنبيهُ الأذهان إلى إنعام النَّظر في دلالة صيغة العموم والاستغراق على قدرته تعالى على التَّحكُّم والتصرُّف في ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ خَلْقًا وتصرُّفًا وإماتةً وإحياء.

والَّذي اقتضى ذلك التَّقديمَ أنَّ السّياق لإثبات عموم قدرته سبحانه وتقريرها في النُّفوس، وفي ذلك تأكيد لعطاء ﴿بَلَىٰٓ﴾ المضطلعة بنفي إنكار الكفّار تلك القدرةَ.

إحياءُ الموتى على القدير أمرٌ يسير

نكتةُ التَّعبير بصيغة ﴿قَدِيرٌ﴾:

يتَّسق مع عطاء التَّعبير بالقدرة هنا صياغتُها في قالب المبالغة (فعيل): ﴿قَدِيرٌ﴾، فلا يوصَف بهذا الوصف على سبيل الحقيقة إلّا الواحد سبحانه، فهو القدير الَّذي لا يعجزه شيء، القدير على إعادة المعدوم، ولو فني الجسد وغيره[1].

لطيفةُ تنكيرِ لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ للدَّلالة على عموم القدرة الإلهيَّة، وعظمتها،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.

واستعلائها على كلِّ شيء، وهيمنتها على كلِّ شيء؛ لأنَّه القادر بذاته، لا بِقدرة مستفادة[1].

براعةُ انتقاء الصّيغة الأنسب في مقامها في مفردة (قادر) و﴿قَدِيرٌ﴾:

النَّظمُ القرآنيُّ يصطفي لكلِّ سياق صيغته الصَّرفيَّة الأنسب له

من دقَّة النَّظم القرآنيِّ المعجز توزيع وصفَي: ﴿قَدِيرٌ﴾ في الفاصلة و(قادر) في وسط الآية؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّياق في رَدِّ إنكارهم قدرة اللّه تعالى على إحياء اللّه تعالى الموتى؛ جيء في القدرة على إحياء الموتى بصيغة اسم الفاعل: (قادر)، ولمّا كان السياق في إثبات قدرته سبحانه على كلّ شيء؛ جيء بِوصف ﴿قَدِيرٌ﴾ الَّذي هو أكثر دلالة على القدرة مِن وصف (قادر)[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 65.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤﴾ [الأحقاف: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الاستدلال إلى الإنذار بقصد الهداية

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة إنكار القرآن على منكري البعث، والاستدلال عليه من الأدلَّة العقليَّة والكونيَّة، وذلك بالاستدلال بقدرته سبحانه على خلق السَّماوات والأرض؛ لأنَّ خلْقَهما وإبداعهما أكبرُ من ردِّ الأرواح إلى الأجساد؛ ناسب بعد ذلك أن ينتقل إلى الإنذار بترهيب الكافرين من النّار، فإنَّ الغاية من سَوْق الكلام هو الاستدلال على البعث بقصدِ الإيمان بالبعث، والإنذار بقصد تخويفهم من عذاب الله تعالى، فاجتمع مقصدان الإيمان بالعبث، والتَّخويف من النّار، وهما يصبّان في نهر الهداية، إذًا هو انتقال من الاستدلال إلى الإنذار بقصد الهداية.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يُعۡرَضُ﴾: العَرْضُ: خلافُ الطّولِ، وأصله أن يُقال في الأجسام، ثمَّ يُستعمل في غيرها، كما قال: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصلت: 51]، وعَرَضْتُ العودَ على الإناء، واعتَرَضَ الشَّيءُ في حلقه: وقف فيه بالعَرضِ، واعتَرَضَ الفرسُ في مشيه، وفيه عُرْضيَّةٌ، أي: اعتِراضٌ في مشيه من الصُّعوبة، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيع، وعلى فلان، ولفلان نحو: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 31]، ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: 20][1]، وقالوا بأنَّ هذا من القلب، والقلب: أن يَجْري حكم أحد جزأي الكَلام على الآخر،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: تعرض النّار عَليهِم[1].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: الأصل في (ذوق) اختبار الشيء من جهة الطّعم، فذاقَهُ ذَوْقًا، وذَواقًا، ومَذاقًا، ومَذاقَةً: اختَبَر طَعْمَهُ، وأصله فيما يَقِلُّ تَناوله، فإنَّ ما يَكثُر من ذَلِك يُقالُ له: الأكْلُ، وأذَقته أنا إذاقَة[2]، وكُلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فقد ذاقَهُ[3]، قال الرّاغب: "واختير في القرآن لفظ الذَّوق في العذاب؛ لأنَّ ذلك - وإن كان في التَّعارُف للقليل - فهو مستصلَح للكثير، فخصَّه بالذِّكر ليَعُمَّ الأمرين، وكثُر استعمالُه في العذاب، نحو قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]"[4]، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، أي: تجرَّعوه، وتألَّموا به.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ المجرمِ يوم القيامة عذابٌ معنويٌّ بين يدي العذاب الحسّيِّ

تُبيِّن الآية الكريم بأسلوب الإنذار والتَّخويف من يوم البعث، فتخاطب الكافرين: وتذكَّروا يا منكري البعث يوم القيامة، حين يبعثكم اللّه تعالى، فتُعرضون على صنوف العذاب في النار، وتُدفعون إليها دفعًا، فتُلقَون فيها، ويقول لكم زبانيتُها على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ: هذا هو البعث، وذلك هو العذاب الَّذي كنتم تُنكرونه في الدُّنيا، أتُنكرونه اليوم، وقد عاينتموه، وعالجتم إيلامه؟.

فيُجيب منكرو البعث: بلى وربنا، لقد تحقَّقنا اليوم من خطئنا، وتبيَّن لنا ضلالنا، فيجيبهم ملائكة العذاب: إذا اعترفتم على أنفسكم؛ فحقٌّ عليكم أن تتجرَّعوا صنوف العذاب، وتتذوَّقوا الحميم والغسّاق؛ بسبب كفركم باللّه تعالى، وإنكاركم البعث والحساب.

(1) أبو البقاء، الكليات، ص: 704.
(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (ذوق).
(3) الخليل، العين: (ذوق).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ذوق).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (الواو) ودلالتُها:

الاستئنافُ على معنًى جديدٍ أو العطفُ

تحتمل (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أن تكون واو الاستئناف؛ إذ تستأنف خبرًا جديدًا بمصير من لا يجيبون داعي الله تعالى، ولم يؤمنوا به، وينكرون قدرته تعالى على الإحياء والبعث، وتحتمل أن تكون "عاطفة على جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وأوَّل الجملة المعطوفة قوله: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ لأنَّه مقول فعلِ قولٍ محذوف، تقديره: ويُقال للَّذين كفروا يوم يُعرضون على النّار"[1].

فائدة التَّعبير بلفظ (يوم):

الـتَّرهـيـب بأسلوبِ التَّلويح أوقعُ في العقل الصَّريح

المقصود بـ ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة، و"فيه وعيد للكفّار من قريش وسواهم"[2]، والمقصود منه الرَّدعُ والزَّجر عن هذا المذهب والقول[3]، بوساطة ذكرِ الوعيد الشَّديد، بالتَّلويحِ بيوم العرضِ، فجاء (يوم) بهذا النَّظم البديعِ بقصدِ تحذير الكافرين، ووعيدهم بطريق الإيماء والتَّلويح.

بلاغةُ استعمالِ مفردة العرض:

عرضُ الكافرين يـوم القـيامةِ ترهيبٌ ممزوجٌ بإهانةٍ

مادَّة العرض في جملة: ﴿يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مصوِّرةٌ ومعبِّرة؛ لأنَّ "العَرض بمعنى الوقوف على الشَّيء، وتَلَقّي ما يترتَّب على هذا الوقوف - على هذا الشَّيء - من خير أو شرٍّ"[4]، فهو "عَرْضُ مباشَرَةٍ، كما تقولون: عرضت الجاني على السَّوط"[5]، وعَرضُ تعذيب "أي: يعذَّبون بها، من قولهم: عُرِض بنو فلان على السَّيف؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 107.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 512.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 196.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 107.

إذا قُتِلوا به، وهو مجاز شائع"[1]، وآثر النَّظم الكريم استعمالَها؛ لما فيها من التَّرهيب الممزوج بالإهانةِ، فإنَّ عرْضَ الكافرين يوم القيامةِ هو عرض حسابٍ بقصد العقاب.

دلالةُ بناء فعل ﴿يُعۡرَضُ﴾ للمفعول:

الإذلالُ والإهانةُ سمةٌ لازمةٌ لأهل النّار

بُني فعلُ ﴿يُعۡرَضُ﴾ للمفعول للعلم بالفاعل وتَعَيُّنه؛ إذ ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19]، حتّى وإن قام ملائكة العذاب بذلك العرض مباشرةً، فالآمر والنّاهي هو اللّه تعالى، وإلى ذلك ففي بناء فعل ﴿يُعۡرَضُ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه إيحاءٌ بأنَّ الكفّار منكري البعث يكونون يومئذٍ عُرْضةً لكلِّ أحد يتأتّى منه عَرْضَهم على النّار من الملائكة وغيرهم ممّا يعلمُ اللّه تعالى؛ إذلالًا وإهانةً وتعذيبًا نفسيًّا لا يُتصوَّر، ففي تلك الصّيغة إفادة العموم المبهم تفصيلًا، المعلوم إجمالًا، بأنَّ الآمر هو اللّه تعالى، مع ما فيه من إشارةٍ إلى استلاب تكبُّرهم وتأبّيهم على العذاب عقابًا؛ لتكبُّرهم في الدُّنيا على الإيمان.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُعۡرَضُ﴾:

تصويرُ عَرْضِ الكفّار على النّار

في صوغ الفعل ﴿يُعۡرَضُ﴾ مضارعًا استحضارٌ لتلك الصّورة المريعة أمام أذهان الكفّار منكري البعث، كأنَّها ماثلة أمام أعينهم هنا في الدُّنيا، وكأنَّها تحدُث وقت إلقاء هذا الخبر عليهم؛ علمًا بأنَّها إنَّما ستحدث في الآخرة، وفي ذلك الاستحضار مزيد ترهيب يحمل على التَّوبة والإسراع إلى الإيمان قبل فوات الأوان، وبالإضافة إلى تصوير ذلك المشهد، ففيها عنصر تجديد عرض الكافرين، كلَّما عُرِضَ فوجٌ؛ جاء آخر.

علَّةُ التَّعبير بالموصول:

الاستشهادُ على المعذَّبين بكفرِهم الَّذي أوردهم النّار

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للاستشهادِ عليهم بما في حيِّز الصِّلة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 179.

فعرضُ الَّذين كفروا يوم القيامة بقصدِ الحساب والعقاب، إنَّما كان بسبب كفرِهم، والاسم الموصول بهذا الاعتبارِ يهيّئ لما لا يهيِّئ له الاسم الصَّريح، كما يهيِّئ لدلالة الماضي في الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾، فهذا الصِّنف لن يُعرض إلّا على ما يلائمه، ويكافئ كُفره، وما على ذلك من إشارات ينهض بها، ويهيِّئ لها الموصول.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكفر دون الشِّرك:

مدارُ السّياقِ على إنكار البعث، وهو أبرز عناوين الكفر

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بمفردة الكفر في جملة الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ دون الشِّرك؛ وذلك لمناسَبَة السّياق؛ إذ توجَّه السياق لمناقشة منكري البعث وإحياء الموتى للحساب، وهذا أبرز عناوين الكفرِ، وهؤلاء الكفرة وإن كانوا مشركين إلّا أنَّ السّياقَ برز فيه الكفر أكثر من الشِّرك، فكان لفظُ الكفر هو الأنسب، ولا يمنع من دخول سائر أصناف الكفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله ممّا طلب القرآن الإيمان بها، فيدخل الكفر بالبعث دخولًا أوّليًّا، وسائر أصناف الكفر دخولًا عموميًّا.

بلاغةُ حرف الاستعلاء:

الكافرُ معروضٌ على النّارِ كعرضِ الشّواء

دلَّ حرف الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ على الإهانةِ والإذلالِ، بتنزيل الَّذين كفروا منزلةَ اللَّحم المعروض على النّار، فهُم "يَصلَونَ لَهيبَها، ويُقَلَّبونَ فيها، كَما يُعرَضُ اللَّحمُ الَّذي يُشوى"[1]، فهُم في أعلى النّارِ على الحقيقةِ، ولكنَّهُ استعلاءُ المعذَّبينَ المصلوبينَ المصطلين لا استعلاء المكرَّمينَ، وهذا من بديعِ الاستعمالِ، أن يُجعلَ المعذَّب فوقَ المعذَّب فيه؛ ليزداد عذابًا، ففيه عذابُ الحسِّ والكرامةِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 159.

التَّذكيرُ بعذابِ النّارِ من شأنه تنبيهُ الغافلينَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ باللّام، واللّامُ هَهُنا للعهدِ الذِّهنيِّ، أي: النّارُ المعهودَةُ الَّتي سبقَ الحديثُ عنها مرارًا في القرآنِ الكريم، وكذلكَ ففي ذكرِ النّارِ معرَّفَةً تنبيهٌ للغافلينَ، وهي الَّتي تواردت أخبارها وأوصافها في الوحيين الشَّريفين، وعُرِفت بتنوُّع أوديتها وصنوف عذابها، فإذا جاء ذكرها في القرآن الكريم؛ بادرت الأذهان إلى استحضارها وتصوُّرها.

موقعُ جملة: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

تقع جملة: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مقولًا لقول مضمَر؛ حيث يقال لهم ذلك القول عند العرض على النّار تبكيتًا وتقريعًا وتوبيخًا، "وهذا المضمر هو ناصب الظَّرف (يوم)"[(1)].

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

عـذابُ الكفّار يـجـمـعُ بين الحسّيِّ والمعنويِّ قهرًا وإذلالًا

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ استفهام تقريريٌّ بالنَّفي؛ "ليعترفوا بالَّذي كانوا ينكرون في الدُّنيا؛ لأنَّهم كانوا ينكرون في الدُّنيا الرُّسل والآيات، وكانوا ينكرون كون البعث وعذابه"[(2)]، فيُقِرّوا بنفي النَّفي في (ليس)، فيُثبتوا الحكم بالحقِّ؛ لهذا المُشار إليه الماثل أمام أعينهم مِن أسباب العذاب ومظاهره، ومن أغراض هذا السُّؤال "التَّهكُّم بهم، والتَّوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾ [الصافات: 59]"[(3)]، كذلك هو "سؤالُ تأنيب، وتقريع، وإيلام للمشركين المكذِّبين بيوم الدّين، وبما أنذروا به من عذاب الله في هذا اليوم، أليس هذا العذاب بالحقِّ؟ إنَّكم لم تظلموا شيئًا، فهذا جزاء ما عملتم"[(4)]، وفيه "تنديمٌ على ما كانوا يزعمون أنَّ الجزاء باطلٌ وكذب، وقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾ [الصافات: 59]"[(5)].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 313.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 259.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 313.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 299.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.

من أهوال القيامةِ الإشارةُ إلى العذاب؛ لتقع المشاهدة عيانًا

دلالةُ التَّعبيرِ بإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾:

يعود اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إلى "العذاب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾"[1]، وفي إيثار التَّعبير بإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ دليلٌ على قُرب العذاب من أن يأخذهم أخذًا، ودليل على قُربهم هم منه قُربًا مرعبًا، وقد عُرضوا على سببه المادّي الحسّيِّ القريب، وهي ﴿ٱلنَّارِ﴾.

"وفي الاكتفاء بمجرَّد الإشارة مِن التَّهويل للمشار إليه، والتَّفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنَّه أمرٌ لا يمكن التَّعبير عنه بلفظٍ يدلُّ عليه"[2].

وقيل: إنَّ الإشارة في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ إلى إحياء الموتى يوم القيامة، أي: "أليس هذا الإحياءُ إحياءً بالحَقِّ"[3].

دلالـةُ التَّوكيد تُصاحب الحقَّ بعد ظهوره

نوعُ (الباء) ودلالتها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للتَّوكيد، فهي تقرِّر المعنى، وتحقِّق الغرض، فصارت من حيثُ المعنى مثل الرُّكن الرَّكين من الجملة، وكأنَّ المعنى هنا: أليس هذا العذاب منوطًا ومتعلِّقًا بالحقِّ الَّذي ضيَّعتموه؟.

الـحـقُّ الَّـذي أنكره المشركون في الدُّنيا ماثلٌ في الآخرة

معنى تعريف لفظِ (الحق):

(أل) في لفظ (الحق) للعهد الذِّهنيِّ؛ إذ تأخذ بالأذهان إلى (الحق) الَّذي أنكروه من البعث، وقدرته تعالى على الإحياء والحساب، وتنعيم المؤمنين وتعذيب الكافرين، وكانوا يكذِّبون بكلِّ ذلك، فهو هنا (الحق) المعيَّن إثباته، لا (الحق) المطلق الَّذي يدلُّ على الجنس، وتنضوي تحته كلُّ صور الهدى والصَّواب، وتَستمِد كلُّ فتائل الهُدى أنوارها من مشكاته، هذا ما يدلُّ عليه السّياق، ويحتمل

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 313.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.

العموم، فيدخل فيه معنى الجنس؛ لتنزيلهم منزلةَ من أنكر الحقَّ كلَّه، وهذا أشدُّ في العقاب.

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾:

فُصلت جملة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ عن جملة: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ لوقوعها استئنافًا بيانيًّا على عادة أسلوب المقاولة في القرآن الكريم.

معنى ﴿بَلَىٰ﴾ ودلالتها:

إدانـةُ الكافر لنفسه إرضاخٌ لها

﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب للنَّفي؛ إذ ينفي النَّفي الَّذي يرد في السُّؤال، فهو هنا يقرِّر إثبات كون المشار إليه حقًّا، و"هو إقرار منهم يُدينون به أنفسهم، وبأنَّ هذا العذاب الواقع بهم هو من صُنْع أنفسهم، وبما كسبت أيديهم"[1]، و"عن الحسن أنَّه قال: إنَّهم لَيُعَذَّبون في النّار، وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنَّه العدل"[2].

بلاغةُ القسم وغرضه:

الكنايةُ عن شديد الحسرة والنَّدامة بقصد الاستجداء

القسم في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ يُراد به توكيد معنى الحقِّ في أنفس المتكلِّمين، فهُم يُؤكِّدون ذلك لأنفسِهم بأسلوب القسم، وهو كناية عن شدَّة النَّدامة والحسرة؛ إذ يأتي القسم برهانًا على الإيمانِ، بعد فوات الأوان؛ ليدلَّ المتكلِّم على شديد ندمه، فهو توكيد الحسرة والنَّدامة بغرض الاستجداء، فهُم "اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، وأكَّدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأنَّ المشاهدة هي حقُّ اليقين الَّذي لا يمكن جَحْدُه ولا إنكاره"[3]، و"لأنَّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بِحَقّيَّةِ ما هم فيه"[4]، وأنّى لهم ذلك؟.

وقيل في تأويل قولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾: إنَّه نداء لا استفهام، أي:

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 299.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 107.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.
(4) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 40.

"بلى يا ربَّنا، إنَّ هذا العذاب حقٌّ، وإنكارنا له في الدُّنيا إنَّما كان عن جهل وغفلةٍ وغرور منّا"[1].

نكتةُ القسم بعنوان الرُّبوبيَّة:

تحنُّنُ الكافرِ يوم القيامةِ إنَّما يكون بالمناداةِ على الخالق المربّي

في قَسَم الكفّار في الآخرة بعنوان الرُّبوبيَّة: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ إقرارٌ للّه تعالى بالرُّبوبيَّة؛ ففيه ضمنًا اعتراف منهم له ﷻ بالألوهيَّة؛ إذ إنَّ ولاء العبد إنَّما يكون لِسيِّده الَّذي يطعمه، ويسقيه، ويُرَبّيه؛ لذا تفوح من هذا القَسَم دلالةُ الاستعطاف، والتَّندُّم على إنكارهم ربوبيَّتَه ﷻ أيّام أن كانوا في الدُّنيا، و"التَّغليظ لأنفسهم، وجعلوا المقسم به عنوان الرَّبِّ تَحَنُّنًا وتَخَضُّعًا"[2]، كما يوحي قسمُهم بعنوان الرُّبوبيَّة بأنَّ الجوانب الحسّيَّة والمنافع المنوطة بجوانب التَّربية والعطاء تطغى عليهم.

دلالة الإضافة في ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾:

في إضافة لفظ (رب) إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ كثير تذلُّل، ومحاولة تدارُك الإيمان النّافع، لكن هيهات لهم ذلك!

علَّةُ فصل جملة: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

فُصِلت جملة: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ عن جملة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ للاستئناف البيانيِّ؛ جريًا على حكاية المحاورات، فهي جواب لقولهم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾.

بلاغةُ الفاء الفصيحة:

المطويُّ لفظُه ملموحٌ معناه من النَّظم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ هي الفاء الفصيحة؛ إذ تُفصح عن محذوف، تقديره: "إذا كان الأمر كذلك؛ فذوقوا العذاب؛ بسبب ما كنتم تكفرون"[3]، و"تذوقوا طعمه الأليم، ووقعه

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 454.

المهين"[1]، وفي هذا الحذف تعجيلٌ على ما فيه مساءتُهم، وتركيزٌ على الأمر المُهين: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، والعياذ بالله تعالى.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿فَذُوقُواْ﴾:

التَّهويل الشَّديد، فالذَّوق مبدأ الطَّعام، وما يرونه مبدأ العذاب

الإذاقةُ إحساسُ اللِّسان بأحوال الطُّعوم[2]، والتَّعبير بها في جملة: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ "تمثيلٌ لإدراك آثاره الأليمة، والإحساس بها إحساسًا لا شكَّ فيه"[3]، فهي هنا مستعارة للإحساس بالألم والأذى إحساسًا مكينًا كتمكُّن ذوق الطَّعام من فم ذائقه تمكُّنًا لا يجد له مدفعًا[4]، فهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه الإحساس بالألم المكين بالذَّوق، ونكتة الاستعارة التَّهويل الشَّديد، فإنَّ الذَّوق هو مبدأ الطَّعام، وما يرونه من العذاب هو مبدأ العقاب.

غرضُ الأمر بذوق العذاب:

توبيخُ الكفّار والتَّهكُّم بهم

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون جاريًا على الأصل من الاستعلاء والإلزام والقهر؛ إذ المقام لقهرهم وإذلالهم ومعاقبتهم بكفرهم، ويحتمل أن يكون "مستعملًا في الإهانة"[5]، والتَّبكيت والخذلان، والتَّقريع بما كانوا ينكرونه، وفيه "توبيخ بالغٌ وتهكُّمٌ عظيم"[6].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعذاب دون العقاب:

العقابُ يأتي عقب الذَّنب، والعذاب أعمُّ

استعمل النَّظم الكريم مفردة العذاب دون العقاب في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وذلك أنَّ العذاب هو الإيجاعُ الشَّديد، وأصل التَّعذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي: طرفها، ومن التَّعْذيبِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 940.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 306.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.

الضَّربُ[1]، وإذا كان العقاب قد سُمّي عقابًا؛ لأنَّ الفاعل يستحقُّه عَقيب فِعْله"[2]، فإنَّ التَّعبير بالـ (عذاب) هنا أدقُّ وأحكمُ؛ لأنَّ عذاب الكُفر غالبًا لا يُعجَّل به في الدُّنيا، وإنَّما يُؤجَّل لأهله في الآخرة.

عذابُ الكافرين مُـنـــوَّعٌ في صنوفه، بالغٌ في بابه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

تعريف ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ في جملة: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ يضفي عليه من الخطورة ما يجعله محذورًا، فهو ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ البالغ في بابه مبلغًا لا تُتصوَّر حقيقته، وفي (أل) هذه معنى الجنس، أي: فذوقوا جميع صنوف العذاب المعدَّة لكم في الآخرة، ممّا لا يمكن لأحد في الدُّنيا تصوُّره من الحميم، والغسّاق، وشجر الزقّوم، والحيّات، والعقارب، وغيرها ممّا لا يُحاط بخطره وفظاعته.

نوع (الباء) ودلالتها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ سببيَّة، أي: ذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكفرون، فمَن دخل النّار، فيدخلها بعدله.

الكُفرُ أشدُّ الذُّنوب، وهو يَذهب بذهاب الدُّنيا، ويبقى عقابه

دلالةُ استعمالِ (ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مصدريَّة، أي: فذوقوا العذاب؛ "بسبب كفركم بهذا في الدُّنيا، وإنكاركم له"[3]، وفي إيثار (ما) مع فعلها ﴿كُنتُمۡ﴾ على المصدر (كفركم) تهويلٌ للكُفر، وإتاحةٌ لدلالات جملة ﴿كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ من ذِكر فعل الكينونة، وصوغه ماضيًا دالًّا على ذهاب المعصية وبقاء ذنبها، واستحضارِ فعل الكفر بصيغة المضارعة في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾.

لطيفةُ حذف متعلّق فعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾:

حُذِف متعلّق فعل الكفر في جملة: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾؛ إفادةً لعموم ما

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عذب).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 364.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 32.

سبقت معالجتُه في السّورة الكريمة وغيرها، من الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، ومن متعلِّقات الكفر إنكار قدرته تعالى على البعث وإحياء الموتى للحساب، والكفر بنعيم الآخرة وعذابها، فهذا يدخل دخولًا أوَّليًّا، ويتبعه سائر متعلِّقات فعل الكفر.

متعلِّقات الكفر عديدة، منها الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الصَّبرُ عنوانُ الفلاحِ وقاعدةُ الثَّباتِ في الوصولِ إلى غاية البلاغ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة القريبة حال الكافرين في إنكار البعث، وعدم إعمال القلب والعقل في الوصول إلى الحقِّ والإذعان إليه، أو لمّا ذكرت آيات السّورة بأكملها أحوال المكذّبين بالرِّسالة، والاستهزاء بالنَّبيِّ ﷺ، وما ذكره بشأن كفر عادٍ بنبيِّ اللّه هود عليه السلام، وإيمان الجنِّ الَّذين استمعوا القرآن، فأنصتوا له؛ ناسب بعد ذلك كلِّه بما يكون ختامًا للسّورةِ بأكملها، وما يكون مناسبًا للآيات السّابقة لها أن يأتيَ الأمرُ للنَّبيِّ ﷺ بالصَّبر على ما لقيه من قومه من أذى، وضرب له المثل بالرُّسل أولي العزم؛ ليكونوا سراجًا منيرًا في قابل أيّام الدَّعوة في الصَّبر والاحتساب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولوا بِمَعْنَى ذَوو لا يُفْرد له واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ به إلّا مُضافًا، كقولك: أولوا بأْسٍ شَديدٍ وأولوا كَرَم، كأنَّ واحِدَهُ أُلٌ، والواو لِلجَمع[1]، وقيل: أُوْلو، والمُؤَنَّثُ أُوْلاتُ، والواحِدُ: ذو[2]، وأُلات للإناث واحِدَتُها ذاتٌ، تَقولُ: جاءَني أولو الألباب وأولات الأَحْمال[3]. ولا يُقال إلّا للجميع من النّاس وما يشبهه[4]. والمقصود بأولو في الآية: ذوو، بمعنى أصحاب.

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألل).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ألل).
(3) الجوهري، الصحاح: (ألل).
(4) الخليل، العين: (ألل).

2) ﴿ٱلۡعَزۡمِ﴾: (عزم) أصل يدلّ على القطع والصرامة، فلا مثنويّة فيه[1]، وهو "ما عُقِدَ عَلَيْهِ القَلْبُ مِنْ أمرٍ أَنْتَ فاعِلُهُ، أيْ مُتَيَقِّنُهُ"[2]، والعَزمُ: الجِدُّ، عَزَم على الأمر يَعْزِم عَزْمًا ومَعْزِمًا، وعُزْمانًا، وعَزيمًا، وعَزيمة، وعَزَم الأمر: عُزِم عَلَيه، وفي التَّنزيل: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [محمد ﷺ: 21]، وقد يكون أرادَ عَزم أرباب الأمر، و﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: الَّذين عَزَموا على أمر الله فيما عهد إليهم[3].

3) ﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾: (لبث) أصل يدلّ على تمكّث[4]، ولَبِثَ بالمكان: أقام به ملازمًا له، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14]، ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۢ﴾[5]، أي: لم يمكثوا في الدُّنيا سوى ساعة ووقت قصير من ساعات النَّهار وأوقاته.

4) ﴿بَلَٰغٌۚ﴾: (بلغ) أصل واحد، وهو الوصول إلى الشّيء[6]، فبلغْتُ المكان بلوغًا، أي: وصلْت إليه، وكذلك إذا شارفْت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: 234]، أي: قارَبْنَه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق: 3]، أي: يبْلغ ما يريد، وبلغ الغلام: أدرك، وبلغ في الجودة مَبلغًا، وشيء بالغ، أي: جيّد، والبَلاغة: الفَصاحة، والبُلْغَة: ما يُتَبَلَّغُ به من العيش.

والبَلاغُ: الكِفاية، وهو الاسم من الإبلاغ والتَّبليغ، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، أي: هذا القرآن ذو بَلاغٍ للنّاس، أي: ذو بيان كافٍ يوصل إلى منتهى المراد، وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۢۚ بَلَٰغٌۚ﴾، أي: ذلك بَلاغٌ[7] كافٍ لمن أراد وتنبّه.

المَعنى الإجْماليُّ:

تُخاطب الآية الكريمة محمَّدًا ﷺ بأن يصبر كصبر أولي العزم من الرُّسل، فأنت لست بدعًا من الرُّسل في ملاقاة المدعوين وتحمُّل أذاهم، والصَّبر على المشاق، فصبرُك

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عزم).
(2) الخليل، العين: (عزم).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عزم).
(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (لبث).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (لبث).
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (بلغ).
(7) الصغاني، العباب الزاخر: (بلغ).

على دعوتهم واحتمالِ أذاهُم أعذرُ لهم وأقطعُ لحُجَجهم، ولك في ذلك الصَّبرِ أسوةٌ بإخوانك المرسلين، أصحابِ العزائم الثّابتة الجادَّة، ممَّن قصصنا عليك أخبار جلَدهم في دعوتهم أقوامَهم، وصبرِهم على إيذائهم.

الصَّبرُ وعدم الاستعجال للمكذِّبين بالعذاب، ففي القرآن البلاغ وفي الآخرة الجزاء

ولا تستعجل إنزالَ العقاب بهؤلاء المشركين المتعنِّتين، فمآلُهم مهما طالت دنياهم إلى ذلك العقاب الَّذي ينتظرهم، وفي هذا القرآن الكريم، وفي هذا البيان الواضح كفايةٌ لهم ولغيرهم، وتذكير وافٍ لمن أراد أن ينتفع به من أصحاب العقول الواعية، وإلّا فالهلاك والعذاب الأبديُّ المقيم مخصوصٌ بالخارجين عن الحقِّ، المتمرِّدين على دين اللّه تعالى القويم، المكذِّبين للرَّسول الكريم ﷺ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتها:

تحتملُ الفاء التَّفريع والفصيحة والعطف

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تحتمل أن تكون تفريعيَّة على ما تقدَّم[1]، فهي تُفرِّع توجيهه ﷺ إلى الصَّبر على وعيد الكافرين: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

وتحتمل أن تكون الفصيحة، فهي مؤذنة بشرط محذوف، فالجملة بعدها "واقعة في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكر؛ فاصبر على ما يصيبك من جهتهم، أو إذا كان الأمر على ما تحقَّقتَه مِن قدرته تعالى الباهرة؛ فاصبِرْ"[2].

وتحتمل أن تكون "الفاء عاطفة هذه الجملة على الجملة من أخبار الكفّار في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أي: هذه حالهم مع اللّه، فلا تستعجل أنت، واصبر، ولا تخف إلّا اللّه"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 190.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 451.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الصَّبر:

الصَّبرُ حبْسُ الغيظ وتحمُّلُ الأذى وعدم الاكتراث بالشَّنائع

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ لحثِّ النَّبيِّ ﷺ على احتمال عنَت مشركي مكَّة، واحتمال سوء أدبهم معه ﷺ بتكذيبه وتكذيب القرآن الكريم، ويمتاز لفظ الصَّبر في كونه يحمل معنى حبْس النَّفس عن الجزع، وحَبْس اللِّسان عن الشَّكوى، وحبْس الجوارح عن التَّشويش[1]، والمقصود به هنا: "الوقوفُ لِحُكم الله تعالى، والثَّبات مِن غير بَثٍّ ولا استكراه"[2]، وهو ما تحلَّى به الرَّسول ﷺ في حياته كلِّها.

غرضُ الأمر بالصَّبر:

الأمـرُ بالثَّبات على السُّلوك الفاضل إلهابٌ وتهييجٌ بغرض الاستدامة

الأمر في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فيه مزيد حثٍّ على المداومة على ما هو عليه ﷺ من الصَّبر، بغرض تطييبِ خاطره، كما قال له الحقُّ تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وإلّا فالرَّسول ﷺ كان صابرًا على الدَّوام، ولم ينل منه الجَزَع قطُّ، فالأمر بالصَّبر هنا يجري مجرى الأمر بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ [الأحزاب: 1]، فيكون محمولًا على الإلهاب والتَّهييج.

كما أنَّ الأمرَ بالصَّبر يحملُ تهديدًا للمشركين بالعذاب الَّذي ينتظرهم، والَّذي نُهي النَّبيُّ ﷺ ألّا يستعجل وقوعه بهم، فهُم سائرون إليه، وسيلقونه عمّا قريب، وفي الأمر بالصَّبر إيماءٌ إلى أنَّ قومَهُ لن يُعذَّبوا في الدُّنيا، وإنَّما سيؤجَّل عذابهم إلى الآخرة[3].

تعيينُ مرجعِ ضمير الخطاب:

الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أصالةً ولأمَّته تبعًا

المخاطَب بضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ

(1) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (صبر).
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 402.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 301.

﴿ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه ﷺ المخاطَب الأوَّل بنصوص القرآن الكريم، فعليه أُنزل، وبه كُلِّف، وإلى ذلك يَجِدُ كلُّ داعٍ وكلُّ مسلم في هذا الأمر زادًا يتزوَّد به؛ لأنَّ القرآنَ الكريم أيضًا خطاب للأمَّة، ومنه يستمدّون زاد الأرواح، فالخطاب للنَّبيِّ ﷺ أصالة، ولأمَّته تبعًا للاقتداء به.

نكتةُ حَذْفِ متعلِّق فعل (اصبر):

الـصَّـبرُ يـكـون عـلى كـلِّ خـير مأمولٍ وكلِّ حقٍّ مطلوب

حُذِف متعلِّقُ فعل (اصبِر)، والتَّقدير بحسب السياق: اصبر "على ما أصابك في اللّه مِن أذى مكذِّبيك مِن قومِك الَّذين أرسلناك إليهم بالإنذار"[1]، وقد "امتثل ﷺ لأمر ربِّه، فصبر صبرًا لم يصبره نبيٌّ قبله، حتّى مكَّن اللّه له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان وأمَّته على الأمم، فـﷺ تسليمًا"[2].

فنكتةُ إطلاق فعل الصَّبر هنا عن التَّقييد بمتعلِّق محدَّدٍ: توجيه الإنسان إلى تعميم جهات الصَّبر وربطه بكلِّ متعلِّقاته من الفعل والتَّرك، مِن صبرٍ عن فِعْلِ ما يُحبُّه بطبعه، ويأباه له الدّين، وصبرٍ على فعل ما يكرهه، ويَنْدُبُه الدّين إلى فعله.

نوعُ الكاف ودلالتها:

تــأمُّــلُ صـبرِ الرُّسل المكرَمين عـبـادةٌ يـقرُّ بها أصحابُ القلبِ المتين

(الكاف) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أداة تشبيه، تَعقِد مشابهة بين الصَّبر الموجَّه للرَّسولِ ﷺ، وصبر أولي العزم من الرُّسل، فذلك هو الصَّبر النّاجع والمعين على تبليغ الدّين، وبقدر حظّ الداعي إلى اللّه تعالى منه يكون توفيقُه في أداء مهمَّته في الدَّعوة، ففي التَّشبيه دعوةٌ لتأمُّل قصص الرُّسل السّابقين؛ للاقتداءِ بهم، ومن وراء ذلك دعوةٌ للمؤمنين الدُّعاة ممَّن يحرص على الامتثال لقيم الحقِّ المبين.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 176.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

اقتداءُ الفاضلِ بالمفضولِ توجيهٌ ربّانيٌّ بأمورٍ معتبرة

دلالةُ استعمال (ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ مصدريَّة، أي: فاصبر صبرًا كصبر أولي العزم من الرُّسل، أي: صبرًا عامًّا مثل صبر أولي العزم، "فإنَّكَ من جُملتِهم، بل من عِليتِهم"[1]، فالتَّشبيه دائرٌ حول صفة الصَّبر، والاقتداء بجملة أولي العزم من الرُّسل، وهذه الآية أصلٌ في اقتداءِ الفاضلِ بالمفضولِ.

مَنِ امتُحِن في اللهِ، فصبر؛ لَحِق بفضيلة أولي العزم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أُوْلُواْ﴾:

في إيثار التَّعبير بصيغة ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ إشادة بهم - عليهم جميعًا أتمُّ الصَّلاة وأزكى السَّلام - فهي تُصوِّر العزم كأنَّه صار ملكًا لهم، وهم أصحابه ومالكوه.

و﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ هم الَّذين كان منهم الصَّبر من المعاملة مع قومهم، وقيل: هم الَّذين كانوا أبدًا المتيقِّظين، القائمين بأمر اللّٰه، الحافظين لحدوده[2]، و"الذين امتُحِنوا في ذات اللّٰه في الدُّنيا بالمِحَن، فلم تزدهم المحن إلّا جدًّا في أمر اللّٰه، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم"[3].

الجدُّ والصَّبر عنوانُ أولي العزم من الرُّسل والأولياء

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْعَزْمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ للكمال، فهي تدلُّ على أنَّ عزْمَ الأنبياء هو ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ الكامل الجدير بالعَزميَّة، فإنَّهم عليهم السلام أوْلى النّاس بالعزم الشَّديد الحديد، فقد "فارقت نفوسُهم الشَّهوات والمُنى، فبذلوا نفوسَهم للّٰه صدقًا لاتِّفاق النَّفس والقلب على البذل"[4].

والعزم: نيَّةٌ محقَّقَة على عملٍ أو قول دون تردُّد، وقوامه الصَّبر على المكروه وباعثه التَّقوى، وقوَّته شدَّة المراقبة بألّا يتهاون المؤمن عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 90.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 260.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 177.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 190.

محاسبته نفسه[1]، "ومطلق الجدِّ والجهد والصَّبر موجود في جميع الرُّسل، بل الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام وكثيرٍ من الأولياء"[2].

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

تحتمل (من) أن تكون للبيان، فيدخل جميعُ الرُّسل وتحتمل التَّبعيض

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تحتمل أن تكونَ بيانيَّة، تبيّن الجنس الَّذي يُشَبَّه صبرُه ﷺ بِصبره، وذلك على قول من قال بأنَّ الرُّسل كلَّهم أولو عزم، والقيد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ "في موضع الحال، فيكون ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ صفةَ جميعِهم، أي: فاصبِر، كَما صَبَرَ الرُّسل المُجِدّون المجتهدون في تبليغ الوحي"[3]، فكأنَّه "لمّا تشوف السّامع إلى بيانهم؛ قال: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ عليهم الصَّلاة والسَّلام"[4].

وتحتمل أن تكون تبعيضيَّة، ولا بُدَّ حينئذٍ من بيان هذا البعض؛ ليظهر وجْهُ التَّخصيص، وتوجيهُ تخصيص بعضهم عليهم السلام بوصف ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ أنَّ المرادَ مَن له جدٌّ وجهد تامٌّ في دعوته إلى الحقِّ، وذبِّه عن حريم التَّوحيد وحمى الشَّريعة، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النَّفسيَّة والبدنيَّة، وأموره الخارجيَّة، كمبارزة كلِّ أهل عصره، كما كان لنوح عليه السلام، أو لِمَلِكٍ جبار في عصره وانتصاره عليه من غير عدَّة دنيويَّة، كنمروذ إبراهيم عليه السلام[5].

وقد تنوَّعت أقوال العلماء في تحديد أولي العزم من الرُّسل، أَهُم أربعة؟ أو خمسة؟ أو ستة؟ إلى آخره.

والرَّأي على أنَّهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّد، صلوات الله وسلامه عليهم، وقد كان الرَّسول ﷺ يَعرف عن يقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 191.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 190.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 462.

مَن هم أولو العزم من الرُّسل؟ وذلك ليتأتَّى تحقيقُ التَّشبيه، أمّا غير الرَّسول؛ فإنَّه ليس مطالبًا، بأن يعرف مَن هم أولو العزم من الرُّسل، وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون لنا في رسول الله أسوة، في مقام الصَّبر على ما نُبتلى به من شدائد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ دون (الأنبياء):

التَّعبيرُ بالرَّسول أعمُّ من النَّبيِّ، فناسبه الوصف بأولي العزم

التَّعبير بـ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ أنسبُ لوصف ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ - وإن كانوا جميعًا أولي عزم كما سبق القول - لأنَّ الرَّسول هو مَن اختصَّه الله تعالى بسماع وحيٍ بِحكم شرعيٍّ تكليفيٍّ، وأُمِر بتبليغه، والنَّبي مَنِ اختصَّه الله ﷻ بسماع وحيٍ بحكم شرعيٍّ تكليفيٍّ سواء أُمر بتبليغه أم لا، وبذلك يكون الفرق بين الرَّسول والنَّبيِّ: أنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا[2]، فالرَّسول أرسخ في باب الصَّبر، وهو أحوج إلى العزم الشَّديد والصَّبر الحديد؛ ليَقوَى على مواصلة دعوته لكلِّ وديعٍ وفظيع، ويقتدي بالرُّسل النَّبيّون.

علَّةُ الوصلِ بين جملتي الإنشاء:

فعلُ الفضل في الصَّبر، وترك الدُّعاء بالعقابِ فضيلتان متآزرتان

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ عاطفة، تجمع في نصحه وإرشاده ﷺ، وإرشادِ كلِّ داعيةٍ بعده بين فِعل الصَّبر وترك الاستعجال، وكان حقُّ هذا الموضع - فيما يظهر - الفصل لكمال الاتِّصال بالتَّوكيد؛ إذ ترك الاستعجال هو عينه فعل الصَّبر.

لكن (الواو) في جملة: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ آذنت بأنَّ المقصود سوْقُ كُلٍّ منهما مساقًا مستقلًا؛ بحيث يَبدوانِ نُصحَيْنِ وإرشادين مستقِلَّين؛ تقريرًا لفكرة الاستقلال؛ تطهيرًا لنفسه الشَّريفة ﷺ من كُلِّ حُزْنٍ يُؤْذي، فكانت الواوُ للتوسُّط بين الكمالين؛ إذ عطفت إنشاءً على إنشاء، فالصَّبرُ هو تحمُّل الأذى، وعدم الاستعجال تركُ الدُّعاء

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 300.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/ 162.

عليهم أو العقاب، فالأوَّل فضلٌ في الفعلِ، والآخر فضلٌ في التَّرك، وبهما يكون النُّبلُ في مسيرة العظماء.

غرضُ النَّهي عن الاستعجال:

الحلمُ بالمدعوِّ مسلك أصحابِ الحقِّ وأهل العزم

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ ناهية، وفي هذا النَّهي كناية عن إحاطة قدرته الله تعالى بهم، فإنَّه "لا يَعْجَلُ بالعقوبة إلّا مَن يخاف الفَوْت"[1]، وإلى ذلك فقد "أمره سبحانه بالصَّبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا"[2]، فغرض النَّهي الحلم بالمدعوّين، في توجيه الدُّعاة بالصَّبر والتَّريُّث بمن يدعوهم.

دلالةُ التَّعبير بصيغة (الاستعجال):

تركُ الدُّعاء على الكافرين أمارةُ تصبُّرِ المرسلين

معنى النَّهي عن (الاستعجال) في جملة: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل﴾، أي: "لا تدعُ لهم بتعجيل العذاب، فإنَّه نازل بهم - لا محالة - وإن تأخَّر، وأنَّهم مستقصِرون حينئذٍ مدَّة لُبْثِهم في الدُّنيا حتّى يَحسبوها ساعَةً مِن نَهارٍ"[3]، فـ "المُنقَضي من الزَّمان إنَّما يصير عدَمًا، فكثيره الَّذي ساءت عاقبتُه كالقليل"[4]، والمقصود بالسّين والتّاء توكيد الطَّلبِ في جملة النَّهي، ففيه توجيهه ﷺ بعدم الاقتراب مِن العجلة بطلب العقوبة لقومه أصلًا.

دلالةُ المضارعةِ في فعل ﴿تَسۡتَعۡجِل﴾:

الأمرُ بالتَّريُّث والحلمِ بالمدعوّين معذوقٌ بإيمانهم أو موتهم

من دلالات المضارعة في الفعل ﴿تَسۡتَعۡجِل﴾ أنَّ النَّهي الدّاخل على الاستعجال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل﴾ مسلَّط على المادَّة اللُّغويَّة للاستعجال، وكذلك على صيغتها الصَّرفيَّة، أي: المضارعة؛ ليخلص المعنى إلى الصَّبر الثّابت الدّائم؛ ليسفر ذلك

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 385.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 33.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 313.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 107.

عن نقيضهما، ونقيض الاستعجال الحلم والصَّبر والتُّؤدة، ونقيض التَّجدُّد والحدوث الثُّبوت والدَّوام.

غرضُ حذف متعلِّق فعل ﴿تَسۡتَعۡجِل﴾:

في صورة التَّراكيب القرآنيَّة امتثالٌ لَفظيٌّ لِتكاليفها العَمليَّة

حذف النَّظم الكريم متعلِّقَ فعلِ الاستعجال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ لمعرفتِه من السّياق، والتَّقدير: ولا تستعجل حلولَ الهلاكِ أو نزولَ العذابِ لأجلهم، فإذا كان طلبُ نزول العذاب منهيًّا عنه فعلًا؛ كان من تمام الاتِّساق طيُّ النَّظم الكريم إيّاه، وكان الإمساك عنه قدوةً بين يدي المخاطَب ﷺ.

نوعُ (اللام) ودلالتُها:

(اللام) في قيد ﴿لَّهُمۡۚ﴾ لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله، أي: لا تستعجل لأجلهم، وبسببهم، ولغاية الانتقام منهم[1]، ففيها معنى التَّعليل.

تعيينُ مرجع الضَّمير المجرور:

سنَّةُ الله في معاملةِ المدعوّين واحدةٌ

يعودُ الضَّمير المجرور في القيد ﴿لَّهُمۡۚ﴾ إلى كفّار مكَّة، ويُلمَح في التَّعبير عنهم إضمارًا إدراجُ كلِّ صنوف الكفّار والمنافقين تحت هذا الوعيد الشَّديد، وعمومهم بالتَّهديد، بخلاف النَّصِّ على فريقهم بخاصَّة، فلأنَّه ربَّما أوهم اختصاصهم بالحكم دون سواهم، وهذه الآية من آيات السُّننِ في التَّعاملِ مع عمومِ المدعوّين.

علَّةُ فصل جملة: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾:

كلُّ آتٍ قريبٌ، فلا مقتضى للعجلة على عقوبة المجرمين

فُصلت جملة: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ عن جملة: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ إمّا لأنَّها من كمال الانقطاع؛ إذ الأولى نهيٌ والثّانية خبر، وتحتمل أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ إذ تُجيب هذه الجملة عن سبب النَّهي عن الاستعجال، فجاء الجوابُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.

بأنَّ عذابهم آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فلمّا "كان ما أُمِر به، ونُهيَ عنه الرَّسول ﷺ في غاية الصُّعوبة؛ سهَّله اللّه تعالى بقوله مستأنفًا: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾، أي: في الدُّنيا عند الموت مثلًا، أو في الآخرة وقت العَرْض والحساب والهَوْل الأعظم الأكبر الَّذي تقدَّمت الإشارةُ إليه، والتَّحذير منه لأهل المعاصي والبشارة فيه لأهل الطّاعة"[1]، وتحتمل أن تكون من باب كمال الاتِّصال بالبيان التَّعليلي الضِّمنيِّ، فهي "تعليل للنَّهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأنَّ العذابَ واقعٌ بهم، فلا يؤثِّر في وقوعِه تطويلُ أجلِه ولا تعجيلُه"[2].

بلاغةُ التَّشبيه وغرضه:

السّاعةُ كنايةٌ عن قِصَر العمرِ وسرعة انقضائه

(كأنَّ) في جملة: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ حرف تشبيه، تُشبه الجملة حياتَهم كلَّها في الدُّنيا بأنَّها ساعةٌ من نهارٍ، وهذه السّاعةُ كنايةٌ عن قِصَر العمر وسرعة انقضائه.

نكتةُ تقديمِ الظَّرف على الخبر:

تنبيهُ المخاطَبين على خطورة اليوم الآخر

المقصودُ باليوم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ يوم الموت، أو الآخرة وقت العَرض والحساب والهولِ الأعظم الأكبر[3]، وفي تقديمه في جملة ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾ على خبر (كأن)، وهو ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ تنبيهٌ إلى ما ينتظر منكري البعث في يوم الحساب، الَّذي يُذهلهم عن مُدَّة لُبثهم في الدُّنيا لِهول ما فيه، وعِظَم أحداثه، ومشقَّتها عليهم، ويقرِّر تقديمه أنَّ العِبرة في هذا الخبر تتعلَّق بهذا الظَّرف ومخاطِره، وأنَّ حلوله سبب هولهم وذهولهم.

نوعُ الرُّؤيةِ ومعناها:

الرُّؤية في جملة: ﴿يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ رؤية بصريَّة ينشأ عنها

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

العلم؛ إذ إنَّ الكافرين في اليوم الآخر يبصرون أسباب العذاب بأعينهم، ويعالجون إيلامه مباشرة، ولم يَعد رؤيته علميَّة بطريق الخبر مثلما كان في الدُّنيا، فهنالك يرونه عين اليقين.

الكافرون يرون العذابَ يوم القيامة عين اليقين

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في فعل ﴿يَرَوۡنَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَرَوۡنَ﴾، وهو فعل مستقبليٌّ؛ لتصوير المشهد الغيبيِّ، وما يكون فيه من الحسرةِ والنَّدامةِ على الضَّياع.

نكتةُ بناء فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعول:

قد يُحذَفُ الفاعلُ من التَّركيب لِلَفتِ المتلقّي لمعنًى آخر

آثر النَّظم الكريم بناء فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعول؛ دلالةً على تعيُّنه والعلم به، فالمتوعِّد لهم معروفٌ، وهو اللّٰه ﷻ، ففي طيِّ ذِكره إيجاز، ويوفِّر عناية المتلقّي على وعي الوعيد نفسه بقطع النَّظر عن فاعله، فقد "بناه للمفعول؛ لأنَّ المُنْكِئَ هو الإيعاد لا كونه من معيَّن"[1].

علَّةُ التَّعبيرِ عن الخبرِ بالموصول:

الموصول عنصر إيجاز وإيماء إلى المقصود

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالموصول ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ دون الاسم الصَّريح (عذاب اللّٰه)؛ لإتاحة ذكر جملة الصِّلة ﴿يُوعَدُونَ﴾ بما فيها من لطائف الإشارات، إضافة إلى ما في الموصول من إفادة عموم أنواع العذاب المنطوية في هذا اللَّفظ اليسير ﴿مَا﴾، فهو لفظُ إيجازٍ، فيشملُ كلَّ أنواع العذابِ بما يوحي به من عموم الدَّلالة.

دلالةُ المضارع في فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾:

بيانُ الواقعِ والإشارةُ إلى المستقبلِ

إيثارُ المضارعة في بناء فعل الوعد ﴿يُوعَدُونَ﴾ يلائم، ويواكب زمان الدَّعوة، وهو الحياة الدُّنيا الحاليَّة على امتدادها، فَدُعاةُ كلِّ جيل يمارسون دعوة جيلهم، وتتجدَّد دعوتهم لأهل زمانهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

فالمضارعة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ حقيقةٌ مطابقة لِزمان الدَّعوة متى كانت، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ دعوةَ الرَّسول ﷺ كانت متجدِّدة في قومِه، وكذلك هي متجدِّدة فيمن جاء بعده من أتباعه.

بلاغةُ استعمالِ مفردة اللُّبث:

تحسيرُ الكافرين على أملِهم المتوهَّم في الحياةِ الدُّنيا

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة اللُّبث في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ إشارة إلى فترة توطُّنهم في هذه الحياة الدُّنيا، وتلبُّثهم وتمسُّكهم بعرضها الفاني، واللُّبث هو طول المكث، فكان في نفي لبثهم في الدُّنيا إلّا ساعة من نهار، مزيد تحسُّرٍ لهم، وتهكُّم بما أمَّلوه في هذه الحياةِ الدُّنيا من طول الحياةِ، والاستزادة من شهواتِها.

غرضُ حذفِ متعلِّق فعل: ﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾:

عمرُ الإنسانِ على التَّحقيقِ ساعةٌ من نهار

حُذِفَ متعلِّق فعل اللُّبث في جملة: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾، والتَّقدير: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ "في الدُّنيا حتّى جاءهم العذاب، أو ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ في قبورهم حتّى بعثوا للحساب"[1]، وغرضه إفادة عموم النَّفي؛ تهيئةً لِبناء القصر في الجملة على المبالغة في نفي لُبثهم فيها أصلًا إلّا جزءًا يسيرًا من أجزاء نهار صغير.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستفهام:

الهلاكُ الدّائم المؤبَّد قَصْرٌ على الخارجين عن دين الله تعالى

جاء التَّعبيرُ بأسلوب القَصْر بطريقة النَّفي والاستثناء؛ تأكيدًا على صحَّة هذا الحكم العجيب ودقَّته؛ لأنَّ الإنسان الكافر يعتقد أنَّ عمره، وهو في الدُّنيا طويلٌ، وأنَّه نهاية المطاف ما صرَّحوا به في قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فجاء الحكم بقِصَر الدُّنيا قِصَرًا عجيبًا بتشبيهها بلحظاتٍ مرَّت خاطفةً من نهارٍ مرَّ هو أيضًا خاطفًا.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 289.

وقد "أفاد الاستثناء أنَّ غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك، أو هم الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات"[1]، و"كأنَّه يقول: لا يهلك الهلاك الدّائم المؤبَّد إلّا القوم الفاسقون، وإلّا الهلاك الَّذي ليس هو بالهلاك الدّائم المؤبَّد ممّا يهلك الفاسق وغير الفاسق؛ إذ يكون حقًّا على الكلِّ.

أو يقول: لا يهلك هلاك العذاب إلّا الفاسق، فأمّا الهلاك الَّذي هو هلاك النَّجاة والفوز عن شدائد الدُّنيا؛ فممّا يهلك به الصّالح"[2].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿سَاعَةً﴾:

الإيـمـاءُ إلى سرعة انقضاء العمر ثمَّ قيام السّاعةِ

السّاعةُ في القرآن الكريم تُطلق على معنيين: هما يوم القيامة، والجزء القصير من الزَّمن، وحين يرد لفظ (الساعة) في القرآن الكريم مُعرَّفًا بـ (أل) يكون خاصًّا بالقيامة للحساب، وحين يأتي منكَّرًا (ساعة) يكون خاصًّا بالوقت القصير مطلقًا، وقد جاء لفظ السّاعة منكَّرًا ومعرَّفًا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم: 55]، وقد آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿سَاعَةً﴾؛ لبيانِ قِصَر المدَّة الَّتي يقضيها النّاس في الدُّنيا قياسًا بالآخرة، فهي ساعةٌ سريعةٌ جدًّا، فتمضي، ثمَّ تقوم السّاعة.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

بعضُ النَّهار كاشفٌ عن حقيقةِ السّاعة

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ تبعيضيَّة، أي: حينما يرى الكافرون طول يوم القيامة وعظيم أهواله يستقلّون مدَّة لُبثهم في الدُّنيا، فيرونه جزءًا من نهار يوم واحد، و"لمّا كانت السّاعة قد يُراد بها الجنس، وقد تُطلق على الزَّمن الطَّويل؛ حقَّق أمرها، وحقَّرها بقوله: ﴿مِّن نَّهَارٍۚ﴾"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 261.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

توجيهُ تخصيصِ النَّهار بالذِّكر دون اللَّيل:

السّاعةُ من النّهار أسرع أوقات الغافلين

في تخصيص ساعة النَّهار بالذِّكر دون ساعة اللَّيل كنايةٌ عن السُّرعة الخاطفة؛ "لأنَّ ساعة النّهار تبدو للناس قصيرة لما للنّاس في النّهار من الشَّواغل، بخلاف ساعة اللَّيل فإنَّها تطول؛ إذ لا يجد الساهر شيئًا يشغله"(1)، ووراء تلك الكناية كنايةٌ أخرى هي المقصود الأهمُّ هنا، وهي بيانُ "شدَّةِ العذابِ وطولِ مدَّتهِ"(2) هنالك في الآخرة.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿نَّهَارٍۭ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَّهَارٍۭ﴾؛ لإفادة التَّقليل، كما في حديث الجمعة(3) قوله ﷺ: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلّي يسأل اللّه تعالى شيئًا إلّا أعطاه إيّاه»، وأشار بيده يقللها(4).

علَّةُ فصل جملة ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ عمّا قبلها:

البلاغُ خبرٌ جديدٌ يحملُ تحذيرًا نهائيًّا

بلاغ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ، على طريقة العنوان والطالع نحو ما يكتب في أعالي المنشورات القضائيَّة كلمة: (إعلان)، والجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة الفذلكة والتَّحصيل، مثل جملة: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ [البقرة: 196]، وجملة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ﴾ [البقرة: 134].

غرضُ حذف المسندِ إليه:

إقامةُ الجملةِ على ذِكر عنصر واحد يلفت إلى أهمّيّته

حُذِفَ المسند إليه، وهو اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌۚ﴾؛ لتركيز النَّظر إلى المسند، فهو موضع العِبرة، في كونه بلاغًا للعالمين، والتَّقدير "أنَّ ذلك اللُّبث بلاغ، أو أنَّ هذا القرآنَ بلاغ، أو أنَّ هذا الَّذي وصفه اللّه تعالى بلاغ، وهو حلول ما وعده من الهلاك في الدُّنيا أو العذاب في الآخرة"(5).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 68.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 68.
(4) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (893).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 289.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿بَلَٰغٌۚ﴾:

في اصطفاء مفردة ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٌۚ﴾؛ لبيان أنَّ هذا البيانَ القرآنيَّ قد بَلَغهم، وانتهى إلى أسماعهم، فلا يلومنَّ كافرٌ بعد ذلك إلّا نفسه، وهذا البلاغُ فيه كفاية للعِظة والاعتبار، والحذر من هذا المصير الأليم، "فهو أفضل زادٍ يتزوَّده الخلائق، وأجلُّ نعمةٍ أنعم اللّه بها عليهم"[(1)].

مـن سـمِـع بـالـحـقِّ؛ فقد بلغه الحقُّ

نوعُ الفاء ودلالتها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تفريعيَّة، تُفرِّع انتفاء إهلاك غير الفاسقين، وقصره على الفاسقين فقط على الـ ﴿بَلَٰغٌۚ﴾؛ لأنَّهم هم المشؤومون الَّذين لا ينتفعون بهذا البلاغ، ويخرجون على الحقِّ، ويتمرَّدون عليه، وعلى ذلك فكلُّ من يتأبّى على قبول الحقِّ، فهو فاسقٌ، و"معنى التَّفريع أنَّه قد اتَّضح ممّا سمعت أنَّه لا يهلك إلّا القوم الفاسقون، وذلك من قوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12] إلى قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: 27]"[(2)].

تـفـريـعُ نـفي الإهلاك وحصره فـي الـفـاسـقـين على ذكر المتقدّمِ في السورة

غرضُ الاستفهامِ وبلاغته بأداة (هل):

المقصودُ بالاستفهام بأداة (هل)، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ النفي، أي: لا يُهلك إلّا القوم الفاسقون، وهو يحقِّق على الكفّار، فسوقهم وخروجهم من إطار الحقِّ والصَّواب، ويستنطقهم بذلك؛ إرشادًا لأنفسهم على أنفسهم، أي: لا يهلك اللّه إلّا القوم الفاسقين، واستعمل أداة (هل) دون أدوات النَّفي

الـجـمـعُ بين معـنـى الـنَّـفـي والاسـتـفـهـام لإثارة الأذهان

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.

الصَّريح؛ لإثارة الاستفهام في أذهان المخاطَبين، فجمعتِ الأداة بين غرضين: النَّفي والاستفهام.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإهلاك:

تكثيرُ دلالاتِ إهلاك المكذِّبين في الدُّنيا والآخرة

لفظ الإهلاك في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ "مستعمل في معنييه: الحقيقيِّ والمجازيِّ، فإنَّ ما حُكي فيما مَضى بعضه إهلاك حقيقيٌّ مثل ما في قصَّة عاد، وما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: 27]، وبعضه مجازيٌّ، وهو سوء الحال، أي: عذاب الآخرة: وذلك فيما حُكي من عذاب الفاسقين"[1]، كما يدخل في معاني الإهلاك العقوبات[2]، والعذاب، أي: لا يقع العذاب إلّا بالعاصين، الخارجين عن أمر اللّه، وقال قتادة: اعلموا، واللّه ما يَهلَك على اللّه تعالى إلّا هالكٌ مشرِك ولَّى ظهره للإسلام، أو منافقٌ صَدَق بِلسانه وخالف بعمله، ولهذا قال قوم: ما في الرَّجاء لرحمة اللّه تعالى آية أقوى وأتمُّ من هذه الآية[3].

دلالةُ بناء فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾ لغير فاعله:

أنــواعُ المهلكات كـثـيرة، وكـلُّهـا تقع بأمر الله تعالى

بُني فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾ لغير فاعله؛ "لأنَّ المحذورَ الهلاكُ، وإن لم يعيَّن المهلِكُ، وللدَّلالة على أنَّ إهلاكَهم عليه ﷻ يَسيرٌ جدًّا"[4]، وإلى ذلك فالإهلاك مع البناء لغير الفاعل يقع عليهم بأمر اللّه تعالى وحكمه من زبانية جهنَّم، ونارها، وسعيرها، وحميمها، وحيّاتها، وعقاربها، فأنواع المهلكات كثيرة، وفواعله كثيرة، طواها كلُّ بناء فعله للمفعول.

فائدةُ المضارع في فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾:

أفاد المضارع ﴿يُهۡلَكُ﴾ على تصوير الإهلاك الَّذي سيقع في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 117.

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.

الفاسقين في الزَّمن المستقبل، وبيان مشهد ذلك في صورةٍ تدعو إلى الحذر والخوف.

بلاغةُ القصر في جملة الفاصلة:

الهلاكُ المؤبَّد في الآخرة وقْفٌ على الفاسقين

من بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنَّه يُدخل جميع أنواع الكفّار تحت وصف الفسق، وهذا دقيق؛ لأنَّ الفسق في اللُّغة الخروجُ مطلقًا، وحمل عليه العِصيان والتَّرك لأمر اللّه، والخُروج عَن طَريق الحقِّ، فكلُّ مُهْلَكٍ هلاكَ تأبيدٍ فهو فاسقٌ، وكلُّ كافرٍ فاسق، وكلُّ منافق فاسق، وهكذا يقال في جميع أنواع التَّكبُّر على الدّين والخروج عنه وعليه، وهذا المعنى الكبير لا يلائمه من طرق القصر إلّا طريق النَّفي والاستثناء؛ الَّذي يؤكِّده، ويَنفي عنه صفة التَّجوُّز والادِّعاء، فهو قصر حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، يُحدِّد الحكم بقوَّةٍ لِصنف الفاسقين بوضوح.

دلالةُ اجتماع قَصْرَين بطريق النَّفي والاستثناء:

تُمَثِّل خواتيم السّور القرآنيَّة براعة مقاطع بديعة

في هذه الآية الخاتمة للسورة الكريمة اجتمع قصران: **الأوَّل**: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾، **والثّاني**: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وسلك كلٌّ منهما طريق النَّفي والاستثناء؛ اتساقًا مع قوَّة الأحكام، وختم البيان عن مصير الكفار، الَّذين رفضوا أن يجيبوا داعي اللّه تعالى، ورفضوا الإيمان به، وأنكروا قدرته تعالى على الإحياء والبعث في الآخرة، وفي الختم بهذين القصرين براعة مقطع بديع.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾:

جميعُ القائمين بالفِسق موعودون بالإهلاك

(أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ لتعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي: كلُّ القوم الفاسقين، فيعمُّ مشركي مكَّة الَّذين عناهم القرآن، فكان لهذا التَّفريع معنى التَّذييل، ولك أن تجعل التَّعريف تعريف العهد، أي: القوم المتحدَّث عنهم في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا

﴿يُوعَدُونَ﴾، فيكون إظهارًا في مقام الإضمار؛ للإيماء إلى سبب إهلاكهم، وأنَّه الإشراك[1].

نكتةُ ذكرِ لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾:

أفاد ذِكرُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ معنى "الَّذين فيهم أهليَّة القيام بما يحاولونه من اللُّدد"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

كلُّ مَن خرج عن التَّوحيد والشَّرع فهو فاسق

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ لاستغراق جنس الفاسقين، فهُم الخارجون عن الدّين والاتّعاظ به، والعمل بموجبه[3]، وليس المراد بهم عصاة المؤمنين، بل الَّذين فسقوا بالخروج عن مقتضيات الدين والتَّوحيد، والسياق هنا في مشركي مكَّة الَّذين كفروا بالإسلام، فيدخلون دخولًا أوَّليًّا، ويدخل معهم كلُّ من اتَّصف بصفتهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة اسم فاعل ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

الفاسق عريقٌ في إدامة الخروج عـن محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة

في صوغ وصف الفسوق اسمَ فاعل ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ دلالةٌ على رسوخ أقدامهم في باب الفسق والخروج عن الطّاعة، والتَّمرُّس على إنكار الوحدانيَّة ومتعلّقاتها من إحياء الموتى والحساب وغيرهما، وهم "العريقون في إدامة الخروج من محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة الأولى من الطّاعة - الآتي بها النَّقل - إلى مضلِّ المعصية - النّاهي عنها والعقل - وأمّا الَّذين فسقوا، والَّذين يفسقون؛ فإنَّ هادي هذه السّورة يردُّهم، ويوصلهم إلى المقصود، فهذا الآخر نتيجة قوله أوَّلها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف: 3]"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 314.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

بيان المكّيِّ والمدنيّ:

سورة محمَّد مدنيَّة على رأي الجمهور[1]، ونقل ابن عطيَّة وغيرهُ استثناءَ آيةٍ منها عن ابن عباس وقتادة، والضَّحّاك وسعيد بن جبير، والثَّعلبي[2]، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمّد ﷺ: 13]، ثمَّ رَدَّ هذا القولَ بسبب أنَّ هذه الآية نزلت بمكَّة في وقتِ دخول النَّبيِّ فيها عامَ الفتح أو سنَةَ الحُديبية، وما كان مثلَ هذا فهو معدودٌ في المدنيِّ؛ لأنَّ المُراعَى في ذلك إنَّما هو ما كانَ قبلَ الهجرة أو بعدَها حتَّى لو نزل بمكَّة[3].

ترتيبُ النُّزول وترتيبُ المُصحف وعَدُّ الآي:

سورةُ محمَّد ﷺ هي السّورة السّابعة والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيبُ الثّابت، والمُعوَّلُ عليه عند أهلِ النَّظَر والتَّحقيق؛ إذ جاءَ ترتيبُها بين سورتي الأحقافِ والفتح، وهي السّورةُ التّاسعة والتِّسعونَ في ترتيبها النُّزوليِّ، وقيل: إنَّ ترتيبها السّادسة والتِّسعون[4]، نَزَلَت بين سورتي الصَّف والمائدة، وفصولُ السّورة مترابطةٌ، وآياتُها متوازنةٌ؛ ممّا يُسوِّغُ القول: إنَّها نزلت دفعةً واحدةً أو متتابعة[5].

سورةُ محمَّد ﷺ من أواخر السّوَر التي نزلت

والسّورة ثلاثونَ وثمان آيات في الكوفيِّ، وتسعٌ في المَدنيِّ والمكّيِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 109، والسُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 79.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 223.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 109، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 223.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 575، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 71/ 26.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 575.

والشّاميِّ، وأرْبَعونَ آيَةً في البَصْريّ، وسببُ اختلافهم عائدٌ لتحديد رؤوسِ الآيِ في آيتَيْن من آياتها[1].

التَّوقيتُ الزَّمنيُّ لنزول السّورة الكريمة:

هذه السّورة من أواخر السّور النّازلة في القرآن، ويبدو من آياتها أنَّها نزلت في أواخر الفترة التي قضاها المسلمون في المدينة، فقد قيل إنَّها نزلت بمكَّة في وقت دخول النَّبيِّ فيها عامَ الفتح أو سنةَ الحديبية، وهذا يعني أنَّها نزلت حول السَّنة الثّامنة من الهجرة، وقُبيل فتح مكَّة أو بعده بقليل.

اسمُ السّورة الكريمة ومناسبةُ تسميتها:

سورةُ محمَّد اشتهرَت بهذا الاسم حتَّى رجَح على الأسماء الأخرى

وردَت تسميتُها بسورة (محمَّد) في كتُب السُّنَّة والتَّفسير؛ ذكرَ ذلك البخاريُّ[2]، والتِّرمذيُّ[3]، وقد ذكرَ الكثيرون أنَّ تسميتها بذلك إنَّما كان لورود هذه اللَّفظة فيها، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾، وذكروا - منهُم البخاريُّ في روايةٍ غير أبي ذرٍّ عنه - أيضًا تسميتَها بسورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لاستهلالِها بالاسم الموصول[4].

وذكروا في كتب التَّفسير تسميتَها بسورة القتال؛ لأنَّها ذُكِرَت فيها مشروعيةُ القتال، فتكون تسميتُها سورة (القتال) تسميةً قرآنيَّةً، كما ذكرَ ابنُ عاشور[5].

رسولُ الله ﷺ نبيُّ السَّلام والجهاد

ويرى البقاعيُّ أنَّ سببَ تسمية السّور يرتبط بالمقاصد والغايات التي يُراد منها توجيهُ الأمة، حيثُ يرى أنَّ الاسم يُعبِّر عن الهدف الأسمى من السّورة، ويكونُ بمثابة رسالةٍ تحفيزيَّةٍ وتربويَّة؛ فاسمُ

(1) الداني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 228.
(2) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة محمّد ﷺ: 4/ 1828.
(3) الترمذيّ، سنن التّرمذيّ، بابٌ: ومِن سُورةِ مُحمّد ﷺ: 5/ 383.
(4) البقاعي، مصاعد النّظر: 2/ 487.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 71/ 26.

(محمَّد) يدلُّ على خُلُقِ الجِهاد والدِّفاعِ عن الدّين، وهو السُّلوكُ الذي اتَّصَفَ به النَّبيُّ ﷺ، وكان حقيقتُهُ "نبيّ المَلحَمَة"، حيث الجهادُ هو من أخلاقه، وهو هدفٌ دائمٌ في حماية حِمَى التَّوحيد والجهاد في سبيل اللّه حتى يُحقّقَ وعدَهُ، ويُصلحَ حالَ الأمة. أمّا اسمُ "الذين كفروا"، فيُشيرُ إلى الحالة المُعادية، وهو يُعبِّر عن ضرورة مواجهة الكُفر، والصِّراع مع أعداء الدّين، حيثُ مَن صَدَّ عن سبيل اللّه يجبُ أن يُقاتَل، ويُنظَر إلى المعركة على أنَّها جزءٌ من رسالة السّورة ودعوةٌ لتحقيقِ الحقِّ، ولذا فهي تحملُ معنى المواجهة والتَّحدّي، وبذلك، يتَّضحُ أنَّ التَّسمية تحملُ رسائلَ تربويَّةً، باعثةً على الثَّبات، والجِهاد، والصَّبر، وتوجيهِ الأمَّة نحوَ مواصَلةِ العمَل لتحقيقِ وعدِ اللّه بالنَّصر والتَّمكين، وتذكيرِ المُسلمينَ بمَوقفهم الشَّرعيِّ، معَ التَّركيزِ على أنَّ الهدفَ من التَّسمية هو توجيهُ النُّفوس ورفعُ الهمَم، تدعيمًا للمقصد العامِّ من نزولِ القرآن، وهو حفظُ الدّين، ورِفعةُ الأمَّة، والصُّمودُ في وجهِ أعداء اللّه.

فمُعظَمُ مَقصودِ السّورةِ يقومُ على بيانِ مواقفِ النّاسِ إزاءَ دعوةِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّهم في ذلك فِرَقٌ: الكافرونَ به، والمؤمنونَ به، والمنافقونَ، والمُرتدّونَ، فبيَّنَتِ السّورةُ الكريمةُ حالَ كُلِّ فريق منهم في الدُّنيا، وجزاءَهم في الآخرةِ، وأعلنتِ النَّفيرَ على المُكذِّبينَ به طالبةً قِتالَهم إن أصرّوا على عَداوتِهم له، لذلك فإنَّ تسميتَها باسمِها المُشتَهرِ ظاهرُ الارتباطِ بهذا المحورِ، وكذا تسميتُها بسورةِ القِتالِ(1).

المحور العام للسّورة:

مِحور السّورة يقومُ على تحذير النّاس من الكفر بدعوةِ النَّبيِّ ﷺ

إنَّ هذهِ السّورةَ الكريمةَ، برغم مَدَنيَّتِها، فإنَّها لم تَكُنْ بمعزلٍ عنِ الجَوِّ الذي رَسَمَتهُ الحَواميمُ قبلَها، فقد جاءت لِتُكمِلَ الرِّسالةَ، ولِتَرسِمَ بَقيَّةَ الخُطوطِ المُتعلِّقةِ بالنُّبوّاتِ، فقامَ مِحورُها على حَثِّ

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 2/ 486 - 487.

النّاسِ على ضَرورةِ اتّباعِ دَعوةِ النّبيِّ ﷺ، وحَضّهم على الجِهادِ، مُحذّرةً إيّاهم مِن مَغبَّةِ مُعاداته، مُعلِنةً النَّفيرَ على الكافرينَ به، وتوهينَ حالِهم(1).

موضوعاتُ السّورة وخصائصُها:

مَـدارُ الـسّـورة يدور حولَ إعلانِ الـجـهـادِ على المكذِّبين بدعوة النّبيِّ ﷺ

أوّلًا: بيَّنت انقسامَ النّاس بشأن دعوة النَّبيِّ ﷺ إلى فريقَيْن رئيسَيْن، مبيِّنةً أسبابَ تفرُّقِهم ومآلاته، وجزاءَ كلِّ فريقٍ في الآخرة.

ثانيًا: تُظهِرُ السّورةُ أحوالَ فريقَيْنِ آخَرينِ منبَثِقَينِ عن الفريقَينِ الرَّئيسَينِ، وهُما فريقُ المُنافقينَ الذين يُحاولونَ التَّذبذُبَ بين الفريقَينِ السّابقَينِ، من أجلِ مصالحِهم، وفريقُ المُرتدّينَ بعدَ إيمانِهم إلى الكُفرِ.

ثالثًا: أشارَت السّورةُ إلى عواملِ الفَلاحِ والهَلاك؛ فمن عواملِ الهلاك التي بيَّنتها السّورة الكريمة: الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه، واتِّباعُ الباطل، وكراهيةُ ما أنزلَ اللّه، وعدمُ الاعتبار بمصارعِ الغابرين، وتزيينُ العمل، واتِّباعُ الهوى، وعدمُ تدبُّرِ القرآن، وتسويلُ الشَّيطان، ومُشاقَّةُ الرَّسول، والبُخل.

ومن عواملِ الفلاحِ التي ذكرَتها السّورة: الإيمانُ باللّه، والعملُ الصّالحُ، واتِّباعُ الحقِّ، ونُصرةُ اللّه ورسوله، والطّاعةُ للّه ولرسوله، والإنفاقُ في سبيل اللّه(2).

الخصائصُ الموضوعيّة لسورة محمّد ﷺ:

بـــراعـــةُ الاســتـهـلال، وكـثرةُ المقابلات سِـمَـةُ الـسّـورة المباركة

أوّلًا: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ بأنّها تناولت موضوعاتٍ لم تَرِدْ في غيرِها من السّورِ؛ مثل الأمرِ بِشَدِّ الوثاقِ للكافرينَ والإثخانِ فيهم، والحديثِ عن أنهارِ الجنَّةِ، والحديثِ عن أشراطِ السّاعةِ، وعن نُزولِ السّورةِ المُحكَمةِ، وعن أقفالِ القلوبِ، وعن النَّهي عن الهَوانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 195، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 72.

(2) ابن عاشور التحرير والتنوير: 26/ 72، والزحيلي، التّفسير المنير: 26/ 75 - 77.

والدَّعوةِ إلى السِّلْمِ حالَ العُلوِّ، وعن أنَّ الله تعالى لن يَسألَهم عن أموالِهم، وغيرِ ذلك.

ثانيًا: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ بمَطلَعِها الخاصِّ بها، والذي لم تُشارِكْها فيه سورةٌ أُخرى، وهو ما يُسمَّى ببراعةِ الاستهلال؛ إذ بَدأت بالاسمِ الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وهو أمرٌ لم نَعتَد عليه في القُرآنِ كلِّه، ولعلَّ السَّببَ في ذلك طبيعةُ الشِّدَّةِ والحَزْمِ في أُسلوبِ السّورةِ الكريمةِ، وقد تَكرَّرَتِ الأسماءُ الموصولةُ - العامَّةُ والخاصَّةُ - في السّورةِ الكريمةِ نحوَ ثلاثينَ مرَّة.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة المقابلات بين أحوال الكفّار وأحوال المؤمنين في الدُّنيا وفي الآخرة؛ من أجل بيان المسوِّغات التي تستوجب جهادَ الكفّار وإعلانَ الحرب عليهم.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة محمّد ﷺ:

أوّلاً: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرةِ ذِكر لفظةِ (العمل) ومشتقّاتها فيها؛ إذ وردَت نحو (12) مرَّة[1]، وردَ فيها ذِكرُ إحباطِ العمَل ثلاثَ مرّات[2]، وورَدَ الحديثُ فيها عن إضلال أعمالِهم، وإبطالِها ونقصِها، وسائر أوصافها، وهذا مرتبطٌ بحديثها عن أعمالِ الكفّار والمؤمنين، وكذلك تكرَّر فيها ذِكرُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ نحو ستِّ مرّات[3]؛ الأهواء مرَّتين[4]، والأضغان مرَّتيْن[5]، و(في قلوبهم مرض) مرَّتيْن[6]، و(البال) مرَّتيْن[7]، والبلاء مرَّتيْن[8].

ثانيًا: ذُيِّلت بعضُ فواصلها بألفاظٍ تتعلَّق بمستلزَمات الإنسان المادّيَّة والمعنويَّة مثل: ﴿أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣﴾ [محمّد ﷺ: 23]، ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾ [محمّد ﷺ: 27]، ﴿أَقْدَامَكُمْ﴾، ﴿أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمّد ﷺ: 15]، ﴿أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمّد ﷺ: 29]، ﴿أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ [محمّد ﷺ: 36]، ﴿أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾ [محمّد ﷺ: 14]، ﴿بَالَهُمْ﴾، ﴿أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [محمّد ﷺ: 22].

---

(1) الآيات: 1، 2، 4، 8، 9، 12، 14، 28، 30، 32، 33، 35.
(2) الآيات: 9، 28، 32.
(3) الآيات: 3، 4، 9، 11، 26، 28.
(4) الآيتان: 14، 16.
(5) الآيتان: 29، 37.
(6) الآيتان: 20، 29.
(7) الآيتان: 2، 5.
(8) الآيتان: 4، 31.

ثالثًا: ذُيِّلت جلُّ فواصلِها بحرف الميم، خلا آيتَين ذُيِّلتا بـ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾، و﴿أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد ﷺ: 24]، ممّا أعطاها قوّةً وحَسمًا وجَرْسًا رهيبًا، وهذا يتّفقُ مع شخصيَّة السّورة وهويَّتها في مقارعة الكفّار وإعلانِ الجهاد عليهم.

رابعًا: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ بأنَّها ذكرت اسمَ ﴿مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ دونَ وصفِه بالرِّسالةِ، وقد شاركَتها كذلك في ذكرِ اسمِه سورةُ آلِ عمران، الأحزاب، الفتح، والمُلاحَظُ أنَّ اسمَه ﷺ قد ورد في هذه السّورِ الأربعِ المدنيَّةِ، وكلُّها عالجت موضوعَ الجهادِ والقتالِ في سبيلِ اللّه، وتناولت كلُّ واحدةٍ منها بعضَ غزواتِه ﷺ، فضلًا عن أنَّ السّورَ الثّلاثَ الأُخرَياتِ التي ذكرَته باسمِه وصِفته بأنّه رسولُ اللّه، إلّا هذه الآيةَ في هذه السّورةِ. فقد قالت عنه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها كانت زاخرةً بأنساقٍ تعبيريَّةٍ خاصَّةٍ بها، حتَّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ومنها: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم﴾، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمّد ﷺ: 12]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمّد ﷺ: 13]، ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمّد ﷺ: 15]، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد ﷺ: 17]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمّد ﷺ: 19]، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمّد ﷺ: 20]، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمّد ﷺ: 22]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد ﷺ: 24]، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمّد ﷺ: 29]، ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمّد ﷺ: 31]، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمّد ﷺ: 35]، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ

أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾ [محمد ﷺ: 36 - 37]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد ﷺ: 38].

سادسًا: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ بأنَّها حوَت أبنيةً صرفيَّةً لم تأتِ في غيرِها من السّورِ بنفسِ الصّيغةِ مثل: ﴿فَضَرۡبَ﴾، ﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، ﴿فَشُدُّواْ﴾، ﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾، ﴿فِدَآءً﴾، ﴿أَوۡزَارَهَاۚ﴾، ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾، ﴿عَرَّفَهَا﴾، ﴿دَمَّرَ﴾، ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ [محمد ﷺ: 12]، ﴿يَتَغَيَّرۡ﴾ [محمد ﷺ: 15]، ﴿مُّصَفًّىۖ﴾ [محمد ﷺ: 15]، ﴿وَسُقُواْ﴾ [محمد ﷺ: 15]، ﴿ءَانِفًاۚ﴾ [محمد ﷺ: 16]، ﴿أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 18]، ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 19]، ﴿نُزِّلَتۡ﴾ [محمد ﷺ: 20]، ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ [محمد ﷺ: 20]، ﴿ٱلۡمَغۡشِيِّ﴾ [محمد ﷺ: 20]، ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 23]، ﴿وَأَعۡمَىٰٓ﴾ [محمد ﷺ: 23]، ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ [محمد ﷺ: 25]، ﴿سَوَّلَ﴾ [محمد ﷺ: 25]، ﴿وَأَمۡلَىٰ﴾ [محمد ﷺ: 25]، ﴿سَنُطِيعُكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 26]، ﴿إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾ [محمد ﷺ: 26]، ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 30]، ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾ [محمد ﷺ: 31]، ﴿وَسَيُحۡبِطُ﴾ [محمد ﷺ: 32]، ﴿يَتِرَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 35]، ﴿يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا﴾ [محمد ﷺ: 37]، ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 37].

سابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوَت ألفاظًا فريدةً في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ وهي: تعسًا، آسِن، لحْن، عسل، أمعاءهم، أشراطها، أقفالها.

مناسبة السّورة لما قبلها:

سورة محمَّد متَّصلة تمامًا بسورة الأحقاف مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متمِّمة لِما تقدَّم في سورة الأحقاف برغم اختلاف زمن النُّزول ومكانه بين السّورتيْن، وقد ذكروا وجوهًا من الرَّبط بينهما، ومن ذلك ما جاء عند ابن الزُّبير الغرناطيِّ؛ إذ قال: "لمّا انبَنَت سورةُ الأحقافِ على ما ذُكر من مآلِ مَن كذَّبَ وكفر، وافتُتحت السّورةُ بإعراضهم، خُتمَت بما قد تكرَّر من تقريعهم وتوبيخهم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ

بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: 33]، ثمّ ذكرَ عَرضَهُم على النّار إلى قوله: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: 35] فلمّا ختمَ بذكر هلاكهم، افتتح السّورة الأخرى بعاجلِ ذلك اللّاحق لهم في دنياهم فقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ الآية، وبعد ابتداء سورة محمَّد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فنبَّه على أنَّ أصلَ محنتهم إنَّما هو بما أراده تعالى بهم في سابق عِلمه ليعلم المؤمنون أنَّ الهدى والضَّلال بيده، فنبَّه على الطَّرفين بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وقوله في الآخر: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ ثمّ بيَّن أنّه تعالى لو شاء لانتصَرَ منهم ولكن أمرَ المؤمنين بقتالهم ابتلاءً واختبارًا، ثمّ حضَّ المؤمنين على ما أمرَهُم به من ذلك فقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ ثمّ التحمت الآي"[1].

وأوجز الزُّحيليُّ هذه الصِّلات بقوله: "هذه السّورة (سورة محمَّد) يرتبط أوَّلُها ارتباطًا قويًّا بآخر سورة الأحقاف: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: 35] حتى إنَّه لو أسقطت البسملة بينهما، لكان الكلام متَّصلًا مباشرةً بما قبله اتِّصالًا لا تنافُرَ فيه، كالآية الواحدة"[2].

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 306 - 307.

(2) الزحيليّ، التفسير المنير: 75/ 26.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾

[محمّد ﷺ: 1]

وَشائجُ البيانِ في ذِكْرِ مصائرِ الفاسقين بَيْنَ الهلاكِ في الآخرة وضَياعِ الأعمال في الدُّنيا

مُناسبةُ مطلَعِ السّورةِ لِخاتمةِ ما قبلها

يرتبطُ أوَّلُ سورة مُحمَّد ﷺ ارتباطًا وثيقًا بخاتمةِ سورة الأحقاف قَبْلَها، حيثُ خُتِمَت سورةُ الأحقاف بمشهدِ الهلاك الذي يُصيبُ الفاسقين؛ إذْ لم يَبقَ لهم من أعمالهم شيءٌ ينفعُهم يومَ يرونَ العذابَ؛ فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، وافتُتِحَت سورةُ مُحمَّد ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بيانًا لعُقوبتهم في الدُّنيا بسبب كُفرهم وصَدِّهم عن سبيل الله، وبهذا يكون أوَّلُ هذه السّورة مُناسبًا لآخر السّورة قبلَها؛ كأنَّه قيل: كيف يَهلكُ الفاسقُ إنْ كانَت لهُ أعمالٌ صالحة؟ فيأتي الجواب: إنَّ الكُفرَ والصَّدَّ عن سبيل اللّه يُبطلانِ العملَ، فلا يَبقى للكافرين ما يَشفعُ لهم، بل تضيعُ أعمالُهم، فيَلقونَ جزاءَهُم في الدُّنيا بالخُسران، وفي الآخرةِ بالهَلاك والحِرمان[1].

تفسير معنى الفِسْقِ المذكور آنفًا وبيان معناه

وأيضًا قد تكون هذه الجملة كأنَّها جوابٌ لسؤالٍ نشأ عن قوله تعالى في خاتمة سورة الأحقاف: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، فيسألُ السّائلُ: مَن هُم هؤلاءِ الفاسقين الذين استحقّوا هذا الهلاك؟ فجاءَ مطلعُ سورةِ مُحمَّد ﷺ بالجواب الواضح: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فكان هذا الرَّبطُ

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 128، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 28، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 7/ 182.

بين السّورَتيْن بديعًا؛ إذْ فَسَّرَتِ الثّانيةُ ما وردَ مُجَملًا في الأولى، لتكتمِلَ الصّورةُ، وتتَّضحَ الحكمةُ؛ وهو وجهُ ارتباطٍ بين السّورتينِ حَسَنٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: يدورُ معنى الصَّدِّ على اعتراضٍ بقَويٍّ، أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبلَ، أو يمنعُهُ كالجبلِ[2]، وأصلُ (صَدَّ) يدُلُّ على إعراضٍ وعُدولٍ[3] يُقال: صَدَّ عنه: أعرَضَ، وصَدَّهُ عنِ الأمرِ: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ. والفعلُ يحتملُ التَّعدّيَ واللُّزومَ، فالصَّدُّ والصُّدودُ قد يكونُ صَرفًا ومنعًا إذا كانَ الفعلُ مُتعدّيًا، بمعنى: يَصدّونَ غيرَهُم، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشَّيءِ، وإعراضًا عنه، وامتناعًا، إذا كانَ الفعلُ لازمًا غيرَ مُتعدٍّ[4]، ويتبيَّنُ ذلكَ بالمصدرِ؛ ففي الإعراضِ بنفسه يُقالُ: صَدَّ يصُدُّ صُدودًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾ [النساء: 61]، وفي صَرفِ غيره يُقالُ: صَدَّ يصُدُّ صدًّا[5]، ومعنى ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صرَفوا أنفسَهُم وغيرَهُم عن الدُّخول في الإسلام؛ لأنَّ الَّذي يصدُّ غيرَهُ قد ابتدأ بصَدِّ نفسه[6].

2) ﴿أَضَلَّ﴾: أصلُ الضَّلالِ يَدُلُّ على ضياع الشَّيْءِ، وذَهابه في غَيْرِ حَقّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ في الأمر ضَلالًا إذا لم يهتد له، وضلَّ إذا جارَ عن القَصْد، وأضَلَّ بعيرَه إذا أُفْلِتَ فذَهَبَ، وضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ؛ إذا غابَ وغُلِب عليه فلم يُتبيَّنْ[7]، ولهذا، يُطلق على الهالك والتّالف وصفُ (الضّالِّ)؛ لأنّه غابَ عن النَّجاةِ واختفَى أثرُهُ، ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: أبْطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها وأتلَفَها، فلا يَنتفِعون بها في الآخرةِ[8].

(1) الجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 70.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد - صدى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المُحكم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، والسمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (صدد).
(6) السِّيواسي، عيون التّفاسير: 4/ 116، والمراغي، تفسير المراغي: 43/ 26.
(7) الخليل، العين: (ضلل)، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(8) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 79، ومكّي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 1/ 168، والواحدي، الوجيز، ص: 1000.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إحباطُ الأعمالِ وإبطالُ ثوابِها عقوبةُ الجُحودِ والصَّدِّ عن سبيل الله

افتتحَ اللّه تعالَى هذه السّورة بذَمِّ الكافرينَ، الذين جحَدوا الحقَّ وأعرَضوا عنه، ومَنعوا أنفسَهُم وغيرَهُم من سلوك طريقهِ واتِّباعِ هَديهِ، وذِكْرِ عُقوبتِهم، بأنْ أحبطَ أعمالهم وجَعَلها سُدًى لا نَفْعَ فيها ولا ثواب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بالآية الكريمة:

جمالُ الافتتاحِ بينَ تحقيرِ الكافرينَ وتقويةِ عزائمِ المؤمنين

تتجلَّى في نَظْم الآية الكريمة براعةُ الاستهلال؛ إذْ جاءَ افتتاحُ سورة القتال بهذه الآية الكريمة مُتوافقًا مع الغايةِ التي لأجلها نزَلَت؛ فمَدارُ السّورة على مُقارعةِ أعداءِ الإسلام الذين كذَّبوا نبيَّهُ الأمين، واعترَضوا سبيلَ دعوَته، فجاءَت آياتُها ناطقةً بجهادِهم، مُبيِّنةً مآلهم المحتومَ من ذُلٍّ وخُسرانٍ في الدُّنيا، وعذابٍ مُقيم في الآخرة[2]، وافتُتِحت الآية الكريمة بتوطئةٍ تُجلّي سخطَ اللّه على الكافرين؛ لكُفرِهم باللّه وصَدِّهم عبادَهُ عن سبيل الحَقِّ بإضلالِ أعمالهم، وفي هذا تَحقيرٌ لشأنهم في أعيُنِ المؤمنين، حتى تشتدَّ فيهم العزائمُ، وتتحفَّزَ نفوسُهم للإقدام على قتالهم، غيرَ مبالين بما هُم فيه من عُدَّةٍ وعَتاد؛ إذ قد عَلِموا أنَّ اللّه وليُّهم، ناصرُهم، وخاذِلُ عَدوِّهم، فجاء هذا التَّمهيدُ مُقدِّمًا لما بعدَهُ من أمرِ اللّه للمؤمنينَ عندَ لقاءِ أعدائهِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[3].

الغرضُ من تعريفِ المسنَدِ إليه بالمَوصوليَّة:

في الموصولِ إبهامٌ مُشوِّقٌ إلى البيانِ المُحقَّق

افتُتِحت الآيةُ الكريمةُ بتعريفِ المُسنَد إليه بالمَوصوليَّة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو أُسلوبٌ يحملُ في طيّاته لَفْتًا للانتباهِ؛ إذ يُلقي

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 180، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 306، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 195 - 196، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

(2) الواحدي، التّفسير البسيط، ص: 211، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5192.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 72، والمغراوي، التّدبُّر والبيان: 31/ 277.

في روعِ السّامعِ تَساؤلًا عن المَعنيّينَ بهذا الوصفِ، فيظلُّ مُتشوِّقًا لما سيأتي بعدَهُ من بيانٍ يَرفعُ الإبهامَ ويَكشفُ المَرامَ؛ فالاسمُ الموصولُ، يجعلُ المُتلقّي في تَشوُّقٍ إلى معرفةِ حُكمِ اللّه ﷻ عليهم حتَّى إذا وردَ الخبرُ ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، جاءَ موافقًا لما تقتضيهِ صِلتهُم، كاشفًا عن العلَّةِ التي استوجَبوا بها ذلك الجزاءَ؛ إذ لم يكُنْ ضلالُ أعمالِهم إلّا جزاءً على كُفرِهم وعِنادِهم[1].

واسمُ الموصولِ أيضًا يرتبطُ بصِلَتِه؛ وهي الكُفرُ والصَّدُّ عن سبيلِ اللّه، وفي ذلك من التَّحقيرِ لشَأنِهم، وإظهارِ خُبثِ صَنيعِهم ما فيه[2].

دلالةُ مجيءِ الخبرِ في الآيةِ الكريمةِ ابتدائيًّا:

تهوينُ شأنِ الكافرين، وتثبيتُ المؤمنينَ تقويةٌ لعَزائمِهم على قِتالِهم

افْتُتِحَتِ السّورةُ الكريمةُ بجُملةٍ خبريَّةٍ من الضَّربِ الابتدائيِّ، خاليةٍ من التَّأكيدِ؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، والمُرادُ من الخبرِ الفائدةُ؛ إذ يَحملُ في طيّاتِه تحقيرًا لأمرِ الكافرينَ، وتوهينًا لشأنِهم، فيتصاغرونَ في أعيُنِ المُسلمينَ، ويَهونُ أمرُهم عليهم، فيَشتدُّ بذلك بأسُ المؤمنينَ، ويَزدادُ يقينُهم بأنَّ عدوَّهم إلى زوالٍ، وتوطئةٌ لهم لأخذِ الحيطةِ والحذرِ من مكرِ أعدائِهم، فلا يأمَنوا جانبَهم، ولا يَغفلوا عن عداوتِهم، بل يكونونَ على أُهْبةِ الاستعدادِ لمُقارَعتِهم[3].

بلاغة التَّقديم والتَّأخير في الآية:

الإيماءُ إلى استحقاقِ رؤوسِ الكُفْرِ وأئمَّةِ الضَّلالة للعقابِ الذي يُناسبُ جرائمَهُم

جاءت الآيةُ الكريمةُ مُحكَمَةَ النَّسجِ، بديعةَ السَّبكِ؛ قُدِّم فيها المُسنَدُ إليه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على المُسنَدِ ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وكان في هذا التَّقديمِ إيماءٌ إلى استحقاقِ أولئكَ الكافرينَ - وهم رُؤوسُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 73/ 26.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ، مجلة كلية اللغة العربية، المنصورة، جامعة الأزهر، مصر، العدد 30، سنة: 2011م: 6/ 214.

(3) المغراوي، التّدبر والبيان: 31/ 277، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 217.

الكُفْرِ وأئمَّةُ الضَّلالةِ - للعقابِ الذي يُناسبُ جرائمَهم، فقد جمَعوا بَيْنَ كُفرِهم باللّه وتكذيبِهم بآياته، وبَيْنَ صَدِّهم أنفسَهم وغيرَهم عن سبيلِ اللّه، فاستوجَبوا بذلك أن تُحبَطَ أعمالُهم ويَضيعَ سَعيُهم، وما ذلكَ إلّا لأنَّهم اتَّبعوا الباطلَ، فكان جَزاؤُهم من جنسِ أعمالِهم؛ إذِ الأعمالُ التي في نصرِ الباطلِ لمّا كانت باطلةً، كانت الأعمالُ لأجلِها باطلةً، فَحَقَّ عليهم الضَّلالُ والهَوانُ، وساءَ مآلُهُم في الدُّنيا والآخرة[1].

معنى العطف ودلالتُه في ﴿وَصَدُّواْ﴾:

الإشــــارةُ إلى الإمـــعـــانِ في الـفـسـادِ، من ضَـلالِ النَّفسِ إلى إضلالِ الغير

عند التَّدبُّر في سِرِّ العطف في قوله تعالى ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، نجد أنَّ الكُفرَ قدِ اشتملَ على جُحودِ الوحدانيَّةِ والشَّريعةِ والنُّبوَّةِ، وأنَّ الصَّدَّ جاء معطوفًا عليه؛ إمّا لبيانِ شِدَّةِ ضَلالِهم، وإمّا لكونِه أخصَّ من الكُفرِ، فيكون العطفُ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ لم يَكتفوا بضَلالِ أنفسِهم، بل تجاوَزوهُ إلى صَدِّ غيرِهم، وإضلالِ مَن حولَهم، وذلك أبلغُ في الفسادِ، وأشدُّ في الجُرمِ، وأعظمُ في استحقاقِ العُقوبةِ؛ إذْ مَنْ أضلَّ غيرَه، فقد كان في غوايتِه راسخَ القَدمِ، متوغِّلًا في الباطلِ، بعيدًا عن الحَقِّ والهداية[2].

دلالةُ التَّعبير بالماضي في ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾:

الـدَّلالـةُ على عَراقةِ المَوصوفِينَ فـي الـوصـفَـيـن (الكُفرِ والصَّدِّ)

في التَّعبيرِ بالماضي في الفعلَيْن: ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾، دلالةٌ على عَراقةِ الموصوفِينَ في الكُفرِ والصَّدِّ؛ إذ الفعلُ الماضي يدلُّ على تغلغُلِ الكُفرِ في قلوبِهم، واستحكامِ الضَّلالِ في نُفوسِهم، حتَّى صارَ الصَّدُّ عن الحَقِّ سَجيَّةً لهم، لا يَفتؤونَ عنها، ولا يَنفكّونَ منها، فكان جُرمُهم مُضاعَفًا، وإثمُهم مُستحكِمًا؛ إذ ضلّوا وأضلّوا، وكفَروا

(1) الملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان، ص: 498، وحنان عودة، سورة مُحمّد ﷺ، دراسة أسلوبيّة بلاغيّة، مجلّة كُلّيّة الآداب، جامعة المنصورة، مصر، العدد: 71، سنة: 2022، ص: 191.

(2) الطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 320 - 321، وزاده، حاشية محيي الدِّين زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 578.

وصَرَفوا غيرَهم عن سبيلِ الرَّشادِ، فحَقَّ عليهم الوعيدُ، ووجَبَ لهم العذابُ الشَّديد[1].

الغرضُ من إسنادِ الصَّدِّ إلى الجميعِ على حين أنَّه حاصلٌ من بعضِهم:

مُجرَّدُ الإعراضِ عن الحَقِّ سببٌ في استحقاقِ العقاب

الصَّدُّ في معناهُ يشمَلُ الصُّدودَ والانصرافَ كما يشمَلُ الصَّرفَ والمنعَ، فجاءَ الفعلُ في الآية مُحتمِلًا للُّزومِ والتَّعدّي؛ فإنْ حُمِلَ على اللُّزومِ، كان معناهُ امتناعَهُم عن الدُّخول في الإسلامِ وسلوكِ سبيله، فيكون العطفُ بين ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ عطفَ تفسيرٍ وبيان، وتُبرِزُ بلاغَتهُ أنَّ حقيقة الكُفر هي الامتناعُ عن الإسلام بعدَ العِلم به، فيكون ذلك وصفًا شاملًا لكلِّ مَن أعرضَ عن الحقِّ بعدَ أن تبيَّنَ له، وتكونُ عقوبتُهُم بإضلالِ أعمالِهم مُترتِّبةً على ثُبوتِ الكُفر والصُّدود فيهم، فيشمَلُ الحُكمُ كلَّ مَن اتصفَ بعنوانِ الصِّلة[2]. وفي الجمعِ أيضًا دلالةٌ على التَّمالُؤ على الكُفر والصَّدِّ، والاجتماعِ عليهما.

بيانُ شَناعةِ الإضلالِ بعد الضَّلال

وإن حُمِلَ الفعلُ على التَّعدّي، كان العطفُ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ ليس صَدُّ غيرِهم عن الإسلام إلّا أبلغَ في الغوايةِ وأشدَّ في الضَّلالةِ والكُفرِ، فجاء ذِكرُهُ بعدَه بيانًا لشَناعته، وتقريرًا لاستحقاقِ فاعليهِ أشدَّ العقابِ، واستهجانًا لمسلكِ الكافرينَ الصّادّينَ، وفيه دلالةٌ على أنَّ مَنعَ الغيرِ من الدُّخولِ في الإسلامِ أشدُّ تَوَغُّلًا في الكفرِ والضَّلالِ[3].

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ (السَّبيل):

دينُ الله طريقٌ مأمونُ العِثار موصِلٌ إلى مرضاةِ العزيزِ الغفّار

جاءت الآيةُ الكريمةُ بتصويرٍ بديعٍ للمَعنى عن طريقِ الاستعارة؛ إذْ شُبِّه الدّينُ القويمُ بالسَّبيلِ؛ لاشتراكِهما في إيصالِ السّائرِ فيهما إلى بُغيَتِه، وقد استُعيرَ لفظُ (السَّبيلِ) للدّينِ على وجهِ الاستعارةِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 195.

(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 280، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 194.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 23، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 268، وفاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 214 - 215.

التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، فكانَ في ذلك إيضاحٌ لمعنى الدّينِ، وتقريبٌ لصورَتهِ في الأذهانِ، حتَّى يراهُ المُتلقّي سبيلًا واضحَ المعالمِ، مُستقيمًا لا التواءَ فيه، قويمًا لا اعوِجاجَ يَشوبُه، مأمونَ العِثارِ، موصِلًا إلى الغايةِ الكُبرى؛ وهي مرضاةُ اللّه ﷻ، وفي هذه الاستعارةِ ما يُنبِّه العقولَ إلى أنَّ الدّينَ طريقٌ يسلكُه المرءُ ليبلغَ به السَّعادةَ في العاجلِ والآجلِ، فلا قِوامَ لحياةٍ صالحةٍ إلّا في ظلِّه، ولا بناءَ للفردِ والمجتمعِ إلّا على أُسُسِه، فالدّينُ يَهدي من يسلكُه إلى مرضاةِ اللّه، ويُرشدُه إلى جنّاتِ النَّعيم، فلا طريقَ إلى النِّجاةِ سِواهُ، ولا وُصولَ إلى دارِ القرارِ إلّا بالسَّيرِ على هُداهُ، فهَنيئًا لمَن جعَلَ دينَ اللّه سبيله، وسَلَكهُ بعزيمةٍ وثباتٍ؛ إذْ هو الطَّريقُ القَويمُ، لا يَضِلُّ سالكُهُ، ولا يَخيبُ السّاعي فيه؛ مَن تَمَسَّكَ به اهتدَى، ومن تنكَّبَ عنه غَوَى[1].

وفي إطلاقِ لفظِ (السَّبيل) إجمالٌ لمعانٍ متعدِّدة، وانفتاحٌ على تأويلاتٍ متنوِّعةٍ تحتملُ أن تكون مُرادةً؛ ففي المَصدودِ عنهُ المُعبَّرِ عنه بلفظِ (السَّبيل) "وجوهٌ: **الأوَّل:** عن الإنفاقِ على محمَّدٍ ﷺ وأصحابه. **الثّاني**: عن الجهاد. **الثّالث:** عن الإيمان. **الرّابع**: عن كلِّ ما فيه طاعةُ اللّه تعالى؛ وهو اتّباعُ محمَّدٍ عليه السلام، وذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ على الصِّراطِ المُستقيم هادٍ إليه، وهو صراطُ اللّه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 52 - 53] فمَن مَنَعَ من اتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ فقد صَدَّ عن سبيلِ اللّه"[2].

الغرضُ من الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

في الإضافةِ تشريفٌ لطريقِ الهُدَى وتعظيمٌ لشَناعةِ الصَّدِّ عنه

جاءت إضافةُ (السَّبيلِ) إلى اسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ وهو الاسمُ الجامعُ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، تعظيمًا لهذا السَّبيلِ وتشريفًا له، وبيانًا لسموِّ منزلتِه، فهو ليسَ كأيِّ سبيلٍ، بل هو سبيلُ الملكِ الأعظمِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 73.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 33.

والدّينُ الذي ارتضاهُ لعبادِه، والطَّريقُ الموصِلُ إلى مرضاتِه. وفي هذه الإضافةِ أيضًا تعظيمٌ لشناعةِ جُرمِ الكافرين، وعِظَمِ جنايتِهم؛ إذ لم يَكتفوا بالكُفرِ به، بل صَدّوا غيرَهم عنه، فأعرَضوا عن السَّبيلِ القويمِ، وحالوا بين الخَلقِ وبين السَّيرِ فيه، فاستحقّوا أشدَّ العقابِ، وأعظمَ النَّكالِ[1].

بلاغةُ الكناية في جُملة العطف:

بيانُ شدَّة كراهية الكفّار لدينِ الإسلام، ونُفورِهم منه

تُشير جملة ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ - بما حوَتهُ من تصويرٍ كِنائيٍّ - إلى شدَّة كراهية الكفّار لدين الإسلام، ونفورِهم منه؛ إذْ لم يقتصِروا على الإعراضِ والصُّدودِ بأنفسهم، بل جاوَزوهُ إلى تنفيرِ غيرهم، فكانوا فتنةً للمؤمنين، وحائلًا بين العِباد وبين الهداية[2].

بلاغةُ الإيجاز في الآية الكريمة:

الدَّلالة على عُموم الوعيد، وتشديد النَّكير على الكافرين

اشتمَلت الآيةُ الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على صَنعةٍ بديعةٍ من صنائع الإيجاز، بنوعَيه: الحذف والقصر؛ فكان في ذلك من إحكام النَّظم وإعجازِه ما فيه. فأمّا إيجازُ الحذف، فقد تضمَّنتهُ الآيةُ في موضِعَين، أوَّلُهما: في قوله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ جاء مُجمَلًا، والمُرادُ به - بحسب ما أشارَ كثيرٌ من المُفسِّرين - الذين كفَروا بآياتِ اللّه، فحُذف المتعلَّقُ للعِلم به، وليشمَلَ كُلَّ صُنوفِ الكُفرِ والجُحود وأنواعهما، وثانيهما: في قوله ﴿وَصَدُّواْ﴾؛ إذ أُطلقَ الفعلُ ولم يُذكَر مفعولُه، والتَّقدير: (وصَدّوا غيرَهُم عن سبيل اللّه)، فجاءَ الحذفُ دالًّا على التَّعميم، مُحيطًا بجميع مَن وقعَ عليه الصَّدُّ، وفيه مزيدُ إنكارٍ وتشنيعٍ على الكافرين؛ إذ لم يَكتفوا بضلالِ أنفُسِهم حَتَّى سعَوا في إضلالِ غيرِهم، فاستحقّوا بذلك أشدَّ العقابِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 73، والمغراوي، التّدبُّر والبيان: 31/ 277.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 218.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 306، ومأمون حموش، التفسير المأمون، ص: 299.

الدَّلالةُ على شُمولِ المعنى ودوامِ الحُكم

وأمّا إيجازُ القصر، فقد تجلَّى في قوله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فهي وإن نزلَت في كُفّارِ قريشٍ الذين أخرَجوا رسولَ اللّه ﷺ، إلّا أنَّها لم تقتصِرْ عليهم، بل شملت - على وجازَتِها - كُلَّ مَن كفرَ باللّه وصَدَّ عن سبيلِه، مِن عهدِ الرِّسالةِ إلى قيامِ السّاعةِ، فهي تَعُمُّ كلَّ مَن دخلَ تحت ألفاظِها، فهي وعيدٌ مستمرٌّ، وعِبرةٌ قائمةٌ، لِمَن حادَ عن سبيلِ اللّه، وأعرَضَ عن دينِه، وصَدَّ غيرَه عن هَديهِ القويمِ(1).

دلالةُ التَّقييد بالكُفر والصَّدِّ في إضلالِ الأعمالِ:

تَرابُطُ الكُفر والصَّدِّ بَيْنَ عُمومِ الذَّنب وشُمول العقاب

جاء قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مشتملًا على مسألةٍ من دقائق المعاني، وهي أنَّ إضلالَ الأعمالِ جُعِلَ مُرتَّبًا على الكُفرِ والصَّدِّ، فيُقال: إنَّ مِنَ الكفّارِ مَن لم يَصُدَّ غيرَه، وهم المُستضعَفون، فكيف يكونُ حُكمُهم في إضلالِ الأعمالِ؟ والجوابُ من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: إنَّ التَّخصيصَ بالذِّكرِ لا يدلُّ على نفيِ ما عَداه، لاسيَّما إنْ كان المذكورُ أحقَّ بالذِّكرِ وأولى من غيرِه، وههنا الكافرُ الصّادُّ أشدُّ فسادًا وأعظمُ جُرمًا، فكان أحقَّ بأن يُذكَرَ في معرضِ التَّوبيخِ والإنذارِ.

والوجهُ الثّاني: إنَّ كلَّ مَن كَفَرَ صار صادًّا عن سبيلِ اللّه؛ إذ المُستكبِرَ صادٌّ ظاهرًا بجَبَروتِه وإعراضِه، والمُستضعَفُ كذلك؛ لأنَّه بمُتابَعتِه للمُستكبِرِ يُثبِّتُه على عِنادِه، ويمنعُه من اتِّباعِ الحقِّ؛ إذ يأبى على نفسِه أن يتحوَّلَ من مقامِ المتبوعِ إلى التّابعِ، فيظلُّ على كُفرِه، ويُبقي غيرَه على ضَلالِه، فصارَ الجميعُ داخلين في معنى الصَّدِّ، ثم إنَّ كُلَّ كافرٍ يكونُ صادًّا لِمَن بعدَهُ؛ إذْ سيرةُ الكُفّارِ جاريةٌ على

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 314، وابنُ عطيّة الأندلسي، المحرر الوجيز: 5/ 109، وعبد العزيز العمّار، تقابل المعاني في سورة مُحمّد ﷺ، مجلّة العلوم العربيّة، جامعة الإمام مُحمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، العدد 25، سنة: 1433، ص: 38.

تقليد آبائهم وأسلافهم، كما قال تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزّخرف: 22]، أي: مقتدون بهم، سالكونَ سبيلهم[1].

فائدةُ ذِكْرِ الصَّدِّ بعد الكفر:

بيانُ أنَّ كُفرَهُم دافعٌ لهُم لصَدِّ غيرِهم عن الحقِّ

فائدةُ ذِكْرِ الصَّدِّ بعد الكُفر مع كون كُلِّ كافرٍ صادًّا: أنَّ ذلك من باب ذِكْرِ السَّبب وعَطفِ المُسَبَّب عليه، كقولك: (أكلتُ كثيرًا فشبعتُ)، فالشِّبَع مُتفرِّعٌ على كثرةِ الأكل، فكذلك في الآية كان الكُفرُ سببًا للصَّدِّ، فذُكِر ليُبيِّنَ أنَّ هؤلاء لم يَكفُروا حسب، بل صارَ كُفرُهم دافعًا لهُم لصَدِّ غيرِهم عن الحقِّ، فكانَ ذلك أشدَّ في الذَّنب، وأبْلَغَ في العقوبة[2].

بلاغةُ فصلِ جُملة ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عن سابقتها:

بيانُ الجزاء المحتَّم والقضاءِ المُبرَم الجامع بين شِدَّة التَّهديد، وتمامِ الوعيد

جاء الفصلُ في قولِهِ تعالى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ إذ لمَّا وصَفَ اللّه ﷻ الكفّار بوصفين شنيعَين، وهُما الكفرُ به والصَّدُّ عن سبيله، خُتِمَ بالجزاء وهو إحباطُ أعمالهم، فجاءَ هذا الجزاءُ في جُملةٍ مُستقِلَّة تُفيدُ أنَّه أمرٌ حتميٌّ، ونتيجةٌ لازمةٌ لما تقدَّمَ من ذِكْرِ أوصافهم، لا ينفكُّ عنهُم ولا ينفصلُ عن حالهم، وفُصِلت هذه الجُملة عن سابقتِها لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، وكأنَّ السّامعَ حينَ يسمَعُ وصفَهُم بالكُفر والصَّدِّ عن سبيل اللّه تتوجَّهُ نفسُه إلى التَّساؤل: فما جزاءُ مَن كَفَرَ وأعرضَ وصَدَّ؟ فيأتي الجوابُ القاطع: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فَفُصِلت بيانًا للجزاء المُحتَّم والقضاءِ المُبرَم الجامع بَيْنَ شِدَّة التَّهديد، وتمامِ التَّقرير، فيكون أوقعَ في النُّفوس، وأبلغَ في الزَّجر[3].

دلالةُ حذفِ المُسند إليه من جُملة ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جاء النَّظمُ الكريمُ على أبدعِ وجوهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 32، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 106.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 32.

(3) المكي، المُعين على تدبُّر الكتاب المُبين، ص: 507، ومحمّد دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 299.

في الحذف إعلاءٌ لشأنِ الفاعل، وتقريرٌ للعقاب النّازل

البلاغة؛ إذ حُذف المُسند إليه، والتَّقدير: (أضلَّ اللّه أعمالهم)، فلا يُحتاجُ إلى بيان فاعله، فهو معلومٌ ضرورةً لاختصاصِ الفعلِ باللّه ﷻ وحدَهُ، فلا مُحبِطَ لأعمالِهم سواه، فهو الحكمُ العَدلُ، القادرُ على جَعلِ ما يَحسَبُهُ الكُفّار نافعًا لهم هباءً منثورًا[1].

تسريعُ الحُكم وتعجيلُ الجزاء

وجاء هذا الحذفُ أيضًا مُسَرِّعًا بيانَ الحُكم، مُعجِّلًا بالجزاء، وكأنَّ العقوبة وقعَت بهم في لمحِ البصَر، وذلك أوقعُ في الرَّهبة، وأشدُّ في التَّهديد والإنذار[2].

سرُّ إيثار لفظِ الأعمال:

العمَلُ: كلُّ فعلٍ يكونُ بقَصْدٍ، ومن هُنا فهو لا يكونَ إلّا مع العِلْم، فهو أخَصُّ منَ الفِعل، وعلى ذلك يكونُ معنى جُملة (أضَلَّ أعمالهُم)، أي: التي كانوا يعملونَها في الدُّنيا بقصْدٍ وعِلْم ودِراية[3] معَ استِمرارهم عليها؛ لأنَّ العمَلَ يُستعمَلُ لِما يَمتدُّ زَمانُه، وأمّا الفِعلُ فيكونُ دفعَةً واحدةً[4]. ولا شكَّ أنَّ الدِّرايةَ بالعمَل والقيامَ بهِ عن قصْدٍ أنسَبُ لاستحقاقِ العُقوبة.

الغرَضُ من التَّعبير بالمفعولِ به مَجموعًا مضافًا إلى ضَميرِهم:

شُمولُ الإبطالِ لجميعِ الأعمالِ دليلُ فَداحَةِ الخُسران، وسوءِ العاقبة

جاء لفظُ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مجموعًا مُضافًا إلى ضَميرِهم، مُشيرًا بذلكَ إلى فداحةِ الخُسرانِ، وسوءِ العاقبةِ؛ إذ دلَّ على أنَّ الإضلالَ لم يُصِبْ عملًا واحدًا بعينه، بل شملَ جميعَ ما اجترَحوهُ من أفعالِهم، فكانَ إبطالًا تامًّا، وإحباطًا شاملًا لِما عَمِلوا، كبيرِه وصَغيره، فكلُّ ما كانوا يتفاخرونَ به من مكارمَ؛ كصِلةِ الأرحام، وقِرى الأضياف، وفكِّ العاني، وسائرِ ما عُرِفوا به من الفضائلِ، لم يُعتدَّ به؛ إذْ لم يكُنْ مُقترنًا بالإيمانِ باللّه،

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 128، والمظهري، التّفسير المظهري: 8/ 420، عبد الجليل عيسى، تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم، ص: 351.

(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 219.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 564، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/ 2844.

(4) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 3/ 604.

ولم يكُنْ خالصًا لوجهه الكريم، فمَن عملَ لغير اللّه، لم يُتقبَّل منه، ومَن ابتغَى غيرَ مَرضاتِه، لم يُجزَ إلّا بالخيبة والنَّدامة(1).

سَعيُ الكفّار في الضَّلال حسرةٌ عليهم، وكيدُهُم مَردودٌ عليهم

وأيضًا فإنَّ سعيَهُم في مَكرهم برسوله، وكيدَهُم في الصَّدِّ عن سبيلِه، قد أبطَله أيضًا بنَصر نبيِّه، وإظهارِ دينِه على الدّين كُلِّه، فكانَ عملُهُم حسرةً عليهم، وسعيُهُم وبالًا على أنفُسِهم، فخابوا فيما راموهُ، وضلَّت أمانيُّهُم، وانقلبَت مكائدُهُم عليهم(2).

بلاغةُ التَّعبير بالاستعارة في جُملة ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

لا نفعَ في عمَلٍ إنْ لم يُبْنَ على الإيمان؛ ومصيرُهُ إلى زَوال

في قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ تصويرٌ بديعٌ بطريق الاستعارةِ المكنيَّة؛ إذ شُبِّه ما عمِلوهُ من مكارمَ - كصِلةِ الأرحام، وفكِّ الأسرى، وقِرى الأضيافِ، وحِفظِ الجوارِ، وسائرِ ما كانوا يَرَونَهُ من أعمالِ الخيرِ - بالضّالَّةِ من الإبلِ التي هي بمَضيَعةٍ لا راعيَ لها يَحفَظُها، ولا صاحبَ يُعنى بها، أو جُعِلَت ضالَّةً في كُفرِهم ومَعاصيهم مغلوبةً فيها كالماءِ الذي ضاع في اللَّبنِ، لا يُميَّز من غيرِه، ولا يُنتفَع به على حال، وقد حُذِف المشبَّه به، ورُمِز إليه بلازِمه، وهو لفظ ﴿أَضَلَّ﴾، فجاءتِ الاستعارةُ المكنيَّةُ في أبلغِ صورِها، تُصوِّر الأعمالَ المعنويَّةَ بصورةٍ محسوسةٍ مألوفةٍ لدى العرَب؛ إذ جُعِلت أعمالُهم كأنَّها شيءٌ تائهٌ هالكٌ، لا أملَ في استرجاعِه، ولا سبيلَ إلى نفعِه، فكذلك أعمالُهم في ميزانِ الحَقِّ، لا تُقبَل ولا تُرفَع؛ إذْ لم تكن للّه خالصةً، ولا على منهاجِه قائمةً، فجاءَ هذا التَّصويرُ القرآنيُّ ليُجَسِّدَ المعنى في صورةٍ حسّيَّةٍ مألوفةٍ للعرَب، تُقِرُّ الحَقَّ في نفوسِهم، وتجعلُه ماثلًا في أذهانِهم، حتَّى لا يبقى لهُم مستمسكٌ بشبهةٍ، ولا مَهربٌ من الحُجَّة، فيَعلموا أنَّ كلَّ عمَلٍ لم يُبنَ على الإيمان، فهو ضائعٌ هالكٌ لا مَحالَةَ(3).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 91.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 223، والثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 28.

(3) النّيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 6/ 128، والشهاب الخفاجي، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 8/ 486، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 205.

بلاغةُ الفاصلة في الآية الكريمة:

الخَتمُ بضمير جمعِ الغائبينَ قَرعٌ للأسماعِ وتنبيهٌ للأذهان

جاءت الفاصلة القرآنيَّة في هذه الآية ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وما تلاها مختومة بضمير جمع الغائبين المُتَّصل ليقرع الآذان، وينبِّه الأذهان لهذه الفاصلة وإيذانًا بما سترد به الفواصل في هذه السّورة المُباركة، وليكونَ ذلك تنبيهًا للسّامعين إلى خُطورةِ ما تحمِلهُ من معانٍ، ورِفعةِ ما تحتويه من بيان.

وكان هذا البناءُ التَّركيبيُّ من مطلعِ السّورةِ موحيًا بجليلِ موضوعِها، مُشيرًا إلى خطرِ أعداءِ الإسلام، كاشفًا عن حقيقةِ أمرِهم، حتَّى يَجذبَ الانتباهَ إليهم، فيعرِفَهم المؤمنون على حقيقتِهم، فلا يَغترّوا بمَكرِهم، ولا يَأمنوا كَيدَهم، وليكونَ ذلك أدعى لتحقيقِ الغايةِ المنشودة، فيرتفعَ شأنُ هذه السّورةِ في نفوسِ المتلقّين، وتَبلُغَ بهم تأثيرَها، فيُدرِكوا ما فيها من عِظةٍ، ويَستعدّوا لما تَحمِلُه من نذيرٍ ووعيد[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّـريـقُ ما يُـسْـلَـكُ، والـسَّـبـيـلُ أسْـهَـلُـهُ، والصِّراطُ أقْوَمُهُ

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطّارِقُ مِنَ النّاسِ؛ مُعْتادًا كانَ أو غَيْرَ مُعْتادٍ[2]، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]. أمّا السَّبيلُ: فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِ كَقَوْله تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾، [الأنعام: 55]، أمّا الصِّراطُ: فَهوَ السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ أنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتيادَ السُّلوك[3] أمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فَهوَ السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ

(1) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 221.
(2) أبو البقاء الكفويُّ، الكُلّيات، ص: 513.
(3) أبو هلال العسكريُّ، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص: 298.

بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ أنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيهِ[1] قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أخَصُّ مِنَ السَّبيلِ قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[2]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

ولمّا كانت الآيةُ - بحسبِ ما مرَّ ذِكْرُه - تنبيهًا للعُقولِ على أنَّ سبيلَ اللّه تعالى واضحُ المَعالم، مُستقيمٌ لا التِواءَ فيه، قويمٌ لا اعوِجاجَ يَشوبُه، مأمونُ العِثار، لا يَضلُّ سالِكُهُ، ولا يَخيبُ السّاعي فيه، ناسبَ لفظُ (السَّبيل) لِما يتضَمَّنهُ من دلالةِ السُّهولةِ، والاستعمالِ في وُجوهِ الخير.

(1) أبو البقاءِ الكفوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 513.

(2) المناويُّ، التّوقيفُ، ص: 215.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾

[محمّد ﷺ: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ حالِ المؤمنين وما أعدَّهُ لهُم من الثّواب، بعدَ ذِكرِ حالِ الكافرين وما أعدَّهُ لهُم من العقاب

لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى مآلَ الكافرينَ وعاقبةَ جُحودِهم، وما أعدَّ لهُم من إحباطِ الأعمالِ وسوءِ المصير، أتبعَهُ ببيانِ حالِ عِبادِه المؤمنين، الذين آمنوا بقُلوبِهم، وأخلصوا أعمالَهم، وصَدَّقوا بالوحيِ الذي أنزَلَه على نبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ، إقرارًا بأنَّه الحَقُّ النّازلُ من عندِ ربِّهم، وما أعدَّه لهم من الجزاءِ العظيمِ والثَّوابِ الكريم، فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾[1]. فهو تعالى "لمّا ذكَرَ أهلَ الكُفرِ مُعبِّرًا عنهُم بأدنى طبَقاتهم ليَشمَلَ مَنْ فوقهُم، ذَكَرَ أضدادَهُم كذلك ليعمَّ مَن كانَ منهم مِن جميعِ الفرق"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَّرَ﴾: أصله يدلُّ على معنى السَّتر والتَّغطية، وكلّ ما غطَّى شيئًا، وكلّ مَن ستَرَ شيئًا فقدَ كفرَه، ويُقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يُكفِّرُ البذرَ، أي: يُغطّيهِ ويَسترُهُ بالتُّرابِ، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ[3]، ومعنى تكفير السَّيِّئات: سترُها ومَحوُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخَذونَ عليها[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 197.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 33/ 28، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 128.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كفر).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 409، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 12/ 180.

2) ﴿وَأَصْلَحَ﴾: الصَّلاحُ: ضِدُّ الفَسادِ، وهُما مختصّانِ في أكثرِ الاستعمالِ بالأفعال[1]، والصَّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، وصَلُحَ يَصْلُحُ، صَلاحًا، وصُلوحًا، أيْ: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ، وأَصْلَحَ الشَّيْءَ بَعْدَ فَساده: أقامَهُ وعَدَّله[2]، ويأْتي بِمَعْنَى الخَيْرِ والنَّفْعِ، ومِنْ مَعاني الصَّلاحِ: السَّلامَةُ، والصِّحَّةُ والصَّوابُ والكَمالُ[3].

3) ﴿بَالَهُمْ﴾: البالُ: الحالُ التي يُكتَرَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به[4]، والمعنى هُنا: شأْنَهم وحالَهم وخاطِرَهُم؛ بالتَّوفيق في أمورِ الدّين والدُّنيا[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إكرامُ أهلِ الإيمان بتكفيرِ السّيئات وإصلاحِ البالِ في الحالِ والمآل

بَيَّن اللّه تعالى حالَ ومآلَ أهلِ الإيمان الذين آمنوا بقلوبٍ خاشِعة، وصدَّقوا إيمانهُم بعمَلٍ صالحٍ خالصٍ لوجهِ اللّه، متَّبعين شريعتَهُ، موقِنينَ بأنَّ القرآن الذي أنزَلَهُ على نبيِّه محمَّد ﷺ هو الحقُّ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يدَيه ولا من خلفِه، فإنَّه تعالى تفضَّلَ عليهم بعَفوه، فمَحا زلّاتِهم، وغفرَ سيِّئاتِهم، فلم يُؤاخِذْهُم بها، بل زادَهُم من فضلِه، فأصلحَ شأنَهُم، وهيَّأ لهُم أسبابَ السَّعادةِ في الدُّنيا، وأعدَّ لهم النَّعيمَ المُقيمَ في الآخرة، فكان لهُم من فضلِه وكرمِه ما يُسعِدُهم ويُبلِّغُهم أرفعَ المراتبِ[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) الأصفهاني، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بال)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بول).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 180، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 295، والمكي، المُعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 507.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 180، والواحدي، الوسيط: 4/ 118، والقُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 224، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 306، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بأسلوب المُقابلة:

تَبايُنُ المصيرِ بَيْنَ أهلِ الجُحودِ وأهلِ التَّصديق

في هذهِ الآيةِ الكريمةِ ضَرْبٌ من المُقابلة البديعة، والموازَنةِ المُحكمَة مع سابقتِها بين حالِ أهلِ الإيمان وحالِ أهل الكفران؛ إذْ جاءَت أوصافُ كلٍّ منهما مُتقابلة، فالإيمانُ يُقابلُ الكفر[1]، وقولُه تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ يُقابلُ صَدَّ الكافرينَ عن سبيلِ اللّه، وجزاءُ المؤمنين وعاقبةُ أمرهم الحميدة في قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، تُقابلُ إضلالَ أعمالِ الكافرين؛ فكما أضَلَّ اللّه أعمالَ الكافرين - ولو ظهَرَ منها ما يحسبُهُ الجاهلُ من أعمال البرِّ - فقد أكرَمَ المؤمنينَ بأنْ مَحا عنهُم خطاياهُم[2]، وأصلحَ شأنَهم، فتجلَّت بذلك سنَّتُه الحكيمةُ؛ إذْ كان الجزاءُ من جنسِ العملِ، فكان التَّقابلُ بَيْنَ الفئتين أبلغَ ما يكون؛ إذ بالضِّدِّ يظهَرُ الضِّدُّ، وبهِ تتجلَّى الفروقُ وتبرُزُ الحقائقُ، وما أروعَ هذا التَّقابلَ! إذ أضفى على المعنى رونقًا وبهاءً، وأكسبَ البيانَ قوَّةً وجلاءً[3]، فإنَّ المُقابلة من أبدع أساليب البلاغة؛ إذ تُبرِزُ الحقائقَ، وتشدُّ الأذهانَ، وتجعلُ القلوبَ على بيِّنةٍ من أمرِها، فلا يبقى لُمسترشدٍ عن سبيلِ الهدى عُذرٌ، ولا لُمتردِّدٍ في الحقِّ ريبةٌ، فتتجلَّى بذلك منزلةُ الإيمان الرَّفيعة عند اللّه، وعظيمُ أثره في حقيقةِ الحياة؛ إذْ لا تستوي الظُّلمات والنّور، ولا الضَّلال والهدى.

معنى العطف ودلالتُه في مطلعِ الآية الكريمة:

خُتِمَتِ الآيةُ الأولى بما يُجلّي ضياعَ جهدِ الكافرين في صدِّهم عن سبيلِ اللّه، ثمَّ جاءت الآيةُ التي تليها لتُؤكِّدَ تحقُّقَ هذا الضَّياعِ؛

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 9/ 65.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 35، والطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 321.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 74/ 26، 75، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 237.

التَّقريرُ الجازم للحقِّ، بذكرِ المؤمنين وجزائهم بعدَ ذِكرِ حالِ الكافرينَ وجزائهم

إذ ابتدأت بذكرِ المؤمنين الذين مضَوا على نهجِ اللّه القويم، ولم تُجْدِ معهم حيَلُ الكافرين، ولا حَبائلُ المُضِلّين؛ إذ خابت مساعيهم، وبطلت مكائدُهم، فلم يَزِدِ المؤمنينَ ذلك إلّا ثباتًا على الحَقِّ، وسَيرًا على الصِّراطِ المستقيم، فجاءت الآيةُ الكريمةُ تُبشِّرُ المؤمنينَ بجزاءٍ كريمٍ من عندِ اللّه؛ إذ تولَّى سبحانه عنهم تكفيرَ سيِّئاتهم، وأصلحَ بالَهم، فكانت لهم البُشرى في الدُّنيا والآخرة. وقد ابتدأت الآيةُ بالواو العاطفة، وهي أداةٌ تربطُ بين الجُمَل، فتؤلِّفُ بينها، وتجمعُ معانيَها في عقدٍ بديعٍ منسجم، فجاءت هذه الواو واصلةً بين الآية الثّانية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبين سابقَتها، ليكتملَ بها نظامُ البيان، وتتَّضحَ بها أواصرُ المعاني، فتجتمع الآيتان في الخبريَّة، وإن اختلفَ مَضمونُهُما؛ إذِ الأولى جاءَت تَقُصُّ حالَ الكافرين وما آلَ إليه أمرُهُم من بُطلانِ السَّعي، والثّانيةُ تُعلنُ فضلَ اللّه على المؤمنين وإحسانَه إليهم، وفي هذا التَّرتيبِ الحكيم تقريرٌ جازمٌ للحقِّ، وإيضاحٌ بيِّنٌ لجزاءِ المؤمنين، يظهَرُ من خلاله التَّباينُ العظيمُ بين سبيلِ المُهتدينَ ومسلكِ الضّالّين، فشَتّانَ بين من بُشِّرَ بجزاءِ اللّه، ومَن خابَ سعيُه وضلَّ عملُه، وتلك حكمةُ اللّه في خَلقه، وهو أحكَمُ الحاكمين[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول (الذين):

بيانُ رفعةِ شأنِ المؤمنين، ومدحُهُم بما تضمَّنَته صلةُ الموصول، والتَّشويقُ إلى الجزاءِ المأمول

تعريفُ المسندِ إليه بالموصوليَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، جاء لبيان رفعةِ شأنِهم، ومدحِهم بما تضمَّنَته صلتُهُ من الإيمانِ والعملِ الصالحِ، مع تشويقِ السّامعِ إلى ما يترتَّبُ على هذا الإيمانِ من الجزاءِ الكريم، وهو قولهُ تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، فوُرودُ الموصولِ في هذا السّياقِ إشارةٌ إلى علَّةِ بناءِ الخبرِ، وتنبيهٌ على السَّببِ الذي استحقّوا به هذا الفضلَ العظيمَ[2].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، وفاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 225 - 226.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 74/ 26.

الدَّلالةُ على التَّمكُّن في الايمان والرُّسوخِ فيه

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

وصَفَهُم اللّه بالإيمان فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والإيمانُ هو التَّصديقُ القَلبيُّ، وصيغَ الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا ليُبيِّنَ أنَّ الإيمانَ فيهم راسخٌ مُتمكِّنٌ في قلوبهم؛ فإذا كان المؤمنُ بهذا الوصفِ فقد آمنَ قلبُه، واطمأنَّت سريرَتُه، فانقادَت له جميعُ جوارحه ليَظهَر على الجوارح العملُ بطاعة اللّه ﷻ، واجتنابُ نَواهيه.

في الحذف إفادَةٌ للتَّعميمَ، وإيجازٌ في البيان

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿ءَامَنُواْ﴾:

في حذفِ المفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بليغٌ؛ إذ التَّقديرُ: (آمَنوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به)، فجاء الحذفُ ليعُمَّ كلَّ ما تقتضيهِ العقيدةُ من أصولِ الإيمانِ وأركانه، فيكونُ المعنى بهذا الحذفِ أشملَ وأوسَعَ؛ وهذا من دقائقِ البلاغةِ في القرآنِ الكريم؛ إذِ اجتمعَ في هذا الموضعِ التَّعميمُ مع الاختصارِ، فكان أوجزَ لفظًا وأبلغَ معنًى[1].

الإيمانُ نورٌ لا يكتمِلُ سَناهُ إلّا بالعمل

دلالةُ عطفِ العملِ الصّالح على الإيمان في ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

لمّا كان الإيمانُ الحقيقيُّ لا يقتصرُ على التَّصديقِ القلبيِّ وحدَه، بل لا يتمُّ إلا ببرهانِ العملِ، عطفَ النَّظمُ الكريمُ العملَ الصّالحَ على الإيمانِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، إشارةً إلى تلازُمِهما، وأنَّ العملَ الصّالحَ فرعٌ عن الإيمانِ، وليُبيِّنَ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ نورٌ يستقرُّ في القلبِ، فتنعكسُ أنوارُه على الجوارحِ، فتخضعُ لأمرِ اللّه، وتنقادُ لشرعِه، فيتَّحدُ ظاهرُ العبدِ مع باطنِه، فأهلُ الإيمان الحقِّ أقاموا البُرهانَ على صدقِ إيمانِهم، لا بالأقوالِ المجرَّدةِ، ولا بالأمانيِّ الكاذبةِ، بل بالعملِ الصّالحِ الذي هو ثمرةُ التَّصديقِ، ودليلُ اليقينِ، فصدَّقت جوارِحُهُم ما انطوَت عليه جوانِحُهم فاستقاموا على

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 17/ 425، وأسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1254، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5194.

الأعمال الصّالحة التي تُرضي المَولى ﷻ فكانت سرائرُهم مُطمئنةً بالإيمانِ، وجوارحُهم عاملةً بطاعةِ الرَّحمنِ، فكملَ لهم بذلك الإيمانُ، وصدَقَ فيهم وعدُ اللّه بالجزاءِ الأوفى(1).

بلاغةُ الاحتراسِ بذكر الصّالحات:

الإيمانُ أساسٌ متينٌ، والعملُ الصّالحُ بنيانُهُ المَكين

لمّا كان الإيمانُ الصّادقُ لا ينفكُّ عن العملِ الصّالحِ، جاء العطفُ عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فكان في ظاهرِه كفايةٌ للدَّلالةِ على أنَّ الأعمالَ التي تصدرُ عن أهلِ الإيمانِ إنَّما هي صالحةٌ؛ لأنَّ الإيمانَ الصَّحيحَ لا يُثمرُ إلّا عمَلًا صالحًا، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ لم يقتصرْ على العطفِ بذِكْرِ العمَلِ مُجمَلًا، بل أفصحَ بذكرِ الصّالحاتِ تفصيلًا، فكان ذلك إطنابًا بديعًا واحتراسًا رفيعًا، وهو من أساليبِ البيانِ التي تزيدُ المعنى تقريرًا، فهُم قد شَغَلوا أوقاتَهم بالصّالحاتِ، وحرصوا على أدائها، فلا يلتفتون إلى غيرها، ولا ينصَرفون عنها، فجمَعوا بين صحَّةِ الاعتقادِ وحُسنِ السلوكِ، فاستحقّوا بذلك التَّكريمَ الإلهيَّ والجزاءَ الجزيلَ من ربِّ العالمين(2).

الغرضُ من التَّعبير بالمفعولِ به جَمعًا مُعرَّفًا ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العملُ الصّالحُ أيًّا كان نوعُه سبيلٌ لرضى الله تعالى، والقُرب منه

المُرادُ بالصّالحاتِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، هو جميعُ الأعمالِ الصّالحةِ على اختلافِ أجناسِها، وتفاوتِ مراتبِها، فلم يقصرِ الذِّكرُ الحكيمُ على نوعٍ دونَ آخر، بل جاءَ اللَّفظُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامًّا مُطلقًا ليشمَلَ كلَّ عمَلٍ محمودٍ، صغيرًا كانَ أم كبيرًا، ظاهرًا أم باطنًا، فرضًا أم نفلًا، ممّا يُرضي اللّه ويُقرِّبُ إليه، فيدخلُ فيها كلُّ معروفٍ، ويشملُ كلَّ إحسانٍ؛ من أداءِ الحقوقِ، وصلةِ الأرحامِ، وإغاثةِ الملهوفِ، وكفِّ الأذى، وبذلِ الخيرِ للنّاسِ، وغيرِ ذلك مِمّا تزكو به النُّفوسُ، وتسمو به الأرواحُ، فيكونُ العبدُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 283.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 306، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 65.

بذلك متحقّقًا بحقيقةِ الإيمانِ، جامعًا بين نورِ العقيدةِ وسَناءِ العملِ؛ فمَن اجتهدَ وسابقَ فلهُ الأجرُ الأوفى، ومن قنعَ بالقليلِ فلهُ نصيبٌ ممّا قدَّم، واللهُ واسعُ الفضلِ، جزيلُ العطاءِ[1].

دلالةُ عطفِ الإيمانِ بما نُزِّلَ على النَّبي ﷺ على الإيمانِ المطلق:

في الاعتناء بشأن القرآنِ الكريم، تنبيهٌ عَلَى شرَفِهِ وسُموِّ مكانته

عَطْفُ النَّظم الكريم الإيمانَ بالقرآنِ الكريم على الإيمانِ المُطلق في ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، مع اندارجهِ فيه، هو من قبيلِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ اعتناءً بشأنِ القرآنِ الكريم، وتَنْبيهًا عَلَى شَرَفه وعُلوِّ مَكانه وسُموِّ مَقامه بين ما يجبُ الإيمانُ به، فالنُّكتةُ البلاغيَّةُ في ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ التَّنويهُ على فضل الخاصِّ وميزَتِه، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلّا بالتَّصديقِ بالقرآنِ الكريم وجَعْله منهجًا للحياة[2].

سِرُّ التَّكرارِ في الفعل (آمنوا):

تكرارُ اللَّفظِ إثراءٌ للمعنى وتأكيدٌ للمَبنى

تكرارُ الفعلِ (آمَنوا) في النَّظم الكريم فيه إشارةٌ بديعةٌ إلى تنوُّعِ دلالةِ المعنى، فجاء الأولُ ليُبيِّنَ أصلَ الإيمانِ الذي يعمُّ كلَّ ما يجبُ التَّصديقُ به من أصولِ الدّينِ وأركانِ العقيدةِ، ثُمَّ جاء الثّاني ليُبرِزَ اختلافَ مراتبِ الإيمانِ، فلا يكتملُ ايمانُ مُؤمنٍ إلّا بالإيمانِ بالقرآنِ الكريمِ، وجعلِه منهاجًا يُحتكَمُ إليه، ويُتَّبعُ هديُهُ في شؤونِ الحياةِ كلِّها[3].

دلالةُ التَّعبير بـ الموصول (ما):

إفادةُ العموم والشُّمول في الوحي المُنزَّل على النَّبيِّ ﷺ، وإبرازُ جلالِهِ وكمالِهِ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة؛ لأنَّها وحيٌ إلهيٌّ يتلقّاه رسول اللّه ﷺ فصيغةِ الموصولِ (ما)، زادتِ المعنى إحاطةً وشمولًا؛ إذ يشملُ كلَّ ما نُزِّلَ على الرَّسولِ

---

(1) الجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 70، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 65.

(2) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 458، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 246.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والقاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 464.

الكريمِ من أحكامٍ وهداياتٍ وتعاليمَ، وفيها مع هذا تعظيمٌ لشأن الوحي المُنَزَل على النَّبي ﷺ وهذا يُبرزَ جلالَة الوحي وكمالَه[1].

الغرض من بناء الفعل ﴿نُزِّلَ﴾ للمفعول:

القرآن تنزيل حكيم من مُنزِّلٍ عظيم على نبيٍّ كريم

جاءَ الفعلُ ﴿نُزِّلَ﴾ مَبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه، تنويهًا بشأن القرآن المُنَزَّل، وتعظيمًا لشأن المُنَزل ﷺ، فلم يُذكرِ الفاعلُ وهو الله ﷻ؛ لأنَّه معلومٌ من سياقِ الكلام، فلا مُنزلَ للقرآن إلّا هو نزَّلَه هاديًا ونورًا، وخَصَّ به خيرَ خلقِه، وأكرمَ أنبيائِه، وهو النَّبيُّ المُصطفى ﷺ، فكانَ في حذفِ الفاعلِ إشعارٌ بجلالةِ المنزِّلِ والمنزَّلِ عليه، وتأديبٌ للعبادِ في تلقّيهِ بإجلالٍ وتعظيمٍ؛ إذِ الإيمانُ بالقرآنِ روحُ الاعتقادِ ومِدادُ الرَّشاد[2].

دلالةُ الفعل الماضي ﴿نُزِّلَ﴾:

صيغةُ الماضي تُدلِّلُ على تحقيقِ الوقوعِ، وتُفيدُ التَّقريرَ والثُّبوت

جاءَ الفعلُ بصيغةِ الماضي، تأكيدًا على التَّحقُّقِ والثُّبوتِ في الإنزال، وتنبيهًا على أنَّ هذا القرآنَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مدخلَ فيها للرَّيبِ والشَّكِّ؛ فهو تنزيلٌ كاملٌ مُحكمٌ، نزلَ بأمرِ الله، واستقرَّ بحكمتِه، ليكونَ للخلقِ نورًا لا ينطفئُ، وهدًى لا يزولُ، ورحمةً تمتدُّ إلى قيامِ السّاعةِ، فجاءت صيغتُه الماضيةُ شاهدًا على وقوعِه، وبيانًا لتمامِ أمرِه، فهو تنزيلٌ لا مِريةَ فيه، وحقٌّ لا تبديلَ له[3].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ وبلاغةُ الاستعارةِ في شِبْهِ الجُملة ﴿عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾:

حرفُ الاستعلاءِ شاهدٌ على رِفعةِ الوحي وسُموِّ معناهُ، وسُموِّ قَدْرِ المُنَزَّل عليه

جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، وهو حرفٌ يُفيدُ الاستعلاءَ، وقد جاءَ التَّعبيرُ به هُنا بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ شُبِّه الاستعلاءُ المعنويُّ بالاستعلاءِ الحِسّيِّ، ليُشعرَ بعُلوِّ مَكانةِ القرآنِ ورفعةِ شرفِه، فكأنَّه جاءَ من مَقامٍ رفيعٍ ومَحلٍّ عالٍ، فنزلَ على النبيِّ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 70.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 197، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 3.
(3) الزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 79.

ﷺ من مُقام العظمةِ والجلالِ، فكانَ ذلك تصويرًا لحقيقةِ التَّنزيلِ في أبهى حُلَلِ البيانِ، فجاءَ التَّعبيرُ بهذا الحرفِ مُحمَّلًا بالإجلالِ والتَّكريم، يرفعُ قدرَ المُنزَّلِ به كما يُعظِّمُ المُنزَّلَ عليه(1).

دلالةُ التَّعبير بالعَلَميَّة بِذِكْرِ الاسم الشَّريف ﴿مُحَمَّدٍ﴾:

ذكرُ المُصطفى باسمِهِ الشَّريفِ إعلاءٌ لقدره المُنيف

جاءَ ذكرُ النبيِّ ﷺ باسمِهِ ﴿مُحَمَّدٍ﴾، لاستحضارِه بعَينه في ذهنِ القارئِ أو السّامعِ تعظيمًا وتشريفًا له، حَيْثُ شَرَّفهُ اللّه ابتداءً بتنزيلِ الوحي عليه، ثم صَرَّحَ باسمه العَلَم ﴿مُحَمَّدٍ﴾ - الذي هو أخَصُّ أسمائهِ وأشهَرُها - لزيادة التَّخصيصِ والتَّكريم، وهو ممّا يُحرِّكُ بواعثَ الإيمانِ في القلوب(2).

بلاغةُ الكنايةِ في الجُملةِ الكريمة:

كنايةُ التَّنزيلِ دلالةٌ على ارتباطِ الرِّسالةِ بالرَّسول

جملة ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ وهو القرآنُ الكريمُ، وقد عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنه بطريقِ الكِناية - وهو أبلَغُ - ليشمَلَ الإيمانَ بالرَّسول ﷺ فكانَ التَّعبيرُ بهذه الصّيغةِ أبلغَ وأفخَمَ؛ إذ جَمعَ بين تشريفِ النَّبيِّ ﷺ وبين بيانِ ارتباطِ الكتابِ به ارتباطًا وثيقًا؛ فهو الذي جاءَ به، وهو الذي نطقَ بوحيه، فصارَ الإيمانُ به مُستلزمًا للإيمانِ بمبلِّغه، فلا يقبلُ اللّه أحدَهما دونَ الآخرِ، فجاءَ التعبيرُ بهذه الكنايةِ المُحكَمةِ ليُرَسِّخَ هذا المعنى في القلوب، ويُؤكِّدَ أنَّ هذا القرآنَ هو البرهانُ الأكبرُ على صدقِ نبوَّته، فكما لا يكونُ الكتابُ إلّا بوحيٍ، لا يكونُ الإيمانُ به إلّا بتصديقِ الموحَى إليه(3).

بلاغةُ التَّجريد بتخصيص ذِكْرِ الايمان بالكتاب المُنزَّل على الرَّسول المُبَجَّل:

في قَوْلِه تعالى ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تجريدٌ للاختصاص،

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 218، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 230.
(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 231.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 218، وفاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 231.

واعتناءٌ بأمر الإيمان بالقرآن العظيم، وقد جاءَ بعدَ العموم في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكانَ هذا التَّخصيصُ إيذانًا بأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلّا بالتَّصديقِ التّامِّ بهذا التنزيلِ المبارَك، الذي نزلَ على سيِّدِ المرسلينَ، وخاتمِ النبيّينَ، محمَّدٍ ﷺ. ولذلك أكدَّهُ بالجُملة الاعتراضيَّة، في قوله بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[1].

الإيذانُ بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلّا بالتَّصديقِ التّامِّ بهذا التَّنزيلِ المُبارك

بلاغة الجُملة الاعتراضيَّة:

ترسيخ أحقيَّة القرآن المُنزَّل في القُلوب

جملة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ جاءَت معترضةً بَيْنَ الكلام، لتُقرِّرَ حقيقةً راسخةً، وتُرسِّخَ في القلوبِ أحقِّيَّةَ هذا الكتابِ الكريم، فيكونَ الإيمانُ به واجبًا لا تردُّدَ فيه، والتَّصديقُ به لازمًا لا محيدَ عنه، فهو الحقُّ الثابتُ الذي لا يُبدَّلُ، والقولُ الفصلُ الذي لا يُرَدُّ ولا يُعطَّلُ، وهو النّاسخُ لِما سبقَ من الشَّرائعِ، المُهيمنُ على ما تقدَّمَ من الكتبِ، وفي وُرودِ هذه الجملةِ الاعتراضيَّةِ إيذانٌ بعظمةِ شأنِ المؤمنينَ الذين صدَّقوا بهذا النّورِ المبينِ؛ إذ كانَ إيمانُهم به إيمانًا ثابتًا، لا يَتزَعزَعُ ولا يزولُ؛ فكما أنَّ الحَقَّ لا تبطلُ حُجَّتُه، ولا تَضيعُ آثارُه، ولا تَزولُ بركتُه، فهو محفوظٌ بحفظِ اللهِ، قائمٌ على الدَّهرِ لا يُدركُه زوالٌ، فإذا كانَ هذا قدرُ القرآنِ، وهذه منزلتُه، فليس بعجيبٍ أن يُفرَدَ بالذِّكرِ، ويُخَصَّ بالحديثِ، فقد استقلَّ بخصائصِ الكمالِ، واستأثرَ بصفاتِ العظمةِ والجلالِ[2].

بلاغةُ القصر بتَّعريفِ الطَّرفين ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾:

هيمنةُ القرآنِ على ما سبَقهُ، وثبوتُ حقيَّته فلا يُدانيه كتابٌ ولا يُماثِلُهُ خطابٌ

سيقَتِ الجُملةُ الكريمةُ ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ لإثباتِ شهادةِ اللهِ ﷻ بأنَّ القُرآنَ المُنَزَّلَ على رسولِه مُحمَّدٍ ﷺ هو الحَقُّ الثّابتُ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْه ولا من خلفه، وتلك حقيقةٌ ثابتةٌ ومُقرَّرةٌ،

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 280، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 458.
(2) الطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 321، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة ﷺ: 6/ 232.

وقد جاءَ نظمُ هذه الجملةِ مُحكمًا في تقريرِ هذه الحقيقةِ الرّاسخةِ؛ إذ صيغَت بطريقِ الحصرِ بتعريفِ الجُزأين، فجاءَ هذا القصرُ قاطعًا لكلِّ شُبهةٍ، مُزيلًا لكلِّ ارتيابٍ، حيثُ أُثبِتَت الأحقّيَّةُ للقرآنِ، ونُفيَت عن غيرِه من الكتبِ التي اعتراها التَّحريفُ والتَّبديلُ، فصارَ هو الكتابَ الذي لا يَعتريهِ نَسْخٌ، ولا يُداخِلُه زَوالٌ، فثبَتَ أنَّهُ وحدَهُ الحقُّ الذي ينبغي الإيمانُ به، والاهتداءُ بنوره، فهو المهيمنُ الحاكمُ، ولا كتابَ بعدَهُ، ولا هُدى لِمَن أعرَضَ عنه، فكانَ هذا الحصرُ بأسلوبه القويِّ القويم شاهدًا على إفرادِ القرآنِ بالحقّيَّةِ؛ إذ انحصَرَ الحقُّ فيه، وتلاشَت عنه كلُّ مُزاحمةٍ؛ فلا يُقاسُ به كتابٌ، ولا يُشبهُهُ كلامٌ[1].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾:

ابـتـداءُ الـغـايـةِ شاهدٌ على سُموِّ العطيَّةِ ورفعةِ الهداية

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: الحقُّ النّازلُ من ربِّهم؛ فجاءت ﴿مِن﴾ لتُبيِّنَ ابتداءَ الغايةِ، فتُفصحَ عن مَصدرِ هذا الكتابِ المُباركِ، وتُشيرَ إلى أنَّ مُنْزِله ليسَ بشرًا ولا مخلوقًا، بل هو اللّه ﷻ الذي أنزَلَهُ بحِكمته، وأوحاهُ بعِلْمه، فكانَ تنزيلًا ربّانيًّا، وهُدًى سماويًّا، لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديه ولا من خلفِه؛ وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بعَظَمةِ المُنزِّلِ، وإظهارٌ لجلالِ المُنَزَّلِ[2].

الغرضُ من الإضافة في ﴿رَّبِّهِمْ﴾ وسرُّ إيثار عنوان الرَّبوبيَّة:

إفرادُ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ دلالةٌ عـلى الـعـنـايـةِ والإنعامِ

قوله تعالى ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: المُحسنُ إليهم بإرساله؛ ففي اختيارِ النَّظمِ الكريم لفظَ ﴿رَّبِّهِمْ﴾ بدلًا من ذكرِ الاسم الأعظَم (اللّه) دلالةٌ على التَّربية الرَّبّانيَّة، والهداية السَّماويَّة، التي أرادَها اللّه لعباده، فجعلَ هذا الكتابَ منهجًا يُصلِحُ أحوالَهم، ويرفعُ شأنَهم، ويُخرجُهم من ظُلماتِ الجهلِ إلى أنوارِ المعرفةِ واليقين[3].

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 119، والصِّمدي، الفرات النّمير، ص: 179، والمظهري، التّفسير المظهري: 8/ 420.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص: 341، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 414.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 198، والمهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 267.

وفي التَّعبيرِ بوصفِ (الرَّبِّ) زيادةٌ في التَّنويهِ بشأنِ المؤمنينَ؛ إذ لم يُذكَر في موضعِ الكافرينَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، فكأنَّ في ذلكَ تقريرًا بأنَّ اللّه سُبحانهُ هو ربُّ هؤلاءِ المؤمنينَ، ومالكُ أمرِهم، والمتصرِّفُ في شؤونِهم، يُدبِّرُ لهم أحوالَهم بأحسنِ التَّدبيرِ، ويُهيِّئُ لهم أسبابَ الفلاحِ في الدُّنيا والآخرةِ، فكما أنزلَ عليهم خيرَ كتابٍ، وبعثَ فيهم خيرَ رسولٍ، فقد شاءَ لهُم الهدايةَ، وأرادَ بهم الخيرَ، فلا عجبَ أن يُقبلوا عليه، ولا غَرابَةَ أن يُؤمنوا بآياته؛ إذْ كانَ هذا القرآنُ أعظمَ الهداياتِ، وأصدقَ الكلامِ، وأثبتَ الحقائقِ، فكانَ جديرًا بالإيمانِ، جديرًا بالاتِّباعِ، ومَن أعرضَ عنه فقد أعرَضَ عن النّورِ الذي لا ظُلمةَ فيه، وعن الهُدى الذي لا ضَلالَ بعدَهُ(1).

إيناسُ المؤمنين بعنوان الرُّبوبيَّةِ، والإشعارُ بعظيمِ العنايةِ والرِّعاية بهم

سِرُّ الإضافة الى ضميرِ المؤمنين في قوله: ﴿رَّبِّهِمْ﴾:

في إضافةِ لفظِ ﴿رَّبِّهِمْ﴾ إلى ضميرِ المؤمنين دلالةٌ عظيمةٌ على شرفِ المُضافِ إليهم، تكريمًا لهم، وتشريفًا لمقامِهم، وإظهارًا لعظيمِ منزلتِهم عندَ اللّه ﷻ، فإنَّ من تَحَقَّقَ بهُدى اللّه، وسارَ على منهجِه، رفعَهُ اللّه مكانًا عليًّا، وأعلَى قدرَهُ بَيْنَ الخلقِ، فصارَ في أعيُنِ النّاسِ عزيزًا، وفي قلوبِهم مُهابًا؛ لأنَّهُ عبدٌ لربِّه، مُخلصٌ لدينه، متَّبعٌ لصراطه المستقيم(2).

الـدَّلالـةُ على شـرفِ المُضـافِ إليهم، تكريمًا لهم، وتشريفًا لمقامِهم

بلاغة التَّقديم والتَّأخير في الاية الكريمة:

في تقديمِ المُسنَدِ إليهِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الخبرِ في قوله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ تنبيهٌ بديعٌ وإشارةٌ لطيفةٌ إلى علوِّ مقامِ أهلِ الإيمانِ، واستحقاقِهم لهذا الجزاءِ العظيمِ؛ إذْ قدَّموا بَيْنَ يدي رحمةِ اللّه صِدقَ الإيمانِ، وأخلصوا في العملِ الصّالحِ، فآمنوا بما أنزلَ اللّه على رسله، وصدَّقوا بمُحمَّدٍ

تقديمُ ذكرِ أهلِ الإيمانِ شاهدٌ على رفعةِ الشَّأنِ واستحقاقِ الغفرانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 75/ 26.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 307.

ﷺ خاتمِ النبيينَ، فأدَّوا حقَّ اللّه تعالى عليهم، وأقاموا فرائضَ الدّينِ، وعملوا صالحَ الأعمالِ، فاستحقّوا بذلكَ أن يُكفِّرَ اللّه تعالى عنهمُ سيِّئاتِهم، فتكونَ لهم النَّجاةُ من عذابِ الدُّنيا والآخرةِ، ولم يكنْ جزاؤُهم قاصرًا على تكفيرِ الزَّلّاتِ، بل أسبغَ اللّه عليهم نعمةَ الإصلاحِ في شؤونِ دينِهم ودنياهم، فطهَّرَ قلوبَهم، وزكَّى أعمالهم، ونمَّى لهمُ الثَّوابَ، وأصلحَ جميعَ أحوالِهم، فاستقامت لهم طريقُ الهدايةِ، وتهيَّأت لهم أسبابُ السَّعادةِ، فكانَ ذلكَ جزاءً وفاقًا، وثوابًا كريمًا، أعدَّهُ اللّه لعباده الصّادقينَ، الذين استجابوا لدعوته، وسلكوا صراطَ الحقِّ القويمِ، فحُقَّ لهم الفوزُ العظيمُ، ورضوانُ اللّه المقيمُ[1].

الغرضُ من التَّعبير بالخبر جملةً فعليَّةً ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾:

الزِّيادةُ في التَّشويقِ والتَّعظيمِ للبشارةِ

في التَّعبيرِ عن الخبرِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ بجملةٍ فعليَّةٍ دلالةٌ بليغةٌ؛ إذ جاءَ هذا الإخبارُ بعدَ التَّشويق، فلم يُذكر الجزاءُ ابتداءً، بل تأخَّرَ ليكونَ انتظارُهُ باعثًا على توقُّدِ الشَّوْقِ في القلوبِ، وترسيخِ المعنى في النُّفوسِ، حَتَّى إذا جاءَ ذِكْرُهُ، وقعَ موقعَ السُّرورِ والبشارةِ، فازدادَ وقعُهُ جلالًا في السَّمعِ، وتأثيرًا في القلب[2].

سِرُّ التَّعبير بالتَّكفير للسَّيِّئات دون مَحوِها:

التَّكفيرُ سترٌ للذُّنوب مع مزيد إحسانٍ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿كَفَّرَ﴾ دونَ (مَحا)، لِما في ذلكَ من التَّلاؤمِ البديعِ، والتَّعبيرِ الدَّقيقِ عن عظيمِ فضلِ اللّه على عبادهِ المؤمنينَ، فقد بَيَّنَ أنَّ الإيمانَ هو السَّببُ في سترِ السَّيئاتِ، فكأنَّه ألقى عليها غطاءً يُخفيها، فلا تظهرُ بعدَهُ أبدًا، بل حَلَّ محلَّها ما هو أكرمُ وأفضل، وفي هذا التَّعبيرِ بشارةٌ ما كانت لتتحقَّقَ لو قيلَ (مَحا سيِّئاتهم)؛ إذ إنَّ المحوَ يقتضي زوالَ الشَّيءِ حسبُ، دونَ أن يُثبتَ

(1) حنان عودة، سُورة محمّد ﷺ، دراسة أسلوبيّة بلاغيّة، ص: 192.

(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 233.

مكانَهُ شيئًا آخرَ، أمّا التَّكفيرُ، فهو سترٌ يُغطّي السَّيِّئاتِ بما هو أبهَى وأزكَى، كما يُغطَّى الثَّوبُ البالي بثوبٍ نفيسٍ نظيف، فكانَ في هذا التَّعبيرِ القرآنيِّ إكرامٌ مضاعفٌ؛ إذ لم يُمحَ أثرُ الذَّنبِ حسبُ، بل غُطّي بما هو خيرٌ وأفضلُ، فصارَ التَّكفيرُ عطاءً، وزالَ أثرُ الخطيئةِ بمزيَّةِ الإحسانِ، وما أكرَمَ اللّه على عباده المؤمنينَ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالتَّكفير:

الـذَّنـبُ شيءٌ ظـاهـرٌ مـشـوَّهُ الصّورةِ، يُغطَّى بستارٍ من العفوِ والـغـفـرانِ، فلا يـعـودُ لـه وجـودٌ ولا أثر

في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿كَفَّرَ﴾ صورةٌ بيانيَّةٌ تُحرِّكُ الذِّهنَ، ومجازٌ[2] يبعثُ في المعنى روحًا، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ بديعةٌ، حيثُ شُبِّهتِ السّيئاتُ - وهي أمرٌ معنويٌّ - بشيءٍ حِسّيٍّ يُسترُ ويُغطّى، فلم يُذكرِ المُشبَّهُ بِهِ صراحةً، بل حُذِفَ ورُمِزَ إليهِ بلازمٍ من لوازمِه، وهو فعلُ ﴿كَفَّرَ﴾، الذي يُفيدُ السَّترَ والتَّغطيةَ، فكأنَّ الذُّنوبَ شيءٌ ظاهرٌ مشوَّهُ الصّورةِ، يُغطَّى بستارٍ من العفوِ والغفرانِ، فلا يعودُ له وجودٌ ولا أثرٌ، وهذه الصّورةُ البيانيةُ لا تقتصرُ على الإيضاحِ حسبُ، بل تُضفي على الكلامِ رونقًا وبهاءً، فتكسوهُ حسَّ الجمالِ والتَّخييلِ، فيتلقّاهُ القلبُ بقبولٍ وإقبالٍ، ويتأثَّرُ بهِ تأثُّرًا أعظمَ، لأنَّهُ لا يُصوِّرُ المعنى تصويرًا مُجرَّدًا، بل يجعلهُ مَحسوسًا مُدرَكًا، وكأنَّ العبدَ يُبصِرُ سيِّئاته وهي تُطمَسُ وتُسترُ بِستارِ المغفرةِ، فيبعثُ ذلكَ في نفسهِ رجاءً ورحمةً، ويملأُ قلبَهُ تعظيمًا لكرمِ اللّه وإحسانه، حيثُ لم يقتصرْ على إزالةِ الذَّنبِ، بل أبدله بغطاءِ الرِّضا والرَّحمةِ، فحُقَّ لهذا التَّعبيرِ أن يكونَ آيةً في الحُسنِ والبيانِ، وغايةً في الإعجازِ والإتقانِ.

بلاغةُ حذفِ المُسندِ إليه:

حُذِفَ المسندُ إليهِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ إذِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 35.

(2) يرى بعض المفسرين أن التّعبير بتكفير السّيئات هو مجاز مُرسل في المحو والإزالة، وهو قول له وجه، يُنظر: الطّنطاوي، التّفسير الوسيط 13/ 218.

في الحذف إيجازٌ في اللّفظِ، وإعجازٌ في المعنى

التَّقديرُ (كفَّر اللّه عنهُم سيِّئاتِهم) وجاءَ هذا الحذفُ للإيجازِ، مع بقاءِ المعنى بيِّنًا ظاهِرًا، لا يلتبسُ ولا يَشتبهُ، فإنَّ تكفيرَ السَّيِّئاتِ لا يكونُ إلّا من اللّه ﷻ، فهو وحدَهُ المالكُ للمغفرةِ، والمتفرِّدُ بسترِ الذُّنوبِ، والعفوِ عن العبادِ، فجاءَ الحذفُ شاهدًا على تعيُّنِ الفاعلِ؛ لأنَّهُ معلومٌ بحكمِ العقلِ والشَّرعِ[1].

الغرضُ من تقديم شبهِ الجملةِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾:

تعظيمُ شأنِ المؤمنينَ وتشريفُهم؛ إيذانًا بأنَّهم أهلٌ لهذه الرَّحمةِ العظيمة

في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على مُتعلَّقهِ في قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لطيفةٌ بلاغيَّةٌ رفيعةٌ، فيها من الاختصاصِ والتَّشريفِ ما فيها؛ ففي هذا التَّقديمِ إشارةٌ بيِّنةٌ إلى أنَّ هذا الجزاءَ العظيمَ قد خُصَّ به هؤلاءِ المؤمنونَ وحدَهُم؛ فلا يُشارِكُهم فيه غيرُهم، فكما انفردوا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، فقد انفردوا بالتَّكفيرِ والإصلاحِ، فكانَ الجزاءُ وِفاقًا للعملِ، مكافئًا له في جزيلِ العطاءِ وعظيمِ الإحسانِ، وتضمَّنَ هذا التَّقديمُ أيضًا تعظيمًا لشأنِ المؤمنينَ، ورِفعةً لمقامِهم؛ إذ جُعِلَ ذِكرُهم متقدِّمًا في موضعِ التَّشريفِ، فجاءَ تقديمُهم مزيدَ عنايةٍ بهم، وتأكيدًا على علوِّ مكانتِهم عندَ اللّه، وإيذانًا بأنَّهم أهلٌ لهذه الرَّحمةِ العظيمةِ، التي نالتهُم من فضلِ اللّه وإحسانه؛ فما أكرَمَها من بشارةٍ، وما أعظمَهُ من تشريفٍ[2].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمفعولِ بِهِ جَمعًا مضافًا ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾:

الإفصاحُ عن عظيمِ كرمِ اللّه عليهم ليكونَ أدعَى لاستشعارِ النِّعمةِ

جاءَ هذا الجمعُ مضافًا إليهم في ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، وقد أُسنِدَتِ السَّيِّئاتُ إليهم لا لزيادةِ التَّشنيعِ، بل ليُفصحَ عن عظيمِ كرمِ اللّه؛ إذ يُكفِّرُ عنهُم ما هو منهُم، ويسترُ عليهم ما صدرَ من أنفسِهم وإن كَثُرَ، فيكونُ ذلكَ أدعَى لاستشعارِ النِّعمةِ، وأعظمَ في استجلابِ الخشوعِ والانكسارِ بينَ يدي الغفورِ الرَّحيمِ.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 306، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 457.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 234 - 235.

الفَرْقُ بَيْنَ مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ وتَكْفيرِ السَّيِّئاتِ:

جزاءُ الخَوفِ من اللهِ وخَشيَتِه السَّترُ ومَحْوُ السَّيِّئات

لفظُ المغفرة يتضمَّن الوقايةَ والحِفْظَ، ولفظُ التَّكفير يتضمَّنُ السَّترَ والإزالةَ، وعندَ اقترانِ الذُّنوب والسَّيِّئات ينصرفُ معنى الذُّنوب الى الكبائر، ومعنى السَّيِّئاتِ الى الصَّغائر، وعليه تكونُ المغفرةُ للذُّنوب والتَّكفيرُ للسَّيِّئات[1] قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آلُ عِمرانَ: 193] فالمغفرةُ أكمَلُ من لفظِ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفيرُ مع الصَّغائر، وعندَ الانفرادِ يدخلُ كُلٌّ منهُما في معنى صاحبه قال تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَرُ: 53]. وفي التَّعبير بلفظ ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ إيماءٌ بعدَمِ ارتِكابهِمُ الكبائرَ، ومِن ثمَّ فإنَّ صغائرَ ما ارتكبوهُ يستحقُّ أن يُسترَ جزاءً، وتكريمًا.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾:

إتباعُ المغفرة بالإصلاحِ، كمالٌ للنِّعمةِ وتمامِ الفلاحِ

في عَطْفِ قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ على قوله: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ سرٌّ من أسرارِ البيانِ الإلهيِّ؛ إذ جاءَ ليجمعَ بينَ نعمَتين عظيمَتينِ، فكما أنَّ تكفيرَ السَّيئاتِ تطهيرٌ لما كانَ من الماضي، فإنَّ إصلاحَ البالِ تأمينٌ لما هو آتٍ من المُستقبلِ، فلا يُنعم الحقُّ سُبحانهُ بمَحوِ الأوزارِ فقط، بل أتبَعَ ذلكَ بإصلاحِ القلوبِ، وتيسيرِ الأحوالِ، وإقرارِ الطُّمأنينةِ في النُّفوسِ، فتتحقَّقُ بذلكَ سعادةُ الأبدِ للعبدِ في دُنياهُ وأُخراهُ[2].

دلالةُ اختيار لفظِ البال، وكونُه مُضافًا في ﴿بَالَهُمۡ﴾:

إصلاحُ البالِ، مفتاحُ السَّعادةِ وعنوانُ الكمالِ

البالُ في لسانِ العَرَبِ الحالُ التي يُكترَثُ بها، ويُعبَّرُ بِه عن الشَّأنِ الذي ينطوي عليهِ الإنسانُ، فحينَ يقالُ: (خطرَ ببالي)، فهو إشارةٌ

(1) ابنُ القيم، مدارِجُ السّالِكِين: 1/ 317.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 235.

إلى ما جالَ في الفِكْرِ ودارَ في النَّفسِ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ جاءَ هذا اللَّفظُ جامعًا لعدَّة معانٍ؛ من إصلاحٍ للنّيّات، وعِصْمَةٍ عن المعاصي في حياتهم، وأرشدَهُم إلى أعمالِ الخير[1]؛ فكانَ وعْدًا إلهيًّا بإصلاحِ أحوالِ المُؤمنينَ في شؤونِهم كلِّها؛ ظاهرِها وباطنِها، دقيقِها وجليلِها، فكما صَلُحَت سرائرُهم بالإيمانِ، صَلُحَت أمورُهم بالسَّكينةِ والاطمئنانِ، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ نعمةٌ جليلةٌ لا يُدرِكُ قدرَها إلّا مَن أكرَمَهُ اللّه بها، فهي كنزُ السَّعادةِ الحقيقيَّة، فإنَّ خزائنَ الأرض لا تنفعُ صاحبَها إذا كان مُشتَّتَ القلب، مُمزَّقَ النَّفس، مُضطربَ المَشاعر والأحوال؛ فكَم من ذي مالٍ وفيرٍ، وخزائنَ عامرةٍ، لكنَّهُ مُضطربُ الخاطرِ، مُشتَّتُ القلبِ، قد أرهَقتهُ هُمومُ الدُّنيا، وأثقلتهُ كروبُ الحياةِ، فما أغْنتهُ ثروتُهُ، ولا نفعَتهُ أملاكُهُ؛ لأنَّهُ حُرِمَ من راحةِ البالِ، وطُمأنينةِ النَّفسِ، ورِضا القلبِ[2].

بلاغةُ القَصرِ في الجُملةِ الكريمة:

الإيجازُ البديعُ في جَمعِ النِّعَمِ والإحاطَةِ بالبشائر

تُعدُّ جُملة ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ من إيجازِ القصرِ الذي جَمَعَ المعانيَ الكثيرةَ في الألفاظِ اليسيرةِ، فجاءَت هذه الكلماتُ القليلةُ بدلالاتٍ عظيمةٍ، تشتملُ على صورٍ شتَّى من النِّعمِ الإلهيَّةِ التي تأخذُ بيَدِ العبادِ إلى طريقِ الطُّمأنينةِ والرَّشادِ، وتُبرزُ لهم حقيقةَ رحمةِ اللّه بخلقه، وعظيمَ عنايته بعباده، المؤمنين؛ فلم تقتصر عنايتهُ على غُفرانِ ذُنوبِهم، بل أتبَعَ ذلكَ بإصلاحِ أحوالِهم، واستقامةِ قُلوبِهم، وتيسيرِ سُبُلِهم، وإزاحةِ هُمومِهم، حتَّى يكونَ العبدُ في كنفِ الطُّمأنينةِ، مُنعَّمًا بالسَّكينةِ، مُمتلئًا بالرِّضا، قد أكرمَهُ اللّه في دُنياهُ وأُخراهُ، فتجلَّى بذلكَ فضلُ اللّه العظيمُ، ورحمتُهُ التي وسعَت كُلَّ شيءٍ[3].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 48.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 308، والقاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 464، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 219.

(3) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 238.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالبال عن الحال:

في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ بديعةٌ، تجلَّى فيها البيانُ بأبهَى صوَره؛ إذ صوَّرَ البالُ - وهو أمرٌ معنويٌّ - بصورةِ إنسانٍ يُدرَكُ صلاحُهُ وتُشاهَدُ استقامَتُه، فذُكرَ المشبَّهُ وهو البالُ، وحُذِفَ المشبَّهُ بهِ، وهو الإنسانُ، وأومِئَ إليهِ بلازمٍ من لوازمه، وهو الإصلاحُ والهدايةُ، فكأنَّ البالَ كائنٌ يحيا، فإذا أُصلِحَ اسْتَنارَت بصيرتُهُ، واستقامت طريقُهُ، وتوجَّهَ إلى الحقِّ لا يَحيدُ عنه، والمعنى في هذا المقام أسمَى وأعظمُ؛ إذ ليسَ الإصلاحُ قاصرًا على جانبٍ دونَ آخرَ، بل هو إصلاحٌ شاملٌ لدينِ المؤمنينَ ودُنياهم، لقلوبهم وأعمالهم، لثوابهم؛ بتنميته وتزكيته، ولسائرِ أحوالهم.

صفاءُ البالِ، هِبةُ الرَّحمانِ لأهلِ الإيمانِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصُّنع والفِعل والعمَل:

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إِحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِه[1]؛ فَهوَ مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهة مُؤَثِّرٍ[2] سواء كان عن سببٍ أو لا، ويُقالُ لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[3]، وأمّا العمَلُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثر في الشَّيءِ مع امتداد زمانٍ، ولا يُقالُ إلّا لِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعِلْمٍ، وفي قوله تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عبَّر بالعمل؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا بِقَصْدٍ وامتدادِ زمان، فالمؤمنُ الحقُّ قاصدٌ العملَ الصّالحَ دائبٌ عليه.

الصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ وأرْسَخُها، والفعلُ أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها

وأمّا الصُّنْعُ فَهوَ: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْمِ المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).
(2) الرّاغب الأصفهاني، المُفردات: (فعل).
(3) زين الدِّين المناويُّ، التّوقيف على مُهِمّاتِ التّعاريف، ص: 262.

صِناعَة[1]، ويَدُلُّ على رسوخِ العَمَلِ وإجادَته، فَيُقالُ للنَّجار صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَله، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُرادِ من ذلك؛ فالصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعلُ أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[2].

(1) الشّريف الجرجانيُّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويُّ، كشّافُ اصطلاحات الفنون: 2/ 1097.
(2) أبو هلال العسكريُّ، الفُروق اللُّغويّة، ص: 134.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾

[محمّد ﷺ: 3]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعليلُ الجزاءِ للفريقين، وإظهارُ الحكمةِ في المُفاضلةِ بيْنَهما

لَمّا كان الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ علَّل ما تَقدَّم مِن فِعْلِه بالفريقَينِ[1]؛ ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ تعليلٌ بديعٌ لِما سَلَفَ من بيانِ حالِ الفريقينِ؛ إذْ لمّا بيَّنَ اللّه ﷻ مصيرَ الكافرينَ الذين بطلت أعمالُهم، ومآلَ المؤمنينَ الذين حظوا بتكفيرِ السّيئاتِ وإصلاحِ البالِ، أعقبَ ذلكَ بذكرِ علَّةِ هذا التَّفاوتِ وأصلِ تلك المُفاضلةِ بينَ الفريقينِ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾: (بطل) تدُلُّ اشتقاقاتُهُ على ذهاب الشَّيءِ وقلَّة لُبْثه[2]، ومنه قولُهم: بَطَلَ الشَّيءُ يَبطُلُ؛ إذا تَلِفَ[3]، وسمّي السَّحرةُ بَطَلَةً[4] كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ عن سورة البقرة: «وَلا تَسْتَطيعُها البَطَلَةُ»[5]؛ لضياعِ سَعيهم وذهابه؛ لاشتغالهم بالباطلِ، والباطلُ: ضدُّ الحقِّ[6]، وهو الشَّيءُ الزّائلُ؛ أي: ما لا ثباتَ له عِندَ الفحص

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 199.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بطل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (بطل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بطل).
(5) الحديث رواه مُسلم من حديث: أبي أُمامة الباهليِّ ﷺ، ينظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المُسافرين وقصرِها، بابُ فضلِ قراءة القُرآن، وسُورة البقرة: برقم: (804).
(6) الجوهريّ، الصِّحاح: (بطل).

عنه؛ إذ هو ضدُّ الحقِّ، والحقُّ: هو الثّابتُ[1]. والباطل: الفاسد، والمُرادُ به هُنا: اتَّبَعوا الشَّيْطانَ فَأطاعوهُ فيما يَدعوهُم إليه[2].

2) ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مِنَ الجذْرِ (حقق)، وهو أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إحْكام الشَّيْءِ وصِحَّته، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ[3]، وهو تَمَكُّنُ الشَّيء في عُمقِ مَقَرّه، أو وسَطه، كَما يَتَمَكَّنُ رَأْسُ الوَرِك في حُقّه[4]، ومن ذَلِكَ: الحَقُّ: نَقيضُ الباطِلِ، والشَّيءُ الثّابِتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أو عُرْفٍ عامٍّ مُسَلّم، وحَقَّ الشَّيْءُ: ثَبَتَ، ووَجَبَ[5]؛ والمرادُ به هنا: النَّبيُّ ﷺ، و ما جاءَهُم به مِنْ عِنْدِ رَبّه مِنَ النّورِ و البرهان[6].

3) ﴿يَضْرِبُ﴾: أصلُ الضَّربِ إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ وإصابَتُهُ به، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعصا، يَضرِبُهُ، ضَربًا؛ أي: أوقَعَها عليه[7]. والضَّربُ الصِّنفُ والنَّوعُ منَ الأشياء؛ يُقالُ: هذا من ضَربِ ذاك؛ أي: مِن نَحوِه، وجَمعُه ضُروبٌ[8]، وضَربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وتَمثيلُه به، يُقالُ: ضَرَبَ اللّه مثلًا؛ أي: وصَفَ وبَيَّنَ، قيلَ مأخوذٌ: من ضَربِ الدِّرهَم؛ أي: صَوغه لإيقاعِ المَطارِقِ؛ سُمّي به لتَأثيره في النُّفوسِ. وقيلَ: إنَّه مأخوذٌ منَ الضَّريبِ؛ أي: المَثيلِ. تَقولُ: هو ضَريبُه، وهُما من ضَريبٍ واحِدٍ؛ لأنَّه يَجعَلُ الأوَّلَ مِثلَ الثّاني[9]. والمُرادُ بقوله ﴿يَضْرِبُ﴾ في الآية: يُبَيِّنُ ويُمَثِّلُ[10].

4) ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾: أصلُ (مثل) يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهذا مِثْلُ هذا؛ أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ[11]، ومَثَّلَ له كَذا تَمثيلًا إذا صَوَّرَ له مِثاله بالكِتابَةِ أو غَيرِها، والتِّمثالُ: الصّورَةُ، والجَمعُ: تماثيلُ، ومَثَلَ بَيْنَ يَدَيْه: انْتَصَبَ قائمًا[12]، والمَثَلُ:

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بطل).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 182، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 182.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(10) الثّعلبي، الكشف والبيان: 29/ 6، وإسماعيل حقّي، تفسير روح البيان: 8/ 497، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 77.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(12) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مثل).

عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة؛ ليُبيِّنَ أحدُهما الآخر ويُصوِّرَه، والمعنى هنا: يُشبِّهُ لهم الأشباه، فيُلحقُ بكلِّ قومٍ من الأمثالِ أشكالًا(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيينُ الجزاءِ بإقامةِ الحُجَّةِ، وإظهارُ الحقِّ بتوضيحِ المحجَّةِ

يُبيِّنُ الله ﷻ سببَ جزاءِ الفريقَينِ بما جازاهُم به، فيقولُ: ذلكَ الإحباطُ لأعمالِ الكافرينَ كانَ جزاءً لهم بسببِ اتِّباعِهم للباطلِ، وتقديمِهم إيّاهُ على الحقِّ، وذلكَ التَّكفيرُ لسيِّئاتِ المؤمنينَ، وإصلاحُ بالِهم، كانَ فضلًا من اللهِ عليهم، جزاءً لاتِّباعِهم الحقَّ الذي أتاهُم من عندِ ربِّهم، وكما بيَّنَ اللهُ تعالى مآلَ المؤمنينَ والكافرينَ، وفصَّلَ الفرقَ بينَ الصِّنفينِ، كذلكَ يُمثِّلُ اللهُ للنّاسِ أحوالهم، ويُجلّي لهُم طرائقَهم، حتَّى لا يخفى عليهم نهجُ الصَّلاحِ من سبيلِ الفسادِ، ولا يلتبسُ عليهم طريقُ الحقِّ بطريقِ الضَّلالِ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجه التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد:

تجليةُ السَّببِ الأصيلِ في إضلالِ الكافرينَ، وتكفيرِ سيِّئاتِ المؤمنينَ، تعظيمًا للجزاءِ والعاقبة

الإشارةَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ لِتَمييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمييزٍ؛ قد جاءت لتُجلّي السببَ الأصيلَ في إضلالِ الكافرينَ، وتكفيرِ سيِّئاتِ المؤمنينَ، وإصلاحِ بالهم، فجاءَ اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدًا على ما بيَّنَ في أحوالِ المؤمنين، والكافرين، مُشيرًا إلى الأمرِ العظيم الذي تضمَّنَ جزاءَ الفريقَينِ، فهو أمرٌ بالغُ الأهميَّةِ، جليلُ الشَّأنِ، كما يُؤذِنُ اسمُ الاشارةِ بعِظَمِ العاقبةِ التي آلَ إليها كلا الفريقينِ(3).

---

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 465، والمراغي، تفسير المراغي: 46/ 26.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 182، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 225، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 306، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 247.

(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي علي الجلالين: 29/ 4، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/ 18.

تجسيدُ المعاني في صورة البعيد الذي لا يُدركهُ إلّا أهلُ البصيرةِ بالتّوحيد

ويُشير التَّعبير باسم الإشارة إلى سِرٍّ بلاغيٍّ آخر، وهو تجسيدُ المعنويّات، وهي أعمالُ الذين كفروا، وأعمالُ الذين آمنوا في صورةٍ محسوسةٍ شاهدة، ولكنَّها بعيدةٌ لا يُدركها إلّا أهلُ الاعتبار؛ لأنَّه لا يأخذُ العِظَة والاعتبارَ منها إلّا النُّفوسُ المؤمنةُ التي أصلحَها اللّه ﷻ، وجعلَ صَلاحَها ظاهرًا وباطنًا، فكانت قويَّةً مُهيَّأةً للوَعيِ والإدراك[1].

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في مطلع الآية الكريمة:

بيانُ المصير والفصلِ بَيْنَ الفريقينِ

في مطلع الآيةِ الكريمةِ جمعٌ بعد تفريق؛ إذ فرَّقَ النَّظمُ الكريمُ بينَ جزاءِ الكافرينَ وجزاءِ المؤمنينَ في الآيةِ السّابقةِ، ثم عادَ فجمعَهُما في هذه الآية فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وجاء لفظُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى الآيتين السّابقتين، فكان اللَّفُّ ثُمَّ جاء النَّشرُ مُرتَّبًا بقوله: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ فجعل لكلّ فريق منهما ما يُناسبه من بيان سبب الجزاء السّابق؛ إذ أظهرَ سببَ الهلاكِ للكافرينَ، وسببَ الفوزِ للمؤمنينَ، واللَّفُّ والنَّشرُ من المُحسِّناتِ البديعيَّة التي تعملُ على تهيئةِ النُّفوس، وإثارةِ الانتباهِ، وإعمالِ الفِكْرِ[2].

معنى الباء في ﴿بِأَنَّ﴾:

بيانُ سببيَّةِ الجزاءِ، بين المنعِ والعطاءِ

في قولهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أفادَت الباءُ السَّببيَّةَ، وجاءَت لتدلَّ على عظيم ارتباطِ ما حاقَ بالكافرينَ وما أوتيَ المؤمنونَ بسببِ ما قدَّمَ كلٌّ منهما؛ فبسبَبِ اتِّباعِ الكافرينَ للباطلِ، ذاقوا وبالَ أفعالِهم، وأُحبطَت أعمالُهُم، وأضَلَّهُمُ اللّه عن سَبيلِه، وأمّا المؤمنونَ، فبسَبَبِ اتِّباعِهم الحقَّ الذي جاءَهم من ربِّهم، وتلقّيهم إيّاهُ بالقبول والتَّسليم، نالوا مغفرةَ اللّه، وصلاحَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 76/ 26، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 239.

(2) الشّهاب، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 8/ 488، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 195.

أحوالِهم، فكانَ الجزاءُ مِن جنسِ العملِ، وكانَ العطاءُ الإلهيُّ على قدرِ الطّاعةِ والاتِّباعِ، فجاءَت الباءُ مقترنةً بـ(أنَّ) مؤكِّدةً لصلةِ هذه الآيةِ بما سبقَها، مشيرةً إلى وثيقِ ارتباطِها بما تقدَّمَ من بيانِ حالِ الفريقينِ، وفيها تفصيلٌ وتوضيحٌ لما مضى، وبيانٌ لحِكْمةِ اللّه في الفصلِ بينَ العبادِ؛ إذْ لم يكُنْ جزاءُ الكافرينَ إلّا بسببِ إعراضِهم، ولم يكُنَ تكفيرُ سيِّئاتِ المؤمنينَ إلّا بسببِ صِدقِ إيمانِهم، فحُقَّ لكلِّ فريقٍ أن يَنالَ ما استَوجَبَهُ بعمَلهِ[1].

بديعُ الجمعِ والتَّفريق:

إحكامُ التَّقابلِ بين المعاني، وتبيانُ السَّببيَّةِ في ميزانِ الحقِّ والبُطلانِ

يجوزُ أنْ يُحمَلَ الباطلُ على ما يُقابِلُ الحقَّ - وهو الزّائلُ الذّاهبُ الذي لا أصْلَ له أصلًا -؛ فالتَّصريحُ بسَببيَّةِ اتِّباعِهِ لإضلالِ أعْمالِهم وإبطالِها؛ لِبَيانِ أنَّ إبطالَها لِبُطلانِ مَبْناها وزَوالِه، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالباطلِ نفْسُ الكُفْرِ والصَّدِّ، وبالحقِّ نفْسُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ؛ فيكون التَّنصيصُ على سَببيَّتِهما لِما ذُكِرَ مِن الإضلالِ ومن التَّكفيرِ والإصْلاحِ تَصْريحًا بالسَّببيَّةِ المُشعَرِ بها في المَوقعينِ، وفي هذا مُحسِّنُ الجمعِ بعْدَ التَّفريقِ، ويُسمّونَه التَّفسير؛ لأنَّ في الجمعِ تَفسيرًا لِلْمعنى الذي تَشترِكُ فيه الأشياءُ المُتفرِّقةُ؛ تقدَّمَ أو تَأخَّرَ[2].

بلاغةُ توكيدِ الخبرِ بـ(أنَّ) واسميَّة الجُملة:

تحقيقُ البيان المُقَرَّر في الخبر بعد الإبهامِ

جاءَت الجُملة ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُؤكَّدةٌ بأنَّ واسميَّة الجُملة لتحقيق البيان المُقَرَّر في الخبر بعد الإبهام؛ إذْ وردَ في ابتداءِ الآيةِ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، فتتطلَّعُ النُّفوسُ إلى كشفِ المُرادِ منهُ، فيأتي بعدهُ البيانُ المفصَّلُ في قوله ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيُجلّي المعنى، ويُزيلُ اللَّبسَ، ويُحكِمُ التقريرَ، فلا يبقى في الأمرِ خفاءٌ، ولا في

---

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 8/ 497، والشِّهاب، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 8/ 488، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 76/ 26.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 119، والطِّيبي، حاشية الطِّيبي على الكشّاف: 14/ 323، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 92.

المقصودِ التباسٌ، فيرسخُ في العقولِ، ويتمكَّنُ في القلوبِ، وتتجلَّى منهُ حكمةُ اللهِ في الجزاءِ، وتمامُ عدلِهِ في القضاءِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالاتِّباعِ لدَى الفريقَين:

تصويرُ ارتباطِ الفَريقَيْنِ بالحقِّ والباطلِ، تجسيدًا للتَّبائنِ بينَهما

كان للتَّعبيرِ البيانيِّ عن طريقِ الاستعارة أثرُه في الآية؛ إذ شُبِّهَت أعمالُ الذين كفروا باتِّباعِ الباطلِ، ثُمَّ استُعيرَ اتِّباعُ الباطلِ لأعمالِ الذين كفروا على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيةِ، وكانَ في ذلكَ إظهارٌ لشدَّةِ تلبُّسِهم بالباطلِ، وتوغُّلهم فيهِ، وجاءَ ذاتُ التَّركيبِ في شأنِ المؤمنينَ، فاستُعيرَ اتِّباعُ الحقِّ لأعمالِهم، في دلالةٍ على أنَّ أعمالَهم قد اتَّحدت بالحقِّ، وسارت في أنوارِ الهدايةِ، وفي هذا التَّصويرِ البديعِ بيانٌ لحالِ الفريقينِ، وإظهارٌ للفارقِ بينَ مَن استضاءَ بنورِ الحقِّ، ومَن انغمَسَ في ظُلُماتِ الباطلِ فكانَ تصويرًا مُحكَمًا، يُرسِّخُ في الأذهانِ التَّبايُنَ الشَّديدَ بينَ الصِّنفينِ[1].

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾ مُضعَّفًا:

الدَّلالةُ على بلوغِ الغايةِ في الاتِّباعِ والتَّوغُّلِ فيه

جاءَ الفعلُ ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾ بصيغةِ التَّفعيلِ المُضَعَّفِ، وفي هذا الاختيارِ إيحاءٌ ببلوغِ الاتِّباعِ غايتَهُ، وتوغُّلِ الفريقينِ فيما سلكوهُ من طريقٍ، بغايةِ جُهدهم ومعالجتهم لما قادَتهُم إليه فِطرتهُم الأولى. فالزّيادةُ في بنيةِ الفعلِ تدلُّ على المبالغةِ في الاتِّباعِ، والتعلُّقِ الشَّديدِ به، فكانَ اتِّباعُ المؤمنينَ للحقِّ اتِّباعًا عن يقينٍ وبصيرةٍ، واتِّباعُ الكافرينَ للباطلِ اتِّباعًا عن جُحودٍ وعنادٍ، وهذا ما جعلَ كلَّ فريقٍ يُجزَى بعمَلِهِ[2].

دلالة تعريف لفظ ﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾:

تشنيعُ الباطلِ وتقبيحُه، وتوبيخُ مَن اتَّبعَه

في تعريفِ ﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾ بأل التَّعريفِ إيماءةٌ بديعةٌ إلى أنَّهُ الباطلُ المحضُ، الذي لا حقَّ فيه ولا خير، فلا باطلَ يُساويهِ في الضَّلالةِ

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 219، وفاطمة السِّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 240.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 200، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 4.

والفسادِ، فكأنَّهُ لا باطلَ سواهُ، ولا ضلالَ يُماثله، فجاءَ التعريفُ على وجهِ التقبيحِ والتشنيعِ لاتِّباعِهم إيّاهُ، وإعراضِهم عن الحقِّ المُبين، فكانَ ذلك أبلغَ في التوبيخ، وأشدَّ في بيانِ زَيغِهم[1].

بلاغةُ التَّعبير بالمقابلة:

تبيانُ الأحوالِ بالمُقابلةِ، وإيضاحُ الحقائقِ بالتَّضادِّ والمُفاضلة

بينَ قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ مقابلةٌ بين ألفاظ: (﴿كَفَرُواْ﴾ - ﴿ءَامَنُواْ﴾) و(﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾ - ﴿ٱلۡحَقَّ﴾)، وفي ذلك بيانٌ بديعيٌّ يُجلّي التَّبايُنَ الشّاسعَ بينَ الفريقين، ويُبرزُ الفارقَ العظيمَ بينَ مسلكِ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ، والمقابلة من وادي تداعي المعاني حين تنتقلُ النَّفسُ من النَّقيضِ إلى النَّقيض، والمعاني تتَّضحُ بالمُقابلة، وتتمكَّنُ في النَّفس؛ لأنَّها تقترنُ بأضدادِها، وفي هذا التَّقابلِ البديعِ إثارةٌ للعقولِ، واستنهاضٌ للأفهام، لتُبادرَ إلى الموازنة بينَ الحالتين، فتُدرك بجلاءٍ عاقبةَ كلِّ فريقٍ، فلا يلتبسُ عليها طريقُ الهُدى بسبيلِ الضَّلالِ[2].

سِرُّ تكرار لفظ الفعل ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾:

الإيماءُ إلى أن كُلًّا من الفَريقَيْن قد تَمَكَّنَ من طريقه، واستقرَّ على ما ارتضاهُ لنفسهِ

تكرَّر الفعلُ ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾ مع الفريقين ليُؤذِن أنَّ كِلا الفريقين قد تَعَمَّق وتقرَّر لديه الاعتقادُ الذي يراهُ اتِّباعًا، وفي هذا إيماءٌ بديعٌ إلى أنَّ كُلًّا منهما قد تَمَكَّنَ من طريقه، واستقرَّ على ما ارتضاهُ لنفسِه من سبيلٍ، حتى صارَ الاتِّباعُ سِمَةً لازمةً لهُ، وطابعًا ثابتًا في مسلكه، والاتِّباعُ المذكورُ من الفريقين: هو سببُ التَّفرقةِ بينهُما، فجَعلَ النَّظمُ الكريمُ الاتِّباعَين مثلًا للعَمَلَيْن و مضربًا للأمثال، فكما اتَّبعوا هذين السَّبيلين، وصار مصيرُهم على هذا النَّحو، جعل اللّٰه ذلكَ تبيانًا لِكُلِّ النّاس[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 36، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 457.
(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 242.
(3) السِّيرافي، التّقريب في التفسير: 4/ 227، ووهبة الزُّحيلي، التّفسير الوسيط: 3/ 2430، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 240.

بلاغة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

ما اتَّبعَه المُؤمنونَ هو الحَقُّ الحقيقُ الثّابتُ الذي لا حقَّ غيره

في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ جاءَ تعريفُ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ باللّام ليُدلِّلَ على أنَّ ما اتَّبعَهُ المُؤمنونَ هو الحقُّ الثّابتُ الرّاسخ من ربِّهم، فهو الحَقُّ الحقيقُ بالاتِّباع؛ لأنَّه الحقُّ الذي لا حقَّ سواه(1).

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ وزيادتُها مع أهل الإيمان:

الـدَّلالـة على أنَّ اتِّباعَ الحقِّ نعمةٌ إلهيَّةٌ، ومنحةٌ ربانيَّةٌ

في زيادةِ جُملةِ ﴿مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ مع ذكرِ حالِ أهلِ الإيمانِ، دونَ أن يُذكَرَ في شأنِ أهلِ الباطلِ ما يُقابلُها كقوله (من الشيطانِ)، دلالةٌ بليغةٌ على أنَّ اتِّباعَ الحقِّ نعمةٌ إلهيَّةٌ، ومنحةٌ ربانيَّةٌ يخصُّ اللّه بها من شاءَ من عباده؛ فيَهدي قلوبَهم، ويُنيرُ بصائرَهم، ويُهيِّئُ لهم السُّبُلَ القويمةَ التي تبلغُ بهم دارَ الكرامةِ(2).

نُكتة الإضافة لأهل الإيمان في ﴿رَّبِّهِمۡۚ﴾:

تشريف أهلِ الإيمانِ باختصاصهم بعنايةِ الرَّحمن

الإضافة لأهل الإيمان في قولهِ تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ تنويهٌ بديعٌ بشأنِ هذا الحقِّ، وتشريفٌ لأهلِ الإيمانِ الذين اصطفاهم اللّه لسلوكِه؛ فتولّاهم بعنايته، وأسبغَ عليهم من نِعَمه ما رفعَ بهِ أقدارَهم، فاستحقّوا هذا التَّشريفَ؛ إذ كانوا أهلًا لقبولِ الحَقِّ، والتَّمسُّك بهِ(3).

بلاغةُ الاستئنافِ في جُملة الفاصلة:

تقريرُ ما سبقَ بتحقيقِ الحقائقِ بالمثَل، وإيضاحِ المعاني بأجلى السُّبُلِ

لَمّا تبيَّنَ أنَّ باطنَ حالِ الذينَ كفروا هو الباطلُ، وأنَّ باطنَ حالِ الذينَ آمنوا هو الحقُّ، وعُلِمَ أنَّ المَثَلَ إنَّما يُدرَكُ في خفايا الإدراكِ، حيثُ يَكشفُ عن حقائقِ الأشياءِ المحسوسةِ، فيكونُ ألطفَ من ظاهرِها وأبلغَ في إيصالِ معانيها، تبيَّنَ أنَّ مَثَلَ كلٍّ من الفريقينِ هو ما استقرَّ في باطنِ حالهِ، فكانَ مَثَلُ الكافرينَ الباطلَ الذي تلبَّسوا به، وكانَ مَثَلُ

(1) الجيلاني، تفسير عبد القادر الجيلاني: 5/ 341، والشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 327.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 46/ 26، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 129.
(3) ابن عاشور، والتّحرير والتّنوير: 77/ 26.

المؤمنينَ الحقَّ الذي اعتصموا بهِ؛ فاقترنَ المثالُ بالحالِ، فلذلك جاء الحطاب استئنافًا؛ جوابًا لمن قال لمّا أدركه من دَهَشِ العقل لِما راعَهُ من عُلوِّ هذا المقال: هل يُضرَبُ مَثَلٌ مِثلُ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾[1].

دلالة الكاف ومعناها في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تجليَةُ الحقائقِ بضَربِ الأمثالِ، وإيضاحُ مضاربِها بأتمِّ المقالِ

قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ﴾، أي: مِثلُ ذلك الضَّرب ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ لأجل النّاس ليعتبروا بهم، فإن قيل: أين ضَربُ الأمثال؟ هنا فالجواب: في جَعلِ اتِّباعِ الباطل مثَلًا لعمَلِ الكفار، واتِّباعِ الحقِّ مثَلًا لعمَلِ المؤمنين[2]؛ أو في جَعْلِ الإضلالِ مثلًا لخيبة الكفار، وتكفيرَ السَّيِّئاتِ مثلًا لفوزِ المؤمنين؛ فالكافُ هنا ليست للتَّشبيهِ، وإنَّما هي كافُ العينيَّةِ[3]، أي تُفيد أنَّ الطَّريقة التي يَضربُ الله بها الأمثالَ للنّاسِ هي عَينُ ما بيَّنه في الآية، فيُبيِّن الله للنّاس بيانًا لأحوال الكافرين والمؤمنين مثلَ ذلك البيان[4]؛ لا على وجهِ التَّقريب والتَّشبيهِ، بل على وجهِ الحقيقةِ والبيانِ الجليِّ الذي يُظهِرُ المعاني ويوضِّح الحقائقَ كما هي، فهي أمثالٌ كاشفةٌ عن الحقائقِ بعينِها.

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الإشـارةُ إلى عظمةِ المثلِ، والتَّنويهُ برفيعِ المحلِّ

في اختيارِ اسمِ الإشارةِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في هذا الموضعِ تنويهٌ بديعٌ بعظمةِ المثَلِ المضروبِ، وإشادةٌ بجلالةِ شأنِ البيانِ الإلهيِّ؛ إذْ جاءتِ الإشارةُ لتدُلَّ على أنَّ ما سَبَقَ بيانُهُ من إيضاحِ حالِ الفريقين، وإقامةِ البرهانِ على مآلِهم، هو مثلٌ عظيمُ الشَّأنِ، بالغُ البيانِ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالأمثالِ في الجُملةِ الكريمةِ:

الأمثالُ: جمعُ مَثَل؛ وهو الحالُ التي تمثل صاحبَها، أي: تُشهِرُهُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 200.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 316، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 459.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 7.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 119، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم: 9/ 341.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 200.

الأمثالُ سُنَّةُ القرآنِ التي بها تقومُ الحُجَّةُ، وتُتَبيَّنُ سُبُلُ الهُدى من سُبُلِ الرَّدى

للنّاس وتعرِّفُهم به فلا يَلتبسُ بنظائره[1]، فمعنى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾، أي: كذلك نُمثِّل للنّاس الأمثالَ، ونشبِّهُ لهُمُ الأشباهَ، فنُلحِقُ كلَّ قوم بأمثالهم، ونَضعُ لكلِّ سَبيلٍ وصفَها وحقيقتَها، فلا يضلُّ السّالكُ، ولا يلتبسُ الأمرُ على ذي عينٍ بصيرةٍ، فمن استقامَ، عُرِفَ باستقامته، ومن زاغَ، كُشِفَ انحرافُهُ؛ فما أبلغَ هذا البيانَ، وما أدقَّ هذا البُرهانَ، وما أعظمَ هذه السُّنةَ التي بها تقومُ الحُجَّةُ، وتُتَبيَّنُ سُبُلُ الهُدى من سُبُلِ الرَّدى[2].

الغرضُ من التَّعبير بالمفعول به ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ جَمعًا مُضافًا الى الضَّمير:

تعميمُ العِبرةِ، وشُمولُ العِظَةِ في المُعتَبِرِ والمُعتَبَر منه

جاءَ الجمعُ ليُفيدَ تعميمَ العِبرةِ، وشمولَ العِظَةِ، فلا يختصُّ التَّمثيلُ بحالٍ دونَ حالٍ، والضَّميرُ في ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ راجعٌ إلى النّاس، فيكونُ المعنى أنَّ اللّه تعالى يَضرِبُ لهم أمثالًا تُجلّي لهم حقائقَ الأمورِ، ويجوز أن يكون الضَّمير عائدًا إلى الكافرين، والمؤمنين، بمعنى أنَّ اللّه ﷻ يضربُ للنّاسِ أمثالَ الكافرينَ والمُؤمنين، ليكونَ لهُم العِبرةُ والعِظَةُ، فيما يَرَونَ من هؤلاء وأولئك، وليتبيَّنوا سبيلَ الرُّشدِ من طريقِ الغَيِّ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ بضَرب الأمثال:

تتميمُ البيانِ بإحكامِ التَّذييل، وتقريرٌ من مضمون التَّنزيل

جاءَ قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ تذييلًا لِما سبَقهُ من البيانِ، وتقريرًا لحقيقةِ حالِ الفريقين؛ فكما بيَّن اللّه مآلَ الكافرينَ والمؤمنينَ، ووضَّحَ عاقبةَ كلٍّ منهم، جاءَ ختامُ الآيةِ مطابقًا لمضمونها، ليزيدَ المعنى تأكيدًا، ويجعلَ المُتلقّيَ في تَواصُلٍ وثيقٍ مع ما سبقَ من التَّركيبِ، والجُملةُ تُعتبَرُ تَذييلًا مُقرِّرًا لِما قبله من مضمونِ الآياتِ السّابقة[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 77.

(2) مأمون حموش، التفسير المأمون: 77/ 302.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 315، والخطيب، التّفسير القرآني: 13/ 308.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 77/ 26، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 497، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 241.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ٤﴾ [محمّد ﷺ: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعقيبُ جزاءِ الفريقين بالأمرِ بقتالِ أعداءِ الحَقِّ والدّين

لَمّا بَيَّنَ اللّه جلَّ في عُلاه مآلَ الفريقين، وأظهرَ ما أعدَّهُ للكافرينَ من الخُسرانِ المبين، وما خصَّ بهِ المؤمنينَ من التَّكريمِ والتَّمكين، أعقبَ ذلكَ ببيانِ فريضةِ الجهادِ، وأمره لعباده المؤمنينَ بمواجهة أعداءِ الدّين، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، فأرشدَهُم إلى ما ينبغي لهم حين يلاقونَ أعداءَ اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَرْبَ﴾: أي: فاقتُلوهم، والمُراد قتلُ الكفّار المُحاربين؛ يُقالُ: ضربَ الأميرُ رقبةَ فلانٍ، إذا أوقعَ عليهِ القتلَ[2]، وقد جرى التَّعبيرُ عن القتلِ بضَربِ الرَّقبةِ؛ لأنَّها الموضعُ الذي توجَّه إليه الضَّربةُ في الغالبِ عندَ إهلاكِ العدوِّ، وأصلُ الضَّربُ إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، سواءٌ كانَ باليدِ، أو بالعصا، أو بالسَّيفِ، أو غيرِها من أدواتِ النِّزالِ[3]، والمعنى هُنا اقتلوهم بأيِّ وجهٍ أمكنَ[4].

2) ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: أكثرتُم القتلَ فيهم، وبالغْتُم في إيقاعِ النِّكاية

---

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 20/ 215، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 36، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 219.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 316، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 460، ومُحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرب).

(3) الرّاغب، المُفردات: (ضرب).

(4) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 230، وابن عطيّة الأندلسي، المُحرّر الوجيز: 5/ 110.

بهم، والإثخانُ بلوغُ الغاية في النِّكاية، والاستكثارُ من القتل، وأصلُ (ثخن) يدلُّ على رزانة الشَّيء في ثِقَل؛ وذلك أنَّ القتيلَ قد أثقلَ حتَّى لا حِراكَ به[1] والإثخانُ الغَلَبَة؛ لأنَّها تتركُ المغلوبَ كالشَّيء المُثْخَن وهو الثَّقيلُ الصُّلب الذي لا يَخِفُّ للحركة، والإثخانُ أيضًا: التَّشديد، ومنه أثخنَهُ المَرَضُ أي اشتدَّ عليه، وأثخنَتْهُ الجِراحةُ: تمكَّنت منه[2]، والمُثْخَنُ المُثْقَلِ بالضَّربِ والجراحِ؛ ومعنى الإثقالِ هُنا: كثرةُ القَتل والمُبالغةُ فيه[3].

3) ﴿فَشُدُّواْ﴾: أصلُ (شدد) يَدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء[4]، فالشَّدُّ هو إحكامُ العقدِ وتقويتُه، ويُقالُ: شددتُ الشَّيءَ إذا أحكمتُ ربطَهُ. فالشَّدُّ: هو الإيثاقُ الحسّيُّ[5]. وهو في الآية عبارةٌ عن الأسرِ، أي: أحكِموا أسرَهم[6].

4) ﴿ٱلْوَثَاقَ﴾: بفتحِ الواوِ وكسرِها، يُطلقُ على كلِّ ما يوثَقُ به الأسيرُ من قيدٍ أو حبلٍ أو غيرِهما، وأصلُ (وثق) يدلُّ على عقدٍ وإحكام[7]، وقيلَ: هو اسمٌ مشتقٌّ من الإيثاقِ، فقد يوضَعُ موضعَ المصدرِ يُقال: أوثقَهُ إيثاقًا ووثاقًا[8]، والمعنى هُنا: أحكِموا قيدَ مَن أسَرتُموهُم[9].

5) ﴿مَنًّۢا﴾: أي: تَفَضُّلًا وإحسانًا وإنعامًا بإطلاقهم دونَ مقابلٍ، والمِنَّةُ هي النِّعمةُ الثَّقيلة الجليلةُ التي يَثْقُلُ وقعُها لِعِظَم فضلِها، وأصلُ (منن) يَدُلُّ على اصطناعِ خيرٍ، وقيل: أصل المَنِّ القطعُ، وسُمّيَت النِّعمةُ منَّةً؛ لأنَّها مَقطوعةٌ عن المِحَنِ والشَّدائد، أو لأنَّه إنَّما يُسديها الإنسانُ إلى غيره ليقطعَ بها حاجتَهُ لا غير، من غير أن يَعمدَ لطلب مثوبةٍ، والمعنى هُنا: إنعامًا بِفَكِّ الأسر[10].

6) ﴿فِدَآءً﴾: أي: عِوَضًا مُقابِلَ إطلاقِهم، والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ من المُصيبةِ بما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثخن)، والسّجستاني، غريب القرآن، ص: 79.
(2) السّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (ثخن).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 79 /26، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 498.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شدد).
(5) المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (شدد)، والواحدي، البسيط: 20/ 216.
(6) الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (وثق)، وابن جُزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 280.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(8) المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (شدد)، والواحدي، البسيط: 20/ 216.
(9) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5195.
(10) الأصفهاني، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (منن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 80.

يُقدِّمهُ من مالٍ أو غيرِه، وأصلُ (فدي): أنْ يُجعَلَ شَيءٌ مَكانَ شَيءٍ حِمًى له، والمعنى هُنا: تخْليصًا للْأسيرِ مِنَ الأسْرِ بِعوَضٍ[1].

7) ﴿أَوۡزَارَهَاۚ﴾: آلاتها وأثقالها التي لا تقومُ إلّا بها؛ من سلاحٍ ونحوه، وقيل: آثامها، يعني: حتى يترك أهلُ الحرب - وهُمُ المُشركون - شِركَهُم ومعاصيَهُم بأن يُسلموا[2]، وأصلُ الوِزْرِ الثِّقَل، وما يحتملهُ الإنسان[3]؛ فسُمّيت الأسلحةُ أوزارًا لأنَّها تُحْمَلُ؛ فأوزارُ الحربِ: آلاتُها وأثقالُها التي لا تقوم إلّا بها؛ كالسِّلاح[4].

8) ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾: ليختبر ويمتحن، وأصلُ البلاء الاختبارُ والتَّكليفُ بالأمرِ الشّاقِّ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ معًا[5] والمعنى هُنا: ليَختبرَكُم بهم، فيعلَمَ المُجاهدينَ منكم والصّابرين، ويبلوَهُم بكم فيُعاقب بأيديكُم مَن شاءَ منهُم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ اللّه تعالى ما يجبُ على المؤمنين فِعلُه عند لقائهِم أعداءَهُم، وبعدَ انتصارهم عليهم، فيقول: إذا لقيتُم - أيُّها المؤمنون - المُحاربينَ من الكفّار فاضرِبوا رِقابَهُم، حتَّى إذا قهَرتُموهُم وأكثرتُم القتلَ فيهم، فأحكِموا قيدَ مَن أسَرتُموهُ منهُم، فإمّا تُنعِمونَ عليهم بعد الأسرِ مَنًّا بأن تُطلِقوا سَراحَهُم مجّانًا، وإمّا أن تفدوا فداءً بأن تأخذوا منهم عِوَضًا في مقابل إطلاقِ سَراحِهم، فافعَلوا بهم ما أمَرناكُم بفِعله، واستمِرّوا على ذلك حتَّى تنتهيَ الحربُ التي بينكم وبَيْنَ أعدائكم.

الجِهادُ ذروةُ سَنامِ الإسلامِ، وجَزاءُ المُجاهِدينَ في سَبيلِه عند الله عظيم

(1) الأصبهاني، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فدى) وابن الهائم، التِّبيان، ص: 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 80.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 317.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وزر).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 409، والملا علي القاري، أنوار القرآن: 4/ 499.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلوي)، والبيضاويُّ، أنوار التنزيل: 1/ 104.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 158، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 92، والسّجستاني، غريب القرآن، ص: 433.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللَّه تعالى الحِكمةَ من مشروعيَّة قتال الأعداء، فيقولُ: أمرَكُم اللَّه - أيُّها المؤمنون - بما سَبَقَ ذِكرُه، ولو يشاءُ اللَّه الانتصارَ من هؤلاء الكافرين والانتقامَ منهُم لَفعَلَ، ولكنَّه سُبحانه أمرَكُم بمُحاربَتِهم؛ ليختبرَ بعضَكُم ببعضٍ، فيتميَّز قويُّ الإيمانِ من ضعيفه.

ثُمَّ يُبيِّنُ سُبحانه ما أعدَّه للمُجاهدينَ من ثوابٍ عظيم، فيقول: والذين استشهَدوا وهُم يُقاتلونَ من أجلِ إعلاءِ كلمةِ اللَّه، فلن يُضَيِّعَ أعمالهم ولن يُبطِلَها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، ودلالةُ العطفِ بها في ﴿فَإِذَا﴾:

ترتيبُ الجزاءِ على موجِباتِه، وتفريعُ الحُكمِ على مُقتضَياتِه

جاءَ العطفُ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلها، وليُفيدَ تعقيبَ هذا الأمرِ بما سبَقهُ من بيانِ حالِ الفريقين، فكما ضلَّت أعمالُ الكافرينَ، وخابَ سعيُهم، واستقامَ أمرُ المؤمنينَ، وصَلُحَت أحوالُهم، كانَ من لوازمِ ذلكَ ترتيبُ كلِّ فريقٍ على ما يليقُ به من الجزاءِ، فكانَ حُكمُ الكافرينَ بعدَ بيانِ ضلالِهم أنْ يواجَهوا بالقِتالِ، حتَّى تُطَهَّر الأرضِ من شِركِهم، ويَزهقَ باطلُهم، وتُقطعَ أسبابُ فتنَتِهم، فجاءَت الفاءُ مُرتِّبَةً لِما بعدَها على ما قبلها، ومُبيِّنَةً أنَّ هذا الأمرَ واقعٌ موقعَ الجوابِ لِما تقدَّمَ من ذِكرِ حالِهم، فاستوجَبوا المصيرَ إلى السَّيفِ، فجاءَ الأمرُ الإلهيُّ مُحمَّلًا بمعاني العدلِ والحِكمةِ، فحقَّ فيهم القتالُ، ولم يكنْ من حُكم أجدرَ بهم من أن تُضربَ رقابُهم، حتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّهُ للَّه، ويَسودَ التَّوحيدُ، ويُمحَى الشِّركُ، وتَطهُرَ الأرضُ من رجسهم[2].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 183، وابن جزي، تفسير ابن جزي: 2/ 280، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 785، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 247.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 37/ 28، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 78/ 26، والطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 220.

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب الشَّرْطِ بالأداة (إذا):

الإعلامُ بشرطيَّة القتالِ عند لقاء العدوِّ، وجزائيَّةِ المصيرِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ

جاءَ التَّعبيرُ بـ (إذا)، وهي ظرفٌ يدلُّ على المُستقبلِ متضمِّنٌ معنَى الشَّرطِ، لإفادةِ التَّحقيقِ مع عموم الحكم؛ إذ جاءتِ الجُملةُ الخَبريَّةُ مُؤكِّدةً لثُبوتِ هذا الحُكمِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكانَ في ذلكَ تقريرٌ لموقفِ المُؤمنينَ من الكافرينَ عندَ القتالِ، لا يَقبلُ تبديلًا ولا تحريفًا، والعاملُ فيه فعلٌ مُقدَّرٌ هو العاملُ في (ضَرْبَ الرِّقاب)، تقديرُهُ: فاضربوا الرِّقابَ عندَ ملاقاتِكم العدوَّ، فجاءَ البناءُ مُحكَمًا، مُستوفيًا لمعاني الحَزم والجَزم؛ إذ أُبرزَ الحكمُ بأسلوب الشَّرطِ، لما فيهِ من إحكامِ التَّرابُطِ والتَّلازُمِ بينَ أجزائه، فرُبِطَ السَّببُ بالمُسبَّبِ، والمُقدِّمةُ بالنَّتيجةِ، فكانَ لِقاءُ العدوِّ مُفضيًا إلى حكمٍ حتميٍّ، وهو (ضَرْبَ الرِّقابِ)(1).

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بلفظ اللِّقاء:

الإيجازُ البليغُ في تصويرِ مشهدِ المُنَازَلةِ والمُجابَهةِ

التَّعبيرُ بلفظ ﴿لَقِيتُمُ﴾ في قوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لم يُرَد به مجرَّدُ الاجتماعِ والرُّؤيةِ(2)، بل هو مجازٌ مُرسَلٌ أُريدَ به القتالُ، بجامعِ أنَّ اللِّقاءَ بَيْنَ الصَّفَّين لا يكون إلّا مُقترنًا بالمُنازَلةِ والمُجابَهةِ، فكان في هذا التَّعبير إيجازٌ بليغٌ، وتصويرٌ دقيقٌ لمشهد الحرب، حيث يلتقي الجمعان، فتدورُ رحَى القتال، وتحتدمُ المعركة، فلا يكون اللِّقاءُ إلّا مُفضيًا إلى الكرِّ والفرِّ، وإثخانِ العدوِّ ضَربًا وقتلًا. فإذا التقى الجمعان، فلا مفرَّ من النِّزال، ولا مهربَ من المواجهة.

دلالةُ التَّعبير بالماضي في الجملةِ الفعليَّة ﴿لَقِيتُمُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالماضي في الجُملة الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، بعدَ ظُهورِ أنْ لا حُرمةَ لهم، وبعدَ إبطالِ أعمالِهم؛ إظهارًا للحُكمِ في صورةِ الخَبرِ المُحقَّقِ، تأكيدًا لمشروعيَّةِ

(1) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 199.

(2) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 220.

إبراز المأمورِ به في صورة الواقع المُحقَّق تهوينًا لشأن الكافرينَ، وحَثًّا للمُؤمنين على مواجَهَتِهِم

القتالِ، وحَثًّا للمُؤمنينَ على مواجهةِ أعداءِ الدّينِ، حتى تُطهَّرَ الأرضُ من رجسِ الشِّركِ والطُّغيانِ، وكأنَّهُ يُخبرُهم عن أمرٍ حصلَ ووقعَ فلا مجالَ للرَّهبةِ ولا للتَّردُّدِ، وهذا أبلغُ في الإلزامِ والتَّحفيزِ، وأمضى في تحريكِ العزائمِ، ليكونَ الامتثالُ أسرعَ، والتَّلقّي أتمَّ. وفي ذلكَ أيضًا تهوينٌ لشأنِ الكافرينَ في أنظارِ المُؤمنينَ(1).

دلالةُ توجيهِ الخطابِ للمؤمنين في ﴿لَقِيتُمُ﴾:

بيانُ اعتدائِهم وسَبقِهم إلى العُدوانِ

في قوله تعالى ﴿لَقِيتُمُ﴾ ما يُنبئ عن مُخالفتهِم الصّائل؛ لأنَّ قوله لَقيتُم يَدُلُّ على أنَّ القصدَ من جانبهِم؛ إذ جاءَ اللَّفظُ بما يُفيدُ القَصدَ من جهتِهم، لا على سبيلِ المصادفةِ، بخلافِ ما لو قيلَ (لَقِيَكُم)، فإنَّه لا يُنبئُ عن إرادتِهم القتالَ ابتداءً، ولمّا كانَ هذا الموضعُ مَقامَ بيانِ اعتدائِهم وسَبقِهم إلى العُدوانِ، جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿لَقِيتُمُ﴾، في حين في مواضِعَ أُخَرَ؛ حيثُ لم يكُنِ المقامُ مقامَ بيانِ المبادرةِ، جاءَ اللَّفظُ عامًّا في القتلِ حيثُما وُجِدوا، كما قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: 191](2).

الغرَضُ من التَّعبير بالمفعول به اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الإشارةُ إلى الكفّار المُحاربين

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: من أهل الحرب، ممَّن لا عهدَ بينكم وبينهم، ولم تكنْ بينكم وبينهم ميثاقٌ ولا أمانٌ، فذلكم الذين أُمرتم بجهادهم، فجاءتِ الصِّلةُ هُنا للعهدِ، وإنْ كانَ ظاهرُها للجنسِ، لكنَّه عمومٌ أُريدَ به الخصوصُ، فكانَ الأمرُ الإلهيُّ مُنضبطًا بميزانِ العدلِ، لا يَخرجُ عن مقتضى الحكمةِ(3).

الغرضُ من التَّعبير بجواب الشَّرط مَصدَرًا نائبًا عن فعل الأمر:

جاء التَّعبيرُ بالمصدر في قوله تعالى ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ تأكيدًا

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 38، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 243.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 38.

(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 8.

تصويرُ الفعل بأبلغِ صوَرِه وأشدِّها وقعًا، من خلال الإيجازِ بالمصدر

للمعنى وإيجازًا في المبنى؛ إذ جَمَعَ بَيْنَ التَّوكيد والإيجاز، وفي ذلك من بلاغة التَّنزيل ما يوحي بِشِدَّة القتل وسُرعته، ولمّا كان المقصودُ هو القتلَ المحقَّقَ بأبلغِ صوَرِه وأشدِّها وقعًا، أتى بِذِكْرِ المَصدر الدّالِّ على الفعل، مُصوِّرًا المشهد بأشنع هيئاتِه، مع ما فيه من الغِلظةِ على الكُفّار، ولو قيل: "فاقتُلوهم"، لفاتت هذه المُبالغةُ في التَّصوير؛ إذ ليس في لفظِ القتلِ ما في (ضَرْبِ الرِّقاب) مِنْ شِدَّةٍ وغِلظة، لِما فيه من تمثيلِ القتلِ بأبشَعِ صوَرِه، وهو حَزُّ العُنَقِ وإطارةُ الرَّأس، ذلك العضو الذي هو أشرَفُ البدَنِ وأعلاهُ، فكانَ في هذا التَّعبير ما يَزيدُ في الإيقاعِ النَّفسيِّ على العدوِّ، ويُجَسِّدُ المشهدَ بأبلغِ بيانٍ، ويبلغُ الغايةَ في التَّفخيم(1).

توجيه المتشابه في التَّعبير بلفظ الضَّرب:

التَّفاوتُ في التَّصويرِ البيانيِّ بَيْنَ صُدور الفعل ووقوعِ القتال، وبينَ إيقاعِهِ مُستقبَلًا

ورَدَ (الضَّربُ) في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ بالمصدَر؛ في حين جاءَ في سورة الأنفال قولُهُ تعالى ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: 12] بالفِعل، وهذه الفروقُ في الأسلوب لها دلالاتٌ بليغةٌ وأسرارٌ دقيقةٌ، فإنَّما يُعبَّرُ بالفعل إذا كان الغرَضُ الأوَّلُ بيانَ صدورِ الفعلِ من الفاعل، والمصدرُ تابعٌ له ضرورةً؛ إذْ لا يكونُ فعلٌ إلّا ومعَهُ مصدرُهُ المتحقِّقُ في الوجود. أمّا إذا كان القصدُ الأوَّلُ هو نفسَ الحدَثِ، والمصدرُ هو المرادَ تقديمُه في الذِّكر، جُعِلَ هو الأصل، ووقعَ الفعلُ مطلوبًا منهُ ضرورةً؛ إذْ لا يتحقَّقُ المصدَرُ إلّا بفعلٍ صادرٍ من فاعلٍ؛ ففي سورة الأنفال كان المقامُ مقامَ حكايةِ القتالِ الجاري، حيثُ كان المُسلمونَ في ساحةِ الوغَى، ونزلت الملائكةُ لنُصرتهم، فاقتضَى الحالُ أنْ يكون الفعلُ هو المطلوبَ أوَّلًا، فجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ [الأنفال: 12]، أمّا في هذه السّورةِ، فإنَّ الأمرَ واردٌ

(1) القُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 226، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 201، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 243.

قبل نُشوبِ القتال، بدليلِ قَولِه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾، فكان الغرَضُ الأوَّلُ هو تحقيقَ القتلِ نفسِه؛ فجاء التَّعبيرُ بالمصدر ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾؛ إذ هو المقصودُ بالذّات، ليكونَ الحدثُ في نفسِه هو المرادَ تحقيقَه، وفي هذا السّياق، تظهَرُ فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ اللّه تعالى قال في الأنفال ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]؛ لأنَّ القتالَ قد وقعَ، فأرشَدَهم إلى المقْتلِ وغيرِه إنْ لم يُصيبوا المقْتَلَ، وهاهُنا ليْس وقْتَ القتالِ، فبيَّن أنَّ المقصودَ القتلُ، وغرَضُ المسلِم ذلك(1).

الغرضُ من إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه ﴿ٱلرِّقَابِ﴾:

الـدَّلالـةُ على الـسُّـرعـة والـحَـسْـم في القتل إرشـادًا للمؤمنينَ الى أيسَرِ ما يكونُ منه

كان أصلُ التَّركيبِ (فاضربوا الرِّقاب ضَربًا)، فحُذِفَ الفعلُ، وقُدِّمَ المصدرُ، وأُنيبَ عن الفعل، مُضافًا إلى المفعول، ثمَّ جُعِلَت (أل) فيه بدلًا من الإضافة، فجاءَ التَّعبيرُ على هذا النَّحو ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، إيذانًا بسُرعةِ القتلِ وحسمِه، وإرشادًا إلى أيسَرِ السُّبُلِ فيه، حيثُ يَكفي أن يُصيبَ السَّيفُ الرِّقابَ، فتكونَ الضَّربةُ قاضيةً لا محالة، وفي هذا الأسلوبِ من التَّصويرِ ما يُرسِّخُ في الأذهانِ التَّلازمَ بين الضَّربِ وبُلوغِه مَقْتَلَ العدوِّ، وهذا يَشيَ بتمكُّنِ المسلمين من أعدائهم، ويدلُّ على تغلُّبِهم، وهيمَنتِهم في ساحةِ القتال(2).

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير عن القتل بِضَرْبِ الرِّقاب:

إبـرازُ الـشِّـدَّة والغِلظةِ في قتلِ الأعداء

في هذه الآية الكريمة ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه الجُزئيَّة؛ إذْ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجُزء، وهو الرِّقاب، وأرادَ به الكُلَّ، وهو القتلُ؛ إذ لا يقتصرُ القتلُ على موضعٍ بعَينه، بل قد يكونُ في أيِّ موضعٍ من الجسَد، غيرَ أنَّ تخصيصَ ضَرْبِ الرِّقابِ جاءَ لِما في ذلك من الشِّدَّة ما ليس في لفظِ القتلِ على إطلاقه؛ فالرَّقبةُ أشدُّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 38/ 28.

(2) إسماعيل، روح البيان: 8/ 498، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 243.

المَواضع ظُهورًا، وأظهَرُ المَقاتل؛ وقطعُ الحُلقوم والأوداج مستلزمٌ للموتِ لا محالة؛ بخلافِ سائرِ المواضِعِ التي قد تُصيب ولا تُجهز، وفي معترَك الحرب، حيث تتقارعُ السُّيوفُ، وتتلاحَمُ الصُّفوفُ، تكونُ الرِّقابُ أشدَّ ما يبدو للضّارب، فَضَرْبُها هو حَزُّ العُنُق، وهو أقوَى صوَرِ القتلِ وأشنَعُها؛ إذْ فيهِ إطاحةُ الرَّأس؛ ذلك العُضو الذي هو أشرَفُ البدَنِ وأعلاه[1].

بلاغةُ الكناية في (ضرب الرِّقاب):

قــوَّةُ الـدَّلالـةِ في التَّعبير عن القتلِ وشِدَّته

في التَّعبير بضَرْبِ الرِّقابِ كنايةٌ عن القتل، لا على أنَّ الضَّربَ مقصورٌ على الرِّقاب دون غيرها من الأعضاء، بل جرى ذلك على عادة العرب في التَّعبير؛ إذ كانوا يقولون: (ضربَ الأميرُ رقبةَ فلانٍ)، و(ضربَ عُنُقَه)، و(ضربَ ما بينَ عينَيه)، يريدون بذلك قتلَه، فلمّا كان أكثرُ القتل يقعُ بضَرب الرَّقبة، جاءت العبارةُ كنايةً عن القتلِ عُمومًا، وإنْ وقع بغير ضربِ الرَّقبة، على أنَّ في هذا التَّعبير من الشِّدَّة والغِلظة ما ليس في مُجرَّد لفظ القتل، فهي كنايةٌ عن القتل، وهي مُشعِرةٌ بالتَّلاحُم والاشتباكِ والقتلِ في صُفوف الكافرين، والتَّمكُّنِ منهم، والسَّيطرة عليهم[2].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

بيانُ الغايةِ في الأمر بالقتال بينَ الإثخانِ والأسر

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ جاءَ لبيان غاية الأمرِ بضربِ الرِّقابِ وإيجابه، لا لبيان غايةٍ لنفسِ القتل؛ إذ لو كان كذلك لما جازَ القتلُ بعد الإثخان، بل المرادُ أنَّ القتالَ ماضٍ حتَّى يَتحقَّق الإثخانُ في العدوِّ، فإذا وقع ذلك جاء شدُّ الوثاقِ بالأسرِ

(1) محي الدِّين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 583، وابن عادل، اللُّباب: 17/ 427، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 4، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 244.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 316، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 460، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 92/ 8، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 244.

والإحكام عليهم، فيكونُ حينَها لوليِّ الأمرِ الحكمُ فيهم بما يَراهُ من قتلٍ، أو فداءٍ، أو منٍّ بغير مقابل، على وفْقِ مصلحة الإسلام والمسلمين، ومع كون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للدّلالة على البُعدِ الزَّمانيِّ، فهي أيضًا ابتدائيَّةٌ لا تعليليَّةٌ، أي: أنَّ ما بعدَها مفرَّعٌ على ما قبلَها، فكان في هذا الأسلوبِ بيانٌ للغرَضِ من القتال، وهو كسرُ شوكة العدوِّ، وإضعافُه، وإرهابُه، حتَّى يكون في قبضة المُسلمين أسيرًا لا حيلة له ولا قوَّة[1].

الغرضُ من التَّعبير بجملة الشَّرط ﴿إِذَآ﴾:

إفادةُ التَّحقيق بالشَّرط في تصويرِ الإثخانِ وإذلالِ العدوِّ

بشَّر النَّظمُ الكريمُ أهلَ الجهاد بإيرادِ أداة التَّحقُّقِ في التَّعبير، حيث قال تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، أي: بالغتُم في قتلهم، وأفرَطتُم في ذلك حتَّى صاروا لا حِراكَ بهم، كالذي أثقلَتْهُ الجراحُ فأصبح غيرَ قادرٍ على النُّهوض، فجعل اللّه الإثخانَ شَرطًا للأسر، وجاءت ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطيَّةُ لتأكيد تحقُّقِ وقوع الشَّرط، فلا يكونُ الأسرُ إلّا بعد أن تُضعفَ شوكةُ العدوِّ، وتتمكَّنَ يدُ المسلمين منهم، فتكونَ لهم الكلمةُ العُليا في ساحةِ الوغَى، فكان هذا التَّعبيرُ البليغُ إعلامًا للمؤمنين بالنَّصر، وتوكيدًا لِما سَيَقَعُ من إثخان العدوِّ وإذلاله[2].

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾:

تحقيقُ الإثخان، وإحكامُ السَّيطرة على الأعداء

جاء التَّعبيرُ بالماضي ﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ إيذانًا بتحقُّقِ الفعل وإيقاعه على أكمَلِ وجهٍ، خُصوصًا وأنَّ الثَّخن في اللُّغة يَدُلُّ على المُبالغة في الفعل، والقوَّةِ والشِّدَّة فيه يُقال: أثخنَ في العدوِّ، أي: بالغَ في قتالهِ حتى أوهَنَهُ، وأضعفَهُ، وأفقدَهُ القُدرة على المُقاومة، وفي مجيءِ الفعلِ ماضيًا إشارةٌ بليغةٌ إلى وجوبِ إحكام السَّيطرة على الكفار،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 38، ومحيي الدِّين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 583، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 79، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 199.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 202، ومحمّد دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 301.

وإذلالهِم، وكسرِ شوكتِهم، وإظهارِ الغلبَة عليهم، حتَّى يتمكَّنَ المسلمون من إحكام قبضتهم في ساحة القتال[1].

التَّفريعُ بتحديد مصير الأسرَى من المقاتلين بعد الإثخان

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَشُدُّواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ واقعةٌ في جواب ﴿إِذَآ﴾، دالةٌ على ترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، فالآيةُ جاءت لتقسيم حُكم الأسرى بَيْنَ المَنِّ والفداء، ولم تتناول إلّا الرِّجالَ المُقاتلين من الكفّار؛ إذ جاء قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، ثُمَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾، صريحًا في أنَّ القتال إنَّما هو لهؤلاء الذين يحملون السِّلاح ويخوضون الحرب، ثُمَّ جاء قوله تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ مُرتَّبًا بالفاء على الإثخان، فدَلَّ ذلك على أنَّ الحُكْمَ بالأسر والمنِّ والفداء إنَّما هو لهؤلاء المُقاتلين خاصَّةً، دون النِّساء والصِّغار[2].

الايذانُ بتحقير شأنِ الكفّار في نفوس المؤمنين

الغرضُ من التَّعبير بفعل الأمر (شُدّوا):

الأمر في هذه الآية الكريمة جاء على سبيل الحثِّ والتَّحضيض، إيذانًا بتحقير شأن الكفّار في نفوس المؤمنين، وإظهار ذِلَّتهم وانكسارِهم بعد الهزيمة، فقد بيَّن اللّٰه تعالى أنَّ على المؤمنين إذا غَلبوا عَدوَّهم، وقَهَروهم في ساحة القتال، أن يَشدّوا وثاقَ الأسرى، ويُحكموا قبضَتهُم عليهم، ثُمَّ بعد ذلك يكونُ لهم الخيارُ بَيْنَ المنِّ عليهم بغير فداء، أو مُفاداتِهم بما يراه وليُّ الأمر أصلحَ للإسلام والمُسلمين[3].

إبراز قوّة المؤمنين، وتمكُّنهم من أعدائهم

سِرُّ الكناية عن إحكام الأسر بشدِّ الوَثاق:

قوله تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ كنايةٌ بليغةٌ عن الأسر، وإحكام القبضة على الأعداء؛ إذ لم يُصرِّح النَّظمُ الكريمُ بالأسر مُباشرةً،

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 202، والشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 7/ 250.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 7/ 250، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 199.

(3) السّايس، تفسير آيات الأحكام: 1/ 688، والزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 91.

بل عبَّر عنه بما يستلزمُه من شَدِّ القيد وإحكام الوثاق؛ لأنَّ الأسْرَ يَستلزِمُ الوضْعَ في القَيدِ الذي يُشَدُّ به الأسيرُ، فجاءت الكنايةُ أدلَّ على قوَّةِ أهلِ الإيمان في التمكُّنِ من أعدائِهم، وعلى ضعفِ الأعداء وذُلِّهم بَيْنَ يدي المؤمنين؛ إذ صاروا أسرى لا حيلة لهم ولا قوَّة[1].

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾:

تأكيدُ إحكامِ الأسرِ على التَّمكُّن من العدوِّ، وأثرُه في بيان السَّيطرة

تعريفُ لفظ ﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾ بلام التَّعريف في قوله تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ جاءَ لإرادة العهد الذِّهنيِّ، أي: الوثاق المعهود الذي يوثَق به الأسرى ويُقيِّد حركتهم، إحكامًا للأسر، وإذلالًا للأعداء، وتأكيدًا للغلبة عليهم، ويجوزُ أن يكون التَّعريف في ﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾ و﴿ٱلرِّقَابِ﴾ عِوَضًا عن المضاف إليه، أي: (فضربَ رقابِهم، وشدّوا وثاقَهم)، فيكون ذلك أبلغَ في الإيجاز، وأقوى في الدَّلالة على تَحقُّق الأمرِ، والتَّأكيدِ على ضرورةِ إحكامِ القبضةِ على العدوِّ، حتَّى يكون الأسيرُ في وثاقٍ مُحكمٍ، لا يستطيعُ منه فكاكًا[2].

بلاغةُ المجاز في التَّعبير عن القَيد بالأسر:

التَّعبيرُ عن إحكامِ الأسرِ والهَيمَنة فيه

الوَثاقُ الرِّباطُ من الحبل، أو القيدُ الذي يُستوثَقُ به من الأسر، وذلك بشدِّ القيد على أيدي الأسرى وجمعِها إلى أعناقِهم، وليس مقصودًا به مجرَّدُ التقييد الحسّيِّ، بل هو مجازٌ مرسلٌ بليغٌ عن الأسرِ الكامل، الذي يبلغُ غايته في الاستيلاء والقهر، حيث يُصبح الأسيرُ في قبضة المُسلمين، لا يملكُ لنفسه حيلةً، ولا يَجدُ منها مَهربًا؛ ففي هذا المجاز تصويرٌ بديعٌ للهيمَنة التّامَّة، التي تجعلُ العدوَّ مُستكينًا لا يملك مقاومةً، ولا يستطيعُ فكاكًا، فجاء هذا التَّعبيرُ القرآنيُّ موحيًا بشدَّة الأسر، وإحكامِ القبضة، وإذلالِ العدوِّ،

(1) ابن عاشور، التحرير التنوير: 80/ 26.

(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 7/ 183، والماوردي، النُّكت والعيون: 5/ 292، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 80/ 26، ومحمّد جمال، التّفسير الفريد: 7/ 2888.

حتى يكون الأمرُ في يد المسلمين، يُقرِّرون فيه ما تقتضيهِ مصلحةُ الإسلام من منٍّ أو فداءٍ أو غيرِ ذلك[1].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَإِمَّا﴾:

التَّفريعُ ببيان خياراتِ التَّعامُلِ مع الأسرى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ حرفُ استئنافٍ وتفريعٍ؛ وفي مجيئها بعد ذكر شَدِّ الوَثاق إيذانٌ بأنَّ ما بعدَها مُرتَّبٌ على ما قبلَها، بحيْثُ يكون شَدُّ الوَثاقِ وإحكامُ الأسرِ مُقدِّمةً لازمةً للتَّصرُّف في الأسرَى، وفقَ ما يراهُ وليُّ الأمر أصلحَ للإسلام والمُسلمين، وفيه دَليلٌ على أنَّ المُفاداةَ والمَنَّ لا يجوزُ قبْلَ النِّكايةِ والإثخانِ[2]، وقد جاء هذا الأسلوبُ البديعُ ليُبرِز حكمة الإسلام في مُعاملةِ الأسرى، وليفتحَ أمامَ الحاكم المُسلم سُبُلَ التَّصرفِ فيهم، وفْقَ ما تقتضيهِ المَصلحةُ الشَّرعيَّة، فإنْ شاءَ منَّ عليهم بغير فِداء، وإنْ شاءَ فاداهُم بمالٍ أو بأسرَى المُسلمين عند العدوِّ[3].

دلالةُ الحصر بـ(﴿فَإِمَّا﴾، ﴿وَإِمَّا﴾) مع جوازِ الاسترقاقِ والقتل للأسرى:

الإرشـادُ إلى تخيير الإمام في شأنِ الأسرى

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ قد جاء بأسلوب الحصر بـ(إمّا) و(إمّا)، ممّا قد يُفهم منه أنَّ حُكْمَ الأسرى مُنحصرٌ في المنِّ والفداء، مع أنَّ الشَّريعة قد أباحت أربعة أحكام فيهم، وهي: القتلُ، والفداءُ، والمنُّ، والاسترقاقُ؛ والجوابُ عن ذلك أنَّ هذا الأسلوبَ إرشاديٌّ لا حصريٌّ، وقد اقتصرَ النَّظمُ الكريمُ على ذِكرِ الأمرِ العامِّ الجائزِ في سائر الأُمم، وهو المَنُّ والفداءُ، باعتبارهما الأصل في مُعاملة الأسرى، مع بقاء الخيار للإمام في اتِّخاذ ما يراهُ أصلحَ؛ من قتلٍ أو استرقاق. أيضًا في التَّعبير بالمنِّ، وهو الإنعامُ، إشارةٌ بليغةٌ إلى جواز القتل؛ إذْ لو كان الإبقاءُ واجبًا لما كان إنعامًا، بلْ لكان حقًّا لازمًا[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 203، والطّنطاوي، التّفسير: 13/ 221.

(2) القصّاب، النُّكت الدّالة على البيان: 4/ 149.

(3) الدّعاس، إعراب القرآن الكريم، ص: 232، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 199.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 38/ 28 - 29، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 203 - 204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 81/ 26.

الغرضُ من التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدُ﴾:

الـدَّلالـةُ على المُهلةِ والتَّدرُّجِ في حُكمِ الأسرى

قوله تعالى ﴿بَعۡدُ﴾، أي: بَعْدَ شَدِّ الوَثاق، فالمنُّ والفداءُ حقُّه في الأسير بعد التَّمكُّن الكامل منه، فكأنَّ الله تعالى حَرَّم المنَّ والفداء قَبْلَ التَّمكُّن، وأذِنَ فيهما بعد التَّمكُّن، فالتَّعبيرُ بالظَّرف ﴿بَعۡدُ﴾ جاء للدَّلالة على التَّراخي الزَّمنيِّ، بحيثُ لا يكونُ المَنُّ أو الفداءُ إلّا بَعْدَ تَحقُّقِ الأسر، واستكمالِ أسبابه، وإحكامِ الوَثاقِ على العدوِّ المقهور(1).

الغرضُ من تقديم المَنِّ على الفداء:

ترجيحُ المَنِّ على الفداء، وتفضيلُهُ إبرازٌ لقيَم الرَّحمة والكرم

قُدِّمَ النَّظمُ الكريمُ المَنُّ على الفِداءِ تَرْجيحًا لهُ وتفضيلًا، وذلك لِما فيه من الأثرِ الطَّيِّب على نفس الأسير، حَيْثُ يَستميلُ قلبه، فيَميلُ إلى الولاء، ويَدينُ بالعِرفانِ لَمَن أنعَمَ عليه بالعفوِ والإطلاق.

وقُدِّم المَنُّ؛ لأنَّه من مكارم الأخلاق، وهو من شيَم العرب التي كانت تفخَرُ بالعفو عن الأسير، وترى في ذلك دليلًا على القوَّة والنَّجدة والكرم، وفي تقديم المَنِّ على الفداء إشارةٌ إلى ترجيح حُرمَة النَّفس على طلب المال؛ إذْ إنَّ العفوَ عن الأسير، وتمكينَهُ من الحياة، أعظَمُ شأنًا وأرفَعُ منزلةً من مُجرَّد أخذِ الفداء عنه، فجاء هذا التَّقديمُ شاهدًا على رحمة الإسلام، وعُلوِّ منزلته، ورفعةِ مبادئِه في معاملة الأسرى(2).

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتها ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ﴾:

تحديدُ غايةِ القتال، وتعليلُ وقوعِ الأسر

لفظ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ قد يكون لانتهاء الغاية، وقد يكون للتَّعليل، فإن كان للانتهاء، دلَّ على أنَّ القِتال بَيْنَ المُسلمين والمُشركين ماضٍ إلى أن لا يكون للمُشركين شوكة، وأنَّه مُستمرٌّ حتَّى تزولَ قوَّتهم، وينقضيَ أمرُهم، فلا تبقى

(1) الكيا الهراسي، أحكام القرآن: 4/ 374، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 498.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 37/ 5، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 39/ 28، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 80/ 26.

لهم قُدرةٌ على مُنازعة أهل الإيمان، وذلك حين يَعُمُّ الإسلامُ الأرضَ، أو حين ينزل عيسى عليه السلام فيكسر الصَّليب، ويضع الجزية، فلا يكون حينها حَرْبٌ بَيْنَ المُسلمين والمُشركين، وإن كان للتَّعليل، دَلَّ على أنَّ وقوعَ الكفّار في الأسر، وإحكامَ القبضة عليهم، إنَّما هو لأجل أن تضعَ الحربُ أوزارَها، أي: ليكُفَّ المشركون عن القتال، وينتهوا عن مُنازَعة المسلمين، فيأمنَ المؤمنون من بأسهم، وينقطعَ عنهم شرُّهم، وعلى هذا، لا تكون ﴿حَتَّىٰ﴾ غايةً لحكم القتال، وإنَّما هي تعليلٌ له، بحيث يكون معنى الآية: استمِرّوا على القتال، وأثخِنوا العدوَّ ضربًا، حتَّى تنهارَ قواهُ، فيترك حربَكُم مضطرًّا، ويرضى بالسِّلم صاغرًا، ويدلُّ على ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مُتعلِّقٌ بهذا التَّعليل؛ إذ لا يكون للأسير شأنٌ إلّا بعد الإثخان، فإذا وقع الأسرُ كان للمُسلمين الخيار بين المنِّ والفداء، فيكون المعنى: لا تتركوا القتلَ عند اللِّقاء، بل أجهِزوا على عدوِّكم، وأثخِنوه، حَتَّى يُسلم أمرَهُ إليكم، ثُمَّ بعد ذلك لكم أن تمُنّوا عليه أو تُفادوه، وفقًا لما تقتضيه مصلحة الإسلام والمُسلمين[1].

بلاغة الاستعارة في التعبير عن انتهاء القتال بوضع الأوزار:

إبداعُ النَّظم في تصوير انتهاء الحرب

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ تصويرٌ بديعٌ رفيعٌ، بطريق الاستعارة المكنيَّة[2]؛ إذ شُبِّهت الحرب بالمطيَّة أو الحمّال الذي يحمل الأثقال، فحُذِف المشبَّه به، ورُمِز إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو (الأوزار)، أي: الأحمال، وأثبتَ لها ما أثبتَ تخييلًا، فإنَّ وضعَ الأوزار مثَلٌ لانتهاء العمل، فكما أنَّ الحمّال والمُسافر إذا ألقى عن

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 317، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 82/ 26.

(2) وقد تكون الاستعارة هنا تصريحيّة؛ باعتبار آخر حيث استعير لفظ الأوزار لآلات الحرب وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها، كالسّلاح وغيره لأنّه لّما لم يكن لها بُدٌّ من جرّها، فكأنّها تحملُها وتستقلُّ بها، فإذا انقضت، فكأنّها وضعتها، يُنظر: الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 317، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 460.

كاهله أحماله، فقد بلغ غايته، وانتهى سَيره، كذلك القتال لا يضع أوزاره إلّا حين تزول أسبابه، وتنتهي الحرب بما يُحقِّق المُراد، فكأنَّ الحربَ قد أنهكَتها الأثقال، فلا تضَعُها إلّا إذا بلغت نهايتها، واستنفدَت قواها، وآنَ لها أن تستريحَ من عناء القتال، وهذا من مُبتكراتِ القرآن الكريم في التَّعبير[1].

بلاغةُ المجاز في إسنادِ وضعِ الأوزار إلى الحرب:

تصويرُ لحظة انتهاءِ الصِّراع واستقرارِ الأمر

في إسنادِ الأوزارِ إلى الحرب مجازٌ عقليٌّ، فالمَقصودُ بوَضعِ الأثقال هُم أهلُ الحرب؛ فهُم الذين يضعون أسلحتهم، ويكفّون عن القتال، حين تنتهي الحرب، وتنقضي أسبابها فجاء هذا المجازُ أكثرَ وقعًا، وأشدَّ تأثيرًا، وأبلغَ في تصوير لحظة انتهاء الصِّراع واستقرار الأمر[2].

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بوضع الأوزار:

الـدَّلالـةُ على انتهاء الحرب وانقضائها

في التَّعبير بوضع الأوزار في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ كنايةٌ بليغةٌ عن انتهاء الحرب وانقضائها؛ إذ لم يُصرَّح بذلك تصريحًا، بل عُبِّر عنه بما يستلزمُه، وفي هذه الكناية إيحاءٌ بأنَّ الحرب، ما دامت قائمةً، فهي مُثقلةٌ بأحمالها، لا تَهدأُ ولا تسكُن، حَتَّى تضعَ تلك الأوزار، فإذا وضعتها، فقد انقضى أمرُها، وسكنت نارُها، فكانت هذه الكناية أبلغَ في الدَّلالة، وأوسعَ في المعنى، وأشدَّ تأثيرًا في تصوير هيبةِ الحرب وما يعقبُها من هدوءٍ وسكونٍ حين تنتهي أسبابها، ويعلو الحقُّ، ويستقرُّ النَّصرُ في أيدي أهله[3].

بلاغةُ الجمع والتَّفريق في الجُملة الكريمة:

إبـرازُ روعة البيان في الجمع بين العدلِ والإحسان

في هذه الآية الكريمة ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 460، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، والقاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 465.

(2) المنصوري، المقتطف: 24/ 5، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 499، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 199.

(3) الخزرجي، نفس الصّباح: 1/ 350، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 458، والصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 305.

جَمعٌ مع تفريقٍ، وإجمالٌ يَعقبُه تفصيلٌ بديعٌ؛ إذْ جَمَعَ اللّه تعالى الكفّار جَميعًا تحت حُكم واحدٍ، وهو شدُّ الوثاق، فَشَمَلهم الذُّلُّ والصَّغار، ولم يُفرِّق بَيْنَ قادتهِم وجُندهم، فهُم جميعًا أسرى في يَد المُسلمين، لا فرقَ بينهم في ذلك، ثُمَّ جاء التَّفريقُ بعد الجمع، والتَّفصيلُ بعد الإجمال، فبيَّن اللّه تعالى مصيرَ الأسرى، وكيفيَّة التَّعامل معهم، فقسمَهُم إلى حالتين اثنتين: الحالة الأولى: المَنُّ عليهم، أي: إطلاقُ سراحهِم دون مُقابلٍ، وذلك إذا أُمِن جانبُهم، وزال خطرُهم. والحالة الثّانية: الفداءُ بإطلاق الأسرَى بمُقابل، سواءٌ كان أسرَى من المُسلمين، أو مالًا، أو غيرَ ذلك، بحسب ما تقتضيه مصلحةُ المسلمين وحالُ الحرب في ذلك الوقت، فكان الأمر في ذلك مَوْكولًا إلى اجتهادِ قادة المسلمين، ليختاروا الأصلحَ وفقَ ما يراهُ الحاكمُ مُناسبًا لمصلحة الأمة[1].

بلاغةُ الإيجاز بِذِكْرِ المَصدرَين المنصوبَين: ﴿مَنًّا﴾، و﴿فِدَآءً﴾:

في الايجاز البديع في النَّظم الرَّفيع اختصارٌ في المبنى واتِّساعٌ في المعنى

في قوله تَعالى ﴿مَنًّا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ إيجازٌ بديعٌ بالحذف؛ إذْ جاء كلٌّ من ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ مصدرَين منصوبَين بفعلٍ محذوفٍ وجوبًا، ولا يجوزُ إظهارُه؛ لأنَّ المصدر إذا وردَ تفصيلًا لعاقبة الأمر، وجبَ نصبُه بإضمارِ الفعل، والتَّقدير: (فإمّا أن تمنّوا منًّا، وإمّا أن تُفادوا فداءً)، فجاءَ التَّعبير وجيزًا في لفظه، واسعًا في معناه، بالغًا في دلالته، مُتناسقًا مع بلاغة النَّظم القُرآنيِّ وجلالِ إعجازه[2].

موقع جُملة ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ مِمّا قبلها:

تمامُ التَّمييز وكمالُ التَّقرير للأمر العظيم الشَّأن

الإتيانُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ جاء تحقيقًا لتمام التَّمييز، وتنويهًا بشأنِ المُشار

---

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 9/ 460، والسّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 689.

(2) السمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 9/ 685، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 108، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم: 9/ 199.

إليه؛ إذْ دلَّ على أمرٍ عظيمٍ قد فُرِغَ منه، مِمّا يوجبُ التَّقرُّرَ في الأذهان، والثَّباتَ في النُّفوس، وكان ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرًا لمُبتدأ مَحذوف، تقديره: الأمر فيهم ما ذُكِرَ من القتل والأسر، وما يترتَّبُ عليه من المَنِّ والفداء، فجاء التَّعريفُ به مُحكمَ السَّبْكِ، موثِّقَ الصِّلةِ بما تقدَّم، مُحقِّقًا للتَّرابُطِ بين عناصر المعنى ومكوِّناتِ النَّظم، فكان في حذف المُبتدأ إضمارٌ يُعزِّزُ الإيجاز، وفي حذفِ الخبر توجيهٌ إلى كمال الإدراك، فصار الحكمُ أرسَخَ، والتقريرُ أبلغَ، والمغزَى أمتنَ وأوضحَ[1].

توجيهُ التَّعبير بجملة الشَّرط ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ﴾:

بيانُ سُننِ التَّدبير الإلهيِّ في مقاصدِ التَّكليف

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية، ولو حرفٌ موضوعٌ للدَّلالة على امتناعِ الجزاءِ لامتناعِ الشَّرْط، وأصلُ دخولِها أن تكونَ للشَّرطِ في الماضي، ولا تدخل على المضارع إلّا لنُكتةٍ بلاغيَّة، ونتأمَّلُ في الآية الكريمة نجدها قد دخلت على الفعل المضارع تقريرًا لعظيم القُدرة، والكشفِ عن سننِ التَّدبير الإلهيِّ في خَلْقه سبحانه؛ إذْ لم يشأ اللّٰه انتصارًا مباشرًا من الكافرين، بل جعلَ أمرَ جهادهم ومُقارعَتهم مَوكولًا إلى عِبادهِ المؤمنين، امتحانًا وابتلاءً، ورَفعًا لدرَجاتِهم في دار التَّكليف، وفي هذا التَّعبير إشعارٌ بأنَّ سنَّة اللّٰه في دفعِ الباطل بالحَقِّ ماضية، وأنَّ النَّصر لا يكون إلّا بأسبابه، لا لمحضِ المشيئة وحدَها، ولو أرادَ اللّٰه لانتصرَ منهُم بقُدرتهِ من غيرِ تكليفٍ للمؤمنين، ولكنَّه ﷻ جعلَ ذلكَ خاضعًا لحِكمَته، مُتعلِّقًا بجهادِ عِباده، ليبلوَهُم ويُميِّزَ منهُم أهلَ الثَّباتِ والصَّبر، فجاء التَّعبيرُ مُحكَمَ السَّبك، بالغَ الدَّلالةِ، بديعَ العِبارةِ عميقَ الإشارة[2].

دلالةُ التَّعبير بالمُضارعِ ﴿يَشَآءُ﴾:

العدولُ عن الفعل الماضي إلى المضارع في قوله تعالى: ﴿يَشَآءُ﴾،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 205، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 76 - 82.

(2) الإيجي، جامع البيان: 4/ 137، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 415، وصالح بهجت: 9/ 342، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 249.

جاء لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ بديعة؛ إذْ أفادَ المُضارعُ بدلالتِه على الاستمرارِ والتَّجدُّد أنَّ انتقامَ اللّه من أعداء دينِه ماضٍ في سُننه، دائرٌ في أحكامِه، لا ينقطعُ ما دامَت عداوتُهم قائمةً، وكيدُهم مُتجدِّدًا، ففي هذا الاستعمال إشارةٌ إلى أنَّ أعداءَ الإسلام في كُلِّ عَصْرٍ وأوانٍ مُستمرّونَ في حَربه، ساعون إلى إطفاء نورِه بوسائلَ مُتجدِّدة، مِمّا يستوجبُ على أهلِ الإيمان التَّيقظ الدّائم، والاستعداد المُتواصل لكسرِ شوكتِهم، وإبطالِ مكرِهم، ولو جاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي، لكان المعنى مُنصرِمًا غير مُتجدِّد، ولتوهَّمَ السّامعُ أنَّ الانتقامَ قد وقعَ وانتهى، فجاءَ المُضارعُ مُحقِّقًا لديمومةِ السُّنَّة، ومُؤكِّدًا لحِكمةِ اللّه في بقاءِ التَّدافُعِ بينَ الحقِّ والباطل، حَتَّى يُبلوَ اللّه المؤمنين، ويَميِّزَ الخبيثَ من الطَّيِّب، فكان التَّعبيرُ بالمُضارع أدقَّ دلالةً، وأبلغَ تقريرًا، وأعظمَ توجيهًا(1).

الـدَّلالـةُ على استمرار سُنَنِ الانتقام من أعداء الدّين وتجدُّدِها

سرُّ التَّعبير بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾، جاء مُتضمِّنًا معانيَ العظَمَة والجلال؛ إذْ أُسنِدَ الفعلُ إلى الاسمِ الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو الاسمُ الجامعُ لصِفاتِ الكمالِ والجلالِ والإكرام، فكان في ذِكرِه استحضارٌ لقُدرته المُطلَقة، وإظهارٌ لهيمَنتِه التّامَّة، وجاء هذا التَّعبيرُ بأسلوبٍ يُقرِّب الصّورة إلى المُخاطَبين، حَتَّى لكأنَّهم يرَونَ الانتقامَ الإلهيَّ رأيَ العَين، فيتصوَّرونهُ ماثِلًا أمامَهُم، فتزدادُ رهبَتُهم، ويشتدُّ في نفوسهم وقعُ التَّهديد، فيكون ذلك أبلغَ في التَّأثير، وأدعَى إلى الامتثالِ والطّاعة(2).

الإشارةُ إلى جلالِ القُدرة وعظَمَةِ الهَيْمَنةِ استحضارًا للعَظمَة والهَيبة

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالانتصار عن الانتقام:

جاء التَّعبيرُ بالانتصار عن الانتقام في قوله تعالى: ﴿لَٱنتَصَرَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 205، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 249.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 206.

تصويرُ الانتقام في صورة الانتصار إبرازًا لقوةِ القاهرِ وعِزَّةِ المنتصر

﴿مِنۡهُمۡ﴾، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبَعيَّة؛ إذْ شُبِّهُ الانتقامُ بالانتصار بجامعِ الغلَبة والقَهر، فجاء التَّعبيرُ بالنَّصرِ أبلغَ وقْعًا، وأشدَّ إحكامًا، والمقامُ مقامُ حربٍ ومُغالبة، فناسبَ أن يُعبَّر عنه بمصطلح النَّصر لِما يقتضيه من العزَّة والهيمَنة؛ ففي هذه الاستعارة إشارةٌ إلى إيقاعِ الهزيمةِ بالكافرين وكسرِ شوكتِهم، فجاءَ التَّعبيرُ بالنَّصر ليؤكِّدَ أنَّ الأخذَ الإلهيَّ لهُم إنَّما هو قضاءٌ بالغ، وحُكمٌ قاطعٌ، إشعارًا بقوَّةِ القاهر، وعزَّةِ المُنتصِر، وفي هذا أبرَعُ الإيجاز، وأبلغُ الإعجاز[1].

دلالة التَّضمين في الفعل (انتصر):

استيفاءُ العِقاب، وإيقاعُ الجزاء بصبغة القهرِ الإلهي

تعديةُ الفعلِ (انتصر) بحرفِ الجَرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾، مع أنَّ الأصلَ فيه أن يُعَدَّى بـ(على)، جاء لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ بديعةٍ؛ إذ ضُمِّنَ الفعلُ معنى (انتقم)، فصار دالًّا على النَّصرِ المَقرونِ بالانتقام، لا النَّصرِ المُجرَّد، فكان في هذا التَّعبيرِ إحكامٌ للمعنى، وتوسعةٌ في الدَّلالةِ، بحيث يُفهَمُ منه استيفاءُ العِقابِ، وإيقاعُ الجزاءِ بصبغةِ القهرِ الإلهيِّ الذي يأخذُ الظّالمينَ أَخْذَ عزيزٍ مُقتدرٍ[2].

سِرُّ العدول في التَّعبير عن الاسمِ الظّاهر بالضَّمير ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

تحقيرُ شأنِ الكافرين وإظهارُ مَهانتِهم وسُفولِ منزلتِهم

العدولُ عن الاسم الظّاهر (الذين كفروا) إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾، من بدائع الأساليب البلاغيَّة؛ إذ جاء التَّعبيرُ عنهم بطريقِ الغيبة، تحقيرًا لشأنهم، وإظهارًا لعدم الالتفاتِ إلى قَدْرِهم بالإعراض عنهم، فجاءَ الضَّميرُ دالًّا على سُفولِ منزلتهم، وهَوانهم في ميزانِ القُدرة الإلهيَّة.

(1) المظهري، التّفسير المظهري: 8/ 421، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5195، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 249.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 206، وابن عاشور، وابن عاشور: 83/ 26.

معنى الواو ودلالةُ العطف في ﴿وَلَٰكِن﴾:

تعليلُ الأمر بالجهاد تمحيصًا للمؤمنين ومحقًّا للكافرين

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾، أي: ولكن أمَرَكُم بالقتالِ ليبلوَ بعضَكم ببعضٍ، أي: المؤمنينَ بالكافرينَ تمحيصًا للمؤمنينَ، وتمحيقًا للكافرينَ، ليبلوَ المؤمنينَ بالكافرينَ بأن يُجاهِدوهم فيستوجبوا الثَّوابَ العظيمَ، والكافرينَ بالمؤمنينَ بأن يُعاجِلَهم على أيديهم ببعضِ عذابِهم كي يرتدعَ بعضُهم عن الكفرِ. فقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ عَطْفٌ على الجُملة السّابقة لتكون تعليلًا للأمر بالقتال، وكَشْفًا عن حكمتِه الربانيَّة؛ إذْ لم يكن الجهادُ لمحضِ سَفْكِ الدِّماء، ولا لمُجرَّد الهيمَنة والاستعلاء، وإنَّما هو ابتلاءٌ يمتحنُ اللّه به عبادَهُ، فيصطفي به أهلَ الإيمان، ويخذل به أهلَ الطُّغيان، فتكون المعاركُ ميادين للتَّمحيص، يَميِّزُ اللّه فيها الخبيثَ من الطَّيب[1].

الغرضُ من الاستدراكِ بـ(لكن):

رفعُ احتمالِ أن يكونَ تركُ الانتقامِ لأمرٍ آخرَ غير ما بُيِّن بعده

الاستدراكُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ انتقالٌ بديعٌ من معنًى إلى آخر، فمرجعُه إلى ما تضمَّنتهُ المشيئةُ من احتمالِ أن يكون تركُ الانتقام لأمرٍ آخر غير ما بُيِّن بعده، فجاء الاستدراكُ قاطعًا لهذا الاحتمال، رافعًا لهذا التَّوهُّم، كاشفًا عن الحكمة الإلهيَّة في ذلك؛ إذْ لم يكُن الامتناعُ عن الانتقام عبثًا، ولا الإمهالُ بلا غاية، ولكن لتكون سُنَّة الابتلاءِ والتَّدافُع ماضيةً، يُمحَّصُ بها أهلُ الإيمان، ويُخذَلُ بها أهلُ الطُّغيان، جاء الاستدراكُ مُحكَمًا في موضعِه، بالغًا في دلالته، مبيِّنًا للمراد أوضحَ بيان[2].

سِرُّ حَذْفِ المُسند المفهوم من السّياق:

التَّسريعُ في تقديم العلَّة من التَّشريع

جاء الحَذْفُ في هذا المقام بديعًا في سَبْكه، بالغًا في دلالته؛

(1) تفسير البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 120، ومأمون حمُّوش، التّفسير المأمون: 7/ 301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 83.

إذ حُذف المُسنَد، والتَّقدير: (ولكن أمركم بالقتال ليَبْلوَ بَعْضَكُم ببَعْضٍ)، وهو مفهومٌ من سياق الآيات، فكان في حذفه إيجازٌ يُسْرِعُ بالسّامع إلى إدراك العِلَّة، ويُهيِّئُ النفسَ لتلقّي الحكمة الإلهيَّة في هذا التَّشريع، فهو مبادرة إلى ذكرِ العِلَّة، ليكونَ ذلك أوقعَ في النَّفْسِ، وأسرعَ في البيان، ولإشعار المُخاطَب بأنَّ القتال لم يُفرَض لمحضِ سفكِ الدِّماء، بل هو ابتلاءٌ وتمحيص[1].

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾:

تعليلُ الحكمة الإلهيَّة في تركِ الانتقام من الكفّار، وإمهالهم

اللّامُ في ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ هي لامُ التَّعليل[2]، فقد جاءت تعليلًا للحكمة الإلهيَّة في عدم وقوع الانتقام المُباشر من الكافرين، فهيَ تُفيد أنَّ سببَ عدمِ الانتقام الفوريِّ هو الابتلاء والتَّمحيص، حَيْثُ جَعَلَ اللّه التَّدافعَ بَيْنَ المؤمنينَ والكافرينَ سُنَّةً قائمةً ليُميِّز بها أهلَ الإيمان من أهل الكُفْرِ، ويختبرَ بها عبادَهُ في ساحةِ الجهادِ والصَّبر؛ فلو شاءَ اللّه لأهلكَ الكافرينَ دفعةً بغير قتال، لكنَّه ﷻ شاءَ أنْ يُجاهِدَهُم المؤمنون، فينالوا ثوابَ المجاهدين، ويُكتبَ لهُم الفضلُ المخلَّد في صُحُف الدَّهر، وكذلك كان ابتلاءُ الكافرين بالمؤمنين، ليُعجَّلَ لهم بعضُ العقاب على أيدي أهلِ الإيمان، فيرتدعَ بعضُهم، ويهتديَ مَن كتبَ اللّه له الهداية[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارع ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾:

تجدُّد سُنَّة الاختبار والتَّمحيص واستمرارُها

عَبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل المُضارع: ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ ليدُلَّ على التَّجدُّد والدَّوام؛ إذْ لم يكن الامتحانُ والتَّمحيصُ أمرًا مُنصرِمًا وقَعَ في زمانٍ فانقضَى، بل هو سُنَّةٌ ماضيةٌ، مُمتدَّةٌ في الأزمان، مُتعاقبةٌ في الدُّهور، يتكرَّرُ وقوعُها ما بقيَ التَّدافعُ بَيْنَ أهل الحَقِّ وأهلِ الباطل.

---

(1) البغوي، تفسير البغوي: 4/ 208، والمظهري، التّفسير المظهري: 8/ 422.

(2) الصافي، الجدول في إعراب: 26/ 208.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 119، ولجنة من العلماء، التّفسير الوسيط: 9/ 948.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالبلوَى على التَّكليف:

تمييزُ الصّادقِ من المدَّعي، والثّابتِ من المتزلزِل

لمّا كان التَّكليفُ الذي أُنيطَ بالمؤمنين يؤدّي إلى التَّحقُّقِ والاختبار، وكان في جوهره مُشابهًا للامتحان والمِحنة، سُمّيَ اختبارًا وبلوى، فجاءَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ استُعيرَ لفظُ (الابتلاء) لِما فيه من معنى الامتحان، تشبيهًا للتَّكليف الجهاديِّ بالاختبار الذي يُميَّزُ به الصّادقُ من المُدَّعي، والثّابتُ من المتزلزل[1].

الغرضُ من التَّعريف بالإضافة ﴿بَعۡضَكُم﴾:

التَّأكيدُ على تشريفِ أهل الإيمان، والتَّدليلُ على رِفعة منزلتهم

تعريفُ مَن وقعَ عليهم الابتلاءُ؛ وهم بعضُ المؤمنين ﴿بَعۡضَكُم﴾ تأكيدٌ على تشريفِ أهل الإيمان، وتدليلٌ على رِفعة منزلتهم، وهُم في ميدان الجهاد، حيثُ الاصطفاءُ والاختبار، والتَّكريمُ والتَّمحيصُ، فكان هذا الابتلاءُ شهادةً لهم بالكرامة، وتزكيةً لهُم في مقام العبوديَّة، اختصَّهُم اللّٰه بها دونَ غيرِهم[2].

دلالة التَّكرار في لفظ (بعض) وموقعُها في شبه الجُملة:

تأنيسٌ للمؤمنين وتثبيتٌ لقلوبهم وعزائمِهم لمُلاقاةِ عدوِّهم

تكرارُ لفظ (بعض) في قوله تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾، جاء مُحكَمًا في موضعه، بالغًا في دلالته؛ إذ أفادَ معنى التَّلاحُمِ والتَّداخُلِ بَيْنَ الفريقَين، فليسَ الابتلاءُ واقعًا على طرفٍ دون الآخر، بل هو تدافعٌ متبادَلٌ، وامتحانٌ مشتركٌ، يجري به التَّمحيصُ للمؤمنين، والتَّمحيقُ للكافرين، وفي هذا التَّكرارِ تأنيسٌ للمؤمنينَ وتثبيتٌ لقلوبهم؛ إذ لم يَجعلِ الابتلاءَ بالقتلِ قاصرًا عليهم وحدَهم، بل قرَّر أنَّ أعداءَهم مُبتَلَونَ كذلك، وأنَّهم سينالونَ من العذابِ والخِذلانِ بقدرِ ما ينالُ المؤمنونَ من الجهادِ والمُجاهدةِ، وفي هذا ما يُحفِّزُ المؤمنينَ على القتالِ، ويشدُّ من عزائمِهم؛ إذْ علِموا

---

(1) محيي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 584.

(2) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 252.

أنَّ أعداءَهم واقعونَ في ذاتِ المِحنةِ، وأنَّهم كما يُبتَلَونَ بجهادِ أعدائِهم، فإنَّ أعداءَهم يُبتَلَونَ بملاقاةِ جُندِ اللّه، فيكونُ ذلك باعثًا على الثَّباتِ، وهذا من قبيلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النِّساء: 104].

بديعُ التَّوجيه في التَّعبير بـ ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾:

التَّعبيرُ بالابتلاء بَيْنَ التَّمحيص والتَّبكيتِ؛ مدحًا للصّادقين وذمًّا للكافرين

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ مُحكَمًا في الدَّلالة بما فيه من مَدْحٍ للمُؤمنين، حيث يُرسِّخُ في النُّفوس حقيقة الجهاد، وأنَّه مَحَكٌّ للقلوب، وميزانٌ للثَّبات، وسببٌ لرفعة الدَّرجات، وبما فيه من ذَمٍّ وتبكيتٍ للكافرين؛ إذ جُعل لقاؤهُم بالمؤمنين في ساحة القتال بمنزلةِ الاختبار الذي يُمتحَنُ فيه العاجز، فتُفضحُ عَورَته، وتتكشفُ فيه مواطنُ ضَعفه، وعليه ففي الجُملة لونٌ من ألوانِ البديع؛ وهو التَّوجيهُ على أنَّ الخِطاب في ﴿بَعۡضَكُم﴾ عامٌّ للمُؤمنينَ والكافرينَ تَغْليبًا؛ بما فيه من مدحٍ للمؤمنين، وذَمٍّ للكافرين؛ فالجهادُ ميدانٌ يَختبرُ اللّه به عبادَهُ فيعلو فيه الصّادقون، ويتساقطُ فيه الكفّارُ والمنافقون[1].

سِرُّ تعريفِ المُسنَد إليه بالموصوليّة:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ في التَّناسُب بَيْنَ الصِّلة والجزاء

جاء تعريفُ المُسنَد إليه بالموصوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إيماءً إلى وجهِ بناءِ الخبر، ليكونَ في ذلك إشارةٌ إلى العِلَّة التي استحقّوا بها الجزاء الكريم، فارتبطَ الحالُ بالمآل، وكان مضمونُ الصِّلة ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُتناسبًا مع مفهوم الخبر ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فكأنَّ الاسمَ الموصولَ جاء ليُقرِّر أنَّ هذا المصير ليس لكلِّ مقتول، بل هو خاصٌّ بمَن قُتلوا في سبيل اللّه،

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 13، ولجنة من العلماء، التّفسير الوسيط: 9/ 947.

فجعلَ اللّه الوعدَ قائمًا على موجبٍ من صفاتهم، وهو بذلُ النَّفسِ في سبيل اللّه[1].

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

تجديدُ المعاني وتنشيطُ السّامعين إلى تدبُّر ما يُقال من المعاني

الالتفات جاء في قوله تعالى: ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عُدولًا بديعًا من الخطاب إلى الغَيْبة، بعد أن كان السّياق موجِّهًا الخطابَ للمؤمنين في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فتنوَّعت الضَّمائر وإن كان مرجعُ الكلام واحدًا في الحديث عن الجهاد، ليكونَ ذلك أوقعَ في النَّفس، وأشدَّ تأثيرًا في القلب؛ إذْ في هذا التَّنوُّع تجديدٌ للمعنى، وتنشيطٌ للسّامع ليظلَّ ذِهْنُه متوقِّدًا مُقبلًا على تدبُّر الآية بتمامها[2].

توجيه تنوُّعِ القراءات في ﴿قُتِلُواْ﴾ وأثره في ثَراء المعنى:

تمجيدُ الجهاد في سبيل الله، وتعظيمُ أهله

اختلف القُرّاء في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ فقرأ البَصريّان وحفص ﴿قُتِلُواْ﴾ بضمِّ القاف وكَسْرِ التّاء من غير ألفٍ بينهما، وقَرأ الباقون بفتح القافِ والتّاء وألفٍ بينهما ﴿قَٰتَلُواْ﴾[3]، و قد جاء هذا الاختلافُ على وجهٍ يزيدُ المعنى ثراءً، ويكسوهُ بلاغةً واتِّساعًا، فقراءةُ ﴿قُتِلُواْ﴾، أي: استُشهِدوا في سبيلِ اللّه هي قراءةٌ أكثرُ ترغيبًا، لما فيها من البِشارةِ بعلوِّ منزلةِ الشَّهيدِ في سبيلِ اللّه، ورِفعةِ مقامِه عند ربِّه، وقراءةُ الجُمهورِ ﴿قَٰتَلُواْ﴾ معناها جاهدوا، وهي أعظمُ ترجيةً؛ إذ شملت كُلَّ مَن خاضَ ميادينَ القتالِ في سبيلِ اللّه، سواءٌ أفضى به إلى الشَّهادةِ أم بقيَ حيًّا، وهذا المعنى يوسِّعُ دائرةَ الثَّوابِ، ليشملَ المُجاهدينَ والشُّهداءَ على السَّواءِ، فتنوَّعتِ القراءاتُ، وكُلُّها دائرةٌ حولَ تمجيدِ الجهادِ وتعظيمِ أهلِه.[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 83.
(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 252.
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/ 374.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 206، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 93، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 415.

بلاغةُ الاحتراس في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الجهادُ الحقّ هو الجامعُ بَيْنَ إخلاصِ النّيَّة وشرفِ الغاية

قيَّد النَّظمُ الكريمُ القتالَ بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا احتراسٌ بديعٌ، وإيضاحٌ حكيمٌ، جاء دفعًا لِما قد يُتوهَّم من أنَّ هذا الجزاءَ العظيمَ لِكُلِّ مقتولٍ في الحروب على الإطلاق، وليس ذلك مقصودًا، بل اختصَّ اللّه به مَن كان جهادُهُ خالصًا لوجهِه الكريم لتكونَ كلمةُ اللّه هي العُليا؛ لا تشوبُه الأهواءُ، ولا تداخلُهُ المَطامعُ، ولا يبتغي به صاحبُه مجدًا دُنيويًّا أو حميَّة[1].

دلالة التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

تشريفُ الجهادِ بكونهِ في سبيل اللّه رفعًا لمَقامه وإعلاءً لشأنه وتحقيقًا للإخلاصِ فيه

قولُه تعالى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأجل تسهيلِ طريقِ الملكِ الأعظم المُتَّصفِ بجميع صفاتِ الكمال؛ فالتَّعبيرُ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ جاء إعلاءً لشأن الجهاد، ورفعًا لمقامه؛ إذ أُضيفَ إلى اسم الذّات العليَّة، الدّالِّ على الجلال والكمال؛ وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ السَّبيل الذي يُبذَلُ فيه النَّفسُ والمالُ ليس سبيلَ عصبيَّةٍ، ولا هوًى، ولا دنيا، بل هو سبيلٌ موصولٌ باللّه، قائمٌ على إخلاصِ النّيَّة له وحدَهُ، وفي هذا من التَّثبيت لقلوبِ المؤمنين ما فيه، وأنَّ مَن قاتلَ في سبيلِ اللّه، نُصرةً لدينِه، فقد نصرَتْهُ العنايةُ الإلهيَّة، وتولَّى أمرَهُ رَبُّ العِزَّة والجلال، وأنَّ مَن قُتل في تلك السَّبيل فقد فازَ بالخُلود في جنّاتِ النَّعيم[2].

معنى الفاء في ﴿فَلَن﴾:

تعقيبُ الجزاء على الوصف المذكور تحقيقًا للوعد وتأكيدًا للثَّواب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جاءَت رابطةً للخبرِ بما تضمَّنَهُ الاسمُ الموصولُ من معنى الشَّرطِ؛ إذْ كثيرًا ما يُشرَبُ الموصولُ معنى الشَّرطِ، فيُقرَنُ خبرُهُ بالفاءِ، فجاء هذا الاقترانُ دالًّا على ترتيبِ الجزاءِ على الوصفِ المذكورِ في صِلةِ الموصولِ، وهو القَتلُ في سبيلِ اللّه، فكانَ في ذِكْرِ الفاءِ إفادةٌ للتَّعقيبِ المُباشرِ، ودلَّ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 357، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/ 947.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 207، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 26.

هذا التَّركيبُ البلاغيُّ على أنَّ عَدَمَ إضلالِ أعمالِهم مُترتِّبٌ على استشهادِهم في سبيلِ اللّه، فجُعِلَ ذلكَ وعدًا قاطعًا لا يَقبلُ التَّأخيرَ ولا التَّعليقَ، وفي هذا تحقيقٌ للارتباطِ الوثيقِ بَيْنَ الجِهادِ وثوابِ اللّه الموعودِ، ولمّا كانَ المقامُ مقامَ ترغيبٍ، جاءَ الخبرُ مقرونًا بالفاءِ، ليكونَ وعدًا مُحكَمًا، وإعلامًا بأنَّ أعمالَ الشُّهداءِ محفوظةٌ لا تُهمَلُ، ولا تُضيَّع[1].

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ في الآية:

التَّنويهُ بشأنِ الجهادِ في سبيلِ الله

ذِكْرُ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمار؛ إذْ كانَ مُقتضَى الظّاهرِ أن يُقال: (فلن يضلَّ اللّه أعمالكُم) وعلى أسلوب الخطاب، لكنَّه عدلَ عن ذلك إلى الإظهار، لِما فيه من بلاغةِ التَّوكيد، وتوجيهِ العنايةِ إلى المسندِ إليه، تنويهًا بالصِّلة، وإعلاءً لشأنها، وإيماءً إلى أنَّ ما بعدَها من الخبرِ مترتِّبٌ عليها، قائمٌ بسبَبِها، وجاء تقديمُهُ على الخبرِ الفعليِّ تقويةً للخبر، وتثبيتًا لمعناهُ في النُّفوس، حَتَّى يكون أرسخَ في التَّصديق، وأوقعَ في البيانِ والتَّحقيق[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿يُضِلَّ﴾:

الدَّلالةُ على فَناءِ أعمالِ الكافرين وخُلودِ آثارِ المُؤمنين

المُتأمِّلُ في نَظْمِ هذه السّورة الكريمة، يجدُ في اختلافِ الأسلوب بَيْنَ الحديثِ عن أعمالِ الكافرين وأعمالِ المؤمنين سرًّا بلاغيًّا عظيمَ الإحكام؛ إذْ لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ إضلالَ أعمالِ الذين كفروا قال: ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي، فإنَّ أعمالهم متى وُجِدت، عُدِمَت وأبطلَها الحقُّ ﷻ، فلا أثر لها في ميزان الجزاء، وكأنَّها لم تكن، فكان الماضي أليق بها، فلا يُرجى له بقاءٌ ولا امتداد، ولما ذكر حفظ أعمال الذين قُتلوا في سبيله قال: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فجاء بصيغةِ المضارعِ، فإنَّ أعمالَهم لا يُضيعُها اللّه، ولا يَكتبُ عليها

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 207، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 84/ 26.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 83/ 26.

الفناءَ، بل تستمرُّ وتبقى، وتَمتدُّ آثارُها الطَّيِّبةُ في الأمَّةِ ما دامَتِ الحياةُ، فجاءَ المُضارعُ دالًّا على الاستمرارِ والدَّوام لتلك الأعمالِ وآثارِها، وفي هذا الاختلافِ دلالةٌ على التَّبايُنِ التَّامِّ بينَ مصيرِ الفريقين، كما أنَّ بيْنَ الدّاعي والصّادِّ غايةَ التَّبايُنِ والتَّضادِّ[1].

دلالة التَّقابُل في ذكرِ مآل المؤمنينَ بعد مآلِ الكافرين:

تقابُلُ المَصائر بَيْنَ رِفعة الشُّهداء ومَهانةِ الكُفّار

التَّقابلُ في هذه الآيات، جاء مُحكَمًا في نَظمِه، بالغًا في دلالته؛ إذ جعلَ اللّه سُبحانه ما وردَ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ مقابلًا لِما وردَ في قوله: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾، فكانَ هذا التَّقابُلُ دالًّا على الفرقِ بَيْنَ مآلِ المؤمنين ومآلِ الكافرين، وبَيْنَ العِزَّة والكرامة التي أعدَّها اللّه للمُجاهدين، والهوانِ والخِذلانِ الذي توعَّدَ به أهلَ الكفر والطُّغيان، فقد كان في ذِكْرِ ضَرْبِ الرِّقاب وأسْرِ الكافرين إظهارٌ لَمهانتهم وذِلَّتهم؛ إذ صاروا تحتَ سيفِ المؤمنين، بين مقتولٍ وأسيرٍ لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، يُقابلُ ذلك رِفعةُ مقامِ الذين قُتلوا في سبيل اللّه، الذين كتبَ لهم ربُّهم الهداية، وصلاحَ البال، والخلودَ في دار الكرامة، فكان التَّقابلُ بَيْنَ حال الفريقين أبلغَ ما يكونُ في التَّصوير، وأعمقَ ما يكونُ في الدَّلالة[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 41/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 83/ 26.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾

[محمّد ﷺ: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهما:

تَتابُع الإنعامِ من فضلٍ عظيمٍ إلى ثوابٍ أعظمَ وأكرَم

لّما كان ثوابُ من قُتل في سبيل الله عظيمَ القدر، جليلَ الشَّأن، أتبعَهُ الحَقُّ ﷻ بثوابٍ أعظمَ وأكرَمَ، فجاء قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ بشارةً تتجلَّى فيها العنايةُ الإلهيَّةُ، وتفيضُ منها الرَّحمةُ الرَّبانيَّة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾: أصلُ معنى الهداية هو التَّقدُّم للإرشاد، كقَوْلهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمتُهُ لأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّم لِذَلِكَ هادٍ؛ لأنه يَقْدُمُ القومَ نحوَ وِجْهَتِهم ليدلَّهُم(2) وذكرَ الرّاغبُ أنَّها: دلالةٌ بلُطْفٍ، وخُصَّ ما كان دلالةً بـ (هَدَيتُ)، وما كان إعطاءً بـ (أهديتُ)، يُقالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً. وما كان منه في جانب البشَرِ فهو بمعنى الإرشادِ والبَيانِ والدَّلالةِ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشّورى: 52]، وما كان من الله تعالى فهو الدَّلالةُ والتَّوفيقُ كقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، و ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]: دلَّنا عليها ووفَّقنا إليها والمعنى هنا: سيُرشِدُهم الله ويوفِّقُهم لألوانِ الهداية والإيمان، في الدُّنيا الى أرشَدِ الأُمورِ و في الآخرةِ إلى الثواب(3).

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدي).
(3) الرّاغب، المُفردات: (هدي)، والجرجاني، التّعريفات، ص: 277، والمناوي، التّوقيف، ص: 343، والكفوي، الكُليّات، ص: 952، والسّفّاريني، لوامع الأنوار: 1/ 50، مأمون حموش، التّفسير المأمون: 7/ 305، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 500، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5198.

2) ﴿عَرَّفَهَا﴾: مِنَ الجذْرِ (عَرَفَ)، وهو أصلٌ يَدُلُّ على تَمَيُّزِ أعْلى الشَّيْءِ أو ظاهِره، بمَلْمَحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ ويُبيِّنه أو عَلى أمرٍ فيه، كعُرْفِ الدّيكِ والفَرَسِ، ومنه عُرْفُ الرَّملِ والجبَلِ: أعاليه، عَرَّفَ الشيءَ: إذا بَيَّنَه ليُعْرَفَ، وعَرَفاتٌ: المُرْتَفِعاتُ الكَثيرَةُ المُنْتَشِرَةُ، ومِنَ العُلوِّ: عَريفُ القَوْمِ: سَيِّدُهُم[1]، ومنه العَرْفُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، تَسْطَعُ فوْقَ الشَّيْءِ وتَدُلُّ عَلَيْه، يقال: ما أطيبَ عَرْفَهُ[2]، والمعنى هُنا وصَفَها لهُم وبَيَّن لهُم منازِلهم فيها بعد دُخولها[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ثوابُ المُجاهدين هدايةٌ في الدُّنيا، وكرامةٌ في الآخرة

يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّهُ للمُجاهدينَ مِن ثَوابٍ عَظيمٍ، فيقولُ: والَّذين استُشهِدوا وهم يُقاتِلونَ مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمةِ اللّه، فلنْ يُضيعَ أعمالَهم ولنْ يُبطِلَها. سيَهْديهم اللّه ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم، ويُدخِلُهم الجنَّةَ يومَ القيامةِ، ويَهْديهم إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم فيها بحيثُ لا يُخطِئونَها[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ في المطلع:

البيانُ الشّافي والتَّفصيلُ الوافي للحِفْظِ السّابق

قوله تعالى: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ جاء استئنافًا بيانيًّا لكمال الاتصال بَيْنَ الجُملتيْن؛ إذْ كان وعدُ اللّه تعالى بحِفظ أعمالِ المجاهدين في سبيله في قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ تمهيدًا لما يترتَّبُ على ذلك من جزاءٍ كريمٍ وهدايةٍ عظيمة، فجاءت جملة ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ وما بعدَها بيانًا شافيًا وتفصيلًا وافيًا لهذا الحفظ، حتَّى يُحيطَ السّامعُ عِلْمًا بجلالِ الجزاء وسعَةِ الإحسان، فيكون لهم من عناية اللّه نصيبٌ موفور،

(1) الحميري، شمس العلوم: (التّعريف)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).
(2) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط: (عرف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 84، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 409.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل: 45/ 4، والطّبري جامع البيان: 21/ 191، والواحدي، التّفسير: 4/ 121، والقُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 231.

ومن تأييده حظٌّ عظيم، فلا يَضلّون في الدُّنيا عن طريق الحَقِّ، ولا يَجهلون في الآخرة مَنازلَهُم في الجَنَّة، فجاءَ هذا الاستئنافُ تكميلًا للوعد، وزيادةً في التَّوكيد، وإظهارًا لكمال عنايةِ اللّه بعبادِهِ الذين بذلوا أرواحَهُم في سبيله[1].

سِرُّ التَّعبير بالسّين ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾:

وعدُ الله محقَّقُ الوقوع

السّينُ حرفُ استقبالٍ، وتسويف، وهي في حَقِّ اللّه تعالى تُفيدُ تحقيقَ الوقوع، وتأكيدَ الموعود؛ فإنَّ وعْدَ اللّه حقٌّ لا يَتخلَّف، وقوله فَصْلٌ لا مرَدَّ له؛ فهو وعدٌ من اللّه، والحقُّ ﷻ لا يُخلف الميعاد[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾:

هدايةُ المُجاهدين وعدٌ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، وتثبيتٌ دائم

قوله تعالى ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾، أي: في الدّارين بوعدٍ لا خُلْفَ فيه بعد المُجاهدة إلى كلِّ ما ينفعُهُم؛ مُجدِّدًا ذلك على سبيل الاستمرار، وهذا الوعدُ يسكُبُ في القلوب بَردَ اليقين، ويملأ النُّفوسَ ثقةً بوَعدِ اللّه، فيكونُ أعظمَ تثبيتًا للمجاهدين، وأشدَّ تحفيزًا لطالبي الشَّهادة[3].

سِرُّ حذفِ المُسندِ إليه في مقامِ الهداية وإصلاحِ البال:

دلالـةُ الأفعال عـلى جـلالِ الفاعل

حُذِفَ المُسندُ إليه في هذا المقام، وهوَ الاسمُ الجليلُ (اللّه)، ولم يُذكَر صريحًا؛ لأنَّ هذهِ الأفعالَ الواردةَ في السّياقِ؛ مِنَ الهدايةِ وإصلاحِ البالِ وإدخالِ الجَنَّةِ لا تصدُرُ إلّا عنِ اللّه ﷻ، فهيَ من خصائصِ أفعاله، ومن دلائلِ قُدرتِه، فكانَ في حذفِ الاسم الجليلِ إيجازٌ مع وضوحِ الدَّلالةِ، واختصارٌ مع تمامِ المعنى، وفي هذا الحذفِ إشعارٌ بعظمةِ هذهِ الأفعالِ، وجلالِ فاعلِها، فكأنَّ التَّعريفَ بها أغنى عنِ التَّصريحِ بفاعلِها؛ إذ لا يَقدِرُ عليها إلّا اللّه وحدَه، فصارَ ذِكْرُها كافيًا في الإحالةِ عليه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 84/ 26.
(2) إسماعيل حقّيّ، روح البيان: 8/ 500، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 75.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 207.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 136، ومأمون حموش، التّفسير المأمون: 7/ 305، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5198.

دلالة التَّعبير بالمُضارع (يصلح) هُنا و(أصلح) فيما سَبَق:

بيانُ ثباتِ الجزاء واستمرارِ الفضل

قوله تعالى: ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ جاء مُتناسبًا مع سياق الآيات، مُحكَمًا في موضِعه، بالغًا في دلالته؛ إذْ عبَّر النَّظمُ الكريمُ هُنا بالفعل المُضارع (يُصْلِحُ)، في حين جاءَ في مطلع السّورة بالفعل الماضي ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾، وهو من دقائق النَّظم القرآنيِّ التي تُراعي تناسُبَ الألفاظ مع المقام، وتُحكِمُ الصِّلة بَيْنَ السَّبب والجزاء؛ ففي أوَّل السّورة، كان الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات؛ والإيمانُ والعملُ الصّالحُ قد تَحَقَّق وقوعُهما، فناسَبَ الإخبار عن جزائهِم بصيغة الماضي ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾؛ إذْ كانَ ذلك وعدًا قد تحقَّق لهُم جزاؤه، أمّا في هذه الآية، فقد جاء الوعدُ لَمن جاهدوا في سبيل اللّه، وانتظَروا لقاءَ العَدوِّ، فناسبَ ذلكَ التَّعبير بصيغة المُضارع ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾؛ إذْ كانَ الجزاءُ مترتِّبًا على الاستقبال، فجاء الزَّمنُ مُتوافقًا مع المعنى، مُتناسبًا مع السّياق، مُتطابقًا مع مقتضى الحال، وهكذا كان اختيارُ المُضارع هُنا إشارةً إلى أنَّ الصَّلاحَ الموعودَ ليس قاصرًا على لحظةٍ بعَينِها، بل هو مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، يَتتابَعُ على المُجاهدين، كُلَّما جاهَدوا وبذَلوا، فيكون وعدًا مُمتدًّا، وترغيبًا مُستمرًّا في السَّير على طريق الجهاد[1].

بلاغةُ التَّوزيعِ في توجيهِ معنى الهداية وإصلاحِ البال على القراءات السّابقة:

كرامةُ المُجاهدينَ حاصلةٌ لهُم بالهداية في الدُّنيا والنَّعيم في الآخرة

في قراءة الجمهور ﴿قَتَلُوا۟﴾ في الآية السّابقة، مُفاعَلة من المُقاتلة، وعلى هذا الوجه يكون قوله: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ دالًّا على الهداية بلُطفِ اللّه ورحمته؛ إذْ يَهديهِم في الدُّنيا إلى العمل الصّالح، ويوفِّقهُم إلى ما فيه الخير، ويهديهم في الآخرة إلى دار الكرامة والخُلود، وجاء قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ ترشيحًا وتوكيدًا لهذا المعنى، ليكونَ بَيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه تغايُرٌ بديعٌ؛ إذ تشمَلُ الهدايةُ مَن بقيَ حيًّا من المُجاهدين، فتكون لهم الهدايةُ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 41/ 28.

الدُّنيا والآخرة، وفي قراءة ﴿قُتِلُواْ﴾ وهم مَن نالَ الشَّهادة، فهدايتُهم تكونُ في الآخرة؛ إذ يُساقونَ إلى منازلِهم في الجَنَّة، يعرفونَها كما يعرفونَ ديارَهم في الدُّنيا، وبذلك يَتجلَّى من خلال اختلافِ القراءتين اتِّساعُ دائرة الجزاء، وعِظَمُ ما أعدَّهُ اللّه للمُجاهدين، سواءٌ أكانوا من الذين استُشهدوا في سبيله، أم ممَّن بقوا أحياءً يواصلون دربَ الجهاد؛ فالكلامُ على طريقةِ التَّوزيع(1).

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ﴾:

ترابُط الكرامتين هـدايـة المـجـاهـديـن، وإدخـالـهـم الجنَّة

قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ جاء معطوفًا على ما قبله، مُترابطًا معه في نظمِه، فلمّا ذُكِرَ وعْدُ اللّه للمجاهدين بالهدايةِ العظيمة، التي تُثبِّتُ قلوبَهم، وتُطمئِنُ نفوسَهم، أتبعَ ذلك بذِكرِ الجزاء الأسمَى، والثَّواب الأعلى، وهو دخولُ الجَنَّة، فجاء العطف على الجملة السّابقة ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ تحقيقًا للتَّكامُل بَيْنَ الكرامتين، والتَّرابط بين المَنزلَتيْن في الفضل، فلِتَوَسُّطِ العطفِ بَيْنَ الكمالين، واتِّفاقِ الجُملتين في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، جاءت الجُملةُ الثّانيةُ مُتمِّمةً للأولى، ومؤكِّدةً لما فيها من البِشارة والإكرام(2).

موقع جُملة ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ مِمّا قبلها:

إينـاسُ الأرواح بتعريفِ المجاهد بمَنازلِ النَّعيم الخالد

في قوله تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾، جاء لفظ التَّعريف واسع المعنى؛ إذ تعدَّدت وجوهُه، وتنوَّعت دلالاتُه، فكان من التَّعريف الذي هو البيان والتَّحديد، أي: أنَّهم إذا دخلوا الجَنَّة عَرَفوا منازلهم فيها معرفةً تامَّة، حتَّى يكون أحدُهم أشدَّ معرفةً بمَسكنه في الجَنَّة منه بمَسكنه في الدُّنيا، لا يضلُّ عنه، ولا يُخطئه، بل يسيرُ إليه سَيْرَ المُشتاقِ العارفِ بمَوضِعِه، وقد يكونُ المعنى مأخوذًا من العَرْفِ، وهو طيِّبُ الرّائحة، فيكون معنى الكلام: أنَّه سُبحانه يُدخِلُهم الجَنَّة قد طَيَّبها لهُم، فيكون هذا المعنى

(1) النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 414، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 7/ 185.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 207.

دالًّا على كمالِ النَّعيم، وتمام الكَرامة؛ إذ يُقبلون على منازلهم في الجَنَّة، وقد فاحَ طيبها، وعَبَقَ أريجها، فيستنشقون منها ما يُذهب عنهم كُلَّ عَناء، ويملأ نفوسهم سرورًا ورضًا، وقد يكون التَّعريف هُنا واقعًا في الدُّنيا قبل الآخرة، أي: أنَّه تعالى عَرَّف المؤمنين عباده الجنَّة بذِكر أوصافِها، وأودَع في قلوبهم الشَّوقَ إليها، فصارت أرواحُهم تهفو وتُسابقُ إليها، حتَّى جاهَدوا وبذلوا في سبيلها الغاليَ والنَّفيس، فتاقت أنفسُهم إليها؛ ولا مانعَ أن تكون هذه المعاني جميعًا مقصودةً، فيكون التَّعريفُ بها في الدُّنيا بإخبارهم عنها، حتَّى تشتاقَ نفوسُهُم إليها، ويكون التَّعريفُ بها في الآخرة بأن يُقبلوا عليها وقد طُيِّبت لهم، ثُمَّ يكون التَّعريفُ أتمَّ وأكمَلَ بأن يَسيروا إليها فلا يُخطئونَ منازلهم، بل يهتدون إليها اهتداءً أيسَرَ من اهتدائهم إلى بيوتهم في الدُّنيا، فكان هذا التَّعبيرُ مُحكَمَ السَّبكِ، بالغَ الإعجاز، جامعًا بين بديعِ البلاغةِ وعظيمِ الدَّلالة(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهِداية والإرْشاد:

الهِدايةُ أعمُّ مِنَ الإرشادِ مِنْ وجهٍ وأخَصُّ من وجهٍ؛ لأنَّ الهداية تكون في المحبوب وفي المكروه، فالأوَّلُ كآيةِ الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، والثّاني كقوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافّات: 23]، والإرشادُ لا يكونُ إلّا في المحبوب؛ فالهدايةُ بهذا الاعتبارِ أعَمُّ.

الـهـدايـة أعـمُّ، وتـكـون فـي المحبوب والمكروه، والإرشادُ لا يكونُ إلّا في المحبوب

وأمّا خصوصيَّةُ الهدايةِ؛ فَلِأنَّ الهدايةَ هي الدِّلالةُ الموصِلَةُ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ منه ذَلِكَ(2). ومن هنا اختيرَت لفظةُ ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ لتُناسِبَ سياقَ مِنَّةِ اللّه على عباده المؤمنين.

---

(1) السّخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 343، والسّيواسي، عيون التّفاسير: 4/ 117، والمكِّي، المعين: 1/ 507، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 74.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 42، وجمال الدّين الفتّني، مجمع بحار الأنوار: 5/ 146، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: 2/ 804.

المحتويات

